الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية

وزارة التعليم العالي والبحث العلمي

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

قسنطينة

كلية الآداب والحضارة الإسلامية

قسم اللغة العربية

مصادر علم إعجاز القرآن التأسيسية

حتى نهاية القرن الخامس الهجري

أطروحة مقدمة لنيل درجة دكتوراه علوم

في اللغة العربية والدراسات القرآنية

من إعداد الطالب:

عبد المطلب بوغرارة

إشراف الأستاذ الدكتور:

رابح دوب.

الاسم واللقب	الرتبة	الجامعة الرئيسة	الصفة
			رئيسا
أ. د. رابح دوب	أستاذ	جامعة الأمير عبد القادر	مشرفا
			عضوا
			عضوا
			عضوا

السنة الجامعية: 1437 ه- 1438ه/ 2016- 2017م.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

بسم الله الرحمن الرحيم

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

شكـر وتـقـديـر

اللهم لك الحمد الحسن والثناء الجميل، لك الحمد حتى ترضى ولك الحمد إذا رضيت، ولك الحمد بعد الرضا، ﴿ رَبِّ أَوۡزِعۡنِيٓ أَنۡ أَشۡكُرَ نِعۡمَتَكَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَيَّ وَأَنۡ أَعۡمَلَ صَٰلِحٗا تَرۡضَىٰهُ وَأَدۡخِلۡنِي بِرَحۡمَتِكَ فِي عِبَادِكَ ٱلصَّٰلِحِينَ ١٩ ﴾ النمل: ١٩.

و عملا بحديث نبينا ^، وهو قوله:« لا يشكر الله من لا يشكر الناس »، فإنني أتقدم بشكري الجزيل إلى فضيلة شيخي وأستاذي القدير الأستاذ الدكتور: رابح دوب؛ الذي تمت لي التلمذة على يديه في الأطوار الجامعية الثالثة، فتمت له أبوة الدراسة الأكاديمية كاملة غير منقوصة، فأسأل الله أن يجعله هاديا مهديا ،وأن يجزيه عني خير الجزاء وأعظمه.

وأشكر أيضا إدارة وعمال جامعة الأمير عبد القادر الإسلامية بقسنطينة الغرّاء، بدءا بالقائم عليها إدارة وتسيرا، إلى المنشغل فيها حراسة وتنظيفا، ولا ضير ان وأخصَّ كلية اللغة والحضارة الإسلامية، وقسم اللغة العربيّة، بمزيد الشكر والثناء، فهي الدار أنعم بها وأكرم.

وشكرٌ آخر مخصوصٌ به اللجنة المنتدبة لمناقشة هذه الرسالة، شكرا على قراءهم وتقويمهم وتصويبهم.

والشكر بعد ذلك موصول إلى جميع من أعانني على إنجاز هذا البحث من الأساتذة الكرام والزملاء الأفاضل والأقارب والأحباب، الذين شجعوني على إتمام الرسالة وتقديمها للمناقشة.

والله أسأل أن يجعل ذلك في ميزان حسنات الجميع –آمين–.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

بسم الله الرحمن الرحيم

إنَّ الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلن تجد له وليا مرشدا، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، أنزل القرآن العظيم، فتحدى به العالمين، وأشهد أن محمدا عبد الله ورسوله أكرمه ربه بالقرآن الكريم فكان آية نبوته وأعظم بها من آية فاقت كل آيات الأنبياء صلى الله عليهم وسلم، وعلى أصحابه الغر الميامين، وعلى من تبعهم بإحسان إلى يوم الدين، وبعد :

فإنَّ القرآن الكريم كلامُ الله الذي ﴿ لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴿٤٢﴾ ﴾ فصلت: ٤٢، لما أنزله الله على هذه الأمة وشرَّفها به، ما فتِئَت تعتني به؛ تحفظ ألفاظَهُ فتقيمها على النحو الذي انتهى إليها فتؤديه بحركاته وسكناته، وتتدبَّر معانيه فتُحْكِمُهَا فلا تغيرها ولا تحرُّفها عن مواضعها، ولا من بعد مواضعها، وتبحث في علومه فتُحررها تحريرا يليق بعظمته.

وإنَّ من علوم القرآن التي اعتنت الأمَّةُ بالبحث فيها وتحرير مسائلها؛ علم "إعجاز القرآن الكريم"؛ ذلكم العلم الذي أسْهَمَ في ميلاده وظهوره علومٌ كثيرةٌ، امتزجت مسائلها تختصم تارة وتلتئم أخرى، حتى تمخَّضت لتضع وليدها الأغرَّ: "إعجاز القرآن الكريم".

ومن هنا حيث انتهيتُ، فإنَّ إعجاز القرآن؛ علْمٌ كانت مباحثُه مباحثاً متناثرةً في كتبٍ متفرقةٍ مختلفةٍ، ثم جمُعت ورُتِّبت ونُسِّقت لتكون تأصيلاً لعلمٍ قائمٍ بذاته يُضارع سائر العلوم، فانفرد باسمه أولاً ثم بموضوعاته ومسائله وخصائصه آخِراً، ولـمَّا رأيتُ أنَّ علمَ إعجاز القرآن الكريم وليدٌ ممزوجٌ من علومٍ سبقته كان لها الأثرُ البالغُ في نشأته أردتُ أن أُفرِد هذا البحث لأتقدم به لنيل درجة الدكتوراه تخصص "إعجاز القرآن والدراسات البيانية"، رجاءَ بيان مظانِّ إعجاز القرآن في كتب العلماء المختلفة، ولقد اخترت منها مجالاتٍ ثلاثةً، وهي على النحو الآتي: كتب دلائل النبوة وكتب علم الكلام وكتب البلاغة، ثم أبرز مباحث إعجاز القرآن من خلالها، لأجل أن أقف على مدى إسهام تلك العلوم في ظهور إعجاز القرآن كعلم مستقلٍ بموضوعاته ومسائله.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

أهمية الموضوع :

لا شك أن الخوض في رحاب القرآن الكريم و ما يتعلق به من علوم على جهة العُموم شيء عظيم؛ كيف إذا كان البحث في أجلِّ علومه قدراً وأشْكَلِها بحثاً ؛أعني بذلك علم إعجاز القرآن الكريم، الذي استمد جلالته من دلائل النبوة، وإشكاله من علم الكلام، وجماله من البلاغة العربية ، وإنّ أهمية هذا البحث تظهر لي من حيثيات عدة منها:

- أولا: أهمية علم إعجاز القرآن الكريم.
- ثانيا: ضرورة بيان دور بعض العلوم في ظهور إعجاز القرآن كعلم قائم بذاته.
- ثالثا: تحرير مباحث إعجاز القرآن من خلال كتب العلماء، ثم إظهار أكثر العلوم تأثيرا في نشأة علم إعجاز القرآن الكريم، والوقوف على مدى إسهامها في مباحثه
- رابعا: الحاجة العلمية إلى تأصيل درس إعجاز القرآن، والعمل على تحقيق بعض المسائل المشكلة فيه، من مثل بيان حقيقة الإعجاز في القرآن الكريم، والوجه المرضي في ذلك.

عنوان البحث:

"مصادر علم إعجاز القرآن التأسيسية حتى نهاية القرن الخامس الهجري "

تحديد المصطلحات:

إعجاز القرآن: والمراد به العلم الذي انبثق من علم الكلام وعلم البلاغة العربية، والذي يبحث في وجه كون القرآن الكريم آية من آيات النبي ﷺ، ويكشف صدق نبوة النبي عليه السلام.

كتب العلماء: المراد بها على وجه التحديد: كتب دلائل النبوة، وكتب علم الكلام، وكتب البلاغة، ، وهذه هي الكتب التي تُعدُّ مظانا لعلم إعجاز القرآن، ونواة مهمة في نشأته، ومن ثم استقلاله ليكون علما مثلها يضارعها.

إشكالية البحث:

إن الناظر في كثيرٍ من فنون العلم، ليجد بينها تلاحماً كبيراً وترابطاً شديدا، فهي يأخذُ بعضها من بعض، حتى إنَّا نجدُ أحيانا مباحث مستقلة في علم من العلوم قد تكررت في علم آخر نفسُها؛ صحيحٌ قد يكون هناك بعض التغاير في الاعتبارات في تناول المسائل المتكررة، ولكن مهما يكن من شيء فإننا نجد تداخلاً لا يُنكر، وتلاحما لا يُكفر، نجد ذلك مثلا في علم الأصول مع اللُّغة، وعلم البلاغة مع النحو، وعلم المنطق مع النحو والأصول والبلاغة، وشيء كثير من هذا الباب لا يمكن حصره، ولا عدُّه.

وإن علم إعجاز القرآن الكريم بدوره لم تخطِئْهُ هذه الخصيصة، فهو لا أقول يداخل علماً أو علمين، بل أكثر من ذلك، وكيف لا يكون ذلك كذلك وبعض فنون العلم، كانت السبب الرئيس في إنشاء مباحثه، وتشكل مسائله، ليصير علما قائما بنفسه.

وعند اختياري لهذا العنوان، وجدتُني أساق إلى إشكاليات متنوعة، أسعى في العناية بالكشف عنها في ثنايا فصول هذه الرسالة ومباحثها، ولعل أبرز تلك الإشكالات:

ما هي المصادر الأساسية التي ساهمت في نشأة علم إعجاز القرآن الكريم؟ ثم ما مدى دورها في تأسيس علم الإعجاز حتى صار علما مستقل الموضوعات والمسائل، فظهرت عناوين تحمل اسمه؟ وأيضا البحث عن تجليات وصور ذلك الدور التأسيسي كيف كانت حقائقها؟

ربما هذه هي الإشكالات الكبرى، وهي تحوي في طياتها إشكالات فرعية أخرى، كان أهمها:

– أين نجد مباحث إعجاز القرآن في غير كتب الإعجاز؟

– ما هي المباحث التي اشتركت فيها تلك الكتب في تقريرها وتحريرها، وفي المقابل ما هي المباحث التي انفردت بها بعض الكتب دون غيرها؟.

– ما هي الكتب التي كانت أكثر تدقيقا، وأدخل في تأصيل مباحث إعجاز القرآن؟

– ما هي العلوم الأسبق إلى التنويه بقضية إعجاز القرآن؟....

في إشكالات كثيرة بعضها قد لاح ليَ الآن، وأكثرها، ستثيره لا شكَّ مباحث هذه الدراسة، التي تحملها في غضونها، وتطويها في طيَّاتها، ولا يمكن استقصاء كل ذلك الآن.

أسباب اختيار الموضوع:

لقد كان لاختيار هذا البحث أسباب متنوعة بعضها علمي موضوعي، وبعضها الآخر ذاتي شخصي، واذكر منها:

أما الأسباب العلمية الموضوعية فهي:

– الرغبة في التوصل إلى شيء من التحقيق والتأصيل لمسألة الإعجاز في القرآن الكريم .

– محاولة إظهار مساهمة كتب العلماء في إظهار علم إعجاز القرآن كعلم مستقل.

– إنجاز دراسة هامة حول بيان تداخل العلوم وكيف يتولد ويتداخل بعضها في بعض، بتطبيق ذلك على إعجاز القرآن مع غيره من العلوم التي أنشأت أو أثْرَت مباحثه، لتكون هذه الدراسة من النماذج التي تُظهر مدى ارتباط العلوم ببعضها، واشتراكها في عديد من المباحث المتداخلة.

وأما الأسباب الشخصية فمنها:

– محبة الخوض في البحث العلمي .

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

- الرغبة في أن تكون رسالتي متصلة بالقرآن الكريم رجاء النيل من بركته وبركة، قول النبي ﷺ :"خيركم من تعلم القرآن وعلمه" .

أهداف الموضوع :

أهدف من خلال هذه الدراسة إلى الوقوف على قضايا مهمة، وهي:

1- الكشف عن المظان المتنوعة لإعجاز القرآن الكريم في كتب العلماء على اختلاف مجالاتها.

2- إظهار المباحث المشتركة بين تلك الكتب، والمباحث التي انفردت بها بعض الكتب دون غيرها، مع بيان الفروق بين تناول تلك الكتب لدرس الإعجاز، وإظهار التفاوت بينها من جهة كثرة المباحث من قلتها، وموضع التحقيق مسائل الإعجاز فيها من عدم ذلك.

3- الرغبة في الإعانة على التأصيل لدرس الإعجاز وإحكام مباحثه ذات التشعب الكبير، وما اكتنفه من جراء ذلك من الغموض في قضايا أشهرها مصطلح إعجاز القرآن، وقضية بيان وجوه إعجاز القرآن الكريم، التي كان بها معجزاً.

الدراسات السابقة :

بعد جهدٍ قمتُ به في محاولة معرفة الدراسات التي كتبت حول إعجاز القرآن عموما، وإعجاز القرآن في بعض الكتب الخاصة بعلم ما، وجدتُ أن موضوع تحديد علم إعجاز القرآن من خلال كتب علم ما من الندرة بمكان، أما في كتب الإعجاز العامة، فإنه ربما تكون بعضها قد أشار إلى ذلك إشارة عارضة غير مقصودة لذاتها، الأمر الذي جلب لي رغبة وإلحاحا في لزوم بحث هذه القضية المهمة فيما أحسب، ومن أبرز الدراسات التي وقفت عليها:

01- **مباحث الإعجاز البلاغي للقرآن الكريم في كتب دلائل النبوة حتى نهاية القرن الخامس الهجري – دراسة وتقويما–** رسالة ماجستير بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، كلية اللغة العربية من إعداد الباحث: منصور بن عمر بن محمد السحيباني، تحت إشراف الأستاذ الدكتور: محمد بن علي بن محمد الصامل، وهذه الدراسة دراسةٌ جادّةٌ، إلا أنها اقتصرت على القضايا البلاغية من جهة، ومن جهةٍ أخرى كان مجالها كتب دلائل النبوة دون غيرها، ولذلك فإن الدراسة التي سأقدمها بحول الله ﷻ شاملةٌ لقضايا الإعجاز، ولا أقتصر فيها على كتب الدلائل، بل أضفت لها كتب علم الكلام، وكتب البلاغة، والتي في ظنّي هي أشدُّ أهميةً من كتب الدلائل من وجوهٍ عدّة، ستظهر من خلال الدراسة.

02- **قضية الإعجاز القرآني وأثرها في تدوين البلاغة العربية**، تأليف الدكتور: عبد العزيز عبد المعطي عرفة، رسالة تقدم بها صاحبها لنيل درجة الدكتوراه، وهي عبارة عن دراسة معاكسة لدراستي، إذْ أنها عَنِيَتْ بإيضاحِ قضية أثر إعجاز القرآن في البلاغة العربية التي كانت أهم وجوه الإعجاز القرآني، وبيّن صاحبها جهود العلماء عبر القرون ابتداء من أبي عبيدة، إلى أن انتهى بالجرجاني والزمخشري، وأما دراستي فهي عن أثر كتب البلاغة في إثراء الدرس في إعجاز القرآن وتأسيس مباحثه، فدراستي كما أشرتُ تأتي مقابلة لدراسة الدكتور عبد العزيز، وهذا من التكامل العلمي، فالعلوم لم تزلْ ولا تزالُ متأثرةً ومؤثرة بعضُها في بعضٍ.

03- **جهود علماء الغرب الإسلامي في دراسة الإعجاز القرآني (من القرن الخامس إلى القرن الثامن)**، رسالة دكتوراه من إعداد: حسن مسعود الطوير، وهي دراسة هامة رصد فيها الباحث مظان درس إعجاز القرآن مقسما لها إلى ثلاثة أقسام:

مصادر رئيسية، ومصادر ثانوية، ومصادر حديثة، ثم قسم ذلك على حسب العلوم، فجعل الباب الأول لعلماء العقيدة، ثم المفسرون، ثم علماء السيرة، وقد استفدت كثيراً من هذه الدراسة، إلا أن هذه الدراسة كانت مخصصة الزمان والمكان، فالزمان محصورٌ بين القرنين الخامس والثامن الهجريين، وأما المكان فخاصٌ بإقليم المغرب، وأما دراستي فتبتدئ من المحاولات الأولى التي أسست للدرس، وهي من جهة المكان عامة في كل أقاليم الإسلام.

04- **تاريخ علوم القرآن حتى نهاية القرن الخامس**، رسالة ماجستير من إعداد الطالب: أحسم محمد أشرف الدين، وقد قام الطالب في رسالته بالتأريخ لعلم " علوم القرآن"، وكيف ظهرت مباحث متفرقة ثم تلاحمت لتكتمل في القرن الخامس، وقد اعتنى الباحث بمواضيع علم علوم القرآن والتي منها "إعجاز القرآن"، وعلى نحو ما فعل الباحث نسجت فيما يتعلق بإعجاز القرآن الكريم، فإن تواريخ ونشأة العلوم فيها وجوه تشابه كبيرة سيما علوم القرآن الكريم.

05- ومن الدراسات المقاربة أيضا، كتاب "**فكرة إعجاز القرآن من البعثة النبوية إلى عصرنا الحاضر**" فيه حديث عن نشأة إعجاز القرآن، وقد حصر حديثه في جماعات أربع: جماعة المعتزلة والمتكلمين والمفسرين والأدباء، وعرض لإسهاماتهم عبر القرون بدءً بما كان من بعد عصر النبوة، إلى ما كان في العصر الحديث، وذكر أشهر من تكلم في قضية إعجاز القرآن، مع الوقوف عند كل شخصية يذكرها في أهم ما ذكرته في درس إعجاز القرآن، وهو لاشكَّ عمل عظيم، وبخاصة أنه استغرق العصور كلها، غير أنه ترك أعلاما في الإعجاز مهمين، وعلى رأسهم عبد الجبار المعتزلي الذي له كتبٌ كثيرة تناول فيها درس الإعجاز، وبخاصة جمهرته " المغني"، التي خصص جزئها السادس عشر

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

في قضية إعجاز القرآن، فإنه لم يأت له على ذكر، وإلغاء مثل هذا الجهد سيكون له بعض الأثر في قصور الدراسة، زد على ذلك أن الدكتور كانت تعتريه بعض العجلة عند الوقوف على بعض الأعلام الذين لهم أثرٌ بالغٌ في درس إعجاز القرآن الكريم.

المنهج المتبع:

إن طبيعة هذا البحث تقتضي أن تقوم دراسته على مناهج علمية مختلفة، وذلك بحسب ما تضمنه من عناصر ومباحث مختلفة، فأجدني:

أولا أحتاج إلى **المنهج الاستقرائي** لأنني سأستقرأ مؤلفات العلماء في كل علم من العلوم المذكورة إلى غاية القرن الخامس الهجري، وأتتبع من خلالها مباحث إعجاز القرآن، ومواضعه من كل علم.

كما أنه لا بد لي من **المنهج التحليلي**، لتحليل المادة العلمية المجتمعة من كل صنف من أصناف العلوم المذكورة، ثم أقوم بتوزيع ما اجتمع على مباحث علم الإعجاز خاصة.

ولما كان البحث متعلقاً بعلوم مختلفة، كان من اللزام أن يستعان بالمنهج المقارن، وذلك لأجل عقد المقارنة بين مباحث الإعجاز المتعلقة بكل علمٍ من العلوم وبيان مدى أصالته وأثره على مباحث علم الإعجاز.

هذا بخصوص المناهج العلمية العامة التي استعنت بها لكتابة هذا البحث، وأمَّا بالنسبة للمنهج التفصيلي الخاص بالهوامش وعزو الآيات القرآنية وتخريج الأحاديث النبوية وترجمة الأعلام وغيرها، فقد نحوت النحو الآتـي:

أ- ما يتعلق بالهوامش: اتبعت في كتابتها الطريقة الآتية:

1- أذكر كل المعلومات المتعلقة بالكتاب الذي أقتبس منه في أول مناسبة في البحث، ثم لا أعيد ذكر المعلومات في الإحالات الأخرى، بل أكتفي بذكر العنوان، وصاحب الكتاب من غير زيادة، مع ذكر الجزء إن وجد والصفحة التي اقتبست منها المعلومة.

2- أرتب معلومات المصادر والمراجع على النحو الآتي:

أذكر أولا اسم الكتاب ثم مؤلفه ثم محققه إن وُجد ثم دار النشر ثم مكان النشر، ثم رقم الطبعة ثم سنة طبعه.

3- ما يتعلق بالآيات القرآنية: اتبعت المنهج الآتي:

أ- أكتب الآيات القرآنية برواية الإمام حفص عن عاصم.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

ب- أخرِّج الآيات القرآنية في متن الرسالة بعد الآية مباشرة، وذلك بذكر اسم السورة ثم رقم الآية، لغرض أن لا تكثر الهوامش.

3- ما يتعلق بالأحاديث النبوية والآثار: اتبعت المنهج الآتي:

أخرج الأحاديث النبوية التي أذكرها في متن البحث، فإن كان الحديث في الصحيحين أو أحدهما اكتفيت بذلك عن غيرهما، فإن خارج الصحيحين فأقدم السنن الأربعة (أبو داود – الترمذي – النسائي – ابن ماجه)، فإن لم يوجد فيها رجعت إلى مظان الأحاديث الأخرى من السنن والمسانيد والجوامع والأجزاء الحديثية.

4- ما يتعلق بتراجم الأعلام: فقد اتبعت المنهج الآتي:

أ- لا أترجم في الغالب إلاَّ للأعلام الذين تدعو الحاجة إلى الترجمة لهم.

ب- ترجمة العَلَمِ تكون في المرة الأولى التي يرد فيها من البحث دون غيرها.

هذه هي أهمُّ النقاط التي أردت بيانها في وصف المنهج المتبع في كتابة هذا البحث.

خطة البحث:

عنوان هذا البحث والأهداف التي سطرت لأجله تستلزم أن يُقسَّم إلى خطة بيانها كالآتي:

مقدمة، وفصل تمهيدي، وثلاثة فصول رئيسة وخاتمة. هذا على سبيل الإجمال، وأما على سبيل التفصيل فهي على النحو الآتي:

أما مقدمة: فقد ضمنتها العناصر الأساسية للمقدمة وهي: أهمية البحث وإشكاليته وأهدافه وأسباب اختياره و الدراسات السابقة والمنهج المتبع في كتابة البحث وبيان خطته .

الفصل الأول: مداخل تأصيلية في علم إعجاز القرآن الكريم، وقد ضمنته أربعة مباحث، وهي: المبحث الأول: مدخل في تاريخ الإعجاز، المبحث الثاني: مدخل في مصطلح الإعجاز، المبحث الثالث: مدخل في وجوه الإعجاز في القرآن الكريم، المبحث الرابع: الإعجاز في ضوء حديث " ما من الأنبياء إلا وأوتي من الآيات".

الفصل الثاني: إعجاز القرآن في كتب دلائل النبوة، وفيه أدرجتُ ثلاثة مباحث، وهي: المبحث الأول: مدخلٌ في التعريف بكتب دلائل النبوة، المبحث الثاني: درس إعجاز القرآن الكريم في كتب دلائل النبوة، المبحث الثالث: تقويم درس إعجاز القرآن من خلال كتب دلائل النبوة،

الفصل الثالث: إعجاز القرآن في كتب علم الكلام، وفيه ثلاثة مباحث: المبحث الأول: مدخلٌ في التعريف بكتب علم الكلام، المبحث الثاني: درس إعجاز القرآن الكريم في كتب علم الكلام، المبحث الثالث: تقييم درس إعجاز القرآن من خلال كتب علم الكلام.

الفصل الرابع: إعجاز القرآن في كتب البلاغة، وفيه ثلاثة مباحث أيضا على النحو السابق، وهي: المبحث الأول: تاريخ موجز للبلاغة العربية، المبحث الثاني: درس إعجاز القرآن الكريم في كتب البلاغة، المبحث الثالث: تقييم درس إعجاز القرآن من خلال كتب البلاغة.

الخاتمة: وقد ضمنتها أهم نتائج البحث وبعض التوصيات للباحثين.

صعوبات البحث:

لا يخلو بحثٌ من صعوباتٍ تعتريه، تكون شخصية تارة، وأخرى تكون علمية،

فأمّا الشخصية: فمن أهمها ذلك الانقطاع الذي يقع للباحث عن البيئة العلمية، التي يستمد منها التحفيز، والتعاون من إخوانه الباحثين، فإن الانقطاع عن مثل تلك الأجواء يخلف العجز والتواني عما يحتاجه البحث من جد، وتواصل، ضفْ إلى ذلك بعض القواطع العائلية التي لا يخلو منها باحث، فإنها في بعض الأحيان، تتسبب تسببا بالغا في قطع الباحث عن البحث.

وأما عن الصعوبات العلمية فكثيرةٌ، أهمها:

1- قلة الباع العلمي من جهة، وقلة التمرس على البحث العلمي من جهة أخرى، وتجربة البحث في مرحلة الماجستير غير كافية لتأهيل الباحث تأهيلا كافيا، بل ربما حتى مرحلة الدكتوراه، لا تكون كفيلة بذلك.

2- ومن الصعوبات التي وجدتها في بحثي هذا ذلك التشعب، إذْ وجدتُ نفسي في كلِّ فصْلٍ من فُصُول البحث أنتقل من مجال علمي إلى مجال آخر، مختلف في مصادره ومصطلحاته، حتى تخيّل إليَّ أنني أنجز أربعة رسائل في رسالة واحدة، وهذا ما تطلب مني كثيرا من القراءة في المصادر والمراجع، و لقد أخذ ذلك مني جزءا لا بأس به من الزمن.

3- ثم طبيعة البحث في إعجاز القرآن، لها ما يكتنفها من الصعوبة والغموض في أشهر المباحث، كالمصطلح ووجوه الإعجاز، وخلفيات علماء الإعجاز العقدية، التي تعدُّ الباعث الأول لهم في الكتابة وخاصة مسألة كلام الله ﷻ التي تباينت في الآراء وتشعبت، وإعجاز القرآن إنما مرده إلى مسألة الكلام نفسها، لذلك فإن الأشعريَّ والمعتزليَّ والسُّنِيَّ كلهم يجنح في دراسته إلى ما يعتقده في كلام الله سبحانه وتعالى.

وفي الختام أحمد الله وأثني عليه الثناء الحسن الذي هو أهلُه أن وفقني إلى إعداد هذا الباحث وإتمامه، كما أوجهُ شكري الجزيل إلى شيخي وأستاذي الأستاذ الدكتور بحقٍ: رابح دوب الذي أكرمني الله بصحبته في مراحل الدراسة الجامعية في أطوارها الثلاثة (اللسانس – الماجستير – ثم في الدكتوراه)،

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

فتمت له الأبوة العلمية كاملة غير ناقصة، أكرمْ به وأنعمْ من أستاذ، فقد وجّه وأرشد وسدد، أسأل الله ﷻ أن يبارك في علمه وعمله وعُمُره وولده وصحّته، وأن يجعله هاديا مهديا.

كما لا يفوتني أن أسوق تشكراتي المتتابعة إلى إدارة جامعة الأمير عبد القادر الإسلامية، ممثلة برئيس الجامعة، وسائر طاقمه الإداري، من نواب وعمداء، ورؤساء أقسام، وبخاصة كلية الآداب والحضارة الإسلامية-قسم اللغة العربية-، التي اعترف لها بالفضل من ليس منها، فكيف بمن نشأ فيها وترعرع، و كما لا يفوتني أن أشكر أيضا أساتذتي الأفاضل الأكارم: أعضاء لجنة المناقشة على ما بذلوه من جهد قراءة البحث، ورصد الملاحظات والتصويبات، التي أسأل الله أن ينفعني بها، وأن يجعلها في ميزان حسناتهم.

هذا ولست أدعي السلامة من الخلل ولا العصمة من الزلل وأعترف بالتقصير وأسأل من ينظر في رسالتي هذه بسط عذري والصفح عما سيجده من نقص بها أو تجاوزٍ وأن يتغمده بكرمه وإنصافه، فقد أبى الله أن يكمُل إلا كتابه الكريم.

تم بحمد الله

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

علم إعجاز القرآن الكريم من العلوم التي تأخّر انفصالها عن جملة من العلوم الأخرى التي ساهمت في تأسيس مباحثه ومواضيعه، تلك التي كانت مُدرجةً في ثنايا قضاياها، وهذا الفصل هو كالتمهيد للرسالة، وفيه الوقوف مع قضايا مهمة في علم إعجاز القرآن الكريم، جعلتها مداخل لعلم إعجاز القرآن الكريم، وهي على النحو الآتي:

المبحث الأول: مدخلٌ في تاريخ إعجاز

المبحث الثاني: المبحث الثاني: مدخل في مصطلح الإعجاز

المبحث الثالث: مدخل في وجوه الإعجاز في القرآن الكريم

المبحث الرابع: الإعجاز في ضوء حديث:" مَا مِنَ الأَنْبِيَاءِ نَبِيٌّ إِلَّا أُعْطِيَ مَا مِثْلُهُ آمَنَ عَلَيْهِ البَشَرُ..."

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

المبحث الأول: مدخلٌ في تاريخ إعجاز القرآن الكريم

من الأشياء التي لا ينبغي للباحث الاستهانة بها مسألة التأريخ للعلوم، متى نشأت؟ وكيف نشأت؟، إذ المعرفة بذلك تفيد حقائق مهمة لا ينبغي إهمالها في البحث العلمي، بل الإخلال بذلك مظنّةٌ كبرى للعطب العلمي، وفوات التحقق بذلك يفضي نقصًا في العلم، وخللاً في إدراك مفاهيمه وماهيته، الأمر الذي لا يرضاه لنفسه من كان جاداً في طلب العلم، ومتحققاً به.

والحديث عن تاريخ إعجاز القرآن الكريم **ينبغي أن يُبتدأُ به من الزمن الذي نزل فيه القرآن على العرب** أين وقعت هنالك مقدمات ووقائع دالةٌ على وقوع التحدي بالقرآن للعرب الذين نزل فيهم، وقد أدركوا من أنفسهم – إنصافاً منهم– أنه لا يَدانِ لهم بمعارضة القرآن وذلك ما جعلهم يلجؤون إلى سُبُلٍ أخرى كالسُّخرية وصدِّ النَّاس عن سماع القرآن واتهام الذي جاء به بالسحر والكهانة وبالجنون، أو أنه إنما تلقاه من أهل الكتاب ونحو ذلك من التُّهم التي افتروْهَا على النبي ﷺ، حتى اختاروا بعد ذلك القتل والقتال على الإتيان بمثل القرآن الذي جاءهم على وَفق ما يعرفون من لسانهم العربي المبين.

وعلى كلٍّ فهذه حقيقة تاريخية لا يمكن تناسيها في تاريخ إعجاز القرآن، بل لابد من الإشارة إليها في مسيرة الإعجاز القرآني، إلا أنه سنتجاوزها إلى الحديث عن تاريخ ظهور مباحث علم الإعجاز في تراث الأمة، وسأختار للحديث عن ذلك سبعة أعلام من مدارس مختلفة، كان لهم أثرٌ في درس إعجاز القرآن، وذلك من خلال هذين المطلبين:

المطلب الأول: البدايات الأولى لعلم إعجاز القرآن الكريم.

المطلب الثاني: التأصيلات الفعلية لعلم إعجاز القرآن الكريم

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

المطلب الأول: البدايات الأولى لعلم إعجاز القرآن الكريم.

لم يزل حدثُ تزول القرآن الكريم، حدثا بالغ الأثر في البشرية جمعاء، سواءً في ذلك المؤمن به والكافر به، فالكلُّ مُعْنىً بالقرآن الكريم، الكافر بالتشكيك في والتنفير عنه، والمؤمن بالتصديق به والذبِّ عنه، وكانت الطريق التي اختارها هؤلاء المؤمنون، البحث عن الوجه الذي كان به القرآن معجزا للخلق، وقد حاول ذلك جمعٌ من الأعلام، منهم:

الفرع الأول: النظَّام أبو اسحاق ابراهيم بن سيّار:

أمَّا عن تاريخ الكتابة في ذلك والقصد إلى تدوين شيء يتعلق بإعجاز القرآن، فإن حديث الإعجاز، يذكر الباحثون أن قصب السبق قد حازته المعتزلة، وبخاصة ما كان من مُقدَّمهم ورأس الاعتزال في زمانه أبي إسحاق النظَّام(1)، لما تكلم بالصَّرفة في إعجاز القرآن الكريم.

ومع أنه ليس للنّظام من الآثار الباقية التي تظهر للباحثين صريحَ رأيّه في القرآن الكريم، إلا أنه استفاض عنه خوضه في مسألة إعجاز القرآن، فقد نقل الفخر الرازي عنه قوله: « إنَّ الله تعالى ما أنزل القرآن ليكون حجّة على النبوة، بل هو كسائر الكتب المنزلة لبيان الأحكام الحلال والحرام، والعرب إنما لم يعارضوه لأن الله تعالى صرفهم عن ذلك سلب علومهم به»(2)

يقول عبد الكريم الخطيب: « وكان النظَّام، وهو رأس المعتزلة، وعمدة المتكلمين؛ **أولُ** من قال في إعجاز القرآن، وجعل من هذا الإعجاز أمرًا يتعلق بالعقيدة، فقال: " إن العرب لم

---

(1) – إبراهيم بن سيّار بن هانئ البصري، أبو إسحاق النظّام: من أئمة المعتزلة، تبحر في علوم الفلسفة واطَّلع على أكثر ما كتبه رجالها من طبيعيين وإلهيين، وانفرد بآراء خاصة تابعته فيها فرقة من المعتزلة سميت "النظامية" نسبة إليه. وبين هذه الفرقة وغيرها مناقشات طويلة، توفي عام 230هـ، ترجمته في: تاريخ الإسلام وَوَفيات المشاهير وَالأعلام، المؤلف: شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان بن قَايْماز الذهبي، المحقق: الدكتور بشار عوّاد معروف، الناشر: دار الغرب الإسلامي، بيروت /لبنان، الطبعة: الأولى، 2003 م، (ج5/ ص: 736)، ولسان الميزان، لابن حجر العسقلاني، المحقق: عبد الفتاح أبو غدة، الناشر: دار البشائر الإسلامية، الطبعة: الأولى، 2002 م، (ج1/ص 295).

(2) – نهاية الإيجاز ي علم الإعجاز، لفخر الدين محمد بن عمر بن الحسين الرازي، حققه الدكتور: نصر الله حاجي مفتي أوغلى، الناشر: دار صادر، بيروت – لبنان، الطبعة الأولى: 1424 هـ - 2004م، (ص: 26).

يعجزوا عن معارضة الله ﷻ، وإنما صرفهم الله عن تلك المعارضة"، ومنذ ظهر هذا الرأي الذي نادى به النظام، وأنظار العلماء متجهةٌ إلى البحث في إعجاز القرآن، وإقامة الأدلة لهذا الإعجاز»(1).

فهذا يدلُّ على أن الذي استفزَّ الناس للكتابة في ما يخصُّ إعجاز القرآن، هو النَّظام الذي جاء بهذا الرأي المبتكر، ألا وهو القول بالصرفة(2)، وبغضِّ النظر عن صحته من خطئه، من جهة، وأحقية نسبة ذلك إليه من جهة أخرى من عدم ذلك من جهة أخرى، فالمهم أنه كان منه السبق إلى الموضوع المختصِّ بإعجاز القرآن، والبحث في إظهار وجوه إعجازه، بالحديث عن وجهٍ من وجوه إعجاز القرآن قد رضيهُ لنفسه وللقرآن الكريم، وإن لم يرضهُ أكثر من جاء بعده من المعتزلة وغير المعتزلة.

وما عدا قضيَّة الصّرفة التي ارتبط ذكرها بالنظَّام، فلا يجد الباحث ما يمكن أن يضيفه إلى النظَّام من أشياء في درس إعجاز القرآن، إلا أننا نجد الرافعي في كتابه إعجاز القرآن والبلاغة النبوية، يضيف إلى النظام قولا آخر يُنسب إليه، فيقول: « وهذا الذي يروون عنه أحد شطرين من رأيه، أما الشطر الآخر فهو الإعجاز إنما كان من حيث الإخبار عن الأمور الماضية والآتية»(3).

وهذا أمرٌ محتملٌ، لأنه قد وُجد في العلماء من جمع بين الصّرفة وغيرها من وجوه الإعجاز كالرماني ويحي العلوي، وغيرهم، ولكنه لم يذكره غير الرافعي، وهو متأخر، لذلك أجد في نفسي شيئاً من نسبة هذا الرأي للنظام، وإلا لوجدنا من ينسب ذلك له غير الرافعي.

---

(1) –الإعجاز في دراسات السابقين دراسة كاشفة لخصائص البلاغة العربية ومعاييرها، عبد الكريم الخطيب، الطبعة الأولى: 1974، دار الفكر العربي.، (ص181).

(2) – وسيأتي الحديث عن الصرفة في مطلبٍ مستقلٍ، من هذا الفصل، ينظر ، ص: 53.

(3) – إعجاز القرآن والبلاغة النبوية، مصطفى صادق الرافعي، دار الكتاب العربي بيروت لبنان.، طبعة 1425 هـ-2005 م، (ص: 101)

الفرع الثاني: الجاحظ أبو عثمان عمرو بن بحر:

لعلَّ أهم من جاء بعد النظام ممن تكلم في إعجاز القرآن الكريم؛ تلميذه الجاحظ[1]، وكتابات الجاحظ لا يخفى على باحثٍ قيمتُها العلمية، يقول عبد الكريم الخطيب: «والجاحظ كما نعرف، إمامٌ من أئمة البلاغة، وعَلَمٌ مفرد في أساليب البيان، وذوَّاقةٌ لم تعرف العربية مثيلاً له في التعرف على طعوم الكلام، واختلاف مذاقاته، وما تعرف اللغة العربية أديباً طاوعه قلمه فتحرك في كل اتجاه، وجال في كل حلبةٍ، ونازل في كلِّ ميدانٍ، مثل هذا القلم الذي اشتملت عليه يدُ الجاحظ»[2].

وكما أنه كان للنَّظام سبقٌ إلى الصرفة، فإن الجاحظ له سبقٌ إلى أشياء أخر: « فقد كان الجاحظ فيما نُرى أول من نظر هذه النظرة في كتاب الله – أي البحث عن وجوه الإعجاز ودلائله في القرآن–، وحاول أن يجعلها موضوعا من موضوعات رسائله وكتبه الكثيرة التي جال بها في كل مجال، واصطاد بها كل عجيب وغريب...

ولذلك كان من جاء بعد الجاحظ إنما يغترف من علمه، كما يقول عبد الكريم الخطيب: « ثم جاء بعد الجاحظ كثيرون، جَروْا على طريقته، وأخذوا مأخذه، وحاولُوا أن يكون لهم نظر خاصٌ إلى جانب رأيِّ الجَاحظ، ولكنَّهم كانوا دائماً يدورون حوله، ولا يجيئون – في الغالب – بجديدٍ عليه»[3].

ثمَّ الجاحظ كما يقول نُعيم الحمصي: « يعتقد بالإعجاز، ويذكر أن العرب على بلاغتهم عجزوا عن معارضة القرآن أيّامَ صاحب الرسالة ﷺ، ...ويذكر أن إدراك العرب لبلاغة القرآن

---

(1) – هو: عمرو بن بحر بن محبوب، أبو عثمان، الشهير بالجاحظ: كبير أئمة الأدب، ورئيس الفرقة **الجاحظية** من المعتزلة. مولده ووفاته في البصرة. فلج في آخر عمره. وكان مشوه الخلقة. ومات والكتاب على صدره. قتلته مجلدات من الكتب وقعت عليه. له تصانيف كثيرة أشهرها البيان والتبيين وكتاب الحيوان، توفي عام 250 هـ، وترجمته في: ، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد ابن خلكان، المحقق: إحسان عباس، الناشر: دار صادر – بيروت، (الطبعات الأولى كانت عام 1900م، وآخر الكتاب عام 1994م). (ج3/ص 470).،ويُنظر أيضا: تاريخ الإسلام (ت بشار) (ج5/ص 1193).

(2) – الإعجاز في دراسات السابقين، (ص: 164).

(3) – المصدر نفسه ، (ص: 149).

جمعية الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

العجزة وقصورهم عنها كان بالذوق والشعور النفسي الداخلي، وأن هذا القصور دالٌّ على الإعجاز»[1]

ولا يمكن أن نُورد كلَّ ما قام به الجاحظ في مجال الإعْجاز في هذا المقام ولكن لا بأس بذكر أهم جهوده التي كان لها بالغ الأثر في درس الإعجاز بعده.

لقد وقف الجاحظ على متعلق آية الرسول ﷺ وأنه العقل والفكر، دون سائر الحواس، مما جعل آية القرآن مباينة لآيات الأنبياء قبله، وذلك قوله: « إن محمداً ﷺ مخصوصٌ بعلامةٍ لها في العقل كموقع فلق البحر من العين، وذلك قوله لقريش خاصة، وللعرب عامة —مع ما فيها من الشعراء والخطباء والبلغاء، والدهاة والحلماء، وأصحاب الرأي والمكيدة، والتجارب، والنظر في العاقبة "إن عارضتموني بسورة واحدة فقد كذبت في دعواي، وصدقتم في تكذيبي"»[2].

وهذا مأخذٌ مهمٌّ في التفريق بين آية القرآن وسائر الآيات التي جاء بها النبيون عليهم السلام من ربهم عز وجل، وفي هذا المقام أو قريباً منه ذكر الجاحظ أنه بعد وقوع تلك المباينة من القرآن لسائر الآيات، فإنه جاء على وفاق ما كانت تأتي عليه آيات الأنبياء عليهم السلام في أقوامهم من كون الآية تأتي مناسبةً لما ظهر نبوغهم فيه من سحرٍ أو طبٍّ، أو بيانٍ كما كان من العرب، فإن «دهر محمد ﷺ كان أغلب الأمور وأحسنها عندهم، وأجلها في صدورهم حسن البيان، ونظم ضروب الكلام، مع علمهم له، وانفرادهم به، فحين استحكمت لغتهم، وشاعت البلاغة فيهم، وكثر شعراؤهم، وفاق الناسَ خطباؤُهم، بعثه الله عز وجل، فتحداهم بما كانوا لا يشكُّون أنهم يقدرون على أكثر منه، فلم يزل يقرِّعهم بعجزهم، وينقِّصُهم على نقْصهم حتى تبيَّن ذلك لضعفائهم وعوامهم، كما تبين لأقويائهم وخواصِّهم، وكان ذلك من أعْجب ما آتاه الله نبيًّا قطُّ، مع سائر ما جاء به من الآيات ومن ضُرُوبِ البُرْهانات»[3].

---

(1) – فكرة إعجاز القرآن من البعثة النبوية إلى عصرنا الحاضر، المؤلف: نعيم الحمصي، الناشر: مؤسسة الرسالة، بيروت / لبنان، الطبعة الثانية، عام: 1400 هـ/ 1980م.، (ص: 55)

(2) – رسائل الجاحظ، أبو عثمان الجاحظ، تحقيق عبد السلام هارون، مكتبة الجانجي، مصر، الطبعة الأولى:1399هـ/1979م،.رسالة حجج النبوة، (ج3/ ص: 273)

(3) – المرجع نفسه، (ج3/ ص: 279-280)

أمّا عن رأيِّ الجاحظ في وجوه الإعجاز التي كان القرآن معجزا بها فإنه قد حمله ذلك على أن يكتب كتاباً مفرداً ذكر فيه أن القرآن معجزٌ بنظمه الذي انفرد به؛ في صياغة أساليبه، صياغة تنتظم بها المعاني انتظام الروح في الجسد.

ورغم أن الكتاب مفقود من تراث الجاحظ، إلا أنه أشار إليه إشارةً ضمَّنها ما أودعه في الكتاب من آراء في كتابه حجج النبوة، لمَّا قال: « كتبت لك كتابا أجهدت فيه نفسي، بلغتُ منه أقصى ما يمكن مثلي، في الاحتجاج للقرآن، وللردِّ على كلِّ طعَّان، فلم أدع فيه مسألة لرافضيٍّ، ولا لحديثيٍّ ولا لحشويٍّ، ولمن نجم بعد النظام ممن يزعم أن القرآن حقٌ، وليس تأليفه بحجة، وأنَّه تنزيلٌ، وليس ببرهانٍ ولا دلالةٍ»(1).

ويرى بعض الباحثين أن قول الجاحظ بإعجاز القرآن بنظمه ليس قولاً صريحاً، وإنما يؤخذ ذلك استنتاجاً لا غير، وهذا عين ما اختاره عبد الكريم الخطيب في **كتابه الإعجاز في دراسات السَّابقين**، في قوله: « وإذا قد قلنا إن رأي الجاحظ، في وجه الإعجاز في القرآن، هو ذلك النَّظم الذي انفرد به القرآن في تصوير معانيه وإخراجها تلك الصورة العجيبة من النظم، فإن ذلك الرأي **لم يكن رأياً صريحاً للجاحظ**، وإنما كان عن طريق الاستدلال، والاستنتاج لمقولاته التي حملناها هذه المحاميل، وفهمناها على هذا الوجه من الفهم، وإلا فإنَّ الجاحظ لم يقل قولا صريحاً مواجها في الجهة أو الجهات التي جاء منها الإعجاز في القرآن»(2)، و يقول في موضع آخر: « هذا، والجاحظ إذ يرى وجه الإعجاز في النظم، لا يرى النظم نظما إلا إذا كان على شيء من السعة والامتداد، بحيث يحمل المعنى مؤلفا من حقائق مترابطة، يسند بعضها بعضا، فتشكل منها صورة سوية الخلق.

أما النَّظم الذي يقوم على جملة أو كلمة، أو كلمتين، فلا يدخل في هذا الباب، ولا يعدُّ نظماً ينكشف بهِ معدنُ الكلام، ويبيّن فضله»(3).

وأمَّا عن موقف الجاحظ من رأي شيخه النظام، فإن الناظر إلى تراث الرجل يجد شيئاً من الغموض في رأيه في هذه القضية؛ فتارةً يحاول أن يطلب للصَّرفة حجة ومعقولية، وذلك ما

(1) – رسائل الجاحظ ، (تحقيق: عبد السلام هارون)، رسالة خلق القرآن ، (ج3/ ص: 287)
(2)- الإعجاز في دراسات السابقين، لعبد الكريم الخطيب، (ص: 165).
(3)- المصدر نفسه، (ص: 172-173).

أشار إليه عبد الكريم الخطيب في دراسته قائلاً: « ولهذا أيضاً كان رأي الجاحظ في القول بالصَّرفة هو الذي جعل لرأي النظام، بعد هذا مكانا بين الآراء التي دارت حول إعجاز القرآن، ولولا هذا لما التفت الناس إلى رأي النظام هذا الالتفات، ولما عاش هذا الرأي في الناس، ينقضونه حينا ويقبلونه أحيانا.

وأمرٌ آخر، وهو أن الجاحظ إنما قال بالصَّرفة بعد أن أعياه الوقوع على الضوابط الدقيقة التي ينضبط بها وجه الإعجاز في القرآن، ويكشف عن أسرار هذا الإعجاز، فذلك أمرٌ إن أعجز الجاحظ فقد أعجز الإنس والجن جميعاً، فلو أن الإعجاز قد انكشف –وهيهات– لعرفه الناس، ومن ثمَّ لم يَعُد بعيداً عن متناول أيديهم، وكان في مستطاعهم أن يأتوا بمثل هذا القرآن، والله ﷻ يقول: ﴿قُل لَّئِنِ ٱجۡتَمَعَتِ ٱلۡإِنسُ وَٱلۡجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأۡتُواْ بِمِثۡلِ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ لَا يَأۡتُونَ بِمِثۡلِهِۦ وَلَوۡ كَانَ بَعۡضُهُمۡ لِبَعۡضٖ ظَهِيرٗا ٨٨﴾ [الإسراء: ٨٨]»[1].

وتارة أخرى يجد الباحثُ أنَّ الجاحظ لم يطاوع النَّظام في القول بالصَّرفة، بل أبى عليه بيانه وذوقه البلاغي أن يَرْكن بهذا الرأيِّ المأفون الذي يُذهبُ لازمُه كلَّ خصيصةٍ للقرآن الكريم، وذلك ما أورده في كتابه حجج النبوة، منوِّها بكتابه الذي وضعه في نظم القرآن، والذي جعل من مقاصده نقض رأيِّ النظَّام في القول بالصَّرْفة.

وهذا التباين المحفوظ عن الجاحظ جعل الدارسين لتراثه يتباينون بدورهم في إدانة الجاحظ برأيٍّ ما، يقول نعيم الحمصي: « وذكر للجاحظ قولان في إعجاز القرآن: القول بالصّرفة، والقول بإعجاز الأسلوب، فهل قال بالأوّل حين كان لا يزال متأثراً بآراء أُستاذه النظّام، وبالثاني حين استقلَّ بنفسه أو أنه جمع بين الرأيين معاً، لا ندري !»[2]

والَّذي يظهر من خلال هذا العرض أن الجاحظ مرَّ في مسألة الصَّرفة بمراحل، بدأتْ من التَّلقي عن الشيْخ، وانتهت إلى التحاكم إلى العقل والبلاغة والذوق، التي حكمت للجاحظ، بأن

(1)– الإعجاز في دراسات السابقين، لعبد الكريم الخطيب، (ص: 177).
(2) – فكرة إعجاز القرآن، لنُعيمٍ الحمصي، (ص: 56)

القول بالصرفة لا ينبغي القول به ولا الاحتفالُ به، بل ينبغي طرحُهُ أين ينبغي طرحهُ من الرَّفض والردِّ[1].

الفرع الثالث: أبو الحسن علي بن عيسى الرمانيُّ:

وأمَّا بعد الجاحظ، فأهمُّ الأعلام الذين كانت لكتابتهم إضافة في البلاغة وفي الإعجاز على حدٍّ سواءٍ، هو: أبو الحسن الرُّماني المعتزلي[2]، وهو من أعلام الاعتزال، ولا نشكُّ أن الرُّماني وجد في تراث المعتزلة حديثاً مستفيضاً عن إعجاز القرآن، ذلك ما حدا به أن يكتب له رأيًا في القضية، وهو ما دونه في رسالته: "النكت في إعجاز القرآن".

والرسالة تأخذ شكل جواب عن سؤال وجه للمؤلف عن ذكر النكت في إعجاز القرآن دون التطويل بالحجاج، وهذا الجواب يتخلص في أن وجوه الإعجاز تظهر في سبع جهات: ترك المعارضة مع توافر الدواعي وشدة الحاجة، والتحدي للكافة، ،الصرفة، والبلاغة، والأخبار الصادقة عن الأمور المستقبلة، ونقض العادة، وقياسه بكل معجز.

وقد وجه المؤلف همه من هذه الجهات السبع إلى البلاغة فيذكر أنها على ثلاث طبقات: منها ما هو في أعلى طبقة، ومنها ما هو في أدنى طبقة، وما هو في الوسائط بين أعلى طبقة

---

(1) – وإلى مثل هذا وصل الأستاذ محمود شاكر في مداخل إعجاز القرآن، يُنظر الكتاب، مداخل إعجاز القرآن، تأليف :أبو فهر محمود شاكر دار المدني بجدة، الطبعة الأولى 1423هـ /2002 م. (ص: 63-64).

(2) – هو: علي بن عيسى أبو الحسن الرماني: باحث معتزليٌّ مفسر. من كبار النحاة، أصله من سامراء، ومولده ووفاته ببغداد. له نحو مئة مصنف، منها الأكوان " و " المعلوم والمجهول " و " الأسماء والصفات " كتاب " التفسير " و " شرح أصول ابن السراج " و " شرح سيبويه "، و رسالة: " النكت في إعجاز القرآن"، توفي عام: 384هـ، ترجمته في: إنباه الرواة على أنباه النحاة، جمال الدين أبو الحسن علي بن يوسف القفطي، المحقق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار الفكر العربي - القاهرة، ومؤسسة الكتب الثقافية – بيروت، الطبعة: الأولى، 1406 هـ - 1982م. (ج2/ ص 294-297)، تاريخ العلماء النحويين من البصريين والكوفيين وغيرهم، أبو المحاسن المفضل بن محمد التنوخي ، تحقيق: الدكتور عبد الفتاح الحلو، الناشر: هجر للطباعة والنشر والتوزيع والإعلان، القاهرة، الطبعة: الثانية 1412هـ - 1992م.، (ص 30-31).

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

وأدنى طبقة، ثم بعدها جعل البلاغة محصورة في عشرة أقسام: الإيجاز، والتشبيه، والاستعارة، والتلاؤم، والفواصل، والتجانس، والتصريف، والتضمين، والمبالغة، وحسن البيان[1].

وقد أولى الرُّماني بلاغةَ القرآن عنايةً فائقة لكونه يراها واسطة العقد بين سائر الأوجه التي ذكرها من سبقه من العلماء، هذا الذي جعل بعض الباحثين يقول: « والملاحظ أن البلاغة كانت واسطة عقد هذه الأوجه، ولعلنا نستبين من هذا ما يلي:

أولا: عند قراءتنا لرسالة الرُّماني نرى أنها قد مُحّضت في معظم جوانبها لبيان هذا الوجه الرابع –البلاغة–، وجاء الحديث عن بقية الأوجه مقتضباً، وهذا دالٌّ على أنّ الغاية الحقيقية التي اتجهت إليها الرسالة هو وجه إعجاز القرآن البلاغي بالدرجة الأولى.

ثانيا: يؤكد ذلك أنّ معظم الوجوه الأخرى إنما هي وجوه تعود إلى هذا الوجه البلاغي»[2].

ومن القضايا المهمّة عند الرماني في مسألة إعجاز القرآن، قضية نقض العادة، فإنه يقول عنها: « وَأَمَّا نَقْضُ الْعَادَةِ فإِنَّ الْعَادَةَ كَانَتْ جَارِيَةً بِضُرُوبٍ مِنْ أَنْوَاعِ الْكَلَامِ مَعْرُوفَةٍ: مِنْهَا الشِّعْرُ وَمِنْهَا السَّجْعُ وَمِنْهَا الْخُطَبُ وَمِنْهَا الرَّسَائِلُ وَمِنْهَا الْمَنْثُورُ الَّذِي يَدُورُ بَيْنَ النَّاسِ فِي الْحَدِيثِ فَأَتَى الْقُرْآنُ بِطَرِيقَةٍ مُفْرَدَةٍ خَارِجَةٍ عَنِ الْعَادَةِ لَهَا مَنْزِلَةٌ فِي الْحُسْنِ تَفُوقُ بِهِ كل طريقةٍ، ولولاَ أنّض الوزنَ يحسِّنُ الشّعر لنقصت منزلته في الحُسْنِ نقصاناً عظيماً»[3]، فهذه الطريقة التي جاء بها القرآن مباينة لسائر طرق الكلام المعهودة، تعدُّ لا شكَّ مظهراً بارزا من مظاهر إعجازه[4]

(1) – ينظر كتاب: ثلاث رسائل في إعجاز القرآن الكريم، تأليف: الروماني والخطابي والجرجاني، حققها وعلق عليها محمد خلف الله و محمد زغلول إسلام، الطبعة الثالثة، دار المعارف بمصر 1976م، (ص:17).

(2) – مناهج التحليل البلاغي عند علماء الإعجاز من الرماني إلى عبد القاهر الجرجاني، لعبد الله عبد الرحمن أحمد بانقيب (ص:56).

(3) – ثلاث رسائل في الإعجاز، (ص 111).

(4) – لذلك نجد القاضي عياض، ينوه بهذا الوجه من وجوه الإعجاز، فيقول: « صُورَةُ نَظْمِهِ الْعَجِيبِ وَالْأُسْلُوبُ الْغَرِيبُ الْمُخَالِفُ لِأَسَالِيبِ كَلَامِ الْعَرَبِ وَمِنْهَاجِ نَظْمِهَا وَنَثْرِهَا الَّذِي جَاءَ عَلَيْهِ وَوَقَفَتْ عَلَيْهِ مَقَاطِعُ آيَاتِهِ وَانْتَهَتْ إِلَيْهِ فَوَاصِلُ كَلِمَاتِهِ وَلَمْ يُوجَدْ قَبْلَهُ وَلَا بَعْدَهُ نَظِيرٌ لَهُ»، ينظر الشفا للقاضي عياض، (ج1/ ص: 264).

كانت هذه أهم الملامح لمسألة إعجاز القرآن في كتابة الرُّماني، ولا يخفى على منصف أهميتها في درس البلاغة، ودرس الإعجاز، فهي ركيزةٌ ولبنةٌ من البناء في صرح درس إعجاز القرآن الكريم واضحٌ أثرها وبيِّنٌ.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

الفرع الرابع: **حمد بن محمد أبو سليمان الخطابي البُستي:**

أمّا الاسم الذي يلي الرُّماني في الذِّكر والأهمِّيّة، هو أبو سليمان الخطابيُّ [1]، و يُعدُّ من أوائل من أشار إلى قضية الغموض في علم البلاغة، واستعصاء الكثير من مفاهيمه وعلومه ومصطلحاته على الفهم المباشر، فالمعرفة البلاغية في التراث الذي سبق الخطابي معرفة مبهمة لم يصحبها الكثير من البسط والشَّرح، فأراد الخطابيُّ بكتابته أن يؤسس لقراءة منهجية تتجاوز النَّظر العابر إلى مرحلة التذوق القائم على التحليل الموضوعي الذي يستقصي أسباب الحُسن والجمال، ولا يقنع بأن يُقال هذا كلامٌ له عذوبة في السمع وهشاشة في النفس لا توجد مثلها في غيره، والكلامان معا فصيحان، ثم لا يوقف على علة لشيء من ذلك[2].

وقد كان الخطابيُّ من السابقين إلى تنظيم البحث في إعجاز القرآن الكريم، وحسن التقرير لمباحثه في رسالة مباشرة عنونها بـ: **"بيان إعجاز القرآن"**، التي أشار فيها ابتداء إلى تعذر معرفة وجه إعجاز القرآن، ومعرفة الأمر في الوقوف على كيفيته[3]، وذلك بخلاف وقوع الإعجاز فإن هذا أمر لا ينبغي التشكيك ولا التردد فيه ألبته، إذْ يقول: « والأمر في ذلك أبينُ من أن نحتاج إلى أن نَدُلَّ عليه بأكثر من الوجود القائم على وجه الدهر، من لدن نزوله إلى الزمان الراهن الذي نحن فيه»[4].

ولعل أهم وقفات الخطابي في بيان درس الإعجاز يمكن إجمالها في أمور منها:

---

(1) – هو: حَمْدُ بن محمد بن إبراهيم أبو سليمان الخطابي البستي؛ كان رأسا في علم العربية، والفقه، والأدب، وغير ذلك، وله من المصنفات: معالم السنن، وكتاب غريب الحديث وشرح أسماء الله الحسنى، وكتاب الغنية عن الكلام وأهله، وكتاب العزلة، وغير ذلك، تنظر ترجمته في: إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب = معجم الأدباء ، شهاب الدين أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله الحموي، المحقق: إحسان عباس، الناشر: دار الغرب الإسلامي، بيروت، الطبعة: الأولى، 1414 هـ - 1993 م. (ج:3/ص: 1205-1207)، طبقات الشافعيين، أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير الدمشقي، تحقيق: د أحمد عمر هاشم، د محمد زينهم محمد عزب، الناشر: مكتبة الثقافة الدينية، تاريخ النشر: 1413 هـ - 1993 م، (ص: 307-309).

(2)– مناهج التحليل البلاغي عند علماء الإعجاز من الرماني إلى عبد القاهر الجرجاني، رسالة دكتوراه من إعداد الطالب: عبد الله عبد الرحمن بانقيب، إشراف الدكتور: محمد توفيق محمد سعد، بجامعة أم القرى بمكة المكرمة، كلية اللغة العربية، عام: 1428هـ- 1429هـ، (ص 148).

(3) – ينظر رسالته من كتاب ثلاث رسائل في إعجاز القرآن، (ص 21).

(4) – المرجع نفسهُ، (ص 21).

إنكاره للقول بالصرفة، إذ يقرر ذلك في قوله: « وذهب قوم إلى أن العلة في إعجازه – القرآن– الصرفة، أي صرف الهمم عن المعارضة، وإن كانت مقدوراً عليها، غير معجوز عنها؛ إلا أن العائق من حيث كان أمرا خارجًا عن مجاري العادات، صار كسائر المعجزات»[1].

ولما أن أورد الخطابي القول بالصرفة، لم يكن منه إلا أن يذكر زَيْفه وأنه لا يليق أن يكون هذا القولُ وجهًا من وجوه الإعجاز التي يأبه بها العالِمون، فقال: « ...إلا أن الآية تشهد بخلافه، وهي قوله تعالى: ﴿قُل لَّئِنِ ٱجۡتَمَعَتِ ٱلۡإِنسُ وَٱلۡجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأۡتُواْ بِمِثۡلِ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ لَا يَأۡتُونَ بِمِثۡلِهِۦ وَلَوۡ كَانَ بَعۡضُهُمۡ لِبَعۡضٖ ظَهِيرٗا ٨٨﴾ الإسراء: ٨٨، ...فأشار في ذلك إلى أمرٍ طريقه التكلف والاجتهاد، وسبيله التأهب والاحتشاد، والمعنى في الصرفة التي وصفوها لا يلائم هذه الصفة، فدلَّ على أن المراد غيرها، والله أعلم»[2].

فالصَّرفة اعتبرها من اعتبرها من العلماء بملاحظة الجانب المادي المحسوس من آيات الأنبياء عليهم السلام التي تأتي، فأولُ ما تظهر للناس يقطعون الطَّمع في الإتيان بمثلها لعلمها خروجها عن قدراتهم، كقلب الجماد حيوانا، أو إحياء الميت، « أما معجزة القرآن، فهي لا تتحدى قُوى الناس في الجانب المادي المحسوس، ولكنها تتحدى الملكات العقلية والطاقات النفسية والروحية الكامنة فيهم ليقولوا كلاما كهذا الكلام، وما عطَّل الله من العرب ملكاتهم العقلية، ولا حبس طاقاتهم النفسية والروحية، بل كانوا يتكلمون ويجادلون ويهجُون، وما أحسوا يوما أنهم فقدوا شيئا من البيان الذي كان يجري على ألسنتهم»[3].

أما إعجاز القرآن **من جهة الإخبار بالغيب**، فإن الخطابي مع إطباق العلماء قبله وبعده على عدِّ هذا الأمر وجهاً جليّاً من أوجه الإعجاز إلا أنه لم يرتضِهِ، لسبب أنَّه ليس صفةً في كلِّ سورةٍ من القرآن الكريم، فيقول: « قلت: ولا يُشَكُّ في أن هذا وما أشبهه من أخباره نوعٌ من أنواع إعجازه، ولكنه ليس بالأمر العام الموجود في كل سورة من سور القرآن، وقد جعل سبحانه في صفة كل سورة أن تكون معجزة بنفسها لا يقدر أحدٌ من الخلق أن يأتِيَ بمثلها، فقال: ﴿فَأۡتُواْ

(1) – ثلاث رسائل في إعجاز القرآن، (ص: 22)
(2) – المرجع نفسه، (ص: 23)
(3) – الإعجاز في دراسات السابقين، لعبد الكريم الخطيب، (ص: 186).

بِسُورَةٖ مِّن مِّثۡلِهِۦ وَٱدۡعُواْ شُهَدَآءَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴿٢٣﴾ [البقرة: ٢٣]، من غير تعيين، فدلَّ على أنَّ المعنى فيه غيرَ ما ذهبوا إليه»[1].

وقول الخطابي هذا واعتراضه لا يقوى على إبطال القول بهذا الوجه من وجوه الإعجاز الذي يكاد الإتفاق يقع عليه، فإن بعض وجوه الإعجاز في القرآن الكريم، ليس من شرطها أن تقع فيه كلّه وعلى درجةٍ واحدة.

وأما القول **بإعجاز القرآن ببلاغته لفظاً ومعنىً**، فهو وجهٌ يرتضيه الخطابيُّ ويذكر أن جمهور العلماء قال به، إلا أنه قد آخَذَ عليهم الاحتكام في تحصيل ذلك الوجه إلى الذوق الذي لا مستند له إلا الشعور والوجدان، ثمّ قال: «وهذا لا يقنع في مثل هذا العلم، ولا يشفي من داء الجهل به، وإنما هو شكال أحيل به على إبهام»[2].

إلا أن هذا الرأي الذي استبعده الخطابي، قد استحسنه غيره، إذ يقول عبد الكريم الخطيب: «وهذا الذي يَعُدُّه الخطابي مأخذًا على العلماء قعد بهم عن الوصول إلى بيان الإعجاز، نراه نحن الطريق الذي لا طريق غيره للكشف عن بعض أسرار الإعجاز في القرآن، إذ ليس هذا مما يؤخذ بالمقايسة والنظر بقدر ما يُستشفُّ بالشعور والوجدان»[3].

ولما أراد الخطابي أن يجلّيَ للقُرَّاء وجه الإعجاز في القرآن، قرر أن « الكلام إنما يقوم بهذه الأشياء الثلاثة: لفظٌ حامل، ومعنىً به قائمٌ، ورباطٌ لهما ناظمٌ.

وإذا تأمّلت القرآن وجدت هذه الأمور منه في غاية الشَّرف والفضيلة حتى لا ترى شيئا من **الألفاظ**، أفصح ولا أجزل ولا أعذب من ألفاظه، ولا ترى نظما أحسن تأليفاً وأشدَّ تلاؤما وتشاكلاً من نظمه، **وأما المعاني** فلا خفاء على ذي عقل أنها التي تشهد لها العقول بالتقدم في أبوابها، والترقي إلى أعلى درجات الفضل من نعوتها وصفاتها.

وقد توجد هذه الفضائل الثلاث على التفرق في أنواع الكلام، فأمَّا أن توجد مجموعة في نوع واحدٍ منه فلم توجد إلا في كلام العليم القدير، الذي أحاط بكلِّ شيءٍ علمًا، وأحصى كل شيء عددًا.

(1)- ثلاث رسائل في إعجاز القرآن، رسالة الخطابي، (ص: 23-24).
(2)- المرجع نفسه، (ص24-25).
(3) - الإعجاز في دراسات السابقين، لعبد الكريم الخطيب، (ص: 188).

فتفهَّم الآن؛ واعلم أن القرآن إنّما صار معجزاً لأنه جاء بأفصح الألفاظ في أحسن نظوم التأليف مُضَمَّنًا أصحَّ المعاني»[1].

ومما أوقفنا عليه الخطابي في رسالته ما يتعلق بتعليل عجز العرب عن الإتيان بمثل القرآن، فإنه أرجع العلة إلى القرآن، لا إلى الذين أُنزل عليهم القرآن، وهذا مأخذ ينجي صاحبه من القول بالصّرفة مطلقا، فالخطابي يعلل عدم استطاعة العرب أن يأتوا بمثل القرآن بقوله: « وإنما تعذّر على لبشر الإتيان بمثله لأمور:

منها أن علمهم لا يحيط بجميع أسماء اللغة العربية وبألفاظها التي هي ظروف المعاني والحوامل لها، ولا تُدركُ أفهامهم جميعُ معاني الأشياء المحمولة على تلك الألفاظ، ولا تكمل معرفتهم لاستيفاء جميع وجوه النظوم التي بها يكون ائتلافها وارتباط بعضها ببعض، فيتوصلوا باختيار الأفضل عن الحسن من وجوهها إلى أن يأتوا بكلامٍ مثله»[2]

ثم ختاماً يقف الخطابي على مدرك للإعجاز لطيفِ المأتى « ذهب عنه الناس فلا يكاد يعرفه إلا الشاذ من أحادهم، وذلك صنيعه بالقلوب وتأثيره في النفوس، فإنك لا تسمع كلاما غير القرآن منظومًا ولا منثورا، إذا قرع السَّمع خلُص له إلى القلب من اللذة والحلاوة في حال، ومن الروعة والمهابة في أخرى ما يخلُص منه إليه، تستبشر به النفوس وتنشرح له الصدور، حتى إذا أخذتْ حظها منه عادت مرتاعةً قد عراها الوجيب والقلق، وتغشَّاها الخوف والفرق، تقشعر منه الجلود، وتنزعج له القلوب، يحول بين النفس وبين مضمراتها وعقائدها الراسخة فيها فكم من عدو لرسول الله ﷺ من رجال العرب وفُتَّاكِها أقبلوا يريدون اغتياله وقتله، فسمعوا آيات القرآن، فلم يلبثوا حين وقعت في مسامعهم أن يتحوَّلوا عن رأيهم الأول، وأن يركنُوا إلى مسالمته، ويدخلوا في دينه، وصارت عداوتهم، وكفرهم إيمانا»[3].

هذه هي جهودُ الخطابِيّ مجملةً في إعجاز القرآن، والنَّاظر إليها يجد ما للخطابي على درس إعجاز القرآن من أفضال، وسبقٍ إلى مسائل كان لها الأثر البالغ في تأصيل درس الإعجاز، بل ودرس البلاغة، على وجه الخصوص، إذ كان له سبق إلى عرض نظرية النَّظم بالإشارة، والتي

(1) – ثلاث رسائل في إعجاز القرآن، رسالة الخطابي، (ص: 27).
(2) – المرجع السابق، (ص: 26 - 27)
(3) – المرجع نفسه ، (ص: 70)

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

ستكتمل مسيرها عند عبد القاهر الجرجاني، فيما بعدُ، كما سبق كثيرين قبله إلى الإشارة إلى وجه إعجاز القرآن من جهة التأثير على القارئ له مهما كان موقفه منه تصديقاً وتكذيباً.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

المطلب الثاني: التأصيلات الفعلية لعلم إعجاز القرآن الكريم

كان ما مضى من الأعلام قد تركوا من الأثار ما كان حافزا للعلماء من بعدهم لتأصيل الكتابة في إعجاز القرآن الكريم، بصورة أوضح وأكثر تنظيما، فجاءت مرحلة تأصيل علم إعجاز القرآن الكريم، وأهم أعلام هذه المرحلة هم:

الفرع الأول: محمد بن الطيّب أبوبكر الباقلاني:

أما أبو بكر الباقلاني(1)، فيعدُّه محمد فاروق النبهان أول من ألف في الإعجاز كتابا مستقلاً على غرار من سبقه ممن كان يعرض للحديث عن إعجاز القرآن بكلام عارض، أو يدرجه في كتاب أو مقدمة تفسير أو نحو ذلك من ألوان التأليف غير المقصودة بالتأليف في الإعجاز رأسا وقصداً، فيكمن أن يقال بأن الباقلاني: «أول- من كتب كتابا في الإعجاز بطريقة مستقلة، وما كُتب قبله كان في إطار بيان معاني الإعجاز في رسائل عامة أو مقدمات مؤلفات أو بيان، وكتب كتابه "إعجاز القرآن"، وهو من دعائم هذا العلم وأركانه»(2).

وفي كتابه هذا يستهله بأن آية النبي الكريم ﷺ، هي هذا القرآن المتلو بين دفتي المصحف، وينبه أنه لا يعني ذلك أنه وحده المعجزة، وإنما أوتي ﷺ ألوانًا أخرى من المعجزات إلا أنها لم تكن للتحدي وإقامة البرهان على النبوة، بل هي تكريمٌ وفضلٌ من الله على نبيّه، يقول في فصل عنْوَنَ له بـ: " فصل في أن نبوة النبي ﷺ معجزتها القرآن" « الذي يوجب الاهتمام التام بمعرفة إعجاز القرآن، أن نبوّة نبينا عليه السلام بنيت على هذه المعجزة، وإن كان قد أُيِّد بعد ذلك بمعجزات كثيرة؛ إلا أن تلك المعجزات قامت في أوقاتٍ خاصة، وأحوال خاصة، وعلى أشخاص خاصة...

(1) – هو: محمد أبو بكر بن الطيب بن محمد القاضي المعروف بالباقلاني، الملقب بشيخ السنة ولسان الأمة المتكلم على مذهب أهل السنة وأهل الحديث وطريقة أبي الحسن الأشعري، وإليه انتهت رياسة المالكيين في وقته، توفي عام 403هـ، تنظر ترجمته في: تاريخ الإسلام، الديباج المذهب في معرفة أعيان علماء المذهب، المؤلف، إبراهيم بن علي بن محمد، ابن فرحون، تحقيق وتعليق: الدكتور محمد الأحمدي أبو النور، الناشر: دار التراث للطبع والنشر، القاهرة، طبعة: 1972م (ج2/ص: 228).، للذهبي (ت بشار) (ج9/ص: 63)، وفيات الأعيان، لابن خلكان (ج4/ص: 269-270)،

(2) – المدخل إلى علوم القرآن الكريم، المؤلف: محمد فاروق النبهان، دار عالم القرآن /حلب، سورية، الطبعة: الأولى، 1426 هـ - 2005 م، (ص 233).

فأما دلالة القرآن فهي عن معجزة عامة، عمت الثقلين، وبقيت بقاء العصريْنِ، ولزوم الحجة بها في أوّل وقت ورودها إلى يوم القيامة على حد واحد، وإن كان قد يُعلم بعجز أهل العصر الأول عن الاتيان بمثله – وجه دلالته، فيغني ذلك عن نظر مجدد في عجز أهل هذا العصر عن الإتيان بمثله، وكذلك قد يُغني عجز أهل هذا العصر عن الإتيان بمثله، عن النظر في حال أهل العصر الأول»[1].

أما عن وجوه إعجاز القرآن، فإن الباقلاني قد سُبق بمن تكلم عن ذلك، وبالتالي فهو يحكي أقوال من سبق، إلا أنه له في ذلك اختيار ما يراه الأنسب ليكون وجها لإعجاز القرآن، فقد أورد فصلا ذكر فيه جملة من وجوه الإعجاز، يقول: « ذكر أصحابنا وغيرهم في ذلك ثلاثة أوجه من الإعجاز:

أحدها: يتضمن الإخبار عن الغيوب، وذلك مما لا يقدر عليه البشر، ولا سبيل لهم إليه...

والوجه الثاني: أنه كان معلوماً من حال النبي ﷺ، أنه كان أمياً لا يكتب، ولا يحسن أن يقرأ، وكذلك كان معروفاً من حاله أنه لم يكن يعرف شيئاً من كتب المتقدمين، وأقاصيصهم وأنبائهم وسيرهم، ثم أتى بجمل ما وقع وحدث من عظيمات الأمور، ومهمات السيّر، من حين خلق الله آدم عليه السلام، إلى حين مبعثه...

والوجه الثالث: أنه بديع النظم، عجيب التأليف، متناه في البلاغة إلى الحد الذي يعلم عجز الخلق عنه...»[2].

وقد اهتمَّ الباقلاني بالوجه الثالث، وبتفصيله لأنه أقرب وأوضح وجوه القرآن دلالة على الإعجاز، لذلك أطبق عليه جلُّ العلماء، فقال: « وذلك أن نظم القرآن على تصرف وجوهه،

(1) – إعجاز القرآن للباقلاني، أبو بكر الباقلاني محمد بن الطيب، المحقق: السيد أحمد صقر، الناشر: دار المعارف – مصر، الطبعة: الخامسة، 1997م، (ص: 8)

(2) – المرجع السابق، (ص 33-35)، وقد ذكر الباقلاني هذه الأوجه نفسها في كتابه، الانتصار للقرآن ينظر الكتاب: الانتصار للقرآن، المؤلف: القاضي أبو بكر الباقلاني محمد بن الطيب، تحقيق: د. محمد عصام القضاة، الناشر: دار الفتح – عَمَّان، دار ابن حزم – بيروت، الطبعة: الأولى 1422 هـ - 2001 م، (ج1/ص: 66 - 67).

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

وتباين مذاهبه - خارج عن المعهود من نظام جميع كلامهم، ومباين للمألوف من ترتيب خطابهم، وله أسلوب يختصُّ به ويتميز في تصرفه عن أساليب الكلام المعتاد.

وذلك أن الطرق التي يتقيّد بها الكلام البديع المنظوم، تنقسم إلى أعاريض الشعر، على اختلاف أنواعه، ثمّ إلى أنواع الكلام الموزون غير المقفى، ثم إلى أصناف الكلام المعدّل المسجّع، ثم إلى معدل موزون غير مسجّع، ثم إلى ما يُرسل إرسالاً، فتطلب فيه الإصابة والإفادة، وإفهام المعاني المعترضة على وجه بديع، وترتيب لطيف، وإن لم يكن معتدلاً في وزنه، وذلك شبيه بجملة الكلام الذي لا يتعمَّل فيه ، ولا يتصنّع له، وقد علمنا أن القرآن خارج عن هذه الوجوه، ومباين لهذه الطرق»[1].

وقد أرجع الباقلاني بداعة النظم إلى أمور ذكرها فقال: «وترجع بداعة النظم إلى أمور:

أولا: مخالفته لما عهد العرب من أساليب السجع والشعر، وهذا ينفي عن القرآن هذه الأوصاف.

ثانيا: اشتماله على الفصاحة والبلاغة وعدم التفاوت في مستوى هذه الفصاحة في الآيات والسور، مما يؤكد سمو النظم القرآني وعظمة أسلوبه وتتضح هذه الظاهرة في مقارنة النص القرآني بالنصوص العربية التي كان العرب يفخرون بها في مجال الشعر والنثر، وبعد المقارنة يبرز القرآن في أسلوبه واضح الإعجاز متميز الخصائص رائع النظم مشرق العبارة بليغاً في اختيار مفرداته.

ثالثا: بناء القرآن من الأحرف التي بني عليها كلام العرب وهذا من الإعجاز، فهذه الأحرف في فواتح السور دالةٌ على معاني في الإعجاز، ولها آثار واضحة في الخطاب القرآني، وذات دلالاتٍ متعددة.

رابعا: ابتعاد القرآن عن الألفاظ الوحشية المستكرهة والغريبة المستنكرة، واستخدام الكلمات السهلة والعبارات الواضحة، وهذا من الإعجاز»[2].

وأكدَّ الباقلاني أن القرآن منزل بلسان العرب ولكنه نزل على وزنٍ يفارق سائر أوزان كلامهم ولو كان من بعض ما ألفوه من نظم وشعر لعرفوا أن صاحبه قد برع فيه وتقدم، ولكنه

(1) - إعجاز القرآن، للباقلاني (ص 35).

(2) - ينظر الفصل الذي عقده في بيان جملة من وجوه الإعجاز من كتابه إعجاز القرآن (ص 33 وما بعدها)، فإنه قد أطال وأفاد في البيان والإيضاح لذلك.

جاء من غير جنس كلامهم، **وليس يخرج الحذق في الصنعة إلا أن يؤتى بغير جنسها وما ليس منها وما لا يعرفه أهلها**، وهذا الكلام يؤكده كلام الوليد بن المغيرة الذي قال لقومه: والله ما منكم أحد أعلم بالأشعار مني والله ما يشبه الذي يقوله محمد شيئا من هذا»[1].

وقد استدلَّ الباقلاني لذلك من القرآن الكريم نفسه بآيات كثيرة أوردها، ولعل أظهرها دلالة، قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَاتٌ مِّن رَّبِّهِ ۖ قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِندَ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٥٠﴾ أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥١﴾﴾ العنكبوت: ٥٠ – ٥١، فقال عنها: « فأخبر أن الكتاب آية من آياته، وعلم من أعلامه، وإن ذلك يكفي في الدلالة، ويقوم مقام معجزات غيره وآيات سواه من الأنبياء، صلوات الله عليهم»[2].

ومن المسائل التي أولاها الباقلاني اهتماما **قضية التحدي بالقرآن**، وفي المقابل عجز العرب عن الإتيان بمثله، في آيات من القرآن نفسه معروفة ومشهورة، يقول : « ... فثبت بما بيناه أنه تحداهم به، وأنهم لم يأتوا بمثله ... فإذا ثبت هذا وجب أن يعلم بعده أن تركهم للإتيان بمثله كان لعجزهم عنه.

والذي يدل على أنهم كانوا عاجزين عن الإتيان بمثل القرآن: أنه تحداهم إليه حتى طال التحدي، وجعله دلالة على صدقه ونبوته ...، فلما لم تحصل هناك معارضة منهم، علم أنهم عاجزون عنها»[3].

ومن القضايا التي اهتمَّ لها الباقلاني أيما اهتما؛ ما عقده من مقارنات بين القرآن الكريم، بين غيره من ضروب الكلام، بدءاً كلام الرسول ﷺ ليبيّن فرق ما بينهما في البلاغة وأنّ النبي عاجزٌ عن مثل القرآن، وهذا يُثبتُ أنه من لدُن الله، ثمّ يقارن بينه وبين أقوال الصحابة وغيرهم من المتقدمين وبين القرآن فيثبت عجزهم عن مثل أسلوبه، ثمّ يبين سخف كلام مُسيلمَة وسجاح، ثمّ يتناول الأشعار ليقارن بينها وبين القرآن، فيختار معلقة امرئ القيس أحسن شعرائهم ليقارنها إلى القرآن، ويبين ما في الاثنين من جمال، وما في المعلقة من عيوب ويترك

(1) – المدخل إلى علوم القرآن الكريم، لفاروق النبهان (ص 234).
(2)– إعجاز القرآن، للباقلاني، (ص 14).
(3) – المرجع نفسه، (ص 20)

الحكم في هذا الأمر لكلِّ من كان عنده ذوقٌ من الذوق الفني، وقد استغرقت منه هذه المقارنات نحواً من نصف الكتاب، وغرضه واضح وهو إظهار يفوق القرآن في بلاغته على كلّ ذلك[1]

هذه كانت أهم الأشياء التي أولها الباقلاني عناية، في مواطن من كتبه في إعجاز القرآن وغيره من الكتب التي صنفها في علوم القرآن، وعلم الكلام.

الفرع الثانـي: القاضي عبد الجبار بن أحمد الأُسد بادي المعتزلي

ونأتي بعد ذلك إلى رأس المعتزلة في زمانه القاضي عبد الجبار[2] ، وقد كان ضليع باللغة وعلم الكلام، وضع موسوعته الموسومة بـ "المغني في أبواب التوحيد والعدل"، في بيان الاعتزال والحجاج له ورد الاعتراضات عنه، وفي ثنايا هذا الكتاب أفرد الجزء السادس عشر منه في بيان قضية إعجاز القرآن.

وقبل أن يشرع في الحديث عن ذلك قدم بمقدمات متنوعة في صحة القرآن الكريم، وتواتر نقله، ثم عرض لمسألة النسخ في القرآن، ثم جاء إلى قضية إثبات النبوة ومنها وجد المدخل للحديث عن الإعجاز، فبدأ بمباحث في بلاغة الكلام، وكأنه يقيم الموازين لمعرفة منازل الكلام، والوقوف على ماهية التفاضل فيه، فيجعل الاعتبار الذي ينبغي للكلام أن يكون جزل اللفظ حسن المعنى، فها هو ينقل عن شيخه أبي هاشم، قوله: « إنما يكون الكلام فصيحا لجزالة لفظه، وحسن معناه...، ولا بد من اعتبار الأمرين»[3] .

(1) – فكرة إعجاز القرآن، لنعيم الحمصي، (ص: 76)

(2) – عبد الجبار بن أحمد بن عبد الجبار الهمذاني الأسد أبادي، أبو الحسين: قاضٍ، أصوليٌّ، كان شيخ المعتزلة في عصره، وهم يلقبونه قاضي القضاة، ولا يطلقون هذا اللقب على غيره، ولي القضاء بالري، ومات فيها عام 415 هـ، له تصانيف كثيرة، منها: "تنزيه القرآن عن المطاعن" و "الأمالي" و "المجموع في المحيط بالتكليف" ، و "شرح الاصول الخمسة"، و "المغني في أبواب التوحيد والعدل"، منه، و "تثبيت دلائل النبوة – ط" و "متشابه القرآن"، تنظر ترجمته في: تاريخ الإسلام، للذهبي (ت بشار)= (ج9/ص 254)، طبقات الشافعية الكبرى، تاج الدين عبد الوهاب بن تقي الدين السبكي، المحقق: د. محمود محمد الطناحي د. عبد الفتاح محمد الحلو، هجر للطباعة والنشر والتوزيع، الطبعة: الثانية، 1413هـ، (ج5/ص 97)، الأعلام للزركلي (ج3/ ص 274).

(3) – المغني في أبواب التوحيد والعدل، للقاضي أبي الحسن عبد الجبار الأسدبادي المعتزلي، الجزء السادس عشر: قوم نصوصه: أمين الخولي، الشركة العربية – مصر، 1380هـ، (ج 16/ ص: 196).

ويزيد القاضي عبد الجبار بيانًا لكلام شيخه أبي هاشم فيقول: « اعلم أن الفصاحة لا تظهر في أفراد الكلام، وإنما تظهر في الكلام بالضمِّ على طريقة مخصوصة، ولابد مع الضمِّ من أن يكون لكل كلمة صفةٌ، وقد يجوز في هذه الصفة أن تكون بالمواضعة التي تتناول الضم، وقد تكون بالإعراب الذي له مدخل فيه، وقد تكون بالموقع، وليس لهذه الأقسام الثلاثة رابعٌ، لأنه إمَّا أن تعتبر فيه الكلمة، أو حركاتها، أو موقعها»(1).

معنى هذا الكلام، كما يبيِّنه عبد الكريم الخطيب، إذ يقول :« وواضح من هذا أن عبد الجبار ينظر إلى الكلمة نظرتين باعتبارين مختلفين: **نظرة في** حال إفرادها، **ونظرة أخرى في** حال نظمها مع غيرها من الكلام، وهي في كلا الحالين واقعةٌ تحت أحوال ثلاث:

أولها: مفهومها في ذاتها، من حيث الوضعُ الذي لها عند أهلها

ثانيها: مفهومها حين تتداول عليها الحركات الإعرابية، فتكون فاعلا أو مفعولا أو حالا، أو صفة، أو تمييزا...ونحو هذا.

ثالثها: مفهومها حين تأخذ مكانا خاصا في الكلام، فتتقدم أو تتأخر.

وإذن: النظم هو الذي عليه المعول في بلاغة الكلام، وفصاحته، وأن هذا النظم يدور في ثلاث مجالات: اختيار الكلمة في ذاتها، ثم اختيار الوظيفة التي تؤديها في مجتمع الكلمات التي ترتبط بها، ثم اختيار المكان المناسب لها، لتقوم فيه بأداء وظيفتها على أتمّ وجه وأحسنه»(2).

كما أشار القاضي عبد الجبار أيضا إلى مناسبة القرآن الكريم كآية النبي ﷺ، لقومه الذين بلغوا من البيان العربي شأواً بعيدا جداً في حدود البشرية، فيبيِّنُ ذلك بقوله: « وعلى هذا الوجه أجرى الله تعالى عادة الرسول ﷺ في أن خصَّهُ بالقرآن الذي هو مُشَاكِلٌ لصناعتهم وطريقتهم، غير خارجٍ عن الأمر الذي يَشتدُّ به اهتمامهم، ويقوى له افتخارهم، وتظهر فضائلهم ومحاسنهم، لكي تقلَّ الشُّبه للعارف المقدَّم، فيعرف أصرار المباينة والأتباع، فيعرفون بعجز الرؤساء منهم مع توافر الدواعي، مثل ما يعرفه ذوو البصيرة منهم، وتقوى دواعيهم إلى النظر حالا بعد حال، من حيث لا يغيب عن الأسماع على طول الدهر، ولدخوله في جملة الباب الذي يقع

---

(1) – المغني في أبواب التوحيد والعدل، للقاضي عبد الجبار، (ص: 199).

(2) – الإعجاز في دراسات السابقين، لعبد الكريم الخطيب، (ص: 226).

منهم فيه التنافس، ولأن وجه الإعجاز فيه لا يتغير على الأيام، كما أن شريعته لا تزول على الأوقات»(1)

وحتى لا يبقى التحدي بالقرآن الذي حقيقته كلامٌ مجال للاشتباه في التحدي به، يذكر القاضي عبد الجبار أن :« المهم في المعجزة هي أن تفارق المعتاد من أفعال الناس، وأن تتجاوزه وإن كان من جنس ما تعمل قدراتهم فيه»(2)

وكان لابد للقاضي عبد الجبار من حديث عن **وجوه الإعجاز في القرآن**، إذ يعدُّ هذا الأمر من صميم البحث في هذه القضية، لذلك فإن القاضي هنا أورد أوجها منها ما ارتضاه ومنها ما لم يرتضه، فأما الإخبار بالغيوب، فإنه لم يكن له عنده وجه إذ إنه لم يقع في كل سورة من سور القرآن، لذا فهو عنده لا يصلح أن يكون وجها مرضيا.

أما الوجه المرضيُّ والمقدم عنده، هو ما رجع إلى **جزالة اللفظ، وحسن المعنى** مجتمعين على وجه لم تبلغه بلاغة البلغاء، ولا فصاحة الفصحاء.

ولعلنا هنا نطلب فرقاً يوّضح لنا مباينة أحدهما للآخر في قضية الإعجاز، ولا غرو فإن كلَّ واحدٍ منهما ينتسبُ إلى مدرسة كلامية مختلفة عن الأخرى، وذلك أنَّ « كلّاً منهما ينظر للإعجاز من زاوية مغايرة لما ينظر منها الآخر، فالقاضي عبد الجبار لا ينظر للإعجاز من زاوية الخروج عن مألوف كلام العرب، ولهذا لم يحرص على نفي السجع في القرآن، فالأمر لا يعنيه سواء سمي سجعا أو غير سجع، وإنما يعنيه أولا إثبات الإعجاز عن طريق الفصاحة، وطريقها واضح وهو جزالة اللفظ وحسن المعنى، وهذا معيار لا نملك إلا أن نشيد بدقته، لأنه معيار موضوعي، يقيم أمر الإعجاز على معايير موضوعية لا تتصور الفصاحة إلا بها، وليس أدل على الإعجاز من تلاقي «لفظ» بلغ الذروة في الجزالة والقوة و «معنى» بلغ القمة في جودة المعنى ودقته وسلامته

(1) – المغني في أبواب التوحيد والعدل للقاضي عبد الجبار، ص
(2) – المرجع نفسه، ص

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

ويقف القاضي عبد الجبار أمام هذه المعايير وقفةً موضوعية، فلا يعتبرها من الإعجاز ما لم تتحقق الشروط الموضوعية المتمثلة في جزالة اللفظ وحسن المعنى، فالصورة البديعية ليست كافية وحدها لإثبات الإعجاز ما لم تكن معبرةً عن المعايير الموضوعية للفصاحة(1).

الفرع الثالث: القاضي عبد القاهر بن عبد الرحمن الجرجاني:

وختاماً نصل إلى القاضي الآخر – قاضي الأشاعرة- عبد القاهر الجرجاني(2)، فإن من ضرورات النظر في درس إعجاز القرآن الكريم، الوقوف عند التراث الذي خلّفه، إذ تُعدُّ كتاباته من الأهمية بمكان، فإنه سعى سعيا حثيثاً في الكشف عن أُسس هذا العلم بكتبه الثلاثة؛ **أسرار البلاغة ودلائل الإعجاز والرسالة الشافية.**

و عبد القاهر الجرجانيُّ بمجيئه ترَّعم نظرية النظم في إعجاز القرآن، فقد فصّل القول فيها وعرضها عرضاً مستفيضاً، وانتقل بها من حيّز الألفاظ إلى حيّز المعاني، وهو متكلّمٌ وأديب، وهو أوّلُ من نظم الأفكار التي كانت في هذا الموضوع وأبرزها في قالبٍ علميّ(3)

«ينفرد عبد القاهر الجرجاني، بين علماء البيان بأنه ذو منهج يغلب عليه **"الذوق"**، وتستأثر به فيه سلامة الفطرة، ونقاء الطبع، فلم تستبدّ به الصنعة، ولم تستنفد جهده، ولم تقتل ذوقه تلك الأساليب الفلسفية، والمذاهب الكلامية، التي عرفت في عصره، وجرى عليها العلماء عند النظر في كل أمر، وفي مواجهة كل موقف، حتى ولو لم تكن داعية الحال تدعو إلى تلك الأساليب من قريب أو من بعيد...، ويكاد يكون عبد القاهر واحدا من آحاد العلماء الذين

(1)- المدخل إلى علوم القرآن الكريم، لمحمد النبهان، (ص: 240-241).

(2) – عبد القاهر بن عبد الرحمن بن محمد الجرجاني، أبو بكر؛ واضع أصول البلاغة. كان من أئمة اللغة. من أهل جرجان (بين طبرستان وخراسان)، له شعر رقيق؛ من أشهر كتبه " أسرار البلاغة " و " دلائل الإعجاز" و "الجمل في النحو"، و " المغني " في شرح الإيضاح، ثلاثون جزءا و "العوامل المئة"، توفي عام: 471هـ ، تنظر ترجمته في : تاريخ الإسلام للذهبي (ت بشار)= (ج10/ص 333)، إنباه الرواة على أنباه النحاة، للقطفي، (ج2/ص 188)، الأعلام، المؤلف: خير الدين بن محمود بن محمد ، الزركلي ، الناشر: دار العلم للملايين، بيروت –لبنان، الطبعة: الخامسة عشر – أيار / مايو 2002 م، (ج4/ص: 48-49).

(3) – فكرة إعجاز القرآن، لنعيم الحمصي، (ص: 87) بتصرف يسير.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

سلم لهم طبعهم، وبقيت معهم فطرتهم السليمة النقية إلى حدٍّ بعيدٍ، في تلك الفترة التي فسد أو كاد يفسُدُ فيها الذوق الأدبي»[1].

إذن نرجع فنقول؛ وضع عبد القاهر الجرجانيّ كتابيْهِ الأسرارَ والدلائلَ، « ويُعدُّ كتابه الأول – في تقديرنا– مقدمة وتمهيداً لكتابه الثاني؛ ذلك أنه في كتاب "أسرار البلاغة" كان يحاول أن يكشف وجوه الحسن في الكلام، ويَدُلَّ على مواقع الحسن منها، ويحدِّد المطالع التي جاءت من جهتها، أمَّا في كتابه "دلائل الإعجاز"، فقد نحا هذا النحو أيضا، ولكنه كان ينظر بعين إلى البيان العربي، وبعين أخرى إلى الإعجاز القرآني، في حين أنه كان في كتابه "أسرار البلاغة" ينظر إلى البيان العربي بعينيْهِ جميعا، وكان على عبد القاهر بعد هذا أن ينظر بعينيه معًا إلى الإعجاز القرآني»[2].

وأمَّا الرسالة الشافية « – التي نظن أنها آخر ما كتب–، وقد جعل هذه الرسالة لتقرير حقيقة الإعجاز، وقيام الدلائل على وقوعه، ولم يحاول أن يكشف فيها عن وجوه الإعجاز، وفيها « يُعنَى عبد القاهر عناية خاصة بتقرير الإعجاز في ذاته، وإقامة الأدلة القاطعة على وقوعه، مستشهدا لذلك بالقرآن الكريم وما حمل من آيات سجلت تحديه للعرب، مرة بعد مرة، ودعوتهم إلى معارضته، بعشر سور، ثم بسورة واحدة، وذلك بأسلوب قاهر مستعلٍ، فلما لم يقوموا له، سجَّل عليهم عجزهم هذا، في آيات تُتلى أبد الدهر»[3].

وفي دلائل الإعجاز؛ يثير عبد القاهر سؤال مهما مهَّد به للوقوف على وجه الإعجاز في القرآن، وذلك قوله فيه: « من أينَ كانَ نَظْمٌ أشرفَ من نَظمٍ؟ وبِمَ عَظُمَ التفاوتُ، واشتدَّ التباينُ، وترَقَّى الأمرُ إلى الإعجازِ، وإلى أن يَقْهر أعناقَ الجبابرة؟ أو ههنا أمورٌ أُخَرٌ نُحيلُ في المزيّةِ عليها، ونَجْعلُ الإعجازُ كان بها، فتكونَ تلكَ الحوالةُ لنا عذْراً في تركِ النَّظرِ في هذهِ التي معنا، والإعراضِ

(1) – الإعجاز في دراسات السابقين، لعبد الكريم الخطيب، (ص: 241).
(2) – المصدر نفسه، (ص: 242).
(3) – المصدر نفسه، (ص 289).

عنها، وقلّة المبالاةِ بها؟»[1]، هذه هي الإشكالية التي أقام لها الجرجاني وزناً وشغلت فكره، وأضنت قُواه اللغوية، لينطلق منها إلى الكشف عن وجه الإعجاز.

وهنا ينبغي لنا أن ننتبه إلى قضية غاية في الأهمية وهي « أن اللغة وإن كانت وليدة إرادة المجتمع، وبنت التعاقد الذي تمَّ بين أفراده على قبول الكلمات وتداولها – ليست مجرد أدوات تتداولها الألسنة كما تتداول الأيدي قطع النقود، إذ اللُّغة قبل كل شيء تجسيدٌ لأفكار الناس، وتصويرٌ لعواطفهم ووجدانهم، وأن الكلمة حين تتحرك على اللسان، أو تقع على الأذن تنبعث منها تلك الأفكار، وهذه المشاعر والوجدانات، التي تُضمرها في كيانها، وهنا تتفاوت منازل الناس، وتختلف أقدارهم في استخدام اللغة، وفي استثارة ما يكمن فيها من دلالات عقلية أو عاطفية، فليس كل إنسان قادرا على ما تحمل الكلمة في كيانها من مدلولات، وليس كل إنسان قادر على أن يدير الكلمة على الوجه الذي تمكنه فيه من نفسها، وتعطيه أحسن ما عندها»[2]

كما بيّن عبد القاهر مسألة الوضع للكلمات، وهي مسألة كانت من معالم نظريته في الإعجاز، تحدث عنها كثيراً وكان يشبهها بصنعة البناء والوَشْيّ، لمَّا يقول: « ولذلك كان عندهم نظيرا للنسخ والتّأليفِ والصياغةِ والبناءِ والوَشْي والتحبير وما أَشبَه ذلك، مما يُوجب اعتبارَ الأجزاءِ بَعْضِها معَ بعضٍ، حتى يكونَ لوضع كلِ حيثُ وُضع، علةٌ تَقْتَضي كونَه هناك، وحتى لو وُضِع في مكان غيره لم يصلح»[3].

وتساءل الجرجاني في معرض حديثه عن إعجاز القرآن، **ماذا أعجز العرب**، هل أعجزهم لفظ القرآن أم أعجزهم معناه، لا شك أن ما أعجز العرب «هو تلاقي اللفظ والمعنى معا»، فلا مجال للإعجاز في لفظ دون معناه، ولا مجال للإعجاز في معنى دون لفظ، **فالإعجاز هو نتاج علاقة تكاملية بين اللفظ والمعنى**، ولا يمكن تصور الفصاحة في إطار لفظ دون معنى، فالصورة البيانية هي نتاج لفظ معبّر ومعنى يجسِّد الصورة، ويعطي للألفاظ أبعادها وصورها وجمالها، فاللفظة المفردة لا يمكن أن تكون معجزة، لأنها تظلُّ قاتمةً صامتةً لا تنطق، والمعنى

(1) – دلائل الإعجاز، أبو بكر عبد القاهر بن عبد الرحمن بن محمد الجرجاني، المحقق: محمود محمد شاكر أبو فهر، الناشر: مطبعة المدني بالقاهرة – دار المدني بجدة، الطبعة: الثالثة 1413هـ – 1992م للجرجاني، (ص 109).

(2) – الإعجاز في دراسات السابقين، لعبد الكريم الخطيب، (ص249).

(3) – دلائل الإعجاز، للجرجاني، (ص 49)

العظيم هو الذي يُنطق اللفظ ويجعل له لسانا معبرا، وعندما يتحدث أهل البيان عن الألفاظ الجميلة والألفاظ القلقة والمستكرهة، فإنهم لا يقصدون على وجه التأكيد مجرد اللفظ، فاللفظ لا يمكن وصفه بدقة إلا في إطار ملاءمته لمعناه المراد، وحسن انسجامه مع الألفاظ الأخرى في الجملة الواحدة بحيث يصبح الكلام معبرا أحسن تعبير عن معنى مراد[1].

وإذا ذهبنا نستشفُّ الفروق بين القاضي عبد القاهر الجرجاني، ومن سبقه ممن كتب في إعجاز القرآن الكريم، فإننا نقول: « يتميز الجرجاني عن كلٍّ من القاضي عبد الجبار وأبي بكر الباقلاني **باعتماده على الذوق البياني والفطرة النقية الصافية** التي مكنته من استكشاف آفاق جديدة من معاني الإعجاز لم يدركها من كتبوا في الإعجاز في إطار مقاييسهم المنطقية ومعاييرهم الكلامية ونظرتهم الفلسفية، فالإعجاز يدرك بالعقل من خلال مقاييسه الثابتة ويدرك بالفطرة والذوق من خلال اكتشاف آفاق جمالية في النص القرآني.

واعتبر **الملاءمة بين الألفاظ**، هي أساس الفضيلة في البيان العربي، فاللفظة لا تستمد مكانتها من ذاتها، ولو كانت كذلك لتساوى الكتاب والأدباء في مكانتهم، ولكن يقع التفاضل بين هؤلاء بحسب قدرتهم على إيجاد التلاؤم بين اللفظة واللفظة التي تليها، فالكلمة الواحدة قد تكون حسنة في موضع ومستقبحة في موضع آخر، مقبولة في عبارة ومرفوضة في عبارة أخرى.

وفرّق الجرجانيُّ بين حروفٍ منظومة وكَلِمٍ منظومة؛ فنظم الحروف تَواليها في النُّطق ونظم الكلم مراعاة المعاني في النظم وترتيبها بطريقة ملائمة ومعبِّرة، كالنسج والتأليف والصياغة والبناء والوشي والتحبير، بحيث يكون الوضع والترتيب خاضعا لمعايير وأقيسة ومرجحات بحيث لو تم استبدال هذا الترتيب بغيره لما صح النظم ولما استقام أمره»[2].

فعبد القاهر الجرجاني لا يرى الكلام لفظا ومعنى، وإنما يراه صورة شاخصة، وكائنا حيا تتساند جميع أعضائه وأجهزته على وجوده، وعلى إعطائه هذا الوجود الذي يعيش في الناس به، فإذا انفصلت هذه الأعضاء وزايلت أماكنها، أو تحولت عنها أو تبادلت مواضعها فيما بينها اختلَّ وجود هذا الكائن، وفسدت حياته[3].

---

(1) – المدخل إلى علوم القرآن الكريم، لفاروق النبهان، (ص 243)

(2) – المصدر نفسه، (ص: 241).

(3) – الإعجاز في دراسات السابقين، لعبد الكريم الخطيب، (ص: 277-278).

فبهذا يمكن أن يقال إن عبد القاهر الجرجاني: « في كتابيه دلائل الإعجاز وأسرار البلاغة كان قدوةَ من جاء بعدهُ من المؤلفين في البلاغة وإعجاز القرآن ببيانه، وأنه مرّن الفكر في جعله الإعجاز في شيءٍ غير محسوس تماماً»(1)

وختاماً إذ أردنا أن نورد رأي الجرجانيّ في وجه كون القرآن معجزاً يمكننا القول «أننا لا نجد عبد القاهر، قد حدثنا حديثاً مباشراً عن أيّ وجوه من وجوه الإعجاز في القرآن، فهو لم يقل: إن إعجاز القرآن معجز في ألفاظه أو في معانيه، أو في كذا وكذا من وجوه الإعجاز التي تحدث عنها من تحدثوا في وجوه الإعجاز، ولم يلق القرآن لقاءً مواجها يكشف عن وجه أو وجوه الإعجاز فيه، ولكنه مع هذا وضع بين أيدينا ميزاناً نزِنُ به الكلام، ونعرف به الجيّد والرديء منه، ونفاضل بين الجيد والأجود»(2).

وهذا في رأييّ أنه أهمُّ من الكشف عن وجوه الإعجاز، لأن ذلك لا يعْدُ أن يكون اجتهاداً لا ينقضُ اجتهاد غيره، بخلاف الأول فإنه كالتأصيل يرجع إليه الجميع.

إلاَّ أنه يمكننا القول بأنَّ عبد القاهر قد جاء في هذا الباب بوجهٍ من النّظر لطيفِ المأخذ، وذلك حين قال: «إذا كان بيّناً في الشيء أنه لا يَحتمِلُ إلاّ الوجْهَ الذي هو عليه حتى لا يُشْكِلَ، وحتى لا يُحْتاج في العلم بأنَّ ذلك حقُّه وأنه الصواب، إلى فكْرٍ ورويةٍ فلا مَزِيَّةَ، وإنما تكونُ المزيةُ ويجِبُ الفضلُ إذا احتمَلَ في ظاهِرِ الحالِ غيرَ الوجه الذي جاءَ عليه وجهاً آخرَ، ثمَّ رأيتَ النفسَ تَنْبو عن ذلكَ الوجهِ الآخرِ، ورأيتَ للذي جاء عليه حُسْناً وقبولًا تعدمهما إذا أنتَ ترَكْتَه إِلى الثاني»(3)، وهذا لاشك أنه يعدُّ مبتكراً للقاضي عبد القاهر، سبقاً منه لوضع ميزان لمعرفة الوجه الذي كان به القرآن معجزاً.

هذه كانت إطلالة تأريخية عُرض فيها أهمُّ الأعلام الذين كانت لهم اليد الطُّولى في درس الإعجاز وإبراز مباحثه وموضوعاته، وإلا فإنَّ استيعاب كل من تكلم في الإعجاز أو ألّف فيه، أمرٌ لا تسعهُ رسالةٌ مستقلة، فكيف بمبحث من رسالة، إلا أن إيراده هنا ولو على وجه

(1) – فكرة إعجاز القرآن، لنعيم الحمصي، (ص: 89)

(2) – المصدر السابق، (ص 279).

(3) – دلائل الإعجاز، لعبد القاهر الجرجاني (تحقيق: شاكر)، (ص 286).

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

الاقتضاب يعين الباحث على تصوُّر مسيرة إعجاز القرآن الكريم عند أهمِّ أعلامه، الذين كان لهم فضل بيان مباحث إعجاز القرآن الكريم المُشكلة.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

المبحث الثاني: مدخل في مصطلح الإعجاز

إن قضية المصطلحات في سائر العلوم قضية من الأهمية بمكان، إذ إنه لا تنضبط العلوم إلا بانضباط مصطلحاتها ومدى تطابقها مع مدلولاتها، «وما القواعد والمناهج، ولا القضايا والإشكالات؛ إلا آبار العلم، وإنما المصطلحات دلاؤها، وهل من سبيل إلى الماء الغور بغير دلاء؟

بل لك أن تقول إن العلوم ماهيات وجواهر مجردات والمصطلحات مادتها وصورها، فكأن تلك نفوس، وهذه جسوم، ومن ذا قدير على إدراك النفوس وأحوالها دون الاحتكاك بجسومها؟»[1]، وهذا المبحث سيكون التركيز فيه على مصطلح إعجاز القرآن، وبيان مواقف العلماء منه، وذلك من خلال المطالب الآتية:

المطلب الأول: خطر التلاعب بالمصطلحات على حقيقة العلوم.

المطلب الثاني: نظرات في مصطلح "إعجاز القرآن الكريم.

المطلب الثالث: مناقشة القيود في تعريف " المعجزة.

---

(1) - المصطلح الأصولي عند الشاطبي، فريد الأنصاري، نشره: معهد الدراسات المصطلحية والمعهد العالي للفكر الإسلامي، المغرب، الطبعة الأولى: 1424هـ-2004م، (ص: 11).

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

المطلب الأول: خطر التلاعب بالمصطلحات على حقيقة العلوم

المصطلحات هي وسائل يستعملها العلماء لتقريب المفاهيم من أذهان المتعلمين، هذا هو المعهود من وضعها، إلا أننا نلحظ أنه قد « شاع التلاعب بالمفاهيم بإزاء المصطلحات شيوعاً كاد أن يقضي على الهوية وأصاب الأمة بحالة من الفوضى تعكس الأزمة الفكرية التي تمر بها الأمة...وساعد على ذلك عدمُ فهم معاني المصطلحات مما يؤدي إلى كارثة علميَّة محققة، وانهيار تامٍ لأركان العلم وضياع لمفاهيمه، وهذا ما نراه الآن بعد احتلالِ واختلال المصطلحات العلمية»(1).

«ولهذا فإن التعامل مع المصطلح توليدًا واستخدامًا ودراسةً وتناولاً، لاتقف بنا عند مجرد الحدود اللغوية للمصطلح، إذ إنه فوق ما يحمله من معنى ذي دلالة ذات أو حال أو ظاهرة، يعبر عن جملة مضامين المشكلة وفق ثقافة صائغي المصطلح، وبالتالي فإن النظر لمصطلح يكون إلى المعنى والمدلول كما يكون إلى اللفظ والمنطوق»(2).

ولا يزال عقلاء هذه الأمّة وعلماؤها كالحراس المرابطين على حدودها للحفاظ على هويتها؛ الجنديُّ بسلاحه والعالم بقرطاسه، كلٌّ على ثغر حتى يبقى للأمة كيانها، أرضاً وعلماً، وإن أحقَّ شيءٍ بالحفظ والكلاءة حفظُ معارفِ الأمة؛ وإنّ من الأمور التي عَنِيَت بالحفظ من المعارف مصطلحاتُ العلومِ.

(1) – المصطلح الأصولي ومشكلة المفاهيم، لعلي جمعة (ص 7) بتصرف يسير، وقد ذكر صاحب الكتاب شروطا لوضع المصطلح بإزاء المعنى، خلاصتها ثلاثة، وهي:

أ – وجود ثمة علاقة بين المعنى اللغوي والمعنى الاصطلاحي وإلا وصلنا إلى قضية الرمز.

ب – أن يقره فريق من العلماء من أهل ذلك العلم ليصبح مقبولاً كمصطلح قبولاً عاماً، وقبل إقراره إنما هو اقتراح مصطلح.

جـ – أن يتعلق معناه الجديد بموضوع العلم الموضوع هو فيه، وإلا فإنه يكون مستعاراً من علم آخر، وحينئذ فهو من المفاهيم الرحالة. يُنظر الكتاب المذكور: (ص: 18-19).

(2)-المصطلحات الوافدة وأثرها على الهوية الإسلامية مع إشارة تحليلية لأبرز مصطلحات الحقيبة العولمية، الهيثم زعفان، مركز الرسالة للدراسات والبحوث الإنسانية، القاهرة مصر، الطبعة الأولى: 1430هـ-2009م، (ص: 11).

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

«وقد كان التعاملُ مع المصطلح في الحضارة الإسلاميَّة مبنياً على العلم والعدل، اللَّذيْنِ هما أساسُ كلِّ خير بما يجعل أهل الإسلام يتوخون هذين المعنيين دائما، ويحرصون على التميُّز عبرهما، هو ما يجعل مسألة الاجتهاد لديهم مرتبطة بتحقيق هذين الأمرين –أي العلم والعدل.

...لأنها بجملة تعدُّ من أخص خصائص أي ثقافة لما تضمنته من طبع المعارف بطابعها وسيماها، ولهذا كان ولابد من البحث في دلالاتها وما تضمنته، فضلاً عن أن يكون اللَّفظ غير متضمّنٍ لمعنى فاسد، فإذا ما تحققت المصطلحات بالعلم والعدل وجدوا في أنفسهم أنهم أحقَّ بها»[1].

وهاهنا ملحظ آخر ينبغي للباحث أن يكون منه على بالٍ، وذلك « أن المصطلح الواحد قد **تختلف معانيه داخل العلم الواحد** لاختلاف المدارس الفكرية والأُطر المرجعية للمفكرين والعلماء داخل هذا العلم أو ذاك.

كما يلاحظ أنه **قد يعتريه التطور** ويحتاج إلى البحث عن تطور المصطلح الدلالي وهذا شائع في كل العلوم خاصة الاجتماعية والإنسانية.

وتختلف معاني المصطلح الواحد أيضاً بين العلوم المختلفة، وهذا لا إشكال فيه فكلمة الموضوع تعني في علم الحديث القول المكذوب المنسوب إلى قائله زوراً، في حين تعني في المنطق ما عليه الحمل في حين تعنى في مداخل العلوم معنى يقارب هذا وهو ما يتكلم العلم عن عوارفه الذاتية. »[2].

(1) – المصدر السابق، (ص 12)

(2) – المصطلح الأصولي ومشكلة المفاهيم، المؤلف: على جمعة محمد عبد الوهاب (مفتي مصر)، الناشر: المعهد العالمي للفكر الإسلامي – القاهرة– مصر، الطبعة: الأولى - 1417 هـ - 1996 م، (ص: 20).

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

المطلب الثاني: نظرات في مصطلح "إعجاز القرآن الكريم"

إن الأمة لما حملت رسالتها تعرضها على الأمم كان لابد لها أن تقيم البينة على صدق رسالتها لذلك سارعت إلى بيان الدلائل على نبوة رسولها ﷺ الذي جاء بهذه الآية أو المعجزة التي كُتب لها الخلود، وظهر ذلك في جهود العلماء في بيان ما يتعلق بأعظم آية أنزلها الله، عزّ وجلّ، وهي القرآن الكريم، وفي أثناء ذلك ظهرت مصطلحات كثيرة أهمها:

لفظان جاريان، هما لفظ "الآية"، ولفظ " المعجزة"(1)، كان لهما شأنٌ عظيمُ العواقبِ في باب آيات الأنبياء الدالة على صدقهم، « ثم تزاحم اللفظان على أقلام الكتاب والعلماء، حتى غلب لفظ "المعجزة"(2) لفظ "الآية"، ثم استولى على الأقلام والألسنة إلى يومنا هذا، ودخل لفظ "الآية" في ظله حتى قلَّ قلةً ظاهرةً حتى كاد يخفى، بل لعله قد غاب غيابا مشهودًا عن كلِّ بحث في معجزات الأنبياء، وفي إعجاز القرآن خاصة»(3).

ثم يُقال إن كان الأمر مجرد اصطلاحٍ فإنه لا مشاحَّة في الاصطلاح، كما هو معروف، أما والمصطلح قد يفضي بعد ذلك إلى نزاعٍ وافتراق وإلى تباين في الآراء وشقاق، كان « لابد

(1) – **توضيح**: قال محمود شاكر رحمه الله: « وأنا لم أزلْ في ريبةٍ من أمر هؤلاء المتكلمين منذ خالطتُ كلامهم، وأنا أشدُّ ارتياباً في الذين وضعوا هذا الشرط منهم، أنظروا في حقيقة معنى "العجز" نظراً فاحصاً، فرأوا ما فيه من الغموض والإبهام والفساد، ثمّ حملهم الهوى أن يتكاتموا بينهم ذلك المغمز الخفيَّ في حقيقته، أم هم كانوا أسلم حالاً وطويةً، إذْ غمرهم الجدل بهذا الشرّط المبهم الغامض، فأغفلتهم نشوةُ الظَّفرِ به عن ضراوتهم في الفحص والنّظر، وعن غموضه وإبهامه وفساده، فتجاوزوه ومرُّوا عليه مرور المطمئن الذي لا يرتاب في صحّته وسلامته؟ وأيُّ ذلك كان، فإن الذي أوقعهم فيه اللّفظ المبهم، وهو "العجز"، من الحيرة والتخبط سوف يظهر ظهوراً بيّناً بعد قليل»، يُنظر: مداخل إعجاز القرآن، لمحمود شاكر (ص:43).

(2) – ولعل من أوائل من استعمل هذا المصطلح وأشار إليه إشارة، هو الإمام الطبري، حين قال، في تفسير قوله تعالى : ﴿ قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴿٨٨﴾ ﴾ الإسراء: ٨٨، «... حتى تعلموا أنكم **إذْ عَجزتم** عن ذلك – أنّه لا يقدر على أن يأتي به محمد ﷺ، ولا من البشر أحدٌ، ويَصحّ عندكم أنه تنزيلي وَوحيي إلى عبدي»، وكان عنده بمعنى: عدم قدرة الإنس والجن على الإتيان بمثل القرآن، جامع البيان في تأويل القرآن، المؤلف: محمد بن جرير، أبو جعفر الطبري (المتوفى: 310هـ)، المحقق: أحمد محمد شاكر ومحمود محمد شاكر، الناشر: مؤسسة الرسالة، الطبعة: الأولى، 1420 هـ – 2000 م.، (ج1/ ص: 378)، وقد أشار إلى هذه الأولية، نعيم الحمصي، في "فكرة إعجاز القرآن"، ينظر (ص: 8).

(3) – مداخل إعجاز القرآن، لمحمود شاكر، (ص 124-126).

من ترك الاستهانة بالفروق البينة والخفية بين الألفاظ التي توهم بطول الإلف أنّها تقع على معنىً واحدٍ وقوعا واحداً، وهو ما نسميه في اللغة بالترادف[1]...

على أن الاستهانة بالفروق وإهمال التاريخ، يؤديان أحيانا إلى تفاسد المعاني تفاسداً مبيراً، **ويفضيان أحيانا أخرى إلى تخبطٍ منهكٍ** مغبته كدٌّ وعرقٌ، **وإلى تخليط جامحٍ** عقباه ظلامٌ مطبقٌ وغبارٌ»[2].

إذا تقرر كل ما سبق من وجوب العناية بالمصطلحات ولزوم وضعها بالعدل والعلم، فهل اختلت هذه الأمور في مصطلح "الإعجاز"، و"المعجزة"؟.

فبادئ ذي بدءٍ لابد أن نضع بين أيدينا ماهية هذا المصطلح التي انتهى إليها في كتب العلماء، وصيغ في تعريفاتهم له، وهو:

«أَنَّ الْمُعْجِزَةَ أَمْرٌ خَارِقٌ لِلْعَادَةِ مقرون بالتحدي سالم عن الْمُعَارَضَةِ وَهِيَ إِمَّا حِسِّيَّةٌ وَإِمَّا عَقْلِيَّةٌ»[3]، هذا هو التعريف الذي تكاد التعاريف ترجع إلى فحواه، وتُطبقُ علة معناه.

---

(1) – **الترادف**: هو أَلْفَاظ متحددة الْمَعْنى وقابلة للتبادل فِيمَا بَينهَا فِي أَي سِيَاق أَي تعدد الْأَلْفَاظ لِمَعْنى وَاحِد أَي عبارَة عَن وجود أَكثر من كلمة لَهَا دلَالَة وَاحِدَة أَو هُوَ الْأَلْفَاظ المفردة الدَّالَّة على شَيْء وَاحِد بِاعْتِبَارِهِ وَاحِدًا وَقد تنشأ ظروف فِي اللُّغَة تُؤدِّي إِلَى تعدد الْأَلْفَاظ لِمَعْنى وَاحِد أَو تعدد الْمعَانِي للفظ وَاحِد وَمن الترادف مَا هُوَ لهجات لقبائل مُخْتَلفَة أَو تناسى الفروق الدقيقة بَين الْكَلِمَات؛ اللطائف في اللغة = معجم أسماء الأشياء، المؤلف: أحمد بن مصطفى اللَّبَابِيدي الدمشقي، الناشر: دار الفضيلة – القاهرة. د ت ط، (ص: 11)، ينظر معه: الكليات معجم في المصطلحات والفروق اللغوية، أيوب بن موسى أبو البقاء الكفوي، المحقق: عدنان درويش – محمد المصري، الناشر: مؤسسة الرسالة – بيروت، د ت ط، (ص 315).

(2) – المداخل، لمحمود شاكر، (ص 123).

(3) – الإتقان في علوم القرآن، المؤلف: عبد الرحمن بن أبي بكر، جلال الدين السيوطي (المتوفى: 911هـ)، المحقق: محمد أبو الفضل إبراهيم، الناشر: الهيئة المصرية العامة للكتاب، الطبعة: 1394هـ/ 1974 م، (ج4/ ص3)، ينظر: في تعريف المعجزة اصطلاحاً:

عند أهل السنة والجماعة: (النبوات لابن تيمية (2/ ص778)، وشرح العقيدة الطحاوية، لابن أبي العزّ الحنفي، (ص507)، **وعند المعتزلة**: شرح الأصول الخمسة للقاضي الهمذاني (ص 568 - 572)، **وأما تعريفه عند الأشاعرة**، فينظرُ: الإنصاف للباقلاني (ص 58)، وأعلام النبوة للماوردي (ص 41-42).

وقد ذكر الزيدي وهو من **الشيعة الزيدية**، في كتابه إثبات نبوة النبي ﷺ (ص 20)، **أن المعجز**: هو الأمر الذي يتعذر مثله على جميع البشر، وقال (ص: 58): «المعجز هو ما يظهر على بعض الناس مما يتعذر الإتيان بمثله على جميع البشر، لحسنه أو لصفة تخصه».

جمعية الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

أولاً: يمكن أن نورد هاهنا حقيقة تاريخية لهذا المصطلح ذكرها محمود شاكر في قوله: « أما لفظ **"المعجزة"**، فقد سلف القول فيه وفي اشتقاقه، وبعض معناه، ثم في تاريخ نشأته في أواخر القرن الثالث من الهجرة، **وأنه لفظٌ مولّد**، رجَّحت أن أبا يزيد الواسطي صاحب كتاب "إعجاز القرآن"، هو أول من ولّده»[(1)]، وإلى مثل ذلك ذهب ابن تيمية، إذ يقول: « وليس في الكتاب والسنة تعليق الحكم بهذا الوصف بل ولا ذكر خرق العادة ولا لفظ المعجز وإنما فيه آيات وبراهين وذلك يوجب اختصاصها بالأنبياء»[(2)].

وثانيا: يمكن أن يقال أيضاً أنَّ « المراد بهذا المصطلح إذا عرفنا أن إعجاز القرآن مَن تحداهم عن الإتيان بمثله أو بشيء من مثله ليس أمراً مقصوداً لذاته، وليس هو الغاية في نفسه، **ولكن المقصود هو اللازم الناتج عن هذا الإعجاز**، وهو إظهار وإثبات أن هذا الكتاب حقٌ، ووحي من عند الله تعالى، ومقتضى ذلك كله إثبات صدق الرسول ﷺ فيما جاء به قومَه من الرسالة، ودعاهم إليه من الإسلام، وعليه فإن حقيقة الإعجاز وهي إثبات العجز لمن وقع عليه التحدي استلزمت إظهار هذا العجز، وهذا الإظهار بدوره استلزم إظهار صدقِ رسول الله ﷺ وهو المقصود الأول من الإعجاز[(3)].

ويمكن أن يقال أيضاً إنَّ: « العجز ناشئ عن طبيعة الإنسان وظروفه الوجودية: فالتركيبة العنصرية والنفسية والذهنية لابن آدم تمنعه من الإحاطة بالمواقف والأشياء، وهو خطَّاءٌ وإن حاول جاهدا أن يحترس من الخطأ، فضلا عن الهوى– الظاهر والخفي– يلبس عليه أموره فيريه الباطل حقا والحق باطلا»[(4)]، وهذا الضعف الوجودي ملموسٌ أكثر في مجال الكلام إنتاجاً وتلقياً .. ومقتضى قوله تعالى: ﴿فَإِن لَّمْ تَفْعَلُواْ وَلَن تَفْعَلُواْ﴾ البقرة: ٢٤: أن أي كلام للبشر لا بد أن يتخلله "الخطأ" أو يكمن فيه.

(1) – مداخل إعجاز القرآن، محمود شاكر، (ص: 127).

(2) – النبوات، تأليف: أحمد بن عبد الحليم بن تيمية الحراني أبو العباس، المطبعة السلفية – القاهرة، 1386هـ، (تحقيق: عبد العزيز بن صالح الطويان)، (ج1/ ص: 31).

(3) – عناية المسلمين بإبراز وجوه الإعجاز في القرآن الكريم، المؤلف: محمد السيد جبريل، الناشر: طُبع بمجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف بالمدينة المنورة، سنة النشر: 1421هـ، (ص: 7).

(4) – ملتقى أهل اللغة (2/ 325)، مقال لأبي عبد المعز: أوراق في إعجاز القرآن: مساهمة نقدية لمفهوم "الإعجاز"، نُشر بتاريخ: 2010/10/25 رابطه:

http://www.ahlalloghah.com/showthread.php?t=2940

المطلب الثالث: مناقشة القيود في تعريف " المعجزة"

مرّ فيما سبق أَنَّ الْمُعْجِزَةَ أَمْرٌ خَارِقٌ لِلْعَادَةِ مقرون بالتحدي سالم عن الْمُعَارَضَةِ وَهِيَ إِمَّا حِسِّيَّةٌ وَإِمَّا عَقْلِيَّةٌ، ومن التعاريف الجامعة للمعجزة: « أمر خارق للعادة، مقرون بالتحدي، سالم من المعارضة، يجريه الله تعالى على يد نبيه، شاهدًا على صدقه»[1].

ويمكن أن تناقش هذه القيود المذكورة في التعريف ، ومن أكثر العلماء مناقشة لهذه الشروط ابن تيمية رحمه الله في كتابه النبوات، لذلك كان هو عمدتي في هذه المناقشة، وهذا أوان مناقشة هذه القيود قيداً قيداً:

الفرع الأول: قيدُ خرق العادة

من القيود التي وضعها العلماء في تعريفهم للمعجزة كونها **خارقةً للعادة**، وليس كل العلماء رضي بهذا القيد بل الناس فيه على مذاهب ثلاث ذكرها ابن تيمية في كتاب النبوات، في قوله: « أما تسميتها بخرق العادة: فللنّاس في ذلك ثلاثة أقوال:

أحدها: أنّ ذلك حدّ لها مطّردٌ منعكسٌ؛ فكلّ خرقٍ هو معجزة للنبي، فهو خرق عادة.

والثاني: أنّ خرق العادة شرطٌ فيها، وليس بحدّ لها، فيجب أن تكون خارقة لعادة، ولكن ليس كلّ خارق للعادة يكون آيةً لنبيّ؛ كأشراط الساعة، بل أن يقع على وجه مخصوص؛ مثل دعوى النبوة، والاستدلال بها، والتحدي بمثلها، مع عجز الناس عن معارضته.

والقول الثالث: أنّ كونها خارقة للعادة ليس بحدّ، ولا شرط»[2]

ومهما يكن من شيء فإن العلماء الذين تكلموا في إعجاز القرآن يكادون يطبقون على اشتراط أن تكون المعجزة خارقة للعادة، بمعنى أن تكون آيته غير معتادة للآدميين، ولكن بعض المحققين كابن تيمية جعل هذا القيد غير صحيح و لا لازم للمعجزة، فقال: « **لكن ليس في هذا ما يدلُّ على أن كلّ خارقٍ آيةٌ**؛ فالكهانة والسحر هو معتاد للسحرة والكهان وهو خارق

(1) – دراسات في علوم القرآن، لفهد الرومي، (ص: 257).

(2) – النبوات، لابن تيمية، (ج 2/ ص: 785)

بالنسبة إلى غيرهم، كما أنَّ ما يعرفه أهل الطب والنجوم والفقه والنحو هو معتاد لنظرائهم وهو خارق بالنسبة إلى غيرهم ولهذا إذا أخبر الحاسب بوقت الكسوف والخسوف تعجب الناس إذا كانوا لا يعرفون طريقه، فليس في هذا ما يختص بالنبي»[1].

ثم يواصل ابن تيمية الاعتراض على هذا القيد قائلاً: « **فكونه خارقا للعادة ليس أمرا مضبوطًا**، فإنه إن أريد به أنه لم يوجد له نظير في العالم فهذا باطل فإن آيات الأنبياء بعضها نظير بعض بل النوع الواحد منه كإحياء الموتى وهو آية لغير واحد من الأنبياء وإن قيل إن بعض الأنبياء كانت آيته لا نظير لها كالقرآن والعصا والناقة لم يلزم ذلك في سائر الآيات ثم هبْ أنه لا نظير لها في نوعها لكن وجد خوارق العادات للأنبياء غير هذا فنفس خوارق العادات معتادٌ جميعه للأنبياء بل هو من لوازم نبوتهم.

ثم مثَّلَ لذلك ما كان من عمل سحرة فرعون في قصة موسى عليه السلام « فكان من تمام علمهم بالسحر أن السحر معتادٌ لأمثالهم وأن هذا ليس من هذا الجنس بل هذا مختص بمثل هذا، فدلَّ على صدق دعواه وفرعون وقومه بين معاند وجاهل استخفَّهُ فرعون كما قال ﷻ : ﴿فَٱسۡتَخَفَّ قَوۡمَهُۥ فَأَطَاعُوهُۚ﴾ الزخرف: ٥٤»[2].

ومن المآخذ التي استدرك بها أيضا على هذا القيد، **أنه لم يكن له وجود في كلام الله ﷻ ورسوله** ﷺ وأئمة السلف، ولذلك كان نهاية ما انتهى إليه محققوهم –من أهل الكلام-؛ أن لم يشترطوا خرق العادة في المعجزة، فقال: « فلهذا لم يكن في كلام الله ورسوله وسلف الأمة وأئمتها وصف آيات الأنبياء بمجرد كونها خارقة للعادة، ولا يجوز أن يجعل مجرد خرق العادة هو الدليل، فإن هذا لا ضابط له وهو مشترك بين الأنبياء وغيرهم ولكن إذا قيل من شرطها أن تكون خارقة للعادة بمعنى أنها لا تكون معتادة للناس فهذا ظاهرٌ يعرفه كل أحد»[3]

ومما اُستدرِك به أيضا في نقض هذا القيد كونه لفظٌ لم يحقق المتكلمون به معناه، وذلك قوله: « وهؤلاء **تكلّموا بلفظ لم يحققوا معناه**؛ وهو لفظة خرق العادة، وقالوا: العادات تنقسم إلى عامّةٍ، وخاصّةٍ؛ فمنها ما يشترك فيه جميع الناس، في جميع الأعصار؛ كالأكل، والشرب،

---

(1) – المرجع السابق، (ج1/ ص 164)
(2) – يُنظر النبوات، لابن تيمية، (ج1/ ص: 170)
(3) – المرجع نفسه، (ج1/ ص: 173)

واتقاء الحر والبرد، والخاصّ منها: ما يكون كعادة للملائكة فقط، أو للجنّ فقط، أو للإنس دون غيرهم؛ قالوا: ولهذا صحّ أن يكون لكلّ قبيلٍ منهم ضربٌ من التحدّي، وخرقٌ لما هو عادةٌ لهم دون غيرهم، وحجّةٌ عليهم دون ما سواهم.

ومنها ما يكون عادة لبعض البشر؛ نحو اعتياد بعضهم صناعة، أو تجارة، أو رياضة في ركوب الخيل، والعمل بالسلاح، لكن هذه كلّها مقدورات للبشر.

قالوا: وآيةُ الرسل لا تكون مقدورةً لمخلوق، بل لا تكون إلا مما ينفرد الله بالقدرة عليه، فإذا قالوا هذا، ظنّ الظانُّ أنّهم اشترطوا أمراً عظيماً...ولم يشترطوا شيئا؛....

فلم يبق **لقولهم خرقٌ للعادة معنى معقول،** لهذا قال محققوهم إنّه لا يُشترط في الآيات أن تكون خارقةً للعادة»[1].

كما بيّن رَحِمَهُ اللَّهُ أنه ليس لله عادةٌ ينقضها على الصحيح، فقال: « ولم تكن له ﷻ عادةٌ؛ بأن يجعل مثل آيات الأنبياء لغيرهم، حتى يقال: إنه خرق عادته ونقضها، بل عادته وسنته المطردة أنّ تلك الآيات لا تكون إلا مع النبوة، والإخبار بها، لا مع التكذيب بها، أو الشكِّ فيها، كما أنّ سنته وعادته: أنّ محبته، ورضاه، وثوابه لا يكون إلا لمن عبده وأطاعه، وأنّ سنته وعادته أن يجعل العاقبة للمتقين، وسنّته وعادته أن ينصر رسله، والذين آمنوا؛ كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ قَاتَلَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوَلَّوُا الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ۝٢٢ سُنَّةَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلُ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا ۝٢٣﴾ الفتح: ٢٢ – ٢٣، وكلّ ما يُظنّ أنّه خرقه من العادات، فله أسباب انخرقت فيها تلك العادات، فعادته وسنته لا تتبدل؛ إذ أفعاله جارية على وجه الحكمة والعدل»[2]، كأنه يريد أن يقول بأن آيات الأنبياء عَلَيْهِمُ السَّلَامُ هي من قبيل السنن الخاصّة التي تجري على خلاف السنن العامة التي ألفها الناس، لأجل تحقيق حكمة من الله تعالى اقتضت ذلك.

وخلاصة ما ذكره ابن تيمية في عدم لزوم هذا القيد في المعجزة مردّه إلى أمورٍ هي:

- اختلاف العلماء في اعتبار هذا القيد، فهو ليس أمراً متفقاً عليه بل ذكر أن المحققين من أهل الكلام أنفسهم لم يرضوا بهذا القيد وأنكروه.

---

(1) – النبوات، لابن تيمية، (ج 1/ ص: 196-199) بتصرف.

(2) – المرجع نفسه، (ج2/ ص: 869)

- لا يلزم أن يكون كل خارقٍ آية ومعجزة
- أن ذلك أمرٌ غير منضبط.
- أنه قيدٌ لم يكن معروفا في كلام الله ﷻ ورسوله ﷺ ولا السلف رحمهم الله
- وأن المتكلمين به المشترطين له تكلموا عن حقيقته بما لا يُدرك له معنىً.

وممن انتقد هذا القيد في تعريف المعجزة، ابن أبي العز الحنفي في شرحه على الطحاوية، إذ يقول: « وَالطَّرِيقَةُ الْمَشْهُورَةُ عِنْدَ أَهْلِ الْكَلَامِ وَالنَّظَرِ، تَقْرِيرُ نُبُوَّةِ الْأَنْبِيَاءِ بِالْمُعْجِزَاتِ، لَكِنْ كَثِيرٌ مِنْهُمْ لَا يَعْرِفُ نُبُوَّةَ الْأَنْبِيَاءِ إِلَّا بِالْمُعْجِزَاتِ، وَقَدْ رُوِيَ ذَلِكَ بِطُرُقٍ مُضْطَرِبَةٍ، وَالْتَزَمَ كَثِيرٌ مِنْهُمْ إِنْكَارَ خَرْقِ الْعَادَاتِ لِغَيْرِ الْأَنْبِيَاءِ، حَتَّى أَنْكَرُوا كَرَامَاتِ الْأَوْلِيَاءِ وَالسِّحْرِ، وَنَحْوَ ذَلِكَ، وَلَا رَيْبَ أَنَّ الْمُعْجِزَاتِ دَلِيلٌ صَحِيحٌ، لَكِنَّ الدَّلِيلَ غَيْرُ مَحْصُورٍ فِي الْمُعْجِزَاتِ»(1).

فاضطراب أهل الكلام في هذا القيد بين من ينكره تماما، وبين من يجعله شرطا أساسا للمعجزة، يدلنا على اعتبار القيد "خرق العادة"، إنما يصلح في بعض الآيات وليس كل الآيات، وأنه لا بد من الإفصاح عن حقيقته التي بها ينضبط القيد.

الفرع الثاني: قيدُ استحالة المعارضة

ومن القيود التي أدرجت في تعريف المعجزة، أن لا يمكن معارضتها، وهو قيد منتقدٌ عند بعض أهل العلم لذلك لم يُعتدَّ به، وألغى اعتباره في التعريف، وقد رد ابن تيمية هذا الضابطَ وعدَّهُ غير كافٍ لوجهين:

« **أحدهما:** أن كون الشيء معتادا وغير معتاد أمرٌ نسبيٌّ إضافيٌّ **ليس بوصف مضبوطٍ تتميّز به الآية** بل يعتاد هؤلاء مالم يعتدْ هؤلاء مثل كونه مألوفا ومجربا ومعروفا ونحو ذلك من الصفات الإضافية.

---

(1) – شرح العقيدة الطحاوية، المؤلف: ابن أبي العز الحنفي الدمشقي، تحقيق: أحمد شاكر، الناشر: وزارة الشؤون الإسلامية، والأوقاف والدعوة والإرشاد المملكة العربية السعودية، الطبعة: الأولى – 1418 هـ.، (ص: 109).

الثاني: أن مجرد ذلك مشترك بين الأنبياء وغيرهم وإذا خُصَّ ذلك بعدم المعارضة **فقد يأتي الرجل بما لا يقدر الحاضرون على معارضته ويكون معتادا لغيرهم كالكهانة والسحر، وقد يأتي بما يمكن معارضته وليس بآية لشيء لكونه لم يختص بالأنبياء**»[1]

« فلابدَّ في آيات الأنبياء من أن تكون مع كونها خارقة **للعادة أمرًا غير معتاد لغير الأنبياء** بحيث لا يقدر عليه إلا الله الذي أرسل الأنبياء ليس مما يقدر عليه غير الأنبياء لا بحيلة ولا عزيمة ولا استعانة بشياطين ولا غير ذلك.

ومن خصائص معجزات الأنبياء أنه لا يمكن معارضتها **فإذا عجز النوع البشري غير الأنبياء** عن معارضتها كان ذلك أعظم دليل على اختصاصها بالأنبياء **بخلاف ما كان موجوداً لغيرها فهذا لا يكون آية ألبتة**»[2]

فابن تيمية يرى أن اشتراط عدم معارضتها يكون مخصوصا بغير الأنبياء، بحيث لا يقدر عليه إلا الله ﷻ الذي أرسل الأنبياء بتلك الآيات.

وههنا أيضا لازم يضعف هذا القيد في تعريف المعجزة: « فعلى مذهبهم في تعريف المعجزة، وأنها أمر خارق للعادة، مقرون بالتحدي يظهر على يد نبي، سالم من المعارضة – يجعل الفرق بين المعجزة وبين السحر والشعوذة هو فقط عدم المعارضة، وكونها جاءت على يد مدعي النبوة – وهذا فرق ضعيف جدا، لأن مسيلمة الكذاب، والأسود العنسي وغيرهما لم يعارضوا، فلو أنهم أتوا بسحر وكهانة وادعوا النبوة، فما الفرق بينهم وبين معجزة الأنبياء؟!»[3]

الفرع الثالث: قيد التحدي:

وأمَّا شرطُ التحدي فردُّه من أظهر الأمور، فإنه يلزم من اعتباره لوازم باطلة، « ومما يلزم أولئك أنَّ ما كان يظهر على يد النبيّ ﷺ في كل وقتٍ من الأوقات ليست دليلاً على نبوّته؛ لأنّه لم يكن كلما ظهر شيءٌ من ذلك احتجّ به، وتحدّى الناس بالإتيان بمثله، **بل لم ينقل عنه**

(1) – النبوات، لابن تيمية، (ج1/ ص: 174)
(2) – المصدر نفسه،، (ج1/ ص: 195)
(3) – موقف ابن تيمية من الأشاعرة، تأليف: عبد الرحمن بن صالح بن صالح المحمود، الناشر: مكتبة الرشد – الرياض، الطبعة: الأولى، 1415 هـ / 1995 م، (ج3/ص: 1380)

التحدي إلا في القرآن خاصّة، ولا نُقل التحدي عن غيره من الأنبياء؛ مثل موسى، والمسيح، وصالح عليهم السلام ولكنّ السحرة لمّا عارضوا موسى، أبطل معارضتهم.

وهذا الذي قالوه يُوجب أن لا تكون كرامات الأولياء من جملة المعجزات، وقد ذكر غيرُ واحدٍ من العلماء أنّ كرامات الأولياء معجزات لنبيهم، وقد ذكر غير واحد من العلماء أنّ كرامات الأولياء معجزات لنبيّهم، وهي من آيات نبوته، وهذا هو الصواب»(1)

وهؤلاء قالوا: لا يكون دليلا إلا إذا ذكره المستدل؛ وهذا باطلٌ، وكذلك الدليل، هو دليلٌ؛ سواءٌ استدلّ به مستدلّ، أو لم يستدلّ. وهؤلاء قالوا: لا يكون دليل النبوة دليلاً، إلا إذا استدلّ به النبيّ حين ادّعى النبوة؛ فجعل نفس دعواه، واستدلاله، والمطالبة بالمعارضة، وتقريعهم بالعجز عنها؛ كلها جزءاً من الدليل.

وهذا غلطٌ عظيمٌ، بل السكوت عن هذه الأمور أبلغ في الدلالة، والنطق بها لا يُقوّي الدليل. والله تعالى لم يقُل: ﴿فَلْيَأْتُوا۟ بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِۦٓ﴾ الطور: ٣٤، إلاّ حين قالوا: افتراه؛ لم يجعل هذا القول شرطاً في الدليل، بل نفس عجزهم عن المعارضة هو من تمام الدليل»(2).

فاستبان مما سبق أن شرط التحدي تركه أبلغ في آيات الأنبياء ومعجزاتهم، وأن اعتباره في التعريف ليس بلازم ألبتة، ولو صحّ له اعتبار وحقيقة لكان في إعجاز القرآن، معناه ، **فالإعجاز ليس بمعنى جعلهم عاجزين كما يقوله أهل الصرفة؛ بل هو بمعنى نسبتهم إلى العجز على سبيل التحدي والتهييج**، كما تقول:" أنت عاجز وضعيف" لمن تريد أن تستنهض همته وتحفزه على الفعل فيثور من جراء ما نسبته للعجز والضعف!

وهذا هو المعنى الصحيح لآيات التحدي، ولذلك اعتبره العلماء وتواردوا على ذكره، قال الزيدي في كتابه إثبات نبوة النبي ﷺ : « النبي ﷺ ادعى النبوة، وأتى بالقرآن، وادعى أنه معجزٌ قد أنبأه ﷻ به، وجعله دلالة على صحة دعواه، وبرهاناً على صدقه، وتحدى به العرب قاطبةً، وقرعهم بالمعجز عن الإتيان بمثله، بل السورة مثله؛ وفيهم الخطباء والشعراء والبلغاء وهم الغاية في البيان، وأولوا المعرفة بمواقع الكلام وأجناسه وأساليبه من المنثور والمنظوم، ولهم العادة

(1) – النبوات، لابن تيمية (ج1/ ص: 541)
(2) – المرجع نفسه، (ج1/ص: 605)

المشهورة في التفاخر بالبلاغة والفصاحة، والمعرفة بطرق المعارضات، ومزايا المخاطبات مع ما كانوا عليه من الحميّة والأنفة والعصبيّة.

ومع شدّة حرصهم على تكذيبه وتوهين أمره، وإبطال دعواه، حتى بذلوا لذلك ما عزَّ وهان من النفس فما دونها، وهو ﷺ يتحداهم، ويقرّعهم بالعجز، ويدعي أن حجته وبيّنته، ويذمُّ مع ذلك أديانهم ويسبُّ آلهتهم التي اتخذوها من دون الله ﷻ، ويدعوهم إلى طاعته، والتصرف على أمره ونهيه، واستمر على ذلك زمانا بعد زمان فلم يعارضوه، وعدلوا إلى الحرب التي هي أشقُّ فقاتلوا حتى قُتِلوا، فدلّ ذلك على: أن عدولهم عن معارضة القرآن لم يكن إلا لتعذره عليهم، إذ لا يجوز على العقلاء إذا حاولوا أمراً أن يعدلوا لمحاولته من الأسهل إلى الأعضل، ومن الأيسر إلى الأعسر، إذا كانوا متمكنين منهما، وإذا ثبت تعذرها عليهم ثبت أنها على غيرهم أشدُّ تعذراً»[1].

بل قال: « قد ذهب كثيرٌ من العلماء ومجيدو العلم بأنه ﷺ تحدى به ضرورة، كالعلم بأنه ادعى النبوة، وأتى بالقرآن، وإن كان العلم بهذين أجلُّ من العلم بالتحدي»[2].

فأمر التحدي بالقرآن ظاهر من القرآن نفسه بالمكان الذي لا ينبغي الجهل به، وليس ذلك لسائر آيات الأنبياء عليهم السلام[3]، يقول محمد فاروق: « القرآن هو معجزة الرسول ﷺ

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

---

(1) – إثباة نبوة النبي ﷺ، لأبي الحسين أحمد بن الحسين الزيدي، تحقيق: خليل أحمد إبراهيم الحاج، المكتبة العلمية- بيروت- د ت ط، (ص19).

(2) – المصدر السابق، (ص21).

(3) – **ومواضع التحدي الصريح في القرآن الكريم ستةٌ**: كما أفاده الزيدي في كتابه إثبات نبوة النبي ﷺ، (ص 22-24)؛ وهي: (الموضع الأول في سورة البقرة: ﴿وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٢٣﴾﴾ البقرة: ٢٣، والثاني: في سورة يونس عليه السلام : ﴿قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٣٨﴾﴾ يونس: ٣٨، والثالث في سورة هود عليه السلام: ﴿قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ﴾ هود: ١٣، ، الرابع في سورة الإسراء: ﴿قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَٰذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴿٨٨﴾﴾ الإسراء: ٨٨، ، الخامس في سورة القصص: ﴿قُلْ فَأْتُوا بِكِتَابٍ مِّنْ عِندِ اللَّهِ هُوَ أَهْدَىٰ مِنْهُمَا أَتَّبِعْهُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٤٩﴾﴾ القصص: ٤٩، والسادس والأخير جاء ذكره في سورة الطور: ﴿فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِ إِن كَانُوا صَادِقِينَ ﴿٣٤﴾﴾ الطور: ٣٤.

الكبرى، وهناك معجزات أخرى، ومعجزة القرآن معجزة تحدي، وليس الأمر كذلك بالنسبة للمعجزات الأخرى»(1).

ويزاد على ذلك فيقال إن التحدي بالقرآن لم يكن في زمن نزوله فقط، إنما هو مستمر ما دام القرآن يتلى، وتتلى منها آيات التحدي، ولذلك قال الزيدي مقرعاً على المخالفين: « هبْكُم شككتم في وقوع التحدي بمكة والمدينة أيام رسول الله ﷺ على أنّا قد بيّنا ما يزيل الشكُّ فيه ألستم تتيقنون وقوعه من أيام عمر وعثمان رضي الله عنهما إلى يومنا هذا، يكرر على أسماع كل مخالف لدين الإسلام منحرف عن تصديق الرسول ﷺ ينقلونه بالتقريع، والعيب الوجيع، للعجز الظاهر عن الإتيان بمثله، وهذا كافٍ في التحدي ووقوعه»(2)

وقد ذكر الباقلاني فائدة للتحدي بالآية في القرآن خاصة، فقال: « إنما احتيج إلى التحدي لإقامة الحجة وإظهار وجه البرهان على الكافة لأن المعجزة إذا ظهرت فإنما تكون حجة بأن يدعيها من ظهرت عليه، ولا تظهر على مدعٍ لها إلا وهي معلومة أنها من عند الله عز وجل، فإذا كان يظهر وجه الإعجاز فيها للكافة بالتحدي وجب فيها التحدي، لأنه تزول بذلك الشبهة عن الكل وينكشف للجميع أن العجز واقع عن المعارضة»(3).

وقد أكد هذه الاعتبارات فهد الرُّومي، مبيناً أن التحدي، يقع في بعض الآيات، « وذلك لأمرين:

أولهما: إثبات عجز المخاطبين عن الإتيان بمثلها وعدم ادعائهم أو من بعدهم عدم وجود الداعي للإتيان بمثلها

وثانيهما: إقامة الحجة عليهم عند عجزهم»(4).

وفي ختام هذا المطلب يمكن أن يقال كنتيجة عامة في نقد القيود المذكورة في تعريف المعجزة؛ « آيات الأنبياء عليهم السلام وسلامه لا تُحَدّ بحدود يُدخل فيها غير آياتهم؛ كحدّ بعضهم كالمعتزلة وغيرهم بأنّها خرق العادة، ولم يعرف مسمّى هذه العبارة، بل ظنّ أن خوارق السحرة،

(1) – المدخل إلى علوم القرآن الكريم، لمحمد فاروق النبهان، (ص: 233).

(2) – إثباة نبوة النبي ﷺ، (ص: 30).

(3) – إعجاز القرآن، للباقلاني، (ص: 24)

(4) – دراسات في علوم القرآن الكريم، المؤلف: أ. د. فهد بن عبد الرحمن بن سليمان الرومي، الطبعة: الثانية عشرة، د م ط، سنة النشر: 1424هـ - 2003م، (ص: 261).

والكهان، والصالحين: خرقٌ للعادة؛ فكذّبها؛ وحدّ بعضهم بأنّها الخارق للعادة، إذا لم يُعارضه أحدٌ، وجعل هذا فصلاً احترز به عن تلك الأمور؛ فقال: المعجزة هي الخارق المقرون بالتحدي بالمثل، مع عدم المعارضة، وجوّز أن يأتي غير الأنبياء بمثل ما أتوا به سواء مع المعارضة. وجعل ما يأتي به الساحر والكاهن معجزات، مع عدم المعارضة، وحقيقة المعجز هذا ما لم يعارض، ولا حاجة إلى كونه خارقاً للعادة، بل الأمور المعتادة إذا لم تُعارض كانت آية، وهذا باطلٌ قطعاً. ثمّ مسيلمةُ، والأسودُ العنسيُّ، وغيرهما، لم يُعارَضُوا»[1].

وقد عقد الشريف المرتضى في كتابه "الذخيرة في علم الكلام" فصلاً في وقوع التحدي بالقرآن فقال: « ...لأنا لا نريد بالتحدي أكثر من أنه ﷺ كان يدعي أنه ﷻ خصّه بالقرآن وأبانه به، وأن جبريل عليه السلام يهبط به، وما في ذلك إلا ما هو معلومٌ بالضرورة لا يتمكن أحدٌ من دفعه، وهذا هو غاية التحدي في المعنى والبعث على إظهار معارضته له فيه إن قدر عليها.

ومما يدلُّ أيضاً عليه في ثبوت التحدي: أنه ﷺ بغير شبهة دعا الناس إلى نبوته والعمل بشريعته، وخلع ما كانوا عليه من الأديان، ولا بدّ فيمن ادّعى إلى مثل هذه الحال بل إلى ما دونها كثيراً من إظهار أمرٍ يحتجُّ به أو شبهة، ولو عريت دعواه ﷺ من أمرٍ يُحتجُّ به لأسرع القوم إلى مطالبته بما يقتضي تصديقه...، ولو لم يكن محتجا بشيء كيف استجاب له من استجاب من الفصحاء والفضلاء، وما جرت العادة أن يستجيب مثل هؤلاء إلا بحجة أو شبهة...

ومن المعتمد في وقوع التحدي أن القرآن قد ثبت صحّة نقله والعلم بأن آيات التحدي والتقريع والبعث على المعارضة من جملته ضوري على ما بيناه، وآيات التحدي صريحة في المطالبة بالمعارضة فلا غاية ورائها في باب التحدي»[2]

« فمجرد العلم بهذه الآيات يُوجب علماً ضرورياً بأنّ الله جعلها آيةً لصدق هذا الذي استدلّ بها، وذلك يستلزم أنّها خارقة للعادة، وأنّه لا يمكن معارضتها، فهذا من جملة صفاتها، لا أنّ هذا وحده كافٍ فيها»[3].

(1) – النبوات، لابن تيمية، (ج2/ص: 773- 774)

(2) – الذخيرة في علم الكلام، تأليف: علي بن الحسين بن موسى الشريف المرتضى، مؤسسة التاريخ العربي، بيروت لبنان، الطبعة الأولى: 1433هـ، 2012م.، (ص: 365-366).

(3) – النبوات، لابن تيمية، (ج2/ص: 775)

مع أن بعض العلماء أوجد فرقا بين المعجزات ودلائل النبوّة، ليسلم له شرط التحدي في الآية، فقال: « وقد فرَّق بعض العلماء بين الخارقة التي يتحدَّى بها الرَّسول القوم، ويجعلها آية صدقه وبرهان صحَّة رسالته، وبين الخارقة التي لا تقترن، بالتحدي، وتقع بين المؤمنين برسالة الرسول، فأطلقوا على النوع الأول اسم "المعجزات"، وأطلقوا على النوع الثاني اسم "دلائل النبوَّة"»[1]، وهو تفريقٌ لا طائل من ورائه.

ومما يجدر التنبيه عليه فيما يتعلق بالتحدي أنه « لا يلزم أن يكون التحدي بلسان المقال كما فهمه بعض المعاصرين، وإنما يكون بلسان المقال وبلسان الحال؛ إذ المقام مقام صراع، وعناد، واحتجاج يغني فيه الحال عن المقال في بعض المقام»[2].

وفي خاتمة هذا المبحث يمكن القول أن مصطلح الإعجاز بالقيود التي ذكرها العلماء الذين ارتضوها حداً للمعجزة، هي قيود منتقدة، والفساد- عند التحقيق- فيها ظاهرٌ، ولكن هذا لا يُتخذ مطيَّة لإنكار هذا المصطلح الذي تواطئت عليه الأقلام منذ قرون متطاولة، وآمادٍ متفاوتة، فإن ذلك من الجهل والتهور؛ ولكن السبيل في التحقيق أن يُأتى بالتعريف الذي ترضاه اللغة ويرضاه العلم أن يصلح حداً للمعجزة خاليا من الاعتراض، يقول محمود شاكر في هذا الصدد: « ولكن مهما بلغت هذه الأمور من الخطر، فإنها لا تستطيع أن تُسقط هذين اللفظين: "إعجاز القرآن"، و"معجزات الأنبياء" من أقلام المحْدَثين، ولا تنتزعه من تراث اللغة المكتوبة في مصنّفات علماء الأمة منذ القرن الثالث للهجرة إلى يومنا هذا.

فكان من أعدلُ الطُّرق عندي هو إثبات تعريف صحيح من مجاز اللغة للفظ "الإعجاز"، و لفظ " المعجزة"، لا يختلف الناسُ عليه، مهما تباينت آراؤهم»[3].

فما هو التعريف الذي يصلحُ لإعجاز القرآن؟ وللمعجزة؟

---

(1) – مباحث في إعجاز القرآن، تأليف: مصطفى مسلم، دار المسلم المملكة العربية السعودية، الطبعة الثانية :1416هـ /1996م.، (ص: 17).

(2) – دراسات في علوم القرآن، لفهد الرومي، (ص: 262)

(3) – مداخل إعجاز القرآن، لمحمود شاكر، (ص 19).

كانت هذه المسألة من المسائل التي عرضتُ لها بشيء من الإسهاب في رسالة الماجستير[1]، وقد أوردتُ تعريفين الأول لمحمود شاكر[2]، والثاني لصلاح الخالدي، واخترتُ الثاني لعدة دواعي ذكرتها هنالك، وذلك قوله: « **معنى إعجاز القرآن**: هو عدم قدرة الكافرين على معارضة القرآن، وقصورهم عن الإتيان بمثله، رغم توفر ملكتهم البيانية، وقيام الدواعي لذلك، وهو استمرار تحديهم، وتقرير عجزهم عن ذلك»[3].

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

---

(1) – إعجاز القرآن عند محمود شاكر – عرض وتحليل- رسالة ماجستير، إعداد الطالب: عبد المطلب بوغرارة، إشراف: رابح دوب، نوقشت عام 2012م بجامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية، قسنطينة –الجزائر، يُنظر منها (ص 26 إلى ص57).

(2) – ينظر كتابه: مداخل إعجاز القرآن، (ص 15– 17).

(3) – إعجاز القرآن البياني ودلائل مصدره الرباني، لصلاح الخالدي، (ص 17)، **ثم وقفت على تعريف أحسن في قيوده وسبك عبارته للدكتور فهد الرُّومي، وذلك قوله: « ويمكن تعريفه بقولنا هو: عجز المخاطبين بالقرآن وقت نزوله ومن بعدهم إلى يوم القيامة عن الإتيان بمثل هذا القرآن مع تمكنهم من البيان وتملكهم لأسباب الفصاحة والبلاغة وتوفر الدواعي واستمرار البواعث»، دراسات في علوم القرآن، لفهد الرومي، (ص: 263).**

المبحث الثالث: مدخل في وجوه الإعجاز في القرآن الكريم

إن النّاظر في درس إعجاز القرآن يجد أن أهمَّ شيء كتب فيه علماء الإعجاز وأكثروا فيه الكلام والكتابة هو قضية بيان وجوه إعجاز القرآن وأيُّها أولى بالتقديم على الآخر، ولمّا علم العلماء مكانة بيان وجوه إعجاز القرآن ذهبوا يلتمسونها ويكشفون عنها، حتى ربما أوجب ذلك بعضهم، يقول رشيد رضا: « فالكلام في وجوه إعجاز القرآن واجبٌ شرعاً، وهو من فروض الكفاية، وقد تكلم فيه المفسرون والمتكلمون، وبلغاء الأدباء المتأنقون»[1].

وهذا مبحث فيه بعض التأصيل لقضية بيان وجوه الإعجاز التي كان بها القرآن معجزا، ومطالبه هي الآتية:

المطلب الأول: تأصيلٌ وتأسيس في وجوه الإعجاز

المطلب الثاني: القول بالصرفة في إعجاز القرآن الكريم

المطلب الثالث: الإعجاز بالنظم في القرآن الكريم

المطلب الرابع: الإعجاز العلمي في القرآن الكريم

---

(1) – إعجاز القرآن والبلاغة النبوية، مصطفى صادق الرافعي، دار التقوى للطبع والنشر والتوزيع، مصر، سنة الطبع، 1435هـ- 2014م.، من تقديم الشيخ رشيد رضا على كتابه، (ص: 40-41).

جمعية الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

المطلب الأول: تأصيلٌ وتأسيس في وجوه الإعجاز

لقد تباينت أنظار العلماء في وجوه إعجاز القرآن الكريم مباينة ظاهرة، فما يراه واحدٌ منهم أولى بالتقديم، يؤخره الآخر، بل ربما لا يرتضيه وجها للإعجاز أصلاً، **ولعلني أستطيع أن أقول – على تخوفٍ – أن هذه الصعوبة في القطع بوجهٍ من تلك الوجه يعدُّ نفسُه وجهاً من وجوه إعجاز القرآن !**[1]

وبداية يمكن أن نلحظ أنه « من خصائص النبي ﷺ ومن خصائص رسالته أن الله ﷻ هيَّأ له **معجزة عقليَّة علمية بيانية** يدركها الإنسان أو يزداد علماً بآفاقها وميادينها بمقدار إمعانه في العقل والفهم، وبمقدار ما يقف عليه من قوانين الكون وسنن الطبيعة، لا بمقدار ما يتمُّ أمامه من تجاوز لهذه القوانين، أو تعطيل لتلك السنن!»[2].

وهذا أبو عمرو الجاحظ يزيد بياناً لهذا المعنى؛ حين يقول: « مع أن محمداً ﷺ مخصوصٌ بعلامةٍ لها في العقل موقعٌ كموقع فلْقِ البحر من العين»[3]

«ولقد عرف المسلمون منذ عصر نزول القرآن شأن معجزتِه، فأكْبَروه، وبذل علماؤهم جهودهم، ووقفوا الكثير من أعمارهم على إبراز وجوه إعجاز هذا الكتاب الكريم، واستمرت هذه الجهود المباركة موفورة إلى يوم الناس هذا، فسجلت القرون المباركة وما بعدها من تاريخ المسلمين كتابات في هذا المجال لم ينقطع مددها، ولم يتوقف تتابعها»[4]

---

(1) – وعلى حسب اطلاعي على قضية وجوه إعجاز القرآن؛ لم أجد إلاّ قليلاً ممن ذهب إلى عدِّ هذا الأمر وجهاً من وجوه إعجاز القرآن، كما فعل محمد فاروق النبهان في كتابه المدخل إلى علوم القرآن، وهو وجهٌ في الإعجاز جديرٌ بأن يشاد به، يقول محمد السيد جبريل: « وهكذا نجد أنه لم يخل عصر من العصور عبر القرون الإسلامية المباركة سواء في فترات النشاط أو الفتور العلمي من تناول إعجاز القرآن بالتأليف تقعيداً أو تطبيقاً، مما ينطق بأن هذا المدد العلمي المتتابع إنما هو في ذاته أثر من آثار إعجاز القرآن الكريم»، مع أن هنا فرقاً بين كثرة تعداد وجوه إعجاز القرآن، وبين صعوبة تحديدها، وكلاهما معدود من وجوه إعجاز القرآن ينظر كتابه عناية المسلمين بإبراز وجوه الإعجاز في القرآن الكريم، لمحمد السيد جبريل، (ص: 34).

(2) – علوم القرآن وإعجازه وتاريخ توثيقه، عدنان محمد زرزور، دار الأعلام عمان /الأردن، الطبعة الأولى: 1426هـ-2005م، (ص: 463).

(3) – رسائل الجاحظ، للجاحظ، (ج3/ص:273).

(4)– عناية المسلمين بإبراز وجوه الإعجاز في القرآن الكريم، لمحمد السيد جبريل، (ص 4)

وكان أعظم الجهد من علماء الإعجاز منصباً على بيان الجهة التي كان منها إعجاز القرآن، يقول عبد الكريم الخطيب: «إن الوقوف على الجهة التي كان منها الإعجاز القرآني؛ أمرٌ لم تلتقِ عندهُ الآراءُ، ولم يكنْ محلّ اتفاقٍ بين الباحثين والناظرين في وجوه الإعجاز، في كلِّ زمان ومكان، فهناك أكثر من رأي، وأكثر من مذهب في الجهة أو الجهات التي كان بها القرآن معجزا مفحما...

وليس كذلك الشأن في معجزاتِ الأنبياء، إذ كلُّ معجزة كانت تنادي معلنةً في وضوحٍ عن صفتها التي أعجزت بها، وتشير في صراحةٍ إلى الجهة التي جاء منها الإعجازُ، فيعلم الناس لوقتهم ماذا في المعجزة من دلائل الإعجاز، وماذا فيها من القوى القاهرة المعجزة التي لا يستطيعون القيام لها، والجري معها...

أما القرآن الكريم، فشأنه غير هذا الشأن، وأمره على خلاف هذا الأمر، فهو كلماتٌ وألفاظٌ وعباراتٌ، لا تختلف عمّا ألِفَ النَّاسُ، ممَّا يجري على ألسنتهم من كلامٍ، إنه كلماتٌ مألوفةٌ معروفةٌ تعامل بها النَّاسُ، فأخذُوا بها وأعطوا، وقلبوها على جميع وجوهها في مختلف الأساليب، وشتى التراكيب.

إنَّـه لن يخرج من هذا الكلام ما يراه الناس بأعينهم، ويلمسوه بأيديهم، وإنما على الناس أنفسهم أن يسمعُوا لهذا الكلام، وأن يتدبَّرُوا آياته، وعندئذ يرون ببصائرهم – لا بأبصارهم- في كل آية معجزة قاهرة، وتخضع لها الرقاب»[1].

وهذه الخصائص القرآنية بإزاء الكلام العربي تجعلك تقول إنَّ القرآن كلامٌ عربيٌّ فيه خصائصُ كلامِ العرب من جهة الإجمال ، ولكن عند المقارنة بين الكلامين تجد في القرآن خصائص لا تجده في الكلام العربي مهما بلغت بلاغته وسمقت فصاحته.

يقول عبد الكريم الخطيب: « وإنَّك أيْنَما قلَّبتَ وجوه الرَّأْي في الكلام العربـيّ وأساليبه لم تجد القرآن قد خرج على وجهٍ واحدٍ منها خروجًا غير مألوفٍ، بحيث يُعدُّ وجها جديدًا جاء به

(1)- الإعجاز في دراسات السابقين، (ص: 140-144).

القرآن مُفردًا يُرى منه وجه الإعجاز، الذي لا يقدر الناس على مثله – رؤية واضحة محددة-، ومع هذا فالقرآن معجزٌ، ولو ضاقت صدورٌ، ورغمت أنوفٌ»[1].

وقد نظر كثيرٌ من العلماء وحاولوا تفسير الإعجاز في القرآن الكريم، فتباينت آراؤهم واختلفت، « واختلافُ الكلاميين والبلاغيين وسائر العلماء والدارسين على وجه العموم في تفسير الإعجاز، أو في تعيين الوجه الذي صار به القرآن معجزاً حتى استحال على الثقلين جميعاً أن يأتوا بسورة مثله، **لا ينفي وقوع الإعجاز وثبوته**، أو يقلل من شأن القضية، بل على العكس من ذلك تماماً...

فإذا كان القرآن يخاطبُ الناسَ أو يُخاطَبُ به الناسُ في جميع العصور، من الراجح أن جيلاً من الأجيال أو عصراً من العُصُور لا يستقلُّ بتقديم نظرية أو رأي يُفسَرُ به إعجاز القرآن من كل وجه»[2]

وإنما لكلِّ ناظر في الإعجاز ما يقع له منه، وما ينكشف لبصيرته من سماته.

ولو ذهبنا نبحثُ عن إيجاد تفسيرٍ لذلك الاختلاف، يمكننا القول أنّ « منطلق الاختلاف أن كلَّ فريق ذهب إلى تلمس الإعجاز **في جانب من جوانب التميُّزِ والتفوق في القرآن**:

- فمنهم من وجد الإعجاز في البلاغة والفصاحة
- ومنهم من وجد الإعجاز في الإخبار عن أمور الغيب، مما لم يكن معروفا عند العرب
- ومنهم من وجد الإعجاز في قصص الأولين
- ومنهم من رأى في النَّظم والتأليف والتركيب والإحكام البياني مظهرا من مظاهر الإعجاز.

وهذا التعدد في الرأي دليل على الإعجاز، فالقرآن الذي وجد فيه اللغوي قمَّة في الإبداع، ووجد فيه البلاغي قمّة في الفصاحة، ووجد فيه الفقيه تشريعاً رائعَ الأحكام، ووجد فيه الفيلسوف رؤية شمولية للكون والحياة والإنسان، لا بد إلا أن يكون معجزا في كل شيء، فالإعجاز إعجاز تحدٍّ، وهو مطلقٌ ولا يتوقف عند حدود اللغة والبيان والفصاحة والبلاغة .

---

(1) – المصدر السابق، (ص: 151).

(2) – علوم القرآن وإعجازه وتاريخ توثيقه، عدنان زرزور، (ص: 464)

وإعجاز القرآن إعجاز مطلق، فهو معجز بكل ما فيه، ومن الخطأ أن نتصور الإعجاز في جانب محدود، فالإعجاز الإلهي إعجاز متعدد الجوانب، لا يتوقف عند حدود الزمان أو المكان، وهو مستمر إلى يوم الدين»[1].

فإذا آمن العربيُّ به لإعجازه البلاغي، فقد يؤمن به الرُّوميُّ لإخباره عن الأمم السابقة، كما قد يؤمن به الفارسيُّ للأنظمة التي فيه، فالقرآن معجزٌ كلُّه لفظا ومعنى ونظاماً[2].

وهذه الرؤية لإعجاز القرآن رؤيةٌ شاملةٌ لائقةٌ بالقرآن نفسه، لأن حصر الإعجاز في وجهٍ واحدٍ دون الآخر حدٌّ له والقرآن صفة الله ﷻ، وصفات الله ﷻ **يُدرك معناها ولا يحاط بها**، لجلال الله، وعظمته ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلۡمٗا ١١٠﴾ طه: ١١٠ ، إلاّ أنه لابد أن نقول هنا أنه ينبغي للوجه الذي يفسر به إعجاز القرآن أن يكون مرضياً لائقا بالقرآن، فلا يصحُّ مثلا أن يفسر إعجاز القرآن بالصرفة، أو أن يُحصر الإعجاز في وجه واحدٍ لا يتعداه إلى غيره من الوجوه التي يكون لها قبول وصلاح أن يفسر بها إعجاز القرآن.

وقد نقل السيوطي عن أبي حيان التوحيدي كلاما نقله هو بدوره عن بُندار الفارسي حين سُئل عن موضع الإعجاز من القرآن، فأجاب فقال: « هذه مسألة فيها حيْفٌ على المفتي، وذلك أنه شبيه بقولكم ما موضع الإنسان من الإنسان، فليس للإنسان موضعٌ من الإنسان، بل متى أشرت إلى جملتِهِ فقد حقَّقْتَهُ ودَلَلْتَ على ذاته، كذلك القرآن لشرفه لا يشار إلى شيء منه إلا كان ذلك المعنى آية في نفسه ومعجزة لمحاوله، وأهدى لقائله، وليس في طاقة البشر الإحاطة بأغراض الله في كتابه، فلذلك حارت العقول وتاهت البصائر عنده[3].

ومما يجدر ذكره هنا أن إعجاز القرآن يمتد « لكي يشمل حفظ الله للقرآن، ولعل الحفظ هو الإعجاز الأكبر والأوضح والأكمل، ولولا حفظ الله للقرآن لما استطاع أن يظل على امتداد السنين وتكاثر الفتن فيها، واختلاف الرأي والاجتهاد وتعدد الطوائف موحد النص، واضح

(1) – المدخل إلى علوم القرآن الكريم، لمحمد فاروق النبهان، (ص 221).

(2) – تثبيت دلائل النبوة، المؤلف: القاضي عبد الجبار بن أحمد بن عبد الجبار الهمذاني الأسد أبادي، أبو الحسين المعتزلي (المتوفى: 415هـ)، الناشر: دار العربية للطباعة والنشر والتوزيع بيروت – لبنان، د ت ط، (ص : و، من مقدمة التحقيق).

(3) – ينظر معترك الأقران في إعجاز القرآن، لأبي الفضل جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي، ضبطه وصححه: أحمد شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت لبنان، الطبعة الأولى: 1408–1988 م، (ص 10–11)

العبارة، متميزا في رسمه، يحتكم إليه في كل موقف، ويحتج فيه في كل حكم، ويجد الجميع فيه ما يبتغون من هداية وإرشاد، وما وقع من خلاف فيه من حيث الجمع والرسم والقراءة، لم يتجاوز حدود الخلاف اليسير الذي لم يُثِرْ أية ريبة في سلامة النص القرآني وقطعية آياته وسوره»[1]

أيضاً مما يحسُنُ التنبيه عليه في هذا المقام أن وجوه إعجاز القرآن الكريم المرضية، يكون بينها تفاوتٌ في الظهور والخفاء والقوّة والضعف، والقلة والكثرة، فالقول بإعجاز القرآن البلاغي أظهر من كثير من الوجوه الأخرى التي تُذكر بإزائه، لذلك نجد الإعجاز البلاغي يذكره ويرتضيه الجميع في الجملة؛ المتكلم، والبلاغي، والمؤرخ، وغير هؤلاء، لكون هذا الوجه محلَّ اتفاق في جملته عندهم، « ومن هنا كان للباحث في إعجاز القرآن أن يتتبع نظرات الناظرين في إعجاز القرآن جميعها، وأن يتفرس فيها نظراً بعد نظر، حيث يلوح له في كل نظر ملامح جديدة في وجه الإعجاز أو وجوهه»[2]

« ولقد كان من هذا أن دار الناس حول القرآن في كل اتجاه، ورصدوه من كل مطلع، وجاؤوا إليه بكل ما يملكون من قوى ذهنية، وملكات نفسية وروحية، يدروسونه ويتدارسونه فما تركوا منه حرفاً إلا نظروا فيه نظرا مردداً، ولا كلمةً إلا وقفُوا إزاءها خاشعين متأملين، ولا آيةً إلا عاشوا فيها متعبدين متوسمين»[3]، فاجتمع عندنا بإثر ذلك هذا الزخم الكبير والتراث العظيم في الدراسات المتعلقة بالإعجاز القرآني، وتكاثرت وجوه إعجازه كثرةً هائلةً.

وما أحسن ما قيل في إعجاز القرآن الكريم « إن متعة السمر لا تكون إلا بتجاذب أطراف الحديث .. ومتعة الأكل لا تكون إلا بتعدد الأصناف على المائدة ... ومتعة القصيد لا تكون إلا بتعدد أغراضه ... هذا ما أدركه البدوي بسليقته وحدسه الفطري ... وبهذا نزل القرآن ... !، وإن من إعجاز القرآن أن تأخذك السورة في سياحة فكرية وشعورية تجوب بك الجغرافيا

(1) – المدخل إلى علوم القرآن الكريم، لمحمد فاروق النبهان، (ص: 221).
(2) – الإعجاز في دراسات السابقين، لعبد الكريم الخطيب، (ص 155).
(3) – المصدر نفسه، (ص 147).

والتاريخ، والسماء والأرض، وتجمع لك العبرة والوصية، والموعظة والخبر، والقانون والمثل ... حتى لتقول كيف اجتمع كل هذا في السورة؟ إن الله جمع في السورة عالما بأكمله»(1).

ولو أن الإنسان كُلِّف بالوقوف على ماهية الروح، لكان ذلك الطلب منه أهون من الوقوف على ماهية الإعجاز، وقد قال الله ﷻ في الروح: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٨٥﴾﴾ الإسراء: ٨٥، وقال عن كلماته التي منها القرآن: ﴿قُل لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّي لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِۦ مَدَدًا ﴿١٠٩﴾﴾ الكهف: ١٠٩، وقال أيضا: ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِي ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَٰمٌ وَٱلْبَحْرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَٰتُ ٱللَّهِۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٧﴾﴾ لقمان: ٢٧.

إذن يمكننا القول: « إن سرَّ الإعجاز مضمرٌ في كلمات القرآن، كلمةً كلمةً، وآيةً آيةً، إنه أمر من أمر الله، كالروح تُرى آثارها، وتشاهد أفعالها، دون أن ينكشف للناس شيء منها، ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٨٥﴾﴾ الإسراء: ٨٥، والقرآن روح تتجلى آثاره في هذه الكلمات المنظومة في آياته، ولعل في قوله ﷻ للنبي الكريم ﷺ: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا﴾ الشورى: ٥٢، وقوله جل شأنه: ﴿يُنَزِّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ بِٱلرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ﴾ النحل: ٢، لعل في هذا ما يعين على الفهم الذي فهمناه من أن القرآن "روح" من روح الحق جلَّ وعلا»(2)

---

(1) – مقال بعنوان: أوراق في إعجاز القرآن: مساهمة نقدية لمفهوم " الإعجاز "، لأبي عبد المعز (2/ 324)، هو: نُشر بتاريخ: 2010/10/25، ورابطه: http://www.ahlalloghah.com/showthread.php?t=2940

(2) – الإعجاز في دراسات السابقين، لعبد الكريم الخطيب، (ص: 178).

المطلب الثاني: القول بالصرفة في إعجاز القرآن الكريم

شهد القرن الثاني وأوائل القرن الثالث الهجريين فيما يتعلق بدرس إعجاز القرآن الكريم ظهور مقولةَ أبي اسحاق النّظام بالقول بالصرفة في إعجاز القرآن التي لم يُسبق إليها من قبلُ، أو على الأقل لم تشِعْ إلاّ بعده، وما إن شاعت تلك المقولة حتى استفرت أمة القرآن، فدفعت بعقول العلماء لردّها، وبيان بطلانها وزيفها، كما أوضحنا من قبل، وكذلك لإبراز أوجه إعجاز القرآن الكريم المتعددة التي هي أولى بالقرآن منها[1]، وحتى لا تحُلَّ الصرفة مكانها، **فما هي حقيقة الصَّرفة، التي جاء بها النظّام، ليفسر بها إعجاز القرآن، ويحصره فيها دون سواها؟**

«القول بالصرفة يقوم أساساً على اعتبار أن القرآن في ذاته، أي بلفظه وأسلوبه غير معجز، وأن عدم إتيان العرب بمثله ليس علّتَه عدم قدرتهم على ذلك، فهم البلغاء الفصحاء، ولكن العلَّة في ذلك راجعة إلى أن الله ﷻ قد صرفهم عن المحاولة، وسلب علمهم الذى كان يمكن به- في نظر القائل بذلك- أن يأتوا بمثل القرآن، فهم كانوا قادرين، لكنهم لم ينشطوا لهذا الأمر، أو لم تتوفر الدواعي لديهم للمعارضة ابتداءً»[2]، فهذا قولٌ مجملٌ عن ماهية الصرفة.

وقد رأى بعض العلماء أن الصرفة لا يمكننا أن نفسرها بتفسيرٍ واحدٍ فقط، بل لها تفسيرات عديدة، كما ذكر حمزة العلوي في كتابه الطراز يقول:

«واعلم أن قول أهل الصَّرفة يمكن أن يكون له تفسيرات ثلاثة لما فيه من الإجمال، وكثرة الاحتمال كما سنوضحه:

التفسير الأول: أن يريدوا بالصَّرفة أن الله ﷻ سلب دواعيهم إلى المعارضة مع أن أسباب توفر الدواعي في حقهم حاصلةٌ من التقريع بالعجز، والاستنزال عن المراتب العالية، والتكليف بالانقياد والخضوع، ومخالفة الأهواء = وهذا رأي النظام.

---

(1) – عناية المسلمين بإبراز وجوه الإعجاز في القرآن الكريم، محمد السيد جبريل (ص 23).

(2)– المصدر نفسه، (ص 14).

التفسير الثاني: أن يريدوا بالصَّرفة أنَّ الله ﷻ سلبهم العلوم التي لا بد منها في الإتيان بما يُشاكل القرآن ويقاربه...= وهذا رأي الشريف المرتضى[1]

التفسير الثالث: أن يراد بالصَّرفة أن الله ﷻ منعهم بالإلجاء على جهة القسر عن المعارضة مع كونهم قادرين وسلب قواهم عن ذلك، فلأجل هذا لم تحصل المعارضة.

وحاصل الأمر في هذه المقالة أنهم قادرون على إيجاد المعارضة للقرآن إلا أن الله ﷻ منعهم بما ذكرناه»[2].

وقد استدرك عليه الدكتور عبد الرحمن الشهري في كتابه القول بالصرفة في إعجاز القرآن، تفسيرينِ آخرين فقال:

« وهناك من قال بالصرفة، ولم يُنكر عجز العرب عن المعارضة كالجاحظ، فالصرفةُ عنده هي: صرف همم العرب عن المعارضة حفظاً لكتابه من التشويش وإدخال الشُّبهة على السُّفهاء، ولولا الصَّرفةُ لطمع فيه من لا يستطيع الإتيان بمثله، وهذا هو التفسير الرابع، وهو يجمع بين القول بالصّرفة والإعجاز الأسلوبي البلاغي، وهذا فيه تناقض؛ حيث لا حاجة للقول بالصّرفة لمن يقول بالإعجاز البلاغي.

ومعنى آخر للصرفة ذهب إليه بعضهم، وهو ما ذهب إليه القاضي عبد الجبار الهمذانيُّ، وهو أن الصَّرفةَ انصرافُ العرب عن معارضة القرآن بعد تيقنهم العجز عن ذلك، وهذا هو التفسير الخامس»[3].

---

(1) - **والفرق بين رأي النظام وأتباعه والمرتضى ومن معه** أن النظام يرى أن العرب لو أرادوا الإتيان بمثله لاستطاعوا ولكن همتهم لم تتوجه لذلك، أما المرتضى فيرى أن العرب لا يستطيعون الإتيان بمثله ولو أرادوا ذلك؛ لأنهم لا يملكون العلوم التي تمكنهم من ذلك، فالفرق بينهما أن النظام يرى أن العرب يستطيعون لو أرادوا والمرتضى يرى عدم استطاعتهم، وكلا القولين غير صحيح، دراسات في علوم القرآن، لفهد الرُّومي،(ص: 274).

(2) –الطراز، يحي بن حمزة بن علي العلوي اليمني، تحقيق: عبد الحميد هنداوي، المكتبة العصرية صيدا–بيروت، ط1: سنة 1423هـ/ 2002م، (ج3/ص: 218). بتصرف.

(3) – القول بالصرفة في إعجاز القرآن –عرض ونقد–، تأليف، الدكتور عبد الرحمن بن معاضة الشهري، دار ابن الجوزي العربية السعودية، الطبعة الأولى: سنة 1432هـ، (ص: 17).

ولعل هذا الاختلاف في تفسير الصرفة هو الذي جعل ذلك التردد عند العلماء في قبولها مرة، وردِّها أخرى، وإذا ذهبنا نطلبُ لهذه الصرفة الأسبابً التي ذكرها من فسرها بها، نجد « أن أسباب هذا الصرف ترجع إلى:

أولا: انعدام الدواعي الباعثة على هذه المعارضة

ثانيا: عدم النشاط والانبعاث إلى المعارضة، وبالتالي عدم تعلق الإرادة بها مع وجود الدواعي إليها.

وثالثاً: تعطيل المواهب البيانية، وتعويق القدرة البلاغية، وسلب الأسباب العادية إلى المعارضة، وذلك على نحـــو مفاجـــئ عند المحاولة، رغم تعلق الإرادة بها، وتوجه الهمة إليها»[1].

« ومهما يكن من أمرٍ فإنَّ القول بالصّرفة وإن أنكرناه ورفضناه بشدَّة إلا أنَّه أمرٌ واقعٌ في مصنفات من كتبُوا في الإعجاز مثلُ الخطابيِّ والرُّمانيِّ كما أسلفنا، وكذلك من جاء بعدهم سواء كان ذلك منهم تأييداً أم رفضا، لكننا لا نستطيع أن نمنع أنفسنا من الأسى على استدعائه كل هذا الجهد حوله مما كان يمكن أن يتوفر لغيره من الدراسات القرآنية النافعة»[2].

ومما يحسُنُ إيراده من الآراء في شأن الصرفة، ما سطره الرافعي ﵀، فيما لفت النظر إليه عندما قال: «على أن القول بالصرفة هو المذهب الفاشي من لَدُن قال به النَّظام–يصوِّبه فيه قومٌ ويشايعه عليه آخرون، ولولا احتجاج هذا البليغ لصحته، وقيامه عليه، وتقلده أمرَه، لكان لنا اليوم كتب ممتعة في بلاغة القرآن وأسلوبه، وإعجازه اللغوي، وما إلى ذلك، ولكن القوم–عفا الله عنهم– أخرجوا أنفسهم من ذلك كلّه، وكفوها مؤنته بكلمة واحدة تعلقوا عليها، فكانوا فيها جميعا كقول الشاعر الظريف الذى يقول: [من: مجزوء السريع]

(1)– عناية المسلمين بإبراز وجوه الإعجاز في القرآن الكريم، محمد السيد جبريل (ص 15).

(2)– المصدر نفسه، (ص 21).

كأننا والماء من حولنا ... قوم جلوس حولهم ماء[1]»[2].

والصَّرفة بهذا المفهوم تَذهب بصفة الإعجاز عن القرآن تماما، فهي وجه مردود لا يمكن أن يصار إلى القول بها، وذلك راجع إلى أمور:

« **الأول**: الإجماع قبل هؤلاء القائلين بها على أن القرآن معجز، وعلى هذا القول يكون المعجز هو الصرف لا القرآن، ألا تر أنَّهُ لو قال قائلٌ: أنا أقوم وأنتم لا تقدرون عليه، وكان كذلك لم يكن قيامه معجزاً بل عجزهم عن القيام، فهذه المقالة خارقةٌ لإجماع المسلمين السَّابقين على أنَّ القرآن معجزةٌ لرسول الله ﷺ دالةٌ على صدقه.

الثاني: أنهم لو سُلِبوا القدرة كما قال به الشريف المرتضى[3]، لعلموا ذلك من أنفسهم، ولتناطقوا به عادة، ولتواتر قطعا...

الثالث: أنه لا يُتصور الإعجاز بالصَّرفة، وذلك لأنهم كانوا حينئذ يعارضونه بما أعتيد منهم من مثل القرآن الصَّادر عنهم قبل التَّحدي به، بل قبل نزوله، فإنهم لم يُتحَدُّوْا بإنشاء مثله

---

(1)- أورده صاحب الكشكول دون نسبة، قال فيه: ولبعضهم ظرافةً، ثم قال: فقال ابن الوردي فيه [من البسيط]:

وشاعر أوقد الطبع الذكاء له . . . فكاد يحرقه من فرط إذكاءِ

أقـــام يجهد أياماً قريحته . . . وشبه الماء بعد الجهد بالماءِ

الكشكول، الشيخ بهاء الدين محمد بن حسين العاملي، تحقيق : محمد عبد الكريم النمري، دار النشر : دار الكتب العلمية – بيروت / لبنان الطبعة : الأولى: – 1418هـ –1998م.، (ج1/ص 261)

(2) – إعجاز القرآن، للرافعي، طبعة دار الكتاب العربي، (ص: 146).

(3) – الشريف، المرتضى، نقيب العلوية، أبو طالب علي بن حسين بن موسى القرشي، العلوي، الحسيني، الموسوي، البغدادي، من ولد موسى الكاظم. ولد: سنة 355هـ، هو جامع كتاب "نهج البلاغة"، المنسوبة ألفاظه إلى الإمام علي ﷺ وديوان المرتضى كبير، وتواليفه كثيرة، وكان من الأذكياء الأولياء، المتبحرين في الكلام والاعتزال، والأدب والشعر، توفي المرتضى في سنة :436 هـ، ترجمته في: سير أعلام النبلاء، المؤلف: شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان بن قَايْماز الذهبي (المتوفى: 748هـ)، الناشر: دار الحديث– القاهرة، الطبعة: 1427هـ–2006م، (ج17/ص588)، الوافي بالوفيات، صلاح الدين خليل بن ايبك الصفدي، تحقيق واعتناء: أحمد الأرناؤوط وتركي مصطفى، دار إحياء التراث العربي بيروت –لبنان، الطبعة الأولى: 1420هـ/2000م، (ج 12 / ص 40 – 42).

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

بل بالإتيان به، فلهم بعد الصَّرفة الواقعة بعد التحدي أن يعارضوا القرآن بكلام مثله صادر عنهم قبل الصَّرفة»[1].

وفي الختام يستبين لنا أنَّ « هذا الرأي واضح البطلان، فاسد المعنى، لأنَّهُ يجعلُ الإعجاز خارجاً عن نطاق القرآن ذاته، متعلقا بأمرٍ خارجيٍّ؛ يتمثل في حفظ القرآن عن طريق صرف العرب عن الإتيان بمثله، لا لأنهم لا يقدرون على ذلك، ولكنْ لأن الله أراد ذلك.

ومقتضى هذا الرأي فإن القُدرة على الإتيان بمثل القرآن أمرٌ ممكنٌ من النَّاحية الواقعية ولكنَّ اللهَ صرف العرب عن ذلك، وهذا الرأيُ مخالفٌ لظاهر الآية القرآنية في قوله تعالى: ﴿قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴿٨٨﴾﴾ الإسراء: ٨٨، ، والواضح من الآية أن الإعجازَ ثابتٌ ولو اجتمع الإنس والجن وتعاونوا على ذلك، لأن الإعجاز كامنٌ في القرآن نفسِهِ، ولا يتوقف الإعجازُ في أيِّ عصْرٍ، ومبدأ الإعجاز بالصَّرفة هو إلغاءٌ للإعجاز، وإلغاءٌ للخصوصية القرآنية، واعتبارُ الإعجاز أمراً خارجيًّا »[2].

(1) – شرح المواقف للإيجي، الشريف علي بن محمد الجرجاني، ومعه حاشية السيالكوتي والحلبي، ضبطه وصححه: محمود عمر الدمياطي، دار الكتب العلمية، بيروت–لبنان، الطبعة الأولى 1419هـ/1998م.، (ج 8/ص: 283).

(2) – المدخل إلى علوم القرآن الكريم، لمحمد فاروق النبهان، (ص: 222)

المطلب الثالث: الإعجاز بالنظم في القرآن الكريم

من وجوه إعجاز القرآن التي اتنبه إليها العلماء منذ القديم، واستمروا على الاحتفاء بها؛ القولُ بإعجاز القرآن من جهة نظمه، بل ربما يمكننا عدُّ ذلك بدءًا من عرب قريشٍ التي لمَّا سمعت القرآن وتليت عليهم آياتهُ، أرادت إلى أن تنزلهُ على شعرها مرةً، وعلى مقالات الكَّهنة مرةً أُخرى، فلم يستقم لها ذلك إذْ وجدت في تراكيبه ونظمه أمراً مفارقاً للشِّعر والكِّهانة، وهم أحذُقُ الناس بتمييز ومعرفة ذلك، وأيقنوا أنَّه لا عهد له بهذا النسق من الكلام، ثم لم يزل النَّاس يعقلون هذا من القرآن؛ حتى جاء من اصطلح عليه بالنظم، وبغضِّ النظر عن اختلاف العلماء في تفسير هذا النظم الذي كان به القرآن معجزاً، فإن جماهير من تكلم في هذه القضية قد ارتضى النَّظمَ وجهاً جليّاً من وجوه إعجاز القرآن على تباينٍ في المذاهب، إذ قال بذلك المعتزلة والأشاعرة، وأهل السنة، وغيرهم من طوائف الإسلام، «لذلك كان نظمُ القرآن أعدل الآراء في وجوه الإعجاز وبيان سببه، وهذا الرأيُّ هو الذي مال إليه الحذاق من أهل الصنعة، وأخذ به الجمهور من العلماء»[1].

فما هو النظم، وهل كان عدُّه وجهاً من وجوه الإعجاز محلّ اتفاق؟ أم أن هناك من لم يرتضِ ذلك وجهاً لإعجاز القرآنِ؟

فأمّا عن معنى النّظم، فيُمكنُ أنْ يقال أنَّـه: « يُقصدُ بالنظم طريقة تأليف حروفه، وكلماته وجمله، وسبكها مع أخواتها في قالبٍ محكمٍ، ثمّ طريقةُ استعمال هذه التراكيب في الأغراض مع أخواتها في قالبٍ مُحْكمٍ، ثم طريقة استعمال هذه التراكيب في الأغراض التي يتكلم عنها، للدلالة على المعاني بأوضح عبارةٍ في أعذب سياقٍ وأجمل نظمٍ»[2].

أو هو باختصار: « ذلكمُ الترتيب الذي كان لكلمات القرآن وجمله من جهة، واختيار هذه الكلمات من جهة أخرى، ثم ترتيب الجمل والآيات في السورة»[3]

(1) – مع القرآن في إعجاز وبلاغته، لعبد القادر حسين، (ص 114).
(2) – مباحث في إعجاز القرآن، لمصطفى مسلم، (ص141).
(3) – نظرات من الإعجاز البياني في القرآن الكريم –نظريا وتطبيقيا–، سامي محمد هشام حريز، دار الشروق عمان الأردن، الطبعة الأولى 2006، (ص 29).

وأما **من جهة الاعتداد بهذا الوجه من رفضه**، فإنَّ بعضَ الباحثين يرى أنه وإن كان إعجازُ القرآن بالنَّظم وجهاً مرضيًّا إلاَّ أنَّــه لا يمكن طرده على جميع القرآن، بل هو عنده لا يوجد في كثير من سور القرآن، فهذا مثلا محمد السيد جبريل يقول: « هذا الوجه دليل إعجاز للقرآن في مجمله، **بمعنى أنه قد يوجد في بعض السور ولا يوجد في الكثير منها**، فهو من علاماتِ الإعجاز التي يوصف بها القرآن باعتباره وحياً، وليس من خصائصِ ألفاظه، وبهذا التفسير لا يمكن المماراةُ في هذا الوجه بأن يقال: إن العرب معذورون إذا قالوا: إننا قادرون على معارضة القرآن متمكنون من الإتيان بمثله غير أنه يشتمل على ما لا يمكن معرفته، ومن ثمَّ الإتيان بمثله.

وبالجملة، فإنه دليل إعجاز، **ولكن لا يستقلُّ بالغرض في إثبات إعجاز القرآن**، فهو ليس بالأمر العام في كل سورة من سور القرآن»[1].

والذي يبدو لي أنَّ هذا الرأيَّ في نظم القرآن رأيٌّ بعيدٌ، بل يُقال إنَّ إعجاز القرآن بنظمه مطردٌ في كلّ سورةٍ منه، لأنه خاصيّةٌ من خواصِّ القُرآن، كما أنَّ القافية خاصيةٌ من خواص الشعر، والسَّجع خاصية من خواص مقولات الكهَّان، بل وجدتُ صاحب هذا القول نفسه رجع فذكر أن الإعجاز بالنظم، مطردٌ في القرآن، وذلك حينما قال: « التنبيه على أن أوجه الإعجاز في القرآن الكريم **منها ما يلازم القرآن**، ويطَّردُ فيه: سورةً سورةً، وآيةً آيةً، وعليه المعول، وبه كان التحدي، وذلك مجاله الإعجاز اللغوي بمعناه العام بما يشمَلُ الإعجاز في البلاغة والفصاحة، وفي النظم والأسلوب.

ومنها ما يكون الإعجاز فيه متعلقا بجوانب منه غير مطرد فيه، مثل بقية الأوجه الأخرى، فتساق من باب كونها شواهد صدق ظاهرة لهذا الكتاب الكريم»[2].

وها هو الباحثُ نفسه يرجع عن رأْيــه الذي أبداه أولا، لينقضه آخِراً، وهو الصواب « فالبحث في الإعجاز لابدّ أن يكون عن شيء موجودٍ في كلّ سورة، ونجد الظاهرة العامة، هي

---

(1) – عناية المسلمين بإبراز وجوه الإعجاز في القرآن الكريم، محمد السيد جبريل، (ص: 46- 47).

(2) – المصدر نفسه، (ص: 73)

البيان، لآنه يتنظمُ القرآن الكريم كلَّه، سورةً سورةً على اختلافها طولاً وقصراً، والإعجاز البياني يرجع في لبه وجوهره إلى النّظم»(1)

فالقول باطِّراد هذا الوجه في سائر سور القرآن الكريم، حتى يقع تميُّز القرآن عن باقي ألوان الكلام البشري هو القولُ المتجه، فإنَّ « القرآن جاء في ثوبٍ غير تلك الأثواب، وفي صورة غير تلك الصور، جاء نسيجَ وحدِه وصورةَ ذاتِـهِ، فلا هو شعرٌ ولا هو نثرٌ ولا هو سجعٌ، وإنما هو قرآن، فالآية في النظم القرآني، وهي ليست بيت شعرٍ وجملةَ نثرٍ ومقطعَ سجعٍ، بل هي قطعةٌ من القرآن لها بدايةٌ ونهايةٌ متضمَّنَةٌ في سورة، ولكل آية مقطع تنتهي به هو الفاصلةُ، وليست هذه الفاصلة قافيةَ شعرٍ ولا حرفَ سجعٍ، وإنما هي شاهدٌ قرآنيٌّ لا يوجد إلا فيه، ولا يعتدل في كلام غيره»(2).

ومع أن هذا الوجه أكثر العلماء يرتضيه، فإنه يبقى هذا المقام يحتمل نظريات وفرضيات، من الصعب تأكيدها أو دحضها، فبأي معيار – مثلا –نثبت أن هذه الصورة البيانية أو تلك قد سمت على الطَّاقة البشرية ودخلت في طبقة الإعجاز، فالتحليل المنطقي غير ممكن في مسائل البلاغة أمّا الانطباع الذوقيُّ؛ فهو حجةٌ قاصرةٌ لا يمكن أن تتعدى إلى غير صاحبها!!

وهذا هو الأمر الذي جعل الخطابيَّ يقول قولته حين قال: « وزعم آخرون أن إعجازه من جهة البلاغة، وهم الأكثرون من علماء أهل النظر، **وفي كيفيتها يعرض الإشكال، ويصعب عليهم منه الانفصال**...»(3)، وبإثر ذلك قال محمود شاكر: «...بل همي هنا أن أُظهر الحقيقة، **وهي أن البلاغة التي جعلوها وجها من وجوه الإعجاز**، إذا أنت **ذهبت تطلب بيانها وجدتها محفوفة بالإبهام لا تثبت على النظر**»(4).

وههنا ملحظٌ من العلم لا ينبغي الغفلة عنه، **وذلك أن التفاوت في فصاحة الآيات القرآنية لا يلغي الإعجاز في الآيات الأخر التي هي دون غيرها في الفصاحة والبلاغة**، يقول الباقلاني: « إن من القرآن ما هو أوجز وأفصح وأبدع مما سواه عنه، **وإن كان معجزا كله**، قوله

(1) – نظرات من الإعجاز البياني في القرآن الكريم –نظريا وتطبيقيا–، سامي محمد هشام حريز، (ص: 28-29)
(2) – مباحث في إعجاز القرآن، مصطفى مسلم، (ص: 142).
(3) – ثلاث رسائل في الإعجاز، (ص: 24).
(4)– المداخل، لمحمود شاكر (ص: 84).

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

ﷻ: ﴿فَلَمَّا ٱسۡتَيۡـَٔسُواْ مِنۡهُ خَلَصُواْ نَجِيّٗاۖ﴾ يوسف: ٨٠، وقوله ﷻ: ﴿وَقِيلَ يَٰٓأَرۡضُ ٱبۡلَعِي مَآءَكِ وَيَٰسَمَآءُ أَقۡلِعِي وَغِيضَ ٱلۡمَآءُ وَقُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ وَٱسۡتَوَتۡ عَلَى ٱلۡجُودِيِّۖ وَقِيلَ بُعۡدٗا لِّلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ٤٤﴾ هود: ٤٤، وقوله تعالى: ﴿خُذِ ٱلۡعَفۡوَ وَأۡمُرۡ بِٱلۡعُرۡفِ وَأَعۡرِضۡ عَنِ ٱلۡجَٰهِلِينَ ١٩٩﴾ الأعراف: ١٩٩، فهذا أوجز وأفصح من مثل قدره من غيره ولو كان معجزاً كله إذا بلغ قدر سورة أو آية في طول السورة »(1)

فالتفاوت الثابت بين آيات القرآن الكريم، لا يعود على باقي الآيات بأن يذهب إعجازها، بل هي مشاركةٌ لسائر الآيات في الإعجاز؛ ولذلك نجد ابن تيمية رحمه الله يقول: « والقرآن آيته باقية على طول الزمان، من حين جاء به الرسول تُتْلى آيات التحدّي به. ويُتلى قوله: ﴿فَلۡيَأۡتُواْ بِحَدِيثٖ مِّثۡلِهِۦٓ إِن كَانُواْ صَٰدِقِينَ ٣٤﴾ الطور: ٣٤، و ﴿قُلۡ فَأۡتُواْ بِعَشۡرِ سُوَرٖ مِّثۡلِهِۦ﴾ هود: ١٣، و ﴿قُلۡ فَأۡتُواْ بِسُورَةٖ مِّثۡلِهِۦ وَٱدۡعُواْ مَنِ ٱسۡتَطَعۡتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ٣٨﴾ يونس: ٣٨، ويُتلى قوله: ﴿قُل لَّئِنِ ٱجۡتَمَعَتِ ٱلۡإِنسُ وَٱلۡجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأۡتُواْ بِمِثۡلِ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ لَا يَأۡتُونَ بِمِثۡلِهِۦ وَلَوۡ كَانَ بَعۡضُهُمۡ لِبَعۡضٖ ظَهِيرٗا ٨٨﴾ الإسراء: ٨٨.

فنفس إخبار الرسول بهذا في أول الأمر، وقطعه بذلك، مع علمه بكثرة الخلق، دليلٌ على أنّه كان خارقاً يعجز الثقلين عن معارضته، وهذا لا يكون لغير الأنبياء، ثمّ مع طول الزمان، قد سمعه الموافق، والمخالف، والعرب، والعجم. وليس في الأمم من أظهر كتاباً يقرأه الناس، وقال إنّه مثله. وهذا يعرفه كلّ أحدٍ.

وما من كلامٍ تكلم به الناس وإن كان في أعلى طبقات الكلام لفظاً ومعنىً، إلا وقد قال الناس نظيره، وما يشبهه ويقاربه؛ سواء كان شعراً، أو خطابةً، أو كلاماً في العلوم، والحِكَم والاستدلال، والوعظ، والرسائل، وغير ذلك. وما وجد من ذلك شيء، إلاَّ ووجد ما يشبهه ويقاربه.

والقرآن ممّا يعلم الناس؛ عربهم، وعجمهم أنّه لم يُوجد له نظيرٌ، مع حرص العرب، وغير العرب على معارضته؛ فلفظه آية، ونظمه آية، وإخباره بالغيوب آية، وأمره ونهيه آية، ووعده

(1) ـ الانتصار للقرآن، القاضي أبو بكر الباقلاني المالكي محمد بن الطيب ، تحقيق: محمد عصام القضاة، الناشر: دار الفتح – عَمَّان، دار ابن حزم – بيروت، الطبعة الأولى: 1422 هـ - 2001 م، (ج1/ص: 275).

ووعيده آية، وجلالته وعظمته وسلطانه على القلوب آية، وإذا ترجم بغير العربي كانت معانيه آية. كلّ ذلك لا يوجد له نظيرٌ في العالم»(1).

فالوجه البلاغي في إعجاز القرآني، إنما يقع فيه التفاوت، ولكنه لا يتغيب عن آية من آيات القرآن، فالآية من القرآن قد تقلُّ بلاغتها، ولكنها لا تنعدم، وقد تكون مع تلك القلّة، قد حَوَتْ وجهاً آخر من أوجه الإعجاز.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

(1)– النبوات، لابن تيمية، (ج1/ص: 515- 517)

المطلب الرابع: الإعجاز العلمي في القرآن الكريم

الإعجاز العلمي من وجوه الإعجاز التي تباينت فيه آراء العلماء، بين قابلٍ ورافضٍ، وبين مضيّقٍ ومقتصدٍ ومسرفٍ.

فأما من رفض هذا النوع من الإعجاز كأبي اسحاق الشاطبي، وجملة من المتأخرين أمثال محمد حسين الذّهبي، وشوقي ضيف، ومحمود شلتوت وغيرهم، فإنما كان مستندهم أن من تقدم من السَّلف وهم أعلم بالقرآن الكريم من غيرهم لم يتكلموا في مثل هذا من العلم، وأيضا عدُّوا هذا الوجه من التوسع في ألفاظ القرآن وجعلها تدلُّ على معانٍ حدثت باصطلاحات حادثة، كما زعموا أيضا أن هذا الوجه وجهٌ منقصٌ لبلاغة القرآن، إذ البلاغة مطابقة الكلام لمقتضى الحال، وأهم ما استندوا إليه من الأدلة، أن تفسير القرآن بالنظريات العلمية غير الثابتة، والتي ربما يدخل عليها الخلل، فتفسير القرآن بذلك يجعل الخلل واردا على القرآن ولا شكّ أن هذا من الخطورة بالمكان الذي لا ينبغي الغفلة عنه، ثم هذا بعد ذلك كله هو من التكلف المنهي عنه، وفي القرآن الكريم قوله تعالى إخبارا عن نبيه ﷺ: ﴿وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُتَكَلِّفِينَ﴿٨٦﴾﴾ ص: ٨٦.

ومن المتحمسين لهذا الرأي سيد قطب، فقد ذكر في تفسيره قوله: « وكل محاولة لتعليق الإشارات القرآنية العامة بما يصل إليه العلم من نظريات متجددة متغيرة– أو حتى بحقائق علمية ليست مطلقة كما أسلفنا –تحتوي: أولا على خطأ منهجي، كما أنها تنطوي على معان ثلاثة كلها لا يليق بجلال القرآن الكريم:

الأولى: هي الهزيمة الداخلية التي تُخيِّل لبعض النَّاس أن العلم هو المهيمنُ والقرآن تابعٌ، ومن هنا يحاولون تثبيت القرآن بالعلم، أو الاستدلال له من العلم، على حين أن القرآن كتاب كامل في موضوعه، ونهائي في حقائقه، والعلم ما يزال في موضوعه ينقض اليوم ما أثبته بالأمس...

والثانية: سوء فهم طبيعة القرآن ووظيفته، وهي أنه حقيقة نهائية مطلقة تعالج بناء الإنسان بناءً يتفق– بقدر ما تسمح به طبيعة الإنسان النسبية– مع طبيعة هذا الوجود وناموسه الإلهي، حتى لا يصطدم بالكون من حوله، بل يصادقه ويعرف بعض أسراره..

والثالثة: هي التأويل المستمر- مع التمحُّل والتكلف- لنصوص القرآن كي نحملها ونلهث بها وراء الفروض والنظريات التي لا تثبت ولا تستقر، وكل يوم يجد فيها جديد.

وكلُّ أولئك لا يتفق وجلالَ القرآنِ، كما أنه يحتوي على خطأ منهجي كما أسلفنا»[1].

إلا أن سيد قطب استدرك في كلامه حتى لا يُفهم أنه ينفي الإعجاز العلمي، ولا يرفع به رأساً، فقال: « ولكن هذا لا يعني ألا ننتفع بما يكشفه العلم من نظريات- ومن حقائق - عن الكون والحياة والإنسان في فهم القرآن...كلا! إن هذا ليس هو الذي عنيناه بالبيان، ولقد قال الله ﷻ: ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ﴾ فصلت: ٥٣، ومن هذه الإشارة أن نظل نتدبر كل ما يكشفه العلم في الآفاق وفي الأنفس من آيات الله وأن نوسع بما يكشفه مدى المدلولات القرآنية في تصورنا»[2].

وأمّا الذين أيّدوا إعجاز القرآن، فهم بين مقتصد مشيدٍ بالحقائق العلمية التي جاءت مطابقة لما في القرآن، مستدلين بعمومات القرآن كمثل قوله تعالى: ﴿مَّا فَرَّطْنَا فِى ٱلْكِتَٰبِ مِن شَىْءٍ﴾ الأنعام: ٣٨، وقوله تعالى: ﴿تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ﴾ النحل: ٨٩، ونحو ذلك من النصوص، وأن ذلك يدخل في باب التفسير بالرأي الصحيح الموافق للواقع، وأيضا حتى لا يكون إعجاز القرآن حكراً على العرب الأوائل فقط، بل لابد أن يبقى إعجاز القرآن متجدداً على مرِّ الدُّهور، ومجيء العصور، مصداقا لقوله ﷻ : ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ﴾ فصلت: ٥٣.

والإعجاز العلمي وإن كانت نشأته لم تبتدئ مع التحدي بالقرآن، إلا أن من العلماء الأوائل من أشار وأشاد به، فهذا القاضي عياض يقول في وجه من وجوه الإعجاز: « جَمْعُهُ لِعُلُومٍ وَمَعَارِفَ لَمْ تَعْهَدِ الْعَرَبُ عَامَّةً وَلَا مُحَمَّدٌ ﷺ قَبْلَ نُبُوَّتِهِ خَاصَّةً بِمَعْرِفَتِهَا وَلَا الْقِيَامِ بِهَا.. وَلَا

(1) – في ظلال القرآن، المؤلف: سيد قطب إبراهيم حسين الشاربي (المتوفى: 1385هـ)، الناشر: دار الشروق - بيروت- القاهرة، الطبعة: السابعة عشر - 1412 هـ، (ج1/ ص: 182)

(2)– المصدر نفسه، (ج1/ ص: 183)

يُحِيطُ بِهَا أَحَدٌ مِنْ عُلَمَاءِ الْأُمَمِ.. ولا يشتمل عليها كتاب على كُتُبِهِمْ..»[1] ، فهذا نصٌّ قريب التطابق بالإعجاز العلمي، أو على الأقلِّ إشارة بيّنةٌ إليه.

وفي الأخير يمكننا أن نقول: « كلُّ نظرٍ وتدبرٍ في آيات القرآن الكريم هو وجهٌ جديدٌ من وجوه إعجازه، ولو كان هذا النظر بعدد أفراد الناس فرداً فرداً، وبعدد اختلاف نظرات الفرد حالاً حالاً، على امتداد الزمان واختلاف الأزمنة والأوطان: ﴿قُل لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّى لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّى وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِۦ مَدَدًا ﴿١٠٩﴾﴾ الكهف: ١٠٩»[2].

بقي بعد ذلك أن ننبه إلى وجوب وضع هذا الوجه من الإعجاز في موضعه الصحيح، فإننا وإن قلنا به، ورغبنا فيه، وعددناه وسيلة لدعوة فريق من الناس إلى الحق، إلا أن ذلك ليس معناه أن كون القرآن حقا وصدقا يتوقف على القول بالإعجاز العلمي، حتى يتكلف البعض ذلك تكلفاً يوقع في أخطاء تعود في النهاية على الباحث في هذا المجال بعكس مقصوده، فالقرآن الكريم قد ثبت صدقه وكونه وحياً من عند الله ﷻ بما سبق من وجوه الإعجاز الأخرى وبغيرها من الأدلـــة[3].

---

(1) – الشفا بتعريف حقوق المصطفى – مذيلا بالحاشية المسماة مزيل الخفاء عن ألفاظ الشفاء، أبو الفضل القاضي عياض بن موسى اليحصبي، الحاشية: أحمد بن محمد بن محمد الشمني، الناشر: دار الفكر الطباعة والنشر والتوزيع، عام النشر: 1409 هـ – 1988 م، (ج1/ ص: 536).

(2) – الإعجاز في دراسات السابقين، لعبد الكريم الخطيب، (ص: 156).

(3) – يُنظر: عناية المسلمين بإبراز وجوه الإعجاز في القرآن الكريم، لمحمد السيد جبريل (ص: 68).

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

المبحث الرابع: الإعجاز في ضوء حديث:" مَا مِنَ الأَنْبِيَاءِ نَبِيٌّ إِلَّا أُعْطِيَ مَا مِثْلُهُ آمَنَ عَلَيْهِ البَشَرُ..."

لقد خلق الله سبحانه وتعالى الخليقة وأوجدها لغاية عظيمة؛ ألا وهي عبادته كما هو معلوم من صريح القرآن الكريم في قوله عز وجل: ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ ﴾ [الذاريات: ٥٦]، ، وقد أقام الله الخليقة، وفطرها على عبادته ﴿ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾ ﴾ [الروم: ٣٠]، إلا أن الشياطين لم تألُ جُهدا في إضلال بني آدم، ورحمةً من الله سبحانه وتعالى بخلقه أرسل إليهم الرسل عليهم السلام ليذِّكروهم بهذه الوظيفة الشريفة، وأيّد الله عز وجل –حكمةً منه– هؤلاء الرُّسل بالآيات الباهرة والبراهين القاطعة، حتى يقيمَ حُجتَّه على الناس، ويؤمن البشر برب العالمين، ﴿ رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٦٥﴾ ﴾ [النساء: ١٦٥].

وقد كانت كلُّ آية يأتي بها نبيٌّ من الأنبياء عليهم السلام في الغالب مُجانسةً وصالحة لقومه حتى يؤمنوا به ويعبدوا ربهم عز وجل، وقد أشار إلى ذلك النبي صلى الله عليه وسلم في قوله: «مَا مِنَ الأَنْبِيَاءِ نَبِيٌّ إِلَّا أُعْطِيَ مَا مِثْلُهُ آمَنَ عَلَيْهِ البَشَرُ، وَإِنَّمَا كَانَ الَّذِي أُوتِيتُ وَحْيًا أَوْحَاهُ اللَّهُ إِلَيَّ، فَأَرْجُو أَنْ أَكُونَ أَكْثَرَهُمْ تَابِعًا يَوْمَ القِيَامَةِ»[1].

هذا الحديث حديثٌ عظيم القدر حوى معاني شريفة وأسرارا لطيفة، وله متعلقٌ كبير –فيما يبدو لي– بقضية إعجاز القرآن الكريم، إذ قد ذكر نبيُّنا صلى الله عليه وسلم آيته التي خصه الله عز وجل بها

(1) – أخرجه البخاري في موضعين من كتابه الصحيح: كتاب فضائل القرآن، بَابٌ: كَيْفَ نَزَلَ الوَحْيُ، وَأَوَّلُ مَا نَزَلَ، رقم: 4696، الجامع الصحيح المختصر، محمد بن إسماعيل أبو عبدالله البخاري، تحقيق: د. مصطفى ديب البغا، الناشر: دار ابن كثير ، اليمامة – بيروت، الطبعة الثالثة: 1407 هـ– 1987م، (ج 4/ص: 1905)، وكِتَابُ الِاعْتِصَامِ بِالكِتَابِ وَالسُّنَّةِ، بَابُ قَوْلِ النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم بُعِثْتُ بِجَوَامِعِ الكَلِمِ، رقم: 6846، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، الجامع الصحيح المختصر، المؤلف : محمد بن إسماعيل أبو عبدالله البخاري الجعفي، تحقيق: د. مصطفى ديب البغا الناشر : دار ابن كثير ، اليمامة – بيروت، الطبعة الثالثة ، 1407 هـ– 1987م، صحيح البخاري (ج 6/ص: 2654).

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

بإزاء آيات الأنبياء عليهم السلام التي جاؤوا بها أقوامهم؛ « إذ جاء آيةً لا تشبه شيئاً من آيات الرُّسل منذ آدم عليه السلام، حتى جاء آيةً فريدة في تاريخ البشر، أوتيها نبيّنا ﷺ دون سائر الرُّسل»[1].

ثمَّ إنَّ هذه الآية قد فاقت سائر تلكم الآيات ظهوراً وإعجازاً، إلا أن الوجه الذي كانت به هذه الآية –آيةُ القرآن الكريم– فائقةً تلكم الآيات في الإعجاز بها، كان وجهاً لطيفَ المنزع دقيق المأخذ، لذلك نجد معنى الحديث مشكلا عند كثيرين، فاختلفت مذاهب العلماء في التعبير عن وجه كون القرآن الكريم الذي كان آية هذا النبي ﷺ، فائقا سائر آيات الأنبياء قاطبة، يقول الذهبي: « هذه هي المعجزة العظمى، وهي القرآن فإن النبي من الأنبياء عليهم السلام كان يأتي بالآية وتنقضي بموته، فقلَّ لذلك من يتبعه، وكثر أتباع نبينا ﷺ لكون معجزته الكبرى باقية بعده، فيؤمن بالله ورسوله كثير ممن يسمع القرآن على مر الأزمان، ولهذا قال: فأرجو أن أكون أكثرهم تابعا يوم القيامة»[2]، وقد صدق أمير الشعراء شوقي إذ يقول: [من: البسيط]

جاء النبيون بالآيات فانصرمت ... وجئتنا بحكـــيم غير منصرمِ

آياته كلما طال المدى جُـدُدٌ ... يزينهن جـــلال العتق والقدمِ

يكاد من لفظة منه مشرفةٍ ... يوصيك بالحق والتقوى وبالرحمِ

أخوك عيسى دعا ميتا فقام له ... وأنت أحييت أجيالا من الرممِ[3]

وسأحاول جاهدا في هذا المبحث الوقوف على معالم مهمَّةٍ انطوى عليها هذا الحديث مما لا ينبغي لباحثٍ أن يكون بمنئً عن استحضاره في مثل هذه القضية، أعني قضية إعجاز القرآن الكريم، وذلك من خلال ثلاثة مطالب:

المطلب الأول: طبيعة آيات الأنبياء عليهم السلام

المطلب الثاني: الاعتراض على آيات الأنبياء عليهم السلام

المطلب الثالث: استمرارية معجزة القرآن إلى آخر الزمان.

(1) – المداخل، لمحمود شاكر (ص: 47).

(2) – سير أعلام النبلاء، للذهبي، (ج2/ص: 240)

(3) – الأعمال الشعرية الكاملة "الشوقيات"، أحمد شوقي، دار العودة بيروت، الطبعة الأولى: 1977م، من قصيدة "نهج البردة، (ج1 / ص: 197).

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

المطلب الأول: طبيعة آيات الأنبياء عليهم السلام:

لقد كان لأسماء الله سبحانه وتعالى وصفاته، أثراً في هذا الكون الذي أبدعه عز وجل بقدرته وعلمه وحكمته، وكان من آثار حكمة الله سبحانه وتعالى في ابتلاء الناس بالأنبياء عليهم السلام، أن الله سبحانه وتعالى أيّد رسله بالبيّنات والآيات، والبراهين والمعجزات، وكانت تلك الآيات؛ كلُّ آيةٍ مناسبةٌ للقوم الذين نزلت فيهم، حتى يكون ذلك أبلغ في حجة الله عز وجل على الخلق: ﴿ قُلْ فَلِلَّهِ ٱلْحُجَّةُ ٱلْبَٰلِغَةُ ﴾ [الأنعام: ١٤٩].

ولقد رأيت أن من أوائل من انتبه إلى هذا التناسب بين الآيات والأقوام الذين جاءتهم أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ، و ذلك في رسالته حجج النبوة إذ يقول: « ولما كان أعجب الأمور عند قوم فرعون السِّحر ولم يكن أصحابه قطُّ في زمانٍ أشدَّ استحكاماً فيه منهم في زمانه بعث الله موسى عليه السلام على إبطاله وتوهينه وكشفِ ضعفه وإظهاره، ونقض أصله لردع الأغبياء من القوم ولمن نشأ على ذلك من السفلة والطَّغام؛ لأنه لو كان أتاهم بكل شيءٍ ولم يأتهم بمعارضة السِّحر حتى يفصل بين الحجَّة والحِيلة لكانت نفُوسُهم إلى ذلك متطلعةً ولاعتلَّ به أصحاب الأشغاب ولشغلوا به بال الضَّعيف، ولكنَّ الله تعالى جدُّه أراد حسم الدَّاء وقطْعَ المادة، وأنْ لا يجد المبطلون متعلقاً ولا إلى اختداع الضعفاء سبيلاً مع ما أعطى الله موسى عليه السلام من سائر البرهانات وضروب العلامات.

وكذلك زمن عيسى عليه السلام كان الأغلب على أهله وعلى خاصة علمائه الطِّب، وكانت عوامهم تعظِّم على ذلك خواصَّهم فأرسله الله عز وجل بإحياء الموتى إذ كانت غايتهم علاج المرضى، وأبرأ لهم الأكمه إذ كانت غايتهم علاج الرَّمد مع ما أعطاه الله عز وجل من سائر العلامات وضروب الآيات لأن الخاصَّة إذا بخعت بالطَّاعة وقهرتها الحجَّة، وعرفت موضع العجز والقوة وفصلُ ما بين الآية والحيلة كان أنجع للعامة وأجدر أن لا يبقى في أنفسهم بقية.

وكذلك دهر محمدٍ صلى الله عليه وسلم كان أغلب الأمور عليهم وأحسنها عندهم وأجلها في صدورهم حسن البيان ونظم ضروب الكلام مع علمهم له وانفرادهم به، فحين استحكمت لفهمهم وشاعت البلاغة فيهم وكثر شعراؤهم وفاق الناس خطباؤهم بعثه الله عز وجل فتحداهم بما كانوا لا يشكون أنهم يقدرون على أكثر منه.

فلم يزل يقرعهم بعجزهم وينتقصهم على نقصهم حتى تبين ذلك لضعفائهم وعوامهم كما تبين لأقويائهم وخواصهم، وكان ذلك من أعجب ما آتاه الله نبياً قطُّ مع سائر ما جاء به من الآيات ومن ضروب البرهانات، ولكل شيء باب ومأتىً واختصار وتقريب.

فمن أحكم الحكمة إرسال كلّ نبيٍّ بما يُفحم أعجب الأمور عندهم، ويُبطل أقوى الأشياء في ظنِّهم»[1].

وكلامُ الجاحظ أوردته بطوله، لأنه سابقٌ في بيان هذا المعنى، لذلك لا يزال العلماء يستملحونه ويوردونه في كتبه تقريراً لأجل ما اشتمل عليه من جليل المعاني.

فيقول تلميذه ابنُ قتيبة رحمه الله: « ... فجعله علَمَه، كما جعل عَلَم كل نبي من المرسلين من أشبه الأُمور بما في زمانه المبعوث فيه: فكان لموسى فلق البحر، واليد، والعصا، وتفجّر الحجر في التّيه بالماء الرّواء، إلى سائر أعلامه زمن السّحر، وكان لعيسى إحياء الموتى، وخلق الطير من الطين، وإبراء الأكمه والأبرص، إلى سائر أعلامه زمن الطب.

وكان لمحمد صلى الله عليه وسلم، الكتاب الذي لو اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثله، لم يأتوا به، ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً، إلى سائر أعلامه زمن البيان»[2].

وهذا الزبيدي يقول: « إن الله سبحانه وتعالى لما بعث موسى عليه السلام بعثه بالآيات التي بهرت ما كان هي[3] ولوع الناس به ي ذلك الزمان من السِّحر والتمويهات، وأتاهم من العصى واليد البيضاء، وفلق البحر، ونحو ذلك مما لا يبقى معه شبهةٌ في أن ذلك ليس من السحر في شيء، إذ كان أولئك به أعرف، وبالفصل بين السِّحر وبين ما ليس بسحر أعلم، لعلمهم بمبلغ قوة السحر، وغاية أمره.

ولمّا بعث الله سبحانه وتعالى المسيح عليه السلام آتاه من الآيات التي بهرت ما كان ولوع الناس به في ذلك الزمان من الطب، فأيّده سبحانه وتعالى بإحياء الموتى وإبراء الأكمه والأبرص، لئلا تبقى شبهةٌ لأحد

(1) - رسائل الجاحظ، حجج النبوة (ج3: ص 279-280).

(2) - تأويل مشكل القرآن، المؤلف: أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري (المتوفى: 276هـ)، المحقق: إبراهيم شمس الدين، الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان، د ت ط، (ص: 17)

(3) – هكذا هو النص في الكتاب، ولعله خطأ مطبعي، كأنه يريد "من ولوع الناس بها"

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

منهم، لأنهم كانوا أعرف الناس بمبلغ قوة صناعة الطّب، ومنتهى غايته، وما يكشف لهم من الأمر ما عساه كان لا ينكشف لغيرهم في تلك المدّة اليسيرة.

ولمّا بعث الله ﷻ محمداً ﷺ في قومٍ هم الغاية في الفصاحة والبلاغة، والنّهاية في البيان والسلاقة، إذ حظُّ العرب من ذلك أوفر الحظوظ، ولهم منه ما ليس لغيرهم من الأُمم، فأيّده ﷻ بالقرآن وجعله معجزاً له، لأنهم يعرفون من حاله ما لا يعرف غيرهم، ولأنهم إذا عجُزُوا عن معارضته، لم تبق شبهةٌ في أنَّ غيرهم أعجز، وأعجز، ومع ذلك لم يخْلِهِ ﷻ من سائر المعجزات»[1].

ثم يشير الزيدي إلى مناسبة أخرى لطيفة من خلال آية موسى عليه السلام لبني إسرائيل، فيقول: « وإنما كانت أعلام موسى عليه السلام أكثر، وآياته أظهر لأن بني إسرائيل كانوا – والله أعلم– أجهل الأمم، وأغلظهم وأبعدهم عن الصواب، وأبلدهم عن استدراك الحق، ألا ترى أنهم بعدما جاوز الله ﷻ بهم البحر، وغرق آل فرعون وهم ينظرون، قالوا لموسى عليه السلام حين مرُّوا على قومٍ عاكفين على أصنامٍ لهم ﴿ قَالُواْ يَٰمُوسَى ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ ﴾ الأعراف: ١٣٨، واتّخذوا العجل وعبدُوه وظنُّوا أنه إلههم وإله موسى عليه السلام، وأنه نسي، فبحسب هذه الأحوال اقتضت الحكمة إيضاح الآيات والأعلام، وتكثيرها لهم»[2].

فمن خلال ذلك يمكن القول أن آية النبي ﷺ لما كانت إلى قوم البديهة فيهم حاضرةً، والذكاء فيهم متوقداً جاءتهم آيةٌ فيها من اللّطافة ما يناسب تلك القُدرات العقلية التي تحلَّوْا بها، فظهرت بذلك حكمة الله ﷻ ورحمته في إرسال الرسل وتأييدهم بالآيات والمعجزات، وجعلها على أقدار الأقوام ومناسبة وداعية إلى الإيمان بالله ورسله.

ومن خصائص هذه الآيات أيضاً أنها آياتٌ ظاهرة مشتهرةٌ قاهرةٌ لمن يشهدها، وقد ذكر ذلك أيضا الجاحظ في رسالته، إذ يقول: « أعلام الرُّسل عليهم السلام وآياتهم أحقُّ بالظهور والشُّهرة والقهر للقلوب والأسماع من مخارجهم وشرائعهم، بل قد نعلم أن موسى عليه السلام لم يُذكر ولم

(1) – إثبات نبوة النبي ﷺ، للزيدي، (ص 18).

(2) – المرجع نفسه، (ص 16).

يُشهر إلاّ لأعاجيبه ولآياته، وكذلك عيسى عليه السلام، ولولا ذلك لما كان إلا كغيرهما ممن لا يُشعر بموته ولا مولده»[1].

ومن خصائص آيات الأنبياء عليهم السلام أن الله عز وجل هيّج الناس على نقلها والحديث عنها، حتى تقوم حجة الله على خلقه، كما أن الله سبحانه وتعالى نفسه خلدها في كتابه الخاتم، فقد قصّ علينا أنباء الأمم السالفة، وأخبرنا بآياته التي أنزلها فيهم، يقول الجاحظ: « ...فكيف إن كان الله عز وجل قد خصّ أعلام أنبيائه وآيات رسله عليهم السلام من تهييج الناس على الإخبار عنها، ومن تسخير الأسماع لحفظها بخاصة، بخاصّة لم يجعلها لغيرها»[2]

هذا ما يتعلق بالآيات عموما، فإذا جئنا إلى آية الرسول صلى الله عليه وسلم، فإننا نجدها قد حوت عامة الدلائل والمعجزات التي أوتيها النبيون عليهم السلام قبله: « **ففيه: إخبار السابقين بنبينا الكريم، وتبشيرهم ببعثته،** كما قال سبحانه وتعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ يَٰبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنۢ بَعْدِي ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ قَالُواْ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ٦ ﴾ الصف: ٦.

وفيه: الآيات الباهرات، والأمور الخارقات، كانشقاق القمر، قال الله تعالى: ﴿ ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ ١ وَإِن يَرَوْاْ ءَايَةً يُعْرِضُواْ وَيَقُولُواْ سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ ٢ وَكَذَّبُواْ وَٱتَّبَعُوٓاْ أَهْوَآءَهُمْ وَكُلُّ أَمْرٍ مُّسْتَقِرٌّ ٣ وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّنَ ٱلْأَنۢبَآءِ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ ٤ حِكْمَةٌۢ بَٰلِغَةٌ فَمَا تُغْنِ ٱلنُّذُرُ ٥ ﴾ القمر: ١ – ٥.

وفيه: الإرهاصات المؤذنة بمولده، أو اقتراب مبعثه، كما قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَٰبِ ٱلْفِيلِ ١ أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ ٢ وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ ٣ تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ ٤ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍۭ ٥﴾ الفيل: ١ – ٥.

وفيه: من الدلالات المقترنة ببعثته: ما ذكره من أن السماء ملئت حرساً شديداً وشُهباً، بخلاف ما كانت العادة جارية به، قال تعالى: ﴿ وَأَنَّا لَمَسْنَا ٱلسَّمَآءَ فَوَجَدْنَٰهَا مُلِئَتْ حَرَسًا

([1]) – رسائل الجاحظ، من رسالة حجج النبوة، (ج3/ص: 259)

([2]) – المرجع السابق، (ج3/ص: 259)

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

شَدِيدًا وَشُهُبًا ﴿٨﴾ وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَن يَسْتَمِعِ الْآنَ يَجِدْ لَهُ شِهَابًا رَّصَدًا ﴿٩﴾ ﴾ الجن: ٨ – ٩.

وفيه: الإخبار بالمستقبلات؛ ما يحدث وما يكون؛ كأشراط الساعة، والفتن والملاحم، وذكر ذلك على وجه الاستيعاب يطول.

وفيه: الإخبار عن الأمم السابقة، وتاريخ الأمم البائدة، التي لا يوقف عليها إلا الله ﷻ الشيء الكثير، بل هو أكثر من سابقه، ويكفيك أن تنظر في قصة هلاك عاد، كم ذكرت في القرآن وكم فصّل فيها، مع أنه ﷻ قال عنها: ﴿ فَهَلْ تَرَىٰ لَهُم مِّن بَاقِيَةٍ ﴿٨﴾ ﴾ الحاقة: ٨، فأخبر أنه لم يبق من يخبر عنهم، ولا من يعلم بأخبارهم، ثم أتى بها القرآن على أكمل وجه، وأتمّ بيان.

وفيه: من كرامات الأولياء، التي هي من دلائل النبوات ...كقوله ﷻ عن مريم الصديقة عليها السلام: ﴿ فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا ۖ كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا ۖ قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا ۖ قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ ۖ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٧﴾ ﴾ آل عمران: ٣٧، على قول الأكثرين أنها ليست نبيّة»[(1)]

ويقول شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله في بيان هذه الحقيقة التي حوتها نبوة نبينا ﷺ: « وقد جمع لنبينا محمد ﷺ جميع أنواع المعجزات والخوارق:

أما العلم والأخبار الغيبية والسماع والرؤية فمثل أخبار نبينا ﷺ عن الأنبياء المتقدمين وأممهم ومخاطباته لهم وأحواله معهم وغير الأنبياء من الأولياء وغيرهم بما يوافق ما عند أهل الكتاب الذين ورثوه بالتواتر أو بغيره من غير تعلم له منهم.

وكذلك إخباره عن أمور الربوبية والملائكة والجنة والنار بما يوافق الأنبياء قبله من غير تعلم منهم ويعلم أن ذلك موافق لنقول الأنبياء تارة بما في أيديهم من الكتب الظاهرة ونحو ذلك من النقل المتواتر، وتارة بما يعلمه الخاصة من علمائهم وفي مثل هذا قد يستشهد أهل الكتاب وهو من حكمة إبقائهم بالجزية وتفصيل ذلك ليس هذا موضعه. فإخباره عن الأمور الغائبة ماضيها وحاضرها هو من " باب العلم الخارق ".

---

(1) – دلائل النبوة، للحافظ أبي العباس جعفر بم محمد المستغفري، تحقيق وتخريج: أحمد بن فارس السلُّوم، دار النوادر – لبنان/ الكويت، الطبعة الأولى: 1431هـ- 2010م، مقدمة (ص: 28-34)

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

وكذلك إخباره عن الأمور المستقبلة مثل مملكة أمته وزوال مملكة فارس والروم وقتال الترك وألوف مؤلفة من الأخبار التي أخبر بها مذكور بعضها في "كتب دلائل النبوة " و " سيرة الرسول " و " فضائله " و "كتب التفسير " و " الحديث " و " المغازي " ...

وكذلك ما أخبر عنه غيره مما وجد في كتب الأنبياء المتقدمين وهي في وقتنا هذا اثنان وعشرون نبوة بأيدي اليهود والنصارى كالتوراة والإنجيل والزبور وكتاب شِعيا وحبقوق ودانيال وأرميا(1) وكذلك إخبار غير الأنبياء من الأحبار والرُّهبان وكذلك إخبار الجنّ والهواتف المطلقة وإخبار الكهنة كسطيحٍ(2) وشقٍّ(3) وغيرهما.

وكذلك المنامات وتعبيرها: كمنام كسرى وتعبير الموبذان(4) وكذا إخبار الأنبياء المتقدمين بما مضى وما عبّر هو من أعلامهم.

---

(1) – هذه أسماءٌ لأنبياءٍ من أنبياء الله عليهم السلام.

(2) – وهو: الربيع بن ربيعة بن مسعود بن مازن بن ذيب ابن عدي بن مازن بن الأزد ويقال: الربيع بن مسعود، وأمه رويمة بنت سعد بن الحارث الحجوري. ويقال: ربيع بن ربيعة بن مسعود بن عدي بن الذيب بن حارثة بن عدي بن عمرو بن مازن بن الأزد. المعروف بسطيح الكاهن الغساني، وأخبار سطيح كثيرة، والمشهور من أمر سطيح أنه كان كاهناً، وقد أخبر عن النبي ﷺ، وعن نعته ومبعثه.

مختصر تاريخ دمشق لابن عساكر، أبو الفضل جمال الدين ابن منظور الأنصاري الإفريقي، المحقق: روحية النحاس، رياض عبد الحميد مراد، محمد مطيع، دار النشر: دار الفكر للطباعة والتوزيع والنشر، دمشق – سوريا، الطبعة: الأولى، 1402 هـ - 1984م. (ج 8، ص: 295)

(3) – وهو: شق بن صعب بن يشكر بن رهم القسري البجلي الأنماري الأزدي: كاهن جاهلي، من عجائب المخلوقات. وهو من معاصري سطيح (الكاهن أيضا) وكانا يستدعيان أحيانا للاستشارة، أو تفسير بعض الأحلام. وعاش شق إلى ما بعد ولادة النبي ﷺ فيما يقال. وقد عمر طويلا. ويذكرون أنه كان نصف إنسان: له يد واحدة، ورجل واحدة وعين واحدة، الأعلام للزركلي (ج3/ص: 170).

(4) – وقصة ذلك أنَّ: «الموبذان – هو عند النصارى بمنزلة عالم العلماء - رأى في نومه أن إبلاً صعاباً تقود خيلاً عراباً فقطعت دجلة وانتشرت في بلادها، فخاف كسرى من حدوث هذه الأمور وأرسل عبد المسيح إلى سطيح الكاهن الذي كان في الشام، ولما وصل عبد المسيح إليه، وجده في سكرات الموت فذكر هذه الأمور عنده، فأجاب سطيح: (إذا كثرت التلاوة، وظهر صاحب الهراوة، وغاضت بحيرة ساوة، وخمدت نار فارس، فليست بابل للفرس مقاماً، ولا الشام لسطيح مناماً، يملك منهم ملوك وملكات على عدد الشرافات، وكل ما هو آت آت). ثم مات سطيح من ساعته، ورجع عبد المسيح، فأخبر أنو شروان بما قال سطيح، قال كسرى إلى أن يملك أربعة عشر ملكاً، كانت أمور وأمور، فملك منهم عشرة في أربع سنين، وملك الباقون إلى خلافة عثمان رضي الله عنه، فهلك آخرهم يزدجر في خلافته»، ينظر: إظهار الحق، محمد رحمت الله بن خليل الرحمن الهندي، دراسة وتحقيق وتعليق : الدكتور محمد أحمد ملكاوي، الناشر : الرئاسة العامة لإدارات البحوث العلمية والإفتاء والدعوة والإرشاد – السعودية، الطبعة : الأولى، 1410 هـ - 1989 م، (ج4/ص: 1182).

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

وأما القدرة والتأثير فإما أن يكون في العالم العلوي أو ما دونه وما دونه إما بسيط أو مركب والبسيط إما الجو وإما الأرض؛ والمركب إما حيوان وإما نبات وإما معدن. والحيوان إما ناطق وإما بهيم؛ **فالعلوي** كانشقاق القمر ورد الشمس ليوشع بن نون وكذلك ردها لما فاتت عليا الصلاة والنبي ﷺ نائم في حجره - إن صح الحديث - فمن الناس من صححه كالطحاوي والقاضي عياض. ومنهم من جعله موقوفا كأبي الفرج بن الجوزي وهذا أصح، وكذلك معراجه إلى السماوات.

وأما الجو فاستسقاؤه واستصحاؤه غير مرة: كحديث الأعرابي الذي في الصحيحين وغيرهما وكذلك كثرة الرمي بالنجوم عند ظهوره، وكذلك إسراؤه من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى.

وأما الأرض والماء فكاهتزاز الجبل تحته وتكثير الماء في عين تبوك وعين الحديبية ونبع الماء من بين أصابعه غير مرة ومزادة المرأة.

وأما المركبات فتكثيره للطعام غير مرة في قصة الخندق من حديث جابر رضي الله عنهما وحديث أبي طلحة رضي الله عنه، وفي أسفاره وجراب أبي هريرة ونخل جابر بن عبد الله وحديث جابر وابن الزبير رضي الله عنهما في انقلاع النخل له وعوده إلى مكانه وسقياه لغير واحد من الأرض كعين أبي قتادة.رضي الله عنه

وهذا باب واسع لم يكن الغرض هنا ذكر أنواع معجزاته بخصوصه وإنما الغرض التمثيل»[1].

ولكن مع ذلك كله تبقى معجزة القرآن الكلامية، أعظم المعجزات، يقول الباقلاني، في حديث له عن منزلة الكلام « ومعرفة الكلام أشدُّ من المعرفة بجميع ما وصفت لك، وأغمض وأدق وألطف، وتصوير ما في النفس، وتشكيل ما في القلب، حتى تعلمه وكأنك مشاهده، وإن كان قد يقع بالإشارة، ويحصل بالدلالة والإمارة، كما يحصل بالنطق الصريح، والقول الفصيح - فللإشارات أيضاً مراتب، وللسان منازل.

(1) - مجموع الفتاوى، تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحليم بن تيمية الحراني، المحقق: عبد الرحمن بن محمد بن قاسم، الناشر: مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، المدينة النبوية، المملكة العربية السعودية، عام النشر: 1416هـ/1995م، (ج11/ ص 318)

ورُبَّ وصف يصور لك الموصوف كما هو على جهته لا خلف فيه، ورب وصف يبُزُّ عليه ويتعداه، ورُبَّ وصفٍ يقصُرُ عنه»(1).

وفي الحديث: "فضل كلام الله على سائر الكلام كفضل الله على سائر خلقه"(2)، « فالقرآن كتاب دل على صدق متحمله، ورسالة دلت على صحة قول المرسل بها، وبرهان شهد له برهان الأنبياء المتقدمين، وبيّنة على طريقة من سلف من الأولين، حيرهم فيه، إذ كان من جنس القول الذي زعموا أنهم أدركوا فيه النهاية، وبلغوا فيه الغاية، فعرفوا عجزهم، كما عرف قوم عيسى عليه السلام نقصانهم فيما قدروا من بلوغ أقصى الممكن في العلاج، والوصول إلى أعلى مراتب الطب، فجاءهم بما بهرهم: من إحياء الموتى، وإبراء الأكمه والأبرص، وكما أتى موسى عليه السلام بالعصا التي تلقفت ما دققوا فيه من سحرهم، وأتت على ما أجمعوا عليه من أمرهم، وكما سخَّر لسليمان عليه السلام الرِّيح والطير والجنَّ؛ حين كانوا يولعون به من فائق الصنعة، وبدائع اللُّطف.

ثم كانت هذه المعجزة مما يقف عليها الأول والآخر وقوفاً واحداً، ويبقى حكمها إلى يوم القيامة»(3).

وفوق ذلك فإنَّ آية النبيِّ صلى الله عليه وسلم فاقت وفارقت آيات الأنبياء عليهم السلام من وجوه عدة، يمكن حصرها في الآتي:

« **أولا**: أنَّ معجزات الأنبياء السابقين كانت شيئاً آخر غير رسالاتهم التي يبشرون بها ويدعون إليها، فطبُّ عيسى عليه السلام غير إنجيله، وعصى موسى عليه السلام غير توراته، وهذا بخلاف معجزة محمد صلى الله عليه وسلم، فقد جعلها الله شيئاً لا ينفصل عن جوهر الرِّسالةِ، فحقائق الرِّسالة ودلائلُ

---

(1) – إعجاز القرآن، للباقلاني، (ص244)

(2) – أخرجه البيهقي من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، برقم 509، بَابُ قَوْلِ اللَّهِ عز وجل:{لِلَّهِ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ} ، الأسماء والصفات للبيهقي، أبو بكر البيهقي أحمد بن الحسين، حققه وخرج أحاديثه وعلق عليه: عبد الله بن محمد الحاشدي، الناشر: مكتبة السوادي، جدة – المملكة العربية السعودية، الطبعة: الأولى، 1413 هـ - 1993 م. (ج 1، ص 583)، ، والدارمي في الرد على الجهمية ، من حديث شهر بن حوشب، باب الإيمان بكلام الله تبارك وتعالى، الرد على الجهمية، المؤلف: أبو سعيد عثمان بن سعيد الدارمي، المحقق: بدر بن عبد الله البدر، الناشر: دار ابن الأثير – الكويت، الطبعة: الثانية، 1416هـ - 1995م. (ج1/ ص: 160).

(3) – إعجاز القرآن، للباقلاني، (ص302-303)

صحّتها كتابٌ واحدٌ، فالقرآن إذن هو منهاج الشريعة ودليل النُّبوّة والرِّسالة، وذلك لتستمر هذه المعجزة باستمرار الرّسالة إلى أن يرِثَ اللهُ الأرضَ ومن عليها.

ثانياً: معجزات الأنبياء السابقين عليهم السلام كانت متوافقةً مع طورِ طفولة أقوامهم العقليّة حيْثُ كانت مواكبةً لعقول تلك الأزمان مقصورةً على قدرها، والآن بعدَ أن ترقى العقل وكثُرت المعارف أصبحَ الدين بحاجة إلى براهينَ غير البراهين السابقة، فجاء على غير ما كانت عليه الديان التي قبله، فسنَّ منهجاً جديداً في البرهان على صحّته، وعلى أنه من عند الله عز وجل، فكان القرآن هو كتاب الله المعجز للبشريّةِ بهدايته وتشريعه وأسلوبه ومعانيه التي تتميَّز بخلودها وبقائها على مرِّ الزّمن، فواكب القرآنُ بذلك ترقي العقل البشري.

ثالثاً: معجزات الأنبياءِ السَّابقينَ الدّالة على صدْق نبوّتهم هي وقائع تقع ثمَّ تنقضي وتفنى بفناء هؤلاء الأنبياء، فيراها الذين عاصروهم وحدَهم، أمَّا من يأتي بعدهم، فتُنقَلُ إليهم أخبارُها فيضْعُف تأثيرها عليهم، وقد علِمَ الله سبحانه وتعالى أن سلسلة النّقل ستنقطع، وأن ثقة بعض المتأخرين به، ولاسيما بعد انقطاع سلسته ستضعف، ولأنَّ دلالتها على الرِّسالة ستضمحلُّ، فجعل المعجزة الكبرى لمحمد صلى الله عليه وسلم من نوعٍ آخرَ، جعلها قائمةً تخاطبُ الأجيالَ، يراها ويقرؤها النَّاس في كلِّ عصرٍ إلى قيام السَّاعة، ألا وهي هذا الكتاب معجز للخلق بما فيه من أنواع الإعجاز.

رابعاً: كانت معجزات الأنبياء السابقين عليهم السلام حسيّةً ماديّةً، يوم أن كانت العجائب تبلغ نفسيّة الجماهير مبلغاً لا تملك معه إلاَّ الإذعانَ والتّسليمَ، فكانت معجزةُ نبي الله صالح عليه السلام ناقة أخرجها لهم من صخرةٍ، وكانت معجزة موسى عليه السلام من باب قلب الحقائق؛ فانقلبت العصا له حيةً، وكانت معجزة عيسى عليه السلام شفاء المرضى المعوقين وإحياء الموتى، ولكن لـمَّا بلغت الإنسانية الرُّشد بفكرها ونُضْجِ عقلها لم تعدْ تلك العجائب هي الأدلّة الوحيدة على صدق الرِّسالة، ولذلك جعل الله عز وجل معجزة خاتم الأنبياء عليه السلام عقليةً هدايةً للعقل، وتقديراً لمكانته وعزّته، فأيّده الله سبحانه وتعالى بهذا القرآن العظيم الذي لا يُدركُ إلاَّ بالتأمُّل والتدبُّر، وإن كان قائماً ثابتا في الوجود من غير ريب»[1].

---

(1) – الإعجاز العلمي في القرآن الكريم، عبد السلام حمدان اللوح، آفاق للطبع والنّشر والتوزيع غزّة – فلسطين، الطبعة الثانية: 1422هـ – 2002م، (ص: 21-22)

ويمكن إضافة **وجه خامس**، فيقال: « فمن المعجزة تستنبط أحكام الشريعة فآية تصديق الرسالة في الرسالة نفسها، وليس في معجزات الأنبياء السابقين ما يستنبط منها حكم تشريعي، وهذه ميزة فريدة لمعجزة رسول الله ﷺ دلالتها على مصدرها الرباني كامن فيها نفسها. فالرسالة هي المعجزة والمعجزة هي الرسالة.

وبهذه المزايا الفريدة لم تكن هذه المعجزة دليل صدق رسول الله ﷺ فحسب، بل كانت شاهد الصدق على رسالات الأنبياء السابقين وتبليغهم رسالات ربهم لأممهم، وبهذه المزايا أصبحت أمة محمد ﷺ جديرة بالاستشهاد على الأمم الأخرى يوم يقع التناكر والجحود بين الأقوام ورسلهم»(1)

فيمكننا أن نقول بعد ذلك أن الله ﷻ اقتضت حكمته صرف العرب عن المعجزات المادية إلى المعجزة المعنوية الخالدة: ﴿وَلَوۡ أَنَّ قُرۡءَانٗا سُيِّرَتۡ بِهِ ٱلۡجِبَالُ أَوۡ قُطِّعَتۡ بِهِ ٱلۡأَرۡضُ أَوۡ كُلِّمَ بِهِ ٱلۡمَوۡتَىٰۗ بَل لِّلَّهِ ٱلۡأَمۡرُ جَمِيعًاۗ﴾ الرعد: ٣١، فكانت آية القرآن أجدى وأليق وأرحم.

يقول ابن حزم، في بيان وجه المفارقة بين آية نبينا ﷺ، وغيرها من آيات إخوانه ممن الأنبياء عليهم السلام، « وَإِنَّمَا جعلهَا عَلَيْهِ السَّلَام بِخِلَاف سَائِر آيَات الْأَنْبِيَاء عَلَيْهِم السَّلَام لِأَن تِلْكَ الْآيَات يَسْتَوِي فِي معرفَة إعجازها الْعَالم وَالْجَاهِل وَأما إعجاز الْقُرْآن فَإِنَّمَا يعرفهُ الْعلمَاء بلغَة الْعَرَب ثمَّ يعرفهُ سَائِر النَّاس بأخبار الْعلمَاء لَهُم بذلك»(2)، وهذا وجهٌ آخر، يمكن عدُّه من الفوارق المهمة.

ثمَّ ههنا شيءٌ آخرُ تتبيَّنُ من خلالها مفارقةٌ أخرى بين آية نبيِّنا ﷺ لسائر آيات إخوانه النبيين، وذلك ما جلاَّهُ الأستاذ محمود شاكر رحمه الله حين قال: « ...وذلك أني وجدتُ أنّ آيات الرسل جميعاً، حاشى القرآن، "العجز" فيها قريبٌ سهلُ المأخذِ وسهلٌ أيضاً أن يقبله العقل قبولاً مغرياً بالركون إلى صحّته والاقتناع به.

أمّا "العجز" في شأن القرآن، فإني وجدتُ الأمرَ مختلفاً أبينَ الاختلاف، فلم أستطع أن أقبله قبولاً سهلاً، ولا أن أركن إليه وأطمئنَّ اطمئنان اليقين الجازم، فحملني القلق الذي لا

---

(1) – مباحث في إعجاز القرآن الكريم، لمصطفى مسلم، (ص: 28-29).

(2) – الفصل في الملل والأهواء والنحل، المؤلف: أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد بن حزم الأندلسي، الناشر: مكتبة الخانجي – القاهرة، د ت ط، (ج1/ ص: 90)

يفارقني على إعادةِ النّظر في هذا الشّرط وفي لفظ "العجز" خاصّة، مع ما في ذلك من المخاطرة بمخالفة جمهور علماء الأمّة الذين أخذوا هذا اللّفظ وهذا الشّرط عن هؤلاء المتكلمين، وأمرّوه إمراراً، وبنوا عليه أبواباً من العلم واسعةً، تشهد جميعها بأنهم سلمّوا تسليماً قطع بأنهم أطبقوا عليه، ولم يختلف أحدٌ في صوابه.

وبعد الحيرة المشتتة انتهيت إلى أن آيات الرسل جميعاً، حاشى القرآن العظيم، "العجز" فيها ليس "عجزا" عن فعلٍ طولبت الخلائق بفعله أو الإتيان بمثله، فظهر عجزهم عنه وقد حاولوا فعله، بل هو تسليمٌ مبتدأ تسليما محضاً بأن الذي رأوه او سمعوا به، داخلٌ دخولاً مبيناً في قدرة الخلاّق العظيم وحده، وخارجٌ خروجاً مبيناً عن قدرة جميع الخلائق التي خلقها ﷻ»[1]

فإدراك إعجاز القرآن كيف كان معجزا، أمرٌ فيه من المشقَّة على العقول بخلاف باقي الآيات التي جاء بها الرسل عليهم السلام، فإن مجرد مشاهدتها ومباشرتها بإحدى الحواس يقع مع ذلك إدراك الأعجاز وهذا ما جعل الباقلانيَّ يقول: « ليس في العادة مثل للقرآن يجوز أن يعلم قدرة أحد من البلغاء عليه، فإذا لم يكن لذلك مثل في العادة وعرف هذا الناظر جميع أساليب الكلام وأنواع الخطاب ووجد القرآن مباينا لها علم خروجه عن العادة وجرى مجرى ما يعلم أن إخراج اليد البيضاء من الجيب خارج عن العادات فهو لا يجوِّزه من نفسه، وكذلك لا يجوِّز وقوعه من غيره إلا على وجه نقض العادة؛ بل يرى وقوعه موقع المعجزة وهذا وإن كان يفارق فلق البحر وإخراج اليد البيضاء ونحو ذلك من وجه فهو أنه يستوي الناس في معرفته عجزهم عنه بكونه ناقضا للعادة من غير تأمل شديد ولا نظر بعيد فإن النظر في معرفة إعجاز القرآن يحتاج إلى تأمل ويفتقر إلى مراعاة مقدمات والكشف عن أمور نحن ذاكروها بعد هذا الموضع»[2]

وقد قال بإثره الغزَّاليَّ: «...لأنه ربما يقصر فهمهم عن درك إعجاز القرآن ولا يقصرون عن درك إعجاز إحياء الموتى وإبراء الأكمه والأبرص...»[3].

---

(1) – المداخل، لمحمود شاكر، (ص: 43-44).

(2) – إعجاز القرآن، للباقلاني (ص31-32).

(3) – الاقتصاد في الاعتقاد، أبو حامد محمد بن محمد الغزالي الطوسي، وضع حواشيه: عبد الله محمد الخليلي، الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان، الطبعة: الأولى، 1424 هـ - 2004 م، (ص: 111).

فهذه كانت أهمُّ المفارقات التي باين بها القرآن الكريم باقي آيات الأنبياء عليهم السلام، وهي التي نفهمُ بها قوله ﷺ : «مَا مِنَ الأَنْبِيَاءِ نَبِيٌّ إِلَّا أُعْطِيَ مَا مِثْلهُ آمَنَ عَلَيْهِ البَشَرُ، وَإِنَّما كَانَ الَّذِي أُوتِيتُ وَحْيًا أَوْحَاهُ اللَّهُ إِلَيَّ، فَأَرْجُو أَنْ أَكُونَ أَكْثَرَهُمْ تَابِعًا يَوْمَ القِيَامَةِ».

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

المطلب الثاني: الاعتراض على آيات الأنبياء عليهم السلام:

كانت أقوام الأنبياء تسعى سعيا حثيثا في الاعتراض عليهم إذا جاؤوهم بالآيات والبينات من عند الله عز وجل، وهذا أمرٌ معلومٌ من قَصصهم وكان الاعتراض المشترك بينهم أن ما يأتيهم به أنبياؤهم هو من قبيل السِّحر أو الجُنون، وكأنهم لُقِّنوا هذه الحجة فتواطؤُوا عليها، إذ وجدوا لها مساغاً في الاعتراض بها على الرُّسل عليهم السلام وأتباعهم المؤمنين، قال الله عز وجل: ﴿ كَذَٰلِكَ مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُواْ سَاحِرٌ أَوۡ مَجۡنُونٌ ۝ أَتَوَاصَوۡاْ بِهِۦۚ بَلۡ هُمۡ قَوۡمٌ طَاغُونَ ۝ ﴾ [الذاريات: ٥٢ – ٥٣].

ومن ذلك ما وقع لكليم الله موسى عليه السلام مع فرعون والسَّحرة؛ فإن السحر كله قائمٌ على التخييل كما قال الله تبارك وتعالى: ﴿ يُخَيَّلُ إِلَيۡهِ مِن سِحۡرِهِمۡ أَنَّهَا تَسۡعَىٰ ۝ ﴾ طه: ٦٦، وقال فرعون صادًّا الناس والسحرة لما آمنوا لموسى عليه السلام، قال – متهما – عما جاء به موسى من آية العصى التي تلقفت سحر السحرة: ﴿ قَالَ ءَامَنتُمۡ لَهُۥ قَبۡلَ أَنۡ ءَاذَنَ لَكُمۡۖ إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِي عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحۡرَۖ ﴾ طه: ٧١، فأراد أن يقنعه أن هذه الآية التي جاء بها موسى عليه السلام من جنس السحر الذي صنعته السَّحرة، وأن ذلك مجردُ تخييلٍ، وطبعاً كان ذلك منهُ مكابرةً واستعلاءً، كما قال الله عز وجل: ﴿ وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسۡتَيۡقَنَتۡهَآ أَنفُسُهُمۡ ظُلۡمٗا وَعُلُوّٗاۚ ﴾ النمل: ١٤.

أمّا آية نبينا صلى الله عليه وسلم، فلا مدخل لهذا الباب فيها، إذ إنها كانت كلاماً أوحاه لله عز وجل إلى نبيه صلى الله عليه وسلم، وكان القوم الذي أُرسل فيهم وأُنزل عليهم هذا القرآن؛ كانوا على قدْرٍ فائقٍ من البلاغة والبيان وعلمٍ بالكلام –كما مرَّ–، فلم تزل الآيات تنزل تَلْوَ الآيات حتى قام في أنفسهم أن هذا الكلام لا طاقة للبشر به، فقد علموا فنونَ الكلام وتصاريفه شعراً ونثراً وسجعَ الكُهَّانِ، فلا هي منه ولا هو منها في قبيل ولا دبير، حتى قال قائلهم: « فِي قِصَّةِ الْوَلِيدِ بْنِ الْمُغِيرَةِ أَنَّهُ قَالَ لِرَسُولِ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم: اقْرَأْ عَلَيَّ فَقَرَأَ عَلَيْهِ: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ وَٱلۡإِحۡسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَيَنۡهَىٰ عَنِ ٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِ وَٱلۡبَغۡيِۚ يَعِظُكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ ۝ ﴾ النحل: ٩٠، قَالَ: أَعِدْ، فَأَعَادَ النَّبِيُّ صلى الله عليه وسلم فَقَالَ: وَاللَّهِ إِنَّ لَهُ لَحَلَاوَةً وَإِنَّ عَلَيْهِ لَطَلَاوَةً وَإِنَّ أَعْلَاهُ لَمُثْمِرٌ وَإِنَّ أَسْفَلَهُ لَمُغْدِقٌ وَمَا يَقُولُ هَذَا بَشَرٌ، وَقَالَ لِقَوْمِهِ: وَاللَّهِ مَا فِيكُمْ رَجُلٌ أَعْلَمُ بِالْأَشْعَارِ مِنِّي وَلَا أَعْلَمُ بِرَجَزِهِ وَلَا بِقَصِيدَتِهِ مِنِّي وَلَا بِأَشْعَارِ الْجِنِّ، وَاللَّهِ مَا يُشْبِهُ هَذَا الَّذِي يَقُولُ شَيْئًا مِنْ هَذَا، وَاللَّهِ إِنَّ لِقَوْلِهِ

الَّذِي يَقُولُ حَلَاوَةً وَإِنَّ عَلَيْهِ لَطَلَاوَةً وَإِنَّهُ لَمُثْمِرٌ أَعْلَاهُ مُغْدِقٌ أَسْفَلُهُ وَإِنَّهُ لَيَعْلُو وَمَا يُعَلَى وَإِنَّهُ لَيُحطِّمُ مَا تَحْتَهُ»(1).

وكذلك في قصة دخول جعفر بن أبي طالب ﷺ على النَّجاشيّ وقوله له: «بعث الله إلينا رسولاً نعرف نسبه وصدقه وعفافه وتلا علينا تنزيلاً **لا يشبهه شيءٌ غيره**»(2).

وكذا قصة أُنيس أخي أبي ذر ﷺ، وهو أحد الشعراء أنه قال: « لَقِيتُ رَجُلًا بِمَكَّةَ عَلَى دِينِكَ، يَزْعُمُ أَنَّ اللهَ أَرْسَلَهُ، قُلْتُ: فَمَا يَقُولُ النَّاسُ؟ قَالَ: يَقُولُونَ: شَاعِرٌ، كَاهِنٌ، سَاحِرٌ، وَكَانَ أُنَيْسٌ أَحَدَ الشُّعَرَاءِ. قَالَ أُنَيْسٌ: لَقَدْ سَمِعْتُ قَوْلَ الْكَهَنَةِ، فَمَا هُوَ بِقَوْلِهِمْ، وَلَقَدْ وَضَعْتُ قَوْلَهُ عَلَى أَقْرَاءِ الشِّعْرِ، فَمَا يَلْتَئِمُ عَلَى لِسَانِ أَحَدٍ بَعْدِي، أَنَّهُ شِعْرٌ، وَاللهِ إِنَّهُ لَصَادِقٌ، وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ»(3).

وقد قالت الجن لما تلي عليها القرآن واستمعت له: ﴿ قُلۡ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ ٱسۡتَمَعَ نَفَرٞ مِّنَ ٱلۡجِنِّ فَقَالُوٓاْ إِنَّا سَمِعۡنَا قُرۡءَانًا عَجَبٗا ١ ﴾ الجن: ١(4).

كل هذه النصوص والمواقف من القرآن الكريم، تدلُّنا على أنَّ العرب كانوا عند سماع القرآن الكريم، يعلمون علماً ليس فيه ريب أنَّ الكلام الذي جاء به محمد ﷺ وزعم أنَّهُ وحيٌّ من ربِّ العالمين، أنه لا قِبَلَ لهم به، ولا طمع لهم في الإتيان بمثله، لذلك لم يتعنَّوْا محاولةً في

---

(1) – أخرجه البيهقي من طريق عكرمة، الاعتقاد والهداية إلى سبيل الرشاد على مذهب السلف وأصحاب الحديث، أبو بكر البيهقي أحمد بن الحسين، المحقق: أحمد عصام الكاتب، الناشر: دار الآفاق الجديدة – بيروت، الطبعة: الأولى، 1401هـ، (ص: 268)، وينظر كذلك شعب الإيمان، أبو بكر البيهقي أحمد بن الحسين، حققه وراجع نصوصه وخرج أحاديثه: الدكتور عبد العلي عبد الحميد حامد، أشرف على تحقيقه وتخريج أحاديثه: مختار أحمد الندوي، صاحب الدار السلفية ببومباي – الهند، الناشر: مكتبة الرشد للنشر والتوزيع بالرياض بالتعاون مع الدار السلفية ببومباي بالهند، الطبعة: الأولى، 1423 هـ - 2003 م. (ج 1/ص: 289).

(2)- أخرجه البيهقي في الاعتقاد والهداية إلى سبيل الرشاد، من حديث أم سلمة ﷺ، (ص: 269)

(3) – أخرجه مسلم، كتاب فضائل الصحابة ﷺ، باب فضائل أبي ذرّ ﷺ، رقم الحديث: 2473، المسند الصحيح المختصر بنقل العدل عن العدل إلى رسول الله ﷺ، مسلم بن الحجاج أبو الحسن النيسابوري ، المحقق: محمد فؤاد عبد الباقي، الناشر: دار إحياء التراث العربي – بيروت، د ت ط. (ج 4/ص: 1919).

(4)- وتعرف بقصة إسلام جن نصيبين، وهي مدينة من مدن تركيا، أخرجها البخاري في كتاب التفسير، باب تفسير " قل أوحي إليَّ"، برقم: 1994، مُخْتَصَر صَحِيحُ الإِمَامِ البُخَارِي، المؤلف: أبو عبد الرحمن محمد ناصر الدين الألباني، الناشر: مكتَبة المَعارف للنَّشْر والتوزيع، الرياض، الطبعة: الأولى، 1422 هـ - 2002 م. (ج 3/ص: 304).

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

ذلك، وإنما كانوا يجتهدون في صرف الناس عن سماعه، ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَسۡمَعُواْ لِهَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ وَٱلۡغَوۡاْ فِيهِ لَعَلَّكُمۡ تَغۡلِبُونَ ٢٦ ﴾ فصلت: 26، هذا غاية ما بلغته قُدرهم.

ونجد المازري في شرحه على صحيح مسلم لما عرض لحديث النبي ﷺ في تميز آيته التي جاء بها عن سائر آيات الأنبياء عليهم السلام يشير إلى هذه القضيَّة بقوله: « أشار – ﷺ – بقوله "وحياً" إلى معنى بسطه العلماء فقالوا: فإن معجزته عليه السلام يبعُد أن يتخيل فيها أنها ضرب من السِّحر، وإنما هو كلامٌ معجزٌ ولا يقدر السحرة أن يأتوا لذلك بما يتخيل تشبيهاً به كما فعل في عصا موسى وغيرها، لأنهم أتَوْا بعِصيٍّ وحبالٍ يتخيل أنها تسعى فيحتاج التمييز بينهما وبين ما أتى به موسى عليه السلام إلى نظرٍ، والنظر عرضة الزلل فيخطئ الناظر فيعتقد أن ذلك سواء»(1).

وكذلك ذكر ابن الملقن هذا المعنى، وهو يعدد المعاني التي يحتملها الحديث فقال: «...وقيل: معناه أن الذي أوتيت لا يتطرق إليه تخيل بسحر وشبهه، بخلاف معجزة موسى، فإنه قد يخيل السَّاحر بشيء ما يقارب صورة، كما خيلت السحرة في صورة عصا موسى عليه السلام»(2).

فبهذا يتبيّن لنا أنه لا مدخل للتخيل في آية الرسول ﷺ التي جاء بها قومه، ذلك الذي جعل هذه الآية بالغة الأثر في العرب ومن يأتي بعدهم ممن يتأتّى له تلاوة أو سماع القرآن الكريم، ولا يصلح الاعتراض بذلك على آيات الأنبياء عليهم السلام.

---

(1) – المعْلم بفوائد مسلم، أبو عبد الله محمد بن علي المازري، المحقق: فضيلة الشيخ محمد الشاذلي النيفر، الناشر: الدار التونسية للنشر، المؤسّسة الوطنية للكتاب بالجزائر، المؤسّسة الوطنية للترجمة والتحقيق والدّراسات بيت الحكمة، الطبعة: الثانية، 1988 م، والجزء الثالث صدر بتاريخ 1991م. (ج1/ص: 323)

(2)–التوضيح لشرح الجامع الصحيح، ابن الملقن أبو حفص سراج الدين عمر بن علي الشافعي، المحقق: دار الفلاح للبحث العلمي وتحقيق التراث، الناشر: دار النوادر، دمشق – سوريا، الطبعة: الأولى، 1429 هـ - 2008م. (ج24/ص: 13)

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

المطلب الثالث: استمرار معجزة القرآن إلى آخر الزمان

إن المتأمل في آيات الأنبياء عليهم السلام يجد فيها شيئاً من الاشتراك كما يجد فيها شيئاً آخر من التفاوت، ومن الاشتراك الواقع بين آياتِ الرُّسل السابقين عليهم السلام أنها تنقضي بانقضاء أعصرهم.

وقد ذكر ابن الملقن في ثنايا حديثه عن معنى الحديث كلاماً مفادُه أنَّ معجزات الأنبياء انقرضت بانقراض أعصارهم ولم يُشاهدْها إلاَّ من حضَرَ، ومعجزةُ نبيِّنا القرآنُ المستمرُ إلى يوم القيامة مع خرقه العادة في أسلوبه وبلاغته وإخباره بالمغيبات وعجز الإنس والجنِّ عن أن يأتوا بسورة مثله مجتمعين أو متفرقين في جميع الأعصار مع اعتنائهم بمعارضته فلم يقدروا وهم أفصح القرون، مع غير ذلك من وجوه الإعجاز[1].

فإنَّ هذا الامتياز لمعجزة القرآن الكريم أكسبه خاصية الامتداد الزمني، ولا شك أن هذا من أظهر التفاوت بين آية القرآن الكريم وغيره من آيات الأنبياء عليهم السلام السالفة، لذلك صار صاحب المعجزة صلى الله عليه وسلم أكثر الأنبياء تبعاً لأجل هذا الامتداد الزّمني الذي خُصَّ بهذه المعجزة القرآنية، فكلما فتحت البشرية أعينها على هذه الآية الخالدة وجدت من البراهين والبينات الشيء الذي لا يسعها معه إلا الإيقان بأنَّه الحق من الله سبحانه وتعالى، يقول الله عز وجل: ﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ۗ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿٥٣﴾ ﴾ [فصلت: ٥٣].

ومما تجدر الإشارة إليه ههنا أن هذه الاستمرارية هي التي تُبرز للخلق مظاهرَ ووجوهاً إعجازيةً عدَّة لكون القرآن الكريم معجزةً باهرةً، إذْ لم تزلْ الأحداثُ والأزمان تأتي مصدِّقة للقرآن الكريم وبخاصة فيما عُلِّق وجوده وتحققه في المستقبل من الزمن، وهو ما أشار إليه علماء الإعجاز في أثناء حديثهم عن وجه إعجاز القرآن من جهة إخباره عن الغيوب المستقبلة، وهو وجه من وجوه الإعجاز التي اعتنى به جمهرة منهم.

(1)- التوضيح لشرح الجامع الصحيح، لابن الملقن (ج24/ص: 13)

جمعية الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

يقول القاضي عياض رحمه الله: « وتأمل وجوه إعجازه إلى ما أخبر به من الغيوب على هذه السبيل فلا يمرُّ عصرٌ ولا زمنٌ إلاَّ ويظهر في صدقه بظهور مخبره على ما أخبر فيتجدد الإيمان ويتظاهر البرهان وليس الخبر كالعيان، وللمشاهدة زيادة في اليقين والنَّفس أشدُّ طمأنينةً إلى عين اليقين منها إلى علم اليقين؛ وإن كان كل عندها حقا وسائر معجزات الرُّسل انقرضت بانقراضهم وعدمت بعدم ذواتها ومعجزة نبينا ﷺ لا تبيد ولا تنقطع وآياته تتجدد ولا تضمحل ...هذا معنى الحديث عند بعضهم وهو الظاهر والصحيح إن شاء الله»(1).

فقد نبه القاضي في كلامه هذا على أن ما حواه القرآن الكريم من أخبار الغيوب المستقبلية خاصّةً كان من الأسباب التي أعطت لمعجزة القرآن هذا الامتداد خلافا لآيات سائر النبيين عليهم السلام التي كانت تنقرض بانقراضهم.

كما نجد من جهة أخرى ابن الملقن في شرحه على الحديث يذكر لنا مراداً آخر يُباين به القرآنُ آيةُ الرُّسول ﷺ باقي آيات الأنبياء عليهم السلام وذلك قوله: « يريد أنَّ الأنبياء أُعْطُوا الآيات: أعطي صالح الناقة، وموسى العصا، وعيسى إحياء الموتى، ولم يؤت هو عن سؤال فيكون تحديًا، وإنما أراهم الآيات الكثيرة من نفسه، وأوتي القرآن وهو المعجزة، يبيِّنه قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ﴾ العنكبوت: ٥١، ﴿وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرْسِلَ بِٱلْءَايَٰتِ إِلَّآ أَن كَذَّبَ بِهَا ٱلْأَوَّلُونَ﴾ الإسراء: ٥٩، وإنما معناه أن الله أيَّد كل نبي بعثه من الآيات -يعني: المعجزات- بما يصدق دعواه كما سلف، وقيل: إنَّ كُلَّ نبيٍّ أُعطِيَ من المعجزات ما كان مثله لمن كان قبله من الأنبياء فآمن به البشر، وأمَّا معجزتي العظمى الظاهرة فهي القرآن الذي لم يعط أحد مثله؛ فلهذا أنا أكثرهم تابعًا»(2).

ونجد المعنى نفسه يؤكده لنا ابن الجوزي بقوله : « الإشارة بالآيات الحسِّيات كناقة صالح وعصا موسى وإحياء الموتى، فهذِه معجزة ترى بالحس، ومعجزة نبينا الكبرى هي القرآن، فهي تشاهد بعين العقل، وقد كان في جمهور الأمم السالفة بَلَادَةٌ حتى قال قائلهم: اجعل لنا إلهًا كما لهم آلهة، والبليد لا يصلح إلا بآيات الحسِّ، والذين بعث إليهم نبينا ﷺ كانوا أرباب ذكاء وفطنة، وكفاهم القرآن معجزة، غير أن القضاء قضى على قومٍ منْ أذكيائهم بالشِّقاء مع وجود

(1) – الشفا بتعريف حقوق المصطفى ﷺ و معه حاشية الشمني، (ج 1/ص: 371- 372)

(2) – التوضيح لشرح الجامع الصحيح، لابن الملقن، (ج 24/ ص: 14-15)

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

الفهم، كما قال عمرُو بن العاصي ﵁: تلك عقول كادها بارئها لكبرهم، فتكبروا عن ذلك الاتباع، وعادوا على أسلافهم من تخطيئهم في عبادة الأصنام، وحسدوا الشارع لما مُيّـِزَ عنهم ﴿ إِن فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَّا هُم بِبَالِغِيهِ ﴾ غافر: ٥٦، على أنه لم يكن للأنبياء معجزة إلا ولنبينا عليه وعليهم أفضل الصلاة السلام من جنسها...

ونبع الماء من بين أصابعه، أعظم من تفجره من حجر؛ إذ الأحجار من عاداتها تفجرها بالماء، ولم تخبر عادة بجريان الماء من بين لحم وعظم، وخطاب الذراع له أعظم من تكليم الموتى لعيسى عليه السلام»[1].

لذلك نقول: إن عناية العلماء بإبراز وجوه الإعجاز من القرآن الكريم، لا يعني أبداً أنه ﷺ لم يؤتَ معجزةً غيره، ولكن كما يقول الأمير الصنعاني رحمه الله:« وليس فيه نفي أنه أعطي غير القرآن من المعجزات بل الحصر إضافي بالنسبة إلى كتب الأنبياء ومعجزاتهم»[2]

وأيضا عناية العلماء بمعجزة القرآن، لأجل أن معجزته أظهر وبيان إعجازها كافٍ لكل متطلبٍ للحجة، فإنها أبلغ وأظهر، يقول الطيبيِّ رحمه الله: « والمراد بالوحي: القرآن البالغ أقصى غاية الإعجاز في النظم والمعنى، وهو أكثر فائدة وأعمُّ منفعة من سائر المعجزات، فإنه يشتمل على الدعوة والحجَّة، ويستمرُّ على مرِّ الدُّهور والأعصار، وينتفع به الحاضرون عند الوحي المشاهدون، والغائبون عنه والموجودون بعده إلى يوم القيامة على السواء، ولذلك رتب عليه قوله ﷺ: "فأرجو أن أكون أكثرهم تبعاً يوم القيامة"»[3].

فكانت هذه الأسباب كفيلة أن تجعل القرآن الكريم آية مستمرة إلى آخر الزمان، وأن برهانها قائمٌ لا ينفكُّ عنها، كما لا ينفكُّ شعاع الشمس عنها.

---

(1) – كشف المشكل من حديث الصحيحين، جمال الدين أبو الفرج عبد الرحمن بن الجوزي، المحقق: علي حسين البواب، الناشر: دار الوطن – الرياض، الطبعة الأولى: سنة النشر: 1418هـ- 1997م، (ج 3/ص: 412)

(2) – التَّنويرُ شَرْحُ الجَامِعِ الصَّغِيرِ، محمد بن إسماعيل الصنعاني، المحقق: د. محمَّد إسحاق محمَّد إبراهيم، الناشر: مكتبة دار السلام، الرياض الطبعة: الأولى، 1432 هـ - 2011 م. (ج9/ص: 437)

(3) – شرح الطيبي على مشكاة المصابيح المسمى بـ (الكاشف عن حقائق السنن)، شرف الدين الحسين بن عبد الله الطيبي، المحقق: د. عبد الحميد هنداوي، الناشر: مكتبة نزار مصطفى الباز (مكة المكرمة - الرياض)، الطبعة: الأولى، 1417 هـ - 1997 م، (ج 11/ص: 3635)

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

من أقدم الكتب تدوينا كتب دلائل النبوة، فقد ظهر أول كتاب في نهاية القرن الثاني الهجري منسوبا إلى الإمام الشافعي، محمد بن إدريس، مع أنَّ الحديث عن دلائل النبوة وعلاماتها ظهر قبل ذلك مع ظهور الكتابة السنن والسير والمغازي، التي كان مما يُدرج فيها الحديث عن دلائل النبوة، ثم لمَّا تأكد للعلماء أهميتها أفردت بالتأليف.

وقد ضُمنَّت هذه الكتب حديثا بارزا عن إعجاز القرآن الكريم، لتكون بذلك لبنةً أساسا في بناء علم إعجاز القرآن الكريم، وتساهم في إظهار قضاياه، وهذا فصلٌ مقعودٌ لأجل بيان مدى إسهامها في ذلك، ومباحثه ثلاثة، وهي:

المبحث الأول: تعريف بكتب دلائل النبوة وبيان مصادرها والمؤلفات فيها.

المبحث الثاني: علم إعجاز القرآن الكريم في كتب دلائل النبوة.

المبحث الثالث: تقويم علم إعجاز القرآن الكريم من خلال كتب دلائل النبوة.

جمعة الماجد عبد القادر للعلوم الإسلامية

المبحث الأول: تعريف بكتب دلائل النبوة، وبيان مصادرها والمؤلفات فيها.

كتب دلائل النبوة، وتسمى أيضا "أعلام النبوة" و"آيات النبوة" و"أمارات النبوة" و"حجج النبوة"، و" علامات النبوة"[1]، هي تلك الكتب التي موضوعها الحديث عن المعجزات والدلائل التي تدلُّ على صِدْق نبوة محمدٍ ﷺ، وصحَّة ما جاء به من الدِّين مبلغاً عن ربِّـه، وأنَّهُ لم يكُن بدْعاً من الرُّسل.

ولما كانت هذه الكتبُ مُعْتَنِيَـةً بالمعجزات، وكان القرآن الكريم، أعظمها، فقد عُنِيَت هذه بقضية الإعجاز في القرآن الكريم، التي تعدُّ من أهمِّ قضايا علوم القرآن الكريم، بل كان لها السبق إلى ذلك، حتى عُدَّت لبنة الأساس في بناء درس إعجاز القرآن الكريم، وهذه مطالب ينجلي من خلالها هذا المبحث، وهي كالآتي:

المطلب الأول: تعريف بكتب دلائل النُّبوة.

المطلب الثاني: مصادر كتب دلائل النبوة

المطلب الثالث: المؤلفات في دلائل النبوة.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

---

(1) – وبهذا سمّى البخاري في صحيحه هذا الباب، فقال "باب علامات النبوة في الإسلام"، صحيح البخاري، طبعة البُغا، (ج3 /ص: 1308)، والمشهور عن السلف استعمال هذه التسميَّة، فقد وجد في عهد الصحابة، ففي قصة إسلام زيد بن سعنة ﷺ، قال:" لم يبق من **علامات النبوة** شيء إلا عرفتها في وجه محمد ﷺ..."، أخرجها ابن حبان، باب الصدق والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، في: ذِكْرُ الِاسْتِحْبَابِ لِلْمَرْءِ أَنْ يَأْمُرَ بِالْمَعْرُوفِ مَنْ هُوَ فَوْقَهُ وَمِثْلَهُ وَدُونَهُ فِي الدِّينِ وَالدُّنْيَا إِذَا كَانَ قَصْدُهُ فِيهِ النَّصِيحَةَ دُونَ التَّعْيِيرِ، برقم: 288، الإحسان في تقريب صحيح ابن حبان، محمد بن حبان، أبو حاتم الدارمي، ترتيب: الأمير علاء الدين علي بن بلبان الفارسي، حققه وخرج أحاديثه وعلق عليه: شعيب الأرنؤوط، الناشر: مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة: الأولى، 1408 هـ - 1988 م، (ج1/ص: 521).

المطلب الأول: تعريف بكتب دلائل النبوة.

أول ما يبدئ به في تعريف كتب دلائل النبوة، التعريف اللغوي المعجميُّ، ويليه التعريف الاصطلاحي الشرعيُّ بإثره:

الفرع الأول: التعريف اللغوي:

لما كان مصطلح دلائل النبوة مركباً إضافياً، كان الأنسب أن يُعرَّف كلُّ جزءٍ من المركب بمفرده ثمَّ يُعرَّفُ بعد ذلك المركب جملة:

أولاً: الدلائل

أما في لغة: هي من دلَّ: ومادة الدَّال واللام في معاجم اللُّغة العربيَّة، تدل في أكثر تصرفاتها على معنيين اثنين أوقفنا عليهما ابن فارس في مقاييسه إذ يقول: « الدال واللام أصلان: **أحدهما** إبانة الشيء بأمارةٍ تتعلّمها.

والآخَر اضطرابٌ في الشيء.

فالأوّل قولهم: دلَلْتُ فلاناً على الطَّريق. والدليل: الأمارة في الشيء. وهو بيِّن الدَّلالة والدِّلالة، والأصل الآخَر قولهم: تَدَلْدَل الشَّيءُ، إذا اضطرَب. قال أوس: [من البسيط]

أمْ مَن لَحيٍّ أضاعوا بعضَ أمرِهِمُ *** بَيْنَ القُسوط وبين الدِّين دَلْدَالِ[1]

ومن الباب دَلال المرأة، وهو جُرأتها في تغنُّجٍ وشِكْلٍ، كأنَّها مخالِفَةٌ وليس بها خِلاف. وذلك لا يكون إلاّ بتمايُلٍ واضطراب»[2].

وأما في الاصطلاح: فالدلائل: جمع دلالة: وهي كون الشيء بحالة يلزم من العلم به العلم بشيء آخر، والشيء الأول هو الدال، والثاني هو المدلول[3].

---

(1) – من قصيدة مطلعها: عينيّ لابدّ من سكبٍ وتهمالِ *** عَلى فَضَالَةَ جَلِّ الرِّزْءِ وَالْعالي

القسوط = العصيان، الدين الطاعة، والدلدال = التذبذب.

ديوان أوس بن حجر، تحقيق: محمد يوسف نجم، طبعة دار بيروت – لبنان، طبعة عام: 1400 هـ - 1980م.

(2)- معجم مقاييس اللغة، أبو الحسين أحمد بن فارس بن زكريا، المحقق: عبد السلام محمد هارون، الناشر: دار الفكر، بيروت، الطبعة : 1399هـ - 1979م. (ج 2 ص 259-260).

(3) – التعريفات، علي بن محمد الشريف الجرجاني، المحقق: جماعة من العلماء بإشراف الناشر، الناشر: دار الكتب العلمية بيروت –لبنان، الطبعة: الأولى 1403هـ -1983م، (ص: 104).

ثانيا: تعريف النبوَّة

أما النبوَّةُ في اللغة: فإنَّ أصلها اللُّغويَ مشتركٌ كما في معاجم اللُّغة العربية بين أصلين اثنين هما "نبأ"، و"نبو"، بحسب الهمز في النبوة وتركه:

* **فعلى الهمز** يكون الأصل "نبأ"، وقد ذكر ابن فارس أن « النون والباء والهمزة قياسه الإتيانُ من مكانٍ إلى مكان. يقال للذي يَنْبأ من أرض إلى أرضٍ نابئ. وسيلٌ نابئ: أتَى من بلدٍ إلى بلد ورجلٌ نابئٌ مثله. قال الشَّاعر: [من: الطويل]

ولكنْ قَذَاها كلُّ أشعثَ نابئٍ *** أَتَتْنا به الأقدار من حيث لا ندرِي[1]

ومن هذا القياس النَّبأ: الخبر، لأنَّه يأتي من مكانٍ إلى مكان. والمُنبئ: المُخْبِر. وأنبأته ونَبَّأته...، ومن همَز النبيَّ فلأنه أنبأ عن الله ﷻ »[2].

* **وأما على ترك الهمز**، فالأصل حينئذ "نَبَوَ"، والذي يقول عنه ابن فارس: « النون والباء والحرف المعتلّ أصلٌ صحيح يدلُّ على ارتفاعٍ في الشيء عن غيره أو تَنحّ عنه. نبا بصرُه عن الشيء ينبو. ونبا السيف عن الضّريبة: تجافَى ولم يَمضِ فيها. ونبا به مَنزِلُه: لم يوافِقْه، وكذا فِراشه. ويقال نَبَا جنْبُه عن الفِراش. قال الشاعر: [من: الخفيف]

إنَّ جَنْبِي عن الفِراشِ لنَابِ *** كتَجافِي الأسَرِّ فوقَ الظِّرابِ[3].

ويقال إنّ النبيّ ﷺ اسمُه من النَّبوة، وهو الارتفاع، كأنَّه مفضّلٌ على سائر الناس برَفْع منزلته»[4]، قال أبو نعيم الأصبهاني: « وَمَنْ جعَلَ النُّبُوَّةَ مِنَ الْإِنْبَاءِ الَّتِي هِيَ الْإِخْبَارُ لَمْ يُفرِّقْ بَيْنَ النُّبُوَّةِ وَالرِّسَالَةِ»[5]

---

(1) – الأغاني، لأبي الفرج الأصفهاني، تحقيق: سمير جابر الناشر: دار الفكر– بيروت، الطبعة الثانية، د ت ط.، (ج 8 / ص: 324)، وهو للأخطل، ويروى:

ولكنّ شخصاً لا نُسَرُّ بقُرْبِه ... رمتْنا به الغيطانُ من حيث لا ندري.

(2)- المرجع نفسه، (ج5 / ص 385).

(3) - المرجع نفسه، (ج 12/ ص 249)، وهو لمعد يكرب في رثاء أخيه شرحبيل بن الحارث.

(4) – معجم مقاييس اللغة، المؤلف: أحمد بن فارس بن زكرياء القزويني الرازي، أبو الحسين (المتوفى: 395هـ)، المحقق: عبد السلام محمد هارون، الناشر: دار الفكر، عام النشر: 1399هـ - 1979م، (ج5، ص 384-385).

(5) – كتاب دلائل النبوة، أبو القاسم إسماعيل بن محمد الأصبهاني الملقب بقوام السنة، المحقق: محمد محمد الحداد، الناشر: دار طيبة – الرياض، الطبعة: الأولى، 1409هـ، (ج1 / ص: 33).

أمَّا في الاصطلاح: خَبَرٌ خاصٌّ، وَهُوَ الَّذِي يُكْرِمُ اللهُ ﷻ بِهِ أَحَدًا مِنْ عِبَادِهِ فَيُمَيِّزُهُ عَنْ غَيْرِهِ بِإِلْقَائِهِ إِلَيْهِ، وَيُوقِفُهُ بِهِ عَلَى شَرِيعَتِهِ بِمَا فِيهَا مِنْ أَمْرٍ وَنَهْيٍ وَوَعْظٍ وَإِرْشَادٍ، وَوَعْدٍ وَوَعِيدٍ، فَتَكُونُ النُّبُوَّةُ عَلَى هَذَا الْخَبَرِ وَالْمَعْرِفَةِ بِالْمُخْبَرَاتِ الْمَوْصُوفَةِ، وَالنَّبِيُّ ﷺ هُوَ الْمُخْبِرُ بِهَا، فَإِنِ انْضَافَ إِلَى هَذَا التَّوْقِيفِ أَمْرٌ بِتَبْلِيغِهِ النَّاسَ وَدُعَائِهِمْ إِلَيْهِ كَانَ نَبِيًّا رَسُولًا، وَإِنْ أُلْقِيَ إِلَيْهِ لِيَعْمَلَ بِهِ فِي خَاصَّتِهِ، وَلَمْ يُؤْمَرْ بِتَبْلِيغِهِ، وَالدُّعَاءِ إِلَيْهِ كَانَ نَبِيًّا، وَلَمْ يَكُنْ رَسُولًا، فَكُلُّ رَسُولٍ نَبِيٌّ، وَلَيْسَ كُلُّ نَبِيٍّ رَسُولًا [1].

فإذا تبيَّن كلٌّ من الجزئين في مصطلح "دلائل النبوة"، يمكننا الآن تعريف المركب الإضافي، فيُقال:

الفرع الثاني: التعريف الاصطلاحي:

ذكر العلماء تعاريف لدلائل النبوة متباينة الألفاظ، قريبةَ المعاني إلى حدٍّ ما، و سأورد بعضاً منها، ومن خلالها أختار التعريف الأنسبَ الذي أرتضيه، فهذه جملةٌ من التعاريف جمعها فاروق حمادة في بحثه عن مصادر السيرة النبوية، والتي منها كتب دلائل النبوة:

* فقد قيل أنها: « الحجج البالغة القاطعة، والبراهين الواضحة الساطعة، الدَّالَّةُ على صدقِ وصحَّة نبوَّة سيّدنا محمدٍ ﷺ، وعلى شمول وعموم رسالته، بدلالاتٍ واضحةٍ لا جدلَ فيها.

* وقيل: هي أيضاً المعجزات الدالة على صدقه ﷺ، المبيّنةُ لفضله، النَّافية لشكِّ المرتابين، المطمْئِنَةُ لقلوب المؤمنين، الفاضحةُ لقلوب المنافقين، القاهرة للكافرين.

* كما قيل أيضاً: هي الكتب التي ألَّفها أصحابُها بقصد جمع المعجزات التي ظهرت على يديّ النَّبي ﷺ مما يدلُّ على نبوته، وسميَّت معجزاتٌ: لأن الخلق قد عجزوا عن الإتيان بمثلها» [2].

* وقد ذكر أبو نُعيم الأصبهاني في كتابه تعريفين مهمين، فقال: « فَالنُّبُوَّةُ: سِفَارَةُ الْعَبْدِ بَيْنَ اللهِ تَعَالَى وَبَيْنَ الْأَلْبَابِ مِنْ خَلِيقَتِهِ، وَلِهَذَا تُوصَفُ أَبَدًا بِالرِّسَالَةِ وَالْبِعْثَةِ.

(1) – شعب الإيمان، للبيهقي، (ج1/ص: 286)

(2) – مصادر السيرة النبوية وتقويمها، تأليف: فاروق حمادة، دار القلم دمشق/ سورية، د ت ط، (ص: 35).

وَقِيلَ: إِنَّ النُّبُوَّةَ إِزَاحَةُ عِلَلِ ذَوِي الْأَلْبَابِ فِيمَا تَقْصُرُ عُقُولُهُمْ عَنْهُ مِنْ مَصَالِحِ الدَّارَيْنِ، وَلِهَذَا يُوصَفُ دَائِمًا بِالْحُجَّةِ وَالْهِدَايَةِ لِيَزِيحَ بِهَا عِلَلَهُمْ عَلَى سَبِيلِ الْهِدَايَةِ وَالتَّثْقِيفِ»[1]

ويمكننا من خلال هذه التعاريف أن نقول في تعريف دلائل النبوة:

أن دلائل النبوة هي "**الأمارات التي نُصبت لبيان نبوة النبي أو الرسول الذي يرسله الله ﷻ، لتكون مؤيدةً للمؤمنين، ومعجزةً للكافرين، من أمور حسيّةٍ ومعنويةٍ، تكون خارجة على طوق الخلق أجمعين**".

ثم إن النبوة كما قال أبو نُعيم: « موهبة إلهيةٌ، وأثرةٌ علويةٌ، حِكَمُها معلقةٌ بتدْبير من له الخلق والأمر، ولا يُظهرها إلاَّ في أخصِّ الأزمنة، وأحقِّ الأمكنة، عند إحساس الحاجة الكليَّة، وإطباق الدهماء على الضلال من البريَّة، وكلها أعلى من أن تفوز به العقول الجزئية، أو تحصلها المساعي المكتسبة، وإليه يرجع قوله ﷻ: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى ٱلْغَيْبِ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَجْتَبِي مِن رُّسُلِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾ آل عمران: ١٧٩، وقوله: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ﴾ إبراهيم: ١١، وقوله: ﴿فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا ٢٦ إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ﴾ الجن: ٢٦ - ٢٧»[2].

الفرع الثالث: بيان الفروق بين المعجزة وغيرها مما يَشْتَبِهُ بها:

لما عرّف من عرّف الإعجاز من العلماء بتعاريف متقاربةٍ إلى حدٍّ ما، أوردوا في قيود تلك التعاريف قيد "**خرق العادة**"[3]، فصار ذلك القيد يوهم التباساً بغيره من الخوارق الستَّة، (المعجزة، والكرامة، والإرهاص، والمعونة والاستدراج، والإهانة، والسحر والشعوذة).

لذلك فإنه يحتاج في ذلك إلى معرفة الفروق بين هذه الخوارق، وهو من الأهميَّة بمكان، كما يخبر بذلك عبد القاهر الجرجاني في قوله: « وقد تَتَبَّعَ العلماءُ الشعوذَةَ والسِّحْر، وعُنُوا بالتَّوقُّفِ على حِيَلِ المُموِّهين؛ لِيَعْرِفوا فَرْقَ ما بينَ المُعجزة والحِيلة، فكان ذلك منهم مِنْ أعظمِ

(1) – دلائل النبوة، لأبي نعيم الأصبهاني، (ج1 / ص: 33).

(2) – المرجع السابق، (ج1 / ص: 36).

(3) – قال الماوردي: « المعجز ما خرق عادة البشر من خصال لا تستطاع إلّا بقدرة إلهية تدل على أن الله تعالى خصه بها تصديقا على اختصاصه برسالته، فيصير دليلا على صدقه في ادّعاء نبوته»، وجعل ما ينقض العادة منقسما إلى عشرة أقسام، ينظر: أعلام النبوة، أبو الحسن علي بن محمد البغدادي، الشهير بالماوردي، الناشر: دار ومكتبة الهلال – بيروت، الطبعة: الأولى – 1409 هـ.، (ص: 42-43)، وقال الزيدي: « المعجز هو الأمر الذي يتعذر مثله على جميع البشر»، إثبات نبوة النبي، (ص: 20).

البِرّ، إذْ كان الغرضُ كريماً والقَصْد شريفاً»(1)، وهذا بعض البيان للفروق بين المعجزة وبين غيرها من تلكم الخوارق:

أولا: الفرق بين المعجزات والدلائل

يقال في بيان هذا الفرق إن: «دلائل النُّبوة هي ما أكرم الله عَجَّلَ به نبيه محمدا ﷺ مما يدلُّ على صدق نبوته، وإذا كان الدليلُ أو العلامةُ أو الأمارةُ مسمياتٍ لمعنىً واحدٍ، هو ما يدلُّ على نبوّة محمدٍ ﷺ من غير شرطِ التحدّي، فإنَّ مصطلح المعجزة كما عرفه المتكلمون هي أمرٌ خارقٌ للعادة يظهر على يدي مدعي النُّبوّة على وجه التحدي.

وهذا معناه أن التَّحدي والعجز عن المعارضة شرطان في تسمية المعجزة، وليس كذلك الدليل؛ وبهذا يتبين أن بين الدَّليلِ والمُعجزة عموماً وخصوصاً، فالدليل أعمُّ والمعجزة أخصُّ».

ويبدو أن بعض من ألَّف في دلائل النبوة لم يلحظُوا هذا الفرق، أوْ لم يعتبروه أو تجاهلوه فعَدَلُوا في عناوين مؤلفاتهم عن مصطلح الدليل أو ما في معناه إلى مصطلح المعجزة كما فعل عبد الحق الإشبيلي (توفي: 580هـ) في كتابه: "معجزات الرسول ﷺ" ومحمد اللخمي الإشبيلي (توفي: 654هـ) في كتابه: "الدرر السنية في معجزات سيد البرية".

فالدلائل أماراتٌ أُعطيَها النبيُّ ﷺ لم يصحبها التحدي، بخلاف المعجزة، فإنها لابد أن يصحبها التحدي، وإن كان هذا الفرق، قد لا يعتدُّ به من لم يجعل التحدي شرطاً في المعجزة، وقد مرَّ بيان ذلك في الفصل الأول عند التعريف بمصطلح "إعجاز القرآن".

ثانيا: الفرق بين المعجزة والكرامة

بين المعجزة والكرامة افتراق واشتراك: **فأمَّا من جهة الافتراق**: « فالمعجزة مقرونة بالتَّحدي، وليست الكرامة كذلك، **ويشتركان** في كونهما خارقين للعادة»(2).

وأيضاً يمكنُ القول بأنَّ: « الكرامة دون المعجزة، لأنه لا تحديَ فيها، وقد تكون بطلبٍ ودعاءٍ من الرَّسُول، أو الوليِّ الصالح، وقد تقع ابتداءً من الله عَجَّلَ دون طلبٍ، ولا تكونُ إلاَّ على وجه التحدي، والكرامة قد تقع للنبي»(3)

(1) – دلائل الإعجاز، للجرجاني، (ص: 26).
(2) – دلائل النبوة، للمستغفري، مقدمة التحقيق: (ص: 12)
(3) – المصدر نفسه، (ص: 13)

وتشترك الكرامة والمعجزة في أن كليهما ابتلاءٌ من الله ﷻ، لأنهما إفضال من الله ﷻ على من شاء من عباده، « وكلُّ فضل منه ﷻ على عباده ففيه وجه ابتلاء، كما قال ﷻ حاكياً عن عبده ونبيه سليمانَ بنِ داوُد عليهما السلام: ﴿ قَالَ هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ ﴿٤٠﴾ ﴾ النمل: ٤٠»[1].

والكرامة قد تكون طريقاً إلى الضلال، وسبباً لهلاك من أُكرم بها وذلك إن استعمالها في غير مرضاة الربِّ ﷻ، كما فُعل ب"بلعم بن باعورا"[2]، الذي قال الله ﷻ فيه: ﴿ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱلَّذِيٓ ءَاتَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ ٱلشَّيْطَٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴿١٧٥﴾ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَٰهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ذَّٰلِكَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا فَٱقْصُصِ ٱلْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٧٦﴾ ﴾ الأعراف: ١٧٥ – ١٧٦.

أما الدلائل في النبوة فلا تكون إلا اصطفاء واجتباءً من الله ﷻ لمن أحب من خلقه، كما قال تعالى: ﴿ ٱللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ ٱلنَّاسِ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ﴿٧٥﴾ ﴾ الحج: ٧٥، وقال أيضاً: ﴿ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَجْتَبِي مِن رُّسُلِهِۦ مَن يَشَآءُ ﴾ آل عمران: ١٧٩.

ثم إن الكرامة كما قال السبكي في طبقات الشافعية: « اعلَم أولا أَن كل كَرَامَة ظَهرت على يَد صحابي أَو ولي أَو تظهر إِلَى يَوْم يقوم النَّاس لرب الْعَالمين فَإِنَّهَا معْجزَة للنبي ﷺ، لِأَن صَاحبهَا إِنَّمَا نالها بالاقتداء بِهِ ﷺ وَهُوَ معترف لَهُ بِأَنَّهُ مقدم خَلِيقَة الله وصفوتهم وَسيد الْبشر الذى من بحره تستخرج الدُّرَر وَمن غيثه يستنزل الْمَطَر»[3].

---

(1) – المصدر نفسه، (ص: 81).

(2) – وكان عالما، يعلم الاسم الأعظم المكتوم، فكفر وأتى الجبارين، فقال: لا ترهبوا بني إسرائيل، فإني إذا خرجتم تقاتلونهم أدعو عليهم دعوة فيهلكون، فكان عندهم فيما شاء من الدنيا، غير أنه كان لا يستطيع أن يأتي النساء من عظمهن، فكان ينكح أتانا له، تنظر قصته في: تاريخ الرسل والملوك، وصلة تاريخ الطبري، محمد بن جرير أبو جعفر الطبري ، وصلة تاريخ الطبري لعريب بن سعد القرطبي، الناشر: دار التراث – بيروت، الطبعة: الثانية - 1387 هـ.، (ج 1، ص: 440 وما بعدها).

(3) – طبقات الشافعية الكبرى، للسبكي (ج 2/ص: 321)

ثالثا: الفرق بين المعجزة المعونة

وقد تشتبه المعجزة نفسها المعونة، فيقال في التفريق بينهما:

فيُقال: أنَّهُ « دون الكرامة **المعونة**؛ وهي تأييدٌ من الله ﷻ لعباده المؤمنين، ونصرُه إيَّاهم وحفظهُ لهم، كما قال ﷻ: ﴿ لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٌ مِّنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَمِنۡ خَلۡفِهِۦ يَحۡفَظُونَهُۥ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِۗ ﴾ الرعد: ١١، قال ابن عباس رضي الله عنهما: ملائكة يحفظونه من بين يديه ومن خلفه، فإذا جاء قدر الله سبحانه وتعالى، خلُوا عنه[1]...، وليس في المعونة خارقٌ، ولا كسرُ عادةٍ، إنما فيها إجابةُ دعوةٍ، ونجاةٌ من مكروهٍ من وجه يمكن أن يقع ويتفق»[2]

ويقابلُ المعونةَ الإهانةُ، فهي على العكس من المعونة تماماً، فتكون للفاجر، وتكون أيضا على خلاف دعواه التي يدعيها لنفسه، كما جاء عن مسيلمة الكذاب أنه تفل في بئر فأصبح ماؤها غوراً، « ولذلك قالت العلماء إنه إذا انتحل النبوة منتحلٌ لم يمهله الله حتى يجريَ التناقض على لسانه، ليحتجَّ على من صدَّق به»[3]

رابعا: الفرق بين المعجزة والإرهاص

فأما الإرْهَاصُ، فهو وإنْ عُدَّ من الخوارق فإنه يقال أنَّ « **الإرهاص**: هو اختصاصُ الرسول بالكرامة قبل بعثته، ولنبينا ﷺ إرهاصاتٌ كثيرةٌ، فقد تصدَّع لمولده إيوانُ كسرى، وخمدت من أجله نارُ فارسٍ، وسلَّمتْ عليه الحجارةُ، وحنَّت عليه الشجرة، وأظلَّته الغمامة»[4]

ومما يجدر التذكير بها هنا أن: «كتب دلائل النبوة تشتمل على النوعين معاً: فيذكرون معجزاته الخارقة وكراماته الباهرة، ويتجاوزن إلى لطيف عناية الباري به قبل المبعث، بل قبل المولد، وهو ما يسمى: بالإرهاصات»[5]

ويظهر الفرق بين المعجزة والإرهاص من جهاتٍ عدّة:

---

(1) الأثر مخرَّجٌ في: تفسير الطبري = جامع البيان ت شاكر (ج 16/ص: 371)، الدر المنثور في التفسير بالمأثور (ج 4/ص: 614).

(2) – دلائل النبوة، للمستغفري، مقدمة التحقيق: (ص: 14)

(3) – الدولة والدين في إثبات نبوة محمد ﷺ، لعلي بن ربن الطبري، تحقيق عادل نويهض، دار الآفاق الجديدة، بيروت/ لبنان، الطبعة الأولى: 1393هـ – 1973م.، (ص: 44).

(4)– المرجع نفسه، (ص: 15)

(5)– دلائل النبوة، للمستغفري، مقدمة التحقيق: (ص: 13)

أما من جهة الزَّمان –التقدم والتأخر–: قد ذكرنا أن الإرهاص هو ما يتقدم من دلائل النُّبوة قبل ظهور النبي، أما المعجزة، فهي ما يكون دليلا على النبوة بعد إعلام النبي بنبوته

وأما من جهة الظُّهُور والوضُوح، فممَّا لا شكّ فيه أن المعجزة أظهر وأوضح، من الإرهاص، إذ إن الإرهاص إنما هو مجردُ تقديمٍ للمعجزة، ففيه بعض الخفاء.

وأيضا ههنا فرقٌ آخر يمكن إيراده، وهو أن الإرهاص لا يقع به التحدي، بخلاف المعجزة؛ فهي التي يأتي بها النبي متحدياً بها قومه إذا ألجؤوه لذلك.

خامسا: الفرق بين المعجزة والسحر والشعوذة

يقال: قد سبق أن المعجزة شرطها خرق العادة، **وأما السحر والشعوذة**: فإن الصحيح أنه ليس خارقاً للعادة، لأنه يُعتاد إذا عُرفت أسبابه وطُرُقُـه[1]، فإن « السِّحرَ والأعمال الدقيقة التي يمارسها بعض أهل الرياضات البدنيَّة أو الرُّوحيَّة لا يدخل تحت اسم الخارق، لأن لكل من تلك الأمور أساليبٌ ووسائلٌ يمكن لأيِّ إنسانٍ أن يتعلمها ويتقنها ويمارسها، فإذا اتَّبع الأسباب والأساليب المؤدية إلى نتائجها أمكنه بواسطة الجهد الشخصي والمران والممارسة أن يتوصل إلى تلك النتائج، **أمَّا الأمور الخارقة**، فلا تدخل تحت طاقة البشر، [إذْ] ليست لها أسباب تؤدي إليها»[2]

وفي الختام يجدر التنبيه إلى أمرٍ آخر متممٍ لما سبق، فيُقال أنَّ من الأشياء التي يمكن أن تشتبه بالمعجزات، وليست منها:

أولاً: غرائب المخترعات: فإنها ليست من الخوارق، وإنما هي أمورٌ عاديةٌ تخضع لقواعد علمية يعرفها من تعلمها، ويتقنها من يمارسها.

ثانياً: ما يفعله الله قُرب يوم القيامة من الخوارق على خلاف العادة ليس من المعجزات، لأن ما يظهر عن ظهور أشراط الساعة وانتهاء التكاليف لا يشهد بصدق الدعوى، لأنه زمن نقض العادات[3].

([1]) – إعجاز القرآن الكريم بين الإمام السيوطي والعلماء – دراسة نقدية مقارنة، محمد موسى الشريف، دار الأندلس الخضراء – جدة / المملكة العربية السعودية، الطبعة الثانية: 1422هـ- 2002م.، (ص: 30).

(2) – مباحث في إعجاز القرآن، لمصطفى مسلم، (ص: 15).

([3]) – ينظر لذلك: الإعجاز العلمي في القرآن الكريم، لعبد السلام اللُّوح، (ص: 14).

وفي ختام هذا المطلب يتبين لنا أنَّ موضوع علم الدلائل، موضوعٌ واسع المعنى والمضمون، يندرج تحته جُلّ علوم السيرة النبوية، كالشمائل، والخصائص، والمعجزات المعنوية والمادية، وجميع أبواب المغازي، وكل ما ورد عنه في القرآن الكريم، مما يثبت بالنص الواضح القاطع نبوته، ورسالته، بل قيل: إن القرآن الكريم بإعجازه، وبيانه، وفصاحته، وقصصه، وأخباره عن الأنبياء، وأقوامهم، وما ذكر عن الجنة، والنار، والبعث والحساب، وعن مشاهداته في الإسراء والمعراج، هو كله من دلائل نبوته بالنصوص القطعية، التي لا يأتيها الباطل، ولا الشك تصديقاً لقوله تعالى: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ۝٩ ﴾ الحجر: ٩ »[1]

(1) – مصادر تلقي السيرة النبوية، محمد أنور بن محمد علي البكري، الناشر: مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف بالمدينة المنورة، المملكة العربية السعودية، د ت ط، (ص36).

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

المطلب الثاني: مصادر كتب دلائل النبوَّة.

لا شك أن علم دلائل النبوّة، إنّما استقى مادته من عدّة مصادرٍ علمية، كان لأصحابها عنايةٌ بهذا الباب، وإن كان تناولهم لدلائل النبوّة لم يكن إلا تبعاً ومع ذلك نشأت مع ذلك مادة علميّة تكوَّن بها بعد ذلك ما يسمى بـ" علم دلائل النبوّة"، ومن تلكم المصادر:

الفرع الأول: كتب التفسير:

فإنّ المُطالع على كتب دلائل النبوّة يجد لكتب التفسير حضوراً ظاهراً لا يكاد يخفى، لأن كثيرا من المعجزات جاء ذكرها أو الإشارة إليها في القرآن الكريم، مما اضطرَّ المفسرين إلى ذكرها بشيء من البيان[1]، وللمفسرين في كيفية التعرض لبيان لدلائل النبوة عموما ولإعجاز القرآن خصوصا طرقٌ مختلفة، أشهرها طريقان اثنان:

الطريق الأول: الحديث عن الدلائل وإعجاز القرآن من خلال مقدمات التفاسير، والتي تكون كالمفاتيح والمقدمات بين يدي التفسير، كما فعل شيخ المفسرين ابن جرير الطبري، فقد ذكر حديثا مطولا عن إعجاز القرآن الكريم، وصنع مثله ابن عطية الأندلسي في المحرر الوجيز، ثم سلك هذا المسلك الطاهر ابن عاشور، فجعل لإعجاز القرآن مقدمة خاصة، من بين مقدماته العشرة التي استهلَّ بها تفسيره التحرير والتنوير.

الطريق الثاني: من خلال التعرض لتفسير السور والآيات التي فيها إشاراتٌ لدلائل النبوة كسورة القمر، وسورة الجنّ، وسورة الصّف، وغيرها من السور والآيات التي تعرض إلى ذكر شيء من دلائل نبوّة النبي ﷺ، أو شيئا مما يتعلق بالإعجاز كمثل الآيات التي فيها استثارة المشركين وتحديهم بأن يأتوا بمثل القرآن، والحديث عن عجزهم في الحاضر، وفيما يأتي من الزمان.

---

(1) – ينظر مثلا الماوردي، فقد كان كثيراً ما ينقل تفسير الآية عن ابن عباسٍ رضي الله عنهما أو غيره، ولا جرم، فإن من المعلوم بداهةً أن الماوردي صاحب تفسير كبير حافل، يُنظر مثلا في كتابه " أعلام النبوة" الصفحات: (56- 57- 156 – 165 – ...)، وغير بعيدٍ عنه أبوبكر البيهقي، فإنه أورد جمهرة من التفاسير في كتابه " دلائل النبوة"، فنقل كثيراً عن مقاتل بن سليمان رحمه الله.

الفرع الثاني: كتب الحديث النبوي الشَّريف

وكتب دلائل النبوّة كتبٌ أكثر ما فيها من المادة الحديث النبوي الشريف، لذلك كثر إيراد الأحاديث فيها، وقد كان السبق لكتب الحديث النبوي في الحديث عن دلائل النبوة وأماراتها، فأوردوا أحاديثها، وجعلوا كتباً وأبواباً مستقلةً، للحديث عنها، إلا أن العلماء في هذه الكتب اختلفت أساليبهم ومناهجهم في إيراد تلك الأحاديث على أنحاء:

فمنهم من يذكر الأحاديث مخرّجةً، وهذا موطنه في كتب الدلائل المسندة، وأهمُّها كتاب البيهقي "دلائل النبوة"، فإنه نقل عن أئمة الحديث كالبخاري، ومسلم بن الحجاج، وأبي داود، وغيرهم، ومثله أبو نعيم الأصبهاني في كتابه دلائل النبوّة.

ومنهم من يورد الأحاديث بغير أسانيدها، وإنما يكتفي بذكر الحديث مع راويه، لا يزيد كما صنع الماوردي في كتابه أعلام النبوة.

ومنهم من هو دون ذلك فتجده يذكر الأحاديث وحدها دون إسنادٍ ولا تخريجٍ ولا ذكرٍ لمن رواها، كما نجده منهجا عند أبي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ في رسالته حجج النبوة، ومثل هذه المصنفات إنما هي مصنفات حِجاجية، يؤثر فيها النَفَسُ الكلامي الذي عليه أصحابها.

كما نجدُ بعض المصنفات قد اجتمع فيها بعض هذه الأوصاف أو أكثرها كما هو في كتاب إثبات نبوة النبي، للزيدي، وكتاب تثبيت دلائل النبوة للقاضي عبد الجبار المعتزلي.

الفرع الثالث: كتب العقيدة

من الكتب التي احتفت بها كتب دلائل النبوّة ؛ كتب العقائد وعلم الكلام، فإنه لمّـا كان إثبات نبوّة النبي يتردد فيه الملحد والكافر، احتاج علماء العقيدة إلى إدراج الأدلة، لإقناع وجدال أمثال هؤلاء، فهذا مثلا أبو بكر الباقلاني المتكلم في جملة من كتبه في دلائل النبوة، وإعجاز القرآن، نقل مسائلا في العقيدة متعلقها دلائل النبوة، كما نجده مثلا في حديثه عن بيان الفروق بين المعجزات والسّحر والكهانة وأشباه ذلك.

كما نجد الماوردي أشار إلى مباحث في الذات الإلهية والصفات[1]، وأيضاً أبو بكر البيهقي، نجده عقد باباً كاملاً في لحديث عن الزيغ في متشابهات الكتاب، وترك المحكمات[2].

الفرع الرابع: كتب اللُّغة العربيّة

معلومٌ أن كتب اللغة العربية، مشاركتها في سائر العلوم معلومة ظاهرة، وكتب دلائل النبوة، وإن لم تكن الإفادة منها ظاهرةً، فإنها حاضرةٌ بمختلف فنونها: البلاغية، والنحوية، واللغوية...

فهذا الزيدي في كتابه "إثبات نبوة النبي ﷺ، أورد حديثاً عن لهجات العرب، وأن منها الجر بالمجاورة، وقد صرّح بمذهب نحاة البصرة في المسألة، وأن ذلك غير جائزٍ عندهم[3].

كذلك في المجال البلاغي: نجد الماوردي يتحدث عن سمات البلاغة القرآنية، فذكر حديثا عن الإيجاز وجزالة المعاني في القرآن الكريم، كما تحدث عن بلاغة الألفاظ وحسن النظم إلى غير ذلك من المسائل البلاغية[4]، ثم نجد الزيدي أيضا رجع إلى البديع لابن المعتز، وذلك في ثنايا حديثه عن ظاهرتي الالتفات ، والجناس[5].

أمّا المصادر الأدبية واللغوية، فيظهر أثرها ويتجلّى في إكثار علماء دلائل النبوة في كتبهم من ذكر الأبيات الشعرية، فهذا الزيدي والماوردي، فمن مراجع الزيدي كتاب العين للخليل، ونقل عنه بالمعنى في مواضع[6].

(1) – ينظر كتابه " أعلام النبوة"، (ص: 240 مثلا).

(2) – ينظر: بَابُ مَا جَاءَ فِي إِخْبَارِهِ بِاتِّبَاعِ مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ زَيْغٌ مُتَشَابِهَاتِ الْكِتَابِ فَلَا تَكَادُ تَرَى مُبْتَدِعًا إِلَّا قَدْ تَرَكَ الْمُحْكَمَاتِ وَأَقْبَلَ عَلَى الْمُتَشَابِهَاتِ يَسْأَلُ عَنْ تَأْوِيلِهَا وَيَفْتِنُ وَيَفْتَتِنُ مَنْ تَبِعَهُ نَسْأَلُ اللهَ التَّوْفِيقَ لِاسْتِعْمَالِ السُّنَّةِ، وَنَعُوذُ بِهِ مِنْ مُتَابَعَةِ أَهْلِ الزَّيْغِ وَالْبِدْعَةِ، دلائل النبوة، للبيهقي، (ج 6/ص: 545)

(3) – إثبات نبوة النبي ﷺ، للزيدي: (ص: 98).

(4) – أعلام النبوة للماوردي، (ص: 74 وما بعدها)

(5) – إثبات نبوة النبي ﷺ، للزيدي: (ص: 204-205).

(6) – المرجع نفسه، (ص: 97).

المطلب الثالث: المؤلفات في الدلائل .

« لقد تناثرت أحاديث الدلائل والمعجزات في بطون وثنايا كتب الحديث، ولكن أراد بعض العلماء أن يفردوها بالتأليف، وضاع معظمها، ولم يسلم من ذلك سوى النزر اليسير »[1]، لأجل ذلك أوردتُ هذا لمبحث لمزيد التعريف بهذه الكتب المهمَّة، ويمكننا جعلها على قسمين اثنين:

القسم الأول: المؤلفات المدرجة:

فإننا نجدُ في كتب السنة النبوية أبواباً خُصِّصت لعلامات النبوة، فقد أفرد الإمام البخاري(ت256هـ) في صحيحه باباً لعلامات النبوة، وكذا فعل الإمام مسلم(ت261هـ) فقد وضع بابا في معجزات النبوة، وفي مسند الإمام أحمد بن حنبل(ت241هـ) كثير من النصوص عن دلائل النبوة.

القسم الثاني: المؤلفات المفردة:

أما الكتب المفردة المصنفة في دلائل النبوَّة خاصة وآياتها وأعلامها، فهذا إحصاؤها مرتباً على حسب تواريخ وفيات أصحابها[2]:

1- **إثبات النبوَّة لمحمد بن إدريس الشافعي** (ت 204 هـ): ذكره السبكي في طبقات الشافعية (5 / 146) ناقلاً عن أبي منصور البغدادي (ت 429 هـ) قال : (صنف الشافعي في الردِّ على البراهمة المنكرين للنبوَّات كتاباً في إثبات النبوَّة ، وكل من صنَّف في النبوَّات فهو تبعٌ له ؛ لأنَّه على منواله نسج).

(1) – السيرة النبوية في ضوء المصادر الأصلية، دراسة تحليلية، مهدي رزق الله أحمد، مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية، الرياض، المملكة العربية السعودية، الطبعة الأولى، 1412هـ-1992م، (ص19).

(2) وقد اقتصرت على المؤلفات إلى غاية نهاية القرن الخامس الهجري، ذلك لأنه المجال المحدد للدراسة دون غيره من القرون التالية، وقد أفدتُ كثيراً من مقال علمي بعنوان " من مصادر السيرة النبوية": "كتب دلائل النبوة"، لصاحبه: أحمد بن محمد فكير – كلية الآداب – أكادير، وقد نُشر بموقع "ملتقى اهل الحديث" بتاريخ : 2006/08/30، ورابطه هو: http://www.ahlalhdeeth.com/vb/showthread.php?t=80707، **وما زدتُ عليه جعلته بين معكوفتين هكذا: [ ]**

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

2 – **الحجة في إثبات نبوّة النبي** ﷺ، لأبي سهل بشر بن المعتمر المعتزلي البغدادي (ت: 210 هـ): ذكره النديم في الفهرست ص 185 .

3- ["دلائل النبوة" لمحمد بن يوسف بن واقد الفريابي (ت212هـ)][1]

4 – **أعلام النبوّة**، للمأمون عبد الله بن هارون بن المهدي العباسي (ت 218 هـ): ذكره النديم في الفهرست ص 129 .

5- **دلائل النبوّة**، لعبد الله بن الزبير الحميدي المكي (ت 219 هـ): ذكره حاجي خليفة في (كشف الظنون) (2 / 1418) .

6 – **آيات النبي** ﷺ، لأبي الحسن علي بن محمد بن عبد الله المدائني البصري (ت 224 هـ): ذكره في الفهرست ص 113 ، وياقوت في معجم الأدباء (14 / 214) .

7 – **إثبات نبوّة النبي** ﷺ لعلي بن سهل المعروف بابن ربن الطبري (ت 249 هـ): طبع الكتاب في بيروت 1396 هـ / 1976 م بتحقيق عادل نويهض – نشر في المكتبة العتيقة – تونس.

8-**الحجة في تثبيت النبوّة أو "حجج النبوّة"**، لأبي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ (ت: 255 هـ): ذكره ابن المرتضى في طبقات المعتزلة ص 68، وفي المنية والأمل ص 57، وياقوت في إرشاد الأديب (6 / 78) ومنه نسخة خطية في مكتبة المتحف البريطاني – ضمن مجموع 1129 / 8 ، وطبع على هامش (الكامل – للمبرد) (ج 1 / 275 – 296 – ج 2 / 1 – 147) ط. القاهرة 1323 هـ ، وضمن (مجموعة رسائل الجاحظ) ص 117 – 154 تحقيق حسن السندوبي ط. القاهرة 1340 هـ .

9 – **أمارات النبوّة**، لأبي إسحاق إبراهيم بن يعقوب السعدي الجوزجانيُّ (ت 259 هـ): ذكره السخاوي في (الإعلان بالتوبيخ) ص 166 ، ومنه مختارات في دار الكتب الظاهرية – مجموع 104 ورقة 162 – 164 ، وراجع : فهرس مخطوطات الظاهرية – المنتخب من مخطوطات الحديث لمحمد ناصر الدين الألباني رحمه الله ص 23 – 24 .

(1) – مصادر السيرة النبوية، ضيف الله بن يحي الزهراني، الناشر: مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف بالمدينة المنورة.، د ت ط، (ص: 52).

10 – **دلائل النبوَّة**، لأبي زرعة عبيد الله بن عبد الكريم الرازي (ت 264 هـ): ذكره السخاوي في الإعلان ص 166 ، وابن أبي يعلى في طبقات الحنابلة (1 / 201) .

11 – **أعلام النبوَّة**، لسليمان بن أبي عصفور الفراء المعتزلي(ت 269 هـ): ذكره الخشني .

12 – **أعلام النبوَّة**، لأبي محمد داود بن علي بن داود الأصبهاني الظاهري (ت 270 هـ): ذكره النديم في الفهرست ص 272 ، والسخاوي في الإعلان ص 166 ، والبغدادي في هدية العارفين (1 / 359) ، وعامة المترجمين له .

13 – **أعلام النبوَّة**، لأبي داود سليمان بن الأشعث الأزدي السجستاني (ت 275 هـ): ذكره ابن خير في فهرسته ص 110 ، وابن حجر في تهذيب التهذيب (4 / 172) ، والسخاوي في الإعلان ص 166 ، وحاجي خليفة في كشف الظنون (1 / 760).

14 – **أعلام النبوَّة [أو دلائل النبوة]**، لأبي محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري (ت 276 هـ): ذكره النديم في الفهرست ص 86 ، وابن خير في فهرسته ص 151 ، والذهبي في السير (13 / 297) والسخاوي في الإعلان ص 166 ، وحاجي خليفة في كشف الظنون (1 / 760) ، وعامة المترجمين له ، ومن الكتاب نسخة خطية بالظاهرية برقم 164 حديث – ضمن مجموع (ورقة 127 – 154) ، وكذا في الخزانة التيمورية بدار الكتب المصرية (143) تاريخ .

15 – **أعلام النبوَّة**، لأبي حاتم محمد بن إدريس بن المنذر الرازي (ت 277 هـ): ذكره حاجي خليفة في (كشف الظنون) (1 / 126) ، ومنه نسخة مصورة بمعهد المخطوطات العربية برقم (1380) تاريخ في 140 ورقة عن مخطوطة بالمكتبة السعيدية بالهند ، راجع في وصفها: فهرس المخطوطات المصورة – قسم التاريخ (جـ 2 ق 4 ص 39) .

16 – **دلائل النبوَّة [مع غرائب الأحاديث]**، لأبي إسحاق إبراهيم بن الهيثم بن المهلب البلدي البغدادي (ت 277 هـ): ذكره السخاوي في الإعلان ص 109 ، والخطيب في تاريخ بغداد (6 / 206) .

17 – **هواتف الجان**، للحافظ ابن أبي الدنيا(ت: 281 هـ): ذكره السخاوي والسيوطي و حاجي خليفة . وهو من مرويات ابن خير الإشبيلي . وهو مطبوع .

18 - **دلائل النبوَّة** ، أو **"أعلام النبوَّة"** لأبي بكر عبد الله بن محمد بن أبي الدنيا (ت: 285 هـ): ذكره ابن أبي يعلى في طبقاته (1 / 195) ، وابن تيميَّة في الجواب الصحيح (6 / 362) ، والذهبي في السير (13 / 402) ، والسخاوي في الإعلان ص 109 .

19 - **دلائل النبوَّة**، لأبي إسحاق إبراهيم بن إسحاق الحربي البغدادي (ت 285 هـ): ذكره ابن تيميَّة في (الجواب الصحيح) (6 / 262 – 263) ، وحاجي خليفة في كشف الظنون (1 / 760) .

20 - **دلائل النبوَّة**، لأبي بكر جعفر بن محمد الفريابي (ت 301 هـ): ذكره النديم في الفهرست ص 119 ، وابن تيميَّة في الجواب الصحيح (6 / 363) ، والذهبي في السير (14 / 98) ، والسخاوي في الإعلان ص 109 ، وحاجي خليفة في كشف الظنون (1 / 760) ، ومنه نسخة خطية عتيقة بالظاهرية رقم (27 / سيرة) ، راجع : فهرس مخطوطات الظاهرية – قسم التاريخ ليوسف العش (6 / 51) ، وعنه طبع الكتاب بتحقيق عامر حسن صبري ط. دار حراء – مكة المكرمة 1406 هـ .

21 - **الاحتجاج لنبوَّة النبي** ﷺ، لإسماعيل بن علي بن نوبخت الشيعي (ت 311 هـ): ذكره إسماعيل البغدادي في (إيضاح المكنون) (2 / 263) .

22 - **دلائل النبوَّة**، لأبي إسحاق إبراهيم بن حماد بن إسحاق البغدادي المالكي (ت 320 هـ): ذكره النديم في الفهرست ص 252 ، والبغدادي في (إيضاح المكنون) (1 477) .

23-كتاب المعجزات أو تجديد الإيمان وشرائع الإسلام لأبي جعفر أحمد من محمد القصري التونسي (ت 322 هـ): ذكره القاضي عياض في ترجمته . كما ذكره عبد الله المالكي في ترجمته .

24 - **دلائل النبوة**، لأبي الحسن الأشعري(ت 324 هـ): ذكره ابن عساكر قال : (له كتاب في دلائل النبوة مفرد) .

25 - **هواتف الجان [وعجيب ما يحكى عن الكهان ما يبشر بالنبي ﷺ، ويدلُّ عليه بواضح البرهان]**، للحافظ أبي بكر محمد بن جعفر الخرائطي(ت 327 هـ): ذكره أبو شامة المقدسي ونقل عنه، والسخاوي وسماه (هواتف الجان وعجيب ما يحكى عن الكهان ممن بشر

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

بالنبي ﷺ بواضح البرهان) . وهو من جملة مصادر ابن حجر في كتابه الإصابة . وهو مطبوع . ويسوق فيه الأحاديث بسنده ، وفيه أحاديث موضوعة وغريبة .

26 – **ما في القرآن من دلائل النبوة** لبكر بن العلاء القشيري (ت: 344 هـ): ذكره القاضي عياض وابن فرحون .

27 – **دلائل النبوَّة**، لأبي أحمد محمد بن أحمد بن إبراهيم العسَّال الأصبهاني (ت 349 هـ): ذكره السخاوي في (الإعلان) [ص] 109 .

28 – **دلائل النبوَّة**، لأبي بكر محمد بن الحسن النقَّاش الموصلي ثم البغدادي (ت 351 هـ): ذكره النديم في الفهرست ص 36 ، وابن خير في فهرسته ص 36 ، والذهبي في السير (16 / 128) ، والسخاوي في الإعلان ص 109 .

29 – **دلائل النبوَّة**، لأبي القاسم سليمان بن أحمد الطبراني الحافظ (ت 360 هـ): ذكره ابن تيميَّة في الجواب الصحيح (6 / 362) ، والسخاوي في الإعلان ص 109 .

30 – **حديث الظبي الذي تكلم بين يدي رسول الله** ﷺ، للحافظ أبي القاسم سليمان بن أحمد الطبراني(ت: 360 هـ): ذكره فؤاد سزكين .

31 – **دلائل النبوَّة**، لأبي بكر محمد بن علي بن إسماعيل الشاشي القفال (ت: 365 هـ): ذكره السمعاني في الأنساب (10 / 211) ، والذهبي في السير (16 / 284) ، والبغدادي في هدية العارفين (2 / 48) .

32 – **دلائل النبوَّة**، لأبي الشيخ عبد الله بن محمد بن حيَّان الأصبهاني (ت 369 هـ): ذكره ابن تيميَّة في الجواب الصحيح (6 / 362) ، والسخاوي في الإعلان (ص 109).

33 – **دلائل النبوة**، لأبي حفص ابن شاهين(ت 385 هـ): ذكره ابن كثير والكتاني .

34 – **دلائل النبوَّة** لأبي عبد الله محمد بن إسحاق بن منده العبدي الأصبهاني (ت 395 هـ): ذكره السخاوي في الإعلان (ص 109) [وذكره السخاوي في الإعلان بالتوبيخ، والسيوطي في الخصائص الكبرى (ج1/ ص: 104).

35 – **أعلام النبوَّة [ودلائل الرسالة]**، لأبي الحسين أحمد بن فارس اللغوي (ت 395 هـ): ذكره السخاوي في الإعلان ص 109

36 - **أعلام النبوَّة**، لأبي المطرف عبد الرحمن بن محمد بن فطيس القرطبي الأندلسي (ت 402 هـ): ذكره الذهبي في السير (17 / 212) ، والسخاوي في الإعلان (ص 109) .، [كما ذكره ابن بشكوال في الصلة (ج1/ ص: 312)، وهو في عشرة أسفار].

37 - **دلائل النبوة**، لأبي عبد الله الحليمي صاحب القفال الشاشي(ت 403 هـ): ذكره النووي.

38 - **الإكليل في دلائل النبوة**، لأبي عبد الله الحاكم النيسابوري(ت 405 هـ): ذكره الحاكم نفسه قال: (ذكرت في كتاب الإكليل على الترتيب بعوث رسول الله ﷺ وسراياه زيادة على المائة) . وذكره ابن عساكر ، وسماه (الإكليل في دلائل النبوة) .كما ذكره ابن سيد الناس ونقل عنه في مواضع ، وسماه السيوطي بكتاب (المعجزات) . وذكره أيضا الشوكاني .

39 - **دلائل النبوَّة [ولعله المسمى: شرف المصطفى]**، لأبي سعد عبد الملك بن محمد بن إبراهيم الخركوشي النيسابوري (ت 407 هـ): ذكره الذهبي في السير (17 / 256)، [وهو كتابٌ مشهور ذكره له غير واحد منهم ابن عساكر في تبيين كذب النفتري فيما نسب للأشعري (ص: 234)، وابن العماد في شذرات الذهب (ج3/ ص: 184)]

40 - **معجزات النبي** ﷺ، لعبد الله بن محمد بن أبي علان قاضي الأهواز(ت 409 هـ): ذكره ابن كثير [في البداية والنهاية، (ج12/ص: 7)، قال: (جمع فيه ألف معجزة، وكان من كبار شيوخ المعتزلة) .

41 - **تثبيت دلائل النبوَّة**، للقاضي عبد الجبار بن أحمد الهمداني المعتزلي (ت 415 هـ): ذكره عامة المترجمين له ، وقد طُبع الكتاب بتحقيق عبد الكريم عثمان 1385 هـ / 1965 م طبعة لا خير فيها ، عن مخطوطة شهيد علي باستانبول ذات الرقم (2575) .

42 - **إثبات نبوَّة النبي** ﷺ، لأحمد بن الحسين بن هارون الزيدي (ت 421 هـ)، نشره خليل أحمد الحاج ، ط. المكتبة العلمية – بيروت – بدون تاريخ .

43 - **دلائل النبوَّة**، لأبي نعيم أحمد بن عبد الله بن أحمد الأصبهاني الشافعي (ت: 430 هـ)، ذكره عامة المترجمين له ، وطبع الكتاب بالقاهرة 1319 هـ ، 1350 هـ ، ثم بحلب – المكتبة العربية 1390 هـ / 1970 م في مجلدين بتحقيق عبد البر عباس ، ومحمد رواس قلعجي ، وهذا المطبوع يمثل منتخباً للكتاب ، رجح المحققان أن يكون صانعه هو أبو نعيم نفسه (انظر:

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

مقدمة الدلائل 1 / 22 – 26) ، ورأيت من أصله نسخة مصورة عن مخطوطة بمكتبة بانكي فور بالهند رقم (989) تحوي ثلثه تقريباً.

44 – **دلائل النبوَّة**، لأبي العباس جعفر بن محمد المستغفري النَّسفي (ت 432 هـ)، ذكره السخاوي في الإعلان ص 109 ، والذهبي في السير (17 / 564) ، وحاجي خليفة (ص 109)، [وقد طبع بدار النوادر بتحقيق: أحمد بن فارس السلّوم].

45 – **دلائل النبوَّة**، لأبي ذر عبد الله بن أحمد الهروي المالكي (ت: 434 هـ)، ذكره ابن خير في فهرسته ص 286 ، والذهبي في السير (17 / 560) ، والسخاوي (ص 109).

46 – **أعلام النبوَّة**، لأبي الحسين علي بن محمد الماوردي الشافعي (ت 450 هـ)، ذكره عامة المترجمين له ، وقد طبع الكتاب طبعات متقاربة بالقاهرة وبيروت وبغداد ، رأيت منه عدة نسخ خطية في عارف حكمت بالمدينة المنورة رقم (5) سيرة ، وبرلين (2527) ، ودار الكتب المصرية ، ويحتاج إلى إخراج علمي .

47 – **دلائل النبوَّة**، لأبي بكر أحمد بن الحسين البيهقي الشافعي (ت 458 هـ)، ذكره عامة المترجمين له ، وقد طبع ناقصاً في القاهرة 1389 هـ / 1970 م بتحقيق السيد صقر ، وبالمدينة المنورة 1391 هـ / 1971 م بتحقيق عبد الرحمن محمد عثمان ، ثم طبع كاملاً في بيروت 1405 هـ / 1986 م بتحقيق عبد المعطي قلعجي في سبعة مجلدات .

48 – **الإعلام بشواهد الأعلام لنبوة سيدنا محمد** عليه السلام، لأبي محمد عبد الله بن أبي زكريا الشقراطيسي (ت 466 هـ): ذكره أبو شامة المقدسي [وهو عبارة عن منظومة]

49 – **دلائل النبوَّة**، لأبي دلهاث أحمد بن عمر بن أنس العذري الأندلسي (ت 487 هـ): ذكره الذهبي في السير (18 / 568) ، والبغدادي في هدية العارفين (1 / 104)، [وذكره له ابن عماد الحنبلي في الشذرات (ج3/ص: 357)]

50 – **أعلام النبوَّة**، لأبي عبيد عبد الله بن عبد العزيز البكري الأندلسي (ت 487 هـ): ذكره الذهبي في السير (19 / 35) ، والبغدادي في إيضاح المكنون (1 / 104).

في آخرين كثيرين كلهم من العصور الأولى التي تنقل بالإسناد غالبا، ويجدُ الباحث في كلّ واحدٍ منها بعض ما لا يجده في الآخر بصفةٍ عامة، وإن كان بعض هذه الكتب وغيرها قد فُقِد، فَقَد استمدّ منها اللاحقون، ولا يُستبعد ظهور بعضها في مقبل الأيام[1]

(1) – مصادر السيرة النبوية وتقويمها، للدكتور فاروق حمادة، (ص: 75)

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

المبحث الثاني: علم إعجاز القرآن الكريم في كتب دلائل النبوة

لقد كانت كتب دلائل النبوة من الكتب السبَّاقة في الإشارة إلى مباحث إعجاز القرآن، بل لعلها تُعدُّ من الكتب التي أسهمت إسهاما بالغا في ظهور درس إعجاز القرآن، وهذا الذي سيتبين للقارئ من خلال هذا البحث، وقد جعلته على مطالب ثلاثةٍ، هي كالآتي:

المطلب الأول: مقدمات وممهدات.

المطلب الثاني: علم إعجاز القرآن الكريم في كتب الدلائل.

المطلب الثالث: قضايا إعجازية مكملة في كتب الدلائل.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

المطلب الأول: مقدمات وممهدات

لما أراد الله ﷻ أن يقيم الحجة على خلقه، أرسل إليهم الرسل، ثم بعد ذلك أيّد الرُّسل بالآيات والبينات، وجعل طبيعتها أنها خارجة على طبائع الخلق وعاداتهم، «فإذا كان شأن الناس الإخبار عن كل عجيب وحكاية كل عظيم والإطراف بكل طريف وإيراد كل غريب من أمور دنياهم، فما لا يمتنع في طبائعهم ولا يخرج من قوى الخليقة في البطش والحيلة أحق بالإخبار والإذاعة وبالإظهار والإفاضة هذا على أن يترك الطباع وما يولد عليه والنفوس وما تنتج والعلل وما يسخر، فكيف إن كان الله ﷻ قد خص أعلام أنبيائه وآيات رسله عليهم السلام من تهييج الناس على الإخبار عنها، ومن تسخير الأسماع لحفظها، بخاصَّةٍ لم يجعلها لغيرها»[1].

ولما كان القرآن أعظم آيةٍ أنزلها الله على نبيٍّ، خصه الله بمزايا ليست في غيره من الآيات والمعجزات، وقبل الخوض في بحث إعجاز القرآن الكريم في كتب دلائل النبوّة، لا بأس من وضع مقدماتٍ وممهدات بين يدي ذلك:

([1]) – رسائل الجاحظ، رسالة حجج النبوة، للجاحظ، (ج3/ص: 259).

الفرع الأول: منزلة القرآن الكريم من بين سائر دلائل النبوة

لقد جرت عادة الله ﷻ عند بعثة الرُّسل عليهم السلام إلى الخلق لدعوتهم، أن يبرهنوا على نبوّتهم بالآيات التي يؤيِّدهم الله سبحانه وتعالى بها، لتقوم حجَّتُهُ على أولئكم الأقوام، ثم –كما هو معلومٌ– وجرت به العادة في آيات الأنبياء أن الله سبحانه وتعالى يجعلها مناسبة للأقوام من جهة ما قد حذقوه من الأعمال التي يزاولونها، حتى إذا جاءت آية الله ﷻ، تبيَّن للأقوام أنها من عند الله، فلا يكابر عند ذاك إلا من حقّت عليه كلمة العذاب، كما أخبر الله ﷻ عن بعضهم، فقال: ﴿فَلَمَّا جَآءَتۡهُمۡ ءَايَٰتُنَا مُبۡصِرَةٗ قَالُواْ هَٰذَا سِحۡرٞ مُّبِينٞ ۝١٣ وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسۡتَيۡقَنَتۡهَآ أَنفُسُهُمۡ ظُلۡمٗا وَعُلُوّٗاۚ فَٱنظُرۡ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُفۡسِدِينَ ۝١٤﴾ النمل: ١٣– ١٤.

فقد خصَّ الله سبحانه وتعالى القرآن الكريم من دون الآيات بخصائص لم تكن لغيره من آيات الأنبياء من قبلُ، كلُّ ذلك لأنها آية الله الخالدة الخاتمة، « وكيف تقصر الحجة عن بلوغ الغاية وتنقصُ عن التمام، والله تعالى: المتوكِّلُ بها، ومسخر أصناف البريّة ومهيّج النُّفوس على إبلاغها، وقد أخبر بذلك عن نفسه في محكم كتابه عزّ ذكره، حين قال: ﴿ هُوَ ٱلَّذِيٓ أَرۡسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلۡهُدَىٰ وَدِينِ ٱلۡحَقِّ لِيُظۡهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡمُشۡرِكُونَ ۝٩ ﴾ الصف: 9، وأدنى منازل الإظهار إظهار الحجّة على من ضارّه وخالف عليه، وقال عزّ ذكره: ﴿ يُرِيدُونَ أَن يُطۡفِـُٔواْ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفۡوَٰهِهِمۡ وَيَأۡبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡكَٰفِرُونَ ۝٣٢ ﴾ التوبة: 32»[1].

فالنبيُّ ﷺ فقد آتاه ربُّهُ آيةً لم تجرِ بها عادة الآيات السَّالفة لإخوانه الأنبياء عليهم السلام، ولا كانت على نمطٍ يشبه الآيات الماضية، ألا وهي القرآن الكريم.

قال أبو نعيم الأصبهاني: « واعلموا أن معجزات المصطفى ﷺ أكثر من أن يحصرها عدد، وأشهر من أن ينصرها سند، فأعظم معجزاته القرآن الذي هو أم المعجزات الذي لا يدفعه الإنكار ولا الجحد»[2]، كما ذكر الماوردي أنَّ: « القرآن الكريم أوَّل معجزٍ دعا به النبي ﷺ إلى نبوته فصدع فيه برسالته، وخُصَّ بإعجازه من جميع رسله وإن كان كلاماً ملفوظاً وقولا محفوظاً لثلاثة أسباب صار بها من أخص إعجازه وأظهر آياته:

---

(1) – رسائل الجاحظ، رسالة حجج النبوة، جمع عبد السلام هارون، (ج3/ص: 225)

(2) – دلائل النبوة، لأبي نعيم الأصبهاني، (ج1 /ص: 37).

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

أحدها: أن معجز كلّ رسول موافق للأغلب من أحوال عصره والشائع المنتشر من ناس دهره، لأن موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ حين بعث في عصر السحرة؛ خُصَّ من فلق البحر يبسا وقلب العصا حيّة ما بَهَر كلَّ ساحرٍ وأذلَّ كلَّ كافرٍ، وبُعث عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ في عصر الطبّ فخُصّ من إبراء الزَمْنَىٰ وإحياء الموتى بما أدهش كل طبيب وأذهل كل لبيب، ولمَّا بُعث محمد ﷺ في عصر الفصاحة والبلاغة خُصَّ بالقرآن في إيجاز وإعجازه بما عجز عنه الفصحاء وأذعن له البلغاء وتبلّد فيه الشعراء، ليكون العجز عنه أقهر والتقصير فيه أظهر، فصارت معجزاتهم وإن اختلفت متشاكلة المعاني متفقة العِلل.

والثاني: أن المعجز في كلّ قوم بحسب أفهامهم وعلى قدر عقولهم وأذهانهم، وكان في بني إسرائيل من قوم موسى وعيسى بلادةٌ وغباوةٌ لأنه لم ينقل عنهم ما يُدوَّن من كلام مستحسنٍ، أو يستفاد من معنى مبتكرٍ، وقالوا لنبيهم حين مرُّوا بقوم يعكفون على أصنامٍ لهم:﴿ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ﴾ الأعراف: ١٣٨، فخُصّوا من الإعجاز بما يصلون إليه ببداية حواسهم.

والعرب أصحُّ النّاس أفهاما وأحدُّهم أذهاناً قد ابتكروا من الفصاحة أبلغها ومن المعاني أغربها ومن الآداب أحسنها، فخُصّوا من معجزة القرآن بما تجول فيه أفهامهم، وتصل إليه أذهانهم فيدركوه بالفطنة دون البديهة، وبالرويّة دون البادرة، لتكون كلُّ أمّةٍ مخصوصةٍ بما يُشاكل طبعها ويوافق فهمها.

والثالث: أن معجز القرآن أبقى على الأعصار وأنشر في الأقطار من معجز يختصُّ بحاضره، ويندرس بانقراض عصره، وما دام إعجازه، فهو أحجُّ، وبالاختصاص أحقُّ»[1].

وقال ابن ربن بعد ذكر ما حرفه وبدله أهل الكتاب مما هو موجود في كتبهم « فأما القرآن فلن يوجد فيه حرفٌ مما يشبه ذلك، بل منسوجٌ بالتوحيد والتهاليل والتحاميد والسُّنن والشرائع والخبر والأثر، والوعد والوعيد والرغبة والرهبة، والنُّبوات والبِشارات بالأُمور الجميلة التي تليق بجلال الله وحكمته وطوْله وبسط الأمل في الغفران والرأفة، وقبول التوبة والمعاني التي ترتاح لها الأنفس وتستريح إليها الآمال فلا تقنط»[2].

(1) – أعلام النبوة، للماوردي (ص 73-74)

(2) – الدين والدولة في إثبات نبوة محمد ﷺ، لابن ربن الطبري، (ص: 103).

هذه الوجوه وغيرها، توقف الناظر على منزلة القرآن الكريم، سواءٌ ذلك بالنسبة للدلائل التي أوتيها النبي ﷺ نفسه، أم بالنسبة إلى سائر آيات الأنبياء عليهم السلام من قبلُ، وتوقفه من جهة أخرى على حكمة الله البالغة، ويظهر لكل ذي عنين مراد الله عز وجل في قوله: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ﴾ [المائدة: ٤٨].

الفرع الثاني: مناسبة آية كل نبي لقومه

مرت الإشارة إلى هذا المعنى في ثنايا ما سبق عند إيراد كلام الماوردي وبالضبط عند ذكر السبب الأول، ولعله من المناسب إفراد هذه القضية بالبيان لأهميتها، واعتناء علماء دلائل النبوَّة وغيرهم ببيانها، فهذا الجاحظ يسبق إلى الإشارة لهذه القضية، حتى كأن من جاء بعده إنما أخذها عنه، وذلك عندما لاحظ ذلك في آيات الأنبياء من قبلُ، ثم لم يختل ذلك في آية نبينا ﷺ، فقال: « ولما كان أعجب الأمور عند قوم فرعون السِّحر ولم يكن أصحابه قطُّ في زمانٍ أشَدَّ استحكاماً فيه منهم في زمانه؛ بعث الله موسى عليه السلام على إبطاله وتوهينه وكشف ضعفه وإظهاره ونقض أصله لردع الأغبياء من القوم ولمن نشأ على ذلك من السَّفلة والطَّغام، لأنه لو كان أتاهم بكل شيء ولم يأتهم بمعارضة السِّحر حتى يفصل بين الحجة والحيلة لكانت نفوسهم إلى ذلك متطلعةً، ولاعتلَّ به أصحاب الأشغاب ولشغلوا به بال الضعيف ولكن الله تعالى جدُّه أراد حسم الداء وقطع المادة وأن لا يجد المبطلون متعلقاَ، ولا إلى اختداع الضعفاء سبيلاً مع ما أعطى الله موسى عليه السلام من سائر البرهانات وضروب العلامات.

وكذلك زمن عيسى عليه السلام كان الأغلب على أهله وعلى خاصة علمائه الطبُّ وكانت عوامهم تُعظِّم على ذلك خواصهم، فأرسله الله عز وجل بإحياء الموتى إذ كانت غايتهم علاج المرضى، وأبرأ لهم الأكْمه؛ إذْ كانت غايتهم علاجُ الرَّمد مع ما أعطاه الله عز وجل من سائر العلامات وضروب الآيات لأن الخاصة إذا بخعت بالطاعة وقهرتها الحجة وعرفت موضع العجز والقوة وفصل ما بين الآية والحيلة كان أنجع للعامة وأجدر أن لا يبقى في أنفسهم بقية.

وكذلك دهر محمد ﷺ كان أغلبُ الأمور عليهم وأحسنُها عندهم وأجلُّها في صدورهم حسن البيان ونظم ضروبِ الكلام مع علمهم له وانفرادهم به، فحين استحكمت لفهمهم وشاعت البلاغة فيهم وكثر شعراؤهم وفاق الناسَ خطباؤُهم بعثه الله عز وجل فتحداهم بما كانوا لا

يشكون أنهم يقدرون على أكثر منه؛ فلم يزل يقرِّعهم بعجزهم وينتقَّصُهم على نقصهم حتى تبيَّن ذلك لضعفائهم وعوامهم كما تبين لأقويائهم وخواصهم.

وكان ذلك من أعجب ما آتاه الله نبياً قطُّ مع سائر ما جاء به من الآيات ومن ضروب البرهانات، ولكل شيء باب ومأتىً واختصار وتقريب.

فمن أحكم الحكمة إرسال كل نبي بما يفحم أعجب الأمور عندهم ويبطل أقوى الأشياء في ظنهم»[1].

فهذا النصُّ على طوله كان مرتكز أكثر علماء الإعجاز وغيرهم من المفسرين[2] وعلماء البلاغة ونحوهم، كان مرتكزهم في إثارة هذه القضية في درس إعجاز القرآن، فكان من أتى بعد الجاحظ، إمَّا أن يختصر هذا المعنى، أو يطيلُه بالشرح والبيان، والغاية ظاهرة من ذلك، وإنما أرادوا بيان هذين الأمرين:

الأول: مناسبة آية كلّ نبي لما بلغ فيه قومه الغاية والنهاية

الثاني: بيان حكمة الله ﷻ في ذلك، وأن المراد إفحام الأقوام بأعجب الأمور عندهم.

ثم إن الجاحظ نفسه، يذكر وجها آخر من المناسبة بين الآية نفسها، وعقول من نزلت عليهم، فيقول: « فكان الذي جاء به موسى ؑ مع نقص بني إسرائيل والقِبْطِ مثل الذي جاء به محمد ﷺ مع رجحان قريش والعرب.

وكذلك وعد محمد ؑ بنار الأبد كوعيد موسى بني إسرائيل بإلقاء الهلاك على زروعهم والهمّ على أفئدتهم وتسليط الموتان على ماشيتهم وبإخراجهم من ديارهم وأن يظفر بهم عدوهم، فكان تعجيل العذاب الأدنى في استدعائهم واستمالتهم وردعهم عما يريد بهم وتعديل طبائعهم

جمعية عبد القادر للعلوم الإسلامية

(1) – رسائل الجاحظ، رسالة حجج النبوة، للجاحظ (ج3/ ص: 279-280)

(2) – قال عبد الرحمن الثعالبي مشيرا إلى هذا المعنى: « وآياتُ عيسىؑ إنما تَجرِي فيما يُعَارِضُ الطِّبَّ لأن علْمَ الطِّبِّ كان شَرَفَ النَّاس في ذلك/ الزّمان، وشُغْلَهُمْ، وحينئذ أُثِيرَتْ فيه العجائبُ، فلما جاء عيسى ؑ بغرائبَ لا تقتضيها الأمزجةُ وأصولُ الطِّبِّ وذلك إحياءُ الموتى، وإبراء الأكْمَهِ والأَبْرَصِ، عَلِمَتِ الأطبَّاء أن هذه القوَّة من عند اللَّه، وهذا كأمْرِ السَّحَرَةِ مع موسى ؑ، والفصحاء مع نبيِّنا محمّد ﷺ»، الجواهر الحسان في تفسير القرآن، أبو زيد عبد الرحمن بن محمد بن مخلوف الثعالبي، المحقق: الشيخ محمد علي معوض والشيخ عادل أحمد عبد الموجود، الناشر: دار إحياء التراث العربي – بيروت، الطبعة: الأولى - 1418 هـ، (ج2/ ص: 47-48).

كتأخير العذاب الشديد على غيرهم لأن الشديد المؤخر لا يزجر إلا أصحابُ النَّظر في العواقب وأصحاب العقول التي تذهب في المذاهب»[1].

فهذا البيان كلّه يقف به الباحث على هذه الحقيقة في معجزات الأنبياء عليهم السلام، وهي أنَّ حكمة الله تعالى اقتضت أن تكون كلّ آية من آيات الأنبياء عليهم السلام مناسبة، للأقوام من جهات كثير، من جهة أعمالهم، وعقولهم، وغير ذلك من الاعتبارات حتى تكون حجة الله عز وجل جارية عليها، حتى تكون ظاهرة وقاهرة، وحتى لا يمتري فيها إلا من حقت عليه كلمة العذاب، ويصدق فيهم قول الله ربِّ العالمين: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتۡ عَلَيۡهِمۡ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤۡمِنُونَ ٩٦ وَلَوۡ جَآءَتۡهُمۡ كُلُّ ءَايَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُاْ ٱلۡعَذَابَ ٱلۡأَلِيمَ ٩٧﴾ يونس: ٩٦ – ٩٧.

وهذا أبو نعيم الأصبهاني في كتابه دلائل النبوة، يشير إلى هذه القضية في قوله: « فكانت علامات النبوة على حسب منزلته ومحله عند الله فليس من آية ولا علامة أبدع ولا أروع من آيات محمد صلى الله عليه وسلم؛ وهو القرآن المبين والذكر الحكيم والكتاب العزيز لم يجعل له عوجا قَيِّمًا أنزله عليه في أوان وزمان فيه الخلق الكثير والجم الغفير أولو الأحلام والنهى والأفهام والألسن الحداد والقرائح الجياد والعقول السداد أولوا الحنك والتجاريب والدهاء والمكْرِ فلمَّا سمِعُوا القُرآنَ قدَّروا أن في وسعهم معارضته[2] فقالوا: ﴿لَوۡ نَشَآءُ لَقُلۡنَا مِثۡلَ هَٰذَآ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ ٣١﴾ الأنفال: ٣١، فتحداهم صلى الله عليه وسلم بالقرآن يقرع به أسماعهم مع ما لهم من الفصاحة واللسان والبلاغة والبيان أن يأتوا بسورة يخترعونها بأهون سعي وأدنى كلفة وأنى لهم ذلك والله يقول: ﴿قُل لَّئِنِ ٱجۡتَمَعَتِ ٱلۡإِنسُ وَٱلۡجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأۡتُواْ بِمِثۡلِ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ لَا يَأۡتُونَ بِمِثۡلِهِۦ وَلَوۡ كَانَ بَعۡضُهُمۡ لِبَعۡضٖ ظَهِيرٗا ٨٨﴾ الإسراء: ٨٨، مع دعائه صلى الله عليه وسلم إياهم أن يأتوا بسورة من مثله فلم يقدروا لأن كلام الله المنزل عليه»[3].

وبهذا تظهر حكمة الله تعالى ورحمته بخلقه، وإرادته لهم الهداية ودعوته خلقه إلى داره دار السلام، بأن أرسل فيهم الآيات التي توصلهم إلى اليقين به وبأنبيائه وشرائعه.

---

(1) – رسائل الجاحظ، رسالة، حجج النبوة، للجاحظ (ج3/ ص: 272-273)

(2) – وإنما كان ذلك مكابرةً منهم لا غير، وإلا فقد علم وجهاؤهم وكبراؤهم، أنه من كلام الله وأنه لا طاقة لهم بالإتيان بمثله، فقد قال الوليد بن المغيرة: « يا عجبا لما يقول ابن أبي كبشة فوالله ما هو بشعر ولا سحر ولا بهذاء مثل الجنون وإن قوله لمن كلام الله»، ذكره أبو نعيم الأصبهاني في دلائل النبوة، (ج1 / ص: 233).

(3) – دلائل النبوة، لأبي نعيم الأصبهاني، (ج1 / ص: 229-230).

جمعية المعهد القادر للعلوم الإسلامية

الفرع الثالث: شروط المعجزة في كتب دلائل النبوّة:

من المباحث الهامة في درس إعجاز القرآن، ما يتعلق بتعريف المعجزة، وبيان حدّها وما ينبغي أن يكون قيداً صحيحاً في التعريف، يظهر حقيقة المعجزة، ويميزها عن ما قد يشتبه بها، من مثل السحر، والتنجيم، والكرامة، ونحو ذلك، من الأمور التي قد يقوم بها عند غير البصير اشتباهٌ بالمعجزة، وليست كذلك.

أولاً: شرط العجز في المعجزة

ومن الأمور المهمة التي اشترطها العلماء للمعجزة، أن يتوفر فيها شرط "العجز"، فلا يمكن لهذا الشرط أن يتخلف عنها، بل لم تسمَّ المعجزة معجزة إلا لمراعاة هذا الشرط فيها، فلأهميته سميت من اشتقاقه، كأن ذلك إشارةٌ إلى أن أهمَّ شرطٍ ينبغي اعتباره في المعجزة، هو كونها تُعجز من ظهرت فيهم من أهل العناد والمشاقة للأنبياء عليهم السلام.

بل إن الماوردي في كتابه أعلام النبوة يعدُّ ذلك وجها من وجوه الإعجاز في القرآن الكريم، فيقول: « والوجه التاسع عشر: من إعجازه **عجز الأمم عن معارضته** وقد تحداهم أن يأتوا بسورة مثله فلم تخرجهم أنفة التحدي وصبروا على نغَصِ العجز مع شدة حميَّتهم وقوَّة أنفتهم، وقد سفَّه أحلامهم وسبَّ أصنامهم، ولو وجدوا إلى المعارضة سبيلا وكان في مقدورهم داخلا، وقد جعله حجة لهم في رد رسالته لعارضوه ولما عدلوا عنه إلى بذل نفوسهم في قتاله وسفك دمائهم في محاربته»(1).

ولذلك نجد أهل العلم، يدافعون عن هذا الشرط من كلِّ الاعتراضات التي قد تشوش عليه، كما فعل الجاحظ لما أورد اعتراض من اعترض، عن خفاء العجز في آية القرآن، فيقول الجاحظ، موردا الاعتراض وجوابه: « **فإن قال القائل**: إن الحجة لا تكون حجةً **حتى تُعجِزَ الخليقةَ، وتَخْرُج من حدِّ الطَّاقة**؛ كإحياء الموتى والمشي على الماء، وكفلق البحر، وكإطعام الثمار في غير أوان الثمار وكإنطاق السِّباع وإشباع الكثير من القليل، وكلِّ ما كان جسماً مخترعاً وجرماً مبتدعاً، وكالذي لا يجوز أن يتولاه إلا الخالق ولا يقدر عليه إلا الله عزَّ ذكره.

---

(1) – أعلام النبوة، للماوردي، (ص: 82).

فأمَّا الأخبار التي هي أفعال العباد وهم تولوها وبهم كانت وبقولهم حدثت فلا يجوز أن تكون حجةً؛ إذ كان لا حجة إلا ما لا يقدر عليه الخليقة وما لا يتوهم من جميع البرية.

قلنا: إنا لم نزعم أن الأخبار حجة فيحتجون علينا بها **وإنما زعمنا أن مجيئها حجة** والمجيء **ليس هو أمر يتكلفه الناس ويختارونه على غيره** ولو كان كذلك لكانوا متى أرادوه فعلوه وتهيئوا له ولفعلوه في الباطل كما يجيء لهم في الحق.

والمجيء أيضاً ليس هو فعلاً قائماً فيستطيعوه، أو يعجزوا عنه وإنما هو الإنسان يعلم أنه إذا لقي البصريين فأخبروه أنهم قد عاينوا بمكة شيئاً ثم لقي الكوفيين فأخبروه بمثل ذلك أنهم قد صدقوا، إذ كان مثلهم لا يتواطأ على مثل خبرهم على جهلهم بالغيب وعلى اختلاف طبائعهم وهممهم وأسبابهم، **فليس بين هذا وبين إحياء الموتى والمشي على الماء فرقٌ** إذ كان الناس لا يقدرون عليه ولا يطمعون فيه، والمجيء إنما هو معنىً معقولٌ وشيء موهومٌ، إذ كان كيف يكون ومعلوم أن الناس لا يمكنهم أن يقدروا ولا يستطيعون فعله.

وإنما مدار أمر الحجة على عجز الخليقة، فمتى وجدت أمراً ووجدت الخليقة عاجزة عنه فهي حجة»[1].

فهذا الجاحظ يتكلف -كما ترى- في هذا النصّ المنقول عنه في للدفاع عن شرط العجز في المعجزة، حتى ولو كان فيه اشتباه عند البعض فيما يتعلق بالقرآن الكريم.

ثانيًّا: شرط التحدي في المعجزة

ومن الشروط التي ذكرها علماء الإعجاز في حدِّ المعجزة، ما اصطلحوا عليه بـ"التحدي"، وإن كانت قضية التحدي، ليست شرطاً في كلِّ آيات الأنبياء عَلَيْهِمُ السَّلَامُ كما مرَّ معنا في الفصل الأول، ولكن "التحدي" في القرآن الكريم، ظاهرٌ جليٌّ، ووجوده أبلغ فيه لإفحام الأقوام المكذبين، « لأن رجلاً من العرب لو قرأ على رجل من خطبائهم وبلغائهم سورة واحدة طويلة أو قصيرة **لتبين له في نظامها ومخرجها وفي لفظها وطبعها أنه عاجز عن مثلها**، ولو تحدى بها أبلغ العرب لظهر عجزه عنها»[2].

([1]) – رسائل الجاحظ، رسالة حجج النبوة، للجاحظ، (ج 3 /ص: 260-261).

([2]) – المرجع نفسه، (ج 3/ص: 229).

وقد ذكر القاضي عبد الجبار المعتزلي: « أن الذي جاء بهذا القرآن ادّعى أنه كلام الله وقوله، وأن الجنّ والإنس لا يأتون بمثله ولا بمثل سورة منه ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً، وأنه حجة الله على خلقه إلى يوم القيامة، وقد سمعه الناس كلهم منه، طالبهم أن يأتوا بمثل سورة منه، فلم يأتوا مع شدّة الحاجة إلى ذلك، وقد بذلوا ما هو أعزُّ وأعظم في دفعه، وإبطال أمره من الأموال والأنفس والأولاد»[1].

ويقول أيضا عن " التحدي": « ومن آياته، وهو قوله ﷻ: ﴿ قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴿٨٨﴾ ﴾ الإسراء: 88، فما أتوا بمثله، مع حاجتهم إليه، فانظر كيف يقطع الشهادة أنهم لا يأتون بمثله، وهذا من التحدي المهيّج الذي يَغيظُ ويُغْضِبُ، وفي هذا غيوب كثيرةٌ لا تأتي بمثلها حذّاق المنجمين، ولا يتفق مثلها بالتبْخِيت[2] ولا بالتخرُّص»[3]

وفي موطنٍ آخر، يقول « وبابٌ آخرُ: وهو أنه ﷺ قد علم وتيّقن حين تحداهم بأن يأتوا بمثل هذا القرآن أو بمثل عشر سور أو بمثل سورة أنهم لا يأتون بذلك، ولو لم يتيّقن ذلك لما تحداهم ولا قال، لأن العاقل لا يُقدِم على مثل هذا وهو يأمن أن يأتوا بمثله، فيفتضح وتبطل حجته ويستظهر عليه خصمه ويظهر كذبه وينصرف عنه أصحابه وتبطلُ رئاسته، سيما والعرب أممٌ كثيرةٌ، والفصاحة مبثوثةٌ فيهم غالبةٌ على رجالهم ونسائهم وعبيدهم وإمائهم، وهو لا يعرفهم بأعيانهم ولا يحيط علماً بأشخاصهم وبشعرائهم وخطبائهم وبلغائهم وفصحائهم ودعاتهم، فكان لا يأمن أن يتبتلّ له قومٌ منهم غضباً لأديانهم، وعصبيّة لآبائهم»[4].

وقد ذكر الشوكانيُّ أنَّ ذلك التحدي وقع لهم على مرات، وعلى مراحل، فبدأهم بالإتيان بمثله، وانتهى بهم يطالبهم بالسورة الواحدة، في كلِّ ذلك لا يقع منهم إلا العجز، يقول الشوكانيُّ: « ... ولو لم يكن منها إلا هذا الكتاب العزيز الذي جاء به من عند الله ﷻ مشتملا على مصالح المعاش والمعاد، **وتحدى به** فرسان الكلام وأبطال البلاغة، وأفراد الدهر في العلم بهذه

(1) – دلائل تثبيت النبوة، للقاضي عبد الجبار، (ص 42-43)

(2) – من البَخت: بفتح الباء، والجمع : بُخُوتٌ، والبَخْت : الحظُّ، فتَح البَخْت : حالة التنبّؤ بالمستقبل ، قليل البَخْت: هو سَيِّئ البَخْت :بمعنى غير محظوظ، ينظر القاموس المحيط، للفيروز آبادي، باب التاء، فصل الباء، (ص: 147).

(3) – دلائل تثبيت النبوة، للقاضي عبد الجبار، (ص372)

(4) – المرجع نفسه، (ج2/ ص: 400)

اللغة العربية وقال لهم: ﴿قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٣﴾﴾ هود: ١٣، ثمَّ قال لهم: ﴿قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٣٨﴾﴾ يونس: ٣٨، فلم يقدروا على ذلك، وكاعوا عنه، وعجزوا على رؤوس الأشهاد»[1].

فالتحدي في القرآن الكريم، على أن يأتي الناس بمثله، واضحٌ جليٌّ وآياته كثيرة، بين مكية ومدنية، والطلب فيها قائم ودائم، ولكن ليس إليه من سبيل على مرّ العصور، وكرّ الدُّهور.

ثالثاً: الفرق بين المنجم والرَّسُول

من الأمور التي قد تشتبه على العبد، فيقع سببها اللَّبس في مسألة آيات الأنبياء، خاصة في مقام الإخبار بالمغيبات، ما يكون من المنجمين والسَّحرة والكهنة ونحوهم، فإن هؤلاء قد يقع منهم الإخبار ببعض ما يغيب عن الناس، ولكن مع ذلك فإنه لا يمكن أن يخفى مثل ذلك إلا على ضعيف البصيرة، وقليل المعرفة.

وفي كتب دلائل النبوة عناية ظاهرة بمثل هذه القضايا، كلُّ ذلك دفعاً للالتباس الذي قد يقع بين الآية وغيرها من ترهات أولئكم الدَّجاجلة، وهذا الجاحظ يقوم ببيان الفرق بين الرَّسول والمنجم، فيقول: « فإن قلتم: إن المنجمين ربما أخبروا بالضمير وبالأمر المستور وببعض ما يكون!!.

قلنا: أمَّا واحدةٌ فإنَّ خطأ المنجمين كثيرٌ وصوابهم قليلٌ بلْ هو أقلُّ من القليل، وأنتم لا تقدرون أن توقفونا من أخبار المرسلين عليهم السلام في كثيرٍ أخبارهم على خطأٍ واحدٍ، والذي سهَّل قليل المنجمين طرافةُ ذلك منهم لأنهم لو قالوا فأخطئوا أبداً لما كان عجباً، لأنه ليس بعجب أن يكون الناس لا يعلمون ما يكون قبل أن يكون، ومن أعجب العجب أن يوافق قولهم بعض ما يكون.

(1) – إرشاد الثقات إلى اتفاق الشرائع على التوحيد والمعاد والنبوات، محمد بن علي الشوكاني، المحقق: جماعة من العلماء، بإشراف الناشر، الناشر: دار الكتب العلمية – لبنان، الطبعة: الأولى، 1404هـ - 1984م، (ص 47 - 48)

وقد نجد المنجمين يختلفون في القضية الواحدة ويخطئون في أكثرها، وقد نجد الرسول يخبرهم عما يأكلون ويشربون ويدخرون ويضمرون في الأمور الكثيرة المعاني والمختلفة في الوجوه حتى لا يخطئ في شيء من ذلك.

وليس في الأرض منجمٌ ذكر شيئاً أو وافق ضميراً إلا وأنت واجد بعض من يزجر قد يجيء بمثله وأكثر منه....

وبعدُ فالناس غير مستعظمين لكثرة كذب المنجمين وخطاياهم وخدعهم والناس يستعظمون اليسير من المرسلين عليهم السلام، وكلما كان الرجل في عينك أعظم وكان عن الكذب أزجر كان كذبه عندك أعظم.

وإنما المنجم عند العوام كالطَّبيب الذي إن قتل المريض علاجه كان عندهم أن القضاء هو الذي قتله وإن برأ كان هو أبرأه، على أن صوابهم أكثر ودليلهم أظهر، وقد صار الناس لا يقتصرون للمنجمين على قدر ما يسمعون منهم دون أن يولدوا لهم ويضعوا الأعاجيب عن ألسنتهم»[1].

وبهذا يكون الجاحظ قد قطع الطَّريق على كلِّ من أراد أن يُلبِّسَ على ضعاف العقول، فيشبِّه لهم المنجم بالرَّسول، أو غيره من الدَّجالين به.

رابعا: الفرق بين الوحيّ والإلهام:

ومما يحسن إيراده هنا رفعاً للبسٍ قد يقع للبعض، بيان الفرق بين الوحي والإلهام، فقد ذكر ذلك أبو نعيم الأصبهاني، في وعرض حديثه عن الوحي، قال: « وَلَهُ مَرَاتِبُ وَوُجُوهٌ فِي الْقُرْآنِ وَحْيٌ إِلَى الرَّسُولِ: وَهُوَ أَنْ يُخَاطِبَهُ الْمَلَكُ شِفَاهًا، أَوْ يَلْقِيَ فِي رَوْعِهِ، وَذَلِكَ قَوْلُهُ ﷻ: ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآيِٕ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِۦ مَا يَشَآءُ﴾ الشورى: ٥١، يُرِيدُ بِذَلِكَ خِطَابًا يُلْقِي فَهْمَهُ فِي قَلْبِهِ حَتَّى يَعِيَهُ وَيَحْفَظَهُ.

وَمَا عَدَاهُ مِنْ غَيْرِ خِطَابٍ إِنَّمَا هُوَ ابْتِدَاءُ إِعْلَامٍ وَإِلْهَامٍ، وَتَوْقِيفٌ مِنْ غَيْرِ كَلَامٍ وَلَا خِطَابٍ كَقَوْلِهِ ﷻ: ﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ﴾ النحل: ٦٨، ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ﴾ القصص: ٧، وَمَا فِي مَعْنَاهُمَا»[2].

([1]) – رسائل الجاحظ، رسالة: حجج النبوة، للجاحظ (ج 3 /ص: 262-263)

(2) – دلائل النبوة، لأبي نعيم الأصبهاني، (ص: 34).

المطلب الثاني: وجوه إعجاز القرآن الكريم في كتب دلائل النبوة

لا يشكُّ الباحث – بعد هذا العرض- في موضوع إعجاز القرآن الكريم أن مسألة بيان الوجوه التي كان بها القرآن الكريم معجزاً من الأهمية بمكان، لكونها مجلية عن سبب كون القرآن الكريم أخص آيات هذا النبي الكريم ﷺ والأنبياء من قبله عليهم السلام جميعا.

فمن أهم المباحث في علم إعجاز القرآن الحرص على بيان أوجه الإعجاز منه، ولذلك كانت أكثر جهود العلماء متجهة لبيان هذه الأوجه، ومن أعظم العلماء أثرا في تجلية وإثراء هذا الأمر؛ علماء دلائل النبوة فإنهم لم يفتؤوا يجتهدون في استخراج الأوجه التي كان القرآن بها معجزا، واختلفت في ذلك أنظارهم، فكثرت عنهم الاعتبارات في بيانها، كلُّ ذلك أسهم في بيان هذا الأمر بيانا يحتاج إلى تسليط النظر عليه، يقول القاضي عبد الجبار المعتزلي: « اعلم أن القرآن حجة من ثلاثة أوجه: فكلُّ سورة منه حجة من طريق الفصاحة والبلاغة، وهو حجةٌ لما فيه من إخبار الغيوب، وهو حجة لما فيه من التنبيه على دلائل العقول، فإن ذلك جاء على طريق انتقضت به العادة»[1]

وهذا المبحث في بيان وجوه إعجاز القرآن في كتب دلائل النبوة، الغرض منه إظهار تلك الوجوه التي اعتنى بها علماء الدلائل، وذلك من خلال الفروع الآتية:

الفرع الأول: الإعجاز بالنظم في كتب دلائل النبوة.

الفرع الثاني: الإعجاز بالإخبار عن الغيوب في كتب دلائل النبوة.

الفرع الثالث: الإعجاز العلمي في كتب دلائل النبوة.

الفرع الرابع: الإعجاز التشريعي في كتب دلائل النبوة.

(1)- دلائل تثبيت النبوة، للقاضي عبد الجبار، (ص 86)

الفرع الأول: الإعجاز بالنظم:

لقد كان للعلماء في كتب دلائل النبوة جهودٌ كبيرةٌ في درس إعجاز، لا سيما ما يتعلق ببيان الوجوه التي كان بها القرآن معجزا، حتى بلغوا من ذلك الغاية، كلَّ ذلك سعيا في تحقيق وعد الله ﷻ الذي لا يتخلف: ﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَرۡسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلۡهُدَىٰ وَدِينِ ٱلۡحَقِّ لِيُظۡهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدٗا ٢٨﴾ الفتح: ٢٨، فقام العلماء لذلك أتمَّ القيام، وأدُّوا الواجب الذي عليهم، وكان الواحد بعد الواحد بعد التأمل والتدبر، يقف على ما أوصله إليه علمه مما يصلُح أن يكون وجهاً صالحاً لإعجاز القرآن، ولعلَّ الأمر الذي كادوا يُطبقُون عليه؛ هو أنَّ القرآن معجزٌ بنظمه وبلاغته.

ولقد بدأ هذا الوجه من وجوه الإعجاز مبكراً، لأنه وقع به التَّحدي لمشركي العرب؛ « وأنه تحدى البلغاء والخُطباء والشُّعراء بنظمه وتأليفه في المواضع الكثيرة والمحافل العظيمة، فلم يرُم ذلك أحدٌ ولا تكلَّفه ولا أتى ببعضه ولا شبيهٍ منه ولا ادَّعى أنه قد فعل، فيكون ذلك الخبر باطلاً»[1].

بل «كان أكابر بلغائهم وأعاظم فصحائهم، إذا سمعوا القرآن، اعترفوا بأنه لا يشبه نظمهم ولا نثرهم، وأقروا ببلاغته كما قال الوليد بن المغيرة لما سمع النبي ﷺ يقرأ: ﴿۞إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ وَٱلۡإِحۡسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَيَنۡهَىٰ عَنِ ٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِ وَٱلۡبَغۡيِۚ يَعِظُكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ ٩٠﴾ النحل: ٩٠، فقال: أعِدْ فأعاد النبيُّ ﷺ ، فقال: "والله له إنَّ له لحلاوةً، وإن عليه لطلاوةً، وإنَّ أعلاهُ لمثمرٌ، وإن أسفله لمغدِقٌ، وما يقول هذا البشر"»[2].

يقول الجاحظ في هذا المقام: «... لأن رجلاً من العرب لو قرأ على رجلٍ من خطبائهم وبُلغائهم سورة واحدة طويلة أو قصيرة، لتبيّن له في نظامها ومخرجها وفي لفظها وطبعها أنه عاجزٌ

([1]) – حجج النبوة، للجاحظ، (3/ 251)

(2) – إرشاد الثقات إلى اتفاق الشرائع على التوحيد والمعاد والنبوات، محمد بن علي الشوكاني، (ص 47 – 48)، والأثر أخرجه أبو نعيم في دلائل النبوة، ولفظه: « قد سمعت الشعر رجزه وقريضه ومخمّسه، فما سمعت مثل هذا الكلام يعني القرآن ما هو بشعر إن له لحلاوة وإن عليه لطلاوة وإن له لنورا وإن له لفرعا وإنه ليعلو وما يعلى»، دلائل النبوة، لأبي نعيم، (234).

عن مثلها، ولو تحدى بها أبلغ العرب لظهر عجزه عنها، وليس ذلك في الحرف والحرفين، والكلمة والكلمتين.

ألا ترى أن الناس قد كان يتهيأ في طبائعهم ويجري على ألسنتهم أن يقول رجلٌ منهم: الحمد لله، وإنا لله، وعلى الله توكلنا، وربنا الله، وحسبنا الله ونعم الوكيل، وهذا كله في القرآن، غير أنه متفرقٌ غير مجتمع؛ ولو أراد أنطقُ النّاس أن يؤلّف من هذا الضرب سورة واحدة، طويلة أو قصيرة على نظم القرآن وطبعه، وتأليفه ومخرجه لما قدر على ذلك، ولو استعان بجميع قحطان ومعدِّ بن عدنان»[(1)].

وقد سمى الماوردي ذلك " **الإعجاز في التركيب اللغوي**"، وهو ما تعلق فصاحته وبيانه، وجعل ذلك معتبراً بثلاثة شروط إجمالاً، وهي:

أحدها : بلاغة ألفاظه

والثاني: استيفاء معانيه

والثالث: حسن نظمه

ثمَّ فصل هذه المحاور الثلاث التي هي عماد الكلام (اللفظ- والمعنى- والنظم)، فقال:

« **فأمّا بلاغة ألفاظه** فتكون من وجهين: **أحدهما**: جزالتها حتى لا تلين، **والثاني**: انطباعها حتى لا تخبو.

وأما استيفاء معانيه فيكون من وجهين:**أحدهما**: أن يكون المعنى لائحا في بادىء ألفاظه غير مفتقر إلى مقاطعه، **والثاني**: أن يكون المعنى مطابقا لألفاظه فلا يزيد عليها ولا يقصر عنها فإن زاد كان الاختلال في اللفظ، وإن نقص كان الاختلال في المعنى.

وأما حسن نظمه فيكون من وجهين: **أحدهما**: أن يكون الكلام متناسبا لا يتنافر، **والثاني**: أن يكون الوزن معتدلا لا يتباين»[(2)].

إذن؛ فإن علماء دلائل النبوة لم يكونوا بمعزلٍ عن سائر العلماء الآخرين، فيما يتعلق ببيان كون القرآن معجزاً بنظمه، بل ربما وجد في مصنفات الدلائل ما يدلنا على أن العناية بهذا الوجه كانت فائقة ورابية على غيرها، لما ذُكر فيها من اعتبارات كثيرة في التدليل على إعجاز

(1) – المرجع السابق، (ج 3/ص: 229).

(2) – ينظر أعلام النبوة، للماوردي، (ص: 74)

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

القرآن بنظمه، وسأورد في هذا المطلب جهود علماء الدلائل في ما يتعلق بهذا الأمر، من خلال البيان الآتي:

أولاً: إعجاز القرآن في تماسك بيانه

مما تميز القرآن به عن سائر الكلام، أن بيانه كيفما وجهته وتوجهت إليه، وجدته على وتيرة واحدة، لا يخرج على أنه كلامٌ مباينٌ لسائر الكلام، وأن بيانه مع ذلك فوق كلِّ بيان، يقول الماوردي: «من إعجازه أن اختلاف آياته في الطول والقصر **لا يخرج عن أسلوبه ولا يزول عن اعتداله**، وغيره من نظم الكلام ونثره إذا تفاصلت أجزاؤه زال عن وزن منظومه واعتدال منثوره فصار ذلك من إعجازه»[1].

فالقرآن كيفما تهيأ لقارئه طولاً وقصراً، يحافظ على بلاغته، فلا الطول في القرآن يترتب عنه الهذر، ولا القصر فيه يتأتَّى منه الحصر، وقد أورد الماوردي هذه الشبهة مع جوابها، فقال: «فإن قيل: زيادة طوله هذر ونقصان قصره حصر فكيف يكون معجزا إذا تردد بين هذر وحصر؟ فعنه جوابان:

أحدهما: أن الزِّيادة تكون هذراً إذا لم تفد، والنقصان يكون حصراً إذا لم يقنع؛ والزيادة من طوله مفيدة والنقصان من قصره مقنعٌ فخرج عن الهذر والحصر.

والثاني: أن الطَّويل لو انفرد لم يكن هذراً، والقصير لو انفرد لم يكن حصراً فلم يكن اجتماعهما موجبا لهذر وحصر كاختلاف السور في القصر والطول، فإن أقصر السور سورة الكوثر[2]، وتشتمل مع قصرها على أربعة معان أخبار بنعمة وأمر بعبادة وبشرى بمسرة وأسلوب هو معجزة فلم تخرج إذا قرنت بما هو أطول أن تكون معجزة»[3].

---

(1) – أعلام النبوة، للماوردي (ص 85)

(2) – وللعلماء قديما وحديثا جهود في بيان إعجاز القرآن من خلال سورة الكوثر: فللزمخشري "رسالة في إعجاز سورة الكوثر، و" سورة الكوثر الإعجاز النفسي والبلاغي"، للباحثين: محمد رفعت زنجير، وعمر حمدان الكبيسي، نشر: دار اقرأ – دمشق، طبعة" 2010م، ورسالة بعنوان: " مسائل العقيدة الرئيسة في سورة الكوثر"، للباحث: عبد الرحمن التركي، وهناك مقال بعنوان " أسرار إعجاز سورة الكوثر"، لصاحبه: شحادة حميدي العمري، نشر بالمجلة الأردنية في الدراسات الإسلامية، العدد الثاني، عام: 1427 هـ- 2007م

(3) – أعلام النبوة، للماوردي (ص 85)

ثانيا: إعجاز القرآن في الأسلوب

ومن مظاهر إعجاز القرآن في نظمه، إعجازه في أسلوبه، فإن أسلوب القرآن له من الخصائص، ما يتميَّز به عن سائر الكلام، مهما تباينت وتنوعت، فإن أسلوب القرآن مهما قورن مع أي أسلوبٍ، فإنه يتميَّز عليه.

وقد تكلم الماوردي، عن بعض خصائص أسلوب القرآن، بل وعدها وجها من وجوه إعجازه، فقال: « والوجه الثالث: من إعجازه أن نظم أسلوبه ووصف اعتداله **يخرج عن منظوم الكلام ومنثوره ولا يدخل في شعرٍ ولا رجْزٍ ولا سجعَةٍ ولا خُطبةٍ حتى تجاوز محصورَ أقْسامه وباينَ سائر أنواعه بأسلوبٍ لا يُشاكلُ ونظْمٍ لا يُماثَل، فصار وإن كان من حروف الكلام خارجاً عن أقسام الكلام»**[1].

ثم دلَّل الماوردي، لهذا الوجه بما كان من أُنَيْسٍ الغفاريّ؛ وهو أخو أبي ذر الغفاري وكان من الموصوفين بالتقدم في البلاغة والفصاحة، وذلك حين قال: «عرضت القرآن على السَّجع والشعر والنظم والنثر فلم يوافق شيئا من طرق كلام العرب»[2].

وكذلك ما حُكي عن الوليد بن المغيرة المخزوميّ وكان سيد عشيرته وأفصح قومه؛ أنه جاء إلى أصحاب رسول الله ﷺ وهو على كفره فقال: اقرأوا عليّ شيئاً من القرآن فقرأوا عليه فقال: « ليس هذا من كلام البشر وليس بشعرٍ، فمضى إليه أبو لهب وقال: أفسدت قريشاً بهذا القول فارجع عنه فقال: أقول إنه سحْرٌ»[3]

وكذلك ما جاء في قصة إسلام ضماد من أسْدِ شَنُوءَة، فعن ابن عباس رضي الله عنهما أن رجلا من أزد شنوءة يقال له ضماد وكان باليمن وكان يعالج من الرياح، فقدم مكة فسمع أهل مكة يقولون محمد شاعر مجنون وكاهن وساحر، فقال والله لو لقيت هذا الرجل فلعل الله أن يشفيه

([1])– أعلام النبوة، للماوردي، (ص: 76).

([2]) – الأثر: أورده القاضي عياض في الشفا ولفظه: « لقد سمعت قول الكهنة فما هو بقولهم ولقد وضعته على أقراء الشعر فلم يلتئم وما يلتئم على لسان أحد بعدى أنه شعر وإنه لصادق وإنهم لكاذبون»، الشفا في حقوق المصطفى، للقاضي عياض، (ج1/ ص: 266).

(3) – أخرجه البيهقي بنحو هذه الألفاظ، في دلائل النبوة، في جماع أبواب المبعث، بَابُ اعْتِرَافِ مُشْرِكِي قُرَيْشٍ بِمَا فِي كِتَابِ اللهِ تَعَالَى مِنَ الْإِعْجَازِ وَأَنَّهُ لَا يُشْبِهُ شَيْئًا مِنْ لُغَاتِهِمْ مَعَ كَوْنِهِمْ مِنْ أَهْلِ اللُّغَةِ وَأَرْبَابِ اللِّسَانِ، من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنهما.دلائل النبوة، للبيهقي، (ج2 / ص: 204).

على يدي، فلقيه فقال يا محمد إني أعالج وإن الله يشفي على يدي وإني أعالج من هذه الرياح، فقال رسول الله ﷺ: « الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره من يهده الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادي له وأشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول عبده ورسوله أما بعد»، فقال أعدهن عليَّ فأعادها عليه فقال لقد سمعت قول الكهنة وقول السحرة والشعر فما سمعت بمثل هذه الكلمات ولقد بلغن قاموس البحر[1] فمد يدك أبايعك على الإسلام فقال وعلى قومك فبايعه على الإسلام وعلى قومه»[2]

ومن التنظير لهذه المسألة في إعجاز أسلوب القرآن، انتقل الماوري إلى التطبيق، حيث أورد بعض المحاولات التي كانت ترمي إلى معارضة القرآن، والنسج على منواله وأسلوبه، وكيف يتبين للسامع من أول وهلة مفارقتها للقرآن الكريم، فأورد محاولتين في معارضة سورتي الفيل والماعون.

فأمَّا المحاولة الأولى: فقول شاعرهم: [من مجزوء الهزج]

ألا من مُهلك الفـــــيل ... ومن سار مع الفيل
بطير صــــــــــــــبَّه الله ... عليهم من أبابيل
رمتهمُ بجـــــــــــنادل ... تُرى من طينٍ سجيل
فأضحى القوم في القاع ... كعصف غير مأكول[3]

(1) – أي: قعره الأقصى، نقل ابن قرقول في مطالع الأنوار:" قال أبو مروان ابن سراج: "قَامُوسَ البَحْرِ": وسطه، وفي "الجمهرة": لجته، وفي "العين": "قَامُوسَ البَحْرِ": قعره الأقصى ...، وقال أبو الحسين ابن سراج: "قَاعُوسَ البَحْرِ" صحيح مثل: "قَامُوسَ" كأنه من القعس وهو دخول الظهر وتعمقه، أي: بلغن عمقه ولجته الداخلة، وقال المطرز: الناعوس: الحيّة، بنون، فلعله أراد: بلغن دواب البحر، قال ابن قُرْقُولٍ: المعول من هذا كله على: "قَامُوسَ البَحْرِ"، أو "قَاعُوسَ البَحْرِ"، مطالع الأنوار على صحاح الآثار، إبراهيم بن يوسف ابن قرقول، تحقيق: دار الفلاح للبحث العلمي وتحقيق التراث، الناشر: وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية – دولة قطر، الطبعة: الأولى، 1433 هـ - 2012 م، (ج2/ ص: 26- 27).

(2) – كتاب دلائل النبوة، لقوام السنة الأصبهاني، (ص: 194).

(3) – لم أجد لهذه الأبيات ذكرا في دواوين الأدب التي بين ايدينا، فلعلها وقعت للمؤلف من بعض كتب السير والمغازي، ونحو ذلك ، فالله أعلم.

الناظر إلى هذا السجع مقارنا له بسورة الفيل، يرى دون رويّة الفرقان بين الكلامين، لذلك قال الماوردي، بعد ذكره للأبيات: « فلم يساعده الطبع عليه مع أخذ معانيه واستعمال ألفاظه حتى عاد إلى مطبوع شعره»[1].

والمحاولة الثانية: هي ما ضمنه بعض الشعراء من القرآن في شعره فخرج عن أسلوبه حيث يقول: [من: الخفيف]

وقرأ معلنا ليصدع قلبي ... والهوى يصدع الفؤاد السقيما

أرأيت الذي يكذب بالدين ... ذاك الذي يدع اليتيما[2].

ولا شك أنَّ هذين المحاولتين تدلان على ما وراءهما من محاولاتٍ محفوظةٍ أو غير محفوظة، وأنها جميعاً تشترك في أنها لا تبلغ شأو نظم القرآن، ولا بلاغته.

أمَّا لو اعترض معترضٌ، فقال ما بال المشركين نسبوا النبي ﷺ إلى الشعر، كما حُكي ذلك عنهم في القرآن الكريم: ﴿أَمۡ يَقُولُونَ شَاعِرٞ نَّتَرَبَّصُ بِهِۦ رَيۡبَ ٱلۡمَنُونِ ۝٣٠﴾ الطور: ٣٠، قال الباقلاني في جواب ذلك: « قولهم: إنه شاعرٌ، وإن هذا شعرٌ، لا بدَّ أن يكون محمولا:

على أنهم نسبوه إلى أنه يشعر بما لا يشعر به غيره من الصَّنعة اللَّطيفة في نظم الكلام، لا أنهم نسبوه في القرآن إلى أن الذي أتاهم به هو من قبيل الشعر الذي يعرفونه على الأعاريض المحصورة المألوفة.

أو يكون محمولاً على **ما كان يطلق الفلاسفة على حكمائهم** وأهل الفطنة منهم في وصفهم إياهم بالشعر، لدقة نظرهم في وجوه الكلام وطرق لهم في المنطق، وإن كان ذلك الباب خارجاً عما هو عند العرب شعر على الحقيقة.

([1]) – أعلام النبوة، للماوردي، (ص: 77)

([2]) – وهي لأبي نواس، ولها قصة: قال علي بن يوسف: كنا نتغزل مع أبي نواس ونتبطل فقال لنا ليلة من ليالي شهر رمضان وكان يجد بابن صاحب المسجد المعروف بالسيولي، وهو غلام جميل فقال قوموا بنا إليه قال فمضينا إليه فقدم الشيخ ابنه بعد أن صلى المكتوبة يصلي بهم الرويحة الاولى وهو يريد الختم فقرأ، ﴿أَرَءَيۡتَ ٱلَّذِي يُكَذِّبُ بِٱلدِّينِ ۝١﴾ الماعون: ١. ملحق الأغاني (أخبار أبي نواس)، أبو الفرج الأصبهاني، تحقيق علي مهنا وسمير جابر، الناشر دار الفكر للطباعة والنشر، مكان النشر لبنان، د ت ط، (ص: 262).

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

أو يكون محمولا على أنه **أطلقه بعض الضعفاء منهم في معرفة أوزان الشعر**، وهذا أبعد الاحتمالات»[1].

وهذا الجواب إن كان فيما يظهر كلامٌ متكلف، وإنما الاحتمال الأخير هو أوجه الاحتمالات، ولا يعني ادّعاء شيءٍ على القرآن أو على الرسول ﷺ أن يكون ذلك الادعاءُ معتبرا وصحيحا في نفسه، وإنما هي محالات وتخرُّصات كان المشركون يلجؤون إليها عندما تعوزهم الحجة، ثم هم مترددون في نسبة النبي ﷺ إلى الشعر، لأنهم أيقنوا أنهم – وهم أهل الشعر وأربابه- ليس شعرا، وإنما هو الجحود والعناد، وقد حكى القرآن ترددهم هذا قال الله ﷻ: ﴿بَلْ قَالُوٓاْ أَضْغَٰثُ أَحْلَٰمٍۭ بَلِ ٱفْتَرَىٰهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ فَلْيَأْتِنَا بِـَٔايَةٍ كَمَآ أُرْسِلَ ٱلْأَوَّلُونَ ۝٥﴾ الأنبياء: ٥.

أيضا: ما ذكره بعضهم من أن في القرآن الكريم شعر مضمن، كقوله ﷻ: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ۝٢ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ الطلاق: ٢ – ٣، أنه من المتقارب، وقوله: ﴿وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلَٰلُهَا وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلًا ۝١٤﴾ الإنسان: ١٤، بإشباع ميم "عليهم" من الرجز، ونحو ذلك من القرآن، فإن جوابه من وجوه:

أولاً : أن الفصحاء منهم حين أورد عليهم القرآن، لو كانوا يعتقدونه شعراً، ولم يروه خارجاً عن أساليب كلامهم – لبادروا إلى معارضته، لأن الشعر مسخَّرٌ لهم مسهَّلٌ عليهم، ولهم فيه ما علمت من التصرف العجيب، والاقتدار اللطيف، فلما لم يفعلوا دلّ على أنهم علموا أنه غير شعرٍ.

ثانيا: أن يقال: إن العلماء لم يجعلوا البيت الواحد وما كان على وزنه من الشعر، إذْ أقلُّ الشعر بيتان فصاعداً، بل قد قيل: أقل الشعر أربعة أبيات، بعد أن تتفق قوافيها، ولم يتفق في القرآن ذلك بحال.

ثالثا: أنهم يقولون: إن الشعر إنما يطلق، متى قصد القاصد إليه قصدا على الطريق الذي يعتمد ويُسلك.

(1) – إعجاز القرآن، للباقلاني، (ص: 51).

رابعا: ثم يقال ما اتفق في ذلك من القرآن مختلفُ الرويّ، وقد ذكروا: أنه متى اختلف الروي خرج أن يكون كلاماً[1].

ثالثاً: **إعجاز القرآن في الألفاظ**

ألفاظ القرآن الكريم، جمعت من الحُسن والجزالة ما جعلها، تمثل مظهرا من مظاهر إعجاز القرآن، ولقد أشار إلى ذلك غير واحدٍ من علماء الإعجاز، ومن هؤلاء علماء دلائل النبوة، فإنهم انتبهوا إلى ذلك، فهذا الماوردي يذكر ما اختصت به ألفاظ القرآن من البهجة التي لم توجد في غيره من الكلام، وذلك قوله: « أن لنظم ألفاظه بهجةً لا توجد في غيره فاختلفا، لأنك إذا جمعت بين قول الله تعالى: ﴿وَلَكُمۡ فِي ٱلۡقِصَاصِ حَيَوٰةٞ يَٰٓأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ١٧٩﴾ البقرة: ١٧٩، وبين قولهم "القتل أنفى للقتل" وجدت بينهما فروقا في اللفظ والمعنى»[2].

ثم أخذ يكشف عن وجه إعجازها، وردَّ ذلك إلى وجهين اثنين، فقال: « فأما بلاغة ألفاظه فتكون من وجهين: **أحدهما**: جزالتها حتى لا تلين، **والثاني**: انطباعها حتى لا تخبو»[3].

ولقد عدَّ الماورديُّ ألفاظ القرآن الكريم، وجها من وجوه إعجازه، لمَّا قال: « **والوجه العاشر**: من إعجازه أن ألفاظ القرآن قد تشتمل على الجزل، المستغرب والسهل المستقرب، فلا يتوعر جزله ولا يسترذل سهله ويكونان إذا اجتمعا مطبوعين غير متنافرين ولا نجد ذلك في غيره من كلام البشر، لأن جزله يتوعر وسهله يسترذل والجمع بينهما يتنافر، فصار من هذا الوجه مبايناً وفي الإعجاز داخلا»[4].

بهذا يظهر للناظر كيف اجتمع في القرآن في ألفاظه ما لم يجتمع في ألفاظ غيره، حتى أورثها ذلك كله تلك الملاحة التي يتذوقها العجميُّ قبل العربيِّ.

---

(1) – هذا خلاصة واختصار ما ذكره الباقلاني، ينظر، إعجاز القرآن، (ص: 51-56).

(2) – أعلام النبوة، للماوردي، (ص: 75)

(3) – المرجع نفسه، (ص: 47)

(4) – المرجع نفسه، (ص: 81)

رابعاً: إعجاز القرآن في المعاني:

لما كان القرآن، في الجملة كلاما يحوي ألفاظاً ومعاني، فإذا كانت ألفاظ القرآن الكريم محدودة، فإن معانيه لا حدَّ لها ولا يروم أحدٌ أن يُحاط بها، يقول الماوردي: «من إعجازه كثرة معانيه التي لا يجمعها كلام البشر وذلك من وجهين:

أحدهما: ما يجمعه قليل الكلام من كثير المعاني كقوله تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ ۖ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِى ٱلْيَمِّ وَلَا تَخَافِى وَلَا تَحْزَنِىٓ ۖ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝٧﴾ القصص: ٧، فجمع في آية واحدة بين أمرين ونهيين وخبرين وبشارتين.

والثاني: أن ألفاظه تحتمل معانيَ متغايرةً تحار فيها العقول وتذهل فيها الخواطر، وتكَلُّ فيها القرائح، ثم لا تبلغ أقصاه ولا تدرك منتهاه حتى اختلفت فيه الوجوه وتقابلت فيه النظائر»(1).

ولذلك اعتبر علماء الإعجاز من مظاهر الإعجاز الراجعة إلى النظم عموما، إعجازه في معانيه، وذلك من عدة أوجه، أهمها:

الوجه الأول: الإعجاز في شمولية معانيه مع تجانسها.

فإنه مع كثرة معاني القرآن، فإن من وصفها المعجز أيضا أنها شاملة، ومتجانسة لا تنافر فيها، وإن تكررت في مواضع مختلفة، يقول الماوردي: «من إعجازه، اقتران معانيه المغايرة واقتران نظائرها في السُّور المختلفة؛ فيخرج في السُّورة من وعد إلى وعيد، ومن ترغيب إلى ترهيب، ومن ماضٍ إلى مستقبلٍ، ومن قصصٍ إلى مُثُلٍ، ومن حِكَمٍ إلى جدلٍ، فلا ينبو ولا يتنافر، وهي في غيره من الكلام متنافرة، **فتتجانس معانيها**»(2).

بل ربما لوحظ ذلك حتى في الكتب السماوية السابقة على ما دخلها من التحريف والتبديل، فإن الماوردي لما ذكر شمولية معاني القرآن، وتجانسها، قال: « وكذلك هي في غيره من الكتب المنزلة مفصلة لكل نوع سفر، فإن التوراة مقسومة على خمسة أسفار وكل سفر منها مفرد بمعنى واحد من المعاني المستودعة فيها:

(1) – أعلام النبوة، للماوردي، (ص: 78)
(2) – المرجع نفسه ، (ص: 84)

فالسفر الأول: لذكر بدء الخلق، **والسفر الثاني**: لخروج بني إسرائيل من مصر، **والسفر الثالث**: لأمر القرابين، **والسفر الرابع**: لإحصاء موسى بني إسرائيل وما دبرهم به، **والسفر الخامس**: لتكرير النواميس وجعل اختلاف معانيها موجبا لتفاضلها.

فكان أفضل ما في التوراة عند اليهود الكلمات العشر المشتملة على الوصايا التي خاطب الله تعالى بها موسى وبها يستحلفون دون غيرها.

وأفضل ما في الإنجيل الصحف الأربعة المنسوبة الى تلامذة المسيح الأربعة، وهي المخصوصة بالقراءة في الصلاة والأعياد.

وأفضل ما في الزبور ما اتفق أهل الكتابين على اختياره»[1].

الوجه الثاني: الإعجاز في عدم القدرة على الإحاطة بمعانيه

هذا عنوان جعله الماوردي في كتابه، ثم قال: «والوجه الخامس عشر: من إعجازه أن مكثر تلاوته لا يزاد به فصاحة وإن ازداد بغيره من فصيح الكلام لخروجه عن طباع البشر فمازجها فصار أسلوبه معجزا في الحالين وعلى كلا الوجهين»[2].

والمتأمل في العنوان وما أسفل منه يظهر له أنْ لا علاقة بين العنوان وما بعده، إلا أنَّ إعجاز القرآن بعدم القدرة على الإحاطة بمعانيه أمرٌ ظاهرٌ جليٌّ، وإلا لو كانت معانيه محدودة لما احتاجت الأمة في تفسيره إلى أكثر من تفسير واحد، يبيِّن تلك المعاني، ولا يزاد عليه، ولكن الأمة علمت أن معاني القرآن لا حدَّ لها، لذلك لم تألُ جهدا في الكشف عن معانيه، وما كثرت التفاسير الكاثرة إلا دليلٌ على ذلك.

(1) – أعلام النبوة، للماوردي ، (ص: 78)

(2) – المرجع نفسه، (ص: 85)

الفرع الثاني: الإعجاز بالإخبار عن الغيوب في كتب دلائل النبوة.

من وجوه الإعجاز في القرآن الكريم، ومما كاد العلماء يتفقون على اعتباره، ما يتعلق بإعجاز القرآن بالإخبار بالغيب:

قال الماوردي: «والوجه الثامن: من الإعجاز ما تضمنه من **علم الغيب بأخبار تكون فكانت** كقوله لليهود: ﴿قُلْ إِن كَانَتْ لَكُمُ الدَّارُ الْآخِرَةُ عِندَ اللَّهِ خَالِصَةً مِّن دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٩٤﴾﴾ البقرة: ٩٤، ثم قال: ﴿وَلَن يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ﴾ البقرة: ٩٥، فما تمناه أحدٌ منهم.

وكقوله لقريش: ﴿فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا وَلَن تَفْعَلُوا﴾ البقرة: ٢٤، فقطع بأنهم لا يفعلون فلم يفعلوا، وكقوله: ﴿سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ ﴿٤٥﴾﴾ القمر: ٤٥، وكان ذلك في يوم بدر، وكقوله تعالى في هجرته من مكة إلى المدينة: ﴿إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ﴾ القصص: ٨٥، فأعاده الله إلى مكة عام الفتح إلى غير ذلك من نظائره»[1].

وقد أشار إلى ذلك أيضا القاضي عبد الجبار بقوله: « من دلائله وأعلامه ﷺ، وهو إخباره عمّا في الكتب المنزلة، وما تضمنته من خلق آدم عليه السلام، وما كان له مع الملائكة صلوات الله عليهم، ومع ولده، ومع إبليس، وما كان لنوح مع قومه، ثم إبراهيم، وإسحاق، ويعقوب، والأسباط، وعيسى، وأيوب، وموسى، وهارون، وغيرهم من النبيين صلوات الله عليهم أجمعين، وهو ما قرأ تلك الكتب ولا عرف ما فيها ولا اختلف إلى أهلها ولا اختلفوا إليه، فتعلم أنه ما علم ذلك إلا بوحي من الله عز وجل»[2].

وكل هذه الأمور من الغيوب التي لم يشهدها النبي ﷺ، وإنما عرفها عن طريق وحي الله عز وجل إليه، كما جاءت الإشارة إلى ذلك في ثنايا قصة موسى عليه السلام، لما قال الله سبحانه وتعالى له: ﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ الْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَا إِلَىٰ مُوسَى الْأَمْرَ وَمَا كُنتَ مِنَ الشَّاهِدِينَ ﴿٤٤﴾ وَلَٰكِنَّا أَنشَأْنَا قُرُونًا فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ ۚ وَمَا كُنتَ ثَاوِيًا فِي أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا وَلَٰكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ﴿٤٥﴾ وَمَا كُنتَ

(1) – أعلام النبوة، للماوردي، (ص: 80)

(2)- دلائل تثبيت النبوة، للقاضي عبد الجبار، (ص: 86-87)

بِجَانِبِ ٱلطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا وَلَٰكِن رَّحْمَةً مِّن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٤٦﴾ القصص: ٤٤ – ٤٦.

وقد ذكر علماء الدلائل أقساما مختلفة من الإخبار بالغيب في القرآن الكريم، وذلك باختلاف الاعتبارات في التقسيم، وأشهر الاعتبارات، تقسين الإخبار بالغيب إلى ثلاثة أقسام على حسب الأزمنة الثلاثة؛ الماضي والحضر والمستقبل:

الأول: الإعجاز في الإخبار عن الغيب الماضي:

وله في القرآن الكريم شواهد متكاثرة، فكلُّ ما يتعلق بالرُّسل عليهم السلام وقصصهم مع أقوامهم، والإخبار بآياتهم، وما كان من مواقفَ متباينةٍ مع أقوامه كلُّ ذلك يعدُّ من الغيب الماضي، وممن أشار إلى هذا النوع من أنواع الإعجاز الماوردي، ذكره، وجها مستقلا من وجوه الإعجاز، فقال: « **والوجه السابع**: من إعجازه ما تضمنه من أخبار القرون الخالية وقصص الأمم السالفة، وما تحداه به أهل الكتاب من قصة أهل الكهف وشأن موسى والخضر وحديث ذي القرنين فكان على ما ذكره أنبياؤهم وتضمنته كتبهم.

فإن قيل: فالإخبار بما كان ليس بمعجز لأن علم غير الأنبياء به ممكن فعنه جوابان:

أحدهما: أنه ممكن فيمكن علمها وممتنع فيم لم يعلمها ولم يكن من أهلها فيعلمها فصار معجزا ممتنعا.

والثاني: أنهم اقترحوا تحديه مما لم يكن مبتدئا ولا كان له متناهيا من غوامض أسرار وغرائب أخبار جعلوها حجاجا له وعليه ففصح بالجواب عن سرائرها وصدع بنعت غوامضها فخرج عن العرف إلى ما ليس بعرف فصار معجزا»[1]، وقد تقدم قريباً منه كلام القاضي عبد الجبار المعتزلي، وفيه هذا المعنى جليّاً.

([1]) – أعلام النبوة، للماوردي، (ص: 80)

الثاني: الإعجاز في الإخبار بالغيب الحاضر

وهذا أيضا من أنواع الغيب بالنسبة، للخلق، فإن الإنسان في لحظته التي يعيشها، تجري أحداثٌ من حوله، قريبة وبعيدة، ولا يدري عنها شيئاً ، ولكنَّ الله ﷻ لا تخفى عليه خافية، وقد جاء في القرآن مواضع أشير فيها إلى هذا النوع من الإعجاز، من ذلك من وجوه متعددة:

الوجه الأول: الإعجاز بالإخبار عمّا في النفوس من أسرار

إن الذي يحدثُ به المرء نفسه لا شكٌّ أنه لا يمكن لأحد أن يطلع عليه، ولكن الذي خلق الخلق، عالمٌ بما يجري في النفوس: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴿١٤﴾﴾ الملك: ١٤.

ذكر الجاحظ في "حجج النبوة" فصلا في هذا الوجه من وجوه الإعجاز، فقال: « فصل منه في ذكر دلائل النبي عليه الصلاة والسلام وباب آخر يعرف به صدقه: وهو إخباره عما يكون وإخباره عن ضمائر الناس وما يأكلون وما يدخرون»(1)

كما ذكر الماوردي أن الإخبار عما في الضمائر وجهٌ من وجوه الإعجاز في القرآن الكريم، فقال: « **والوجه التاسع**: من إعجازه ما فيه من الأخبار بضمائر القلوب التي لا يصل إليها إلّا علّام الغيوب كقوله: ﴿إِذْ هَمَّت طَّائِفَتَانِ مِنكُمْ أَن تَفْشَلَا﴾ آل عمران: ١٢٢، من غير أن يظهر منهم قول أو يوجد منهم فشل.

وكقوله: ﴿وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللَّهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ﴾ الأنفال: ٧، فكان كقوله، «وإن لم يتكلموا به» إلى غير ذلك من نظائره»(2).

الوجه الثاني: الإخبار بما يخفى عن الناس من الأشياء.

ويدخل في الإخبار بالغيب الحاضر ما ذكره ابن ربن الطبري: « أنه ﷺ ضلّت ناقته، فجعل يسأل عنها، فقال المنافقون هذا محمد يدّعي خبر السماء وهو لا يدري أين ناقته، فعلم

---

(1) – رسائل الجاحظ ، رسالة حجج النبوة، للجاحظ، (ج3/ص: 266)

(2)- دلائل تثبيت النبوة، للقاضي عبد الجبار، (ص: 81).

ما يتحادثون به وقال: "ألا وإني لا أعلم إلا ما علمني ربي، وقد خبّرني أن ناقتي بوادي كذا متعلقٌ رأسها بشجرةٍ"[1]، فطلبوها فوجدوها كذلك.

ورُوي عنه أنه جمع الناس يوما، ونعى إليهم النجاشيَّ ملك الحبشة، وصلى عليه وكبّر أربع تكبيرات، فورد الخبر في ذلك اليوم، وكان بينه وبين أرض الحبشة البحر»[2].

فهذه تدخل في عداد الغيب الحاضر الذي يخفى على من لم يشاهده، وإن كان في نفسه شاهدا عند من حضره.

الثالث: الإعجاز بالإخبار بالغيب المستقبل: وهي أشياء نزل بها القرآن قبل كونها، وهذه تعَدُّ من الغيب المستقبل، وقد عدَّ منها العلماء أشياء كثيرة، منها:

الإخبار بوفاة أبي لهب وزوجه على الكفر.

وقد ذكرها القاضي عبد الجبار في جملة ما نزل به القرآن قبل وقوعه، فقال: « ومن ذلك أشياء **نزل بها القرآن قبل كونها**، فمن ذلك قصة أبي لهب، وقد كان من المؤذين لرسول الله ﷺ والمجردين في مكروهه وطلب نفسه، وفي الصدّ عن اتباعه، فبشره الله بأن ذلك لا يضرُّه ﷺ، ولا يغني عن أبي لهب فيما قصد ما كسب من جاهٍ ومالٍ وأهلٍ وولدٍ وصداقةٍ وإخْوانٍ، وأنه يخسِرُ ذلك كلَّه، وأنَّه وامرأتَهُ يموتان على الكفر به ويصيران إلى النار، نزل ذلك بمكة وهما حيان سليمان، فكان ذلك كله على ما قال وعلى ما أخبر وكما فصَّل وفسَّر»[3].

الإخبار بغلبة الروم:

وهي قضة مشهورة في التاريخ، وقد أنبأ بها القرآن قبل وقوعها، وسمى بها سورة كاملة من سوره، ألا وهي سورة الرّوم، يقول القاضي عبد الجبار: « **وبابٌ آخر**: مما كان بمكة، وهو أن الفرس غلبت الروم على أرض الجزيرة وهي أدنى أرض الروم وممالكها من سلطان فارس، فسُّر

---

(1) – أخرجه البيهقي في دلائل النبوة، في جماع غزوة تبوك، باب بَابُ سَبَبِ تَسْمِيَةِ غَزْوَةِ تَبُوكَ بِالْعُسْرَةِ وَمَا ظَهَرَ بِدُعَاءِ النَّبِيِّ ﷺ فِي بَقِيَّةِ الْأَزْوَادِ وَفِي الْمَاءِ وَإِخْبَارِهِ عَنْ قَوْلِ الْمُنَافِقِينَ فِي غَيْبَتِهِ ثُمَّ بِمَوْضِعِ نَاقَتِهِ مِنْ آثَارِ النُّبُوَّةِ، من حديث عاصم بن عمر بن قتادة، (ج5/ ص: 232).

(2) – الدين والدولة في إثبات نبوة محمد ﷺ، لابن ربن الطبري، (ص: 79)

(3) – دلائل تثبيت النبوة، للقاضي عبد الجبار المعتزلي، (ص 36)

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

بذلك مشركي قريش لشدّة فارس على الإسلام والمسلمين، وكانت الروم ألين كتفا على المسلمين لأنهم أهل كتاب، وكانوا يصغون إلى ما يرد عليهم من أخبار رسول الله ﷺ، وما يدعو إليه، وما يأمر به وما ينهى عنه، وكيف سيرته، ويتعجبون من ذلك ويستحسونه، ويكون من مَلِكِهم ما لعله يرِدُ عليك، وساء المسلمين ظهور فارس بعد سبع سنين، وإن غمَّ المسلمين سيعود فرحاً، وأنزل بذلك قرآناً يُتلى، فقال ﷻ: ﴿الٓمٓ ۝١ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ۝٢ فِيٓ أَدۡنَى ٱلۡأَرۡضِ وَهُم مِّنۢ بَعۡدِ غَلَبِهِمۡ سَيَغۡلِبُونَ ۝٣ فِي بِضۡعِ سِنِينَۗ لِلَّهِ ٱلۡأَمۡرُ مِن قَبۡلُ وَمِنۢ بَعۡدُۚ وَيَوۡمَئِذٖ يَفۡرَحُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ۝٤ بِنَصۡرِ ٱللَّهِۚ يَنصُرُ مَن يَشَآءُۖ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ۝٥ وَعۡدَ ٱللَّهِۖ لَا يُخۡلِفُ ٱللَّهُ وَعۡدَهُۥ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ۝٦ يَعۡلَمُونَ ظَٰهِرٗا مِّنَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَهُمۡ عَنِ ٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ غَٰفِلُونَ ۝٧﴾ الروم: ١ – ٧.

ثم قال" ...فانظر كم في هذا من دلالةٍ وآية بيّنةٍ، وأنه أخبر أن الرّوم ستغلب فارس، وأن ذلك سيكون بعد سبع سنين، فكان كما أخبر وعلى ما فصّل وبيّن، والبِضع فوق الثلاث ودون العشر، وانظر إلى هذا الإقدام وهذه الثقة من رسول الله ﷺ، وانظر إلى قوله: ﴿وَيَوۡمَئِذٖ يَفۡرَحُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ۝٤﴾ الروم: ٤، يريد بهذا النصر ظهور حجة رسول الله ﷺ »[1].

فما عسى يقول المخالفون في هذه النبوات، وما عسى يسوغ لهم فيها من الردّ والحجّة، وقد برّت وتمّت وانتشرت شرقاً وغرباً وأشرقت، وإن غمط ذلك غامطٌ، ولم يكتفِ به وصمّم في ردّه وتكذيبه لم يوبق إلا نفسَهُ، ولم يُسخط إلا ربّه، ولم يغيّر إلا حظّه[2].

(1)- دلائل تثبيت النبوة، للقاضي عبد الجبار، (ص 59-61)، بتصرف.

(2) – الدين والدولة في إثبات نبوة محمد ﷺ، (ص: 82).

الفرع الثالث: الإعجاز العلمي:

إن القرآن الكريم هو بالدرجة الأولى كتابُ هداية، كما قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ لَا رَيۡبَۛ فِيهِۛ هُدٗى لِّلۡمُتَّقِينَ ۝٢﴾ البقرة: ٢، وقال أيضاً: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ يَهۡدِي لِلَّتِي هِيَ أَقۡوَمُ﴾ الإسراء: ٩، فالغاية الأولى من إنزال القرآن الكريم، هداية الناس، ولما كان الناس متفاوتون في ادراك الهداية من القرآن الكريم، جعل الله ﷻ فيه من الهدايات ما يُناسب النَّاس على تفاوت مداركهم.

« وإذا أدركنا هدف القرآن ومنهجه في الخطاب أدركنا أن ورود الآيات الكونية سواء ما يتعلق منها بالآفاق وما يتعلق منها بالأنفس البشرية شيءٌ بديهيٌّ أيضا، لأن من فئات الناس المكلفين المخاطبين بالقرآن الكريم من ينصبّ جلّ اهتمامه على هذه الجوانب من مخلوقات الله، ولا بد من إقامة الحجة عليهم وإظهار أن القرآن كلام الله المنزل على محمد ﷺ ليبشر به المؤمنين وينذر به قوما لُدًّا، ومن العسير أن تتذوق هذه الطوائف الجمال البياني وتدرك فصاحته وبلاغته لتعترف بالتالي أنه كلام الله المعجز ...

ولكنهم يدركون أن هذه المعارف الإنسانية وهذه الحقائق الكونية لا يتصوّر أن يدركها بشر من ذاته، لأن كثيرا منها لم تكتشف إلا في عصور متأخرة جدا بعد التقدم العلمي في العلوم الكونية وبعد اختراع آلات دقيقة لم يكن للسابقين عهد بها، فإن ورود هذه الحقائق الضخمة والدقيقة في نفس الوقت على لسان رجل لم يكن له إلمام بمثل هذه العلوم دليل على أنه تلقّاها ممن يعلم السرّ في السماوات والأرض ﴿قُلۡ أَنزَلَهُ ٱلَّذِي يَعۡلَمُ ٱلسِّرَّ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ إِنَّهُۥ كَانَ غَفُورٗا رَّحِيمٗا ۝٦﴾ [الفرقان: ٦]»(1).

وهنا قد يقول قائلٌ إن الإعجاز العلمي، في مثل هذه المظان – كتب دلائل النبوة-، وفي هذه الفترة – القرن الخامس-، لا جود له ألبتة، وأن مثل هذا النوع من الإعجاز إنما تأخر وجوده إلى هذه الأعصُر المتأخرة، عندما انتعش البحث العلمي في مجالاته المتعددة الجيولوجية، والفيزيائية، والطبيعية، والذرية، والصناعية ...إلخ!، إلا أن هذا القول، يتخلف صدقه، عندما نجد إشارات صريحة، لمثل هذا النوع من أنواع الإعجاز.

(1) – مباحث في علم إعجاز القرآن، لمصطفى مسلم، (ص: 167-168).

وقد ذكر الماوردي وهو يعدُّ وجوهَ إعجازِ القرآن الكريم، وجها وعَنْوَنَ له بقوله "الإعجاز العلمي"، فقال: « الإعجاز العلمي: **والوجه الخامس**: من إعجازه ما جمعه القرآن من علوم **لا يحيط بها بشر ولا تجتمع في مخلوق**، فلم يكن إلّا من عند الله المحيط بكل شيء علما حتى علَّمه من لم يكن به عالماً»[1].

ثم أورد على ذلك اعتراضاً فقال: فإن قيل: فضل العلم لا يكون إعجازا في النبوّات لأن العلماء قد يتفاضلون ولا يكون للأفضل إعجاز على المفضول!

قال: « فعنه جوابان:

أحدهما: أن التفاضل في العلم موجود والإحاطة بجميع العلوم مفقودة، **والثاني**: أن ظهور العلم فيمن يتعاطاه ليس بمعجز لظهوره من جهته وظهور العلم فيمن لم يتعاطه معجزا لظهوره من غير جهته، وقد كان أميا من أمة أميّة لم يقرأ كتابا ولم يتعاط علما، فصار ما أظهر معجزا»[2].

فالعنوان الذي جعله الماوردي في كتابه، وما أورده بعد ذلك من البيان، نستطيع أن نقول بأنه قد نوّه بهذا الوجه من وجوه الإعجاز، الذي سيكون له شأنٌ آخر في العصور التي تواكب تطورات العلوم، والتي ستتقاطع مع حقائق القرآن الكريم.

(1) – أعلام النبوة، للماوردي، (ص: 78)
(2) – المرجع نفسه، (ص: 79)

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

الفرع الرابع: الإعجاز التشريعي:

يعدُّ الإعجاز التشريعي من وجوه إعجاز القرآن الكريم البارزة، وقد جاءت الإشارة إلى ذلك في كثيرٍ من الآيات القرآنية، كمثل قوله ﷻ: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾ المائدة: ٣، قال الشاطبي: « فَالْقُرْآنُ عَلَى اخْتِصَارِهِ جَامِعٌ، وَلَا يَكُونُ جَامِعًا إِلَّا وَالْمَجْمُوعُ فِيهِ أُمُورٌ كُلِّيَّاتٌ؛ لِأَنَّ الشَّرِيعَةَ تَمَّتْ بِتَمَامِ نُزُولِهِ»[1].

وقد أشار العلماء في كتب دلائل النبوة إلى كون التشريع الذي جاء به القرآن الكريم، يعدُّ من وجوه إعجازه، فهذا علي ابن ربن الطبري، يقول: « فأما ما سنَّ وفرضَ الله ﷻ على أمّته من الصلوات والطهارة والتهيؤ لها والتقدم فيها من الاستنجاء والاستياك والتمضمض والإسباغ الذي معناه الإنقاء والابتدار إلى الجماعات، وحُسْنُ الخشوع والصَّمت ولزوم الصُّفوف والسّكت وتحديد السّجود والرّكوع، وما يقال في كلّ ركعةٍ وسجدةٍ حتى يستوي في علم ذلك كلُّ صغيرٍ وكبيرٍ عبدٍ وأمَةٍ، فإن ذلك على ما يجبُ للخالق في جلاله وكبريائه إذا ما قام العبدُ بين يديه والتمسَ ما لديه»[2]

ثم قال معدِّداً بعض محاسن تلك الشريعة، «فأما أموره وشرائع دينه، فحبُّ الوالدين، وصلةُ الرَّحم، والجود بالمصون، والبذل للماعون، والزهد في الدنيا، والصوم والصلاة والزكاة، والعفو عن المذنب، والوفاء بالعهد، ومجانبة الغدر والكذب، ودفع السيئة بالتي هي أحسن، وتحريم السَّكَر والفجور والزّناء والرّباء، والأمر بإفشاء السلم والمقام، وضرب هام الكفرة الطِّغام، وغير ذلك من الأمور التي لا تقويم دين ولا دنيا إلا به....

فما ترك أمراً مقوّيا مصلحا لعباده وموعظة جامعة لمرضاته إلا وقد طق به، ومن فضيلة دعوته ﷺ أنه عمَّ الناس كلهم بالدُّعاء، ولم يدعهم النقرى – أي دعوة خاصة–، ولا خصَّ بها طائفة دون أخرى كما فعل سائر الأنبياء ما خلا المسيح ﷺ»[3].

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

(1) – الموافقات، إبراهيم بن موسى بن محمد اللخمي الغرناطي الشهير بالشاطبي، المحقق: أبو عبيدة مشهور بن حسن آل سلمان، الناشر: دار ابن عفان، الطبعة: الطبعة الأولى 1417هـ/ 1997م.، (ج4/ ص: 181)

(2) – الدين والدولة في إثبات نبوة النبي محمد ﷺ، (ص: 62).

(3) – المرجع نفسه، (ص:75- 59)، بتصرف.

ومن مظاهر الإعجاز التشريعي، مظهر التيسير والرُّخص فيما جاء به القرآن الكريم والتي منها : « ما أمر الله به على لسانه في السّحور، وتقصير الصّلاة لمن كان مريضاً أو على سفرٍ، وقوله أن "أيام التشريق أيامُ أكلٍ وشربٍ وبعالٍ"[1]»[2].

ومما امتازت به شريعة القرآن الكريم، أنها تميزت عن الشرائع السالفة، حتى فاقتها كمالا وصلاحا، فمتى ما عقدت مقارنة يسيرة بينها وبين ما سبقها من الشرائع، ظهر ذلك بيّنا لا إشكال فيه، وقد أشار إلى ذلك ابن ربن الطبري، بقوله: « ومما يُعرف به فضيلة دينه وحسن مخارج أمور القرآن أنّا نجدُ التوراة التي في أيدي أهل الكتاب تقول: "إن كلَّ قاتل يُقتل"، وقد كان موسى عليه السلام نفسُه وداود وغيرهما من الأنبياء قد قتلوا، وقتل ملوك بني إسرائيل خلقاً كثيراً، فلم يستحقوا بذلك القتل، فأمّا القرآن فإنه يحدّدُ ذلك ويحظره، فيقول: ﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَٰلِدًا فِيهَا وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُۥ وَأَعَدَّ لَهُۥ عَذَابًا عَظِيمًا ۝٩٣﴾ النساء: ٩٣، وروي عنه عليه السلام أنه قال: "ومن قتل نفساً مُعاهدة بغير حقَّها لم يرح رائحة الجنة"[3]، أي: لم يجد ريحها، فهذا أمرٌ مزمزمٌ خطومٌ مقوّمٌ مهذّبٌ.

وقال موسى وعيسى عليهما السلام: كلُّ دعوى فإنها تثبتُ بشاهدين أو ثلاثة، وذلك في قول النصارى واليهود، وقد يجوز أن يكون الشاهدان فاجرين كاذبين، وقال الله على لسان النبي ﷺ: ﴿وَأَشْهِدُواْ ذَوَىْ عَدْلٍ مِّنكُمْ﴾ الطلاق: ٢، فحدّد ذلك ونورّه بقولٍ وجيزٍ حريزٍ غير مهمل ولا مغموز.

(1) – أخرجه الطبراني في المعجم الكبير برقم: 11587، من حديث ابن عباس رضي الله عنهما، وقال: البِعال: وقاع النّساء، المعجم الكبير، سليمان بن أحمد بن أيوب أبو القاسم الطبراني، تحقيق: حمدي بن عبدالمجيد السلفي، الناشر: مكتبة العلوم والحكم – الموصل، الطبعة الثانية: 1404 هـ – 1983م (ج 11، ص: 232)، وأخرجه البيهقي في فضائل الأوقات، بَابٌ فِي فَضْلِ أَيَّامِ التَّشْرِيقِ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ فِيٓ أَيَّامٍ مَّعْدُودَٰتٍ﴾ البقرة: ٢٠٣، ، فضائل الأوقات، أبو بكر البيهقي أحمد بن الحسين، المحقق: عدنان عبد الرحمن مجيد القيسي، الناشر: مكتبة المنارة – مكة المكرمة، الطبعة: الأولى، 1410 هـ. (ص: 414)

(2) – الدين والدولة في إثبات نبوة النبي محمد ﷺ، (ص: 63).

(3) – أخرجه الإمام أحمد في مسنده من حديث أبي بكرة، برقم: 20506، مسند الإمام أحمد بن حنبل، أحمد بن حنبل، المحقق : شعيب الأرنؤوط وآخرون، الناشر : مؤسسة الرسالة، الطبعة : الثانية 1420هـ ، 1999م، (ج34/ص: 143).

وأمر موسى عليه السلام بني إسرائيل أن يلعنوا كلَّ من أخلَّ وقصّر في شيءٍ من نواميس التوراة وشرائعها لعنا مُصرَّحاً على لسان الأمّة، وقد يكون أن يفرّط الرّجلُ في بعضها أو أن يهفو أو أن يزلَّ فيها ثمَّ يندمَ وينيبَ فلا يستحقُّ اللّعنة، فأما القرآن، فإنه يقول: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً أَوۡ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ ذَكَرُواْ ٱللَّهَ فَٱسۡتَغۡفَرُواْ لِذُنُوبِهِمۡ وَمَن يَغۡفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَلَمۡ يُصِرُّواْ عَلَىٰ مَا فَعَلُواْ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ ١٣٥ أُوْلَٰٓئِكَ جَزَآؤُهُم مَّغۡفِرَةٞ مِّن رَّبِّهِمۡ وَجَنَّٰتٞ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ وَنِعۡمَ أَجۡرُ ٱلۡعَٰمِلِينَ ١٣٦﴾ [آل عمران: ١٣٥ – ١٣٦]، فهذه أنباءٌ وأمورٌ تدلُّ على أنّ من أداها مسدد معصومٌ خائف خاشع ليس بمنتحل ومستحلّ، ولا مستخف بالأمر هازلٍ»[1]

بل أكثر من ذلك، فإن ابن ربن الطبري، يذكر أنه لو لم يظهر النبي ﷺ لبطلت نبوات الأنبياء في اسماعيل عليه السلام، وفي النبي عليه السلام خاتم الأنبياء بالضرورة، لأن الله ﷻ لا يُخلف وعدهُ، ولا يكذّب خبره، ولا يخيّب راجيه، ولقد كان بشّر إبراهيم عليه السلام، وهاجر رحمة الله عليها ببشارات بيّنات سارّات، ثم أورد النصوص على ذلك من الأناجيل والتوراة، وغيرها من كتب أهل الكتاب، إلى أن قال: « لو لم يُبعث النبي ﷺ لبطلت النبوات واستحالت، وأنا ذاكرٌ مما بقي من نبوات الأنبياء عليهم السلام ما هو كالمشاهدة والعيان، فإن منهم من وصف زمانه وبلده ومبعثه وتبعه وأنصاره، وصرَّح باسمه تصريحاً»[2].

(1) – الدين والدولة في إثبات نبوة محمد ﷺ، لابن ربن الطبري، (ص: 64-65)

(2) – المرجع نفسه، (ص: 137).

المطلب الثالث: قضايا إعجازية منوعة في كتب دلائل النبوة

لاشك أن مباحث علم الإعجاز المتفرعة عنه كثيرة جدا لا يمكن أن تُحصر بسهولة، لذلك كان هذا المطلب محاولة مني لحصر بعض القضايا الإعجازية التي هي من الأهمية بمكان من الدرس، وهي كالآتي:

الفرع الأول: الإعجاز بالصرفة في كتب دلائل الإعجاز:

مع أن كتب دلائل النبوة كان أكثر مادتها قائما على النقل والأثر، فإن الظن أن لا تكون محلا للرأي والكلام، ولكنه لما كان المؤلفون في دلائل النبوة، ذوي نزعات مذهبية مختلفة، ففيهم المعتزلي، والأشعري، والزيدي، وغيرهم من أهل الملل والنحل، فإنه كان من البديهي أن يُدرِجُوا في آثارهم آرائهم الكلامية، ولذلك وُجد في كتب الدلائل، القول بالصَّرفة، واعتباره وجهاً من أوجه إعجاز القرآن.

فالماوري، وهو المتأثر بالاعتزال، نجده لا يتحرج من ذكر الصّرفة، كوجهٍ من وجوه الإعجاز في القرآن الكريم، فيقول: «الوجه العشرون: **من إعجازه الصرفة عن معارضته** واختلف من قال بها؛ هل صرفوا عن القدرة على معارضته؟ أو صرفوا عن معارضته مع دخوله في مقدورهم؟ على قولين»[1].:

فالماوردي بعد أن جعل وارتضى الصرفة، وجها من أوجه الإعجاز في القرآن، أخذ يذكر لها التفسيرات التي ذكرها العلماء القائلين بها، وجعلها مذهبين:

أحدهما: أنهم صرفوا عن القدرة ولو قدروا لعارضوه.

والمذهب الثاني: أنهم صرفوا عن المعارضة مع دخوله في مقدورهم، وعلى أي تقدير، فإن الماوردي، يعتبرها وجها للإعجاز لتحقق شرط خرق العادة، الذي هو عنده أهم شرط في المعجزة، لذلك نجده يقول: « والصرفة إعجاز على القولين معا في قول من نفاها وأثبتها فخرقها للعادة فيما دخل في القدرة»[2].

بل أكثر من ذلك، قام الماوردي، بإيراد الاعتراض على القول بالصَّرفة والجواب عليه، وإنما ذلك ليسلم القول بالصّرفة، فقال: « فإن قيل: فإن عجزوا عن معارضته بمثله لم يعجزوا عن

([1]) – أعلام النبوة، للماوردي، (ص: 89)

([2]) – المرجع نفسه، (ص: 79)

معارضته بما تقاربه وإن نقص عن رتبته، والمعجز ما لم يمكن مقاربته كما لا يمكن مماثلتُه، فعنه جوابان:

أحدهما: أن مقاربته تكون بما في مثل أسلوبه إذا قصر عن كماله، والأسلوب ممتنع فبطلت المقاربة وثبت الإعجاز.

والثاني: أن المقاربة تمنع من المماثلة، والتحدي إنما كان بالمثل دون المقاربة».

وهذا كله من الماوردي منافحةٌ عن القول بالصَّرفة، الذي ينوّه به، ومن على شاكلته من المعتزلة الذين لا يجدون حرجا في القول بالصرفة في إعجاز القرآن الكريم

وأمَّا سائر كتب دلائل الإعجاز، فلا تكاد يذكر فيها مسألة الصرفة في القرآن الكريم، بل على العكس من ذلك، فأكثرها يشيد بالجانب البلاغي في القرآن الكريم، الذي يتمنَّع معه ذكر الصرفة وجهاً من وجوه الإعجاز.

الفرع الثاني: وجوه أخرى من الإعجاز والمعجزات في كتب دلائل النبوة:

كثيرة هي المعجزات التي حاول العلماء الكشف عنها، فمنها المشهور المتفق عليه، ومنها الخفي المختلف فيه، ومنها ما يرجع إلى الحسِّ، والآخر يرجع أمور معنوية لا تعلق لها بالحسِّ، إلى تقسيمات أخرى باعتبارات مختلفة[(1)]، وهذا المطلب لبيان بعض المعجزات التي ارتضاها علماء دلائل الإعجاز أن تكون في عداد المعجزات التي آتاه الله نبيه ﷺ، وقد جعلتها على قسمين:

---

(1) – فهذا القاضي عياض مثلا: جعل وجوه الإعجاز يمكن تقسيمها إلى قسمين:

الأول: لا نزاع فيه ولا مرية، وهو المشتهر المنتشر، مما يحصل في محافل الناس، ولم يرد عليه إنكار

الثاني: ما وقع فيه خلاف، (أصالة ووصفا وقدرا)، وهو من جنس ما اختصَّ به الواحد والاثنان، ولم يشتهر اشتهار غيره، يُنظر مصادر السيرة النبوية وتقويمها، للدكتور: فاروق حمادة، (ص: 68-69).

كما يمكن أن تُجعل أقساما ثلاثة:

الأول: دلائل قبل مولده ومبعثه ﷺ، من أشهرها قصة الفيل، وحادثة شقِّ الصَّدر.

الثاني: ودلائل عند نبوته ﷺ، وأعظمها القرآن الكريم.

الثالث: دلائل بعد نبوته، ومنها ما اخبر بوقوعه ووقع على مثل ما أخبر به ﷺ.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

القسم الأول: المعجزات المعنوية:

وأما المعجزات المعنوية التي أكرم الله ﷻ بها نبيه ﷺ، فهي في المقابل أيضا كثيرةٌ ولعل أشرفها القرآن الكريم، وسنورد جملة أخرى، غير القرآن من الآيات، ولعل المناسب البدء بالقرآن الكريم الذي هو أعظم آيةٍ أوتيها نبيُّنا ﷺ، بل هي أعظم آيةٍ أوتيها نبيٌّ قطُّ.

أولا: وجوه إعجازية في القرآن الكريم في كتب دلائل النبوة:

زيادة على ما سبق ذكره من وجوه إعجاز القرآن المشتهرة التي ذكر طرف منها فيما مضى في المطلب الأول، فإن علماء دلائل الإعجاز، استطردوا للقرآن أوجها أخرى ارتضوها واستحسنوها، بل وعدوا اجتماع تلك الوجوه كلها في القرآن الكريم وجها آخر من وجوه إعجازه، كما ذكر ذلك الماوردي في قوله: « فإذا جمع القرآن سائرها — أي سائر وجوه الإعجاز المقبولة التي ذكرها العلماء- كان إعجازه أقهر وحجاجه أظهر وصار كفلق البحر وإحياء الموتى لأن مدار الحجة في المعجزة إيجاد ما لا يستطيع الخلق مثله سواء كان جسما مُختَرَعا أو جِرْمًا مُبتدَعا أو عَرَضا مُتوهَما»(1)، وهذه جملة من الوجوه الإعجازية في القرآن الكريم التي جاء لها ذكرٌ في كتب دلائل النبوة:

الوجه الأول: إعجاز القرآن في دلائله وبراهينه.

فإنَّ من الأوصاف التي وُصف بها القرآن الكريم أنه البرهان وأنه البيان، وأنه الحق، إلى غير ذلك من الأوصاف التي ترجع في جملتها إلى صفة براهينه ودلائله التي احتواها، فمن قرأها متجردا عن عوائق الإذعان من الأهواء واتباع الآباء والأجداد، ونحو ذلك، إلا قادته إلى الإيمان إن شاء طوعا، وإن شاء كرهاً.

وقد أشار إلى هذا اللون من ألوان الإعجاز الماوردي، وذلك حين قال: « والوجه السادس: من إعجازه **ما تضمنه من الحجج والبراهين** على التوحيد والرجعة وعلى الدهرية والثنوية حتى قطع بحجاجه كل محتج وخصم بجدله كل خصم ألدّ.

---

(1)– أعلام النبوة للماوردي (ص 90)

ثم أورد ما اعترض به المعترضون من كون "دلائل التوحيد مستفادة بالعقول فلم يكن فيها إعجاز من وجهين: **أحدهما**: وجودها من ذاته، **والثاني**: مشاركته فيها لغيره"

وقد أجاب عن ذلك بقوله: «والجواب عنه من وجهين:

أحدهما: أنه لم يكن من أهل الجدل فيقطع كل مجادل، **والثاني**: أنه أحتج للرجعة بما زاد على قضايا العقول فخصَم كلَّ عاقلٍ»(1).

الوجه الثاني: الإعجاز في تلاوته

من الأوامر التي أمر بها نبينا ﷺ، وهي من الحقوق التي ثبتت للقرآن الكريم؛ التلاوة له، قال الله ﷻ: ﴿وَٱتۡلُ مَآ أُوحِيَ إِلَيۡكَ مِن كِتَابِ رَبِّكَۖ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ وَلَن تَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلۡتَحَدٗا ٢٧﴾ الكهف: ٢٧، وقد لاحظ علماء الدلائل أن مجرد تلاوة القرآن، فضلا عن تدبره، تعدُّ وجها من وجوه الإعجاز في حق القرآن، وذلك لأجل ما تضمنته تلاوته من الخصائص التي يفارق بها القرآن كلَّ كلامٍ غيره، يقول الماوردي: «والوجه الحادي عشر: من إعجازه أن تلاوته تختص بخمسة بواعث عليه لا توجد في غيره: **أحدها**: هشاشة مخرجه، **والثاني**: بهجة رونقه، **والثالث**: سلاسة نظمه، **والرابع**: حسن قبوله، **والخامس**: أن قارئه لا يكل وسامعه لا يمل وهذا في غيره من الكلام معدوم»(2).

فهذه الأوصاف الخمسة التي عدها الماوردي مجتمعة في تلاوة القرآن، لاشك أنه تعدُّ مظهرا من مظاهر إعجاز القرآن، وتجعله مفارقاً لغيره من الكلام مهما بلغ البيان من صاحبه شعرا أو رجزا أو نثرا، فإنه سيحصر عن جمع ما اجتمع في القرآن عند تلاوة ألفاظه.

الوجه الثالث: الإعجاز في كونه معصوما من الزلل محفوظا لفظا ومعنى

ومن الأوجه التي ثبتت للقرآن الكريم، بل وتحدى بها سائر أعدائه أن الله ﷻ أحاطه بالحفظ، فلا يعتريه التبديل، ولو اجتمع عليه من بأقطارها، وتظاهروا على ذلك ، فإن الله حائلٌ بينهم وبين تغييره، يقول الله ﷻ: ﴿إِنَّا نَحۡنُ نَزَّلۡنَا ٱلذِّكۡرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ٩﴾ الحجر: ٩.

(1) – أعلام النبوة، للماوردي ، (ص:79)، بتصرف يسير.

(2) – المرجع نفسه، (ص: 82)

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

ولقد ذكر الماوردي، وهو يعدد أوجها من الإعجاز في القرآن الكريم، أنه لم يتغير منه شيء في لفظه ومعناه وترتيبه، فقال: « والوجه الثاني عشر: من إعجازه، أنه منقول بألفاظ منزّلة ومعان مستودعة، وبلغه الملك بلفظه وعلى نظمه وأداه الرسول إلى الأمة بمثله فلم ينخرم فيه لفظ ولا اختلّ فيه معنى ولا تغير له ترتيب؛ حتى صار من الزلل مضبوطا ومن التبديل محفوظا تستمر به الأعصار على شاكلته وتتداوله الألسن مع اختلاف اللغات على نظمه وصفته لا يختل بتعاقب الأزمنة ولا يختل بتباعد الأمكنة ولا يتغير باختلاف الألسنة»[1].

وبهذا فارق القرآن غيره من الكتب التي أنزل الله ﷻ ولم يخصها بالحفظ ما اختص به القرآن، لذلك دخلها التبديل والتحريف، « فغيره من الكتب مقصورة على حفظ معانيها وإن غويرت ألفاظها:

فإن التوراة ألقى الله ﷻ معانيها إلى موسى عليه السلام فذكرها بلفظه وعبر عنها بكلامه.

وأما الإنجيل فهو ما أخبر به عيسى عليه السلام عن ربه وعن نفسه فجمعه تلامذته بألفاظهم وجعلوه كتابا متلوا.

وأما الزبور فأدعية بتحاميد وتسابيح تنسب إلى داود عن لفظه، ولئن كانت معاني هذه الكتب مضافة إلى الله تعالى فليست بصيغة لفظه ولا على نظم كلامه كما نزل القرآن جامعا لألفاظه ومعانيه وترتيبه فصار مباينا لجميع كتبه، وما هذا إلّا بمعونة إلهية حفظ الله تعالى بها إعجازه وأمدّ بها رسوله كما قال تعالى:﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ۝٩﴾ الحجر: ٩..

ولا ينبغي أن يشتبه هذا الوجه من الإعجاز في الحفظ للقرآن الكريم، مع ما حُفظ من الأشعار التي جاءت عن العرب من الأشعار، والمثال عمن سلف من الحكماء، فإن تلك الأشعار والحكم المحفوظة، طرأ عليها من الطوارئ ما لم يقع للقرآن الكريم بحال، وذلك من وجهين: «**أحدهما**: أن في هذا محولا ومتروكا فلم ينحفظ، **والثاني**: أنه لا يعلم حاله فلم ينضبط والقرآن مخالف لهما في حفظه وضبطه...

ولأجل هذا الحفظ الذي تميز به القرآن الكريم، فإنه لم تقع فيه زيادة، ولا أُدعي عليه نُقصانا، ولقد جعل الماوردي هذه الخاصية في القرآن؛ كونه مأمون الجناب من الزيادة والنقصان،

[1] – المرجع السابق، (ص: 83)، بتصرف يسير.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

وجها من أوجه إعجاز القرآن، فقال: « الوجه الثامن عشر: من إعجازه أن الزيادة فيه ممتازة وتغيير ألفاظه منه مفتضحةً ولو كان في القدرة لالتبس ولو أمكن لاشتبه»[1].

ومن أنعم النظر لم يميز هذه عن كونها من مظاهر حفظ القرآن، فلا داعي لعدها وجها مستقلا من أوجه إعجاز القرآن.

الوجه الرابع: الإعجاز في سهولة حفظه.

سبق الحديث عن الحفظ في القرآن الكريم، وذلك من جهة الله ﷻ فإنه تكفل للقرآن بالحفظ، فلا يناله التبديل والتغيير، وهذه القرون المتطاولة منذ أن نزل، ولا يزال وعدُ الله حقًّا لم يتخلف عن القرآن، فهو محفوظٌ بحفظ الربِّ ﷻ.

أما من جهة الحفظ بالنسبة للخلق، فإن الله جعل للقرآن من اليسر والسهولة، ما يستطيع الوِلْدانُ حفظَهُ، وهذا ما وعد الله به من أراد التذكر بالقرآن، قال الله ﷻ: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ۝١٧﴾ القمر: ١٧، وقد عدَّ علماء الدلائل هذا التيسير في حفظ القرآن على طوله، مظهرا من مظاهر إعجازه، يقول الماوردي: « والوجه السادس عشر: من إعجازه تيسيره على جميع الألسنة حتى حفظه الأعجمي الأبكم، ودار به لسان القبطي الألكن، ولا يحفظ غيره من الكتب كحفظه ولا تجري به ألسنة البكم كجريها به، وما ذاك إلّا بخصائص إلهية فضّله بها على سائر كتبه.

كما لا ينبغي هنا أن يعترض معترض فيقول إنه: « فقد يحفظ الشعر كحفظه والعلة فيه اعتدال وزنه الذي يحفظ بعضه بعضا فلم يكن ذلك معجزا، فعنه جوابان:

أحدهما: أن ما اندرس من الشعر أكثر مما حفظ وهذا محفوظ لم يندرس فاختلفا، **والثاني**: ما لم تستعذ به الأفواه متروك، والقرآن مستعذب غير متروك فافترقا»[2].

فلا يبقى بعد هذا متعلَّقٌ يتعلقُ به من أراد أن يخرج سهولة حفظ القرآن وتيسيره على الألسن، من أنها وجهٌ من وجوه إعجاز القرآن الكريم، وما أحسن ما ذكر الماوردي، لما أتمَّ عد المعجزات ووجوه إعجاز القرآن الكريم، فقال: « فإذا ثبت إعجاز القرآن من هذه الوجوه كلها صحَّ أن يكون كل واحد منها معجزا فإذا جمع القرآن سائرها كان إعجازه أقهر وحجاجه أظهر

([1]) – أعلام النبوة، للماوردي ، (ص: 87).

([2]) – المرجع نفسه، (ص: 86).

وصار كفلق البحر وإحياء الموتى لأن مدار الحجة في المعجزة إيجاد ما لا يستطيع الخلق مثله سواء كان جسما مخترعا أو جرما مبتدعا أو عرضا متوهما»[1].

الوجه الخامس: الإعجاز التأثيري

ومما اختص الله به كتابه، ما يكون لسامعه من الأثر عند سامعه لا يختلف في ذلك الكافر والمؤمن، أما المؤمن فقد قال الله ﷻ في ذلك: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحۡسَنَ ٱلۡحَدِيثِ كِتَٰبٗا مُّتَشَٰبِهٗا مَّثَانِيَ تَقۡشَعِرُّ مِنۡهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخۡشَوۡنَ رَبَّهُمۡ﴾ الزمر: ٢٣، وأما الكافر فإن الكفار كانوا يوصي بعضهم بعضا بترك سماع القرآن، خوفا على أنفسهم من أثره، فكم ممن سمعه فأثر فيه، فاهتدى، وفي السير أن الطفيل بن عمرو منعته قريش من سماع القرآن، فقد قدم الطُّفيل مكة ورسول الله ﷺ بها ومشى إليه رجال من قريش وكان الطفيل رجلا شريفا شاعرا لبيبا فقالوا له: يا طفيل إنك قدمت بلادنا فهذا الذي بين أظهرنا قد أعضل بنا فرق جماعتنا وإنما قوله كالسحرة يفرق بين المرء وبين أبيه وبين الرجل وبين أخيه وبين الرجل وزوجته وإنما نخشى عليك وعلى قومك ما قد دخل علينا فلا تكلمه ولا تسمع منه قال: فوالله ما زالوا بي حتى أجمعت على ألا أسمع منه شيئا ولا أكلمه حتى حشوت أذني حين غدوت إلى المسجد كرسفا فرقا من أن يبلغني من قوله[2].

وقد ذكر أبو نعيم جملة من القصص، في عده مما يدخل في الباب من أخذ القرآن بالقلوب، قصة إسلام عمر بن الخطاب رضي الله عنه والمغيرة والنجاشي، وضمام والطفيل وأنيس الغفاري أخي أبي ذر رضي الله عنه، وغيرهم[3]

ثانيا: تحقق وعد الله ﷻ له بالعزة والتمكين، واجتماع الناس عليه

من الأمور التي أكرم الله ﷻ بها نبيه ﷺ، مما تُعدُّ آيةً من الآيات المعنوية، وبيِّنةً من البينات، أنه ﷻ كتب لنبيه ﷺ من العزة والتمكين واجتماع الناس عليه، بعد أن كان وحيدا طريدا في قومه، الشيء الذي لا يتأتى لأحدٍ إلا بعون ممن له القدرة المطلقة، والوعد الحق ﷻ، قال القاضي عبد الجبار:« وبابٌ آخر: وهو ما كان وَعَدَ وقال وهو في وحدته، إني سأصير في جماعات وعساكر، فكان كما قال وأخبر، لأنه حين دعاهم أنكروا قوله وأكفروه وتلقوه بالرد

(1) – أعلام النبوة، للماوردي، (ص: 90).
(2) – دلائل النبوة، لأبي نعيم الأصبهاني، (ج1 / ص: 239).
(3) – المرجع نفسه (ج1 / ص: 240 وما بعدها).

والتكذيب، ثمّ ما زال والنفر بعد النفر يجيبونه، حتى صار في عساكر، فاعتقدوا بصدقه ونبوته، وصاروا له جندا مطعين، وحزباً متفقين، ينفقون أموالهم ويسفكون دمائهم في طاعته، ويفرُّون من آبائهم ويقتلون أبناءهم ويفارقون أوطانهم لأجله وامتثالا لأوامره، وأزكى الأعمال عندهم ما أرضاه بلا دنيا بسطها فيهم، ولا أموال دفعها إليهم، ولا لرئاسة كانت له عليهم، بل كان يتيما فقيرا وحيدا مَعيلاً محتاجاً»[1].

فقلب الله ﷻ لأولئك الأقوام التي كانت سيوفهم مشهورة للصدِّ عن سبيل الله، فما فتأت أن صارت سيوفا لله ولرسوله ﷺ، وحرباً على الأعداء، حتى سلت في وجوه الآباء والأبناء طواعية من غير كراهية، كل ذلك كان آية من آيات النبي ومعجزة من معجزاته.

وربما يصحُّ لنا أن ندرج تحت هذه المعجزة الحسيَّة؛ ما كان من استجابة الله ﷻ لدعوات نبيه ﷺ، فقد ذكر الجاحظ وهو يعدد وجوه الإعجاز، فقال « ...**ولدعائه المستجاب** الذي لا تأخير فيه، ولا خلف وذلك أن النبي ﷺ حين لقي من قريش والعرب من شدّة أذاهم له وتكذيبهم إياه واستعانتهم عليه بالأموال والرجال، دعا الله ﷻ أن يُجدب بلادهم، وأن يُدخل الفقر بيوتهم، فقال ﷺ: « اللهم سنين كسنيِّ يوسف، اللهم اُشددْ وطأتك على مُضَر»[2]، فأمسك الله ﷻ عنهم حتى مات الشجر، وذهب الثمر، وقلّت المزارع، وماتت المواشي، وحتى اشتووا القدّ والعلهز، فعند ذلك وفد ابن زرارة على كسرى، يشكو إليه الجهد، والأزل، وستأذنه في رعي السّواد[3]، وهو حين ضمنه عن قومه وأرهنه قوسه، فلمّا أصاب مضر خاصّةً الجهدُ، ونهكهم الأزلُ، وبلغت الحجّة مبلغها، وامتهت الموعظة منتهاها، عاد بفضله ﷺ على الذي بدأهم به فسأل ربّه الخصب وإدرار الغيث، فأتاهم منه ما خدم بيوتهم ومنعهم

---

(1)– دلائل تثبيت النبوة، للقاضي عبد الجبار، (ص: 8)

(2) – أخرجه البخاري في كتاب الجهاد والسير، باب: الدعاء على المشركين بالهزيمة والزلزلة، برقم 2774، من حديث أبي هريرة ﷺ، (ج3/ص: 1072)، وأخرجه مسلم في كتاب المساجد، باب اسْتِحْبَابِ الْقُنُوتِ فِي جَمِيعِ الصَّلَاةِ إِذَا نَزَلَتْ بِالْمُسْلِمِينَ نَازِلَةٌ، برقم: 294، من حديث أبي هريرة ﷺ، (ج 1/ ص: 466).

(3) – **القِد** بالكسر: سير يقدُ من جلد مدبوغ، **والعلهز**: خيط من الدم وأوبار الإبل **الأزل** بالفتح: شدة الزمان **السواد**: جماعة النخل والشجر، لخضرته وسواده.

حوائجهم، فكلّموه في ذلك فقال: « اللهم حوالينا ولا علينا»[1]، فأمطر الله ﷻ ما حولهم و أمسك عنهم.

وكتب إلى كسرى يدعوه إلى نجاته وتخليصه من كفره فبدأ باسمه على اسمه، فأنف من ذلك كسرى لشِقوته، وأمر بتمزيق الكتاب، فلمّا بلغه ﷺ قال: « اللهم مزّق ملكه كلّ ممزَّقٍ»[2]، فمزّق الله ﷻ ملكه، وجدّ أصله، وقطع دابره»[3]

ثالثا: المعجزة في أخلاقه ﷺ:

من الأمور التي بلغ فيها النبيُّ ﷺ الغاية التي لا طاقة للبشر بها ما كان عليه ﷺ من الأخلاق الجميلة والشمائل الجليلة، والتي دوَّن لأجلها العلماء الكتب الطوال في تعداد خلاله وشمائله ﷺ، فهي البحر الذي لا ساحل له.

وقد ذكر الجاحظ أخلاق النبي ﷺ على آنها آية من الآيات الدالة على صدق نبوته، فقال : « وآيةٌ أخرى لا يعرفها إلاّ الخاصّة، ومتى ذكرتُ الخاصّة فالعامّة في ذلك مثل الخاصة، وهي الأخلاق والأفعال التي لم تجتمع لبشرٍ قبله، ولا تجتمعُ لبشر بعده.

وذلك أنّا لم نر ولم نسمع لأحد قطُّ كصبره، ولا كحلمه، ولا كوفائه، ولا كنجدته، ولا كصدق لهجته، وكرم عشْرته، ولا كتواضعه، لا كعلمه، ولا كحفظه، ولا كصمته إذا صمت، ولا كقوله إذا قال، ولا كعجيب منشئه، ولا كقلّة تلونه، ولا كعفوه، ولا كدوام طريقته، وقلة امتنانه»[4].

فالمتأمل لشمائل النبي ﷺ وأخلاقه إن كام منصفا، فإنه يقطع قطعا جازما لا تردد فيه أنها حقا أخلاق لا تضاهى، ولا يُبلغ شأوها، وأنها لا تجتمع قط إلا فيمن شهد له ربُّه فزكى أخلاقه بقوله: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ۝٤﴾ القلم: ٤.

(1) – أخرجه البخاري، في كتاب الجمعة، باب رفع اليدين في الخطبة، من حديث أنس بن مالك ﷺ، برقم: 891، (ج1/ ص: 315).

(2) – أورده الحافظ ابن حجر في الفتح، من حديث عبد الله بن عباس ﷺ، (ج8/ص: 127).

(3) – رسائل الجاحظ، رسالة حجج النبوة، الجاحظ، (ج3/ص: 267-268).

(4) – المرجع نفسه ، (ج3/ص: 280-281)

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

ومن الأمور التي عدها علماء الدلائل آية وأمارة من أمارات الإعجاز في حق النبي ﷺ، وهي أنموذج واحد من كمّ وفيرٍ دالٍ على ما وراءه من الخلال الكريمة التي كان عليها ﷺ، وهي **ما كان عليه من الزهد** الذي يقطع عنده زهد الزاهدين، مع أن الجموع الكثيرة الناس قد دانت بدينه، ودخلت فيه أفواجا، يقول عبد الجبار: « وكان ﷺ مع هذا الملك العظيم أيبس الناس عيشاً، وأخشنهم لباساً، واعتبر من ذلك ببرده الذي يلبسه خلفاؤنا من بعده وقيمته مقدار دانقين[1]، وبقدحه وخاتمه، وجميع ما صار عند خاصة أهله وعامة أنصاره، ثمّ توفي ولم يترك عيناً ولا ديناراً، ولا شيّد قصراً ولا غرس شجراً ولا شقّ لنفسه نهراً ولا استنبط لنفسه عيناً، ولا رغب لأهله وأصحابه في مثل ذلك»[2].

كما تحدث عن زهده ﷺ بن ربن الطبري، فقال: « فأما زهد النبي ﷺ وتورُّعه واستخفافه بزخارف الدنيا وغرورها، ...فإنه رُوي عنه عليه السلام أنه لم يشبع قطُّ من خبزٍ ولا لحمٍ إلا على ضيقٍ وشدَّة، وأنه ﷺ زوّج ابنته فاطمة من عليّ رضي الله عنهما فكان ما جهزها به سريرٌ مزمّلٌ بشريطٍ ووسادةٌ من أَدَمٍ حشوها ليفٌ وقِدْرٌ وقِرْبةٌ وسَلّةٌ فيها شيءٌ من زبيبٍ ومن تمرٍ...»[3].

ولا يفوتنا أن نذكر عن ابن ربن الطبري قوله في أخلاق النبي ﷺ وعدِّه إياها من معجزاته ودلائل نبويه عليه السلام، وذلك قوله: « ومما روي عنه عليه السلام من مكارم الأخلاق ومعالي الأمور أن جبريل عليه السلام أتاه فقال: يا محمد جئتك بمكارم أخلاق الدنيا والآخرة، وهي: أن تصل من قطعك، وتعطي من حرمك، وتعفو عمّن ظلمك»[4]، ولذلك صار كثيرٌ ممن يتحدث عن الأخلاق لا يجاوز أن يصفها بهذا ولا يزيد.

---

(1) – مفرد دانق: الدّانِق والدّانَقُ من الأَوزان وربما قيل داناقٌ كما قالوا للدِّرْهمِ دِرْهام وهو سدس الدرهم، وأنشد ابن بري:

[من السريع]: يا قَوْمِ مَن يَعْذِرُ من عَجْرَدٍ   القاتِلِ المرء على الدانِقِ ؟

ينظرُ: لسان العرب، أبو الفضل، جمال الدين ابن منظور الأنصاري، الناشر: دار صادر – بيروت، الطبعة: الثالثة – 1414 هـ، (مادة "دنق"، ج: 10/ص: 105)، التعريفات الفقهية، محمد عميم الإحسان المجددي البركتي، الناشر: دار الكتب العلمية (إعادة صف للطبعة القديمة في باكستان 1407هـ – 1986م)، الطبعة: الأولى، 1424هـ – 2003م، (ص 94).

(2) – دلائل تثبيت النبوة، للقاضي عبد الجبار، (ص 31).

(3) – المرجع نفسه، (ص: 59).

(4) – الدين والدولة في إثبات نبوة محمد ﷺ، لابن ربن الطبري، (ص: 60-61)

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

ولا جرم أن تكون هذه الرغبة عن الدنيا ومجافاتها على هذا الوجه، من الدلائل على احقية دعوته، وما جاء به من الوحي عن ربه، والذي استجاب ﷺ لإرشاده لما أرشد: ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ۚ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ﴿١٣١﴾﴾ [طه: ١٣١].

رابعا: أميّة النبي ﷺ

من الأشياء التي تلفت الأنظار في نبوّة نبيّنا ﷺ أنه لم يتهيأ له أن تعلم كتابة أو قراءة، ولقد جاءت الإشارة بذلك في القرآن الكريم، في قوله ﷻ: ﴿وَمَا كُنتَ تَتْلُوا۟ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ ۖ إِذًا لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿٤٨﴾﴾ العنكبوت: ٤٨، قال ابن عطية في تفسير الآية: « مما يقوي نزول هذا القرآن من عند الله أن محمدا ﷺ جاء به في غاية الإعجاز والطول والتضمن للغيوب وغير ذلك وهو أمي لا يقرأ ولا يكتب ولا يتلو كتابا ولا يخط حرفا ولا سبيل له إلى العلم، فإنه لو كان ممن يقرأ لَارْتاب الْمُبْطِلُونَ وكان لهم في ارتيابهم متعلق»[1].

وأميّة النبي ﷺ لم يفت من كتب في دلائل النبوة، أن يعدَّ ذلك علماً من أعلام نبوة النبي عليه السلام، وقد أشار إلى ذلك غير واحدٍ منهم، ومن النماذج عليه ما أورده ابن ربن الطبري بعد أن ذكر إعجاز القرآن الكريم، قال: « وكان صاحبه الذي أُنزل عليه أُميّاً لم يعرف كتابةً ولا بلاغةً قطُّ، فهو من آيات النبوة لا شكَّ فيه ولا مرية»[2].

وقال أيضا: « فأما النبي ﷺفلم يكن كذلك، بل أميّ أبطحي لم يسمع من مصريّ، ولا روميّ ولا هنديّ ولا فارسيّ، ولا اختلف إلى مجالس الأدباء لطلب الدب وقراءة كتاب، وجاء بكلام بهر أهل اللغة، وغمر أهل الفصاحة والسلاطة، وخضعت له رقاب الأمة، فإنه قال عن الله ﷻ: ﴿قُلْ فَأْتُوا۟ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِۦ مُفْتَرَيَٰتٍ وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٣﴾﴾ هود: ١٣،

---

(1) – المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، أبو محمد عبد الحق بن عطية الأندلسي، المحقق: عبد السلام عبد الشافي محمد، الناشر: دار الكتب العلمية – بيروت، الطبعة: الأولى - 1422 هـ، (ج 4، ص: 322)، وقد ذكر نحو ذلك الإمام أبو جعفر النحاس في كتابه إعراب القرآن، فقال: « فجعل الله جلّ وعزّ هذا دليلا على نبوته لأنه لا يكتب ولا يخالط أهل الكتاب ولم يكن بمكّة أهل الكتاب فجاءهم بأخبار الأنبياء والأمم، وزالت الريبة والشك بهذه الأشياء»، إعراب القرآن، أبو جعفر النَّحَّاس النحوي، وضع حواشيه وعلق عليه: عبد المنعم خليل إبراهيم، الناشر: منشورات محمد علي بيضون، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة: الأولى، 1421 هـ، (ج3/ ص: 176).

(2) – الدين والدولة في إثبات نبوة النبي ﷺ، لابن ربن الطبري، (ص: 99)

مركز جمعة الماجد عبد القادر للعلوم الإسلامية

وقال: ﴿فَأۡتُواْ بِسُورَةٖ مِّن مِّثۡلِهِۦ وَٱدۡعُواْ شُهَدَآءَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ٢٣﴾ البقرة: ٢٣، فما كان في القوم من تزمزمَ ونطق بل بصبصوا وأذعنوا ودانوا»[1].

ومن النماذج أيضا الماوردي الشافعي، فقد أشار إلى هذا المعنى في أعلام نبوته، فقال: « ما أوتي من الحكمة البالغة وأعطي من العلوم الجمة الباهرة وهو أميٌّ من أمَّة أميَّة لم يقرأ كتابا ولا درس علما ولا صحب عالما ولا معلما، فأتى بما بهر العقول وأذهل الفطن من إتقان ما أبان وإحكام ما أظهر فلم يعثر فيه بزلل في قول أو عمل»[2].

بل إن ابن ربن الطبري وهو من أهل الكتاب قبل أن يمتنَّ الله ﷻ عليه بنعمة الإسلام، يذكر أن أهل الكتاب عابوا النبي ﷺ بأنه أميٌّ لا يقرأ ولا يكتب، وجعلوا ذلك مقاما لا يناسب النبوّة، فأجاب عن شبهتهم التي شبهوا بها بقوله: « فالأميَّةُ التي عابه بها أهل الذِّمة غير مُزرية به ولا عاتبةٍ، بل حجةٌ وبرهانٌ منيرٌ، فلو جاء بمثل هذا الكتاب الذي وصفته رجلٌ أديبٌ خطيبٌ لكان كذلك آيةً من الآيات، فكيف إذا جاء به رجلٌ بدويٌّ[3] أميٌّ، فإن ذلك يشهد له أن الله أنطقه وروح القُدُس سدَّده له وأعانه عليه»[4].

فهذه النقول دليلٌ واضحٌ على أن أميَّة النبي ﷺ ينبغي أن تعدَّ دليلا جليًّا على نبوته، وصدق ما جاء به، وأنه من عند الله ﷻ.

خامسا: أوجه إعجازية ذكرها العلماء في كتب دلائل النبوة

ومن المعجزات التي ذكرها علماء دلائل النبوة في هذا الباب، ما تعلق تخصيصه ﷺ بالذرية الزاكية والسلالة الطاهرة، وهو وجهٌ آخر لطيفٌ ذكره الزيدي، وذلك « أن الله ﷻ أكرم نبيه ﷺ بأن جعل في ذريته من الفضل ما لم يجعله في سائر القبائل، مع كثرة عددها وقلّة عدد

---

(1) – المرجع السابق، (ص: 104)
(2) – أعلام النبوة، لأبي الحسن الماوردي، (ص: 223)
(3) – الذي أراه أنه لا داعي لذكر مثل هذه اللفظة في مقام النبي ﷺ، فكأنها لا تليق بمقامه، وإنما يكفي وصفه بالأمية، لأنها لفظةٌ جاءت بها النصوص، من القرآن والسنة، ففي القرآن قال الله ﷻ: ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلۡأُمِّيَّ﴾ الأعراف: ١٥٧، وفي السنة قوله ﷺ: « إنا أمَّةٌ أميَّةٌ لا نكتُبُ ولا نَحْسُبُ»، أخرجه البخاري وغيره من حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنهما، برقم: 892، يُنظر، مختصر صحيح الإمام البخاري، لمحمد ناصر الدين الألباني، (ج1/ص: 552).
(4) – الدين والدولة في إثبات نبوة النبي ﷺ، لابن ربن الطبري، (ص: 107)

هؤلاء، ثم مع ذلك قد خُصُّوا بالحشمة في النفوس، وثقة وهيبة في الصدور راسخة، يشترك فيها أعداؤهم وأولياؤهم، لا يمكن لهم دفعها عن أنفسهم، وذلك مما لا يجوز أن يكون اتفق إلا بلطف من الله يلطفه لهم تعظيماً لأمر نبيه ﷺ وتنبيها على عظيم محله عليه السلام»[1].

وهذا وجهٌ من المعجزات قبولٌ، فإن الله ﷻ جعل نبيَّهُ ﷺ مباركا، وهذا من جملة بركات التي أكرم بها الله سبحانه وتعالى نبيه.

ومن المعجزات اختصاص أمّته ﷺ ما يتعلق بأمته ﷺ، وما كانت عليه من العلوم التي تنوعت وكثرت، يقول الزيدي : « ومن ذلك ما اختصت به أمته من العلوم الجمّة التي لم تختصّ بها أمّةٌ من الأمم، فإن المتكلمين منهم عبروا في وجوه جميع المخالفين كالفلاسفة، وفرق الثنوية من الدياصنية[2]، والمانوية، وكاليهود والنصارى، وأبروا عليهم ونصروا الحق، حتى لا تجد أحداً من هؤلاء إذا ناظر متكلماً من المسلمين إلا مجندلا مشهوداً، ولا يكاد يجري معه شوطاً أو شوطين إلا أن يكون استعان على علمه بشيء من كلام متكلمي الإسلام»[3].

كانت هذه جملةٌ من الوجوه الإعجازية التي جاءت متناثرة في كتب دلائل النبوة، أردت أن أجمعها في هذا الموطن، لتكون دانيةً من طالبها.

(1) – إثبات نبوة النبي ﷺ، للزيدي، (ص179).

(2) – **الدياصينية**: أصل الفرق الباطنية، أسسها ميمون بن ديصان، الْمَعْرُوف بِالْقداحِ وَكَانَ مولى لجَعْفَر بن مُحَمَّد الصَّادِق وَكَانَ من الأهواز، وَمِنْهُم مُحَمَّد بن الْحُسَيْن الملقب بذيذان، وفي سجن الْعرَاق اسسوا مَذَاهِب الباطنية ثمَّ ظَهرت دعوتهم بعد خلاصهم من السجْن من جِهَة الْمَعْرُوف بذيذان وابتدأ بالدعوة من نَاحيَة فَدخل فِي دينه جمَاعَة من أكراد الجيل مَعَ اهل الْجَبَل الْمَعْرُوف بالبدين، ثمَّ رَحل مَيْمُون بن ديصان الى نَاحيَة الْمغرب وانتسب فِي تِلْكَ النَّاحِيَة إِلَى عقيل بن ابي طَالب وَزعم أنه من نَسْله فَلَمَّا دخل فِي دَعوته قوم من غلاة الرَّفْض والحلولية، يُنظر الفرق بين الفرق لعبد القاهر البغدادي، (ص: 266).

(3)– إثبات نبوة النبي ﷺ، للزيدي، (ص179).

الفرع الثاني: المعجزات الحسيَّة

وهي المعجزات التي لها موقع من الحسِّ، وقد كانت أغلب آيات الأنبياء عليهم السلام من هذا القبيل، وقد كان للنبي ﷺ حظٌّ من هذه الآيات إكراما من الله سبحانه وتعالى لنبيه، وتطمينا لنفسه، وتثبيتا لقلبه ﷺ من جهة، وتخويفا للمخالفين من قومه، وإقامة للحجة عليهم من جهةٍ أخرى، ولعلنا نورد شيئا منها في هذا الفرع:

أولا: الإسراء به ﷺ:

لقد أرسل الله رسله عليهم السلام ليبلغوا رسالات ربهم إلى أقوامهم، ولما كانت الرسالة بحاجة إلى البينات، فإن الله سبحانه وتعالى أيّد رسله بالبينات الظاهرة، لأجل أن يصدقهم أقوامهم، وكان من بيّنات نبيّنا ﷺ، أن الله سبحانه وتعالى وبإثر أحداثٍ عظامٍ واجهها الرسول ﷺ، أكرم نبيّه إذ أسرى به من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى، ثم عُرج به إلى سدرة المنتهى، تطمينا لقلبه، وتسلية لهمّه وكربه، يقول القاضي عبد الجبار: « وبابٌ آخر: وهو أنه ﷺ أُسري به في ليلة واحدة من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى ثمّ عاد من ليلته إلى مكة، ومدّة السفر في ذلك مقدار شهرين أي ذهابا وإياباً، وهذا لا يفعله الله إلا للأنبياء في زمن الأنبياء، ولمَّا عاد رسول الله ﷺ تحدث بذلك في أهله»[1]

وقال ابن ربن الطبري: « فمن آياته التي ظهرت في أيامه عليه السلام وشهد بها القرآن أنه أُسري به في ليلةَ واحدةٍ من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى، وهو قول الله عز وجل:﴿سُبۡحَٰنَ ٱلَّذِيٓ أَسۡرَىٰ بِعَبۡدِهِۦ لَيۡلٗا مِّنَ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ إِلَى ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡأَقۡصَا ٱلَّذِي بَٰرَكۡنَا حَوۡلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنۡ ءَايَٰتِنَآۚ﴾ [الإسراء: ١]، وهي لعمري آية صريحة كافيّةٌ موجودةٌ في القرآن تجمّع عليها أهل الإسلام طرًّا»[2].

(1) - دلائل تثبيت النبوة، للقاضي عبد الجبار، (ص 46)

(2) – الدين والدولة في إثبات نبوة محمد ﷺ، لابن ربن الطبري، (ص: 65).

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

ثانيا: انشقاق القمر:

ومن الآيات الحسيَّة التي نطق بها القرآن، انشقاق القمر لرسول الله ﷺ لما طلب منه قومه ذلك، والقصّةُ مشهورة في السير[1]، وقد ذكرها العلماء في كتب دلائل النبوة، على أنها من الآيات العظام والبراهين الكرام، التي أيَّد بها الله ﷻ رسوله ﷺ، يقول القاضي عبد الجبار: « وبابٌ آخر: وهو ما كان بمكة من انشقاق القمر؛ فإن رسول الله ﷺ مرّ بمكة في ليلة قمراء ومعه نفرٌ من أصحابه، فاجتاز بنفر من المشركين، فقالوا له: يا محمد، إن كنت رسول الله كما تزعم فاسأل ربّك أن يشقَّ هذا القمر، فسأل الله ذلك فشقّه، فقال المشركون: ساحروا بصاحبكم من شئتم، فقد سرى سحره من الأرض إلى السماء، فنزلت القصّة في ذلك، **وهذا من الآيات العظام والبراهين الكرام على صدقه ونبوته** ﷺ»[2].

ورغم أن القرآن الكريم، نطق بهذه القصّة، بل وسمّى سورة من سورها بها – كما هو معلوم– "سورة القمر"، إلا أن هذه الآية، وجدت من يعترض عليها ويتأولها وزعم أن ذلك لم يقع، وإنما سيقع في المستقبل يوم القيامة، كما قال بذلك النَّظام.

إلا أن مقولة النَّظام هذه لم تجد رواجا حتى عند أهل نحلته، فهذا القاضي عبد الجبار المعتزليُّ يتصدى لردّ هذا الزَّعم الذي تبنّاه النَّظام، فيقول: « ومما يزيدك علماً بذلك ويبين لك غلط النظام وجهل كلّ من ذب عن ذلك قوله تبارك وتعالى: ﴿ٱقۡتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلۡقَمَرُ ۝١ وَإِن يَرَوۡاْ ءَايَةٗ يُعۡرِضُواْ وَيَقُولُواْ سِحۡرٞ مُّسۡتَمِرّٞ ۝٢﴾ القمر: ١ – ٢، ، فانظر كيف قال: "ٱقۡتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ"، وأخبر عن أمر قد كان ومضى، ثم قال على نسق الكلام:" وَٱنشَقَّ ٱلۡقَمَرُ"، فجاء بأمر قد كان ومضى، فنسق على الماضي بالماضي، ولو كان على ما ظنّ النّظام لقال: اقتربت الساعة، وانشقاق القمر، أو كان يقول: وسينشق القمر، فلمّا لم يقل ذلك وقال: وَٱنشَقَّ ٱلۡقَمَرُ، علمت أنه أخبر عن شيئين واقعين قد وقعا وكانا وحصلا، ثم قال على نسق الكلام ، وَإِن يَرَوۡاْ ءَايَةٗ يُعۡرِضُواْ وَيَقُولُواْ سِحۡرٞ مُّسۡتَمِرّٞ، فأخبر أنها آية مرئية وحجة ثابتةٌ، ثم قال على نسق الكلام، ﴿وَلَقَدۡ جَآءَهُم مِّنَ ٱلۡأَنۢبَآءِ مَا فِيهِ

---

(1) – القصة أخرجها البيهقي في دلائل النبوة، في جماع أبوا بالمبعث، باب سُؤَالِ الْمُشْرِكِينَ رَسُولَ اللهِ ﷺ بِمَكَّةَ أَنْ يُرِيَهُمْ آيَةً فَأَرَاهُمُ انْشِقَاقَ الْقَمَرِ، (ج2/ ص: 262).

(2) – دلائل تثبيت النبوة، للقاضي عبد الجبار، (ص 55)

مُزۡدَجَرٌ ۝٤ حِكۡمَةُۢ بَٰلِغَةٞۖ فَمَا تُغۡنِ ٱلنُّذُرُ ۝٥﴾ القمر: ٤ – ٥، وهذا لا يقال فيما لم يقع ولم يكن، فتأمل هذا التقريع والتعنيف لتعلم أنه أمرٌ قد كان، ولا يسوغ أن يقال في أمرٍ لم يكن ولم يقع هذا القول.

وأيضاً فإن ما يقع في القيامة وعند قيام الساعة لا يكون حجةً على المكلفين، ولا يعنّفون في ترك النظر والتأمل له، فإن التكليف حينئذ زائلٌ مرتفع»[1].

ثم يزيد القاضي عبد الجبار إيرادا ثانيا أورده النظام، يزعم فيه أنَّ ذلك لو كان آية ومعجزة لرآه كلُّ الناس ولم يخف عليهم ذلك، فأجاب قائلا: « ...فليس هذا بلازم، لأن الناس لم يكونوا من هذا على ميعاد، وإنما هو شيء حدث ليلاً وما كان عندهم خبر بأنه سيحدث، وسيكون في وقت كذا فينظرونه، وإذا كان كذلك فقد بطل ما ظنّه»[2].

ثالثا: حماية الله ﷻ لنبيه ﷺ من كيد أعدائه رغم كثرتهم وعظيم كيدهم، ونصرته عليهم

لقد بعث الله ﷻ نبيَّه ﷺ إلى قومه، ليخبرهم بأنهم وآبائهم على الباطل، وسفه أحلامهم، وعاب آلهتهم، ولا شكَّ أن هذه الأمور، قد استعدت عليه ﷺ قومه، فآذوه بالكلام سبابا وشتما وبالفعال سخرية وأذيةً له ولأتباعه، حتى عزموا أمرهم على قتله، فأنزل الله وعدا بحمايته، وذلك قوله: ﴿۞يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغۡ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَۖ وَإِن لَّمۡ تَفۡعَلۡ فَمَا بَلَّغۡتَ رِسَالَتَهُۥۚ وَٱللَّهُ يَعۡصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِۗ﴾ المائدة: ٦٧، وفي الحديث عن عائشة قالت : « كان النبي ﷺ يُحرس حتى نزلت { وَٱللَّهُ يَعۡصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِۗ} فأخرج رأسه من القبة فقال : أيها الناس ، انصرفوا فقد عصمني الله»[3]. فوقع وعد الله وقد عصم نبيه من أعدائه رغم كثرتهم من المشركين والمنافقين واليهود وغيرهم.

ولذلك عد بعض علماء الدلائل هذا الحفظ من الله ﷻ لنبيه ﷺ معجزة من المعجزات التي أتاه الله ﷻ نبيه، قال القاضي عبد الجبار: « فإنهم –المشركون- زادوا غيظا عليه، وصاروا هم واليهود والنصارى والفرس يداً واحدةً في عداوته، وطلب نفسه، والحرص على قتله، وهم أشد

(1) – المرجع نفسه، (ص 56)

(2) – دلائل تثبيت النبوة، للقاضي عبد الجبار، (ص 56-57)

(3) – أخرجه البيهقي في كتاب السير، باب: مبتدأ الفرض على النبي ﷺ من حديث عائشة رضي الله عنها برقم 18186، وأخرجه الترمذي ، في أبواب تفسير القرآن، باب: ومن سورة المائدة، من حديث عائشة رضي الله عنها أيضاً، برقم: 3046.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

الناس حقداً وأنفة وجبرية، وطلبا بطائله، لا يقرّون من عاب خيولهم وجمالهم، فكيف بمن عاب آلهتهم وآباءهم وعقولهم، وضلل أديانهم، **فعصمه الله منهم وهو رجلٌ فريدٌ بينهم**، وهو في مثوبة الموت، وخندق الخوف، وذلِّ اليُتم، ووحشة الوَحْدَةِ، لا يعتصم منهم بمخلوق، فصرفهم الله عنه وهذه حاله، **فلو لم يكن من آياته ودلائل نبوته** إلا هذه لكفى، وأغنى وزاد على الكفاية»[1].

كما أورد القرطبي في كتابه "إثبات نبوة محمد ﷺ" فصلا قال فيه: « عصمة الله له ممن أراد كيده، وذلك من أبلغ الآيات: صحت الآيات، وثبتت الطُّرق أن رسول الله ﷺ كان يُحرس ممن يريد ضره لكثرة أعدائه، وطلبهم غرته...، فلم يقدر أحدٌ على أن يصيب منه مقتلاً مع حرصهم على ذلك»[2]

ولا يعارض تلك العصمة من الناس ما كان من أذىً يسير ناله ﷺ، قال القاضي عبد الجبار: « قد علمن الحال التي أبداها رسول الله ﷺ حين ادّعى النبوة ودعا إلى الله، فإنه أكفر الأمم كلّها وتبرأ منها وأسقطها وأسخطها وأغضبها، فما اعتصم بمخلوق كما قد تقدّم ذكر ذلك، فكانت العرب اليهود والنصارى وقريش وغيرهم يداً واحدةً في عداوته وطلب عثراته والحرص على قتله، وهو بينهم على وحدته، فيصرفهم الله عن ذلك بوجوهٍ لا هو يعرفها ولا هم، وبوجوهٍ يعرفها ويعرفونها، غير أنهم قد كانوا ينالونه بالشّتم والضرب، ويلقونه بالأرض، ويدُسُونه بأقدامهم، ويلقون الفرْث والتُّراب على رأسه، ثمَّ صار الواحدُ بعد الواحدِ والنّفرُ بعد النّفرِ، يُجيبونه وهذه حاله، فيلقون معه الضَّرب والهوان، ويعذبون ويُجاعون ويُحصرون في الشِّعاب، ومنهم من يقتل ولا يمكنهم المقام معه بمكة، فيهربون بأديانهم ويعبرون البِحار والنبي ﷺ مقيم بمكة معه أبوبكر ونفرٌ يسيرٌ»[3].

والآيات الحسيّة كثيرة جداً أوردها جلُّ العلماء في كتب دلائل النبوة، فذكروا قصة حنين الجذع الذي كان النبي ﷺ يخطب عليه، وما كان من فوران الماء من أصابعه ﷺ في الحضر والسفر، ومن تكليم بعض الحيوانات له ﷺ، وأيضا ربوُّ الطعام بحضرته وسفره لإمساسه بيده

(1) – دلائل تثبيت النبوة، للقاضي عبد الجبار، (ص 7)

(2) – إثبات نبوة النبي ﷺ، للقرطبي، (ص: 175).

(3)– دلائل تثبيت النبوة، للقاضي عبد الجبار، (ص235)، وذكر علي بن ربن الطبري في كتابه الدين والدولة في إثبات نبوة محمد ﷺ، طرفا من أخبار عصمته ﷺ من المشركين في سبب نزول قوله ﷻ: ﴿فَٱصۡدَعۡ بِمَا تُؤۡمَرُ وَأَعۡرِضۡ عَنِ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ۝٩٤ إِنَّا كَفَيۡنَٰكَ ٱلۡمُسۡتَهۡزِءِينَ ۝٩٥﴾ الحجر: ٩٤ – ٩٥، يُنظر، الكتاب (ص: 68-69)

ووضعها عليه، وتسكينه لجبل أحد لما تحرك، وهو عليه ﷺ، وتسبيح الحصى بيده، ومظانها كثيرة جدا لمن يطلبها،

وفي هذا شفاءٌ لمن أراد الله هدايته وإنقاذه، فإن منه ما هو مأخوذٌ وموجودٌ في القرآن نفسه، ومنه ما هو مأخوذ عمّن أخذ المسلمون عنه القرآن وأتُمِنَ على ما أُدِّي إلى الأمّة منه[1].

وأما عن نصرته ﷺ، فيحدث ابن ربن الطبري: « وذلك أنه ﷺ خرج وحيداً فريداً يتيماً عائلاً، كما قال ﷻ: ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَىٰ ۝٦ وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَىٰ ۝٧ وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَىٰ ۝٨﴾ الضحى: ٦ – ٨، فدعا العرب قاطبة والأمم عامة إلى الإيمان بالله ﷻ، والناسُ يرمونه من قوس واحدةٍ، ويزدرون به ويتشاوشون له، فما نهنهه ذلك ولا فله، بل باح بالدين ولم ينكفت مضى قُدُماً لما أمره الله، ولم يلتفت، فلما رآهم ينبذون أمره ويتهمونه ولا يدخلون في دين الله ونعمته طوعاً ادخلهم فيه كرْها، حتى ظهرت الدّعوة ودانت العرب قاطبة، وتتابعت فيهم الآيات والنبوات، واحلولى لهم الدّين وسطع اليقين، فبلغ من حبهم له بعد البِغضة وانقيادهم بعد العداوة ما قد يرون ويسمعون

فمن ادّعى غلبة كانت باسم الله منذ خلق الله الدُّنيا لها من الشرائط...، علمنا علما يقينا أن الغلبة تقوم مقام آيات النبوات لا محالة»[2].

رابعا: في المفاضلة بين ما أوتي الأنبياء عليهم السلام من الآيات وما أوتيه نبينا ﷺ:

ما اقتضته حكمة الله ﷻ أنه فاضل بين أنبياءه ورسله عليهم السلام، قال الله ﷻ: ﴿۞ تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۘ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ اللَّهُ ۖ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ﴾ البقرة: ٢٥٣، قال الألوسي: « والمراد ببعضهم هنا النبي ﷺ كما ينبئ عنه الأخبار بكونه ﷺ منهم فإنه قد خُصَّ بمزايا تقف دونها الأماني حسرى، وامتاز بخواص علمية وعملية لا يستطيع لسان الدهر لها حصرا، ورُقِّيَ أعلام فضل رفعت له على كواهله الأعلام، وطأطأت له رؤوس شرفات الشرف فقبَّلت منه الأقدام فهو المبعوث رحمة للعالمين، والمنعوت بالخلق العظيم بين المرسلين، والمنزل عليه قرآن مجيد، ﴿لَّا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ۝٤٢﴾ فصلت: ٤٢، والمؤيد دينه المؤيد

(1) – الدين والدولة في إثبات نبوة محمد ﷺ، لابن ربن الطبري، (ص: 74-75)
(2) – المرجع السابق، (ص: 107-108)

بالمعجزات المستمرة الباهرة، والفائز بالمقام المحمود والشفاعة العظمى في الآخرة، والإبهام لتفخيم شأنه وللإشعار بأنه العلم الفرد الغني عن التعيين»(1).

وفي الحديث عن عبد الله بن سَلاَم ﷺ قال: قال ﷺ: «أَنَا سَيِّدُ وَلَدِ آدَمَ يَوْمَ القِيَامَةِ وَلاَ فَخْرَ، وَأَوَّلُ مَنْ تَنْشَقُّ عَنْهُ الأَرْضُ وَلاَ فَخْرَ، وَأَوَّلُ شَافِعٍ وَمُشَفَّعٍ، لِوَاءُ الحَمْدِ بِيَدِي يَوْمَ القِيَامَةِ، تَحْتِي آدَمُ فَمَنْ دُونَهُ»(2).

فهذه نصوص القرآن والسنة النبوية شاهدة لهذه القضية، من أنه ﷺ خير الأنبياء، ومن مظاهر الخيرية أنه ﷺ أتاه الله ﷻ من جنس آيات الأنبياء، ما هو مثلها أو أفضل منها، وقد ذكر ذلك العلماء في كتب دلائل النبوة، وهذا أبو نُعيم الأصبهاني، جعل لذلك فصلا كاملا ختم به كتابه في دلائل النبوة.

وقد أورد أبو نعيم الأصبهاني في كتابه " دلائل النبوة" فصلا في الأنبياء في فضائلهم بفضائل نبينا ومقابلة ما أوتوا من الآيات بما أوتي ﷺ، وفيما يأتي ذكر لبعض الشواهد على ذلك بإزاء خيرة الرُّسل من أولي العزم، وغيرهم، وإذا كان أولوا العزم من الرُّسل قد فاقهم النبي ﷺ فضلال، فكيف بمن دونهم من الأنبياء والأولياء والشهداء والصالحين، ومع ذلك، فإنه ﷺ لم يستكبر بذلك الفضل، ولا ترفع به حاشاه ﷺ، بل ما زاده ذلك إلى تواضعا لربه، فهو يقول لأصحابه، لما سمع أحدهم يقول مناديا له : يَا خَيْرَ الْبَرِيَّةِ قَالَ: «ذَلِكَ إِبْرَاهِيمُ»(3)، وهذه مقارنات بين النبي ﷺ، وإخوانه الأنبياء عليهم السلام، عقدها أبو نعيم في كتابه دلائل النبوة:

(1) – روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، شهاب الدين محمود الألوسي، المحقق: علي عبد الباري عطية، الناشر: دار الكتب العلمية – بيروت، الطبعة: الأولى، 1415 هـ، (ج 2/ص: 4)، وفي الآية أقوال، منها أن المراد إبراهيم عليه السلام، وقيل المراد أولوا العزم من الرسل، وهم: نوحٌ، وإبراهيم، وموسى، وعيسى، ومحمد عليهم السلام.

(2) – أخرجه الطبراني في المعجم الكبير، برقم: 14982، في مسند عبد الله بن سلام ﷺ، (ج 14/ص: 351).

(3) – أخرجه الترمذي، في كتاب تفسير القرآن عن رسول الله ﷺ، باب ومن سورة لم يكن، برقم: 3352، وقال: حديث حسنٌ صحيحٌ، (ج 5، ص: 446).

أولا: بينه وبين إبراهيم عليه السلام:

قال أبو نعيم: « فإن قيل: فإن إبراهيم خص بالخلة قلنا: قد اتخذ محمد خليلا وحبيبا ، والحبيب ألطف من الخليل ، فإن قيل: فإن إبراهيم حجب عن نمرود بحجب ثلاثة قلنا: قد كان كذلك وحجب محمد ﷺ عمن أراد قتله بخمسة حجب قال الله تعالى في أمره: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ۝٩﴾ يس: ٩، هذه ثلاثة ثم قال تعالى: ﴿وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ حِجَابًا مَسْتُورًا ۝٤٥﴾ الإسراء: ٤٥، ثم قال تعالى: ﴿فَهِيَ إِلَى الْأَذْقَانِ فَهُمْ مُقْمَحُونَ ۝٨﴾ يس: ٨، فهذه خمسة حجب»[1].

ثانيا: بينه وبين موسى عليه السلام:

أما كليم الله موسى عليه السلام. « فإن قيل: فإنه عليه السلام جعل الله عصاه ثعبانا قلنا: فقد أوتي محمد ﷺ نظيرها وأعجب منها: خوارُ الجِذْع اليابس وحنينُه، وقد تقدم هذا الحديث بطرقه، هذا أبلغ في الأعجوبة، وأيضا إجابة الأشجار واجتماعهن لدعوته بما دعاهن ورجوعهن إلى أمكنتهن بعد أن أمرهن، وهذا مما قد تقدم ذكره بطرقه.

فإن قلت: إن موسى كان في التيه يضرب بعصاه الحجر فينفجر منه اثنتا عشرة عينا قلنا: كان لمحمد ﷺ مثله وأعجب منه فإن نبع الماء من الحجر معهود في المعلوم والمتعارف وأعجب من ذلك نبع الماء من بين اللحم والعظم والدم وكان يفجر من بين أصابعه في مخضب فينبع من بين أصابعه الماء فيشربون ويستقون ماء جاريا عذبا»[2].

ثالثا: بينه وبين صالح عليه السلام:

وأما صاحب الناقة صالحٌ العربيُّ عليه السلام،: «فإن قيل: قد أخرج الله عز وجل لصالح ناقة جعلها له على قومه حجة وآية لها شرب يوم ولقومه شرب يوم معلوم. قلنا: قد أعطى الله عز وجل محمدا ﷺ على قومه حجة مثل ذلك كانت ناقة صالح لم تتكلم ولا ناطقته ولم تشهد له بالنبوة ومحمد ﷺ شهد له البعير الناد شاكيا إليه ما هم به صاحبه من نحره»[3].

---

(1) – دلائل النبوة، لأبي نعيم الأصبهاني، (ج2 / ص: 587).

(2) – المرجع نفسه، (ج2 / ص: 588-589).

(3) – دلائل النبوة، لأبي نعيم الأصبهاني، (ج2 / ص: 592).

جمعية الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

رابعا: بينه وبين سليمان عليه السلام:

وأما سليمان عليه السلام الذي اختَّصه الله بمُلك لا ينبغي لحد من بعده، « فإن قيل: فإن سليمان قد أعطي ملكا لا ينبغي لأحد من بعده. قلنا: إن محمدا ﷺ أعطي مفاتيح خزائن الأرض فأباها وردها اختيارا لتقلل والرضا بالقوت واستصغارا لها بحذافيرها وإيثارا لمرتبته ورفعته عند الله سبحانه وتعالى»[(1)].

خامسا: بينه وبين داود عليه السلام:

وأما دواد بن سليمان عليه السلام، «فإن قيل: فسخر الله عز وجل لداود الجبال والطيور يسبحن معه وألان له الحديد. قلنا: قد أعطي محمد ﷺ مثله من جنسه وزيادة فقد سبح الحصا في يده وفي يد من صدقه رفعة لشأنه وشأن مصدقيه»[(2)].

سادسا: بينه وبين بيوسف عليه السلام:

وأما الكريم بن الكريم بن الكريم، يوسف بن يعقوب بن إبراهيم عليهم السلام، « فإن قيل: فإن يوسف موصوف بالجمال على جميع الأنبياء والمرسلين بل على الخلق أجمعين. قلنا: إن جمال محمد ﷺ الذي وصفه به أصحابه لا غاية وراءه إذ وصفوه بالشمس الطالعة أو كالقمر ليلة البدر وأحسن من القمر ووجهه كأنه مذهبة يستنير كاستنارة القمر، وكان عَرَقه ﷺ له رائحة كالمسك الأذفر»[(3)]

سابعا: بينه وبين يحي عليه السلام:

قال أبو نعيم: « فإن قيل: إن يحيي أوتي الحكم صبيا وكان يبكي من غير ذنب، وكان يواصل الصوم قلنا: قد أعطي محمد أفضل من هذا؛ لأن يحي لم يكن في عصر الأوثان والأصنام والجاهلية ومحمد ﷺ كان في عصر أوثان وجاهلية فأوتي الفهم والحكم صبيا بين عبدة الأوثان وحزب الشيطان فما رغب لهم في صنم قط، ولا شهد معهم عيدا، ولم يسمع منه قط كذب

(1) – المرجع نفسه، (ج2 / ص: 595).
(2) – المرجع نفسه ، (ج2 / ص: 592).
(3) – المرجع نفسه، (ج2 / ص: 606).

جمعية الأمير عبد القادر للطرح الإسلامية

وكانوا يعدونه صدوقا أمينا حليما رؤوفا رحيما وكان يواصل الأسبوع صوما فيقول: إني أظل عند ربي يطعمني ويسقيني وكان ﷺ يبكي حتى يسمع لصدره أزيز كأزيز المرجل من البكاء»[1].

ثامنا: بينه وبين عيسى عليه السلام:

وأما المسيح عيسى ابن مريم عليه السلام، فيُقال: « كل فضيلة أوتي عيسى عليه السلام فقد أوتيها نبينا ﷺ ، وإنها لم ينكرها المتدبر مع ما أطلعه الله عليه خصوصا من الغيوب التي لم يطلع عليها غيره ومن الفتن الكائنات التي لم يخبر بها سواه من المرسلين. فإن قيل: إن عيسى خص بأن أرسل الروح الأمين إلى أمه فتمثل لها بشرا سويا وقال: ﴿قَالَ إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَٰمًا زَكِيًّا ١٩﴾ مريم: ١٩، إلى آخر الآيات ، وأشارت إليه فنطق في المهد: ﴿قَالَ إِنِّي عَبۡدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِيَ ٱلۡكِتَٰبَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا ٣٠﴾ مريم: ٣٠، فكان آية للعالمين ومثلا في الآخرين ولم يذكر لأحد من الأنبياء شيء مثله. فالقول في ذلك أن رسول الله ﷺ أعطي ضروبا من هذه الآيات وأمثالها الدالة على مولده وبشرت به آمنة وما ظهر لها من الآيات عند وضعها»[2].

وهذا الإيراد كله من أبي نُعيمٍ الأصفهاني، إنما غايته أن يُعلم مقام النبي ﷺ بالنسبة إلى إخوانه الأنبياء عليهم السلام، فإنه اختص من بينهم بكلِّ خصيصة، ولذلك كان ﷺ سيدَ ولد آدمَ، وأولَ منِ تنشقُّ عنه الأرض، وبيده لواءُ الحمد، آدمُ فمن دونه تحت لوائي[3].

(1) – دلائل النبوة، لأبي نعيم الأصبهاني، (ج2 / ص: 607-608).
(2) – المرجع نفسه، (ج2 / ص: 608-609).
(3) – كما في الحديث الذي أخرجه الإمام أحمد في مسنده، برقم 2692، من حديث ابن عباس رضي الله عنه، (ج 3/ص: 203).

جمعية الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

المبحث الثالث: تقويم[1] علم إعجاز القرآن الكريم من خلال كتب دلائل النبوة

من خلال المبحث السابق ظهر لنا مدى اهتمام كتب دلائل النبوة بالقرآن الكريم، كونه آية ومعجزة من المعجزات التي أيد الله ﷻ بها نبيَّه ﷺ، بل هي أعظم معجزةٍ أنزلها الله وأيدَّ بها نبيا، وهذا المبحث عقد لتقييم إضافات كتب دلائل النبوة التي ظهر من خلالها العناية بالقرآن الكريم عموما، وبإعجاز القرآن خصوصا، ثم الإضافات في سائر العلوم الأخرى، وذلك من خلال المطالب الآتية:

المطلب الأول: تقويم كتب دلائل النبوة من حيث العناية بالقرآن الكريم.

المطلب الثاني: تقويم كتب دلائل النبوة من حيث العناية بإعجاز القرآن

المطلب الثالث: تقويم كتب دلائل النبوة من حيث المشاركة في باقي العلوم.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

(1) – التقويم هنا أولى من التقييم، فقد جاء في معاجم اللغة: قوّمتُ المتاع؛ جعلتُ له قيمةً معلومة، وقوَّم السبعة تقويما: أي قدَّرها، ولفظة التقييم أقرَّ المجمع اللغوي بالقاهرة استعمالها لتثمين الشيء، وإعطائه قيمة معيّنة، والتقويم: لإصلاح الاعوجاج، وهو اصطلاحٌ حادثٌ، ينظر في ذلك: مصادر السيرة النبوية وتقويمها، للدكتور: فاروق حمادة، (ص: 9).

المطلب الأول: تقويم كتب دلائل النبوة من حيث العناية بالقرآن الكريم.

من أبرز مواضيع كتب دلائل النبوة، ما يتعلق بالقرآن الكريم، فقد أوتي من قِبَلِها عنايةً فائقة، لأجل منزلته السامقة من المعجزات التي أوتيها النبي ﷺ، ولذلك نجد فيها الاهتمام بالقرآن الكريم من جهات مختلفة، منها:

الفرع الأول: الدفاع عن نقلة القرآن الكريم (الصحابة رضي الله عنهم)

الصحابة رضي الله عنهم قومٌ لا نملك أن نقول فيهم إلا ما قاله ابن مسعود رضي الله عنه، لما قال: « فَإِنَّهُمْ كَانُوا أَبَرَّ هَذِهِ الْأُمَّةِ قُلُوبًا وَأَعْمَقَهَا عِلْمًا وَأَقَلَّهَا تَكَلُّفًا وَأَقْوَمَهَا هَدْيًا وَأَحْسَنَهَا حَالًا، قَوْمًا اخْتَارَهُمُ اللَّهُ تَعَالَى لِصُحْبَةِ نَبِيِّهِ ﷺ، فَاعْرِفُوا لَهُمْ فَضْلَهُمْ وَاتَّبِعُوهُمْ فِي آثَارِهِمْ؛ فَإِنَّهُمْ كَانُوا عَلَى الْهُدَى الْمُسْتَقِيمِ»[1]، وهم كما قال الإمام أبو بكر البيهقي رحمه الله: « الصَّحَابَةِ النُّجَبَاءِ الَّذِينَ اخْتَارَهُمُ اللَّهُ تَعَالَى لَهُ وُزَرَاءَ وَأَصْفِيَاءَ، وَخُلَفَاءَ، وَجَعَلَهُمُ السُّفَرَاءَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُ ﷺ»[2]، فهم بحقٍّ سفرة رسول الله ﷺ في بلاغ رسالته، وهم حملة دينه والطعن فيهم، يؤول إلى الطعن في الدين كلّه.

ولما علم العلماء خطورة الطَّعن على الصحابة، وعرفوا أن التساهل في هذا الأمر قد يؤول إلى عدم الثقة بالقرآن، ولا بالدين، كله، سارعوا إلى حماية جناب الصحابة رضي الله عنهم، ومن وراء ذلك حماية القرآن الكريم، وردّ كيد الكائدين، من أهل الرِّيَب والزندقة.

فهذا الجاحظ في جملة من كتبه، يعتني بالدفاع عن الصحابة رضي الله عنهم، والتي منها كتابه "حجج النبوّة"، فيقول: « وإن كان الأول أحق بالتقديم والآخر أحق بالتأخير للذي قدموا من الاحتمال وأعطوا من المجهود ولأنهم أصْلُ هذا الأمر ونحن فرعه والأصل أحق بالقوة من الفرع،

(1) – أورده ابن عبد البر في جامع بيان العلم وفضله، بَابُ مَا تُكْرَهُ فِيهِ الْمُنَاظَرَةُ وَالْجِدَالُ وَالْمِرَاءُ، برقم: 1807، جامع بيان العلم وفضله، أبو عمر يوسف بن عبد الله بن محمد بن عبد البر، تحقيق: أبي الأشبال الزهيري، الناشر: دار ابن الجوزي، المملكة العربية السعودية، الطبعة: الأولى، 1414 هـ - 1994 م، (ج2/ ص: 946)، وأخرجه الأجري عن الحسن البصري، في كتاب الشريعة، بَابُ ذِكْرِ فَضْلِ جَمِيعِ الصَّحَابَةِ رضي الله عنهم، برقم: 1161، الشريعة، أبو بكر محمد بن الحسين بن عبد الله الآجُرِّيُّ، المحقق: الدكتور عبد الله بن عمر بن سليمان الدميجي، الناشر: دار الوطن - الرياض / السعودية، الطبعة: الثانية، 1420 هـ - 1999 م، (ج4/ ص: 1685).

(2) – الأسماء والصفات، لأبي بكر البيهقي، (ج2 /ص: 383).

وهم السابقون ونحن التابعون وهم الذين وطَّئوا لنا وكلفونا ما لم نكن لنكلفه أنفسنا، فتجرعوا دوننا المرار ومنحونا روح الكفاية، ولأن الله ﷻ اختارهم لصحبة نبيه ﷺولأن القرآن نطق بفضيلتهم»(1).

وهذا صنوه من المعتزلة القاضي عبد الجبار المعتزلي، نجده بدوره يولي عناية كبيرة بهذا الأمر في كتابه "دلائل تثبيت النبوّة"، فيقول: « ...لِتعلم أنه لا يطعن على المهاجرين والأنصار إلا من يطعن على الأنبياء صلوات الله عليهم، وإنما تستّر هؤلاء المُلحدة والزنادقة بالتشيع والإمامة ليستوي لهم الطعن على الأنبياء وتشكيك المسلمين في دينهم فاعلم ذلك»(2).

وأما الزيدي، وهو من علماء الشيعة الزيدية، فيقول بعدما ذكر جملة من فضائل الأصحاب ﷺ: « فتأمل رحمك الله ما ذكرت من أحوالهم، وكيف بلغوا ما بلغوه في هذا الأمد القصير، لتعلم أن ذلك كان بتوفيق من الله؛ نبّه به على نبيّه المختار، في صدق ما ادعاه، بل لا يبعدُ أن يُقال: أن ذلك آية بيّنة ودلالة محقّقة»(3).

وكذلك نجد ابن ربن الطبري يعقد بابا كاملا في كتابه، يقول فيه: « بابٌ في أن الداعين إلى دينه والشاهدين بحقيقة أمره كانوا خيار الناس وأبرارهم، ثم قال: وقد ظنَّ قومٌ بحوارِيِّي النبي ﷺ الزور والزيغ، وقالوا فيهم فأثموا وحادوا عن سبيلهم فضلُّوا، وأنا ذاكرٌ من فضائلهم وزهدهم وتورعهم ما يدعو إلى حسن الظن بهم، ويُكِفُّ عن تنقُّصهم»(4)، ثم سرد فضائلهم بدْءًا بأبي الصديق ﷺ مُقدَّم القوم ورأسهُم، ثم ثنّى بعمر بن الخطاب، وثلث بعلي ﷺ!

كان هذا منهم على جهة عموم أصحاب الرسول ﷺ، ثم لم يكتفوا بذلك **حتى دافعوا عن أفرادهم، وبخاصة منهم من ساهم في تدوين القرآن الكريم**، وجمعه كالخلفاء الثلاثة؛ أبو بكر الصديق وعمر بن الخطاب، عثمان بن عفان ﷺ، يقول القاضي عبد الجبار المعتزلي في الدفاع عنهم، عند الحديث عن تفسير سورة الكوثر،: « فيريد ﷻ ﴿ إِنَّآ أَعۡطَيۡنَٰكَ ۝١ ﴾ الكوثر:1 ، الكثير من التأييد والنصرة والحجة والعزّة الثواب والأجر.

(1) – رسائل الجاحظ، رسالة: حجج النبوة ، للجاحظ، (ج3 / ص: 227).
(2) – دلائل تثبيت النبوة، للقاضي عبد الجبار، (ص 52)
(3) – إثبات نبوة النبي ﷺ، للزيدي، (ص177).
(4) – الدين والدولة في إثبات نبوة محمد ﷺ، لابن ربن الطبري، (ص: 114).

وفيه دلالة على بطلان قول من قال: إن أبا بكر وعمر وعثمان، وتلك الجماعات من المهاجرين والأنصار كانوا أعداء رسول الله ﷺ وشانئيه، وأنهم قصدوا تغيير القرآن وتبديل دين رسول الله ﷺ، وإماتة نصوصه، ودفع وصيته وخليفته، ففعلوا ذلك وقهروا وغلبوا وكانت الغلبة لهم، وخليفة رسول الله ﷺ ووصيته ما تمكن إلى أن خرج من الدنيا.

قلنا: فلو كان الأمر كما قلتم لكان هذا قد كذب وكان يكون: إن شانئك هو الأقهر والأغلب والظهر، وأنت الأبتر، فلو أنصفوا وتدبروا القرآن لما قالوا في المهاجرين والأنصار هذا القول»[1].

كما خصوا عثمان وزيد بن ثابت وعبد الله ابن مسعود بالدفاع عنهم، لأن غالب ما قام من شبهات في التشكيك في القرآن الكريم، كان مداره على هؤلاء الثلاثة:

فأما عثمان بن عفان رضي الله عنه، فلأنه هو الذي تولى مسألة جمع القرآن الكريم وحاز شرف ذلك، وله في ذلك سياسة بالغة، أراد بعض الزنادقة الإغضاء منها.

وأما زيد بن ثابت رضي الله عنه، فهو الذي انتخبه عثمان وولاّه مسألة جمع القرآن وكتابته، وأما ابن مسعود رضي الله عنه، فلأنه أُخرج من اللجنة التي اختارها عثمان لجمع المصحف وكتابته، وربما خالف أيضا في بعض قضايا القرآن.

ففي الدفاع عن عثمان رضي الله عنه، يقول الجاحظ: « ولو لم يكن ذلك رأيَّ عليٍّ لغيَّره، ولو لم يمكنه التغيير لقال فيه، ولو لم يمكنه في زمن عثمان لأمكنه في زمن نفسه وكان لا أقل من إظهار الحجة إن لم يملك تحويل الأمة وكان لا أقل من التجربة إن لم يكن من النجح على ثقة، بل لم يكن لعثمان في ذلك ما لم يكن لجميع الصحابة وأهل القدم والقدوة.

ومع أن الوجه فيما صنعوا واضح بل لا نجد لما صنعوا وجهاً غير الإصابة والاحتياط والإشفاق والنظر للعواقب وحسم طعن الطاعن، ولو لم يكن ما صنعوا لله تعالى فيه رضاً لما اجتمع عليه أول هذه الأمة وآخرها.، وإن أمراً اجتمعت عليه المعتزلة والشيعة والخوارج والمرجئة لظاهر الصواب واضح البرهان على اختلاف أهوائهم وبغيتهم لكل ما ورد عليهم»[2].

---

(1)- دلائل تثبيت النبوة، للقاضي عبد الجبار، (ص 39-40)

(2) – رسائل الجاحظ، رسالة حجج النبوة، للجاحظ (ج3/ص: 233).

ومما شبهوا به عليه على عثمان رضي الله عنه أنه منع الناس من الأحرف الأخرى التي نزل بها القرآن، وليس كذلك من جهتين:

الأولى: أن الرسم العثماني يحتمل الأحرف السبعة التي نزل بها القرآن الكريم

والثانية: وهي التي ارتضاها الأئمة والعلماء بعد عثمان رضي الله عنه: «فكانوا لا يزالون قد رأوا الرجل يروي الحرف الشاذ ويقرأ بالحرف الذي لا يعرفونه فرأوا أن تحصينه لا يتم إلا بحمل الناس على المقروء عندهم المشهور فيما بينهم، وأنهم إن لم يشدِّدوا في ذلك لم ينقطع الطمع ولم ينزجر الطير»(1).

وفي الدفاع عن زيد بن ثابت رضي الله عنه يقول الجاحظ: « ولو كان زيد من آل أبي العاص أو من عرض بني أمية لوجد ابن مسعود متعلقاً، ولو كان بدل زيد عبد الرحمن بن عوف لوجد إلى القول سبيلاً، ولو كان ابن مسعود رجلاً من بني هاشم لوجد للطعن موضعاً، ولو كان عثمان رضي الله عنه استبدَّ بذلك الرأي على علي بن أبي طالب كرم الله وجهه وسعد وطلحة والزبير رحمهم الله وجميع المهاجرين والأنصار لوجد للتهمة مساغاً؛ فأمَّا والأمر كما وصفنا ونزلنا فما الطاعن على عثمان إلا رجل أخطأ خطة الحق وعجل والذي يخطِّئُ عثمان في ذلك فقد خطأ علياً وعبد الرحمن وسعداً والزبير وطلحة وعِلْية الصحابة رضي الله عنهم»(2).

« ورأوا أن قراءة زيدٍ أحقَّ بذلك إذ كانت آخر العرض ولأن الجمع الذين سمعوا آخر العرض أكثر ممن سمع أوله فحملوا الناس على قراءة زيد دون أبيّ وعبد الله رضي الله عنهما وإن كان الكلُّ حقاً إذْ كان رُبَّ حقٍّ في بعض الزمان أقطع للقيل والقال، وأجدر أن يميت الخلاف ويحسم الطمع، فتركوا حقاً إلى حق العمل به أحق»(3).

وأمَّا في الدِّفاع عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه، يقول الجاحظ ردا على الروافض لما حاموا عن قراءة ابن مسعود لغرض غير صحيح: « ولأيِّ شيءٍ حامت عن قراءة ابن مسعود، فوالله ما

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

---

(1) – المرجع السابق، (ج3/ص: 229).
(2) – المرجع نفسه، (ج3 / ص: 232-233).
(3) – المرجع نفسه، (ج3/ص: 229).

كان أحدٌ أفرطَ في العُمرية منه ولا أشدَّعلى الشيعة منه، ولقد بلغ من حبه لعمر ﷺ أن قال: لقد خشيت الله تعالى في حبي لعمر، فلم يحامون عنه وهو كان شجاعهم لو أدركهم»[1].

الفرع الثاني: الدفاع عن القرآن الكريم

حاول بعض الزنادقة والرفض الطعن على القرآن الكريم، وتوجيه التهمة إليه بالزيادة تارة، أو بالنقص تارة أخرى، وكان للعلماء في كتب دلائل النبوة عناية بذلك، ودفاعٌ عن القرآن الذي تولى الله ﷻ حفظه ورعايته، كما في قوله: ﴿إِنَّا نَحۡنُ نَزَّلۡنَا ٱلذِّكۡرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ٩﴾ الحجر: ٩، وههنا نذكر جملة من جهود علماء دلائل النبوة في الدفاع عن القرآن الكريم:

أولا: الدفاع عن القرآن الكريم وتنزيهه عن الزيادة والنقصان

ومن النماذج على **الدفاع عن القرآن الكريم، وتنزيهه عن الزيادة والنقصان**، ما جاء عن الزيدي: « فإن قيل: دلُّوا على أن هذه الآيات هي من القرآن الذي تلاه النبي ﷺ على النَّاس وأنها ليست زيادة فيه.

...لا إشكال أن هذه الآيات كانت كلها في المصاحف التي كُتِبت أيَّام عثمان ﷺ، وتلك المصاحف كُتبت بمشهدِ أقوامٍ لا يجوز التواطؤ عليهم لكثرتهم، وفيهم الحفّاظ، منهم من كان يعرف الفرق بين ما هو من القرآن، وما ليس من القرآن، بل كان أكثرهم – والله أعلم- بهذه الصِّفة، كما أن عامة المسلمين اليوم وإن لم يكونوا حفاظا، يفصِّلون بين ما هو من القرآن وما ليس من القرآن، فلم يُنقل عن أحدٍ أنه تكلم في ذلك، وأنكر معرفتهم، كما نُقل ما كان من ابن مسعود ﷺ في "المعوذتين"، وفي أبيٍّ من سورة "القنوت"، ومن عمر ﷺ فيما ذكره من "الرحمن"، ومن عائشة ﷺ فيما من "الرضاع"، وغير ذلك مما جرى مجراه، فلولا أن هذه الآيات بان كونها من جملة القرآن ظاهراً مكشوفاً لجرى فيها التضاد، وعرض فيها النزاع»[2].

وأما الجاحظ، فله في هذا جهودٌ أيضا كثيرٌ منها في رسالته "حجج النبوّة"، يقول فيها:

قال الجاحظ: « وكيف تقصر الحجة عن بلوغ الغاية وتنقصُ عن التمام، والله تعالى: المتوكِّلُ بها، ومسخر أصناف البريّة ومهيِّج النُّفوس على إبلاغها، وقد أخبر بذلك عن نفسه في محكم كتابه

(1) – رسائل الجاحظ، رسالة حجج النبوة، للجاحظ ، (ج3 / ص: 234)

(2) – إثبات نبوة النبي ﷺ، للزيدي، (ص25-26)

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

عزّ ذكره، حين قال: ﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَرۡسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلۡهُدَىٰ وَدِينِ ٱلۡحَقِّ لِيُظۡهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡمُشۡرِكُونَ ٩﴾ الصف: ٩، وأدنى منازل الإظهار إظهار الحجّة على من ضارّه وخالف عليه، وقال عزّ ذكره: ﴿يُرِيدُونَ أَن يُطۡفِـُٔواْ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفۡوَٰهِهِمۡ وَيَأۡبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡكَٰفِرُونَ ٣٢﴾ التوبة: ٣٢ »[1].

ويقول متحدثا عن ظهر من مظاهر حفظ الله ﷻ لكتابه، بتهييج النفوس على الحفظ، ليبقى كلام الله ﷻ حجته على خلقه إلى أن يشاء الله: « فإذا كان شأن الناس الإخبار عن كل عجيب وحكاية كل عظيم والإطراف بكل طريف وإيراد كل غريب من أمور دنياهم، فما لا يمتنع في طبائعهم ولا يخرج من قوى الخليقة في البطش والحيلة أحق بالإخبار والإذاعة وبالإظهار والإفاضة هذا على أن يترك الطباع وما يولد عليه والنفوس وما تنتج والعلل وما يسخر، فكيف إن كان الله ﷻ قد خص أعلام أنبيائه وآيات رسله عليهم السلام من تهييج الناس على الإخبار عنها، ومن تسخير الأسماع لحفظها، بخاصَّةٍ لم يجعلها لغيرها»[2].

ومن ذلك أيضا ما جاء في قصة الغرانيق[3]: فقد أورد الماوردي ما شبه به بعضهم بإيراد قصة الغرانيق، وزعم أن القرآن يقبل الزيادة، فقال: « فإن قيل: فقد زيد فيه فالتبس واشتبه وهو أن النبي ﷺ لما نزلت عليه سورة النجم بمكة قرأها في المسجد الحرام حتى بلغ إلى قوله تعالى: ﴿أَفَرَءَيۡتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلۡعُزَّىٰ ١٩ وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلۡأُخۡرَىٰٓ ٢٠﴾ النجم: ١٩ – ٢٠، ألقى الشيطان على لسانه: (

---

(1) – رسائل الجاحظ، رسالة حجج النبوة، جمع عبد السلام هارون، (ج3/ص: 225)

(2) – المرجع نفسه، (ج3/ص: 259).

(3) – موجزٌ عن قصة الغرانيق: أن النبي ﷺ، قرأ بمكة "والنجم" فلما بلغ قوله ﷻ: ﴿أَفَرَءَيۡتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلۡعُزَّىٰ ١٩ وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلۡأُخۡرَىٰٓ ٢٠﴾ النجم: ١٩ – ٢٠، ألقى الشيطان على لسانه: تلك الغرانيق العلى وإن شفاعتهن لترجى، فقال المشركون: ما ذكر آلهتنا بخير قبل اليوم، فسجد النبي ﷺ، ومن معه من المسلمين، وسجد معهم المشركون، فكان هذا سبب نزول قول الله تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٖ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلۡقَى ٱلشَّيۡطَٰنُ فِيٓ أُمۡنِيَّتِهِۦ﴾ الحج: ٥٢، والقصة للعلماء فيها آراء مختلفة بين رادٍ لها وقابل، ينظر في ذلك، فتح الباري شرح صحيح البخاري، أحمد بن علي بن حجر، عناية: محمد فؤاد عبد الباقي قام بإخراجه وصححه وأشرف على طبعه: محب الدين الخطيب، دار المعرفة - بيروت، عام: 1379هـ ، (ج8/ص: 439)، أحكام القرآن، المؤلف: القاضي محمد بن عبد الله أبو بكر بن العربي، تحقيق: محمد عبد القادر عطا، الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان، الطبعة: الثالثة، 1424 هـ - 2003 م، (ج3/ص: 303 وما بعدها)، الجامع لأحكام القرآن، محمد بن أحمد، القرطبي، تحقيق: أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش، الناشر: دار الكتب المصرية – القاهرة.، (ج12/ص: 81).

جمعية الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

تلك الغرانيق العلى، وإنَّ شفاعتهن لترتجى)، ثم تمم السورة وسجد فسجد معه المسلمون وفرح المشركون فسجدوا معه، ورضيت كفار قريش به وسمع به من هاجر إلى أرض الحبشة فعادوا إلى أن أنكر عليه جبريل، فشقَّ عليه ونزل فيه قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٖ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلۡقَى ٱلشَّيۡطَٰنُ فِيٓ أُمۡنِيَّتِهِۦ فَيَنسَخُ ٱللَّهُ مَا يُلۡقِي ٱلشَّيۡطَٰنُ ثُمَّ يُحۡكِمُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ ۝٥٢﴾ الحج: ٥٢، قالوا: ومعلوم أن هذه الزيادة هي في مثل أسلوب السورة وليست من الله تعالى وقد اشتبهت فلم لا كان ما سواها بمثابتها؟

فعنه جوابان: **أحدهما**: أن هذه زيادة لا تبلغ قدر التحدي فخرجت عن حكمه، **والثاني**: أنه أنزل فيها التي عندهم أيها الغرانيق العلى وأن شفاعتهن لترتجى، فاشتبه على قريش وحذفوا منه قوله التي عندهم فنسخ الله ﷻ لهذا الاشتباه تلاوة هذه الزيادة».

بل من مظاهر إعجاز القرآن إعجازه من جهة الزيادة فيه أو النقصان منه، ممتازة وتغيير ألفاظه منه مفتضحة حتى عند غير العالم به، بل حتى وِلدان الكتاتيب لا تخفى عليهم، ولو كان في القدرة أن يُزاد فيه ويُنقص، لالتبس ولو أمكن لاشتبه، ولما لم يقع ذلك كله، دلَّ على أنه وجهٌ من أوجه إعجاز القرآن الكريم.

ثانيا: الاشتباه الذي وقع للصحابة رضي الله عنهم في أسلوب القرآن الكريم

ومن جهود العلماء في الدفاع عن القرآن، ردّ الشبهات التي أقامها المشككون حول القرآن الكريم، ومنها ما أورده الماوردي في كتابه في قوله: «فإن قيل لو كان لنظم القرآن أسلوب معجز لما طلب عمر بن الخطاب رضي الله عنه عند جمع القرآن من يأتيه بالآية والآيتين شهودا أنه سمعه من رسول الله ﷺ ولا اكتفى بأسلوب نظمه عن بينة تشهد به، ولكان لا يشتبه على ابن مسعود في المعوّذتين حين أخرجهما من القرآن ولا على أبيّ بن كعب في القنوت حين أدخله في القرآن ولا على امرأة ابن رواحة في شعره حتى توهمته من القرآن، ثم أورد على هذه الشُّبهة جوابين:

أحدهما: أن عمر التمس الشهادة في الآية والآيتين مما لا يكون بانفراده معجزا لأن الإعجاز مختص بما وقع به التحدي وأقل ما يقع به التحدي كأقصر سورة في القرآن آيات وحروفا وهي سورة الكوثر، وما قصر عنه لا إعجاز فيه فكان طلبه للشهادة متوجها إليه.

والثاني: أنه طلب الشهادة على محلها من أي سورة هي وفي أي موضع منها وإن كان معلوم الأسلوب بالمباينة، لأن الله تعالى كان يأمر بوضع ما أنزله فيما يراه من السور لقوله تعالى: ﴿إِنَّ عَلَيۡنَا جَمۡعَهُۥ وَقُرۡءَانَهُۥ ١٧﴾ القيامة: ١٧.

فأما ابن مسعود ﷺ فلم يشكل عليه أسلوب المعوذتين أنهما من القرآن وإنما حكمهما[1] من مصحفه لأنه ظن أن تلاوتهما قد نسخت.

وأما أبيّ بن كعب فظن أن تلاوة القنوت باقية ولم يعلم أنها قد نسخت.

وأما امرأة ابن رواحة فلم تكن من ذوي الفصاحة والبلاغة فتفرّق بين الشعر وأسلوب القرآن فلم يكن لوهمها تأثير»[2].

ثالثا: شبهة غيب القرآن وغيب المنجم

تكلم الزيدي عن هذه الشبهة، فصاغها قائلاً: « فإن قيل: ولم ادَّعيتَ أن الأخبار عن الغيوب يتضمن الإعجاز الذي إذا أتى به إنسانٌ وادّعى النُّبوة تبتت نبوته؟ وما أنكرتم أن يصحَّ ذلك من المنجم الذي يخبر عن الشيء فيتفق أن يكون مخبره على ما أخبر به؟

ثم جاء بجواب الشُّبهة، فقال: قيل له: لأن الخبر عن الغيب على وجه يكون صدقاً على جهة الاستمرار لا يصحُّ إلا من العالم به، لأن ذلك لو صحّ من غير العالم، لم يكن الاستدلال بالفعل المحكم المتقن، على أن فاعله عالمٌ، لأن من جوّز ذلك يلزمه أن تكون الأفعال الكثيرة المنتظمة المتسقة تقع من البخت الذي ليس بعالم به»[3]، وقال : « وقد علمنا أن لا طريق يمكن للإنسان أن يكتسب به العلم بالغيوب، لأن العلوم تكتسب بالنظر في الأدلة، ولا أدلّة على الغيوب، فلم يبق إلا أن من علم الغيوب يعلمه بعلم يضطره الله إليه، أو بخبر يأتيه من قبله ﷻ، وأيهما كان معجزاً، لأنه كتعذر على جميع الخلق الإتيان به إلاَّ من خصّه الله ﷻ به، كفلق البحر، وقلب العصا حيّة، وإحياء الموتى، وإبراء الأكمه والأبرص.

ثم أضاف في البيان إظهار الفرقان بين النبي والكاهن، فقال: « فإن سألوا عن الفرق بينه ﷺ وبين الكاهن، والذي ينظر في الكفِّ.

([1]) – هكذا في الأصل، ولعلّ الأصوب: حذفهما، أو حكّهما، والله أعلم.

([2]) – أعلام النبوة، للماوردي، (ص: 77-78)

(3) – إثبات نبوة النبي ﷺ، للزيدي، (ص: 133).

فالجواب عنه: أن الكهان لا يمكنهم الخبر عن تفاصيل الأمور على الاستمرار على وجه يكون صدقاً، وهذا معروف من أحوالهم، لأنهم يقولون بأمور تعرض لهم، وبأمارات تظهر لهم، وإن أصاب الواحد منهم ففي شيء على سبيل الاتفاق، ويخطئون في أشياء يظهر فيها كذبهم.

وكذلك من ينظر في الكف، إنما يخبر عن جُمل الأحوال، ولهم كلامٌ في ذكر الإمارات الدالة على الأمور، والأوراق المصنفة لهم في ذلك يذكرون حال العظم، وما يظهر فيه من النقط والتخطيط، ومواضع ذلك من العظم الذي هو الكفّ وليس يمكنهم الخبر عن تفاصيل الأمور، وأكثر ما يحكى من ذلك حكاياتٌ يغلب على الظنّ أنّها كذبٌ، وإن صحّ شيء من ذلك فعلى سبيل الاتفاق»[1].

ويقول الجاحظ مضيفا في هذا الصدد: « فإن قالوا: وما عِلْمُنا أن محمداً ﷺ لم يكن منجماً؟

قلنا: إن علمنا بذلك كعلمنا بأن العباس وحمزة وعلياً وأبا بكر وعمر رضي الله عنهم أجمعين لم يكونوا منجمين ولا أطباء متكهنين، وكيف يجوز أن يصير إنسان عالماً بالنجوم من غير أن يختلف إلى المنجمين أو يختلفوا إليه، أو يكون علم النجوم فاشياً في أهل بلاده أو يكون في أهله واحد معروف به؟ ولو بلغ إنسان في علم النجوم وليست معه علة من هذه العلل وكان ومتى رأينا حاذقاً بالكلام أو بالطب أو بالحساب أو بالغناء أو بالنجوم أو بالعروض خفي على الناس موضعه وسببه! وجميع ما ذكرنا فعناية الناس به وعداوتهم وشهرته في نفسه دون محمد ﷺ»[2].

كما نجد الماوردي يجيب عن شبهة أن الإخبار بالغيب حدسٌ وفراسة، وبالتالي فلا امتياز للقرآن الكريم في ذلك كما ادعاه من ادعاه له من العلماء، قال الماوردي: «فإن قيل: فقد يكون ذلك حدسا بشواهد الأفعال وفراسة بفضل الألمعية وقوة الفطنة.

ثم ذكر له جوابين:

أحدهما: أن الحدس والفراسة وإن أصاب بهما تارة فقد يخطئ بهما أخرى وهذا إصابةٌ في الجميع، فخرجت عن الحدث والفراسة إلى علم من لا تخفى عليه الغيوب.

---

(1) – المرجع السابق، (ص:134- 136)، بتصرف.

(2) – رسائل الجاحظ، رسالة حجج النبوة، للجاحظ (ج3/ص: 263- 264).

والثاني: أن الحدس والفراسة توهم غير مقطوع بهما قبل الوجود وهذه أخبار بأنه مقطوع بها قبل الوجود فافترقوا»(1).

وقضية حفظ القرآن الكريم، هي من أظهر القضايا، **بل ربما يصلح عدُّها وجها من وجوه إعجاز القرآن الكريم**، فإن الله يسر أمرها على مر العصور، وعبر الدُّهور إلى يومنا هذا وإلى أن يشاء الله أمراً كان مفعولا، قال الله ﷻ: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿١٧﴾﴾ القمر: ١٧.

« وقد مرت بالقرآن أحداث عظيمة وأهوال جسيمة وعوامل خطيرة وتكالب عليه الأعداء وتداعت عليه الأمم ولو مرَّ بعض ذلك على غير القرآن لأصابه ما أصاب الكتب السابقة من التحريف والتغيير والتبديل.

أما القرآن فقد مر بهذه الأحوال المتماوجة والدواعي المتكالبة، ولم تنل منه بغيتها بل وصل إلينا كما أنزله الله لم يتبدل ولم يتغير ما طالته الأفواه النافخة، ولا نالته الأصوات اللاغية. ليتم الله نوره ولو كره الكافرون، وقد كانت هذه الآية بالنسبة للصحابة – رضي الله عنهم خبرا– ولكنها الآن خبر ومعجزة، معجزة أن مر خمسة عشر قرنًا ولم يقع ما يخالفها، وخبر بأن الحفظ مستمر إلى يوم القيامة»(2).

رابعاً: شبهة أن القرآن ليس كله على وجه الإيجاز

لما أورد الماوردي، في وجوه إعجاز القرآن، أنه معجزٌ وأنه منزهٌ عن هذا الإكثار، وأنه يستوفي معانيه في قليل الكلام، حدَّثَ عن شبهة يتكلم بها من يزعم أنَّ القرآن: « ليس جميعه وجيزا مختصرا وفيه المبسوط والمكرر بعضه أفصح من بعض ولو كان من عند الله لتماثل ولم يتفاضل لأن التفاصيل في كلام من يكل خاطره وتضعف قريحته»،

قال: « فعنه جوابان: **أحدهما**: أن اختلافه في البسط والإيجاز ليس للعجز عن تماثله ولكن لاختلاف الناس في تصوره وفهمه وتفاضله في الفصاحة بحسب تفاضل معانيه لا للعجز عن تساويه، **والثاني**: أنه خالف بين معانيه ومختصره وبين أفصحه وأسهله ليكون العجز عن

(1) – أعلام النبوة، للماوردي، (ص: 81).

(2) – دراسات في علوم القرآن، فهد الرومي، (ص: 65).

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

أسهله وأبسطه أبلغ في الإعجاز من العجز عن أفصحه وأخصره ولذلك فاضل بين خلقه ليعرف به فرق ما بين الفاضل والمفضول.

ثم استطرد في الجواب عما قيل في التكرار الذي وقع في القرآن الكريم، **فقال**: « **فأما تكرار** قصصه وتكرار وعده ووعيده فلأسباب مستفادة منها أنها في التكرار أوكد وفي المبالغة أزيد، ومنها أنها تتغاير ألفاظها فتكون إلى القبول أسرع وفي الإعجاز أبلغ، ومنها أنها إن أخل بالوقوف عليها في موضع أدركها في غيره فلم يخل من رغب ورهب»(1).

خامسا: شبهات متنوعة.

والحديث عن الشبهات المثارة حول القرآن التي أوردها الماوردي كثيرةٌ لا يمكن تتبعها واستقصاؤها لأجل كثرة ذلك، ولكن لا بأس من ذكر بعض منها على سبيل التمثيل، وقد كان يبدؤها غالبا بقوله، "فإن قيل"، ثم يعقبها بالجواب عليها، ومن أمثلة ذلك ما يأتي:

شبهة الإتيان بمثل القرآن في القليل لما كانت ممكنة، لم يتعذر ذلك على كثيره، أيضا، يقول الماوردي: « فإن قيل: لو كان القرآن برهانا معجزا لخرج كثيره وقليله عن القدرة، وقليله مقدور عليه وهو أن يجمع بين ثلاث كلمات منه أو أربع، فكذلك كثيره لأن الشيء إذا دخلت أوائله في جنس الممكن خرجت أواخره من جنس الممتنع، فعنه جوابان:

أحدهما: أن قليله وكثيره خارج عن القدرة إذا انتظم إعجازه وهو كأقصر سورة منه فبطل هذا الاعتراض.

والثاني: أنه ليس القدرة على الكلمة والكلمتين منه قدرة على استكمال ما يقع من التحدي كالمفحم في الشعر لا تكون قدرته على الكلمة والكلمتين من بيت من الشعر قدرة على نظم بيت كامل من الشعر»(2).

وكذلك أورد **شبهة عدم ظهور الإعجاز في ألفاظه**، وأن سهولة القرآن إنما تحصّلت له من جرَّاء كثرة ترداده وإلا لم تحصل له، فإنه قال عنها: « فإن قيل: إنما كان القرآن كذلك لأنه قد تواطأ بكثرة التلاوة فاستلذَّته الأسماع واستحْلَتْهُ الألسُن، ولولاه لتباين واختلف فعنه جوابان:

---

(1) – أعلام النبوة، للماوردي، (ص: 76).

(2) – المرجع نفسه، (ص: 87).

أحدهما: أن صفته عند أول سماعه. لو كانت لما ذكر من الكلام المختلف لا يتواطأ بكثرة ذكره فبطلت العلة»[1].

ولم يذكر الماوردي الوجه الثاني: ولعله من المناسب أن يُقال: أن كثيرا من الأشعار مثلا ومن أقوال الحكماء، تواطأت بها الألسن ومع ذلك لم يحصل لها ما حصل للقرآن الكريم، من تلكم المزايا والسمات.

ومن الشُّبه **شبهة أن الأشعار أيضا حفظت، فلا مزية في حفظ القرآن الكريم**، يقول الماوردي: « فإن قيل: فحفظ الكلام على صيغة لفظه واشتمال معانيه لا يكون معجزا كأشعار الجاهلية القدماء وأمثال من سلف من الحكماء، فعنه جوابان:

أحدهما: أن في هذا محولا ومتروكا فلم ينحفظ، **والثاني:** أنه لا يعلم حاله فلم ينضبط والقرآن مخالف لهما في حفظه وضبطه»[2].

هذه كانت من أهم الشبهات التي نقلها الماوردي، ثم جاوب عليها في كتابه: "أعلام النبوة".

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

(1) – أعلام النبوة، للماوردي ، (ص: 82)، وليس في الكتاب ذكر الوجه الثاني، فلعله سقْطٌ من الطبعة التي عندي، ولا أعلم للكتاب طبعة غيرها.

(2) – المرجع نفسه، (ص: 83).

المطلب الثاني: تقييم كتب دلائل النبوة من حيث العناية بإعجاز القرآن

لقد اعتنى العلماء في كتب دلائل الإعجاز، بدرس إعجاز القرآن الكريم، حتى جعلوه من أهم قضايا تلك الكتب، وقد ظهرت العناية بذلك من وجوه:

الفرع الأول: العناية بإبراز وجوه إعجاز القرآن الكريم

تعددت وجوه الإعجاز في القرآن الكريم، وكان في كتب دلائل الإعجاز حظٌّ كبيرٌ في إبرازها، بل لربما وقفوا من ذلك على وجوهٍ لم يذكرها غيرهم، كمثل ما ذكره الزيدي فيما يتعلق بالإتقان في القرآن الكريم، فإنه جاء من الأول متقنا، فيقول في ذلك: « **دليلٌ آخر على أن القرآن معجزٌ**، ومن الدليل على ذلك؛ أن النبي ﷺ **ابتدأ الإتيان بهذا القرآن على غاية الإحكام والإتقان**، وقد ثبت جريان العادة: أن كلّ أمرٍ يقع على وجه لا يصحُّ وقوعه عليه إلا بعلوم تحصل للفاعل له لا يصحُّ وقوعه ابتداءً على غاية الإحكام والإتقان، وأن بلوغه الغاية يتعذر إلا على مرّ الدُّهور والأعصار، وتعاطي جماعة فجماعة له، وأنه لا فرق في ذلك من شيء من الأمور التي هي منظوم الكلام ومنثوره، أو ما يتعلق بالتنجيم أو الطبِّ أو الفقه أو النحو أو الصناعات التي هي النساخة أو الصياغة أو البناء أو ما أشبه ذلك.

فإذا ثبت ذلك وثبت وقوع القرآن على الوجه الذي بيّناه ثبت أنه وقع على وجهٍ انتقضت به العادة، وما وقع على وجه تنتقض به العادة، وجب كونه معجزاً، وجرى مجرى قلب العصا حيّة، وإحياء الموتى والمشي على الماء والهواء»[1].

ومن ذلك أيضا حديثه عن الإعجاز الذي يكمن في تلاوة القرآن، تلاوة مجردة فضلا عن تحسين التلاوة بالألحان، وهذا موجود في غيره من كتب الله تعالى كالتوراة والإنجيل والزبور، وليس يوجد ذلك فيها مع وجود هذا التعليل ولذلك ما استعان أهلها على استحلاء تلاوتها بما وضعوه لها من الألحان واستعذبوه لها من الأصوات، والقرآن مستغن عن هذا بصيغة لفظه فلذلك راع وهيج الطباع، يقول الماوردي في حديثه عن هذا الوجه من الإعجاز: « أن قارئه لا يكل وسامعه لا يمل وهذا في غيره من الكلام معدوم»[2].

(1) – إثبات نبوة النبي ﷺ،للزيدي، (ص78)

(2) – أعلام النبوة، للماوردي، (ص: 82)

ومن الوجوه التي أبرزت في كتب دلائل النبوة، ثم كان له العناية الفائقة عند المفسرين والفقهاء، ما تعلق بإعجاز القرآن من جهة **تشريعه**، يقول الزيدي: « ومن ذلك سلامة القرآن مما أتى به ﷺ من الشرائع عن التناقض والتدافع، واستمرارها على طريقة واحدة، وأنها لا تزداد إلا تأكدا وبيانا مع الفحص والبحث وشدّة التنقيب على أحواله، وكثرة إيراد أجناس الكفّار للشبه، سيما الملاحدة، فإنهم لم يدعوا شيئا يجوز أن يخرج في تعريف شبهة أو تخييل إلا قاموا به وقعدوا وأوردوا وذكروا طمعاً في إطفاء نور الحق: ﴿ وَيَأْبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٣٢﴾ ﴾ التوبة: ٣٢، وقد نبه الله جلّ ذكره على هذه الجملة بقوله: ﴿ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴿٨٢﴾ ﴾ النساء: ٨٢ »(1).

ومن ذلك ما كان من العرب أهل الأنفة الذين يكادون لا ينقدون لأحد كائنا من كان، ولما جاءهم رسول من الله ﷺ، فما لبثوا أن استحالة أنفتهم، إلى طواعية ما رأيت لملك من الملوك، يقول الزيدي: « ومن ذلك: أن العرب لم تزل معروفة بالأنفة، وشدة الحميّة، مشهورة بالتكبر والتعاظم، ولذلك قطُّ لم يجمعهم على الطاعة ملك منهم، ولم يخضعوا لعظيم من عظمائهم، ولم يدينوا لأحد منهم، خلاف سائر الأمم، فإن أمة من الأمم لم تخل من ملك منهم يصرفها، وعظيم يدبّر أمورها منها، ولم يكن ذلك إلا لأن الجلّ من العرب كانوا يعتقدون من أنفسهم أحوالا من الكبرياء، تمنعهم عن أن ينقاد بعضهم لبعض لعزّة نفوسهم، وقوة قلوبهم، وظهور فضائلهم النفسية، ثم دانوا لرسول الله ﷺ بالطاعة، وخفضوا له جناح الذلة، وخضعوا تحت أحكامه، وتصرفوا على قضايا أوامره ونواهيه، جارفين عاداتهم العادية، ومخالفين سجاياهم القديمة، ويُجَلون أن يكونوا فعلوا ذلك إلا لأنه ﷺ بهرهم وقهرهم بحجته، وقطع معاذيرهم بآياته المعجزة، ودلالاته الواضحة، وهل يكون لنقض العادة إلا مثل ما اتفق في أحوالهم، والخضوع بعد الاستكبار والانقياد بعد الإباء، ولهم الإصابة والفهم البيّن، والرأي الثاقب، والبصيرة الثابتة؟»(2).

---

(1) – إثبات نبوة النبي ﷺ، للزيدي، (ص174).

(2) – المرجع نفسه، (ص: 175)

الفرع الثاني: العناية بالأمر الذي يُدرك به إعجاز القرآن الكريم

ومن القضايا التي اعتنى بها العلماء في كتب دلائل النبوة، بما يتعلق بالإعجاز، بيان الأمر الذي يساعد على إدراك إعجاز القرآن الكريم، وبيان الطريق الذي يوصل إلى ذلك، فالزيدي مثلا يجعلُ العلم بإعجاز القرآن من جهة بلاغته، يتأتّى لصاحبه عن طريق العلم بطرائق العرب، في كلامها ، فيقول: « لأن العلم بها –فصاحة الكلام– مفتقرٌ إلى العلم بطرائق العرب في منظوم كلامهم ومنثوره، وجهاتٌ تصرفهم فيها وكثير من أحوال لغاتهم وعاداتهم في إيرادها»(1).

وما أشار إليه الزيدي يبيِنُ لنا من خلاله السبب الذي جعل علماء الإعجاز، يعتنون بالكلام العربي ويكثرون من ذكره في كتبهم، وتفهمون معانيه ومواقع الحُسن منه، فإذا جاؤوا إلى القرآن الكريم، ووقفوا على ما فيه من الحُسن والبيان، ثار حسن الكلام العربي متضائلا بالنسبة للقرآن، وظاهراً تفوُّق القرآن الكريم عليه.

الفرع الثالث: العناية بمسألة النظم في القرآن الكريم.

من مسائل البيان المهمة التي نشأت في أحضان درس إعجاز القرآن مسألة "النظم"، والعناية بها لم يتأخر إلى أن تظهر كتب البلاغة عموما، وكتب عبد القاهر الجرجاني خصوصا(2)، بل كتب دلائل النبوة، كان لها بعض السبق إلى ذلك، فعند الزيدي نجد ذكرا للنظم، فنجده يشير إليه في قوله: « واعلم أن كثيراً من الألفاظ تكون له حلاوة وعذوبة إذا وقع في بعض المواقع دون بعض، وإنما حصلت لهذه الآيات: العذوبة التامة، لما حصل لحروفها من التلاؤم، ولحركاتها وسكناتها من الاعتدال، ولمعانيها من حُسن الاطراد والمقاصد، لأن الحروف لو لم تتلائم لكان يحصل للكلام بعض التنافر، والحركات والسكنات لو لم تعتدل لم يتمَّ **حسنُ النظم**، لأن كثرة الحركات توجب للكلام بعض الثقل»(3)

(1)– إثبات نبوة النبي ﷺ، للزيدي، (ص89)

(2) – وقد اعترف عبد القاهر الجرجاني نفسه بأنه مسبوقٌ إلى النظم، كما أشار في مواضع من كتابه دلائل الإعجاز، ينظر مثلا منه (ص: 51، وغيرها).

(3)– إثبات نبوة النبي ﷺ، (ص116-117)

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

ويجعل متعلَّقه السورة من القرآن، فيقول: « اسم السورة لا ينطلق على الشعر، ولا على الخطبة ولا على الرسالة ولا على أسجاع الكهنة، ولا على المحاضرة، وإنما يطلق على ماله هذا النظم المخصوص، فإذا كان كذلك كان قوله: ﴿فَأۡتُواْ بِسُورَةٖ مِّن مِّثۡلِهِۦ﴾ البقرة: ٢٣، جارياً مجرى أن يقول: فأتوا بجملة لها هذا النظم المخصوص»[1].

كما تكلم الزيدي عن تميز نظم القرآن عن غيره، وأنه لو أحسن الشاعر الاقتباس منه لشعره، لوجد له الأثر الحسن في شعره، فإنه «مما يبيّن بلوغ القرآن غاية الفصاحة: أن الشاعر ربّما ضمَّن لفظةً من القرآن بيتاً من الشعر أو حشا الخطيب بها فصْلاً من الخطب، أو وشّح الكاتب بها موضعاً من الرسالة، فيتميز حسنها عن غيرها، ويتبين بهجتها على ما سواها، ويصير الموضع الذي يضمنها غرّةً من سائره، بحسنه الذي اكتسبه من تلك اللفظة، وزبرجه الذي استعاره منها»[2].

الفرع الرابع: القدر المعجز:

ومما عُنيَ به علماء الإعجاز، الحديث عن القدر المعجز من القرآن الكريم، هل هو السورة أو بعضها، وغير ذلك، وفي كتب دلائل النبوة نجد العناية بهذا الأمر، فالجاحظ، رأيه في ذلك أنه «ليس ذلك في الحرف والحرفين والكلمة والكلمتين؛ لأن رجلاً من العرب لو قرأ على رجلٍ من خطبائهم وبُلغائهم سورة واحدة طويلة أو قصيرة، لتبيّن له في نظامها ومخرجها وفي لفظها وطبعها أنه عاجزٌ عن مثلها، ولو تحدى بها أبلغ العرب لظهر عجزه عنها، وليس ذلك في الحرف والحرفين، والكلمة والكلمتين.

ألا ترى أن الناس قد كان يتهيأ في طبائعهم ويجري على ألسنتهم أن يقول رجلٌ منهم: الحمد لله، وإنا لله، وعلى الله توكلنا، وربنا الله، وحسبنا الله ونعم الوكيل، وهذا كله في القرآن، غير أنه متفرقٌ غير مجتمع؛ ولو أراد أنطقُ النّاس أن يؤلّف من هذا الضرب سورة واحدة، طويلة أو قصيرة على نظم القرآن وطبعه، وتأليفه ومخرجه لما قدر على ذلك، ولو استعان بجميع قحطان ومعدِّ بن عدنان»[3].

(1)– إثبات نبوة النبي ﷺ، (ص90)
(2)– المرجع نفسه، (ص120)
(3) – رسائل الجاحظ، رسالة: حجج النبوة، للجاحظ، (ج3/ص: 229)

كما نبه الماوردي إلى ذلك بالقياس على الشِّعر بقوله «ليس القدرة على الكلمة والكلمتين منه قدرة على استكمال ما يقع من التحدي كالمفحم في الشعر لا تكون قدرته على الكلمة والكلمتين من بيت من الشعر قدرة على نظم بيت كامل من الشعر»(1).

فالقدر المعجز عند علماء الدلائل يمكن أن يعبّر عنه أنه قدر السورة من القرآن، سواءً كانت طويلة أو قصيرة على حدّ تعبير الجاحظ.

ولكن ذلك – في رأيي – فيه شيء من البعد في النظر، لأن القرآن أول ما نزل نزل متحديا للعرب، والذي نزل منه هو بعضٌ من السُّورة، لا كلُّ السورة، وإنما يقال أن القدر المعجز من القرآن الكريم هو الذي، يحصل لتاليه أنه قرآن كريم، ولا يشترط أن يكون سورة بأكملها.

الفرع الخامس: متعلق الإعجاز

معلومٌ أن التحدي بالقرآن الكريم وقع للجن والإنس كافة، فهل وقع العجز منهم كافة؟ هذا إشكال جعل بعضهم يسأل: « أفيعتبرون عجز العرب العاربة عنه دون المولدين أو عجز الجميع؟ ويجيب الماوردي: بأنه :« فيه خلاف بين أهل العلم على وجهين:

أحدهما: أن المعتبر فيه عجز الجميع ليكون أعمَّ، **والوجه الثاني**: معتبر فيه عجز العرب العاربة دون المولدين ليكون معتبرا بمن يلجأ إلى طبعه ولا يعول على تكلفه وتعلمه.

وهكذا اختلفوا هل يعتبر فيه عجز أهل عصره الذين أُنزل فيهم، ووقع طلب التحدي إليهم، أو في جميع دهره؟ وذكر الماوردي جوابه وأنه وقع على هذين الوجهين:

أحدهما: يعتبر فيه عجز أهل العصر لأنهم حجة على أهل كل عصر، **والوجه الثاني**: أنه يعتبر فيه عجز أهل كل عصر لعموم التحدي فيه لأهل كل عصر»(2).

ومما شبهوا به في هذا الباب أن هذا العجز الواقع من الإنس لا يكون كافيا وموجبا لإضافته إلى الله تعالى لجواز أن تكون الشياطين أعانت عليه حتى خرج عن مقدور الإنس كما أعانت سليمان ﵇ على ما عجز عنه الإنس

(1) – أعلام النبوة، للماوردي، (ص: 86).

(2) – أعلام النبوة، للماوردي، (ص: 90)

وقد تولى الماوردي وذلك من وجوه عدة: « **أحدها**: أن هذا يتوجه على موسى عليه السلام في فلق البحر وعلى عيسى عليه السلام في إحياء الموتى، ويقدح في جميع النبوّات فلم يجز لمن أثبتها أن يخص به بعض المعجزات.

والجواب الثاني: أن الشياطين لم يُعْرفُوا إلّا من الرُّسل ولولاهم لما علم الناس أن في الدنيا شيطانا ولا جنا ولا جانا، وقد جهل[1] الرسل بلعنهم ودعوا إلى معصيتهم، ولو كانوا أعوانا لدعوا إلى طاعتهم وموالاتهم لأن معونة من أطيع وولي أحق من معونة من عصى وعودي.

والجواب الثالث: أن الشياطين لا يقدرون على ذلك إلّا بمعونة الله تعالى لهم، وهو لا يعين كاذبا عليه فإن كان عن أمره كان معجزا لأنه من فعله، وعلى هذا كان تسخير سليمان عليه السلام للجن والله سبحانه وتعالى غني عن الشياطين أن يكونوا سفراء إلى رسله وأعوانا لأنبيائه وهم ينهون عن طاعته ويدعون إلى معصية هذا القرآن وقد تحدى به الجن كما تحدى به الإنس بقوله تعالى: ﴿قُل لَّئِنِ ٱجۡتَمَعَتِ ٱلۡإِنسُ وَٱلۡجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأۡتُواْ بِمِثۡلِ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ لَا يَأۡتُونَ بِمِثۡلِهِۦ وَلَوۡ كَانَ بَعۡضُهُمۡ لِبَعۡضٖ ظَهِيرٗا ۝٨٨﴾ الإسراء: ٨٨، ، وحكى عنهم عجزهم عنه بقوله تعالى: ﴿إِنَّا سَمِعۡنَا قُرۡءَانًا عَجَبٗا ۝١ يَهۡدِيٓ إِلَى ٱلرُّشۡدِ فَـَٔامَنَّا بِهِۦۖ وَلَن نُّشۡرِكَ بِرَبِّنَآ أَحَدٗا ۝٢﴾ الجن: ١ - ٢»[2].

الفرع السادس: الصرفة في كتب دلائل النبوة

كان من طبيعة كتب دلائل النبوة أن لا يحصل فيها حديثٌ عن الصّرفة، إلا أن تنوع مشارب المؤلفين فيها جعلهم يكتبون متأثرين بميولاتهم العقدية، وبخاصة منهم المعتزلة، الذين قد سبق من ائمتهم من تكلم في الصرفة واعتبرها وجها من وجوه إعجاز القرآن الكريم كالنظّام والرُّماني، وغيرهما، أما غير المعتزلة، فقليلٌ من جعلها وجها معتبرا في الإعجاز.

ولأجل ذلك فإن كتب دلائل النبوة كانت في أغلبها إما أن لا تذكر الصّرفة مطلقا كالكتب المسندة منها، وبعضها أنكر القول بها كما فعل الزيدي، فإنه استبعدها في قوله:« فأما القول: أن الإعجاز في الصرف في جملة القرآن، فهو عندي بعيدٌ جداً؛ لأن الصَّرف عن الشيء يمكن أن يُدعى إذا عُلم أنه مقدور عليه غير متعذر وجود مثله، ممن ادعى أنه مصروف عنه،

(1) – هكذا في المطبوع، ولعله: جاء

(2) – المرجع السابق، (ص: 91)

وليس هاهنا ما يبين أن الإتيان بمثل القرآن كان ممكناً للعرب غير متعذر عليهم، بل قد ذهبنا على خلاف ذلك، فبان سقوط من ادّعاه.

وأيضاً القول بذلك يؤدي إلى أن يعرف الفرق بين ما يتعذر على الناس، وبين ما لا يتعذر، لأنه لو جاز لهم أن يقولوا: أن العرب صُرِفوا عن الإتيان بمثل القرآن، وإن لم يثبت تأتّيه منهم لجاز أن يُقال: إن الناس صُرفوا عن فعل الأجسام والألوان والحياة والقدرة، وإن لم يثبت أن شيئاً منه متأت منهم، وهذا واضح السقوط، وكذلك القول في الصرف عن القرآن»[1].

وقال أيضا: « وعلى أن الإعجاز لو كان من جهة الصرف لكان الصرف هو المعجز، ولم يكن القرآن معجزاً، وهذا خلاف ما يعلم من دين المسلمين، لأن المسلمون مجمعون على أن الله ﷻ جعل القرآن معجزاً لنبيه ﷺ ...

ألا ترى أن نبيّاً لو قال: معجزتي أن أكلمكم اليوم إلى المساء بما تكرهون، فلا يمكن أحد منكم أن يجيبني لأنكم تُصرفون عنه، كان الإعجاز في صرفهم هو الذي يكون أعجوبةً»[2].

أما الماوردي لما كان متأثرا بالمعتزلة، فإنه استهواه القول بالصّرفة، فبدأ يمهد له في كتابه، كما فعل في الوجه السابع عشر لما قال::«والوجه السابع عشر: من إعجازه أن الكلام يترتب ثلاث مراتب منثور يدخل في قدرة الخلق وشعر هو أعلى منه يقدر عليه فريق ويعجز عنه فريق وقرآن هو أعلى من جميعها وأفضل من سائرها تجاوز رتبة النوعين فخرج عن قدرة الفريقين»[3].

ثم صرح بالقول بالصرفة، في الوجه العشرون، لما قال: « الوجه العشرون: من إعجازه الصرفة عن معارضته واختلف من قال بها هل صرفوا عن القدرة على معارضته أو صرفوا عن معارضته مع دخوله في مقدورهم على قولين»[4].

وهكذا فإن علماء دلائل النبوة، كانت آراؤهم في الصرفة متوزعة بين من سكت عنها، وبين من أنكرها واستبعدها، وبين من اعتبرها وأشاد بكونها وجها من وجوه إعجاز القرآن الكريم، وذلك كما سبق التنبيه إليه راجعٌ إلى المنزع العقدي الذي يكون عليه الكاتب.

---

(1)– إثبات نبوة النبي ﷺ، (ص93)

(2) – المرجع نفسه، (ص95)

(3) – أعلام النبوة، للماوردي، (ص: 89-90).

(4) – المرجع نفسه، (ص: 89-90).

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

المطلب الثالث: تقويم كتب دلائل النبوة من حيث المشاركة في باقي العلوم

إن المطالع على كتب دلائل النبوة، يجدها كتبا شاركت وتقاطعت مع جملة من العلوم الشرعية، وكان فيها إضافات إلى جملة من العلوم، وفي هذا المطلب نذكر جملة من العلوم التي جاءت لها مباحث كثيرة في كتب دلائل الإعجاز، ومنها:

الفرع الأول: المشاركة في علم السير والمغازي.

من الفنون التي أولتها كتب دلائل الإعجاز اهتماما، فن المغازي والسير، فإن له فيها عناية ظاهرة، والمناسبة في ذلك أن كثيرا من غزوات الرسول ﷺ، أظهر الله فيها لنبيه ﷺ، ولأصحابه الكرام رضي الله عنهم معجزات وآيات كثيرة تأييدا لهم في تلك المواقف التي تضطرب فيها القلوب، وتطيش فيها العقول، « وقد كانت المغازي النبوية محطّ عناية المسلمين منذ الصدر الأول، وظهرت هذه العناية واضحة عند الصحابة، وأبناء الصحابة الكرام رضي الله عنهم، وهو يسألون آباءهم عن مشاهدهم مع رسول الله، وذكرياتهم عنها»[1].

وقبل الحديث عن المغازي والسير في كتب دلائل النبوة، فإنه يحسن تقديم شيءٍ من التعريف بها، وذلك من خلال ما يأتي:

أولا: تعريف المغازي والسير

هي بيانٌ لمواضع غزو النبي ﷺ للكفار، وسيره إليهم، سواءٌ كان الكفار في بلادهم أو غير بلادهم أينما كانوا، وذكر فضائل النبي ﷺ، وفضائل أصحابه، وسوابقهم ومناقبهم، وتضمُّ المغازي ما قصده النبي ﷺ وتوجه إليه نفسه، أو بإرسال جيشٍ من قِبَلِه.

والسير، هي: أمور الغزو، كالمناسك هي: أمور الحج»[2].

---

(1) – مصادر تلقي السيرة، وتقويمها، لفاروق حمادة، (ص: 83).

(2) – المصدر نفسه، (ص: 83).

ثانيا: التأليف في المغازي والسير

بدأت المغازي والسير، من خلال قصص الصحابة ﭫ لأبنائهم لما كان جرى لهم من أحداث، « فعبد الله بن الزبير ﭭ، يسأل أباه الزبير وهو يمدُّ يده إلى جراحة كانت في صدره عن أسبابها، وقصتها ومواقفه مع رسول الله ﷺ....

وكان ابن عباس ﭭ يأتي أبا رافعٍ مولى رسول الله ﷺ، فيقول: ما صنع رسول الله ﷺ يوم كذا؟ ما صنع رسول الله ﷺ يوم كذا؟ ومع ابن عباس ﭭ ألواحٌ يكتب بها...

وجاء عن عبد الله بم محمد بن عقيل قال: كنّا نأتي جابر بن عبد الله ﭬ، فنسأله عن سير رسول الله فنكتبها

وعن اسماعيل بن واسع قال: كان أبي يعلمنا مغازي رسول ﷺ، ويعدُّها علينا، وسرياه ويقول: يا بنيَّ هذه مآثر آبائكم، فلا تضيّعوا ذكرها.

وعن علي بن الحسين ﭭ قال: كنَّا نُعلَّمُ مغازي رسول الله ﷺ كما نُعلّم السُّورة من القرآن.

ثم أخذت أخبار النبي ﷺ في مغازيه وسيره يظهر حديثها ويتداوله أبناء الأصحاب ﭫ، ثم أخذت عن أبناء الصحابة، ومن أشهرهم: أبان بن عثمان بن عفان ﭭ، وربما كتبها عنده في ألواح ثم يقرأ منها على التابعين، وقد أمره بذلك سليمان بن عبد الملك.

ومنهم: عروة بن الزبير بن العوام، قيل أنه أول من صنّف في المغازي، ومغازيه اقتبسها أبو بكر البيهقي في كتابه " الاعتقاد".

وممن عَنِيَ بالمغازي أيضاً: شرحبيل أبو سعد، قيل أنه لم يكن أحدٌ أعلم بالمغازي والبدريين منه.

ومنهم: وهب بن منبه، وكان مطلعا على الكتب السابقة.

ومنهم: عبد الله أبي بكر بن حزم، وعاصم بن عمر بن قتادة، محمد بن شهاب الزهري، موسى بن عقبة، معمر بن راشد، ومحمد بن اسحاق، وكتابه لا يزال أقوم الكتب وأنفعها، وإن كان لم يصل للناس كاملا إلا ان ابن هشام اختصره وأورده(1).

(1) – مصادر تلقي السيرة، وتقويمها، لفاروق حمادة، (ص: 83، وما بعدها)، باختصار وتصرف.

ثالثا: المغازي في كتب دلائل النبوة

من مظان مغازي وسير الرسول ﷺ ومصادرها، كتب دلائل النبوة، قلنا وذلك لكون هذه الأخيرة مظنة لإكرام الله ﷻ لنبيه ﷺ بالمعجزات الباهرة، تثبيتا للقلوب، واستجلابا لليقين بوعد الله وموعوده، ذلك الذي سوّغ للعلماء إدراج أخبار المغازي والسير في كتب الدلائل.

فهذا أبو نعيم الأصبهاني جعل الفصل الخامس والعشرون من كتابه في ذكر ما جرى من الآيات في غزواته وسراياه، وذكرناها مرتبة من غزوة بدر إلى غزوة تبوك مبينا موضع الدلالة ووجه الآية فيها وفي جميع ذلك دليل على ما قلناه من أنه ﷺ لم يخل شيء من أحواله عن آية شاهدة له ومعجزة جارية على يديه خليق كون ذلك له، إذ النبوة مختومة به والشريعة إلى قيام الساعة قائمة به ﷺ»(1)

ثم ذكر أخبار الغزوات كما ذكر مرتبة، وذكر ما جرى فيها من الآيات والمعجزات، فذكر ما حدث من المعجزات في غزوة بدر، ثم الأخبار في غزوة أحد من الدلائل، ثم ما جرى في غزوة الخندق، ثم بني قريظة، وخبر غزوة الرجيع، وقصة أهل بئر معونة، وغزوة المريسيع، وأخبار السرية التي بعثها إلى يسير ن زام اليهودي، وما كان في فتح مكة، وما جرى من الدلائل ي غزوة مؤتة، وعدها غزوة الطائف، وسرية زيد بن حارثة(2).

أما الإمام البيهقي، فقد أورد في دلائله: جُمَّاعُ أَبْوَابِ مَغَازِي رَسُولِ اللهِ ﷺ وَسَرَايَاهُ، عَلَى طَرِيقِ الِاخْتِصَارِ دُونَ الْإِكْثَارِ إذا الْقَصْدُ مِنْ هَذَا الْكِتَابِ بَيَانُ دَلَائِلِ صِحَّةِ نُبُوَّتِهِ وَإِعْلَامُ صِدْقِهِ فِي رِسَالَتِهِ وَمَا ظَهَرَ فِي أَيَّامِهِ مِنْ نَصْرِ اللهِ ﷻ أَهْلَ دِينِهِ وَإِنْجَازِهِمْ مَا وَعَدَهُمْ عَلَى لِسَانِ نَبِيِّهِ ﷺ بِقَوْلِهِ: ﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسۡتَخۡلِفَنَّهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ كَمَا ٱسۡتَخۡلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمۡ دِينَهُمُ ٱلَّذِي ٱرۡتَضَىٰ لَهُمۡ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعۡدِ خَوۡفِهِمۡ أَمۡنٗاۚ يَعۡبُدُونَنِي لَا يُشۡرِكُونَ بِي شَيۡـٔٗاۚ وَمَن كَفَرَ بَعۡدَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ ٥٥ ﴾ النور: ٥٥»(3)

(1) – دلائل النبوة، لأبي نعيم الأصبهاني، (ج2 / ص: 469).
(2) – ينظر لذلك كتابه دلائل النبوة، للبيهقي، (ج2/ ص: 469، وما بعدها).
(3) – المرجع نفسه، (ج3 /ص: 5).

ثم ذكر البيهقي الغزوات والسرايا مرتبةً إلى زمن الوفود العرب إلى النبي ﷺ، وبغزوة تبوك تمت كلمة ربك في شبه جزيرة العرب كلها، وأمن محمد كل عادية عليها، وتحقق وعد الله لنبيّه ﷺ، وهو من الآيات والمعجزات.

وأما اسماعيل الأصبهاني في كتابه دلائل النبوة، فإنه إنما ذكر الآيات التي جرت في الغزوات ذكراً عارضا أثناء الحديث عن المعجزات، فلم يقصد إلى ذكرها كما فعل أبو نعيم والبيهقي.

وأما القاضي عبد الجبار فكان ذكره للمغازي والسير قليلٌ في كتابه، وإنما ذكر بعض الغزوات التي خاضها النبي ﷺ ، فذكر ما جرى في أحد، فقال: « وباب آخر [حول غزوة أحد]، ... فتعلم أنه لا يسوغ ولا يجوز أن يقول رئيس قوم لهم: قد كنت وعدتكم أن تقتلوهم، وقد صدقتكم فيما وعدتكم وأريتكم ما تحبون ثم عصيتم أمري وخالفتم وصيتي، وهو يعلم أنهم يعلمون أنه قد كذب في جميع ذلك، فكيف بمن يدّعي النبوة والصدق في جميع ما يقوله ويخبر به»[1].

وذكر غزوة الخندق – الأحزاب–، وما نزل فيها من قوله ﷻ: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسۡتَخۡلِفَنَّهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ النور: ٥٥ ، فقال: « وهذه نزلت في غزوة الأحزاب وفي الخندق، وقد تحزبت العرب واليهود عليهم، وغدر من حول المدينة بهم وهم في حومة الموت وشدة الخوف، وما كان بأيديهم إلا المدينة مع من بها من اليهود والمنافقين، فأظهر الله أصحاب رسول الله ﷺ واستخلفهم ومكّن لهم وبدّلهم من بعد خوفهم أمنا، وعبدوه وحده وأطاعوه، وفي هذا غيوب كثيرة لا تكون بالاتفاق ولا لحذاق المنجمين، ولا هو مما يغلب في العقل بل الغالب في العقل والظاهر في الحزم والتدبير أن يكونوا هم المغلوبون المقهورون، إلا أن يكونوا من قبل الله، وأن يكون صاحبهم رسولا لله»[2].

كما ذكر غزوة تبوك، وما أنزل الله فيها على نبيه: ﴿وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُواْ﴾ التوبة: ١١٨، في قصة الثلاثة الذين تخلفوا عن رسول الله ﷺ، وقال فيها: « وكان هؤلاء تخلفوا عن رسول الله ﷺ في غزوة تبوك، ثم ندموا واغتموا غمّا شديدا وحزنوا لذلك حزنا عظيما ضاقت صدورهم

(1) – تثبيت دلائل النبوة، للقاضي عبد الجبار، (ج2/ ص: 422).

(2) – المرجع نفسه، (ج2/ ص: 446).

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

به، فأخبره الله ﷻ عن صدق نياتهم وخلوص ضمائرهم وما فيها من الحزن والغمّ بتأخرهم وما كان ليتلو ذلك إلا وقد علم وتيقن ما في ضمائرهم، وفي هذا من الدلالة مثل ما تقدم»[1].

وأخبار هذه الغزوات كما مرّ إنما ذكرت في كتب دلائل الإعجاز، لأن فيها من الآيات الحسية والمعنوية الشيء الكثير، فناسب إدراجها فيها، وقد ظهر لنا اختلاف العلماء في إدراج المغازي والسير، فمنهم من يذكرها كاملة كما فعل البيهقي، وأبو نعيم، ومنهم من يكتفي بذكر الشاهد على المعجزة كما فعل اسماعيل الأصبهاني والقاصي عبد الجبار وغيرهما.

(1) - المرجع نفسه، (ج2/ ص: 476).

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

الفرع الثاني: المشاركة في علم الشمائل المحمدية

مما سبق ذكره من وجوه الإعجاز، في كتب دلائل النبوّة المتعلقة بالنبي ﷺ غير القرآن الكريم، ما كان عليه ﷺ من الشمائل الحميدة، والأخلاق الرشيدة، فإنه كما قال الجاحظ: « « وآيةٌ أخرى لا يعرفها إلاّ الخاصّة، ومتى ذكرتُ الخاصّة فالعامّة في ذلك مثل الخاصة، وهي الأخلاق والأفعال التي لم تجتمع لبشرٍ قبله، ولا تجتمعُ لبشر بعده.

وذلك أنّا لم نر ولم نسمع لأحد قطُّ كصبره، ولا كحلمه، ولا كوفائه، ولا كنجدته، ولا كصدق لهجته، وكرم عشْرته، ولا كتواضعه، لا كعلمه، ولا كحفظه، ولا كصمته إذا صمت، ولا كقوله إذا قال، كقوله إذا قال، ولا كعجيب منشئه، ولا كقلّة تلونه، ولا كعفوه، ولا كدوام طريقته، وقلّة امتنانه»[1].

ولذلك ظهر لون من ألوان العلم، وأفرده العلماء بالتأليف، وهو علم " الشمائل المحمدية"، وقد شاركت كتب دلائل النبوة بإمداد فذا الفن من العلم، بالمادة العلمية، وكانت رافدا من روافده المهمة، وبين يدي ذلك شيءٌ من التعريف بعلم الشمائل المحمدية:

أولا: تعريف الشمائل المحمدية

وهو: « فنٌ يشتمل على صفاته السَّنِية، ونعوته البهيَّة، وأخلاقه الزكية، التي هي وسيلةٌ إلى امتلاء القلب بتعظيمه ومحبته ﷺ، وذلك سبب لاتباع هديه وسنته، ووسيلةٌ إلى تعظيم شرعه وملته، وتعظيم الشريعة واحترامها وسيلة إلى العمل بها والوقوف عند حدودها، والعمل بها وسيلة إلى السعادة الأبدية، والفوز برضا رب العالمين»[2].

وموضوع الشمائل اهتم به علماء المسلمين منذ القدم، وكان أحد أغراض كتب الحديث، التي تهتم بأحوال الرسول ﷺ، في عبادته وخلقه، وهديه، ومعاملته، مع كل شيء حوله في الطعام، والشراب، واللباس، والأدوات، والدواب، والسلاح، والكبير، والصغير، وعلى عدّ صفاته وأحواله جانباً من جوانب سنته الشريفة.

---

(1) – حجج النبوة، للجاحظ، (ج3/ص: 280-281)

(2) – مصادر تلقي السيرة النبوية، المؤلف: محمد أنور بن محمد علي البكري، (ص: 33)

والغاية والفائدة من هذا العلم : قال عبد الله اللحجي: « ليس المقصود من جمع شمائله ﷺ مجرَّد معرفة علمٍ تاريخيٍّ تميل إليه النُّفوس، وتجنح إليه القلوب، ويُتحَدثُ به في المجالس، ويُستشهد به على المقاصد، ونحو ذلك من الفوائد، وإنما المقصود من جمع شمائله ﷺ فوائد أخرى مهمّة في الدين:

منها: التلذذ بصفاته العليّة وشمائله الرَّضيَّة ﷺ

ومنها: التقرب إليه ﷺ، واستجلاب محبته ورضاه بذكر أوصافه الكاملة، وأخلاقه الفاضلة، كما يتقرب الشَّاعرُ إلى الكريم بذكر أوصافه الجميلة وخصاله النّبيلة....

ومنها: أنَّ معرفة شمائله الشّريفة تستدعي محبته ﷺ، لأن الإنسان مجبولٌ على حبِّ الصفات الجميلة، ومَن اتّصف بها، ولا أجمل ولا أكمل من صفاته ﷺ.

ومنها: اتبّاعه والاقتداء به لمن وفَّقه الله تعالى فيما يمكن به الاقتداء، كسخائه وحلمه، وتواضعه وزهده، وعبادته، وغيرها من مكارم أخلاقه، وشرائف أحواله ﷺ[(1)].

ثانيا المؤلفات في الشمائل المحمدية

قبل أن يفرد العلماء شمائل الرسول ﷺ بالتأليف، كانوا يذكرون أطرافا منها في كتبهم في الصحاح والسنن والمسانيد، وغيرها من كتب الحديث، فقد جاءت فيها منثورةً بين أبواب العبادات والمعاملات والأخلاق، والآداب والزهد، والرقاق

ثم بعد ذلك ولمَّا أدرك العلماء أهميتها أفردوها بالتأليف في كتب مفردة مستقلة، كان في مقدمتهم:

1/ أبو البختري وهب بن وهب الأسدي (ت 200هـ) في مؤلفه "صفة النبي ﷺ".

2/ ثم أبو الحسن علي بن محمد المدائني (ت224هـ) في كتابه "صفة النبي ﷺ".

3/ الإمام علي بن المديني (ت: 232 هـ)، له " صفة النبي ﷺ

4/ محمد بن عبد الله الوراق، (ت 249 هـ) "أخلاق النبي ﷺ".

(1) – منتهى السؤُّل على وسائل الوصول إلى شمائل الرسول ﷺ، لعبد الله اللحجي، (ج1/ ص: 110-122) باختصار وتصرف.

5/ الحافظ محمد بن عبد الله بن عبد الرحيم البرْقي (ت: 249 هـ)، له "أخلاق النبي ﷺ".

6/ الزبير بن بكّار (ت: 256 هـ)، له مزاح النبي ﷺ

7/ داود بن علي الأصبهاني (ت270هـ) في كتابه "الشمائل المحمدية".

8/ داود بن علي الظاهري (ت: 270)، له " صفة أخلاق النبي ﷺ"

9/ كتاب الشمائل المحمدية للإمام أبي عيسى الترمذي (ت: 279هـ).

10/ أبو داود السجستاني صاحب السنن (ت: 275 هـ)، له " معيشة النبي ﷺ"

11/ عبد الله بن محمد بن عبيد القرشي "ابن أبي الدنيا" (ت: 281 هـ)، له "صفة النبي ﷺ"

12/ إسماعيل القاضي المالكي (ت282هـ) في كتابه "الأخلاق النبوية".

13/ كذلك أبو الحسن أحمد بن فارس اللغوي (ت295هـ)، في كتابه "أخلاق النبي ﷺ"

14/ أبو علي محمد بن هارون الأنصاري (ت: 353)، له " صفة النبي ﷺ وصفة أخلاقه"

15/ محمد بن إبراهيم بن علي " الحافظ أبو بكر بن المقرئ" (ت: 381 هـ)، له: الشمائل(1).

ثم جاء بعدهم في القرون التالية خلق كثيرٌ، وجمٌّ غفير كتبوا في الشمائل كتابات ، حتى صارت لا تدخل تحت إحصاء، ولا يوقف لها على عدد.

(1) – يُنظر في إحصاءها: كتاب مصادر تلقي السيرة النبوية، لمحمد أنور بن محمد علي البكري، (ص: 33)، مصادر السيرة النبوية ومقدمة في تدوين السيرة، لمحمد يسري سلامة، (ص: 146- 147)، مصادر السيرة النبوية، وتقويمها، لفاروق حمادة، (ص: 64- 67).

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

ثالثا: الشمائل المحمدية في كتب إعجاز القرآن:

لعل الحامل على عقد هذا العنوان، هو ما للقرآن الكريم، من علاقة بينه وبين أخلاق الرسول ﷺ، ففي الحديث سئلت عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها عن خلق النبي ﷺ، فقالت: «كان خلقه القرآن»[1]، فخلقه ﷺ القرآن، وآيته القرآن.

أمّا عن الشمائل المحمدية في كتب دلائل الإعجاز، فالعلماء في ذكرها سلكوا طريقين اثنين:

الأول: ذكرها إجمالا: وقد مرت الإشارة إلى ذلك من صنيع الجاحظ، أو أنهم يذكرون خلة واحدة ويفصلون فيها بعض الشيء كما فعل القاضي عبد الجبار المعتزلي لمّا تكلم عن زهد النبي ﷺ، فقال: « يقول عبد الجبار: « وكان ﷺ مع هذا الملك العظيم أيبس الناس عيشاً، وأخشنهم لباساً، واعتبر من ذلك ببرده الذي يلبسه خلفاؤنا من بعده وقيمته مقدار دانقين، وبقدحه وخاتمه، وجميع ما صار عند خاصة أهله وعامة أنصاره، ثمّ توفي ولم يترك عيناً ولا ديناراً، ولا شيّد قصراً ولا غرس شجراً ولا شقّ لنفسه نهراً ولا استنبط لنفسه عيناً، ولا رغب لأهله وأصحابه في مثل ذلك»[2].

والثاني: ذكرها تفصيلا: كما فعل أبو نعيم الأصبهاني في كتابه "دلائل النبوة"، فقد ذكر في الفصل الثاني عشر، قال: ذكر بعض أخلاقه وصفاته ﷺ ، بداها بحديث عائشة رضي الله عنها لما سألت عن أخلاق النبي ﷺ، فقال:« كان خلقه القرآن»، ثم ذكر الآثار في الحديث عن: زهده، ولطفه، ويسر أمره وسماحته، وحسن عشرته، وحلمه، وغير ذلك من خلاله ﷺ الزكية، وشمائله الطيبة النديّة.

ثم في الفصل الواحد والثلاثين، أورد حديث الحسين بن علي رضي الله عنهما لما سأل خاله هند بن أبي هالة التميمي، فقال: « سألت خالي هند بن أبي هالة التميمي وكان وصافا عن حلية النبي ﷺ، وأني أشتهي أن يصف لي منها شيئا أتعلق به فقال: كان رسول الله ﷺ فخما مفخما

---

(1) – أخرجه الإمام أحمد في المسند، برقم: 24601، واخرجه البخاري في خلق أفعال العباد، باب الرد على الجهمية وأصحاب التعطيل، (ص: 87).

(2) – دلائل تثبيت النبوة، للقاضي عبد الجبار، (ص 31).

يتلألأ وجهه تلألؤ القمر ليلة البدر؛ أطول من المربوع وأقصر من المشذب عظيم الهامة، رَجِلَ الشَّعر، إن انفرقت عقيصته فَرَقَ وإلا فلا، يجاوز شعره شحمة أذنيه إذا هو وفرة، أزهر اللون، واسع الجبين أزج الحواجب سوابغ في غير قرن بينهما عرق يدره الغضب، أقنى العرنين له نور يعلوه يحسبه من لم يتأمله أشم، كثُّ اللحية، سهل الخدين، ضليع الفم أشنب، مفلج الأسنان، دقيق المسربة، كأن عنقه جيد دمية في صفاء الفضة، معتدل الخلق، بادن، متماسك، سواء البطن والصدر، عريض الصدر، بعيد ما بين المنكبين، ضخم الكراديس أنور المتجرد موصول ما بين اللبة والسرة بشعر يجري كالخط عاري الثديين والبطن مما سوى ذلك ، أشعر الذراعين والمنكبين وأعالي الصدر ، طويل الزندين رحب الراحة سبط القصب شثن الكفين والقدمين سائل الأطراف، خَمصانُ الأخمصين، مسيح القدمين ينبو عنهما الماء، إذا زال زال قلعا يخطو تكفيا ويمشي هونا ذريع المشية إذا مشى كأنما ينحط من صبب، وإذا التفت التفت جميعا خافض الطرف ، نظره إلى الأرض أطول من نظره إلى السماء جل نظره الملاحظة ، يسوق أصحابه ، يبدأ من لقي بالسلام.

قلت: صف لي منطقه. قال: كان ﷺ متواصل الأحزان ، دائم الفكرة ، ليست له راحة، لا يتكلم في غير حاجة ، طويل السكوت، يفتح الكلام ويختمه بأشداقه ويتكلم بجوامع الكلم، كلامه فصل لا فضول ولا تقصير دمث ليس بالجافي ولا المهين، يعظم النعمة وإن دقت لا يذم منها شيئا لا يذم ذواقا ولا يمدحه ولا تغضبه الدنيا ولا ما كان لها وإذا تعوطي الحق لم يعرفه أحد ولم يقم لغضبه شيء حتى ينتصر له ، لا يغضب لنفسه ولا ينتصر لها، إذا أشار أشار بكفه كلها، وإذا تعجب قلبها، وإذا تحدث اتصل بها فيضرب بباطن راحته اليمنى باطن إبهامه اليسرى وإذا غضب أعرض وأشاح، وإذا فرح غض طرفه، جل ضحكه التبسم ويفتر عن مثل حب الغمام.

قال: فكتمتها الحسين زمانا ثم حدثته فوجدته قد سبقني إليه فسأله عما سألته عنه ووجدته قد سأل أباه عن مدخله ومخرجه وشكله فلم يدع منه شيئا.

قال الحسين: سألت أبي عن دخول رسول الله ﷺ فقال: كان دخول رسول الله ﷺ لنفسه مأذونا له في ذلك فكان إذا آوى إلى منزله جزأ دخوله ثلاثة أجزاء: جزءا لله ﷻ وجزءا لأهله وجزءا لنفسه ثم جزءا جزأه بينه وبين الناس ويرد ذلك إلى العامة ولا يدخر عنهم شيئا فكان من سيرته في جزء الأمة إيثار أهل الفضل بإذنه ، وقسمه على قدر فضلهم في الدين ،

فمنهم ذو الحاجة ومنهم ذو الحاجتين ومنهم ذو الحوائج فيتشاغل بهم ويشغلهم فيما أصلحهم والأمة من مسألتهم عنه وإخبارهم بالذي ينبغي لهم ويقول: ليبلغ الشاهد الغائب ، وأبلغوني حاجة من لا يستطيع إبلاغي حاجته؛ فإنه من أبلغ سلطانا حاجة من لا يستطيع إبلاغها إياه ثبت الله قدميه يوم القيامة ولا يذكر عنده إلا ذاك ولا يقبل من أحد غيره يدخلون روادا ولا يفترقون إلا عن ذواق ويخرجون أدلة.

قال: فسألته عن مخرجه: كيف كان يصنع فيه؟ فقال: كان رسول الله ﷺ يخزن لسانه إلا مما يعنيهم ويؤلفهم ولا يفرقهم أو قال: ينفرهم ويكرم كريم كل قوم ، ويوليه عليهم ويحذر الناس ويحترس منهم من غير أن يطوي عن أحد بشره ولا خلقه ، يتفقد أصحابه ويسأل الناس عما في الناس ويحسن الحسن ويقويه ويقبح القبيح ويوهنه معتدل الأمر غير مختلف لا يغفل مخافة أن يغفلوا أو يميلوا لكل حال عنده عتاد لا يقصر عن الحق ولا يجاوزه الذين يلونه من الناس خيارهم أفضلهم عنده أعمهم نصيحة وأعظمهم عنده منزلة أحسنهم مواساة ومؤازرة. فسألته عن مجلسه فقال: كان رسول الله ﷺ لا يجلس ولا يقوم إلا على ذكر ولا يوطن الأماكن، وينهى عن إيطانها إذا انتهى إلى قوم جلس حيث ينتهي به المجلس ويأمر بذلك ويعطي كل جلسائه بنصيبه لا يحسب جليسه أن أحدا أكرم عليه منه من جالسه أو فاوضه في حاجة صابره حتى يكون هو المنصرف ومن سأله حاجة لم يرده إلا بها أو بميسور من القول قد وسع الناس بسطه وخلقه فصار لهم أبا وصاروا عنده في الحق سواء مجلسه مجلس حلم وحياء وصبر وأمانة لا ترفع فيه الأصوات ولا تؤبن فيه الحرم ولا تثنى فلتاته متعادلين يتفاضلون فيه بالتقوى متواضعين يوقرون فيه الكبير، ويرحمون الصغير ، ويؤثرون ذوي الحاجة ، ويحفظون الغريب.

قال: قلت: كيف كانت سيرته في جلسائه؟ قال: كان رسول الله ﷺ دائم البِشْرِ سهل الخلق، لين الجانب، ليس بفظ ولا غليظ ولا صخاب في الأسواق ولا فحاش ولا عياب ولا مزاح يتغافل عما لا يشتهي، ولا يؤيس منه راجيه ولا يخيب، فيه قد ترك نفسه من ثلاث: المراء والإكثار وما لا يعنيه، وترك الناس من ثلاث: كان لا يذم أحدا ولا يعيره، ولا يطلب عورته ، ولا يتكلم إلا فيما رجا ثوابه، إذا تكلم أطرق جلساؤه كأنما على رءوسهم الطير ، فإذا سكت تكلموا ولا يتنازعون عنده الحديث من تكلم أنصتوا له حتى يفرغ ، حديثهم عنده حديث أولهم، يضحك مما يضحكون منه ويتعجب مما يتعجبون منه، ويصبر للغريب على الجفوة من

منطقه ومسألته حتى إن أصحابه ليستجلبونهم، ويقول: إذا رأيتم طالب حاجة يطلبها فأرشدوه ولا يقبل الثناء إلا من مكافئ ولا يقطع على أحد حديثه حتى يجوز فيقطعه بنهي أو قيام.

قال: قلت: كيف كان سكوت رسول الله ﷺ؟ قال: كان سكوته ﷺ على أربع: على الحلم وعلى الحذر والتقدير والتفكر فأما تقديره ففي تسوية النظر والاستماع بين الناس وأما تذكره أو قال تفكره ففيما يبقى ويفنى وجمع له الحلم في الصبر فكان لا يغضبه شيء ولا يستفزه وجمع الحذر في أربع: أخذه بالحسن؛ ليُقتدى به، وتركه للقبيح؛ ليتناهى عنه واجتهاد الرأي فيما أصلح أمته، والقيام فيما يجمع لهم الدنيا والآخرة»[1].

وإنما ذكرت هذا الخبر بطوله، لأجل أن يتزين به هذا الفصل، وتزدان به مباحثه.

(1) – دلائل النبوة، لأبي نعيم الأصبهاني، (ج 2/ ص: 627 – 632).

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

الفرع الثالث: المشاركة في علم العقيدة:

كتب دلائل النبوة لما أنشأها العلماء، كانت مقاصدهم مختلفة في ذلك، ومن المقاصد التي لأجلها وُضعت كتب دلائل النبوة، الدفاع على الرسالة التي بعثها الله ﷻ على أيدي رسله عليهم السلام، مما قوبلت به من التكذيب والإلحاد، لذلك نجد في ثنايا هذه الكتب دفاعا عن العقائد، وجوابا على الشبه التي تُثار حول القرآن الكريم، وذلك من خلال:

أولا: الرد على الملاحدة ومنكري الرِّسالات

وتجدر الإشارة أن كُتب الدلائل، إنما من أغراضها الأساسيّة إرساء أركان عقيدة المسلم، وأن عقيدة الإسلام تنفرد عن غيرها من العقائد الأخرى بدلائل فريدة تمكِّنها من الخلود إلى يوم القيامة[1].

ومن الدلائل على ذلك ما أورده الزيدي في مقدمة كتابه: «وأني لمّا رأيتُ غثاء الملحدة ورعاعها، مجتهدةً لإدخال الشبه في معجزات نبينا ﷺ على أنفسنا، وعلى من قادته يد الشَّقاء، وسلكت به خبط العشواء من جهَّال العوام وأوباشها، فهم عن الحق اليقين معرضون، وعن الصراط السوي ناكبون، وقد استهواهم الشيطان، واستزلهم الطغيان: ﴿ نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَأَنسَىٰهُمْ أَنفُسَهُمْ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَـٰسِقُونَ ﴿١٩﴾ ﴾ الحشر: ١٩، يظنون بجهلهم وعماهم أنهم قد فطنوا لما جهله العلماء، واستدركوا ما فات أهل الدين، وتنبهوا عما غبي عنه فضلاء المسلمين.

كلاَّ، بل هم صمٌّ عن الحق لا يسمعون، وبُكمٌ عند المحاج لا ينطقون، وعُميٌ عن الرشاد لا يبصرون، فإن أرذلهم طبقة، وأحسنهم طريقة، وأقلهم شبهة، وأعتاهم على الله ﷻ، وعلى رسوله ﷺ، وأعداهم للمسلمين، وأحرصهم على التحيل لإطفاء نور الله المبين ﴿ وَيَأْبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَـٰفِرُونَ ﴿٣٢﴾ ﴾ التوبة: ٣٢.

من ينتسب منهم إلى الباطن ويوهم أن وراء ما في أيدي المسلمين من حجج العقول والكتاب والسنّة؛ حقيقة عرفوها وحصلوها، وأنها ممنوعة مستورة، إلا عمن بذل لهم العهود

---

(1) – مباحث الإعجاز البلاغي للقرآن في كتب دلائل النبوة حتى نهاية القرن الخامس الهجري دراسة وتقويما، رسالة ماجستير من إعداد الطالب: منصور بن عمر السحيباني، إشراف الأستاذ: محمد بن علي الصامل، جامعة الإمام سعود الإسلامية، كلية اللغة العربية، العام الجامعي: 1429هـ- 1430هـ، (ص: 294)

والمواثيق، فإذا كشفتها وجدتها مخازي تلوح عن صفحاتها إثر الاستهزاء بمن يأخذ عنهم، ويلوذ بهم، يعدونهم حُمراً مستنفرةً، قد زينوا عندهم ارتكاب الفواحش، وأباحوا لهم قطوف المظالم، وأحلوا لهم شرب الخمور، وترك الصلوات، ومنع الزكوات ﴿ قَدْ ضَلُّواْ مِن قَبْلُ وَأَضَلُّواْ كَثِيرًا وَضَلُّواْ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ ۝٧٧ ﴾ المائدة: ٧٧»[(1)].

وقال أيضا في معرض رده عن مقالات بعض منكري النبوات: « ويقولون " إن النبي محمداً ﷺ إنما كان له التأييد دون ما سواه من الوحي والإرسال، ونزول جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ، ويشيرون بالتأييد إلى المزية التي تحصل لكل من تقدم في صناعة وبرع فيها؛ من شاعرٍ أو طبيبٍ أو فقيهٍ أو متكلمٍ أو منجّمٍ، ويسمون الشرائع نواميس، ويتوصلون إلى جحدها وإبطالها بادعاء أن لكل شيء منها باطنا إذا عُرف سقط وجوب العمل به، وينكرون البعث والنشور، ويقولون معنى القيامة: هو قيام محمد بن اسماعيل ابن جعفر وخروجه، ولولا أنه ليس غرضنا في كتابنا هذا وصف أقوالهم، ونشر فضائحهم، وبسط مقابحهم من فساد عقائدهم، ومساوئ دفائنهم، مما بيَّنه شيوخنا رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ من الأشراف والعلماء في كتبهم المصنفة»[(2)]

أما القاضي عبد الجبار، فنجده يفصح للقارئ عن مقصده في وضع كتابه في دلائل النبوّة، وذلك إذ يقول: « لتعلم كذب الحداد، وأبي عيسى الوراق، والحصري، وابن الراوندي، وهؤلاء علماء الإمامية ورؤساؤهم، وعليهم يعولون وإلى كتبهم يرجعون، ولكل هؤلاء كتبٌ يطعنون فيها على الأنبياء، ويدعون على قريش والعرب الجهل والبلادة والغباء، وأن رسول الله ﷺ خدعهم، وسخر منهم.

وهذه الكتب منقوضة قد نقضها غير واحدٍ من المعتزلة، والمطاعن على الأنبياء كلهم إنما هي من جهة هؤلاء الشيع، والإمامية تواليهم وترجع إلى أقوالهم»[(3)].

كذلك أبو عثمان الجاحظ يذكر الغاية من وضع كتابه حجج النبوة: « ... ولعل بعض من ألحد في دينه وعمي عن رشده وأخطأ موضع حظه أن يدعوه العجب بنفسه والثقة بما عنده إلى أن يلتمس قراءتها ليتقدم في نقضها وإفسادها فإذا قرأها فهمها وإذا فهمها انتبه من رقدته

(1) – إثبات نبوة النبي ﷺ، لأبي الحسن الزيدي، (ص 11-12).
(2) – المرجع نفسه، (ص 12-13).
(3) – دلائل تثبيت النبوة، للقاضي عبد الجبار، (ص 51)

وأفاق من سكرته لعز الحق وذل الباطل ولإشراف الحجة على الشبهة ولأن من تفرد بكتاب فقرأه ليس كمن نازع صاحبه وجاثاه لأن الإنسان لا يباهي بنفسه والحق بعد قاهر له، ومع التلاقي يحدث التباهي وفي المحافل يقل الخضوع ويشتد النزوع»[1].

فهذه وغيرها كثيرٌ نماذج يُفصح فيها علماء دلائل النبوة عن مقصدهم في التصدي للملاحدة والزنادقة الذين يريدون الإزراء بمعجزات الأنبياء، والتشكيك في أمر الله جلّ جلاله.

ثانيا: الرد على الروافض:

ومن خصّه العلماء في كتب دلائل الإعجاز بالردّ، الشيعة[2] الرافضة والإمامية[3]، فهذا الجاحظ يشدد عليهم النكير في قوله: « فإن قال قائل: هذه الروافض بأسرها تأبى ذلك وتنكره وتطعن فيه وترى تغييره.

قلنا: إن الروافض ليست منا بسبيل لأن من كان أذانه غير أذاننا وصلاته غير صلاتنا وطلاقه غير طلاقنا وعتقه غير عتقنا وحجته غير حجتنا وفقهاؤه غير فقهائنا وإمامه غير إمامنا وقراءته غير قراءتنا وحلاله غير حلالنا وحرامه غير حرامنا فلا نحن منه ولا هو منا»[4].

---

(1) – حجج النبوة ، للجاحظ، (3/ 235)

(2) – **الشيعة** هم الذين شايعوا عليا ﷺ على الخصوص. وقالوا بإمامته وخلافته نصا ووصية، إما جليا، وإما خفيا. واعتقدوا أن الإمامة لا تخرج من أولاده، وإن خرجت فبظلم يكون من غيره، أو بتقية من عنده، وقالوا: ليست الإمامة قضية مصلحية تناط باختيار العامة وينتصب الإمام بنصبهم، بل هي قضية أصولية، وهي ركن الدين، لا يجوز للرسل عليهم السلام إغفاله وإهماله، ولا تفويضه إلى العامة وإرساله، ويجمعهم القول بوجوب التعيين والتنصيص، وثبوت عصمة الأنبياء والأئمة وجوبا عن الكبائر والصغائر. والقول بالتولي والتبري قولا، وفعلا، وعقدا، إلا في حال التقية، الملل والنحل، لأبي الفتح الشهرستاني، (ج1/ ص: 146).

(3)– **الرافضة**: هم القائلون بإمامة علي ﷺ بعد النبي ﷺ؛ نصا ظاهرا، وتعيينا صادقا، من غير تعريض بالوصف بل إشارة إليه بالعين...، ثم إن الإمامية تخطت عن هذه الدرجة إلى الواقعية في كبار الصحابة طعنا وتكفيرا وأقله ظلما وعدوانا، وقد شهدت نصوص القرآن على عدالتهم والرضا عن جملتهم..، ثم إن الإمامية لم يثبتوا في تعيين الأئمة بعد: الحسن، والحسين، وعلي بن الحسين رضي الله عنهم على رأي واحد، بل اختلافاتهم أكثر من اختلافات الفرق كلها، الملل والنحل، للشهرستاني (ج1/ ص: 162-165)، وينظر: (الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب والأحزاب المعاصرة: (ج1/ص: 51)

(4) - رسالة حجج النبوة، للجاحظ (3/ 233- 234).

وقال الزيدي في إبطال ما تدعيه من الدعاوى، ولا حجة لهم في ذلك: « ولمثل هذا نقول: أن ما تدعيه الإمامية من النصوص، لا أصل لها، لأنها لو كانت لوجب أن يتواتر بها النقل، ويظهر»[1].

وفي حقيقة الأمر، ما كان في كتب دلائل إعجاز القرآن من مباحث عقدية، إنما جرَّ إليها الدفاع عن القرآن الكريم، وعن نقلته، والجواب على النزاعات الإلحادية التي قامت هنا وهناك، وغرضها الأول هو التشكيك في القرآن الكريم، فرأى علماء الدلائل إنه من اللازم المتحتم عليهم دفع تلك الشكوك والشُّبهات التي أثيرت حول القرآن الكريم، لذلك نجدها تتخللها تلك المباحث العقدية، في ثنايا حجاج أولئك الأقوام.

(1) – إثبات نبوة النبي ﷺ، (ص 35)

جمعية الإمام عبد القادر للعلوم الإسلامية

معلومٌ أن الأمَّة الإسلامية بسبب الفتوح التي كانت فيها، وما وقع من توسعٍ في رقعتها، كلُّ ذلك جرَّ إلى معرفة الحضارات التي طالتها تلكم التوسعات، وأهمُّها حضارة الرُّوم، واليونان التي كانت لها علومٌ أخصُّها تلك المدارك الفلسفية، والتي تمَّ بعد زمنٍ ترجمتها إلى اللغة العربية، فنظر فيها من نظر، فوقع تأثر بها، وبأثر ذلك ظهرت اتجاهات عقدية، وقامت من ورائها مدارس كلامية، كانت لها مشاركات في العلوم الإسلامية عموما، ومن ذلك ما يتعلق بإعجاز القرآن، «ولولا قول بعضهم بالصرفة لما كان لأهل السنة تطوير نظرية النظم، وكشف وجه الإعجاز القرآني »(1).

كما ساعد الخلاف في الرأي بين الفرق الإسلامية نفسها على إنهاض العقول من كبوتها، وإثارة المناقشات في كل ما يتصل بحياة المسلمين العامة دينية وسياسية واجتماعية، ومنها مسألة إعجاز القرآن...،وكثر الكلام في الدين والنبوة، وبحث في الإعجاز على أنه فرع لهما»(2).

ولمَّا كانت كُتب علم الكلام تكاد في معظمها لا تخلو من مبحثٍ فيما يتعلق بـ" مسألة إعجاز القرآن"، أردتُ أن استكشف تلك المادة العلمية، وأُبيِّنُ إسهامها في تأسيس علم إعجاز القرآن، وذلك من خلال المباحث الآتية:

المبحث الأول: مدخل في: التعريف بعلم الكلام وأهمّ مدارسه.

المبحث الثاني: علم إعجاز القرآن الكريم في كتب علم الكلام.

المبحث الثالث: تقويم درس الإعجاز في كتب علم الكلام

(1) – جهود علماء الغرب الإسلامي واتجاهاتهم في دراسات إعجاز القرآن (من القرن الخامس إلى القرن الثامن الهجري)، لحسن مسعود الطَّوير، دار ابن قتيبة دمشق– بيروت، الطبعة الأولى: 1430 هـ– 2011م،(ص: 139).

(2) – مباحث في البلاغة وإعجاز القرآن الكريم، لمحمد رفعت أحمد زنجير، طبعة جائزة دبي الدولية للقرآن الكريم، الطبعة الأولى: 1428 هـ– 2007م، (ص: 51).

المبحث الأول: مدخل في: التعريف بعلم الكلام وأهمّ مدارسه.

أول ما نستهلُّ به هذا المبحث هو التعريف بعلم الكلام، وبيان نشأته وأسباب تلك النشأة، ومساهمة العلماء بالكتابة في هذا العلم، ثم نذكر أهمَّ المدارس الكلامية التي لها أثرٌ واضحٌ في العناية بإعجاز القرآن الكريم، وذلك من خلال المطالب الآتية:

المطلب الأول: التعريف بعلم الكلام

المطلب الثاني: نشأة علم الكلام

المطلب الثالث: أهمُّ المدارس الكلامية.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

المطلب الأول: التعريف بعلم الكلام

قبل الحديث عن نشأة علم الكلام لابد من الشروع فيه التعريف بعلم الكلام، وذلك من خلال هذين الفرعين:

الفرع: التسمية.

قبل معرفة شيءٍ عن نشأة علم الكلام وتأريخه، يحسن ذكر ما يتعلق بتسميّته وتعريفه، فإن علم الكلام له عند العلماء عدّة أسماء، و « نظراً لتعدد الأسماء التي عُرف بها علم الكلام، حتى أوصلها بعضهم إلى ثمانية، الأمر الذي لا نعرف له نظيراً في علم آخر، ولأن السبب وراء كلّ تسمية منها قد لا يكون واضحاً من الناحيتين اللغوية أو التاريخية، ...ولذا فإن دراسة هذه التسميات التي عُرف بها علم الكلام قد تلقي ضوءا على تاريخ العلم وتطوراته »[1]

فمن الأسماء التي أطلقت على " علم الكلام":

الفقه الأكبر: وهي من أقدم التسميّات التي أُطلقت عليه

علم الكلام: وهو أشهر الأسماء، وذكروا له عدّة أسباب جعلت العلماء يطلقون هذا الاسم عليه[2].

علم أصول الدين: ويريدون الأحكام الاعتقاديّة، وجعلوا في مقابله علم الفروع، أي علم الحكام الفقهيّة.

علم العقائد: أي الأحكام التي يراد من الكلف الإيمان بها وتصديقها

علم التوحيد والصّفات: وسميّ كذلك لأن أشهر مباحثه ما يتعلق بصفات الله ﷻ.

علم النظر والاستدلال: وهذا أطلقه عليه بعضهم، لعل ذلك كونه علما قائماً على ذلك.

---

(1) – المدخل إلى دراسة علم الكلام، حسن محمود الشافعي، من منشورات إدارة القرآن والعلوم الإسلامية، باكستان، الطبعة الثانية: 1422هـ-2001م، (ص20).

(2) – يُنظر المرجع نفسه، (ص: 22-23)، أما عن سبب تسميته بعلم الكلام، فيقول الشهرستاني: « وسمتها باسم الكلام: **إما لأن أظهر مسألة تكلموا فيها** وتقاتلوا عليها، هي مسألة الكلام، فسمي النوع باسمها.

وإما لمقابلتهم الفلاسفة في تسميتهم فنا من فنون علمهم بالمنطق، والمنطق والكلام مترادفان»، ينظر: الملل والنحل، المؤلف : محمد بن عبد الكريم بن أبي بكر أحمد الشهرستاني، تحقيق : محمد سيد كيلاني، الناشر : دار المعرفة – بيروت ، 1404هـ، (ج1، ص:29).

الفرع الثاني: تعريف علم الكلام.

لعلنا نورد في هذا المقام عدة تعاريف، ثم نختار التعريف الأولى بالتقديم، فمن أقدم التعاريف لعلم الكلام؛ تعريف الإمام أبو حنيفة النعمان رَحِمَهُ اللَّهُ[1] إمام مذهب الأحناف وإليه يُنسبون، حيث قال:

« الْفِقْه فِي الدّين أَفْضَل من الْفِقْه فِي الْأَحْكَام، وَلِأَن يتفقه الرَّجل كَيفَ يعبد ربه خير لَهُ من أن يجمع الْعلم الْكثير قَالَ أَبُو مُطِيع قلت فَأَخْبرنِي عَن أفضل الْفِقْه قَالَ أبو حنيفَة أن يتَعَلَّم الرجل الإيمان بِاللَّه تَعَالَى والشرائع وَالسّنَن وَالْحُدُود وَاخْتِلَاف الْأمة واتفاقها»[2].

وقال الفارابي[3] في تعريفه:

« وصناعة الكلام يَقتدِرُ بها الإنسان على نصرة الآراء والأفعال المحدودة التي صرّح بها واضع الملّة، وتزييف كلِّ ما خالفها بالأقاويل»[4].

أمَّا أبو حامد الغزَّاليُّ[5]، فيقول:

---

(1) – وَاسْمُهُ النُّعْمَانُ بْنُ ثَابِتٍ؛ إمام الحنفية، الفقيه المجتهد المحقق، أحد الأئمة الأربعة عند أهل السنة. قيل: أصله من أبناء فارس. ولد ونشأ بالكوفة. وكان يبيع الخز ويطلب العلم في صباه، ثم انقطع للتدريس والإفتاء، وكان قويّ الحجة، من أحسن الناس منطقا، قال الإمام مالك، يصفه: رأيت رجلا لو كلمته في السارية أن يجعلها ذهبا لقام بحجته! وكان كريما في أخلاقه، جوادا، حسن المنطق والصورة، جهوريّ الصوت، إذا حدّث انطلق في القول وكان لكلامه دويّ، وعن الإمام الشافعيّ: الناس عيال في الفقه على أبي حنيفة، (80هـ – 150 هـ)، الأعلام للزركلي، (ج8/ص: 36).

(2) - الفقه الأكبر، المؤلف: ينسب لأبي حنيفة النعمان بن ثابت، الناشر: مكتبة الفرقان – الإمارات العربية، الطبعة: الأولى، 1419هـ - 1999م.، (ص: 82).

(3) – هو: محمد بن محمد بن طرخان بن أوزلغ، **أبو نصر الفارابيّ**، ويعرف بالمعلم الثاني: أكبر فلاسفة المسلمين، تركي الأصل، مستعرب. ولد عام: 260 هـ، في فاراب (على نهر جيحون)، وتوفي بدمشق عام: 339 هـ، كان يحسن اليونانية وأكثر اللغات الشرقية المعروفة في عصره، وعرف بالمعلم الثاني، لشرحه مؤلفات أرسطو (المعلم الأول)؛ له نحو مئة كتاب، أشهرها: الفصوص ترجم إلى الألمانية، وإحصاء العلوم والتعريف بأغراضها و آراء أهل المدينة الفاضلة، يُنظر: الأعلام للزركلي (ج7/ص: 20)

(4) – إحصاء العلوم، لأبي نصر الفارابي، قدّم له وشرحه وبوّبه: علي بوملحم، دار مكتبة الهلال، الطبعة الأولى: 1996م، (ص:86).

(5) – محمد بن محمد بن محمد الغَزَالي الطوسي، أبو حامد، حجة الإسلام: فيلسوف، متصوف، مولده ووفاته في الطابران (قصبة طوس، بخراسان)، (450 هـ- 505 هـ)؛ رحل إلى نيسابور ثم إلى بغداد فالحجاز فبلاد الشام فمصر، وعاد إلى بلدته. نسبته إلى صناعة الغزل (عند من يقوله بتشديد الزاي) أو إلى غَزَالة (من قرى طوس) لمن قال بالتخفيف، من أشهر كتبه إحياء علوم الدين، المستصفى، تهافت الفلاسفة، وله نحو مئتي مصنف، ينظر العلام، للزركلي، (ج7/ ص: 22-23).

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

« به يدرك التوحيد ويعلم به ذات الله ﷻ وصفاته»[(1)].

وأمّا ابن خلدون[(2)] في مقدمته، فيقول في تعريفه:

« هو علمٌ يتضمّنُ الحِجاجَ عن العقائدِ الإيمانيَّة بالأَدلّة العقليّة والرّدِّ على المُبتدعة المنحرفين في الاعتقادات عن مذاهب السّلف وأهل السّنّة. وسرّ هذه العقائد الإيمانيّة هو التّوحيد»[(3)].

قال محمود الشافعي من المعاصرين « البحث في الأحكام الاعتقادية من الشريعة الإسلامية، أو الأصول الدينية الكليّة للإسلام »[(4)].

ويمكن أن يُقال في تعريف علم الكلام: أنّه العلم الذي يبحث فيه عن الحكام الاعتقادية التي تتعلق بالإلهيات أو النبوات أو السمعيات من أجل البرهنة عليها أو دفع الشبه عنها.

(1) – إحياء علوم الدين، أبو حامد محمد بن محمد الغزالي، الناشر: دار المعرفة – بيروت. د ت ط، (ج1/ص: 14).

(2) – عبد الرحمن بن محمد بن محمد، ابن خلدون أبو زيد (732 هـ- 808 هـ): الفيلسوف المؤرخ، العالم الاجتماعي البحاثة، أصله من إشبيلية، ومولده ومنشأه بتونس؛ رحل إلى فاس وغرناطة وتلمسان والأندلس، وتولى أعمالا، واعترضته دسائس ووشايات، وعاد إلى تونس، ثم توجه إلى مصر فأكرمه سلطانها الظاهر برقوق، وولي فيها قضاء المالكية، ولم يتزيّ بزيّ القضاة محتفظا بزيّ بلاده. وعزل، وأعيد. وتوفي فجأة في القاهرة، كان فصيحا، جميل الصورة، عاقلا، صادق اللهجة، عزوفا عن الضيم، طامحا للمراتب العالية. الأعلام للزركلي، (ج3/ ص: 330).

(3) – ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر، عبد الرحمن بن محمد بن محمد، ابن خلدون ، المحقق: خليل شحادة، دار الفكر، بيروت، الطبعة: الثانية، 1408 هـ - 1988 م.، (ج1/ص: 580).

(4) - ا المدخل إلى دراسة علم الكلام، حسن محمود الشافعي، (ص 9)

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

المطلب الثاني: نشأة علم الكلام.

إنَّ معرفة نشأة العلوم والتأريخ لها من الأهمية بالمكان الذي لا ينبغي للباحث إغفاله، حتى يقفَ من خلال ذلك على تأثرها وتأثيرها في العلوم الأخرى، ويعرِفَ أصيل ذلك العلم من دخيله.

فأمّا بالنسبة لعلم الكلام « فالحقيقة أن أقوال الرّاصدين لهذا العلم والمشتغلين بقواعده مبادئه يتباينُون ويختلفون، فالبعضُ منهم يرى أنَّه علمٌ نشأ في دولةِ اليُونان قديماً، ووفد إلى بلادنا فيما وفد إلينا من أفكارٍ وآراءٍ وفلسفاتٍ.

بينما يرى البعضُ الآخرَ أنَّه علمٌ جديدٌ نشأ في دولة الإسلام، لتُدافعَ بأسلحتِه الكلاميَّة تلبيسَ المبْطِلينَ، وغاراتِ المُغيرين، وحِقْدِ الحاقدينَ على عقائدها الإيمانيّة»(1)

ذلك ما جعل عبد الهادي الفُضيلي يقول: « يعدُّ علم الكلام في طليعة العلوم الإسلامية الأصيلة، فقد ثبت تاريخياً أنه وُلد في بيئة المسلمين فكرياً وجغرافياً، ولم يُعرف أنه تأثر في وضعه بثقافة غير إسلامية»(2)

بل هذا ابن عساكر يقول: «والْعجب مِمَّن يَقُول لَيسَ فِي الْقُرْآن علم الْكَلَام والآيات الَّتِي هِيَ فِي الْأَحْكَام الشَّرْعِيَّة نجدها محصورة والآيات المنبهة على علم الْأُصُول نجدها تُوفي على ذَلِك وتربي بِكَثِير.

وَفِي الْجُمْلَة لَا يجْحَد علم الْكَلَام إِلَّا أحد رجلَيْنِ:

- **جَاهِلٌ ركن إِلَى التَّقْلِيد** وشق عَلَيْهِ سلوك طُرُق أهل التَّحْصِيل وخلا عَن طُرُق أهل النّظر وَالنَّاس أَعدَاء مَا جهلوا فَلَمَّا انْتهى عَن التَّحَقُّق بِهَذَا الْعلم نهى النَّاس ليضل كَمَا ضل.
- **أَو رجلٌ يعْتَقد مَذَاهِب فَاسِدَة** فينطوي على بدع خُفْيَة يلبس على النَّاس عوار مذْهبه ويعمي عَلَيْهِم فضائح عقيدته وَيعلم أَن أهل التَّحْصِيل من أهل النّظر هم الَّذين يهتكون

(1) – شرح المقاصد في علم الكلام، مسعود بن عمر بن عبد الله الشهير بسعد الدين التفتازاني، تحقيق وتعليق: الدكتور عبد الرحمن عميرة، تصدير: صالح موسى شرف، عالم الكتب، بيروت لبنان، الطبعة الثانية: 1419هـ- 1998م.، (مقدمة: ص:23).

(2) –خلاصة علم الكلام، عبد الهادي الفضيلي، دار المؤرخ العربي، بيروت لبنان، الطبعة الثانية: 1414هـ-1993م، (ص9).

جمعية الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

السّتْر عَن بدعهم ويظهرون للنَاس قبح مقَالاتهم والقلاب لَا يحب من يُمَيِّز النُّقُود والخلل فِيمَا فِي يَده من النُّقُود الْفَاسِدَة كالصراف ذِي التَّمْيِيز والبصيرة وَقد قَالَ اللَّه ﷻ: ﴿ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ الزمر: ٩»[1].

أمَّا في مقابل هذا الرأي فإننا نجد مثلاً ابن تيمية لا يعدُّه من علوم العقلاء، فضلا على أن يكون من علوم الإسلام، ففي مقدمة كتابه "الرد على المنطقيين" يقول: « ...أما بعد فإني كنت دائما أعلم أن المنطق اليوناني لا يحتاج إليه الذكي ولا ينتفع به البليد ولكن كنت أحسب أن قضاياه صادقة لما رأيت من صدق كثير منها.

ثم تبيَّن لي فيما بعد خطأ طائفة من قضاياه وكتبت في ذلك شيئا ثم لما كنت بالإسكندرية اجتمع بي من رأيته يعظم المتفلسفة بالتهويل والتقليد فذكرت له بعض ما يستحقه من التجهيل والتضليل»[2].

ومن هنا نشأ خلاف آخر في علم الكلام نفسه، بين مؤيّدٍ ومعارض رافض له، فأما المتكلمون فقد أيّدُوا الاشتغال به، بل عدوه من الضرورة بمكان لإثبات أصول الدين، وفي مقابل هؤلاء أقوامٌ يرون مضرّة هذا العلم، بل أفتى بعضهم بتحريم النظر إليه

ويمكن أن يقال: إن علم الكلام مباح عند الحاجة، ويجب أن يؤخذ منه بقدر الحاجة، وأن يقتصر فيه على الجلي الظاهر وعدم التعمق في الأبحاث والتفريعات، أم المذموم، فهو الكلام

(1) – تبيين كذب المفتري فيما نسب إلى الإمام أبي الحسن الأشعري، المؤلف: أبو القاسم علي بن الحسن بن هبة الله المعروف بابن عساكر، الناشر: دار الكتاب العربي – بيروت، الطبعة: الثالثة، 1404هـ، (ص: 359)، وينظر في ذلك رسالة استحسان الخوض في علم الكلام، لأبي الحسن بن اسماعيل الأشعري الشافعي، راجعها: محمد الوليّ الأشعري، دار المشاريع بيروت لبنان، الطبعة الأولى: 1415هـ-1995م، (ص: 38 ما بعدها).

(2) – الردُّ على المنطقيين، لابن تيميّة، تحقيق: عبد الصمد شرف الدين الكتبي، راجعه: محمد طلحة بلال منيار، مؤسسة الريان- بيروت، الطبعة الأولى: 1426هـ- 2005م، (ص: 45)، وينظر في هذا الرأي: ذم الكلام وأهله، المؤلف: أبو إسماعيل عبد الله بن محمد بن علي الأنصاري الهروي، المحقق: عبد الرحمن عبد العزيز الشبل، الناشر: مكتبة العلوم والحكم – المدينة المنورة، الطبعة: الأولى، 1418هـ -1998م، وكتاب: أحاديث في ذم الكلام وأهله، المؤلف: أبو الفضل عبد الرحمن بن أحمد المقرئ، المحقق: الدكتور ناصر بن عبد الرحمن بن محمد الجديع، الناشر: دار أطلس للنشر والتوزيع، الطبعة: الأولى 1417 هـ - 1996 م.

جمعية الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

المخالف للكتاب والسنة كإدخال مسائل لا توافق الكتاب والسنة، أو إثبات مسائل على وجه لا يوافق الكتاب والسنة [1].

الفرع الأول: عوامل نشأة علم الكلام:

لا شكَّ أن لكل علمٍ من العلوم أُموراً تجتمع لتكون سبباً في نشأته وتكوّنُ مباحثه، وعلم الكلام لا يختلف الأمر معه، فقد اجتمعت له من الأمور ما جعلته علماً مستقلاً عن غيره، متمايزاً بمباحثه، بغضِّ النظر عن اختلاف مدارسه، ولعلّ أهمَّ الأسباب التي كانت من وراء ذلك الظهور هي:

السبب الأول: ترجمة الفلسفات

لعل هذا السبب كان من الأسباب الظاهرة والقديمة في ظهور علم الكلام، فإن الحركة الواسعة في ترجمة علوم الحضارات السابقة، والتي حدثت خاصة في عهد الدولة العباسية، جعلت كثيرين يستحسنون ما وقفوا عليه من فلسفات رومانية ويونانية، فعزموا على إدخالها إلى العلوم الإسلامية، يقول عبد الرحمن عميرة في مقدمة تحقيقه لكتاب التفتازاني "شرح المقاصد": « تطلع بعض المسلمين إلى تراث الأمم السابقة كدولة الفرس واليونان، وعكوفهم على ترجمة هذه الكتب عامل جوهري أيضا في التعرف على علم الكلام» [2].

السبب الثاني: الديانات الشرقية القديمة:

ويضاف إلى ذلك التأثر بالديانات الشرقية القديمة، مثل:

الصابئة [3]

---

(1) – يُنظر لذلك، كتاب: الفرق الكلامية الإسلامية مدخل ودراسة، الدكتور: علي عبد الفتّاح المغربي، مكتبة وهبة القاهرة / مصر، الطبعة الثانية: 1415 هـ – 1995م.، فقد استوفى المسألة بحثا، وأورد أدلة كلِّ طائفة، (ص:102-109).

(2)– شرح المقاصد، للتفتازاني، تحقيق وتعليق: عبد الرحمن عميرة، (مقدمة: ص:28)

(3) – **الصابئة**: مدار مذهبهم على التعصب للروحانيين. كما أن مدار مذهب الحنفاء هو التعصب للبشر، الجسمانيين، والصابئة تدعي أن مذهبها هو الاكتساب، والحنفاء تدعي أن مذهبها هو الفطرة، فدعوة الصابئة إلى الاكتساب، ودعوة الحنفاء إلى الفطرة، الملل والنحل، للشهرستاني، (ج2/ ص: 4)

جمعية الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

والبراهمة[1]

والمانوية[2]

والمجوس[3]، لأنها مذاهب كانت قائمة على الإلحاد والمادية وما إليهما، مما جعل علماء الكلام يتصدون لهذه المذاهب الواردة.

يقول علي عبد الفتّاح المغربي: « فكان الردُّ على أصحاب تلك الديانات الشرقية القديمة، وإثبات بطلان أفكارها، والدفاع عن الدين الإسلامي، سبباً في قيام علم الكلام»[4].

السبب الثالث: التأثر بالأفكار اليهودية والنصرانيّة

من المعلوم أن أُمّـتيْ اليهود والنصارى كان الاحتكاك بهما قريباً جداً، وأظهر ما كان التأثر باليهود والنصارى، ما كان في مجال تفسير كتاب الله ﷻ، لذلك ظهر ما يسمّى بالإسرائيليات، ثم اتسع التأثر باليهود حتى كان في العقائد، يقول عبد الرحمن عميرة في مقدمته على كتاب التفتازاني: « أضف إلى ذلك تسرب الأفكار اليهودية والمسيحية إلى بعض مفكري المسلمين، عن طريق الحوار والاحتكاك، ومن هذه الأفكار: ما رددته الجهميّة أن الإنسان مجبور تماما على فعله، وهي تُنسب إليه كما تنسب الأفعال إلى الجمادات!!

---

(1) – **البراهمة**: من الناس من يظن أنهم سموا براهمة لانتسابهم إلى إبراهيم عليه السلام وذلك خطأ فإن هؤلاء هم المخصوصون بنفي النبوات أصلا ورأسا فكيف يقولون بإبراهيم عليه السلام ؟ ...، وهؤلاء البراهمة إنما انتسبوا إلى رجل منهم يقال له: براهم وقد مهد لهم نفي النبوات أصلا وقرر استحالة ذلك في العقول بوجوه.

ثم إن البراهمة تفرقوا أصنافا : فمنهم أصحاب البددة، ومنهم أصحاب الفكرة، ومنهم أصحاب التناسخ، الملل والنحل، للشهرستاني، (ج2 / ص: 249).

(2) – **المانوية**: أصحاب ماني بن فاتك الحكيم الذي ظهر في زمان سابور بن أردشير وقتله بهرام بن هرمز بن سابور وذلك بعد عيسى ابن مريم عليه السلام أحدث دينا بين المجوسية والنصرانية، وكان يقول بنبوة المسيح عليه السلام ولا يقول بنبوة موسى عليه السلام،... زعم أن العالم مصنوع مركب من أصلين قديمين : أحدهما نور والآخر ظلمة وأنهما أزليان لم يزالا ولن يزالا وأنكر وجود شيء إلا من أصل قديم، الملل والنحل، للشهرستاني (ج1/ ص: 243).

(3) – **المجوس**: أثبتوا أصلين – الظلمة والنور–، إلا أن المجوس الأصلية زعموا أن الأصلين لا يجوز أن يكونا قديمين أزليين بل النور أزلي والظلمة محدثة ثم لهم اختلاف في سبب حدوثها: أمن النور حدثت والنور لا يحدث شرا جزئيا، فكيف يحدث أصل الشر ؟ أم من شيء آخر ولا شيء يشرك النور في الإحداث والقدم، الملل والنحل، للشهرستاني، (ج1/ ص: 232)

(4) – الفرق الكلامية الإسلامية مدخل ودراسة، الدكتور: علي عبد الفتّاح المغربي، (ص: 60)

وما ردده المعتزلة: أن الإنسان يفعل الأفعال باختياره، ويخلقها بقدرته، وهذان المذهبان في نفي القدر وإثباته، هما:

مذهب الأبقوريين[1] القائلين بحرية الإرادة ، ومذهب الرواقيين[2] القائلين بان الإنسان مسيّر لا مخيّر

ثم مذهبان ممثلان لليهود: فمنهم الربانيون[3] ينفون القدر، والقراؤون[4] يقولون بالجبر.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

---

(1) – **الأبيقوريون**: أتباع الفيلسوف أبيقور اليوناني (343 - 270 ق. م)، مؤسس لأبيقورية، قال بأن المتعة أو السعادة، هي غاية الحياة الإنسانية، مؤكداً أ هذه المتعة لا تتم للمرء من طريق ممارسة الفضيلة، اعتبر لإدراك الحسي أساس المعرفة الأوحد، وقال بأن الأشياء المادية تطلق على نحو موصولٌ، صوراً ذرية تنطبع على حواسنا لم يبق لنا من آثاره الكثيرة غير نُتفٍ متناثرة، معجم أعلام المورد، تأليف: منير البعلبكي، دار العلم للملايين – بيروت، الطبعة الأولى: 1992م، (ص:46)، ويُنظر أيضا: الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب والأحزاب المعاصرة، المؤلف: الندوة العالمية للشباب الإسلامي، إشراف وتخطيط ومراجعة: د. مانع بن حماد الجهني، الناشر: دار الندوة العالمية، الرياض- السعودية، الطبعة الخامسة: 1424هـ، 2003م، (ج2/ ص: 790)

(2) – **الرواقيون**: الرواقيّة: مذهب إحدى المدارس الفلسفية اليونانية الكبرى، وسميت كذلك نسبةً إلى الرواق الذي كان يُعلِّمُ فيه مؤسسها زينون الكتيومي، والرواقية صورة من صور مذهب وحدة الوجود، واشتهرت خاصة بآرائها الأخلاقية التي تقوم على أن الخير لأسمى مجهود لا يخضع إلا للعقل، ولا يبالي بالظروف الخارجية من صحة أو مرض، من غنى أو فقر، المعجم الفلسفي، مجمع اللغة العربية، تصدير: إبراهيم مدكور، الناشر: الهيئة العامة لشؤون الطباعة- القاهرة: 1403هـ- 1983م، بتصرف، (ص: 93)

(3) – **الربانيون**: (RABBINATE): ويمثلون جمهور اليهود قديماً وحديثاً. وأطلق عليهم هذا اللقب لإيمانهم بأسفار التلمود التي ألَّفها الربانيون وهم الحاخاميم أو الفقهاء لهذه الطائفة. ومن أبرز مبادئ هذه الطائفة ما يأتي:

أ- أنها تعترف بجميع أسفار العهد القديم، وتذهب إلى تأويل النصوص.

ب- تؤمن بأسفار التلمود.

ج تؤمن بالبعث، وتعتقد أن الصالحين من الأموات سينتشرون في هذه الأرض ليشتركوا في ملك المسيح المنتظر، الذي يزعمون أنه سيأتي لينقذ الناس ويدخلهم في اليهودية.

د- أشدّ طوائف اليهود عداوة لغيرهم من الأمم. وينظرون إلى من عداهم بعين النقص والازدراء وبأنهم حيوانات خلقوا في صورة البشر لخدمة اليهود، تخجيل من حرف التوراة والإنجيل، أبو البقاء صالح بن الحسين الجعفري الهاشمي، دراسة وتحقيق: محمود عبد الرحمن قدح، مكتبة العبيكان – السعودية، د ت ط.، (ج2/ ص: 530).

ومن هذه الطائفة نشأت الحركة الصهيونية والحركات الهدّامة الأخرى التي تهدف إلى إخضاع العالم لليهود.

(4) – **القراؤون**: ويقال لهم: العنانية، أَتبَاع عنان بن دَاوُد وَلَا يذكرُونَ عِيسَى بسوء بل يَقُولُونَ إِنَّه كَانَ من أَوْلِيَاء الله تَعَالَى وَإِن لم يكن نَبيا وَكَانَ قد جَاءَ لتقرير شرع مُوسَى ﷺ، وَالْإِنْجِيل لَيْسَ بِكِتَاب لَهُ بل الْإِنْجِيل كتاب جمعه بعض تلاميذه، اعتقادات فرق المسلمين والمشركين، لفخر الدين الرازي، (ص: 83)، وينظر أيضا: الملل والنحل، للشهرستاني، (ج1/ ص: 209)، للشهرستاني، تخجيل من حرف التوراة والإنجيل، المؤلف: لأبي البقاء الهاشمي، (ج2/ ص: 531).

فائدة: للباحث مراد فرج كتاب بعنوان " القراؤون والربانيون.": وفيه يشير إلى: أن الربانيين هم جمهور اليهود المعروفين أكثر من غيرهم، أي عدا اليهود القرائين.

ثم مذهبان تاليان مسيحيان، فالمسيحيون الشرقيون يقولون: إن الإنسان مخيّر، والآخرون: يقولون بالجبر»[1].

فأما علاقة اليهودية بعلم الكلام، فيلخصها علي عبد الفتاح المغربي بقوله:« ولقد تسرب الفكر اليهودي إلى بعض فرق المسلمين، وبدأ بدخول الإسرائيليات في الأحاديث النبوية، فلقد وضعت الأحاديث المتعلقة بالإمامة والوصاية والتشبيه والتجسيم، وهي مستمدة من التوراة، وضعها اليهود الذين اعتقوا الإسلام...، ولقد كان لإدخال اليهود لهذه الآراء ونشرها، أثرٌ في قيام علم الكلام»[2]

أما النصرانية: فإن عقائد النصارى من القول بالتثليث، وألوهيّة المسيح، وإنكارهم لنبوة محمد ﷺ وغيرها من العقائد التي جاءت مصادمة لعقيدة الإسلام، مما جعل هذه القضايا « سبباً لحدوث المناقشات بين المسلمين والنصارى...، فقد قاوم المتكلمون المسيحية مقاومة عنيفة، وردوا عليهم بالأدلة العقليّة»[3]

السبب الرابع: الأحداث السياسية

لا يشكُّ أحدٌ فيما للأحداث السياسية من أثر في نشأة العلوم وتدوينها، إذ قد« لعبت الأحداث السياسية في البيئة الإسلامية دوراً هاماً في نشأة علم الكلام، وذلك لارتباطها بالعقائد، فلقد حاول كلُّ فريقٍ مناصرة رأيه بأن يوجد له أساساً في الدّين، فأدى ذلك إلى تأويله للآيات القرآنية بما يتفق مع مذهبه، وأن يضع من الأحاديث ما يناصر رأيه، وأدّى ذلك كله إلى صبغ العقيدة بصبغة فلسفية»[4].

السبب الخامس: عامل الترجمة

لا شك أن ظاهرة ترجمة العلوم الأجنبية عن علوم الإسلام، كانت لها بدايات متقدمة من العصر الأموي، ثم ازدادت ازدهاراً في العصر العباسي، كما كانت لها آثار واضحة على حدوث آراء جديدة في العقائد وغيرها، يقول علي عبد الفتاح المغربي « عامل الترجمة واطلاع

(1) – شرح المقاصد، للتفتازاني، تحقيق وتعليق: عبد الرحمن عميرة، (مقدمة: ص:28)
(2) – الفرق الكلامية الإسلامية مدخل ودراسة، الدكتور: علي عبد الفتّاح المغربي، (ص: 81)
(3) – المصدر نفسه، (ص: 91).
(4) – المصدر نفسه، (ص: 54).

المتكلمين على هذه العلوم المترجمة أدى بهم إلى أن يأخذوا موقفاً من تلك العلوم سواء بالرفض لمعارضة تلك العلوم في جانب الإلهيات لعقيدة الإسلام، أو أنها تمسُّ الجانب الديني ولا تتفق مع العقيدة الصحيحة، أو بالقبول لبعض العلوم التي ليست لها صلةٌ بالعقيدة»[1]

تُعَدُّ هذه الأسباب من أهل الأسباب التي أسهمت إسهاماً جليّاً في نشأة علم الكلام.

وأيضا يمكن القول بأن بعض الغايات المنشودة للمتكلمين، كانت من وراء نشأت هذا العلم، كما يصرح بذلك في قوله: « وإنما مقصوده حفظ عقيدة أهل السنة، وحراستها عن تشويش أهل البدعة، فقد ألقى الله ﷻ، إلى عباده على لسان رسوله عقيدة هي الحق. على ما فيه صلاح دينهم ودنياهم، كما نطق بمعرفته القرآن والأخبار، ثم ألقى الشيطان في وساوس المبتدعة أموراً مخالفة للسنة، فلهجوا بها وكادوا يشوشون عقيدة الحق على أهلها، فأنشأ الله ﷻ، طائفة المتكلمين، وحرك دواعيهم لنصرة السنة بكلام مرتب، يكشف عن تلبيسات أهل البدع المحدثة، على خلاف السنة المأثورة، فمنه نشأ علم الكلام وأهله،..»[2]

ورأي الغزَّاليُّ رحمه الله كما نلاحظه من كلامه أشبه بالتحليل الموضوعي لعلم الكلام، من حيث دواعي نشأته وتطوره من دفاع عن العقيدة يدفع الشبه المثارة حولها، إلى بحثٍ شاملٍ في الوجود من حراسة العقيدة والذّب عنها أيضاً، ومن حيث وظيفته التي هي حماية العقيدة لا إنشاؤها أو تقويتها، ومن حيث منهجه العقلي المنطقي الذي لا يصلح لكل أصناف الخلق بل للبعض منهم فقط[3].

(1) – الفرق الكلامية الإسلامية مدخل ودراسة، الدكتور: علي عبد الفتّاح المغربي، (ص: 98).

(2) – المنقذ من الضلال، أبو حامد محمد بن محمد الغزالي، بقلم: الدكتور عبد الحليم محمود، الناشر: دار الكتب الحديثة، مصر، د ت ط.، (ص: 118).

(3) – ينظر: المدخل إلى دراسة علم الكلام، حسن محمود الشافعي، (ص 14)، بتصرف.

الفرع الثاني: مراحل نشأة علم الكلام:

لقد نشأ علم الكلام كغيره من العلوم الدينية والدنيوية على مراحل متفاوت، يمكن أن تلخص على النحو الآتي:

أولا: مرحلة الظهور: وهي مرحلة مهمٌ العلم بها « ويُقصد بها المرحلة التي بدأت فيها المناقشات والمباحثات حول بعض المسائل الاعتقادية، ونشأ عن بعض المناقشات والمباحث خلافات في الرأي تحولت بعد حين إلى اتجاهات تتبناها بعض الطوائف أو الجماعات، ولكن هذه المباحث لم تدوّن كلّها، والاتجاهات الناجمة عنها لم تتحول إلى مذاهب مكتملة لها آراؤها في كافة المسائل الاعتقادية أو أكثرها كما سيحدث فيما بعد، بل اقتصر الأمر على إبداء الرأي في مسألة معيّنة أو عدّة مسائل متفرقة، وتغلب الطابع السياسي على هذه التجمعات دون الطابع الفكري، وأظهر مثال على ذلك حالة الخوارج»[1]

ثمّ هنا يرد علينا إشكال ألا وهو: هل نشأته إسلامية أصيلة، أم أنها نشأة متأثرةٌ بعوامل أجنبيّة؟ نجد تحت هذا الإشكال اختلافاً في الآراء:

فمن العلماء من يعدُّ "علم الكلام" علما إسلاميا أصيلا كانت نصوص الشريعة كتاباً وسنَّةً من وراء نشأته، فهذا الباحث حسن محمود الشافعي يقول: « وأعتقد أن الدراسات الموضوعية لتاريخ هذا العلم – بقدر ما تُسعف الشواهد المتاحة- ما زالت تشهد لهذا الرأي وتؤكد أن المباحث الاعتقادية – وهي أمر تولّد من اتجاهات الخوارج والمرجئة والقدريّة ومن على شاكلتهم- تعود في الأصل إلى الكتاب والسنَّة وإلى تفاعل العقل المسلم في عصر الصحابة والتابعين، مع هذين المصدرين الأساسين للإسلام»[2]

كما يرى أنه ربما كان التأثر في هذه المرحلة، كان في أواخرها حين قامت عوامل لها أثر في تزايد مباحث علم الكلام، ومن ذلك:

« 1- اتساع الفتوح وما أدى إليه من مزيد الاحتكاك بثقافات وأديان مخالفة.

2- التطورات السياسية والاجتماعية والثقافية المتدافعة داخل العالم الإسلامي نفسه

---

(1) – المدخل إلى دراسة علم الكلام، حسم محمود الشافعي، (ص: 46)

(2) – المصدر نفسه، (ص: 46).

3- وقد يضيف البعض عاملا آخر يرتبط بكلا العاملين السابقين معاً؛ وهو اتجاه بعض العناصر المغلوبة إلى إثارة فتن ومؤامرات تهدف إلى بلبلة العقائد وزلزلة الوحدة الفكرية في الجماعة المسلمة»[1].

في مقابل هذا الرأي نجد من يعدُّ علم الكلام علمٌ غريبٌ عن بيئة الإسلام، فضلاً أن تكون نصوصه هي المتسببة في نشأته، يقول عبد الرحمن عميرة: « ومن هنا نرى أن علم الكلام غريب عن البيئة الإسلامية، وقد وفد إليها من خلف السُّدود والحدود، وكان بداية للغزو الفكري المنّظم الذي شنّت جيوشه غارتها بانتظام على هذه الأمّة، فأصابت منها مقاتل، ولكنّها لم تُجهز عليها»[2].

والذي يظهر من الرأيين المتباينين أنَّ المسألة لها اعتبارات، فمثلا كثير من **مواضيع** هذا العلم أصلها من الكتاب والسنَّة، **أما بحثها وطرق النظر فيها والاستدلال** فقائمٌ على منطق اليونان، ولما كانت بعض مقدمات ذلك العلم، فيه من الخطأ البيّن رجع ذلك على الخطأ في تقرير المسائل الكلامية.

وكان من أهم المسائل التي تمّت إثارتها ودراستها في هذه المرحلة: **مسألة مرتكب الكبيرة، ومسألة القدر، ومسألة الإمامة**[3].

ثانيا: مرحلة التدوين وظهور الفرق:

هذه المرحلة هي التي جاءت بإثر المرحلة الأولى، والترتيب المنطقي يقتضي ذلك: «فمنذ أوائل القرن الثاني بدأت بحوث المسلمين حول العقيدة تدخل في طور جديد؛ فتُعقد لها حلقات متخصصة، وتنشأ فيها اتجاهات واضحة، وتتحول إلى مذاهب متكاملة، لها آراؤها المتميزة في مختلف مسائل العقيدة لا في واحدة فحسب، وغالباً ما تعتنق هذه المذاهب فرقٌ أو جماعاتٌ، فيها القيادة وفيها الأتباع، لا يقتصرون على وضع أصول المذاهب نظريا أو اعتناقها فكرياً، بل

(1) – المدخل إلى دراسة علم الكلام، حسم محمود الشافعي ، (ص: 48
(2) – شرح المقاصد، لسعد الدين التفتازاني، تحقيق وتعليق: عبد الرحمن عميرة، (ص:30).
(3) – المدخل إلى دراسة علم الكلام، لمحمود الشافعي، (ص: 53 وما بعدها)

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

قد ينزعون أيضاً إلى تطبيقها عملياً في جوانب حياة المجتمع المسلم الرُّوحيّة والسياسية والاجتماعية والفنيّة»[1].

ولعلّ من أبرز ظواهر هذه المرحلة كما أسلفنا هو ظهور المذاهب الكلامية واستقرارها، وبلورة أصولها العقائدية وتدوينها[2].

ثالثا: مرحلة التطور والاختلاط بالفلسفة:

هذه المرحلة مرحلةٌ مهمَّةٌ، لأنها مرحلة بدأ فيها تحديد مواضيع العلم، ووضع المصطلحات بإزائها، و« أبرز ظواهر المرحلة الثالثة، والتي تشمل القرن السادس الهجري، وما بعده حتى نهاية التاسع:

أولاً: خضوع علم الكلام لتطور جديد شمل مادته، ومناهجه وطريقة موضوعاته، وربما مصطلحاته أيضا، حتى سمي إنتاج هذه الفترة بـ" كلام المتأخرين" في مواجهة " كلام المتقدمين"، الذي أنتجه متكلمو الفترة السابقة.

ففي مادته: اختلط علم الكلام بإنتاج الفلاسفة المسلمين، في الإلهيات بل وفي البحوث الطبيعية وغيرها، وكان ذلك بغرض الردّ على ما قد تضمنه من آراء مخالفة للعقيدة الإسلامية، ودعم المواقف الكلامية ببعض أفكار هؤلاء الفلاسفة فيما سوى ذلك...

ومن حيث المنهج: نجد أن معظم المتكلمين قد اعتمدوا المنطق اليوناني واستخدموا أساليبه الصورية إلى جانب المناهج الكلامية التقليدية، التي استمد أكثرها من مناهج الفقهاء، ومباحث أصول الفقه.

أما عن توزيع الموضوعات: فقد خضع فيما يبدو لتنظيم جديد، إذ كان من عادة السابقين أن يبدؤوا مؤلفاتهم بأبواب منهجية تمهيدية في النظر والمعارف وحقيقة العلم، لكن هؤلاء المتأخرين أخذوا يبدؤون كتبهم بأبواب فيما يسمى" الأمور العامة"، وهي مباحث تضمُّ القواعد المنهجيَّة التقليديَّة في النَّظر والمعارف، ومباحثُ منطقيّةٌ وميتافيزيقيّةٌ وطبيعيّةٌ تتعلق بالأحكام المشتركة بين الموجودات واجبة كانت أو ممكنة.

(1) – المصدر السابق، (ص: 64).

(2) – يُنظر: مدخل إلى دراسة علم الكلام، (ص:65).

أما المصطلحات: فإنه كان طبيعيا بعد هذا الامتزاج بين الكلام والفلسفة، أن تنمو المصطلحات الكلامية وتتطور وتزداد ارتباطا بالفلسفة بعد أن كانت في غالب أمرها قرآنية فقهية»[(1)].

ومن ظواهر هذه الفترة: اختفاء المعتزلة تقريباً كفرقة متميّزة إلا من أفراد عُرفوا بالاعتزال، وإن كانت لهم بعض الانتماءات الأخرى.

أيضا انتقل مركز البحث في المذهب الماتريدي من منشئه فيما وراء النهر إلى خراسان وشبه القارة الهندية، وإلى آسيا الصغرى، إذ عضّد العلماء الأحناف في هذه المناطق ذلك المذهب وانتجوا فيه الكثير.

وسيطرة الأشاعرة تقريباً تبعاً لظروف مواتية لهم على أكثر مناطق العالم الإسلامي، ومنها العالم العربي وفارس.

ومن الظاهر المهمة في هذه الفترة، تلك الموجة التجديدية والنقديّة التي أثارها ابن تيميّة في الكلام السنّي من أبرز أحداث هذه الفترة، وأكثرها أصالة وتعبيرا عن روح الفكر الإسلامي الأصيل، في مواجهة الخلط المسرف للكلام بالفلسفة، واستسلام الأشاعرة للمناهج الاعتزالية، والهجوم الاثنا عشري على العقائد السنيّة[(2)].

رابعا: مرحلة الفتور والتقليد:

هي مرحلة « غلب عليها الفتور والتقليد والاكتفاء بإعادة العرض واجترار الماضي، فكان جلُّ إنتاجها شرحاً أو تلخيصاً أو نقداً لمؤلفات السابقين في غالب الأمر.

ومن خصائص هذه المرحلة أنه: « زاد التقارب بين علم الكلام والتصوف الذي بدت بوادره في المرحلة السابقة أو قبلها، حتى صار متكلمو هذه الفترة لا يجدون بأسا – أحياناً- في أن يلحقوا بمؤلفاتهم في الكلام فصولاً صوفية ...غير أن طابع المزج بين الكلام و التصوف والفلسفة جميعاً قد غلب على إنتاج المفكرين الفُرس بوجه خاص»[(3)] .

(1) – المدخل إلى دراسة علم الكلام، (ص: 108 وما بعدها) بتصرف.
(2) – المصدر نفسه، (ص: 110-112).
(3) – المصدر نفسه، (ص:114- 115)

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

خامسا: المرحلة الحديثة والمعاصرة

وهي مرحلة تعدُّ صحوةً بعد كبوة، واستيقاظةٌ بعد غفلة، وليست هذه المرحلة خاصةً بعلم الكلام وحده بل سائر الحياة العلمية، مرت بها هذه المرحلة، بحكم ما انتاب الأمة من استعمار، ساهم بشكل كبيرٍ في تفشي الجهل، و« يبدأ الفكر الحديث بوجه عام مع مطلع القرن السادس عشر أو السابع عشر الميلاديين...، وذلك بسبب ما ران على العقل الإسلامي والحياة الإسلامية من جمود وخمول وتقوقع، بينما كان الفكر والحياة الغربيان يتطوران بإيقاع شديد متسارع منذ عصر النهضة، مما هيّأ للقوم أن ينتزعوا زمام القيادة العالمية بعد أن بقي في يد المسلمين قروناً عديدة، بل أن يُحكِموا الحصار على العالم الإسلاميّ نفسه، ويحتلوا معظم أجزائه عسكريا، ويفرضوا عليه –بأساليب متنوعة- فكرهم وأنظمتهم المختلفة»[1].

ومن مظاهر هذه المرحلة ومن خلال : « الصراع الفكري الذي نشأ خلال هذه الفترة بفعل الثقافة الغربية الغازية أو الوافدة، وما جاء في ركابها من منهج وضعي في التفكير، ونظرة علمانية إلى شؤون الدولة والمجتمع، تبشير بالدين المسيحي بين المسلمين، ومزاحمة التعليم الإسلامي التقليدي بآخر مدني غربي النزعة والروح.

ومن المؤثرات ما سببته الثورة الروسية من مجادلات فكرية وصراعات علمية حول النظم الاقتصادية والأفكار الأيدولوجية المادية المرتبطة بالماركسية

وفي ظل ذلك مال بعض المفكرين إلى النزعة عقلية اعتزالية في مواجهة القضايا والصراعات المحتدمة[2]

(1) – المدخل إلى دراسة علم الكلام، (ص: 116-117)، وينظر في ذلك: محمود شاكر: رسالة الطريق إلى ثقافتنا، أبو الحسن الندوي: مقالات في الفكر والدعوة.

(2) – المصدر نفسه ، (ص: 119)

الفرع الثالث: أهمُّ المدارس الكلامية:

لما ظهر علم الكلام في الأمة، أخذ بعد ذلك يتشكل في صور مدارس، تنشأ عن اختلافات تقع في بعض القضايا، فيقع التفرق بعد ذلك والتضليل وربما التكفير، فتتحيز كل فرقة إلى مبادئها وتقريراتها، لذلك ظهرت الفرق الكلامية، ووقع بينها تباين في الأصول، فضلا عن الفروع، وكان من أهم المدارس الكلامية:

الفرع الأول: المعتزلة:

المعتزلة[1] فرقةٌ إسلاميّةٌ نشأت في أواخر العصر الأموي وازدهرت في العصر العباسي، وقد اعتمدت على العقل المجرد في فهم العقيدة الإسلامية لتأثرها ببعض الفلسفات المستوردة مما أدى إلى انحرافها عن عقيدة أهل السنة والجماعة.

قد أُطلق عليها أسماء مختلفة منها: المعتزلة والقدرية، والعدلية وأهل العدل والتوحيد والمقتصدة والوعيدية.

منشأها:

«اختلفت رؤية العلماء في ظهور الاعتزال، واتجهت هذه الرؤية وجهتين:

الوجهة الأولى: أن الاعتزال حصل نتيجة النقاش في مسائل عقدية دينية كالحكم على مرتكب الكبيرة، والحديث في القدر، بمعنى هل يقدر العبد على فعله أو لا يقدر، ومن رأي أصحاب هذا الاتجاه أن اسم المعتزلة أطلق عليهم لعدة أسباب:

1 . أنهم اعتزلوا المسلمين بقولهم بالمنزلة بين المنزلتين

2 . أنهم عرفوا بالمعتزلة بعد أن اعتزل واصل بن عطاء حلقة الحسن البصري وشكل حلقة خاصة به لقوله بالمنزلة بين المنزلتين فقال الحسن: "اعتزلنا واصل".

3 . أو أنهم قالوا بوجوب اعتزال مرتكب الكبيرة ومقاطعته.

والوجهة الثانية: أن الاعتزال نشأ بسبب سياسي حيث أن المعتزلة من شيعة علي ﵁ اعتزلوا الحسن ﵁ عندما تنازل لمعاوية ﵁، أو أنهم وقفوا موقف الحياد بين شيعة علي ﵁ ومعاوية ﵁ فاعتزلوا الفريقين».

---

(1) – ينظر تعريفها في الملل والنحل، للشهرستاني، (ج1/ ص: 41-44)، الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب والأحزاب المعاصرة، (ج1 ص 64-75)، باختصار وتصرف.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

والواقع أن نشأة الاعتزال كان ثمرة تطورٍ تاريخيٍّ لمبادئ فكريةٍ وعقديةٍ وليدةَ النَّظر العقليِّ المجرد في النصوص الدينية وقد نتج ذلك عن التأثر بالفلسفة اليونانيَّة والهنديَّة والعقائد اليهودية والنصرانية

من أبرز أعلامها:

ومن أبرز مفكري المعتزلة منذ تأسيسها على يد واصل بن عطاء وحتى اندثارها وتحلُّلها في المذاهب الأخرى كالشيعة والأشعرية والماتريدية[1] ما يلي:

أبو الهذيل حمدان بن الهذيل العلاَّف (135هـ - 226 هـ) مولى عبد القيس وشيخ المعتزلة والمناظر عنها. أخذ الاعتزال عن عثمان بن خالد الطويل عن واصل بن عطاء، طالع كثيراً من كتب الفلاسفة.

إبراهيم بن يسار بن هانئ النَّظام (توفي سنة 231هـ) وكان في الأصل على دين البراهمة وقد تأثر أيضاً بالفلسفة اليونانيَّة مثل بقية المعتزلة.

بشر بن المعتمر (توفي سنة 226 هـ) وهو من علماء المعتزلة، ومعمر بن عباد السلمي (توفي سنة 220 هـ)، عيسى بن صبيح المكنى بأبي موسى الملقب بالمردار (توفي سنة 226هـ) وكان يقال له: راهب المعتزلة، عمرو بن بحر: أبو عثمان الجاحظ (توفي سنة 256هـ) وهو من كبار كتاب المعتزلة، ومن المطلعين على كتب الفلاسفة، أبو الحسين بن أبي عمر الخيَّاط (توفي سنة 300هـ) من معتزلة بغداد.

القاضي عبد الجبار بن أحمد بن عبد الجبار الهَمْدانيُّ (توفي سنة 414هـ) فهو من متأخري المعتزلة، قاضي قضاة الريّ وأعمالها، وأعظم شيوخ المعتزلة في عصره، وقد أرخ للمعتزلة وقنَّن مبادئهم وأصولهم الفكرية والعقدية.

(1) – **الماتريدية**: فرقة كلامية بدعية، تُنسب إلى أبي منصور الماتريدي، قامت على استخدام البراهين والدلائل العقلية والكلامية في محاجة خصومها، من المعتزلة والجهمية وغيرهم، لإثبات حقائق الدين والعقيدة الإسلامية، يُنظر: الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب والأحزاب المعاصرة، الندوة العالمية للشباب الإسلامي، إشراف وتخطيط ومراجعة: د. مانع بن حماد الجهني (ج1/ص: 95)

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

أصولهم العقدية:

أولا: أصل التوحيد: وخلاصته برأيهم، هو أن الله ﷻ منزه عن الشبيه والمماثل ﴿لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞ﴾ [الشورى: ١١]، ولا ينازعه أحد في سلطانه ولا يجري عليه شيء مما يجري على الناس، وهذا حق ولكنهم بنوا عليه نتائج باطلة منها: استحالة رؤية الله ﷻ لاقتضاء ذلك نفي الصفات، وأن الصفات ليست شيئاً غير الذات، وإلا تعدد القدماء في نظرهم، لذلك يعدون من نفاة الصفات وبنوا على ذلك أيضاً أن القرآن مخلوق لله ﷻ لنفيهم عنه سبحانه صفة الكلام.

ثانيا: أصل العدل: ومعناه برأيهم أن الله لا يخلق أفعال العباد، ولا يحب الفساد، بل إن العباد يفعلون ما أمروا به وينتهون عما نهوا عنه بالقدرة التي جعلها الله لهم وركبها فيهم؛ وأنه لم يأمر إلا بما أراد ولم ينه إلا عما كره، وأنه ولي كل حسنة أمر بها، بريء من كل سيئة نهى عنها، لم يكلفهم ما لا يطيقون ولا أراد منهم ما لا يقدرون عليه، وذلك لخلطهم بين إرادة الله تعالى الكونية، وإرادته الشرعية.

ثالثا: أصل الوعد والوعيد: ويعني أن يجازي الله المحسن إحساناً ويجازي المسيء سوءاً، ولا يغفر لمرتكب الكبيرة إلا أن يتوب.

رابعا: أصل المنزلة بين المنزلتين: وتعني أن مرتكب الكبيرة في منزلة بين الإيمان والكفر فليس بمؤمن ولا كافر، وقد قرر هذا واصل بن عطاء شيخ المعتزلة.

خامسا: أصل الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر: فقد قرروا وجوب ذلك على المؤمنين نشراً لدعوة الإسلام وهداية للضالين وإرشاداً للغاوين كلٌّ بما يستطيع: فذو البيان ببيانه، والعالم بعلمه، وذو السيف بسيفه وهكذا، ومن حقيقة هذا الأصل أنهم يقولون بوجوب الخروج على الحاكم إذا خالف وانحرف عن الحق.

وللمعتزلة اهتمام خاصة بإعجاز القرآن، فكثرت فيه مؤلفاتهم وتعددت، ولعل ذلك يرجعُ إلى اعتمادهم في إثبات نبوة محمد ﷺ على معجزة القرآن دون ما سواها من المعجزات الأخرى كما ذكر ذلك القاضي عبد الجبار في قوله: « ولذلك اعتمد شيوخنا في تثبيت نبوة محمد ﷺ على القرآن»[1]، يريد دون غيرها من المعجزات.

(1) – المغني في أبواب التوحيد والعدل، لعبد الجبار الهمداني (ج16، ص:152).

جمعية أمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

الفرع الثاني: الأشاعرة:

الأشاعرة[1]: فرقة كلامية إسلامية، تنسب لأبي الحسن الأشعري الذي خرج على المعتزلة. وقد اتخذت الأشاعرة البراهين والدلائل العقلية والكلامية وسيلة في محاججة خصومها من المعتزلة والفلاسفة وغيرهم، لإثبات حقائق الدين والعقيدة الإسلامية على طريقة ابن كلاب.

أبرز أعلامها:

مؤسسها: أبو الحسن الأشعري: هو أبو الحسن علي بن إسماعيل، من ذرية أبي موسى الأشعري ﷺ، ولد بالبصرة سنة (270هـ- ت: 324هـ)، ومن أبرز شخصيات هذه المدرسة بعد مؤسسها:

القاضي أبو بكر الباقلاني: (328 هـ/402 هـ): هو محمد بن الطيب بن محمد بن جعفر، من كبار علماء الكلام، هذَّب بحوث الأشعري، وتكلَّم في مقدمات البراهين العقلية للتوحيد وغالى فيها كثيراً إذ لم ترد هذه المقدمات في كتابٍ ولا سنةٍ، ولد في البصرة وسكن بغداد وتوفي فيها.

أبو إسحاق الشيرازي: (293 هـ/476هـ): وهو إبراهيم بن علي بن يوسف الفيروز أبادي الشيرازي، العلامة المناظر، ولد في فيروز أباد بفارس وانتقل إلى شيراز، ثم البصرة ومنها إلى بغداد سنة (415هـ) . وظهر نبوغه في الفقه الشافعي وعلم الكلام، فكان مرجعاً للطلاب ومفتياً للأمة في عصره، وقد اشتهر بقوة الحجة في الجدل والمناظرة.

إمام الحرمين أبو المعالي الجويني: (419 هـ/478هـ). وهو عبد الملك بن عبد الله بن يوسف بن محمد الجويني، الفقيه الشافعي، الفخر الرازي (544هـ /606هـ): هو أبو عبد الله محمد بن عمر الحسن بن الحسين التيمي الطبرستاني الرازي المولد، الملقب فخر الدين المعروف بابن الخطيب الفقيه الشافعي.

أبو حامد الغزَّالي: (450 هـ/505هـ): وهو محمد بن محمد بن محمد الغزالي الطوسي، ولد في الطابران، قصبة طوس خراسان وتُوفِّي بها.

(1) – ينظر تعريفها في الملل والنحل، للشهرستاني، (ج1/ ص 93)، الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب والأحزاب المعاصرة، (ج1 ص 83-94)، باختصار وتصرف.

الأفكار والعقائد:

مصدر التلقي عند الأشاعرة: الكتاب والسنة على مقتضى قواعد علم الكلام؛ ولذلك فإنهم يقدمون العقل على النقل عند التعارض، صرح بذلك الرازي في القانون الكلي للمذهب في أساس التقديس والآمدي وابن فورك وغيرهم.

ومن أصولهم: عدم الأخذ بأحاديث الآحاد في العقيدة لأنها لا تفيد العلم اليقيني ولا مانع من الاحتجاج بها في مسائل السمعيات أو فيما لا يعارض القانون العقلي، والمتواتر منها يجب تأويله، ولا يخفى مخالفة هذا لما كان عليه السلف الصالح من أصحاب القرون المفضلة ومن سار على نهجهم.

أول واجب عند الأشاعرة إذا بلغ الإنسان سن التكليف هو النظر أو القصد إلى النظر ثم الإيمان، ولا تكفي المعرفة الفطرية ثم اختلفوا فيمن آمن بغير ذلك بين تعصيته وتكفيره.

يعتقد الأشاعرة **تأويل الصفات الخبرية** كالوجه واليدين والعين واليمين والقدم والأصابع وكذلك صفتي العلو والاستواء، وقد ذهب المتأخرون منهم إلى تفويض معانيها إلى الله ﷻ على أن ذلك واجب يقتضيه التنزيه، ولم يقتصروا على تأويل آيات الصفات بل توسعوا في باب التأويل حيث شمل أكثر نصوص الإيمان، خاصة فيما يتعلق بإثبات الزيادة والنقصان، وكذلك موضوع عصمة الأنبياء عليهم السلام أما مذهب السلف فإنهم يثبتون النصوص الشرعية دون تأويل معنى النص بمعنى تحريفه أو تفويضه، سواءً كان في نصوص الصفات أو غيرها.

إلى غير ذلك من الأصول التي تطلب من كتب الفرق، أو الكتب المؤسسة للمذهب.

الفرع الثالث: الزيدية.

الزيدية[1] إحدى فرق الشيعة، نسبتها ترجع إلى مؤسسها زيد بن علي زين العابدين الذي صاغ نظرية شيعية في السياسة والحكم، وقد جاهد من أجلها وقتل في سبيلها، وكان يرى صحَّة إمامة أبي بكر وعمر وعثمان رضي الله عنهم جميعاً، ولم يقل أحد منهم بتكفير أحد من الصحابة ومن مذهبهم جواز إمامة المفضول مع وجود الأفضل.

([1]) – ينظر تعريفها في الملل والنحل، للشهرستاني، (ج1/ص 153)، الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب والأحزاب المعاصرة، (ج1 ص: 76-82)، باختصار وتصرف.

منشأها:

ترجع الزيدية إلى زيد بن علي زين العابدين بن الحسين بن علي رضي الله عنهما (80 هـ/122هـ)، والذي قاد ثورة شيعية في العراق ضد الأمويين أيام هشام بن عبد الملك، فقد دفعه أهل الكوفة لهذا الخروج ثم ما لبثوا أن تخلوا عنه وخذلوه عندما علموا بأنه لا يتبرأ من الشيخين أبي بكر وعمر رضي الله عنهما ولا يلعنهما، بل يترضى عنهما، فاضطر لمقابلة جيش الأمويين وما معه سوى خمس مائة فارس حيث أصيب بسهم في جبهته أدى إلى وفاته عام 122هـ.

من أبرز أعلامها:

من علماء الزيدية القاسم بن إبراهيم الرسي بن عبد الله بن الحسين بن علي بن أبي طالب رضي الله عنهما: (170 هـ/242هـ)، تشكلت له طائفة زيدية عرفت باسم القاسمية، جاء من بعده حفيده الهادي إلى الحق يحي بن الحسين بن القاسم (245 هـ/298هـ) الذي عقدت له الإمامة باليمن، فكان ممن حارب القرامطة فيها، كما تشكلت له فرقة زيدية عرفت باسم الهادوية منتشرة في اليمن والحجاز وما والاها.

ثمّ ظهر للزيدية في بلاد الديلم وجيلان إمام حُسيني هو أبو محمد الحسن بن علي بن الحسن بن زيد بن عمر بن الحسين بن علي رضي الله عنهما والملقب بالناصر الكبير (230 هـ/ 304هـ)، وعرف باسم الأطروش، فقد هاجر هذا الإمام إلى هناك داعياً إلى الإسلام على مقتضى المذهب الزيدي فدخل فيه خلق كثير صاروا زيديين ابتداء.

ومنهم الداعي الآخر صاحب طبرستان الحسن بن زيد بن محمد بن إسماعيل بن زيد بن الحسن بن علي رضي الله عنهما، الذي تكوَّنت له دولة زيدية جنوب بحر الخزر سنة 250هـ، وقد عرف من أئمتهم محمد بن إبراهيم بن طباطبا، الذي بعث بدعاته إلى الحجاز ومصر واليمن والبصرة.

ومن شخصياتهم البارزة كذلك مقاتل بن سليمان، ومحمد بن نصر. ومنهم أبو الفضل بن العميد والصاحب بن عباد وبعض أمراء بني بويه.

أفكارهم واعتقاداتهم:

يُجيزون الإمامة في كل أولاد فاطمة، سواء أكانوا من نسل الإمام الحسن أم من نسل الإمام الحسين رضي الله عنهما، والإمامة لديهم ليست بالنَّص، إذ لا يشترط فيها أن ينص الإمام السابق على الإمام اللاحق، بمعنى أنها ليست وراثية بل تقوم على البيعة، فمن كان من أولاد فاطمة

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

وفيه شروط الإمامة كان أهلاً لها، ويجوز لديهم وجود أكثر من إمامٍ واحدٍ في وقتٍ واحدٍ في قطرينِ مختلفينِ، وهم في الجملة يتمسكون بالعديد من القضايا التي يتمسك بها الشيعة كأحقية أهل البيت في الخلافة، وتفضيل الأحاديث الواردة عنهم على غيرها، وتقليدهم، وزكاة الخمس، فالملامح الشيعية واضحة في مذهبهم على الرغم من اعتدالهم عن بقية فرق الشيعة، فمثلا تجدهم يخالفون الشيعة في زواج المتعة ويستنكرونه، يتفقون مع الشيعة في زكاة الخمس وفي جواز التقية إذا لزم الأمر.

يميلون إلى الاعتزال فيما يتعلق بذات الله ﷻ، والاختيار في الأعمال. ومرتكب الكبيرة يعتبرونه في منزلة بين المنزلتين كما تقول المعتزلة، يرفضون التصوف رفضاً قاطعاً، فالزيدية تأثرت بالمعتزلة فانعكست اعتزالية واصل بن عطاء عليهم وظهر هذا جلياً في تقديرهم للعقل، وإعطائه أهمية كبرى في الاستدلال، إذ يجعلون له نصيباً وافراً في فهم العقائد وفي تطبيق أحكام الشريعة وفي الحكم بحسن الأشياء وقبحها، فضلاً عن تحليلاتهم للجبر والاختيار ومرتكب الكبيرة والخلود في النار.

وأكتفي من المدارس الكلامية بهذه الثلاث، وإنما اخترتها ثلاثتها - المعتزلة والأشاعرة، والزيدية-، وذلك لعدّة اعتبارات من أهمها:

- كون كثير من أعلام هذه الفرق، لهم آثار علمية في درس إعجاز القرآن الكريم خاصة.

- وأنها مدارس كلامية متأثرٌ بعضها ببعض.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

المبحث الثاني: علم إعجاز القرآن الكريم في كتب علم الكلام.

من الكتب المهمة والتي كان لها الأثر البالغ في تأصيل درس إعجاز القرآن، وإثراء مباحثه؛ كتب علم الكلام، فإنها نشأت أول ما نشأة من أجل القرآن الكريم، الذي هو آية الرسول ﷺ، فكان من البديهي أن يكون لها إسهامٌ في العناية بالقرآن الكريم، وخاصة وأنَّ أهمَّ محاورها التصدي للزندقة التي كانت تشكك في آيات الأنبياء عليهم السلام، فكتبوا في ردِّ ما جاؤوا به من الشبه والاعتراضات، وجرهم ذلك إلى الحديث عن المعجزات، وخاصة منها القرآن الكريم، وسأحاول من خلال هذا المبحث إظهار درس إعجاز القرآن في كتب علم الكلام، في مطالب ثلاثة:

المطلب الأول: مقدمات وممهدات.

المطلب الثاني: وجوه إعجاز القرآن الكريم في كتب علم الكلام.

المطلب الثالث: قضايا إعجازية مكملة في كتب علم الكلام.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

المطلب الأول: مقدمات وممهدات

قبل الخوض في بحث درس إعجاز القرآن في كتب علم الكلام، لا بأس من وضع مقدمات، كالممهدات بين يدي ذلك، وسأعرض لذلك من خلال الفروع الآتية:

الفرع الأول: مناسبة آية كلِّ نبي لقومه:

ويمكن التنبيه أيضاً على أمرٍ مهمٍّ، ألا وهو بيان أن حكمة الله ﷻ اقتضت أن تكون آية نبيٍّ ما من الأنبياء عليهم السلام مناسبة لقومه، ليكون ذلك أبلغ في البرهان، وإقامة الحجة على القوام، فإنه «باستعراض معجزات الأنبياء معجزات الأنبياء السابقين ومعجزات خاتمهم عليهم السلام، نلاحظُ أنَّ المعجزةَ تُختارُ من بيئة القوم الذين يُرسلُ الرَّسول إليهم، ومن نوع المشهور في عصرهم مما يتلاءم مع مستواهم الفكريِّ ورقيِّهم الحضاري، لتكون الحجَّةُ أقوى»[(1)].

هذا ما أشار إليه الباقلاني، حين قال: « ...يبيّنُ لك ذلك: أن موسى عليه السلام جاء في زمن سحرةٍ وسحرٍ، فتحداهم بقلب العصا حيةً، فعلم المحققُونَ منهم في السِّحر أن ذلك خارجٌ عن قبيل السّحر، لعجزهم عن ذلك، وخرقه لعادة السِّحر، فسارعوا إلى الإيمان، وهذا يدلُّ على فضل العلم من أيِّ نوعٍ كان: فإنه أول من سارع إلى الإيمان السَّحرةُ، لعلمهم بالسحر، فكان في علمهم ذلك – وإن كان باطلا- فضلٌ كبيرٌ على غيرهم من قومهم ممن لا يعلم السحر.

وكذلك عيسى عليه السلام: جاء في زمان قومٍ طبٍّ ومداواة، فأحيا الموتى، وأبرأ الأكمه والأبرص، فأتى بما هو خارجٌ عن قبيل الطب، خارقاً للعادة فيه، لا يقدر عليه المخلوق.

وكذلك نبينا ﷺ: جاء في وقت فصاحةٍ وشعرٍ وخُطبٍ ونظْمٍ ونثْرٍ، فأتاهم بما هو خارجٌ عن عاداتهم في النظم والنثر، وهو أفصح وأجزل وأوجز، وتحداهم بالإتيان بمثله، فوجدوا ذلك خارجاً عن نظمهم ونثرهم وخارقاً لعادتهم، فعجزوا عنه فسارع من هداه الله إلى الإيمان به...»[(2)]

(1) – مباحث في إعجاز القرآن، مصطفى مسلم، (ص:24).
(2) – الإنصاف فيما يجب اعتقاده ولا يجوز الجهل به، للقاضي أبي بكر الباقلاني، تحقيق وتعليق وتقديم: محمد زاهد بن الحسن الكوثري، المكتبة الأزهرية للتراث بمصر، الطبعة الثانية (1421هـ-2000م)، (ص: 59).

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

وهذا الأمرُ جارٍ على حكمة الله سبحانه وتعالى ورحمته بالخلق، « والحكمة الإلهية في اختيار المعجزة من جنس ما اشتهر بين القوم هي أن الإنسان إذا أوتي من قبل ما يعتبره مفخرته ومجال إجادته واعتزازه، تكون الحجة عليه أقوى والمعجزُ أكثر فعلاً وأثراً»(1)

والله سبحانه وتعالى جعل للخلق قُدَرًا متفاوتةً، قد تصل عند البعض إلى غاياتٍ من الحذق والإتقان، لكنها تنتهي ولا بدَّ إلى غايةٍ تناسب قدرة الخلق التي حدّها الله بحدٍّ، فإذا جاءت آياتُ الله عز وجل جاءت مجاوزةً لذلك الحدِّ مجاوزة بيّنة، يتمكَّن اللبيب الحصيف أن يعلم أن من وراء ذلكم قدرةً عظيمةً، هي قدرة الله سبحانه وتعالى الذي بعث أولئكم الرُّسل بالدعوة إليه، قال سبحانه وتعالى: ﴿ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَرَدُّوٓاْ أَيْدِيَهُمْ فِىٓ أَفْوَٰهِهِمْ وَقَالُوٓاْ إِنَّا كَفَرْنَا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ وَإِنَّا لَفِى شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَنَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴿٩﴾ ﴾ إبراهيم: ٩.

فإذا جاء الرّسُول بما يعرف قومه أنه خارجٌ عن قدرتهم، قامت بذلك حجة الله عز وجل على تلك الأقوام، يقول الباقلاني: « فكيف يجوز أن يقدروا على معارضته القريبة السهلة عليهم وذلك يدحض حجته ويفسد دلالته ويبطل أمره فيعدلون عن ذلك إلى سائر ما صاروا إليه من الأمور التي ليس عليها مزيد في المنابذة والمعاداة ويتركون الأمر الخفيف، هذا مما يمتنع وقوعه في العادات ولا يجوز اتفاقه من العقلاء»(2).

ثم ما يقع بعد ذلك من التحدي للأقوام بالآيات التي جاءت بها رسلهم عليهم السلام، وعجزهم عن القيام لذلك التحدي مبالغةٌ في إقامة الحجّة عليهم، فإن قيل أنهم قادرين، فيجيب الباقلاني بقوله: « ويمكن أن يقال إنهم لو كانوا قادرين على معارضته والإتيان بمثل ما أتى به لم يجز أن يتفق منهم ترك المعارضة وهم على ما هم عليه من الذرابة والسلاقة والمعرفة بوجوه الفصاحة وهو يستطيل عليهم بأنهم عاجزون عن مباراته وأنهم يضعفون عن مجاراته ويكرر فيما جاء به ذكر عجزهم عن مثل ما يأتي به ويقرعهم ويؤنبهم عليه ويدرك آماله فيهم وينجح ما سعى له في تركهم المعارضة...

ألا ترى أنهم قد ينافر شعراؤهم بعضهم بعضا ولهم في ذلك مواقف معروفة وأخبار مشهورة وآثار منقولة مذكورة وكانوا يتنافسون على الفصاحة والخطابة والذلاقة ويتبجحون بذلك

---

(1) – مباحث في إعجاز القرآن، مصطفى مسلم، (ص:27).

(2) – إعجاز القرآن، لأبي بكر الباقلاني، (ص: 22).

ويتفاخرون بينهم فلن يجوز – والحال هذه – أن يتغافلوا عن معارضته لو كانوا قادرين عليها تحداهم أو لم يتحدهم إليها»(1)

ويقول في موضع آخر: « فإن قال قائل فما وجه دلالة ظهور القرآن على يده مما يدل على صدقه قيل له وجه ذلك من طريقين:

أحدهما: نظمه وبراعته

والثاني: ما انطوى عليه من أخبار الغيوب وعلمها فأما وجه الدلالة من جهة نظمه فهو أنا نعلم أنه العرب بأن تأتي بمثله في براعته وفصاحته وحسن تأليفه ونظمه وجزالته ورصانته وإيجازه واختصاره واشتمال اللفظ اليسير منه على المعاني الكثيرة ودعاهم إلى ذلك وطالبهم به في أيام المواسم وغيرها مجتمعين ومتفرقين فقال لهم في نص التلاوة: ﴿قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴿٨٨﴾﴾ الإسراء: ٨٨، يقول مواليا معينا وقال: ﴿قُلْ فَأْتُوا۟ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِۦ مُفْتَرَيَٰتٍ﴾ هود: ١٣، وقال: ﴿فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ﴾ البقرة: ٢٣، مبالغة في تقريعهم بالعجز عنه مع أن اللِّسان الذي نزل به لسانهم، ومع العلم بما هم عليه من عزَّة الأنفس وعظم الأنفة وشدة الحميَّة والحرص على تكذيبه وتشتيت جمعه وتفريق الناس من حوله والتوفر على إكذابه وما عرَّه وغضَّ منه وخروجهم إلى ما خرجوا إليه معه من الحرب والمسايفة وحمل الأنفس على إراقة الدماء والخروج عن الديار ومفارقة الأوطان، فلو كانوا مع ذلك قادرين على معارضته أو معارضة سورة منه لسارعوا إلى ذلك ولكان أهون عليهم وأخف من نصب الحرب معه والجلاء عن الأوطان وتحمل الأهوال والصبر على القتل وألم الجراح واحتمال الذل والعار»(2).

وبهذا يتأكد ههنا أمران اثنان:

الأول أن: « ما أتى به النبي من القرآن قد خرج عن حدِّ ما يُكتسب بالحذق وعجز القوم عن معارضته ومقابلته مع إيثارهم لذلك واجتماع هممهم له وتوفر دواعيهم عليه وعلمهم بجعله حجةً له، ودلالةً على صدقه، فخرج بذلك عن نمط ما سألتم عنه»(3).

(1) – المرجع السابق، (ص: 22-24).

(2) – كتاب تمهيد الأوائل وتلخيص الدلائل، أبو بكر محمد بن الطيب الباقلاني، تحقيق : عماد الدين أحمد حيدر، مؤسسة الكتب الثقافية– بيروت، الطبعة الأولى: 1987، (ص: 167-168).

(3)– المرجع نفسه، (ص:170).

والأمر الثاني: أن نظم القرآن، مع أنه «منزلٌ بلسان العرب وكلامهم ومنظوم على وزنٍ يفارق سائر أوزان كلامهم، ولو كان من بعض النُّظوم التي يعرفونها لعلموا أنه شعر أو خطابة أو رجز أو طويل أو مزدوج غير أن ناظمه قد برع وتقدم فيه وليس يخرج الحذق في الصنعة إلى أن يؤتي بغير جنسها وما ليس منها في شيء وما لا يعرفه أهلها.

وإذا كان ذلك كذلك وكنا نعلم أن قريشا أفصح العرب وأعرفها باللِّسان وأقدرها على سائر أوزان الكلام وأنها قد دهشت وطاشت عقولها فيما أتى به فقالت مرة: إنه سحر وقالت تارة: إنه معلم مجنون وقالت أخرى: أساطير الأولين اكتتبها وقالت تارة أخرى: شعر وقالت تارة: سلمان يلقنه ويلقي إليه حتى قال تعالى: ﴿لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلۡحِدُونَ إِلَيۡهِ أَعۡجَمِىٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ ۝١٠٣﴾ النحل: ١٠٣، علم بذلك أن ما أتى به ليس من جنس الحذق والتقدم في الصناعة في شيء»[1].

وبوقوع التحدي وتخلف المعارضة من العرب الذين كانت صنعتهم الكلام، وكانوا أربابه وفرسان ميدانه، كلُّ ذلك كفيلٌ بثبوت صفة الإعجاز للقرآن الكريم، وكونه آيةً النبي ﷺ التي صارت دليلاً له، وقامت بها الحجَّةُ عليهم.

الفرع الثاني: أمية النبي ﷺ:

ومن الأمور التي يُمهّد بها لقضية إعجاز القرآن عموما، وفي كتب علم الكلام خصوصاً، مسألة أميّة النبيّ ﷺ، فإنها تعتبر من أوّل محطات هذه القضية، وتعدُّ من إرهاصات النبوّة.

وقد جاءت الإشارة إلى ذلك في القرآن الكريم في قوله ﷻ: ﴿وَمَا كُنتَ تَتۡلُواْ مِن قَبۡلِهِۦ مِن كِتَٰبٖ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَۖ إِذٗا لَّٱرۡتَابَ ٱلۡمُبۡطِلُونَ ۝٤٨﴾ العنكبوت: ٤٨، « ولو عرفوه بذلك أو بصحبة أهل الكتب ونقلة السير ومداخلة أهل الأخبار مجالسة أهل هذا الشأن لم يلبثوا أن يقولوا له هذا كذب لأنك ما زلت معروفا بصحبة أهل الكتب ومجالستهم وقصدهم إلى مواضعهم ومواطنهم ومجاراتهم والأخذ عنهم والاستفادة منهم»[2]

(1) – تمهيد الأوائل وتلخيص الدلائل، للباقلاني، (ص:170- 171)

(2) – المرجع نفسه، (ص: 168)

وقد تنبه غير واحد من علماء الكلام إلى هذه القضية، فهذا أبو حامدٍ الغزّاليُّ بعد أن ذكر ما كان من إرهاصات، ينبه أنه ﷺ: «رجل أُمِّيٌّ لَمْ يُمَارِسِ الْعِلْمَ وَلَمْ يُطَالِعِ الْكُتُبَ ولم يسافر قط في طلب علم ولم يزل بَيْنَ أَظْهُرِ الْجُهَّالِ مِنَ الْأَعْرَابِ يَتِيمًا ضَعِيفًا مُسْتَضْعَفًا فَمِنْ أَيْنَ حَصَلَ لَهُ مَحَاسِنُ الْأَخْلَاقِ والآداب ومعرفة مصالح الفقه مثلا فقط دون غيرهم مِنَ الْعُلُومِ فَضْلًا عَنْ مَعْرِفَةِ اللَّهِ تَعَالَى وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَغَيْرِ ذَلِكَ مِنْ خَوَاصِّ النُّبُوَّةِ لَوْلَا صَرِيحُ الْوَحْيِ وَمِنْ أَيْنَ لِقُوَّةِ الْبَشَرِ الِاسْتِقْلَالُ بِذَلِكَ فَلَوْ لَمْ يَكُنْ لَهُ إِلَّا هذه الأمور الظاهرة لكان فيه كفاية، وقد ظهر من آياته ومعجزاته مالا يَسْتَرِيبُ فِيهِ مُحَصِّلٌ»(1)

لذلك نجد الباقلاني، يعدُّ أمية النبيّ ﷺ وجها من وجوه إعجاز القرآن قائما برأسه وذلك لمّا قال: « والوجه الثاني أنه كان معلوما من حال النبي أنه كان أميًّا لا يكتب ولا يحسن ان يقرأ، وكذلك كان معروفا من حاله أنه لم يكن يعرف شيئا من كتب المتقدمين وأقاصيصهم وأنبائهم وسيرهم ، ثم أتى بجمل ما وقع وحدث من عظيمات الأمور ومهمات السير من حين خلق الله آدم عليه السلام إلى حين مبعثه....

ونحن نعلم ضرورة أن هذا مما لا سبيل إليه إلا عن تعلم وإذ كان معروفا أنه لم يكن ملابسا لأهل الآثار وحملة الأخبار ولا مترددا إلى التعلم منهم ولا كان ممن يقرأ فيجوز أن يقع إليه كتاب فيأخذ منه – علم أنه لا يصل إلى علم ذلك إلا بتأييد من جهة الوحي ولذلك قال الله عز وجل: ﴿ وَمَا كُنتَ تَتْلُوا۟ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ ۖ إِذًا لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿٤٨﴾ ﴾ العنكبوت: ٤٨، وقال: ﴿ وَكَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ وَلِيَقُولُوا۟ دَرَسْتَ وَلِنُبَيِّنَهُۥ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿١٠٥﴾ ﴾ الأنعام: ١٠٥»(2).

كما نجد البحراني ينوه بذلك في قوله: « ثمّ إن محمداً عليه السلام نشأ في مكة، وهي خالية عن العلماء والكتب والمباحث الحقيقية، ولم يسافر إلا مرتين في مدّة قليلة، وعلم من حاله في سفره وحضره، أنه لم يواظب على قراءة والاستفادة من أحد، وانقضى من عمره أربعون سنة على هذه الصفة، ثم بعدها ظهر مثل هذا الكتاب الشريف على لسانه؛ وذلك معجزة قاهرة ظاهرة، إذ

(1) – إحياء علوم الدين، أبو حامد محمد بن محمد الغزالي الطوسي، الناشر: دار المعرفة – بيروت، د ت ط.، (ج 2/ص: 383)

(2) – إعجاز القرآن، لأبي بكر الباقلاني، (ص: 34).

ظهور مثل هذا الكتاب على مثل ذلك الإنسان الخالي عن البحث والطلب والمطالعة والتعلم لا يمكن إلا بوحي من الله وإلهام والعلم به ضروري»[1].

وبذلكم تكون أميّة النبي ﷺ حقيقةً بأن تكون وجها من وجوه الإعجاز للقرآن الكريم، لأنه الآية البيّنة التي جاء بها، وادّعى بها النبوة لنفسه.

الفرع الثالث: بيان أن القرآن معجزة النبي ﷺ

إنما قامت كتب الكلام عموماً على مجادلة المخالفين، وأخصُّ هؤلاء المخالفين، هم منكرو النبوّة، فكان لزاماً على المتكلمين إقامةُ الأدلّة على الخصوم وإقناعهم بصدق الرَّسُول ﷺ وصدق ما جاء به، وكان المعين للمتكلمين على ذلك كلّه ما جاء به الأنبياء عليهم السلام من الآيات والمعجزات بين يديّ دعواهم للنبوّة، ولمّا كانت آية نبينا ﷺ هي القرآن الكريم، كان من المؤكّد ابتداءً إثبات كون القرآن معجزة هذا النبي ﷺ وآيته، يقول الباقلاني« فإن قالوا وما هذه المعجزات الدالة على صدقه قيل أمور؛ كثيرة منها القرآن المرسوم في مصاحفنا الذي أتى به وتحدى العرب بالإتيان بمثله...»[2].

ثم أخذ يدلل على صحّة هذه الآية التي جاء بها الرسول ﷺ، فقال: « فَإِن قَالُوا وَمَا الطَّرِيق إِلَى الْعلم بِصِحَّة هَذِه الْآيَات وظهورها على يَدَيْهِ قيل لَهُم السَّبِيل إِلَى ذَلِك من طَرِيقين أَحدهمَا الِاضْطِرَار وَالْآخر النّظر وَالِاسْتِدْلَال

فَأَما الْعلم بظُهُور الْقُرْآن على يَده ومجيئه من جِهَته وَأَنه تحدى الْعَرَب أَن تَأتي بِمثلِهِ فواقع لنا وَلكُل من خَالَفنَا باضطرار من حَيْثُ لَا يُمكن جَحده وَلَا الارتياب بِهِ كَمَا أَن الْعلم بظُهُور النَّبِي ﷺ بِمَكَّة وَالْمَدينَة ودعوته إِلَى نَفسه وَاقع من جِهَة الِاضْطِرَار لِأَن الْمُسلمين وَالْيَهُود

---

[1] – قواعد المرام في علم الكلام، كمال الدين ميثم البحراني، منشورات مكتبة آية الله العظمى المرعشي النجفي مطبعة الصدر ، تحقيق: السيد أحمد الحسيني، باهتمام: السيد محمود المرعشي، الطبعة الثانية: 1304هـ ، (ص 130).

(2) – تمهيد الأوائل وتلخيص الدلائل، للباقلاني، (ص: 157)

وَالنَّصَارَى وَالْمَجُوس والصابئة والثنوية[1] والزنادقة وكل منحرف عَن الْملَّة يقرون بِأَن الْقُرْآن المتلو فِي محاريبنا المرسوم فِي مَصَاحِفنَا من قبل النَّبِي ﷺ نجم وَمن جِهَته ظهر من غير اخْتِلَاف بَينهم فِي ذَلِك، فَلَو حمل حَامِل نَفسه على ذَلِك لجحد الضَّرُورَة وَسَقَطت مُطَالبَته كَمَا لَو ادّعى مُدع أَن التَّوْرَاة وَالْإِنْجِيل لَيْسَ هما من جملَة مَا ظهر من قبل مُوسَى وَعِيسَى عليهما السلام لَكَانَ معاندا وجاحدا للضَّرُورَة؛ بل لَو جحد جَاحد مَا دون هَذَا فزعم أَن قفا نبك لَيست من شعر امرىء الْقَيْس، وودّع هُرَيْرَة إِن الركب مرتحل لَيْسَ من نظم الْأَعْشَى، وَنزل إِلَى جحد خطب الْحجَّاج وَزِيَاد ورسائل ابْن المقفع وإنكار كَون الْكتاب لسيبويه لوَجَبَ عناده وَسقط كَلَامه وَقد علم أَن ظُهُور الْخَبَر بمجيء الْقُرْآن من جِهَة النَّبِي ﷺ أعظم وحاله أشهر فَوَجَبَ أَن يكون مَا تَوَاتر الْخَبَر عَنهُ على هَذِه السَّبِيل وَالْعلم بِهِ اضطرارا لَا يُمكن جَحده وَلَا الشَّك فِيهِ»[2]

ويزيدنا القاضي عبد الجبار المعتزلي بيانا لهذا المعنى، وهو يجادل منكر صدق النبي ﷺ، فيقول: « فإذا قيل: أفتقولون، إن محمداً ﷺ نبيٌّ صادقٌ؟

قيل لهم: نعم، والدليل على ذلك أن تحداهم أن يأتوا بمثل هذا القرآن، وهم في النهاية من الفصاحة، وقد علمنا أنهم قد حرصوا على إبطال أمره، فلو قدروا على مثل هذا لبطل أمره وتخلفوا عنه، مع رغبتهم إلى محاربته ومقاتلته، فلمّا علمنا أنهم قاتلوا وفارقوا أوطانهم وديارهم، دلّ ذلك على أنه لم يكن في قدرتهم مثل فعل القرآن، وأن الله ﷻ جعله معجزاً، لرسوله ﷺ، وليعلم

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

(1) – **الثنوية**: زعمت ان النور والظلمة صانعان قديمان والنور منهما فاعل الخيرات والمنافع والظلام فاعل الشرور والمضار وأن الاجسام ممتزجة من النور والظلمة وكل واحد منهما مشتمل على أربع طبائع وهى الحرارة والبرودة والرطوبة واليبوسة والأصلان الأولان مع الطبائع الأربع مدبرات هذا العالم.

والثنوية عموما؛ تطلق على من اعتقدوا بأصلين للعالم هما إله النور والظلمة، يُنظر: الفرق بين الفرق وبيان الفرقة الناجية، عبد القاهر بن طاهر الأسفراييني، الناشر: دار الآفاق الجديدة – بيروت، الطبعة: الثانية، 1977م.، (ص: 269)، وأيضا: الثنوية جذورها وتطورها وأثرها على الأديان والفرق الإسلامية وغير الإسلامية عرض ونقد، ماجستير للطالبة: عزيزة بنت حسن بن صالح كوشك، إشراف: عبد الله سمك، جامعة أم القرى، كلية الدعوة وأصول الدين، العام الجامعي: 1434هـ- 1435هـ، (ص: 31-37)

(2) – تمهيد الأوائل وتلخيص الدلائل، للباقلاني، (ص: 158-159)

بذلك أنه نبيٌّ صادق ﷺ، كما جاء إحياء الموتى وإبراء الأكمه والأبرص معجزةً لعيسى عليه السلام، وكما جُعل فلق البحر وقلب العصا حيّة معجزةً لموسى بن عمران عليه السلام»[1]

ثم إن الضرورةَ داعيةٌ إلى نقل القرآن والحرص على بلاغه، لأنه أصل العلم بالشريعة كما يقول الشريف المرتضى: « وذكرنا أن العناية اشتدت بالقرآن والدواعي توفرت على نقله وحراسته وبلغت إلى حدٍّ لم يبلغه في نقل الحوادث والوقائع والكتب المصنفة، **لأن القرآن معجز النبوة**، وأصل العلم بالشريعة والأحكام الدينية...»[2]

ثمّ لما كان القرآن كذلك من جهة، وكان من جهة أخرى هو آية الرسالة الخالدة، والحجة على العالمين، امتنع على هذه الآية أن تندرس كما اندرست أخواتها من آيات الأنبياء ومعجزاتهم بذهاب أصحابها من الأنبياء عليهم السلام، قال القاضي عبد الجبار المعتزلي نقلا عن شيوخه: « إنه تعالى خَصَّ رسوله بالقرآن، من حيث ختم به النبوة، وبعثه إلى الناس كافة، وجعل شريعته مؤبَّدة، لأن غيره من المعجزات كان يجوز أن يدرس على الأوقات، ويضعف النقل فيه، وذلك لا يتأتى في القرآن»[3]

وها هو أبو حامدٍ الغزّاليُّ يذهب إلى أبعد من ذلك عندما حدثنا عن أهمية الإعجاز بالكلام في حديث الرسول ﷺ فضلا عن كلام الله عز وجل: « فكذلك إذا فهمت معنى النبوة فأكثرت النظر في القرآن والأخبار، يصل لك العلم الضروري بكونه ﷺ على أعلى درجات النبوة، وأعضد ذلك بتجربة ما قاله في العبادات وتأثيرها في تصفية القلوب، وكيف صدق ﷺ في قوله: " من عمل بما علم ورثهُ الله علم ما لم يعلم "[4] وكيف صدق في قوله: " من أعان ظالماً

---

(1) –شرح الأصول الخمسة، للقاضي عبد الجبار بن أحمد الهمداني، حققه وقدم له: الدكتور: عبد الكريم عثمان، مكتبة وهبة – مصر-، الطبعة الثالثة: (1416هـ-1996م)، (ص 87- 89)

(2) – الذخيرة في علم الكلام، للشريف المرتضى، (ص 362)

(3) – المغني في أبواب العدل والتوحيد، للقاضي عبد الجبار، 16 ص 164-165.

(4) – أخرجه أبو نعيم الأصبهاني في حلية الأولياء وطبقات الأصفياء، أبو نعيم أحمد بن عبد الله الأصبهاني، الناشر: السعادة - بجوار محافظة مصر، 1394هـ - 1974م، (ج6/ص: 163)، قال: حَدَّثَنَا أَبُو مُحَمَّدٍ، ثَنَا عَبْدُ اللهِ بْنُ مُحَمَّدِ بْنِ زَكَرِيَّا، ثَنَا سَهْلُ بْنُ عُثْمَانَ، ثَنَا ابْنُ السَّمَّاكِ، عَنْ عَبْدِ الْوَاحِدِ بْنِ زَيْدٍ، قَالَ: كَانَ يُقَالُ: مَنْ عَمِلَ بِمَا عَلِمَ فَتَحَ اللهُ لَهُ مَا لَا يَعْلَمُ ".

سلطهُ الله عليهِ "[1]وكيف صدق في قوله: " من أصبح وهُمومُهُ همٌّ واحدٌ الله تعالى هُمُومَ الدنيا والآخرةِ "[2]، فإذا جربت ذلك في ألف وألفين وآلاف، حصل لك علم ضروري ولا تتمارى فيه. فمن هذا الطريق اطلب اليقين بالنبوة، ولا من قلب العصا ثعباناً، وشق القمر، فإذن ذلك إذا نظرت إليه وحده، ولم تنضم إليه القرائن الكثيرة الخارجة عن الحصر، وربما ظننت أنه سحر وتخييل، وأنه من الله تعالى إضلال فإنه: ﴿يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُۖ﴾ فاطر: ٨.

وترد عليك أسئلة المعجزات، **فإذا كان مستند إيمانك إلى كلام منظوم في وجه دلالة المعجزة، فينجزم إيمانك بكلام مرتب في وجه الإشكالات والشبهة عليها**، فليكن مثل هذه الخوارق إحدى الدلائل والقرائن في جملة نظرك، حتى يحصل لك علم ضروري لا يمكنك ذكر مستنده على التعيين»[3].

وفي الجملة فإنه : « لَا يُتَمارَى فِي تَواتُرِ الْقُرْآنِ وهي الْمُعْجِزَةُ الْكُبْرَى الْبَاقِيَةُ بَيْنَ الخَلْقِ وَلَيْسَ لِنَبِيٍّ مُعْجِزَةٌ بَاقِيَةٌ سِواهُ ﷺ إِذْ تَحَدَّى بِهَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بُلَغَاءَ الخَلْقِ وفُصَحاءَ الْعَرَبِ وَجزِيرَةُ الْعَرَبِ حِينَئِذٍ مَمْلُوءَةٌ بِآلَافٍ مِنْهُمْ والْفَصاحَةُ صَنْعَتُهُمْ وَبِهَا مُنَافَسَتُهُمْ ومُبَاهَاتُهُمْ، وَكَانَ يُنَادِي بَيْنَ أَظْهُرِهِمْ أن يأتوا بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً وقال ذلك تعجيزاً لهم فعجزوا عن ذلك وصرفوا عنه حَتَّى عَرَّضُوا أَنْفُسَهُمْ لِلْقَتْلِ وَنِساءَهُمْ وَذَرارِيَّهُمْ لِلسَّبْيِ وَمَا اسْتَطَاعُوا أَنْ يُعَارِضُوا وَلَا أَنْ يَقْدَحُوا فِي جَزَالَتِهِ وَحُسْنِهِ ثُمَّ انْتَشَرَ ذَلِكَ بَعْدَهُ فِي أَقْطَارِ الْعَالَمِ شَرْقًا وَغرْبًا قَرْنًا بَعْدَ قرن وعصراً بعد عصر وقد انقرض اليوم قريب من خمسمائة سنة[4] فَلَمْ يَقْدِرْ أَحَدٌ عَلَى مُعَارَضَتِه»[5].

---

(1) – أخرجه علاء الدين الهندي عن ابن عباس ﷺ، في: كنز العمال في سنن الأقوال والأفعال، المحقق : بكري حياني – صفوة السقا، الناشر : مؤسسة الرسالة، الطبعة : الطبعة الخامسة ،1401هـ/1981م.، (ج3/ص: 499)،

(2) – أخرجه ابن ماجه من طريق عبد الله ابن مسعود ﷺ، لكن بغير هذا اللفظ وإنما لفظه: «مَنْ جَعَلَ الْهُمُومَ هَمًّا وَاحِدًا، هَمَّ آخرتِهِ، كَفَاهُ اللَّهُ هَمَّ دُنْيَاهُ، وَمَنْ تَشَعَّبَتْ بِهِ الْهُمُومُ فِي أَحْوَالِ الدُّنْيَا لَمْ يُبَالِ اللَّهُ فِي أَيِّ أَوْدِيَتِهَا هَلَكَ»، باب الانتفاع بالعلم والعمل به، برقم : 225، سنن ابن ماجه، المؤلف: ابن ماجة أبو عبد الله محمد بن يزيد القزويني، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، الناشر: دار إحياء الكتب العربية – فيصل عيسى البابي الحلبي، د ت ط. (ج1/ ص: 173).

(3) – المنقذ من الضلال، لأبي حامد الغزّاليّ، (ص: 185-186).

(4) – وقد انقضى بعد تلك الخمسمائة سنة، قريبا من ألف سنة بعد الخمسمائة، ولا يزال الأمر على ما كان عليه، فالتحدي ثابت، والعجز قائم.

(5) – إحياء علوم الدين، لأبي حامد الغزّاليّ، (2/ ص387).

فالقرآن أبيّن الآيات وأظهرها على الإطلاق، و« مما يدل على هذا قوله ﷻ: ﴿وَقَالُواْ لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡهِ ءَايَٰتٞ مِّن رَّبِّهِۦۚ قُلۡ إِنَّمَا ٱلۡأٓيَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٞ مُّبِينٌ ۝٥٠ أَوَلَمۡ يَكۡفِهِمۡ أَنَّآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ يُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡۚ﴾ العنكبوت: ٥٠ – ٥١، فأخبر أن الكتاب آية من آياته وعلم من أعلامه وأن ذلك يكفي في الدلالة ويقوم مقام معجزات غيره وآياتِ سواهُ من الأنبياء(1).

الفرعُ الرابعُ: شروط المعجزة في كتب علم الكلام:

من القضايا المهمة في درس إعجاز القرآن، قضية شروط المعجزة، وقد اهتم لهذه القضية علماء الكلام أيّما اهتمام، وإنما اعتنى بها المتكلمون على وفق مذاهبهم الكلامية، فكل واحدٍ في تعريفه للمعجزة يحاول أن تكون شروط المعجزة لا يتنافى وما يقرره في ما يتعلق بكلام الله ﷻ، ونحو ذلك، و لو حمله ذلك على التكلف والتمحُّل في التعريف.

ولا بأس من إيراد جملةٍ من التعاريف التي أوردها المتكلمون في بيان ماهية المعجزة، ثم الحديث عن الشروط التي يذكروها في تعريفاتهم، فمن ذلكم:

ما أورده **الباقلاني** في تعريف المعجزات، إذ يقول: « وهي أفعال الله سبحانه وتعالى الخارقة للعادة المطابقة لدعوى الأنبياء، وتحديهم للأمم بالإتيان بمثل ذلك»(2)

وأمَّا العضد الإيجي، فيقول عنها: « وهي عندنا ما قُصد به إظهار صدق من ادعى أنه رسول»(3)، وقد جعل للمعجزة شروطا سبعة، وهي:

الأول: أن يكون فعل الله أو ما يقوم مقامه(4)

---

(1) – إعجاز القرآن، لأبي بكر الباقلاني، (ص: 14).

(2) – الإنصاف، للباقلاني، (ص58).

(3) – المواقف في علم الكلام، المواقف، المؤلف : عضد الدين عبد الرحمن بن أحمد الإيجي، تحقيق : د. عبد الرحمن عميرة الناشر : دار الجيل – بيروت، الطبعة الأولى: 1997، ص (338/3)

(4) – **استدرك الشريف المرتضى** في كتابه الذخيرة على قول المتكلمين: " أو ما يقوم مقامه" بقوله: « وإنما قلنا" أن يكون من فعله تعالى، ولم نقل " أو ما يجري مجرى فعله"، على ما يمضي في الكتب، لأن المدعي إنما يدعي على الله يصدقه بما يفعله، فيجب أن يكون الفعل القائم مقام التصديق ممن يطلب منه التصديق، وإلا لم يكن دالا عليه، وفعل المدعي كفعل غيره من العباد في أنه لا يدل على التصديق، وإنما يدلُّ على فعل من ادّعى عليه التصديق...، لأن القرآن لو كان من فعله ﷺ وخرق العادة لكان المعجز في الحقيقة الواقع موقع التصديق؛ هو اختصاصه سبحانه وتعالى له بالعلوم التي تمكّن بها من القرآن وفعلها فيه ﷺ...» الذخيرة في علم الكلام، للشريف المرتضى، (ص 328).

الثاني: أن يكون خارقا للعادة إذ لا إعجاز دونه

الثالث: أن يتعذر معارضته

الرابع: أن يكون ظاهرا على يد مدعي النبوة ليعلم أنه تصديق له

الخامس: أن يكون موافقا للدعوى

السادس: ألا يكون ما ادعاه وأظهره مكذبا له

السابع: أن لا يكون متقدما على الدعوى بل مقارنا لها لأن التصديق قبل الدعوى لا يعقل»(1)

وأمّا أبو المعالي الجويني، فإنه يقول: « **سميت دلالات صدق الرسل** عليهم السلام**: معجزات**، توسعا وتجوزا، فإن المعجز على الحقيقة خالق العجز.

ثم ذكر لها شرائط قائلا: « ثم المعجزة لها شرائط نحن ذاكروها إن شاء الله عز وجل

منها: **أن يكون فعلا لله تبارك وتعالى أو في معنى الفعل**، ولا تكون المعجزة صفة قديمة من صفات الله تبارك وتعالى، فإن صفاته الأزلية لا اختصاص لها ببعض الخلائق...، والمعجزة حقُّها أن تكون مختصةً بمن يدعي النبوة...

ومنها: أن يكون **خارقاً للعادة**

والشرط الثالث: **أن يعجز** الخلائق عن معارضته

والشرط الرابع: أن يدعي النبوة ثم **تظهر المعجزة مع دعواه لها**، وتحديه الخلائق بها، فتقع على حسب إيثاره في وقت اختياره مطابقةً لدعواه

والشرط الخامس: **لا تظهرُ مكذبةً له**»(2)

فهؤلاء جملة من أعلام المتكلمين من مدرسة الأشاعرة، وأمّا من المعتزلة، فنجد الشريف المرتضى يقول: « ومعنى قولنا "معجز" في التعارف ما دلَّ على صدق من ظهر عليه واختصَّ به، وإنّما يدل على ذلك بشرائط:

الأول: أن يكون من فعل الله سبحانه وتعالى

---

(1) - المواقف للإيجي، (ص3/ 338-339)، وقد ناقشت شروط المعجزة في الفصل الأول من الرسالة، ص: 37 وما بعدها.

(2) – العقيدة النظامية في الأركان الإسلامية، أبو المعالي عبد الملك بن عبد الله الجويني، تحقيق وتعليق: محمد زاهد الكوثري، المكتبة الأزهرية للتراث، مصر، طبعة: 1412هـ -1992م.، (ص63)

والثاني: أن ينتقض به العادة المختصة بمن ظهر المعجز فيه

والثالث: أن يختصّ بالمدّعي على طريقة التصديق لدعواه»[1]

وقد كان المتكلمون، يعتنون بالدفاع عن القيود التي يذكرونها في التعريفات، لأجل السَّلامة من الاعتراضات التي يوشوش بها خصومهم من المدارس المخالفة ونحوهم.

فمن ذلكم ما أورده الباقلاني عن **شرط التحدي**: « نقول إنه تحداهم إلى أن يأتوا بمثله وقرعهم على ترك الإتيان به طول السنين التي وصفناها فلم يأتوا بذلك وهذا أصل ثان»[2]، ثم واستدل له بآيات التحدي من مثل قوله تعالى: ﴿ وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٢٣﴾ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا وَلَن تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ ﴿٢٤﴾ ﴾ البقرة: ٢٣ – ٢٤، وقوله ﷻ: ﴿ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٣﴾ فَإِلَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا أُنزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ وَأَن لَّا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٤﴾ ﴾ هود: ١٣ – ١٤.

ثم أورد الجواب على الاعتراضات التي اعترض بها من اعترض على هذا القيد المهم عندهم من تعريف المعجزة، فقال: « وإن قال قائل لعله لم يقرأ عليهم الآيات التي فيها ذكر التحدي وإنما قرأ عليهم ما سوى ذلك من القرآن – كان ذلك قولا باطلا يعلم بطلانه بمثل ما يعلم به بطلان قول من زعم أن القرآن أضعاف هذا وهو يبلغ حمل جمل وأنه كتم وسيظهره المهدي، أو يدعى أن هذا القرآن ليس هو الذي جاء به النبي ﷺ وإنما هو شيء وضعه عمر أو عثمان رضي الله عنهما حيث وضع المصحف، أو يدعى فيه زيادة أو نقصانا، وقد ضمن الله حفظ كتابه أن يأتيه الباطل من بين يديه أو من خلفه ووعده الحق.

وحكاية قول من قال ذلك يغنى عن الرد عليه لأن العدد الذين أخذوا القرآن في الأمصار وفي البوادي وفي الأسفار والحضر وضبطوه حفظا من بين صغير وكبير وعرفوه حتى

---

(1) – الذخيرة في علم الكلام، للشريف المرتضى، (ص 38)

(2) – إعجاز القرآن، الباقلاني، (ص: 17)

صار لا يشتبه على أحد منهم حرف لا يجوز عليهم السهو النسيان ولا التخليط فيه والكتمان، ولو زادوا او نقصوا أو غيروا لظهر»[1]

ومما اعترض به أيضا في هذا الباب ما جاء عن المشركين العرب وزعمهم أنهم قادرون على الإتيان بمثل هذا القرآن، وأنهم غير ممتنعٍ عنهم ذلك، كما جاء في : « قوله تعالى حكاية عنهم: ﴿ لَوْ نَشَآءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَٰذَآ ﴾ الأنفال: ٣١:...

قال الباقلاني في الجواب على هذا الاعتراض: «**فقد يمكن** أن يكونوا كاذبين فيما أخبروا به عن أنفسهم، **وقد يمكن** أن يكون قاله منهم أهل الضعف في هذه الصناعة دون المتقدمين فيها، **وقد يمكن** أن يكون هذا الكلام إنما خرج منهم وهو يدل على عجزهم ولذلك أورده الله مورد تقريعهم لأنه لو كانوا على ما وصفوا به أنفسهم لكانوا يتجاوزون الوعد إلى الإنجاز والضمان إلى الوفاء فلما لم يفعلوا ذلك مع استمرار التحدي وتطاول زمان الفسحة في إقامة الحجة عليهم بعجزهم عنه علم عجزهم إذ لو كانوا قادرين على ذلك لم يقتصروا على الدعوى فقط»[2]

وأمَّا ما وقع من مسيلمة الكذّاب، في محاولاته لمجاراة القرآن الكريم، فيقول عنه الباقلاني: « فأما كلام مسيلمة الكذاب وما زعم أنه قرآن فهو أخس من أن نشتغل به وأسخف من أن نفكر فيه، وإنما نقلنا منه طرفا ليتعجب القارئ وليتبصر الناظر فإنه على سخافته قد أضل وعلى ركاكته قد أزل وميدان الجهل واسع ومن نظر فيما نقلناه عنه وفهم موضع جهله كان جديرا أن يحمد الله على ما رزقه من فهم وآتاه من علم»[3].

ومن القيود المهمة في التعريف؛ قيد "**خرق العادة**"، وقد حدَّ عبد القاهر الجرجاني هذا القيد بكونه قاطعا لأطماع المعاندين على المعارضة، فقال: « وذلك أن الشرط في المزية الناقصة للعادة، أن يبلغ الأمر فيها إلى حيث المداناة، وحتى لا تحدث نفس صاحبها بأن يتصدى، ولا يجول في خلد أن الإتيان بمثله يمكن، وحتى يكون يأسهم منه وإحساسهم بالعجز عنه في بعضه، مثل ذلك في كله»[4].

---

(1) – المرجع السابق، (ص 18-19)
(2) – المرجع نفسه، (ص 43)
(3) – إعجاز القرآن، الباقلاني، (ص 156)
(4) – الرسالة الشافية، للجرجاني، (ص: 590).

وهذا الشرط وإن كان لازما في كل الآيات، فهو في القرآن أيضا غير متخلف، ولو ادعى بعضهم خفاءه، يقول الجرجاني: « وأنه كما يَفْضُلُ هناك النظْمُ النظمَ، والتأليفُ التأليفَ، والنسجُ النسجَ، والصياغةُ الصياغةَ، ثم يَعْظُمُ الفضلُ، وتَكثُر المزِيَّةُ، حتى يَفوقَ الشيءُ نظيرَه والمجانِسَ له درجاتٍ كثيرة، وحتى تَتفاوتَ القِيمُ التَّفاوُتَ الشديدَ، كذلك يَفْضُلُ بَعْضُ الكلام بَعضاً، ويتَقَدَّمُ منه الشيءُ الشيءَ، ثم يزداد فضله ذلك، وترقى منزلةً فوق مَنزلةٍ، ويَعْلو مَرْقباً بعدَ مَرْقبٍ، ويَسْتأنِفُ له غايَةٌ بعدَ غايةٍ، حتى يَنتهيَ إلى حيثُ تَنْقطِعُ الأطماعُ، وتَحْسَرُ الظنونُ، وتَسقُطُ القُوى، وتستوى الأقدام في العجز»[1].

فبلوغ آية النبي إلى هذا الحدِّ الذي تنقطع عنده الأطماع، فتطمئن له النفوس، وتوقن أنها لا قِبَلَ للقُوى به ولا بجنسه، ليس يخرج عن ذلك القرآن ولا غيره من بالآيات التي جاء بها النبيون عليهم السلام من ربهم.

([1]) – دلائل الإعجاز، للجرجاني، (ص: 35).

المطلبُ الثانيُّ: وجوه إعجاز القرآن الكريم في كتب علم الكلام:

من المباحث التي كثر فيها البحث في علم إعجاز القرآن، ما يتعلق بالكشف على وجوه إعجاز القرآن وما هو الوجه الذي استحق به القرآن أن يكون معجزاً للخلق وآية للنبيّ، ولقد كان لعلماء الكلام في هذا المجال جهودٌ كبيرةٌ، سنورد بعضاً منها، في ثنايا هذا المطلب، وذلك من خلال الفروع الآتية:

الفرع الأول: الإعجاز بالنظم في كتب علم الكلام.

الفرع الثاني: الإعجاز بالإخبار بالغيوب في كتب علم الكلام.

الفرع الثالث: الإعجاز التأثيري في كتب علم الكلام.

الفرع الرابع: الإعجاز التصويري في كتب علم الكلام.

الفرع الخامس: الإعجاز التشريعي في كتب علم الكلام.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

الفرع الأول: الإعجاز بالنظم في كتب علم الكلام:

لما تكلم العلماء على وجوه إعجاز القرآن، أجمعوا أو كادوا أن يعتبروا إعجازه بالنَّظم من الأوجه التي لا يمكن لأحد ردُّها ولا التردد بالقول بها، بل كما قال الأستاذُ محمود شاكر: « أن إعجاز القرآن كما يدلُّ عليه لفظه وتاريخه، هو دليل النبي ﷺ على صدْق نبوَّته، وعلى أنَّه رسولٌ من الله يوحى إليه هذا القرآن، **وأن النبي ﷺ كان يعرِفُ "إعجاز القرآن" من الوجه الذي عرفه منه سائر من آمن به من قومه العرب**، وأنَّ التَّحدي الذي تضمنته آيات التحدي، من نحو قوله ﷻ: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ۝١٣﴾ هود: ١٣، وقوله: ﴿قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ۝٨٨﴾ الإسراء: ٨٨، إنما هو تحدٍ بلفظِ القرآن ونظمه وبيانه لا بشيء خارجٍ عن ذلك، فما هو تحدٍّ بالغيب المكنون، ولا بالغيب الذي يأتي تصديقه بعد دهرٍ من تنزيله، ولا بعلم ما لا يدركه علم المخاطبين به من العرب، ولا بشيء مما لا يتصل بالنظم والبيان»[1].

وهذا أمرٌ لم يتنكَّر له علماء الكلام، بل أكثرهم أشاد بكون نظم القرآن وجهٌ كبيرٌ من أوجه الإعجاز، فهذا الباقلاني يقول:: « واعلم أن أكبر معجزاته القرآن العربي، وفيه وجوه من الإعجاز:

أحدها: ما اختص به من الجزالة، والنظم والفصاحة الخارجة عن أساليب الكلام، وتحدى به فصحاء العرب بأن يأتون بسورة من مثله فعجزوا عن الإتيان بمثله، وهم أهل الفصاحة والبلاغة، ولم يتأتَّ لهم ذلك في مدة ثلاث وعشرين سنة»[2].

وفي الإعجاز بالنظم، تطرَّق علماء الكلام لعدة قضايا، لعله يحسن تناولها في عناصر حتى يظهر لنا، جهد علماء الكلام في بيان هذا الوجه من أوجه الإعجاز، الذي كاد العلماء أن يتفقوا على اعتباره، بما فيهم علماء الكلام:

(1) – مداخل إعجاز القرآن، لمحمود محمد شاكر، (ص: 153-154).

(2) – الإنصاف، للباقلاني، (ص59)

أولا: خروج القرآن عن نظم العرب ومباينته لما اعتادوه من الكلام:

فإن العرب في الكلام، لها فيه أنساقٌ كانت معروفة، من شعرٍ ورجزٍ وسجْعٍ، ونحو ذلك مما ألفته من نظوم الكلام، لكنها لم سمعت القرآن، تبيّن لها – وهي أمّةُ الكلام – أنه لا عهد لها بهذا اللون من الكلام، لذلك اعترف حذاقُّهم بذلك، ولا تخفى علينا مقالة الوليد بن المغيرة، لمَّا أسمعه النبي ﷺ القرآن، وسألته قريشٌ عن ذلك فقال: وَمَاذَا أَقُولُ «فَوَاللَّهِ مَا فِيكُمْ رَجُلٌ أَعْلَمَ بِالْأَشْعَارِ مِنِّي، وَلَا أَعْلَمَ بِرَجَزٍ وَلَا بِقَصِيدَةٍ مِنِّي وَلَا بِأَشْعَارِ الْجِنِّ وَاللَّهِ مَا يُشْبِهُ الَّذِي يَقُولُ شَيْئًا مِنْ هَذَا وَوَاللَّهِ إِنَّ لِقَوْلِهِ الَّذِي يَقُولُ حَلَاوَةً، وَإِنَّ عَلَيْهِ لَطَلَاوَةً، وَإِنَّهُ لَمُثْمِرٌ أَعْلَاهُ مُغْدِقٌ أَسْفَلُهُ، وَإِنَّهُ لَيَعْلُو وَمَا يُعْلَى وَإِنَّهُ لَيَحْطِمُ مَا تَحْتَهُ»(1).

وقد أشار الباقلاني إلى هذه القضية، لما قال: « فالذي يشتمل عليه بديع نظمه المتضمن للإعجاز وجوه:

منها ما يرجع إلى الجملة وذلك أن نظم القرآن على تصرف وجوهه وتباين مذاهبه – **خارج عن المعهود من نظام جميع كلامهم و ومباين للمألوف من ترتيب خطابهم وله أسلوب يختص به ويتميز في تصرفه عن أساليب الكلام المعتاد**...، فهذا إذا تأمله المتأمل تبين – بخروجه عن أصناف كلامهم وأساليب خطابهم – أنه خارج عن العادة وأنه معجز، وهذه خصوصيةٌ ترجع إلى جملة القرآن وتميُّـزٌ حاصل في جميعه»(2)

ثم يؤكد الأمر مرَّةً أخرى، في كتابه الكلاميّ تمهيد الأوائل، فيقول: « مع علمهم **بخروج نظم القرآن عن سائر أوزان كلامهم ونظومهم** أعظم دليل على صدقه ظهور القرآن منه وهو نشأ معهم وبين أظهرهم، ولم يعرفوه بقصد أهل الكتاب ومجالسة غير من لقوه وعرفوه والاقتباس منه ولا انفرد بمداخلة فصيحٍ منهم ومتقدمٍ في البراعة واللَّسن عليهم آيةٌ عظيمةٌ وأمرٌ خارقٌ للعادة لأن مثل ذلك لا يُكْتسَبُ بتعلمٍ وتدقيقِ ذكاءٍ وفطنةٍ ولطيفِ حسّ وحيلةٍ»(3).

---

(1) – أخرجه الحاكم في المستدرك على الصحيحين، من حديث ابن عباس ﷺ: برقم: 3872، كتاب: التفسير، باب: تفسير سورة المدثر، وقال: «هَذَا حَدِيثٌ صَحِيحُ الْإِسْنَادِ عَلَى شَرْطِ الْبُخَارِيِّ وَلَمْ يُخَرِّجَاهُ»، المستدرك على الصحيحين، المؤلف : محمد بن عبدالله أبو عبدالله الحاكم النيسابوري، تحقيق: مصطفى عبد القادر عطا الناشر : دار الكتب العلمية – بيروت، الطبعة الأولى، 1411 – 1990، (ج2/ ص: 550).

(2) – إعجاز القرآن، للباقلاني، (ص:35).

(3) – تمهيد الأوائل وتلخيص الدلائل، للباقلاني، (ص: 169).

وهذا **الشريف المرتضى** يقول في ثنايا تعداد الوجوه التي كان بها القرآنُ معجزاً: « وقال قومٌ: إنه كان معجزاً **لاختصاصه بنظم** مخالفٍ للمعهود»[1]، وكذلك فعل **الجاحظ**، حينما قال: « وفي كتابنا المنزّل الذي يدلّنا على أنّه صدق، نظمه البديع الذي لا يقدر على مثله العباد، مع ما سوى ذلك من الدّلائل التي جاء بها من جاء به»[2].

كذلك لا يفوت التنويه بجهود الجرجاني في ما يتعلق بالنظم القرآني في رسالته الكلامية " الرسالة الشافية"، وأنه كما قال عن دليل إعجاز القرآن الكريم: « ومعلومٌ أن المعول في دليل الإعجاز على **النظم**، ومعلوم كذلك أن ليس الدليل في المجيء بنظم لم يوجد من قبل فقط، بل في ذلك مضمومًا إلى أن يَبِينَ ذلك "النظم" من سائر ما عرف ويعرف من ضروب "النظم"، وما يعرف أهل العصر من أنفسهم أنهم يستطيعونه، البينونة التي لا يعرض معها شك لواحد منهم أنه لا يستطيعه، ولا يهتدي لكُنْهِ أمره»[3].

فكلُّ هذه التقريرات العلميَّة من الباقلاني، وغيره من علماء الكلام، تدُّلنا على أن إعجاز القرآن بالنظم، أمرٌ لا ينبغي أن يمتريَ فيه أحدٌ من عقلاء النَّاس، بل حتى صناديد كفار قريش لم يقع لها في هذا الأمر لبس، كما نبه إلى ذلك الباقلاني لما قال: « فاستدللنا بتحيرهم في أمر القرآن على خروجه عن عادة كلامهم ووقوعه موقعا يخرق العادات وهذه سبيل المعجزات»[4].

وما أحسن ما قال الجرجاني يصف ماهية نظم القرآن: « فكما أنه محال أنه يكون ههنا إحياء ميت لا من فعل الله، كذلك محال أن يكون ههنا نظم مثل نظم القرآن لا من فعله تعالى، فهذا هو»[5].

ثانيا: حقيقة الإعجاز بالنظم

لمّا تبيّن اعتبار علماء الكلام للإعجاز بالنظم كما سبق، فإنهم سعوا من جهةٍ أخرى إلى بيان ماهية =الإعجاز بالنظم=، وممن أشار إلى ذلك الباقلاني نفسه، لمَّا قال: « فإن قالوا كيف

(1)– الذخيرة للشريف المرتضى، (ص 379)

(2) – الحيوان، عمرو بن بحر بن محبوب الكناني بالولاء، الليثي، أبو عثمان بالجاحظ، الناشر: دار الكتب العلمية – بيروت، الطبعة: الثانية، 1424 هـ، (ج4/ ص: 305)

(3) – الرسالة الشافية، للجرجاني، (ص: 596).

(4) – إعجاز القرآن، للباقلاني، (ص: 64)

(5) – الرسالة الشافية للجرجاني، (ص: 625).

يكون القرآن معجزا وهو غير خارج عن حروف المعجم التي يتكلم بها الخلق من أهل الفصاحة والعِـــيِّ واللُّكْنة؟

قيل لهم ليس الإعجاز في نفس الحروف، وإنما هو في نظمها وإحكام رصفها وكونها على وزن ما أتى به النبي نظمها أكثر من وجودها متقدمة ومتأخرة ومترتبة في الوجود وليس لها نظم سواها وهو كتتابع الحركات إلى السماء ووجود بعضها قبل بعض ووجود بعضها بعد بعض»[1].

فالنظم عبارة عن تراتيب للكلام، وفق قانونه، الذي هو النحو، كما سيكشف ذلك عبد القاهر الجرجانيُّ في كتابيْه الدَّلائل، والأسرار.

ثالثا: خصائص نظم القرآن :

لا شكَّ أن القول بأن للقرآن الكريم نظمٌ مباينٌ لنظوم الكلام التي ألفتها العرب، يدعو إلى معرفة، خصائص هذا النظم، فما هي خصائص النظم القرآنِيّ التي تميَّز بها عن سائر الكلام؟

الخصيصة الأولى: أن النظم القرآني متسقٌ على طوله، وعلى اختلاف مواضيعه بخلاف كلام الشعراء والبلغاء؛ فإنه: « ليس للعرب كلامٌ مشتملٌ على هذه الفصاحة والغرابة والتصرف البديع والمعاني اللطيفة والفوائد الغزيرة والحكم الكثير والتناسب في البلاغة والتشابه في البراعة على هذا الطُّول وعلى هذا القدر وإنما تنسب إلى حكيمهم كلماتٌ معدودةٌ وألفاظٌ قليلةٌ وإلى شاعرهم قصائدٌ محصورةٌ...، وقد حصل القرآن على كثرته وطوله متناسبا في الفصاحة على ما وصفه الله تعالى به فقال عز من قائل: ﴿ ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحۡسَنَ ٱلۡحَدِيثِ كِتَٰبٗا مُّتَشَٰبِهٗا مَّثَانِيَ تَقۡشَعِرُّ مِنۡهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخۡشَوۡنَ رَبَّهُمۡ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمۡ وَقُلُوبُهُمۡ إِلَىٰ ذِكۡرِ ٱللَّهِۚ ﴾ الزمر: ٢٣، وقوله: ﴿ وَلَوۡ كَانَ مِنۡ عِندِ غَيۡرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ ٱخۡتِلَٰفٗا كَثِيرٗا ٨٢ ﴾ النساء: ٨٢، فأخبر ﷻ أن كلام الآدمي إن امتدَّ وقع فيه التَّفاوت وبان عليه الاختلال»[2].

الخصيصة الثانية: هذا من جهة الكثرة والطُّول، فهو على وتيرةٍ واحدةٍ، لا اختلاف فيه، **وأمّا عن تباين موضوعاته، واختلافها، فإنها وإن كانت كذلكم، فإنه لا يدخل النقص في نظمه،** فهذا الباقلاني يوقفنا على ذلك في قوله: « وفي ذلك معنى ثالث وهو: أنَّ عجيب نظمه

---

(1) – تمهيد الأوائل وتلخيص الدلائل، للباقلاني (ص:177- 178).

(2) – إعجاز القرآن، للباقلاني، (ص:36).

وبديع تأليفه لا يتفاوت ولا يتباين على ما يتصرف إليه من الوجوه التي يتصرف فيها من ذكر قصصٍ ومواعظٍ واحتجاجٍ وحِكَمٍ وأَحْكامٍ وإعْذارٍ وإنْذَارٍ ووعدٍ ووعيدٍ وتبشيرٍ وتخْويفٍ وأوصَافٍ وتعليمِ أخلاقٍ كريمةٍ وشيَّمٍ رفيعةٍ وسيَّرٍ مأثورةٍ، وغير ذلك من الوجوه التي يشتمل عليها ونجد كلام البليغ الكامل والشاعر المُفلق والخطيب المِصْقع – يختلف على حسب اختلاف هذه الأمور.

فمن الشعراء مَنْ يجوِّد في المدح دون الهجو، ومنهم من يبرِّزُ في الهجو دون المدح، ومنهم من يسبق في التقريظ دون التأبين، ومنهم من يجوِّد في التأبين دون التقريظ، ومنهم من يغرب في وصف الإبل أو الخيل أو سير الليل أو وصف الحرب أو وصف الروض أو وصف الخمر أو الغزل أو غير ذلك مما يشتمل عليه الشعر ويتناوله الكلام، ولذلك ضرب المثل بامرئ القيس إذا ركب والنابغة إذا رهب وبزهير إذا رغب ومثل ذلك يختلف في الخطب والرسائل وسائر أجناس الكلام»(1).

الخصيصة الثالثة: وهذا ملحظٌ مهمٌّ في بيان خصائص النَّظم القرآني، وأخصُّ من ذلك **ما يجري في الموضوع الواحد عند الفصحاء** مما « يتفاوت تفاوتا بيّناً في الفصل والوصل والعلو والنزول والتقريب والتبعيد وغير ذلك مما ينقسم إليه الخطاب عند النظم ويتصرف فيه القول عند الضم والجمع، ألا ترى أن كثيرا من الشعراء قد وُصِفَ بالنقص عند التنقل من معنى إلى غيره والخروج من باب إلى سواه حتى إن أهل الصنعة قد اتفقوا على تقصير البحتري مع جودة نظمه وحسن وصفه في الخروج من النسيب إلى المديح وأطبقوا على أنه لا يحسنه ولا يأتي فيه بشيء وإنما اتفق له في مواضع معدودة خروج يُرتضى وتنقل يُستحسن ، وكذلك يختلف سبيل غيره عند الخروج من شيء إلى شيء والتحول من باب إلى باب ...

(1) – إعجاز القرآن، للباقلاني، (ص:36-37)

والقرآن علـــى اختلاف فنونه وما يتصرف فيه من الوجوه الكثيرة والطرق المختلفة يجعل المختلف كالمؤتلف والمتباين كالمتناسب والمتنافر في الأفراد إلى حد الآحاد وهذا أمرٌ عجيبٌ تَبِينُ به الفصاحة وتَظهرُ به البلاغة ويخرجُ معه الكلام عــن حدّ العادة ويتجاوزُ العُرْفَ»[1]

الخصيصة الرابعة: وهنا أمرٌ رابع ألا وهو **تفوق القرآن من جهة براعته في اللفظ للمعنى البارع**، وهو ألطف من أن يوجد اللفظ البارع في المعنى المتداول المتكرر، وإذا كان ذلك كذلك، فالبراعة أظهر، والفصاحة أتم، فوقع التكامل فيه فصاحةً وبلاغةً، « فالمعاني التي تضمنها في أصل وضع الشريعة والأحكام والاحتجاجات في أصل الدين والرَّدِ على الملحدين على تلك الألفاظ البديعة وموافقة بعضها بعضا في اللطف والبراعة **مما يتعذر على البشر ويمتنع** وذلك أنه قد علم أن تخير الألفاظ للمعاني المتداولة المألوفة والأسباب الدائرة بين الناس أسهل وأقرب من تخير الألفاظ لمعان مبتكرة وأسباب مؤسسة مستحدثة، فإذا برع اللفظ في المعنى البارع كان ألطف وأعجب من أن يوجد اللفظ البارع في المعنى المتداول المتكرر والأمر المتقرر المتصور. ثم انضاف إلى ذلك التصرف البديع في الوجوه التي تتضمن تأييد ما يبتدأ تأسيسه ويراد تحقيقه بان التفاضل في البراعة والفصاحة، ثم إذا وجدت الألفاظ وفق المعنى والمعاني وفقها لا يفضل أحدهما على الآخر فالبراعة أظهر والفصاحة أتم»[2]

فالقرآن جمع لقارئه: « **القصد في اللفظ والوفاء بالمعنى**: وهما طرفان متقابلان الميل لأحدهما ميل عن الآخر؛ فمن أوجز في لفظه لا ينفك من أن يحيف على المعنى قليلًا أو كثيرًا،

([1]) – المرجع السابق، (ص:38)، مع أن الباقلاني يذكر في كتابه أن « أن الإعجاز في بعض القرآن أظهر وفي بعضه أدق وأغمض»، يُنظر: إعجاز القرآن، (ص: 205)، ذلك(ص: 254). ومراده – والله أعلم – راجعٌ إلى اعتبارين:

الاعتبار الأول: من جهة جملة الإعجاز في القرآن، فإنه متماثل غير متفاوت، لذلك قال: « ونظم القرآن في مؤتلفه ومختلفه وفي فصله ووصله وافتتاحه واختتامه وفي كل نهج يسلكه وطريق يأخذ فيه وباب يتهجم عليه ووجه يؤمُّه على ما وصفه الله تعالى به – لا يتفاوت كما قال ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا ولا يخرج عن تشابهه وتماثله كما قال قرآنا عربيا غير ذي عوج وكما قال كتابا متشابها ولا يخرج عن إبانته كما قال بلسان عربي مبين»، بخلاف غيره من الكلام، فإنه « كثير التلون دائم التغير والتنكر يقف بك على بديع مستحسن ويعقبه بقبيح مستهجن ويطلع عليك بوجه الحسناء ثم يعرض للهجر بخد القبيحة الشوهاء...»

أما الاعتبار الثاني: فهو التفاوت في القرآن نفسه، فإنه كما ذكر سابقا؛ أنه في بعضه أظهر من بعض، وأدقُّ وأغمض.

([2]) – إعجاز القرآن، للباقلاني، (ص: 42).

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

ومن يعتمد إلى الوفاء بالمعنى وإبراز كل دقائقه لا يجد في قليل اللفظ ما يشفي صدره فيسترسل استرسالًا يشعرك بتضاؤل قوة نشاط واضمحلال باعثة إقبالك؛ فإن سرك أن ترى كيف تجتمع هاتان الغايتان على تمامهما بغير فترة ولا انقطاع فانظر حيث شئت من القرآن الكريم تجد وفاء الألفاظ بحق المعاني واحتواء المعاني للألفاظ بحيث لا يستغني معنى عن لفظة ولا تقصر لفظة عن معنى»[1]

الخصيصة الخامسة: **وهذا أمرٌ خامسٌ**: وهو ما يتعلق بموضع الكلمة في تضاعيف الكلام، ففي القرآن ترى الكلمة منه يتمثل بها في تضاعيف كلام كثير، وهي غرّة جميعه، الحسن فيه بادٍ كيفما قلّبت عينيك تنظر إليها وإلى موضعها، « فالكلام يتبين فضله ورجحان فصاحته بأن تذكر منه الكلمة في تضاعيف كلام أو تقذف ما بين شعر؛ فتأخذها الأسماع وتتشوف إليها النفوس ويرى وجه رونقها باديا غامرا سائر ما تقرن به كالدُّرة التي تُرى في سلك من خرز وكالياقوتة في واسطة العقد»[2].

الخصيصة السادسة: ثم يقال سادساً لو نظرنا إلى الكلمة القرآنية، فإنما هي متكوّنةٌ من أحرف الهجاء التي تكلمت بها العرب، ومن اللطيف قال: « أن الحروف التي بنى عليها كلام العرب تسعة وعشرون حرفا وعدد السور التي افتتح فيها بذكر الحروف ثمان وعشرون سورة وجملة ما ذكر من هذه الحروف في أوائل السور من حروف المعجم نصف الجملة وهو أربعة عشر حرفا ليدل بالمذكور على غيره وليعرفوا أن هذا الكلام منتظم من الحروف التي ينظمون بها كلامهم»[3]، ومع ذلك جاء القرآن على خلاف ما عهدوه من الكلام، فأعطى كلُّ ذلك للقرآن خصيصةً في نظمه، فجعله مبايناً لكلامهم.

الخصيصة السابعة: وسابعُ الأمور: لو لاحظنا «ما يقع عليه كلام العرب من بسطٍ واقتصارٍ وجمعٍ وتفريقٍ، واستعارةٍ وتصريحٍ، وتجوّزٍ وتحقيقٍ، ونحو ذلك كله موجود في القرآن، وكل

---

(1) – دراسات في علوم القرآن الكريم، لفهد الرُّومي، (ص: 286).
(2) – إعجاز القرآن، للباقلاني ، (ص: 42).
(3) – المرجع نفسه، (ص: 44).

ذلك تجاوز حدود كلامهم المعتاد بينهم»[1]، فمجازات القرآن وتشبيهاته واستعاراته، وسائر فنونه البلاغية جاوزت ما يقع في كلام العرب منها مجاوزةً تبيَّنت للعرب أنفسهم قبل أن تتبيَّن لغيرهم.

الخصيصة الثامنة: وثامناً: فإن نظم القرآن الكريم، مع ما امتاز به من سهولة مخرج، فإنه ممتنع المطلب، يبين ذلك الباقلاني عندما ذكر عن القرآن « أنه سهلٌ سبيله فهو خارجٌ عن الوحشي المستكره والغريب المستنكر وعن الصنعة المتكلفة وجعله قريبا إلى الإفهام يبادر معناه لفظه إلى القلب ويسابق المغزى منه عبارته إلى النفس وهو مع ذلك ممتنع المطلب عسير المتناول غير مطمع مع قربه في نفسه ولا موهم مع دنوه في موقعه أن يقدر عليه أو يظفر به»[2]

وأخيراً يمكن القول بأن هذه الخصائص التي امتاز بها نظم القرآن عن غيره من الكلام، إنما وقعت له، لأجل شيءٍ واحدٍ، وهو كونه خارجاً عن طوق الإنس والجنِّ معاً، فإن: « نظم القرآن وقع موقعا في البلاغة يخرج عن عادة كلام الجن كما يخرج عن عادة كلام الإنس فهم يعجزون عن الإتيان بمثله كعجزنا ويقصرون دونه كقصورنا وقد قال الله ﷻ: ﴿ قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴾ الإسراء: ٨٨»[3].

وذلك لأن: « الجنس الذي يرمون إليه والغرض الذي يتواردون عليه هو ممَّا للآدميِّ فيه مجالٌ وللبشريِّ فيه مثال فكلٌّ يضرب فيه بسهمٍ ويفوز فيه بقدح، ثمَّ قد تتفاوت السهام تفاوتاً وتتباين تبايناً، وقد تتقارب تقارباً على حسب مشاركتهم في الصَّنائع ومساهمتهم في الحرف، ونظم القرآن جنس متميز وأسلوب متخصص وقبيل عن النظير متخلص»[4].

فهذا هو سرُّ إعجاز القرآن عموماً، ليس في إعجازه بالنظم فقط، وهو كونه خارجٌ عن قدرة الجنّ والإنس، كما لحال في سائر آيات النبيين، ولكن الفرق الوحيد، هو أن مأخذ آيات الأنبياء قريبٌ سهل من مثل ناقة صالح، ونار ابراهيم، وإبراء الأكم والأبرص وإحياء الموتى، فهذه الآيات وغيرها المباينة فيها كلّها لقدرة الإنسان ظاهرة تقع بمجرد عِيانها أو سَماعها يشهد جميع

([1]) – المرجع نفسه، (ص: 42).
([2])- المرجع نفسه، (ص:46).
([3]) – إعجاز القرآن، للباقلاني، (ص:38).
([4]) – المرجع نفسه، (ص: 159)

الخلق بالعجز، سواءٌ صدَّق مشاهدوها أو سامعوها بنبوة صاحبها أو كذبوه!، بخلاف القرآن الكريم، فهي آيةٌ وجه إعجازها من الخفاء بمكان[1].

رابعا: هل الإعجاز وقع بالفصاحة وحدها، أم وقع بها وبالنظم معاً؟

وإنما سُئل هذا السؤال، لأن الباحث ربما أنه إذا طالع على كلام العلماء في هذه القضية، يفهم من بعض العبارات، أن إعجاز القرآن، وقع في الفصاحة وحدها دون النَّظم، كما فيما أورده لشريف المرتضى:« وقال قومٌ: إن القرآن اختصّ بمزية في الفصاحة خرقت العادات، وتجاوزت كلّ غاية أجرى الله ﷻ العادة أن ينتهي الفصحاء إليها...

إلا أن الله ﷻ فعل فيه علوماً بالفصاحة لم يُجرِ به العادة بأن الله ﷻ يفعلها، فدلالة القرآن على هذا الوجه مستندةٌ إلى خرق العادة بهذه العلوم، وإذا علمنا بقوله ﷺ إن القرآن من فعل ربه ﷻ لا فعله قطعنا على الوجه الأول»[2].

فظاهر هذا القول أن الإعجاز كان بالفصاحة دون النَّظم، ولكنه يمكن أن يُقال: إنه لا يبعُدُ أن يكون المراد بالفصاحة هنا النظم أيضاً، ولذلك نجد الشريف المرتضى نفسه يدفع هذا القول، ويستبعده عن الصواب، فها هو يقرر ذلك بقوله: « ومما بيّن أن التحدي وقع بالنظم مضافاً إلى الفصاحة: أنَّا قد بيّنا مقارنة كثير من القرآن لأفصح كلام العرب في الفصاحة، ولهذا خفيَ الفرق علينا من ذلك، وإن كان غير خافٍ علينا الفرق فيما ليس بينهما هذا التفاوت الشديد، فلولا أن النظمَ معتبرٌ لعارضوا بفصيح شعرهم وبليغ كلامهم»[3]

ونجد أيضا من جهة أخرى أبا حامدٍ الغزَّاليَّ، يقرر ذلك بدوره قائلا: « فإن قيل: ما وجه إعجاز القرآن؟

قلنا الجزالة والفصاحة مع النظم العجيب والمنهاج الخارج عن مناهج كلام العرب في خطبهم وأشعارهم وسائر صنوف كلامهم، والجمع بين هذا النظم وهذه الجزالة معجزٌ خارجٌ عن مقدور البشر، نعم ربما يُرى للعرب أشعارٌ وخطبٌ حكمٌ فيها بالجزالة، وربما يُنقل عن بعض من قصد المعارضة مراعاة هذا النظم بعد تعلمه من القرآن، ولكن من غير جزالة بل مع ركاكة كما

---

(1) – يُنظر لهذا: مداخل إعجاز القرآن، لمحمود شاكر، (ص: 39-41)

(2) – الذخيرة، للشريف المرتضى، (ص 379)

(3)– المرجع نفسه، (ص 381)

يُحكى عن ترهات مسيلمة الكذاب حيث قال: "الفيل وما أدراك ما الفيل له ذنب وثيل وخرطوم طويل"؛ فهذا وأمثاله ربما يُقدر عليه مع ركاكةٍ يستغثُّها الفُصحاء ويستهزؤون بها، وأما جزالة القرآن فقد قضى كافةً العرب منها العجب ولم يُنقل عن واحدٍ منهم تشبثٌ بطعنٍ في فصاحته، فهذا إذاً معجزٌ وخارجٌ عن مقدور البشر من هذين الوجهين، أعني من اجتماع هذين الوجهين»[1].

وبهذا يتبين أن قصر الإعجاز على الفصاحة وحدها أمرٌ مجانب للصواب أيَّما مجانبة، وإنما كان القرآن معجزا بالفصاحة مضافةً إلى النَّظم معاً.

خامسا: نفي إعجاز القرآن بالنظم عند علماء الكلام

لو أننا استثنينا من علماء الكلام أبا اسحاق النظام، ومن تأثر بمذهبه في القول بالصَّرفة، من أمثال الشريف المرتضى وبعض أهل الاعتزال، لسلم لنا شبهُ إجماعٍ للعلماء على اعتبار الإعجاز بالنظم، ولكنه عند التنقيب نجد في المتكلمين الأشاعرة من ينفي عن القرآن كونه معجز بالنظم، ولا الفصاحة، كأبي المعالي الجويني، فإنه نفى عن القرآن ذلك وادّعى أنه مجردُ زعمٍ لا غيْر، فقال: « وقد أكثر الناس في وجه إعجاز القرآن، وتقطعوا فيه أياديَ سبأٍ، وصار معظم الناس: إلى أن القرآن تميّز على صنوف الكلام بمزيّة البلاغة والجزالة خارج عن المعتاد في ذلك.

ثم زعم زاعمون: أن إعجازه في **شرف جزالته**

وذهب آخرون: إلى أن إعجازه في الجزالة الفائقة وأسلوبه الخارج عن أساليب النظم والنثر والخطب والأراجيز»[2].

ثم يفصح عن رأيه مسفراً بقوله: «من رام أن يثبت إعجاز القرآن بأنه في جزالته خارقٌ للعادات مجاوزٌ لفصاحته ألدّ البلغاء واللُّسنَ الفصحاء، فقد حاد عن مدرك الحق، فإن من تأمل كلام العرب في نظمها ونثرها لم يتحقق عنده انتهاء جزالة القرآن إلى حدّ الخروج عن العادة في الزيادة على كلام الفصحاء، ومن تكلف إثبات ذلك، فقد تكلف شططاً وظنَّ غلطاً، وتهدّف للكلام الطويل من غير تحصيل، ومن أنصف انتصف ولم يتعسّف لَمَ يلُح له: أن شعر امرئ

(1) – الاقتصاد في الاعتقاد، للغزالي (ص: 113)

(2) – العقيدة النظامية، لأبي المعالي الجويني، (ص 71)

القيس والذبياني والجعدي وزهير وأعشى باهلة، والمعلقات السبع وغيرها من أشعار الفلقين، تقصر في الجزالة عن القرآن»[1].

ولا يشكُّ أحدٌ أن هذا الرأي مباينٌ لما عليه جماهير علماء الملة على اختلاف مذاهبهم ومدارسهم الكلامية بما فيهم المعتزلة والأشاعرة، لا يوافقه فيه إلا النَّظام، ومن جرى في ميدانه، أو دان بمذهبه، أو انطلت عليه الشُّبهة[2].

(1) – المرجع السابق، (ص71-73).

(2) – وقد تقدم بيانٌ للصَّرفة في الفصل الأول، ينظر، (ص:53، وما بعدها).

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

الفرع الثاني: الإعجاز بالإخبار بالغيوب في كتب علم الكلام:

من وجوه الإعجاز التي لا تقلُّ أهمية عن الإعجاز بالنظم، ما يتعلق بإعجاز القرآن بالإخبار بالغيوب، فإننا نجد جمهرةً كبيرةً من العلماء أطبقت على ذكر ذلك واعتباره، ولم يتخلف علماء الكلام عن القول بهذا الوجه من وجوه إعجاز القرآن الكريم.

يقول الشريف المرتضى: « وأسند قومٌ إعجازه إلى ما تضمنه **من الإخبار عن الغيوب**»[1]، وهذا البحراني يقول:« وفيه آيات كثيرة بشرّت وأنذرت بحوادث مستقبلة، وذلك مما لا يفي به القوّة البشريّة إلاّ بتأييد ووحي إلهي، فتكون لك ممتنعة في كلامهم فضلا أن يعبروا عنها بما يناسب لفظ القرآن في فصاحته وأسلوبه»[2]،

ومثلهما الباقلاني، فإنه يذكر هذا الوجه بإزاء الإعجاز بالنَّظم تنبيهاً لأهميته، فيقول: « فإن قال قائلٌ فهل في القرآن وجهٌ من وجوه الإعجاز غير ما ذكرتموه من بديع نظمه وعجيب رصفه وتأليفه قيل له أجل فيه وجهان آخران من وجوه الإعجاز

أحدهما: ما انطوى عليه **من أخبار الغيوب** التي يعلم كل عاقل عجز الخلق عن معرفتها والتوصل إلى إدراكها»[3]

ثم بعد ذلك أخذ يعدد أشياء من مظاهر الإعجاز بالإخبار بالغيوب، فقال:«...نحو قوله: ﴿لَّقَدْ صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ ٱلرُّءْيَا بِٱلْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ﴾ الفتح: ٢٧، فدخلوه كما وعدهم وأخبرهم، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿سَيُهْزَمُ ٱلْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ ﴿٤٥﴾﴾ القمر: ٤٥، فكان ذلك كما أخبر، وقوله: ﴿لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ ﴿٣٣﴾﴾ التوبة: ٣٣، وقد أظهره الله وأعلى دعوته وأذل الملوك المحاولة لأبطاله التي كانت حول صاحب الدعوة إليه، وقوله: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ النور: ٥٥، وكان من ذلك ما وعدهم الله تعالى واستخلف الأربعة الأئمة الخلفاء الراشدين، وقوله لليهود: ٥٥، ﴿قُلْ إِن كَانَتْ

---

(1)– الذخيرة في علم الكلام، للشريف المرتضى، (ص 379)

(2)– قواعد المرام في علم الكلام، ميثم البحراني، (ص 133).

(3) – تمهيد الأوائل وتلخيص الدلائل، للباقلاني (ص: 185-186)

لَكُمُ ٱلدَّارُ ٱلْآخِرَةُ عِندَ ٱللَّهِ خَالِصَةً مِّن دُونِ ٱلنَّاسِ فَتَمَنَّوُا۟ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٩٤﴾ وَلَن يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًۢا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ﴾ البقرة: ٩٤ – ٩٥، فأخبر أنهم إن تمنوا الموت ماتوا وأنهم لن يتمنوه فلم يتمنوه على ما أخبر به علما منهم بصدقه، وأنهم لو تمنوا الموت لماتوا لا محالة.

وكذلك امتنع النصارى عن مباهلته عند دعائه لهم إليها ومطالبته بها في قوله تعالى: ﴿فَقُلْ تَعَالَوْا۟ نَدْعُ أَبْنَآءَنَا وَأَبْنَآءَكُمْ وَنِسَآءَنَا وَنِسَآءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٦١﴾﴾ آل عمران: ٦١، فامتنعوا عن المباهلة خوفا من النكال وأليم العقاب وأن ينزل بهم ما توعدهم به وليس ذلك إلا لعلمهم بصدقه وثبوت نبوته.

ومن أخبار الغيوب قوله تعالى: ﴿غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ﴿٢﴾ فِىٓ أَدْنَى ٱلْأَرْضِ وَهُم مِّنۢ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ ﴿٣﴾ فِى بِضْعِ سِنِينَ﴾ الروم: ٢ – ٤، فغُلبت الروم فارس في بِضْع السنين كما أخبر تعالى، في نظائر هذا مما يكثر تتبعه واتفاق الصواب في هذا أجمع على سبيل التخمين والظن ممتنع متعذر فدل ذلك على أنه من أخبار علام الغيوب سبحانه»[(1)].

ومن مظاهر الإعجاز بالإخبار بالغيب، ما حواه القرآن من قصص الأولين، الذي ذكره الباقلاني قسيماً للإخبار بالغيوب، وإن كان لا داعي لذلك، فإنما هو مظهر من مظاهر الإعجاز بالغيوب، فلا داعي لإفراده عنه.

يقول الباقلاني« والوجه الآخر ما عليه القرآن من قصص الأولين وسير الماضين وأحاديث المتقدمين وذكر ما شجر بينهم وكان في أعصارهم مما لا يجوز حصولُ علمِه إلا لمن كثُرَ لقاؤُه لأهل السير ودرْسِه لها، وعنايته بها ومجالسته لأهلها وكان ممن يتلوا الكتب ويستخرجها مع العلم بأنَّ النبي ﷺ لم يكنْ يتلُو كتاباً ولا يخطه بيمينه، وأنه لم يكن ممن يعرف بدراسة الكتب ومجالسة أهل السير والأخذ عنهم، ولا لقي إلا من لقوْهُ ولا عرف إلا من عرفوه، وأنهم يعرفون دأبه وديدنه ومنشأه وتصرفه في حال إقامته بينهم وظَعَنِه عنهم فدلَّ ذلك على أن المخبر له عن هذه الأمور هو الله ﷻ علام الغيوب، فهذا وجه الإعجاز في القرآن»[(2)].

وقال في موطن آخر من بعض كتبه: « ومن وجوه الإعجاز في القرآن: اشتماله على قصص الأولين، وما كان من أخبار الماضين، مع القطع بأنه ﷺ كان أمياً لا يكتب ولا يقرأ،

(1) - تمهيد الأوائل وتلخيص الدلائل، للباقلاني (ص: 185-186)
(2) – الرجع نفسه، (ص: 187)

ولم يعهد منه ﷺ في جميع زمانه تعاطٍ لدراسة كتب ولا تعلمها، وقد نفى عنه ﷻ ذلك بقوله: ﴿وَمَا كُنتَ تَتْلُواْ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ ۖ إِذًا لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿٤٨﴾﴾ العنكبوت: ٤٨»[1].

ثم إن غيوب القرآن الكريم، تعلقت بالسابق واللاحق، بل وحتى الحاضر، وقد أورد الباقلاني بهذا الصدد تأويلا لطيفا لقوله تعالى:﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِٱلذِّكْرِ لَمَّا جَآءَهُمْ ۖ وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٌ ﴿٤١﴾ لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ﴾ فصلت: ٤١ – ٤٢، فقال: « ...وهذا وإن كان متأولا على أنه لا يوجد فيه غير الحق مما يتضمنه من أقاصيص الأولين وأخبار المرسلين وكذلك لا يوجد خلف فيما يتضمنه من الإخبار عن الغيوب وعن الحوادث التي أنبأ أنها تقع في الآتي – فلا يخرج عن أن يكون متأولا على ما يقتضيه نظام الخطاب من أنه لا يأتيه ما يبطله من شبهة سابقة تقدح في معجزته أو تعارضه في طريقة وكذلك لا يأتيه من بعده قط أمر يشككك في وجه دلالته وإعجازه وهذا أشبه بسياق الكلام ونظامه»[2].

فهذا كله يدلنا على أهميّة هذا الوجه من إعجاز القرآن، ثمّ إن مواضعه في القرآن المكي والمدني، كثيرةٌ جداً، مما يدلنا على احتفال القرآن به، وأنه وجهٌ معتبر.

---

(1) – الإنصاف، للباقلاني، (ص60).

(2) – إعجاز القرآن، لأبي بكر الباقلاني، (ص: 13)

الفرع الثالث: الإعجاز التأثيري في كتب علم الكلام:

وقد كانت الإشارة إليه متقدمة، حتى كشف عنها الخطابي رحمه الله ونُسبت إليه، مع أنه قد أورد علماء الكلام كالباقلاني مثلاً كلاماً يدلُّ المتأمِّل على ذلك، من ذلك قوله: « إن البليغ المتناهي في وجوه الفصاحة يعرف إعجاز القرآن وتكون معرفته حجة عليه إذا تُحدِّي إليه وعجز عن مثله وإن لم ينتظر وقوع التحدي في غيره وما الذي يصنع ذلك بالغير فهو ما روي في الحديث أن جبير بن مطعم رضي الله عنه وَرَدَ على النبي صلى الله عليه وسلم في معنى حليف له أراد أن يفاديه، فدخل والنبي يقرأ سورة "والطور وكتاب مسطور" في صلاة الفجر قال فلما انتهى إلى قوله ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ ۝٧ مَّا لَهُۥ مِن دَافِعٍ ۝٨﴾ الطور: ٧ – ٨، قال خشيت أن يدركني العذاب، فأسلم[1].

وفي حديث آخر أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه سمع سورة طه فأسلم وقد روي أن قوله عز وجل في أول حم السجدة إلى قوله: ﴿فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ۝٤﴾ فصلت: ٤، نزلت في شيبة وعتبة ابني ربيعة وأبي سفيان ابن حرب وأبي جهل وذكر أنهم بعثوا هم وغيرهم من وجوه قريش بعتبة بن ربيعة إلى النبي صلى الله عليه وسلم ليكلمه وكان حسن الحديث عجيب البيان بليغ الكلام وأرادوا أن يأتيهم بما عنده فقرأ النبي صلى الله عليه وسلم سورة "حم السجدة" من أولها حتى انتهى إلى قوله: ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِّثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ ۝١٣﴾ فصلت: ١٣، فوثب مخافة العذاب، فاستحكَوْهُ ما سمع فذكر أنه لم يفهم منه كلمة واحدة ولا اهتدى لجوابه ولو كان ذلك من جنس كلامهم لم يخف عليه وجه الاحتجاج والرد، فقال له عثمان بن مظعون: لتعلموا أنه من عند الله إذا لم يهتد لجوابه

وأبين من ذلك قول الله عز وجل: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ﴾ التوبة: ٦، فجعل سماعه حجة عليه بنفسه فدلَّ على أن فيهم من يكون سماعه إياه حجة عليه»[2]

جمعية الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

(1) – أخرجه الطبراني في المعجم الكبير، من حديث: جبير بن مطعم عن أبيه، برقم 1498، ولفظه: « فأخذني من قراءته كالكَرْبِ، فكان ذلك أول ما سمعت من أمر الإسلام»، المعجم الكبير، المؤلف : سليمان بن أحمد بن أيوب أبو القاسم الطبراني، تحقيق : حمدي بن عبدالمجيد السلفي، الناشر : مكتبة العلوم والحكم – الموصل، الطبعة الثانية ، 1404 هـ – 1983م، (ج1/ ص: 116).

(2) – إعجاز القرآن، لأبي بكر الباقلاني، (ص: 27-28)

قال في موضعٍ آخرَ: « وإذا تأملت على ما هديناك إليه ووقفناك عليه فانظر هل تجد وقع هذا النور في قلبك واشتماله على لبّك وسريانه في حسِك ونفوذه في عروقك وامتلاءك به إيقاناً وإحاطةً واهتداءك به إيماناً وبصيرةً، أم هل تجد الرُّعب يأخذ منك مأخذه من وجه والهزَّة تعمل في جوانبك من لون والأريحيَّة تستولي عليك من باب.

وهل تجد الطَّرب يستفزك للطيف ما فطنت له والسرور يحركك من عجيب ما وقفت عليه وتجد في نفسك من المعرفة التي حدثت لك – عزة وفي أعطافك ارتياحا وهزة وترى لك في الفضل تقدما وتبريزا وفي اليقين سبقا وتحقيقا وترى مطارح الجهال تحت أقدام الغفلة ومهاويهم في ظلال القلة والذلة وأقدارهم بالعين التي يجب أن تلحظ بها ومراتبهم بحيث يجب أن ترتبها، وهذا كلّه في تأمل الكلام ونظامه وعجيب معانيه وأحكامه»[1]

ثم جاء موقعٌ آخر ليصرّح بلفظ التأثير، فيقول: « وله مسالك في النفوس لطيفة، ومداخل إلى القلوب دقيقة، وبحسب ما يترتب في نظمه، ويتنزل في موقعه، ويجري على سمت مطلعه ومقطعه – **يكون عجيب تأثيراته**، وبديع مقتضياته»[2].

فالقول بالإعجاز التأثير، له حضورٌ كما نرى في كتب علم الكلام، وهو حريٌّ أن يذكر، لأنه من الوجوه الظاهرة الأثر على الكافر بالقرآن الكريم فضلا عن المؤمن به!

([1]) – إعجاز القرآن، لأبي بكر الباقلاني، (ص: 202-203)

([2]) – المرجع نفسه، (ص: 277)

الفرع الرابع: الإعجاز التصويري في كتب علم الكلام:

لا شكَّ أن خصائص القرآن الكريم، كثيرة، قد لا تقع على عدِّ العادين، ولكن من الخصائص المهمة التي تميز بها القرآن الكريم، ما يتعلق بأسلوبه في تصوير المعاني بغرض تقريبها للأذهان، وتمكينها من الأفهام، يقول فهد الرُّومي: « ومن خصائص الأسلوب القرآني الكريم؛ تصوير المعاني: ويراد بها إظهار المعاني بكلمات تكاد أن تجعلها بصورة المحسوس حتى تَهِمَّ بلمسها بيديك، وحتى تَلِجَ إلى ذهنك مترابطة متكاملة، لا تكلف ذهنك مشقة تركيبها، ولا تثقله بمهمة تجميعها، فتقسره قسرا على الفهم والإدراك، بل تفجؤه بانطباعها فيه بمجرد توجهه إليها»[1].

أما الإعجاز التصويري، فيظنُّ كثيرون أنَّه أمرٌ اكتشفه النّاس بأَخرَةٍ، وأن الرائد في ذلك هو سيد قطب في كتابه التصوير الفني، ولكن الباحث في تراث الأمَّة يجد أن بعض أهل العلم قد أشار إلى ذلك، وربما كانت تلك الإشارة هي التي قادة من تكلم في الإعجاز التصويري كي يزيده جلاءً وتوضيحا، فهذا الباقلاني يشر إلى ذلك بقوله: « ولكل شيء طريق يتوصل إليه به وباب يؤخذ نحوه فيه ووجه يؤتى منه، ومعرفة الكلام أشد من المعرفة بجميع ما وصفت لك وأغمض وأدق وألطف

وتصوير ما في النَّفس وتشكيل ما في القلب حتى تعلمه وكأنك مشاهده وإن كان قد يقع بالإشارة ويحصل بالدلالة والأمارة كما يحصل بالنطق الصريح والقول الفصيح - فللإشارات أيضا مراتب وللسان منازل ورب وصف يصور لك الموصوف كما هو على جهته لا خلف فيه ورب وصف ببر[2] عليه ويتعداه ورب وصف يقصر عنه

ثم إذا صدق الوصف انقسم إلى صحة وإتقان وحسن وإحسان والى إجمال وشرح والى استيفاء وتقريب والى غير ذلك من الوجوه، ولكل مذهب وطريق وله باب وسبيل»[3]

---

(1) – دراسات في علوم القرآن، لفهد الرومي، (ص: 62).

(2) – هكذا المصور في الكتاب، وأشار المحقق أن بعض النسخ فيها، "يربو" وهي نسخة رافعةٌ للإشكال، ولعلَّ في الكلمة تصحيف: ويصلح لها مثل كلمة " يبُزُّ. بزَّ الشَّخصُ أقرانَه بمعنى ؛ غلَبهم ، فَاقَهم ، ومنه قولهم في المثل من عَزَّ بَزَّ معناه من غَلَبَ سَلَبَ"، ينظر لسان العرب، مادة بزز، لسان العرب (ج5/ص: 311).

(3) – إعجاز القرآن، للباقلاني، (ص: 244).

فهذا الكلام فيه حتى التصريح بمصطلح التصوير لما قال: " وتصوير ما في النَّفس وتشكيل ما في القلب"، فهذا سياقٌ واضحٌ في اعتبار التصوير القرآن كوجه بارزٍ من أوجه إعجازه.

ثم بعد ذلك أخذ يعدد وينتقي أمثلةً، لتوضيح ما قرره من هذا الوجه الإعجازي، فقال: « فوصف الجملة الواقعة، كقوله تعالى: ﴿لَوِ ٱطَّلَعۡتَ عَلَيۡهِمۡ لَوَلَّيۡتَ مِنۡهُمۡ فِرَارٗا وَلَمُلِئۡتَ مِنۡهُمۡ رُعۡبٗا ١٨﴾ الكهف: ١٨، والتفسير كقوله: ﴿وَيَوۡمَ نُسَيِّرُ ٱلۡجِبَالَ وَتَرَى ٱلۡأَرۡضَ بَارِزَةٗ وَحَشَرۡنَٰهُمۡ فَلَمۡ نُغَادِرۡ مِنۡهُمۡ أَحَدٗا ٤٧﴾ الكهف: ٤٧، إلى آخر الآيات في هذا المعنى، وكنحو قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمۡۚ إِنَّ زَلۡزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَيۡءٌ عَظِيمٞ ١ يَوۡمَ تَرَوۡنَهَا تَذۡهَلُ كُلُّ مُرۡضِعَةٍ عَمَّآ أَرۡضَعَتۡ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمۡلٍ حَمۡلَهَا وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَٰرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٞ ٢﴾ الحج: ١ – ٢، هذا مما يصور الشيء على جهته، ويمثل أهوال ذلك اليوم.

ومما يصور لك الكلام الواقع في الصفة كقوله حكاية عن السحرة لما توعدهم فرعون بما توعدهم به حين آمنوا: ﴿قَالُواْ لَا ضَيۡرَۖ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ٥٠ إِنَّا نَطۡمَعُ أَن يَغۡفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَٰيَٰنَآ أَن كُنَّآ أَوَّلَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٥١﴾ الشعراء: ٥٠ – ٥١، وقال في موضع آخر: ﴿قَالُوٓاْ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ١٢٥ وَمَا تَنقِمُ مِنَّآ إِلَّآ أَنۡ ءَامَنَّا بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا لَمَّا جَآءَتۡنَاۚ رَبَّنَآ أَفۡرِغۡ عَلَيۡنَا صَبۡرٗا وَتَوَفَّنَا مُسۡلِمِينَ ١٢٦﴾ الأعراف: ١٢٥ – ١٢٦، وهذا ينبئ عن كلام الحزين لما ناله والجازع لما مسه.

ومن باب التسخير والتكوين قوله تعالى: ﴿إِنَّمَآ أَمۡرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيۡـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ٨٢﴾ يس: ٨٢، ، وقوله: ﴿فَقُلۡنَا لَهُمۡ كُونُواْ قِرَدَةً خَٰسِـِٔينَ ٦٥﴾ البقرة: ٦٥، وكقوله: ﴿فَأَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱضۡرِب بِّعَصَاكَ ٱلۡبَحۡرَۖ فَٱنفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرۡقٖ كَٱلطَّوۡدِ ٱلۡعَظِيمِ ٦٣﴾ الشعراء: ٦٣، وتقصي أقسام ذلك مما يطول ولم أقصد استيفاء ذلك وإنما ضربت لك المثل بما ذكرت لتستدل وأشرت إليك بما أشرت لتتأمل»[1].

فهذه الجهود من الباقلاني تدلُّ على عنايته بهذا الوجه والسبق إلى اعتباره من أوجه الإعجاز، بل نجدهُ قد أصَّل لذلك وأسّس له بالتنظير والتمثيل، فكان قميناً أن ينسب إليه هذا الوجه من وجوه الإعجاز، كمؤسس له.

([1]) – المرجع السابق، (ص: 244- 245).

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

الفرع الخامس: الإعجازُ التشريعيُّ في كتب علم الكلام:

من أوجه الإعجاز المعتبرة كذلك ما يتعلق بتشريعات القرآن الكريم، التي بلغت الغاية في سائر المناحي شريعة وعقيدة وأخلاقاً، والمقصود بالإعجاز التشريعي[1]: تشريعات القرآن ونُظُمُهُ مناهجُهُ، والمبادئ التي قررها، والقيَّم التي دعا إليها، والأسُس التي أرْساها، والهداية التي هدف إليها، فلقد تضمن القرآن من ذلك ما شمل جميع أنواع الحياة، وسواءٌ ذلك في حياة الفرد أو حياة المجتمع، ولو ذهبنا نستكشف هذا الوجه لكان يكفينا أن نقيم مقارنةً يسيرةً بين ما أقرَّهُ القرآن من مبادئ وتشريعات في تلكم المجالات، وبين ما أقرَّتهُ البشرية في تاريخها الطويل، وما اهتدت إليه عقول عباقرتها ومفكريها، فيظهر الفرق جليّاً وشاسعاً بينهما، ومن خلال ذلك يتضح لكل واحد أن تشريعات القرآن برهان صادق، ودليلٌ حقٌّ على أنه من عند الله تعالى: ﴿وَمَنۡ أَحۡسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكۡمٗا لِّقَوۡمٖ يُوقِنُونَ ۝٥٠﴾ المائدة: ٥٠[2].

إذن « الحديث عن الإعجاز التشريعي في القرآن الكريم حديث عن النظام الخالد للكون وما فيه، فالذي أبدع الكون من العدم وأوجد فيه من المخلوقات ما لا يحصى عددا وجعل أشرف هذه المخلوقات وأكرمها بني آدم، قد اختار لهذا المخلوق المعزز دستورا في الحياة ينظم سلوكه في الدنيا وعلاقته بنفسه وبخالقه ﷻ، ورتب نتائج دنيوية وأُخروية على نتيجة سيره وفق هذا الدستور الإلهي الكريم، حيث يحصل الإنسان على الطمأنينة والعزة والرفاهية في الدنيا ويشعر بإنسانيته الحقَّة، ويدرك الحكمة الإلهية من خلقه وإيجاده وتفضيله على سائر

(1) – ومن أحسن تعريفاته: أنه: عبارة عن سمو التشريعات القرآنية، وشمولها وكمالها إلى الحدِّ الذي تعجِزُ عنه كلُّ القوانين البشرية مهما بلغت"، وهو تعريفٌ اختاره صاحب رسالة: "الإعجاز التشريعي في علاج مشكلة الفقر من منظور قرآني"، للباحث: محمود عنبر، إشراف الأستاذ: عبد السلام حمدان عودة اللوح، الجامعة الإسلامية بغزة– فلسطين، العام الجامعي: 2000م، (ص: 6).

(2) – وقد ألفت كتب ورسائل في بيان هذا الوجه من إعجاز القرآن الكريم، من ذلك: رسالة ماجستير بالجامعة الإسلامية بغزّة بعنوان: "الإعجاز القرآني في تشريع الحدود"، للطالبة: كائنات محمود جبريل عدوان، إشراف الدكتور: زكريا ابراهيم الزميلي، العام الجامعي: 1422هـ – 2001م، "الإعجاز التشريعي في علاج مشكلة الفقر من منظور قرآني"، للباحث: محمود هاشم محمود عنبر، إشراف : عبدالسلام حمدان اللوح ، الإعجاز التشريعي لآيات الحج في القرآن الكريم، رسالة ماجستير بجامعة غزة الإسلاميّة، للطالب: أحمد محمد أحمد الكرنز، إشراف الدكتور: زكريا ابراهيم الزميلي، العام الجامعي: 1428 هـ – 2008م، ونحوها من الدراسات والمقالات في هذا المجال.

المخلوقات..، واشتمل القرآن الكريم على الأنظمة التي يحتاجها البشر في حياتهم المعاشية ولم يدع جانبا من جوانب الحياة إلا كانت له نظرته الخاصة وتشريعه المستقل بحيث ينتج من مجموع أنظمته تشريع متكامل لمناحي الحياة كلها: ﴿ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ وَأَتۡمَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ نِعۡمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلۡإِسۡلَٰمَ دِينٗاۚ﴾ المائدة: ٣»[(1)].

ومجالات التشريع ثلاثةٌ: عقيدةٌ، وشريعةٌ، وأخلاقٌ، وجميعها إعجاز القرآن فيها بيِّنٌ، ففي مجال العقيدة جاء القرآن الكريم بعقيدة سهلة بعيدةٌ من التعقيدات والخرافات، ملائمة للفطرة الإنسانية تملأ النفس طمأنينة وارتياحا، والقلب نورا وانشراحا، والعقل قناعة، فقد تولى القرآن الكريم توضيح العقيدة الإسلامية بأسلوب عذب جذّاب لا يمكن لتاليه أو سامعه إلا أن يستجيب لنداء الفطرة ومقالة الحق بأنه تنزيل من حكيم حميد.

والذي عثرت عليه عند علماء الكلام فيما يتعلق بهذا الوجه أنه وقع لديهم خلافٌ في اعتباره، من عدم ذلك، فهذا الباقلاني – وهو ممن لم يعتبر هذا الوجه – يذكر عن بعض أصحاب مذهبه الأشعري ممن يرى تعليل الأحكام[(2)]، أنه عدَّ ذلك من وجوه لإعجاز القرآن

---

(1) – مباحث في إعجاز القرآن، لمصطفى مسلم، (ص: 249).

(2) – قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: « هذه المسألة كبيرة من أجَلِّ المسائل الكبار التي تكلم فيها الناس وأعظمها شعوبا وفروعاً، وأكثرها شبهاً ومحارات، فإن لها تعلقاً بصفات الله تعالى وبأسمائه وأفعاله، وأحكامه من الأمر والنهي والوعد والوعيد، وهي داخلة في خلقه وأمره، فكل ما في الوجود متعلق بهذه المسألة، فإن المخلوقات جميعها متعلقة بها وهي متعلقة بالخالق سبحانه وكذلك الشرائع كلها الأمر والنهي والوعد والوعيد متعلقة بها، وهي متعلقة بمسائل القدر والأمر، وبمسائل الصفات والأفعال، وهذه جوامع علوم الناس، فعلم الفقه الذي هو الأمر والنهي متعلق بها» مجموع الفتاوى، (ج8 /ص: 81)

ولهذه المسألة مذاهب كثيرة، خلاصتها كالآتي: « وقد وقع الخلاف في مسألة تعليل أفعال الله على أقوال:

1– قول من نفى الحكمة وأنكر التعليل، وهؤلاء يقولون: إن الله تعالى خلق المخلوقات، وأمر المأمورات، لا لعلة ولا لداع ولا باعث، بل فعل ذلك لمحض المشيئة، وصرف الإرادة، وهذا مذهب الجهمية والأشاعرة وهو قول ابن حزم وأمثاله

2– إن الله فعل المفعولات وخلق المخلوقات، وأمر بالمأمورات لحكمة محمودة، ولكن هذه الحكمة مخلوقة، منفصلة عنه، لا ترجع إليه، وهذا قول المعتزلة ومن وافقهم

3– قول من يثبت حكمة وغاية قائمة بذاته تعالى، ولكن يجعلها قديمة غير مقارنة للمفعول.

4– إن الله فعل المفعولات وأمر بالمأمورات لحكمة محمودة، وهذه الحكمة تعود إلى الرب تعالى، لكن بحسب علمه، والله تعالى خلق الخلق ليحمدوه ويثنوا عليه ويمجدوه، فهذه حكمة مقصودة واقعة، بخلاف قول المعتزلة فإنهم أثبتوا حكمة هي نفع العباد. وهذا قول الكرامية الذين يقولون: من وجد منه ذلك فهو مخلوق له وهم المؤمنون، ومن لم يوجد منه ذلك فليس مخلوقا له

5– قول أهل السنة وجمهور السلف وهو أن لله حكمة في كل ما خلق، بل له في ذلك حكمة ورحمة»

هذه خلاصة الأقوال في هذه المسألة، ويراجع في ذلك: موقع الدرر السنية: موسوعة الفرق المنتسبة للإسلام، الباب الثالث: فرقة الأشاعرة الفصل الثامن: القضاء والقدر عند الأشاعرة المبحث الثالث: أفعال الله وإرادته، بتاريخ: 12-01-2017م ورابطه، هو: http://www.dorar.net/enc/firq/364

الكريم، فهو يقول: « واعلم أن من قال من أصحابنا إن الأحكام معللة بعلل موافقة لمقتضى العقل **جعل هذا وجها من وجوه الإعجاز** وجعل هذه الطريقة دلالة فيه كنحو ما يعللون به الصلاة ومعظم الفروض وأصولها ولهم في كثير من تلك العلل طرق قريبة ووجوه تستحسن

وأصحابنا من أهل خراسان يولعون بذلك ولكن الأصل الذي يبنون عليه عندنا غير مستقيم»[(1)].

فهذا نصٌّ يظهر منه تباين علماء الكلام في القول بهذا الوجه من الإعجاز، إلا أنه من أنعم النظر، ظهر له جليًّا أنه من الوجوه المعتبرة، لذلك تواردت أقلام الباحثين المعاصرين على الإشادة به وعدِّه وجها معتبراً من وجوه الإعجاز.

(1) – إعجاز القرآن، للباقلاني، (ص: 47)

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

المطلب الثالث: قضايا إعجازية مكملة في كتب علم الكلام.

وهنا نورد بعض القضايا التكميلية الفرعية، والتي لها تعلقٌ بالإعجاز القرآني، وتم التعرض لها في ثنايا كتب علم الكلام، وذلك من خلال أربعة مطالب:

المطلب الأول: وجوه متنوعة من الإعجاز والمعجزات في كتب علم الكلام

المطلب الثاني: القول بالصرفة في كتب علم الكلام

المطلب الثالث: القدر المعجز من القرآن الكريم في كتب علم الكلام

المطلب الرابع: هل في التوراة والإنجيل إعجازٌ؟

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

المطلب الأول: وجوه متنوعة من الإعجاز والمعجزات في كتب علم الكلام:

لقد وردت في كتب علم الكلام، عدّة أمورٍ من المعجزات النبويَّة، وبعضُ أوجه إعجاز القرآن الكريم نفسه، وإنما جاءت من جراء استطرادات علماء الكلام على قضية المعجزات، وبخاصةٍ عند بيانهم لمسألة إعجاز القرآن الكريم، فحسُنَ إيرادُ مبحثٍ مفردٍ لها، وهو الذي سأثبته هنا من خلال ما يأتي:

الفرع الأول: المعجزات الحسية:

ومن وجوه الإعجاز التي اعتنى بها علماء الكلام ما كان متعلقا بالمعجزات الحسيَّة، وهي معجزاتٌ ظاهرةٌ، وكثيرٌ منها جاء نقله متواتراً عن النبي ﷺ، وإنما أردها علماء الكلام استطراداً في عدِّ معجزات نبينا ﷺ، وإقامة للحجة على المخالفين، وبيان أنه ﷺ قد أتاه الله سبحانه وتعالى من جنس آيات إخوانه الأنبياء عليهم السلام، فضلا على معجزة القرآن الكريم.

فنجد الباقلاني يعدُّ منها جملةً، فيقول: « وله ﷺ آياتٌ ومعجزاتٌ سوى القرآن: كانشقاق القمر، واستنزال المطر، وإزالة الضرر من الأمراض، ونبع الماء من بين أصابعه، وتسبيح الحصى في يده، ونطق البهائم، إلى غير ذلك من المعجزات والآيات الخارقة للعادة»(1)، وقال في موضع آخر يعدد آيات النبي ﷺ: « كَثِيرَة مِنْهَا الْقُرْآن المرسوم فِي مَصَاحِفنَا الَّذِي أَتَى بِهِ وتحدى الْعَرَب بالإتيان بِمثلِهِ وَمِنْهَا حنين الْجذع وَكَلَام الذِّئْب وجعل قَلِيل الطَّعَام كثيرا وانشقاق الْقَمَر وتسبيح الْحَصَى فِي يَده وَكَلَام الذِّرَاع لَهُ فِي غير هَذِه الْآيَات مِمَّا يجْرِي مجْراهَا وَقد علم أَن مَجِيء مثلهَا من الْخلق مُمْتَنع مُتَعَذر وَأَنه من مقدورات الْخَالِق سُبْحَانَهُ»(2)

كما ذكر البحراني: « أنه عليه السلام نُقلت عنه معجزات كثيرة: كنبوع الماء من بين أصابعه، وتسبيح الحصى في كفه، وحنين الجذع إليه، وانشقاق القمر، وإقبال الشجر، وإطعام الخلق الكثير من الطعام القليل شبعاً في مواضع، ونحو ذلك مما دوّنه العلماء ورووا أنه أَلْفُ مُعْجِزَةٍ، فهذه المعجزات وإن كان كلّ واحد منها مروياً بطريق الآحاد إلا أنا نعلم بالضرورة أنها ليست

---

(1) – الإنصاف، للباقلاني: (ص60)

(2) –تمهيد الأوائل وتلخيص الدلائل، للباقلاني، (ص: 133).

بأسرها كذباً، بل لا بدّ أن يصدُق بعضها، وأيّها صدق ثبت ظهور المعجز على يده موافقاً لدعواه، وهذا المسمّى بالتواتر المعنوي كشجاعة علي عليه السلام، وسخاوة حاتم»[1].

وأورد أبو المعالي الجويني، كذلك جملةً منها، فذكر « أنه تواتر من طريق المعنى: أنه جرت عليه خوارق عادات في قصده الدعاء إلى تصديقه: كشقّ القمر، ومكالمة الذئب إياه، ونبع الماء من بين أصابعه، وتكثير الطعام القليل حتى يكفي الجمع الكثير، والجمّ الغفير إلى غيرها مما وردت به الأخبار»[2].

كما عقد الشَّريفُ المُرتضى في كتابه "الذَّخيرة في علم الكلام" فصلا خاصاً بمعجزات النبي ﷺ من غير القرآن الكريم، فقال: « اعلم أن من معجزاته ﷺ:

مجيء الشجرة تخدُّ الأرض خدًّا لما قال لها ﷺ: أقبلي، ثمّ عودها إلى مكانها لمّا قال لها: أدبري.

ومنها: خبر الميضأة وأنه وضع يده فيها، وكان الماء يفور بين أصابعه حتى شرب الخلق الكثير من تلك الميضأة وزووا.

ومنها: أنه ﷺ أطعم في بعض دور الأنصار جماعة كثيرة من يسير الطعام.

ومنها: ما رُوي عنه ﷺ كان يخطب مستندا إلى جذع، فلمّا تحوّل عنه إلى المنبر **حنَّ كما تحنُّ الناقة**، حتى التزمه فسكّن حنانته.

ومنها: ما روي من **تسبيح الحصاة** في كفّه ﷺ.

ومنها: كلام الذراع له ﷺ، وقولها: لا تأكلني فإني مسمومة.

ومنها: حديث الاستسقاء، وأن المطر دام فأسفر من تخريبه دور المدينة، قال ﷺ: حوالينا ولا علينا، وأن الشمس كانت طالعة لي المدينة خاصة والمطر يهطل على ما حولها.

ومنها: ما ينطق به القرآن من **انشقاق القمر** وأنه فُري منقسماً بقطعتين.

ومنها: إخباره ﷺ **بالغيوب**، مثل قوله في عمّار رضي الله عنه: «يقتلك الفئة الباغية»، وقوله ﷺ لعائشة: « تنبحكِ كلاب الحوأب»، وإشعاره لأمير المؤمنين عليه السلام بأنه يقاتل الناكثين والقاسطين والمارقين، ويقتل ذي الثُّدَية، وكان ذلك كله على ما أخبّر، وقوله لأمير المؤمنين عليه السلام

---

[1] – قواعد المرام في علم الكلام، ميثم البحراني، (ص 130).

(2) – العقيدة النظامية، لأبي المعالي الجويني، (ص74)

في قصّة سهيل بن عمرو: «إنك تُدعى إلى مثلها على مضض»، وأمثال ذلك لا تُحصى كثرةً»(1).

والغزاليُّ لما أورد جملة صالحةً من تلكم المعجزات الحسية، أجاب على شبهة أنها معجزات، لم يقع العلم بها بالنقل المتواتر، فقال الغزّاليُّ: « أن تثبت نبوته بجملة من الأفعال الخارقة للعادات التي ظهرت عليه، كانشقاق القمر، ونطق العجماء، وتفجر الماء من بين أصابعه، وتسبيح الحصى في كفه، وتكثير الطعام القليل، وغيره من خوارق العادات، وكل ذلك دليل على صدقه.

فإن قيل: آحاد هذه الوقائع لم يبلغ نقلها مبلغ التواتر. قلنا: ذلك أيضاً إن سلم فلا يقدح في العرض مهما كان المجموع بالغاً مبلغ التواتر، وهذا كما أن شجاعة علي ﵁ وسخاوة حاتم معلومان بالضرورة على القطع تواتراً، وآحادُ تلك الوقائع لم تثبت تواتراً، ولكن يعلم من مجموع الآحاد على القطع ثبوت صفة الشَّجاعة والسَّخاوة، فكذلك هذه الأحوال العجيبة بالغةٌ جملتها مبلغ التواتر، لا يستريب فيها مسلمٌ أصْلاً»(2).

الفرع الثاني: المعجزات المعنوية:

وهي معجزات كثيرة، وهي أبلغ في الدلالة على النبوة من المعجزات الحسيّة، لذلك اختصَّ منها بالنبي ﷺ جملةٌ كثيرة، وأهمها:

الأولى: الإعجاز في أخلاقه وشمائله ﷺ:

ومما أورده علماء الكلام من وجوه الإعجاز على غرار القرآن الكريم، ما يتعلق بأخلاقه ﷺ، وشمائله، فإنها كانت على قدرٍ عظيم يدلُّ المطلع عليها على أنها لا تجتمع، إلا فيمن اصطفاه الله ﷻ، ولذلك كثيرٌ من المنصفين، بمجرد أن يطَّلع على شمائل النبيِّ ﷺ وأخلاقه، يحمله ذلك على إعظام النبي ﷺ، بل وربّما الإيمان به وبرسالته.

يقول الغزاليُّ: « ومن نظر في أقوال الرسول ﷺ، وما ورد من الأخبار في اهتمامه بإرشاد الخلق، وتلطفه في جر الناس بأنواع الرفق واللين واللطف، إلى تحسين الأخلاق وإصلاح ذات البين، وبالجملة إلى ما يصلح به دينهم ودنياهم حصل له علم ضروري، بأن شفقته ﷺ

(1)- الذخيرة في علم الكلام، للشريف المرتضى، (ص404-406)
(2)- الاقتصاد في الاعتقاد، للغزالي (ص: 114)

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

على أمته أعظم من شفقة الوالد على ولده. وإذا نظر إلى عجائب ما ظهر عليه من الأفعال...، علم علماً ضرورياً أنه بلغ الطور الذي وراء العقل، وانفتحت له العين التي ينكشف منها الغيب الذي لا يدركه إلا الخواص، والأمور التي لا يدركها العقل، فهذا هو منهاج تحصيل العلم الضروري بتصديق النبي ﷺ»(1).

الثانية: وجوهٌ متنوعة في إعجاز القرآن الكريم:

وهنا أذكر أموراً تتعلق بإعجاز القرآن الكريم، غير ما ذكر في وجوه الإعجاز، وهي عبارة عن استطرادات ذكرها العلماء في ثنايا الحديث عن إعجاز القرآن الكريم، أحببتُ أن أفردها بالذكر تنبيها إلى أهميتها واستحسانا لها، فمن ذلكم:

الأول: إعجاز الحروف المقطعة في فواتح السُّور:

من الأمور القرآنية التي أشكلت على كثيرٍ من العلماء، ما تعلق بفواتح بعض السُّور التي صدّرها الله ﷻ بأحرف مقطعة، فاختلف العلماء فيها على مذاهب، قال الزركشيُّ: « وَقَدِ اخْتَلَفَ النَّاسُ فِي الْحُرُوفِ الْمُقَطَّعَةِ أَوَائِلَ السُّوَرِ عَلَى قولين:

أَحدهما: أَنَّ هَذَا عِلْمٌ مَسْتُورٌ وَسِرٌّ مَحْجُوبٌ اسْتَأْثَرَ اللَّهُ بِهِ وَلِهَذَا قَالَ الصِّدِّيقُ رضي الله عنه فِي كُلِّ كِتَابٍ سِرٌّ وَسِرُّهُ فِي الْقُرْآنِ أَوَائِلُ السُّوَرِ، قَالَ الشَّعْبِيُّ إِنَّهَا مِنَ الْمُتَشَابِهِ نُؤْمِنُ بِظَاهِرِهَا وَنَكِلُ الْعِلْمَ فِيهَا إِلَى اللَّهِ ﷻ، قَالَ الْإِمَامُ الرَّازِيُّ وَقَدْ أَنْكَرَ الْمُتَكَلِّمُونَ هَذَا الْقَوْلَ وَقَالُوا لَا يَجُوزُ أَنْ يَرِدَ فِي كِتَابِ اللَّهِ مَا لَا يَفْهَمُهُ الْخَلْقُ لِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى أَمَرَ بِتَدَبُّرِهِ وَالِاسْتِنْبَاطِ مِنْهُ وَذَلِكَ لَا يُمْكِنُ إِلَّا مَعَ الْإِحَاطَةِ بِمَعْنَاهُ وَلِأَنَّهُ كَمَا جَازَ التَّعَبُّدُ بِمَا لَا يُعْقَلُ مَعْنَاهُ فِي الْأَفْعَالِ فَلِمَ لَا يَجُوزُ فِي الْأَقْوَالِ بِأَنْ يَأْمُرَنَا اللَّهُ تَارَةً بِأَنْ نَتَكَلَّمَ بِمَا نَقِفُ عَلَى مَعْنَاهُ وَتَارَةً بِمَا لَا نَقِفُ عَلَى مَعْنَاهُ وَيَكُونُ الْقَصْدُ مِنْهُ ظُهُورَ الِانْقِيَادِ وَالتَّسْلِيمِ.

الْقَوْلُ الثَّانِي أَنَّ الْمُرَادَ مِنْهَا مَعْلُومٌ وَذَكَرُوا فِيهِ مَا يَزِيدُ عَلَى عِشْرِينَ وَجْهًا فَمِنْهَا الْبَعِيدُ وَمِنْهَا القريب»(2).

(1) – المنقذ من الضلال، لأبي حامد الغزالي، (ص: 204)

(2) – البرهان في علوم القرآن، أبو عبد الله بدر الدين الزركشي ، المحقق: محمد أبو الفضل إبراهيم، الناشر: دار إحياء الكتب العربية عيسى البابي الحلبي وشركائه، الطبعة: الأولى، 1376 هـ – 1957 م.، (1/ 173)

ومن احتفى بالحروف المقطعة، وعدّها من وجوه الإعجاز في القرآن الكريم، الباقلاني، وقد تطلّب لها تفسيرا، ومناسبةً، وذلك إذ يقول: « الحروف التي بنى عليها كلام العرب تسعة وعشرون حرفاً وعدد السُّور التي اُفتتح فيها بذكر الحروف ثمان وعشرون سورةً، وجملة ما ذكر من هذه الحروف في أوائل السُّور من حروف المعجم نصف الجملة وهو أربعة عشر حرفاً ليدُلَّ بالمذكور على غيره وليعرفوا أن هذا الكلام منتظم من الحروف التي ينظمون بها كلامهم....

وإن كان إنما تنبَّهُوا على ما بنى عليه اللسان في أصله ولم يكن لهم في التقسيم شيء وإنما التأثير لمن وضع أصل اللِّسان فذلك أيضا من البديع الذي يدلُّ على أن أصل وضعه وقع موقع الحكمة التي يقصر عنها اللسان؛ فإن كان أصل اللغة توقيفا فالأمر في ذلك أبيَّن وإن كان على سبيل التواضع فهو عجيبٌ أيضا، لأنه لا يصحُّ أن تجتمع هممهم المختلفة على نحو هذا إلا بأمر من عند الله ﷻ وكل ذلك يوجب إثبات الحكمة في ذكر هذه الحروف على حد يتعلق به الإعجاز من وجه»[1].

ويزيدنا ابن قتيبة وجها لطيفا فيما يتعلق بالحروف قائلً: « وألفاظ العرب مبنية على ثمانية وعشرين حرفا، وهي أقصى طوق اللّسان، وألفاظ جميع الأمم قاصرة عن ثمانية وعشرين ولست واجدا في شيء من كلامهم حرفا ليس في حرفنا إلا معدولا عن مخرجه شيئا، مثل الحرف المتوسط مخرجي القاف والكاف، والحرف المتوسط مخرجي الفاء والباء، فهذه حال العرب في مباني ألفاظها»[2].

فهذه المحاولات كلُّها للتدليل على أن وراء هذه الأحرف المقطعة سرًّا وإعجاز، يرجع إلى القرآن نفسه، وأن أولى ما تُفسَّر به الحروف المقطَّعة في أوائل السُّور أنها أريد بها التحدِّي والإعجاز، قال ابن كثير: « وَلِهَذَا كُلُّ سُورَةٍ افْتُتِحَتْ بِالْحُرُوفِ فَلَا بُدَّ أَنْ يُذْكَرَ فِيهَا الِانْتِصَارُ لِلْقُرْآنِ وَبَيَانُ إِعْجَازِهِ وَعَظَمَتِهِ، وَهَذَا مَعْلُومٌ بِالِاسْتِقْرَاءِ، وَهُوَ الْوَاقِعُ فِي تِسْعٍ وَعِشْرِينَ سُورَةً»[3]، وهذا ما اختاره فهد الرومي، بعد أن أورد الأقوال في تفسيرها قال: « فإن القول بأن هذه

---

(1) – إعجاز القرآن، لأبي بكر الباقلاني، (ص: 44-45)
(2) – تأويل مشكل القرآن، لابن قتيبة، (ص: 18)
(3) – تفسير ابن كثير ت سلامة (ج1/ص: 160)

الأحرف المقطعة للتحدي والإعجاز من أقوى الأقوال وأظهرها، إن لم يكن أصحَّها على الإطلاق»[1].

ثم بعد ذلك اختلفوا في الوجه الذي كانت به معجزة، وأكثرهم على أنها معجزة من جهة أنها كانت: « تبكيتاً للمشركين وإيقاظاً لنظرهم في أن هذا الكتاب المتلو عليهم وقد تُحدوا بالإتيان بسورة مثله هو كلام مؤلف من عين حروف كلامهم كأنه يغريهم بمحاولة المعارضة ويستأنس لأنفسهم بالشروع في ذلك بتهجي الحروف ومعالجة النطق تعريضاً بهم بمعاملتهم معاملة من لم يعرف تقاطيع اللغة ، فيُلَقَّنْهَا كتهجي الصبيان في أول تعلمِّهم بالكتّاب حتى يكون عجزهم عن المعارضة بعد هذه المحاولة عجزاً لا معذرة لهم فيه»[2]

ومع ذلك يجب أن يعرف في هذا السياق أنه كما قال الشوكاني: « مَنْ تَكَلَّمَ فِي بَيَانِ مَعَانِي هَذِهِ الْحُرُوفِ جَازِمًا بِأَنَّ ذَلِكَ هُوَ مَا أَرَادَهُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ، فَقَدْ غَلِطَ أَقْبَحَ الْغَلَطِ، وَرَكِبَ فِي فَهْمِهِ وَدَعْوَاهُ أَعْظَمَ الشَّطَطِ، فَإِنَّهُ إِنْ كَانَ تَفْسِيرُهُ لَهَا بِمَا فَسَّرَهَا بِهِ رَاجِعًا إِلَى لُغَةِ الْعَرَبِ وَعُلُومِهَا فَهُوَ كَذِبٌ بَحْتٌ، فَإِنَّ الْعَرَبَ لَمْ يَتَكَلَّمُوا بِشَيْءٍ مِنْ ذَلِكَ، وَإِذَا سَمِعَهُ السَّامِعُ مِنْهُمْ كَانَ مَعْدُودًا عِنْدَهُ مِنَ الرَّطَانَةِ»[3].

فهذا محصل الآراء التي ذُكرت عن العلماء في ما يتعلق بالأحرف المقطعة في أوائل السور، والذي يظهر أنها اجتهادات محتملة الصحَّة، وأما الجزم بالصحَّة لواحدٍ من الأقوال، فإنه يحتاج إلى وحيٍّ، ولا وحيَّ في ذلك، مع أنه لابدَّ من الجزم، أن من وراءها غاية، وحكمةٌ بالغةٌ.

(1) – وجوه التحدي والإعجاز في الأحرف المقطعة في أوائل السور، لفهد بن عبد الرحمن الرُّومي، مكتبة التوبة، السعودية، الطبعة الأولى: 1417هـ-1997م، (ص: 14).

(2) – التحرير والتنوير . الطبعة التونسية، المؤلف : الشيخ محمد الطاهر بن عاشور، دار النشر: دار سحنون للنشر والتوزيع – تونس – 1997 م، (ج1/ ص: 212)

(3) – فتح القدير، المؤلف: محمد بن علي بن محمد الشوكاني، الناشر: دار ابن كثير، دار الكلم الطيب – دمشق، بيروت، الطبعة: الأولى – 1414 هـ، (ج1/ص: 36)

الثاني: انتفاء التناقض عن القرآن الكريم:

وقد جاء في القرآن الكريم، ما يدلُّ تاليه على أن الله ﷻ سلّم القرآن الكريم بقدرته وحكمته من أن ترِد عليه تهمةُ التناقض، قال الله ﷻ: ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ۝٨٢﴾ النساء: ٨٢.

ومن علماء الكلام من انتبه إلى هذا على أنه وجهٌ من وجوه إعجاز القرآن، فقد نقل الشريف المرتضى، عن غيره، فقال: « وآخرون ذهَبُوا إلى أن وجه ذلك زوال التناقض عنه والاختلاف على وجه لم تجر العادة بمثله»[1].

وليس بعيدا أبداً أن يُعدَّ هذا الخلوص من التناقض، وجها من وجوه إعجاز القرآن الكريم، فيكزن السبق إلى ذلك من علماء الكلام.

الثالث: طريق إدراك إعجاز القرآن:

الحديث عن معجزات الأنبياء عليهم السلام، بالنسبة لمعجزة القرآن، أمره سهلٌ من حيثُ إنَّه، في آيات الأنبياء عليهم السلام اللاّتي جاؤوا بها أقوامَهم، كان إدراك الإعجاز في أمراً بيّناً، بخلاف القرآن الكريم، فإنَّ إدراك الإعجاز فيه ربما اعتراه بعض الخفاء عند كثيرين، فإن علماء الإعجاز « حين جاؤوا إلى القرآن العظيم، وجدوه آية لا تشبه شيئاً من آيات الرُّسل منذ آدم عليه السلام حتى جاءت آيةً فريدةً في تاريخ البشر، أوتيها نبيُّنا ﷺ دون سائر الرُّسل»[2].

ولعل سرّ ذلك أن متعلق آية النبي العقل دون سائر الحواس كما في آيات إخوانه الأنبياء عليهم السلام، التي كانت تقع على الحواس.

وقد علمنا أنَّ أهمَّ وجهٍ من وجوه الإعجاز، هو إعجاز القرآن بنظمه المباين لسائر نُظوم الكلام الذي عهدته العرب أمَّةُ الكلام، فكيف الطريق إلى إدراك إعجاز القرآن؟

أكثر العلماء يردُّون مدرك إعجاز القرآن إلى الذَّوق، يقول الشريف المرتضى مشيرا أن الطريق إلى إدراك إعجاز القرآن هو الذوق، وإن لم يصرح به، وذلك قوله: « وقد علمنا أن أحدَنا يفصلُ بلا رويةٍ ولا فكرةٍ بين شعر الطبقة الأولى من الشعراء، وبين شعر المُحدَثين، ولا

(1) – الذخيرة في علم الكلام، للشريف المرتضى، (ص 379)

(2) – مداخل إعجاز القرآن، لمحمود شاكر (ص:47).

يحتاج في هذا الفصل إلى الرجوع إلى ذوي الغايات في علم الفصاحة»[1]، فالمراد بذوي الغايات في علم البلاغة، هم الذين مارسوا الكلام حتى قام عندهم من الذوق ما يعرفون به وجه التفاوت بين كلامٍ وآخر.

فالذوق آلة يعرف بها إعجاز القرآن: « وإنما يعرف فضل القرآن من كثر نظره، واتسع علمه، وفهم مذاهب العرب وافتنانها في الأساليب، وما خصّ الله ﷻ به لغتها دون جميع اللغات، فإنه ليس في جميع الأمم أمَّةٌ أوتيت من العارضة، والبيان، واتساع المجال، ما أوتيته العرب خصّيصَى من الله»[2]

والذوق أيضاً كان قبل ذلك كله عند العرب، بل هم أكمل الناس تذوقا للكلام، كما أفاده الجرجاني في رسالته الشافية، بقوله: « وهم من إذا **ذاق** الكلام عرف قائله من قبل أن يُذكر، ويسمع أحدهم البيت قد استرفده الشَّاعر فأدْخله في أثناء شعْرٍ له، فيعرفُ موضعه وبنيَهُ عليه، كما قال الفرزدق لذي الرّمة أهذا شعرك؟ هذا شعر لاكه أشدُّ لَحْيين منك إلى ضروب من دقيق المعرفة يقل هذا في جنبها»[3].

ثم إن الناس في هذا الذَّوق متفاوتون، كما يفيدنا الباقلاني بقوله، : « هذه الآية عَلَمٌ يلزم الكلَّ قبوله والانقياد له، وقد علمنا تفاوت الناس في إدراكه ومعرفة وجه دلالته لأن **الأعجمي** لا يعلم أنه معجز إلا بأن يعلم عجز العرب عنه وهو يحتاج في معرفة ذلك إلى أمور لا يحتاج إليها من كان من أهل صنعة الفصاحة، فإذا عرف عجز أهل الصنعة حلّ محلهم وجرى مجراهم في توجه الحجة عليه

وكذلك لا يعرف **المتوسط** من أهل اللِّسان من هذا الشأن ما يعرفه العالي في هذه الصنعة فربما حلَّ في ذلك محلَّ الأعْجميِ في أن لا تتوجَّه عليه الحجة حتى يعرف عجز المتناهي في الصنعة عنه

وكذلك لا يعرف **المتناهي** في معرفة الشعر وحده أو الغاية في معرفة الخطب أو الرسائل وحدهما – من غور هذا الشأن ما يعرف من استكمل معرفة جميع تصاريف الخطاب ووجوه

(1) – الذخيرة في علم الكلام، للشريف المرتضى، (ص 379)
(2) – تأويل مشكل القرآن، لابن قتيبة، (ص: 17)
(3) – الرسالة الشافية في وجوه الإعجاز، لعبد القاهر الجرجاني، (ص: 587).

الكلام وطرق البراعة فلا تكون الحجة قائمة على المختص ببعض هذه العلوم بانفرادها دون تحققه لعجز البارع في هذه العلوم كلها عنه.

فأما من **كان متناهيا** في معرفة وجوه الخطاب وطرق البلاغة والفنون التي يمكن فيها إظهار الفصاحة فهو متى سمع القرآن عرف إعجازه»[1].

ثم بيّن وجه ذلك بقوله: « ولذلك قلنا إن المتناهي في الفصاحة والعلم بالأساليب التي يقع فيها التفاصح متى سمع القرآن عرف أنه معجزٌ لأنه يعرف من حال نفسه أنه لا يقدر عليه وهو يعرف من حال غيره مثل ما يعرف من حال نفسه فيعلم أن عجز غيره كعجزه هو وإن كان يحتاج بعد هذا إلى استدلالٍ آخر على أنه عَلَمٌ على نبوته ودلالةٌ على رسالته بأن يقال له إن هذه آيةٌ لنبيٍّ، وإنها ظهرت عليه وادعاها معجزةً له وبرهاناً على صدقه»[2]

فقد جعل الباقلاني الناس في تذوق القرآن، على مراتب: منهم الأعجمي، الذي قد لا يحصُل له إدراكٌ لإعجاز القرآن، ومنهم المتوسط، الذي ربّما انحط إلى درجة الأعجمي، ومنهم: المتناهي، وهو أيضا على مراتب متباينةٍ، وهو الذي ينعته الباقلاني بقوله فيه: « فأمَّا من كان قد تناهى في معرفة اللِّسان العربي ووقف على طرقها ومذاهبها – فهو يعرف القدر الذي ينتهي إليه وسع المتكلم من الفصاحة ويعرف ما يخرج عن الوسع ويتجاوز حدود القدرة – فليس يخفى عليه إعجاز القران كما يميز بين جنس الخطب والرسائل والشعر وكما يميز بين الشعر الجيد والرديء والفصيح والبديع والنادر والبارع والغريب

وهذا كما يميز أهل كل صناعة صنعتهم فيعرف الصيرفي من النقد ما يخفى على غيره ويعرف البزاز من قيمة الثوب وجودته ورداءته ما يخفى على غيره

وإن كان – كما أشرنا– أن هؤلاء المتناهون يختلفون بعد ذلك في مأخذ إدراك الإعجاز: « لأن من أهل الصنعة من يختار الكلام المتين والقول الرصين

ومنهم من يختار الكلام الذي يروق ماؤه وتروع بهجته ورواؤه، ويسلس مأخذه ويسلم وجهه ومنفذه ويكون قريب المتناول غير عويص اللفظ ولا غامض المعنى

(1) – إعجاز القرآن للباقلاني، (ص: 25-26)

(2) – المرجع السابق، (ص: 26)

كما قد يختار قومٌ ما يغمض معناه ويغرب لفظه ولا يختار ما سهل على اللسان وسبق إلى البيان»[1].

والخلاصة أن إدراك القرآن قائمٌ على تذوقه، وأن الناس في هذا التذوق متفاوتون مراتب قِدداً، فإنه « من كان من أهل صنعة العربية، والتقدم في البلاغة، ومعرفة فنون القول، ووجوه المنطق – فإنه يعرف – حين يسمعه – عجزه عن الاتيان بمثله، ويعرف أيضاً أهل عصره، ممن هو في طبقته أو يدانيه في صناعته، عجزهم عنه، فلا يحتاج إلى التحدي حتى يعلم به كونه معجزا.»[2].

ولعل سائلا يسأل ههنا فيقول: كيف يعرف العجم بلاغة القرآن؟، فيجيب الباقلاني إذ يقول: « لا يتهيأ لمن كان لسانه غير العربية من العجم والترك وغيرهم أن يعرفوا إعجاز القرآن إلا بأن يعلموا أن العرب قد عجزوا عن ذلك فإذا عرفوا هذا – بأن علموا أنهم قد تُحُدوا إلى أن يأتوا بمثله وقُرِّعُوا على ترك الإتيان بمثله ولم يأتوا به – تبينوا أنهم عاجزون عنه وإذا عجز هل ذلك اللسان فهم عنه أعجز.

ومثل الأعجمي في ذلك؛ العربي الجاهل باللسان العربي الذي « ليس يبلغ في الفصاحة الحد الذي يتناهى إلى معرفة أساليب الكلام ووجوه تصرف اللغة وما يعدونه فصيحا بليغا بارعا من غيره – فهو كالأعجمي في أنه لا يمكنه أن يعرف إعجاز القرآن إلا بمثل ما بينا أن يعرف به الفارسي الذي بدأنا بذكره وهو ومن ليس من أهل اللسان سواء»[3].

والأمر نفسه يؤكدّه الجرجاني الذي أكدَّ أن العلم بكون القرآن معجزا: « علمٌ يخصُّ أهله، وأن الأصل والقدوة فيه العرب، ومن عداهم تبعٌ لهم، وقاصرٌ فيه عنهم، وأنه لا يجوز أن يدعي للمتأخرين من الخطباء والبلغاء عن زمان النبي ﷺ الذي نزل فيه الوحي، وكان فيه التحدي، أنهم زادوا على أولئك الأولين، أو كملوا في علم البلاغة أو تعاطيها لما لم يكملوا له كيف؟ ونحن نراهم يُخْملون عنهم أنفسهم، ويبرأون من دعوى المداناة معهم، فضلاً عن الزيادة عليهم»[4].

([1]) – إعجاز القرآن للباقلاني، (ص: 113-114)
([2]) – المرجع نفسه، (ص: 251).
([3]) – المرجع نفسه، (ص: 113).
(4) – الرسالة الشافية، للجرجاني، ت محمود شاكر، (ص: 575-576).

جمعية الأمير عبد القادر لعلوم الإسلامية

فهذا إذا كما قال الباقلاني: « هذا الباب مما لا يمكن إحكامه إلا بعد التَّقدُّم في أمورٍ شريفة المحل عظيمة المقدار دقيقة المسلك لطيفة المأخذ»[1].

الثالثة: مقارنةٌ بين القرآن وغيره من الكلام:

مما يزيد الباحث بيانا في مسألة إعجاز القرآن الكريم، عقد مقارنةٍ بين القرآن الكريم، وغيره من فصيح الكلام، الذي هو ليس قرآنا، فإن ذلك يوصل الباحث إلى قناعة، وهي أن القرآن مباينٌ لسائر الكلام، مباينة ظاهرةً كبيرةً، تجعل الناظر، لا يستريب في تميُّز القرآن عن غيره من الكلام، وإنما يحصلُ ذلك « والعالم لا يشذُّ عنه شيء من ذلك ولا تخفى عليه مراتب هؤلاء ولا تذهب عليه أقدارهم حتى إنه إذا عرف طريقه شاعر في قصائد معدودة فأنشد غيرها من شعره – لم يشك أن ذلك من نسجه ولم يرتب في أنها من نظمه، كما أنه إذا عرف خطَّ رجلٍ لم يشتبه عليه خطُّه حيث رآه من بين الخطوط المختلفة، وحتى يَميزَ بين رسائل كاتبٍ وبين رسائل غيره، وكذلك أمر الخُطَب فالعلماء « لا يخفى عليهم ما قد نسبناه إليهم من المعرفة بهذا الشأن، وهذا كما يعلم البزاز أن هذا الديباج عمل بتستر وهذا لم يعمل بتستر وأن هذا من صنعة فلان دون فلان ومن نسج فلان دون فلان حتى لا يخفى عليه وإن كان قد يخفى على غيره

فالعلماء بمراتب الكلام هم أهل الصنعة يعرفون دقيق هذا الشأن وجليله وغامضه وجليه وقريبه وبعيده ومعوَّجه ومستقيمه فكيف يخفى عليهم الجنس الذي هو بين الناس متداول وهو قريب متناول من أمر يخرج عن أجناس كلامهم ويبعد عما هو في عرفهم ويفوت مواقع قدرهم؟!...فإن اشتبه على متأدب أو متشاعر أو ناشئ أو مرمد فصاحة القرآن وموقع بلاغته وعجيب براعته – فما عليك منه إنما يخبر عن نقصه ويدلُّ على عجزه ويَبِينُ عن جهله ويصرِّحُ بسخافة فهمه وركاكة عقله»[2].

ومن الطرق التي سلكوها المقارنة بين القرآن وغيره من الكلام:

([1]) – إعجاز القرآن، لأبي بكر الباقلاني، (ص: 5)

([2]) – المرجع السابق، (ص: 124-126)، بتصرف

أولا: المقارنة بين القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف:

مع أن النبي ﷺ ، فإنه أتاه ربُّه جوامع الكلام، « ومع أنه أفصح من كلِّ ذي لسانٍ وأبلغُ من كلِّ ذي لبٍ، لا يقاس كلامهُ بالقرآن، ولا يقع منه إلا كما يقع سائر الكلام، مع أنه من كلام الناس الغاية التي ليس بعدها ما يُقال فيه إنه بعدها سقفٌ عليه في موضعه»(1)، ولكنه مع ذلك كله، فإن كلام الله ﷻ مباينٌ له أشدَّ المباينة.

وقد أوقفنا على ذلك الباقلاني، في قوله: «أن تنظر أولاً في نظم القرآن ثم في شيء من كلام النبي ﷺ، فتعرف الفصل بين النظمين والفرق بين الكلامين، فإن تبين لك الفصل ووقعت على جلية الأمر وحقيقة الفرق – فقد أدركت الغرض وصادفت المقصد»(2).

وقال بعد أن ذكر جمهرة من خطب النبي ﷺ : « فإن كان لك في الصنعة حظٌ أو كان لك في هذا المعنى حسٌ أو كنت تضرب في الأدب بسهمٍ أو في العربية بقسطٍ – وإن قل ذلك السهم أو نقص ذلك النصيب – فما أحسب أنه يشتبه عليك الفرق بين براعة القرآن وبين ما نسخناه لك من كلام الرسول الله ﷺ في خطبه ورسائله وما عساك تسمعه من كلامه ويتساقط إليك من ألفاظه، وأقدِّرُ أنك ترى بين الكلامين بوْناً بعيداً وأمداً مديداً وميداناً واسعاً ومكاناً شاسِعًا، فستعلم لا محالة أن نظم القرآن من الأمر الإلهي وأن كلام النبي من الأمر النبوي»(3).

فهناك تباينٌ جليٌّ بين الكلامين.

---

(1) – إعجاز القرآن، والبلاغة النبوية، لمصطفى صادق الرافعي، (ص: 118).

(2) – إعجاز القرآن، للباقلاني، (ص: 127-128).

(3) – المرجع نفسه، (ص: 135-136).

ثانيا: المقارنة بين القرآن الكريم، وبين فصيح الكلام شعراً ونثراً:

وإن كان هذا المقام من نافلة القول، لأنه لمّا ظهر تفوق نظم القرآن الكريم على النظم النبوي، وهو ما هو في البيان العربي، كان تفوقه على غيره من الكلام من باب أولى، ولكن لا بأس أن نتمم المقارنة، حتى نقف على اليقين في هذه المسألة.

وهذه غايةٌ مهمةٌ كان الأوائل يقصدون إليها، كما نبه إلى ذلك عبد العزيز عرفة في قوله: « بل لا نبعد أيضا إذا قلنا أنه كان — أبو عبيدة- يقصد أيضا بيان وجه إعجاز القرآن بدراسته المقارنة بين القرآن الكريم والشعر العربي...»(1)

يقول الباقلاني: « فإن أراد أن نقرب عليه أمرا ونفسح له طريقا ونفتح له بابا – وليعرف به إعجاز القرآن – فإنا نضع بين يديه الأمثلة ونعرض عليه الأساليب ونصور له صور كل قبيل من النظم والنثر ونحضره من كل فن من القول شيئا يتأمله حق تأمله ويراعيه حق رعايته فيستدل استدلال العالم ويستدرك استدراك الناقد **ويقع له الفرق** بين الكلام الصادر عن الربوبية الطالع عن الإلهية الجامع بين الحكم والحكم والإخبار عن الغيوب والغائبات والمتضمن لمصالح الدنيا والدين والمستوعب لجلية اليقين والمعاني المخترعة في تأسيس أصل الشريعة وفروعها بالألفاظ الشريفة على تفننها وتصرفها ونعمد إلى **شيء من الشعر** المجمع عليه فنبين وجه النقص فيه وندُلَّ على انحطاط رتبته ووقوع أبواب الخلل فيه حتى إذا تأمل ذلك وتأمل ما نذكره – من تفصيل إعجاز القرن وفصاحته وعجيب براعته – انكشف له واتضح وثبت ما وصفناه لديه ووضح ليعرف حدود البلاغة ومواقع البيان والبراعة ووجه التقدم في الفصاحة»(2).

فالمتأمل في الفرق بين الكلامين، لا بدَّ أن يقف على هذا التفاوت، كما قال الباقلاني: «ثم انظر بسكون طائر وخفض جناح وتفريغ لبٍّ وجمع عقل في ذلك، فسيقع لك الفصل بين كلام الناس وبين كلام رب العالمين، وتعلم أنَّ نظْم القرآن يخالف نظم كلام الآدميين وتعلم الحدَّ

---

(1) – المرجع السابق، (ص: 96).

(2) – إعجاز القرآن للباقلاني، (ص: 126).

الذي يتفاوت بين كلام البليغ والبليغ والخطيب والخطيب والشاعر والشاعر وبين نظم القرآن جملة»[1]

إذن؛ فلا سواء بين «كلام ينحت من الصخر تارة ويذوب تارة ويتلون تلون الحرباء ويختلف اختلاف الأهواء ويكثر في تصرفه اضطرابه وتتقاذف به أسبابه وبين قول يجري في سبكه على نظام وفي رصفه على منهاج وفي وضعه على حدٍّ وفي صفائه على باب وفي بهجته ورونقه على طريق مختلفهُ مؤتلف ومؤتلفهُ متَّحدٌ ومتباعدة متقاربٌ وشارده مطيعٌ ومطيعه شاردٌ وهو على متصرفاته واحدٌ لا يُستصعب في حالٍ ولا يتعقد في شأنٍ»[2].

فذلكم هو القرآن الكريم، وتلكم غيره من أبنية الكلام على تصرفها، هيهات أن تلحق بشأوه، فضلا أن تطمع في سبقه: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٣﴾ فَإِلَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا أُنْزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ وَأَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴿١٤﴾﴾ هود: ١٣ – ١٤.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

(1) – إعجاز القرآن، للباقلاني ، (ص: 154).

(2) – المرجع نفسه، (ص: 182-183).

المطلب الثاني: الصرفة في كتب علم الكلام:

لقد كان القول بالصَّرفة في درس الإعجاز، حدثًا مهمًّا ووجها خطيرًا، منه ابتدأ العلماء الكلام عن قضية: "إعجاز القرآن الكريم"، والتأصيل لدرسه والبيان في مباحثه، لذلك فإن القول بأن مسألة الصَّرفة في إعجاز القرآن كما كان شرا في نفسه، فإنه قد انجر عنه خيرٌ كثيرٌ، وهذا من حكمة الله ﷻ في قضاء الشر وتقديره على الخلق، فإنه ﷻ عليمٌ حكيمٌ، يقضي بالشرِ لينشأ عنه الخير، وهذا معنى قوله ﷺ في الحديث الشريف:«...، والشرُّ ليس إليك»[1].

والذي يُشكل في الصرفة أن النّاس في تفسيرها في اضطرابٍ واختلافٍ كبيريْنِ، ولكنَّ أشهر ما فُسِّرت به الصَّرفة أنها: « الحيْلُولة بين العرب وبين معارضتهم – القرآن– وتحديه، فقد صرف الله ﷻ هممهم عن معارضته والقول على منواله، ولو خُلِّيَ بينهم وبينه لأتوْا بمثل القرآن في بلاغته وفصاحته»[2].

ثم إن بعض الباحثين جعل للصرفة معنيين؛ مقبولا ومردودا، فقال: « للصرفة معنيان رئيسان أحدهما مردود و الآخر مقبول:

فالمردود هو الزَّعم بأن العرب لو لم تُصرف عن المعارضة لجاءت بمثل القرآن.

والمقبول هو أن العرب قد انصرفت عن المعارضة بعد تيقنها العجز عن ذلك.

فيحمل كلام المعارضين للقول بالصرفة على أنهم يعارضون المعنى المردود الذي يستلزم الطعن في بلاغة القرآن الذاتية الداخلية، وإن كان القائلون بالصرفة لا يقولون بنفي إعجاز القرآن بنظمه ويعارض ما فهمه المفسرون من آيات التحدي في القرآن الكريم.

ويُحمل كلام المجيزين لها على المعنى المقبول الذي ذهب إليه الجاحظ ومن وافقه من العلماء والباحثين كالرُّماني والإسفراييني، أو أنه قَبِلَ بعضهم هذا القول في جدالهم للمخالفين على سبيل التنزُّل مع الخصم، لا على سبيل الموافقة على هذا القول والمذهب كما فعل ابن تيمية وابن كثير»[3].

---

(1) – أخرجه الحاكم في المستدرك على الصحيحين، أبو عبد الله الحاكم محمد بن عبد الله النيسابوري، تحقيق: مصطفى عبد القادر عطا، الناشر: دار الكتب العلمية – بيروت، الطبعة: الأولى، 1411هـ – 1990م، برقم 3384، من رواية حذيفة بن اليمان، في باب تفسير سورة بني إسرائيل ج2 ص 395، والبيهقي في شعب الإيمان برقم: 3133 باب تحسين الصلاة والإكثار منها: (3/ص 140)، وعبد الرزاق في المصنف برقم: 20073، باب القدر (11/ ص 114).

(2) - القول بالصرفة في إعجاز القرآن –عرض ونقد–، تأليف، الدكتور عبد الرحمن بن معاضة الشهري، دار ابن الجوزي العربية السعودية، الطبعة الأولى: سنة 1432هـ، (ص 6).

(3) – المصدر نفسه، (ص 99-100).

أولا: القائلون بالصرفة من علماء الكلام:

ومهما يكن من شيء فإن ظهور الصرفة من قِبَل النَّظام، كان لها الداعي الكبير للعلماء فكتبوا في موافقتها، أو نقضها، وجرتهم للبحث عن وجوه الإعجاز التي يكون لها من الحظوة، ما لا ينبغي أن يكون للصرفة التي قد تُذهب من القرآن كل مزية اختص بها.

ومن أولكم العلماء، علماء أهل الكلام، فإنهم الأسبق إلى قضية الصَّرفة، كيف ومنشؤها ابتداءً؛ هو **أبو اسحاقٍ النّظام** الذي لا تُذكر الصّرفة إلاَّ وكانت مربوطةً باسمه، مع أنه لا يوجد شيء ملموسٌ أو أثر وقع على عينٍ يدلُّ على صحّة نسبة القول بالصِّفة إلى النّظام، ولكن ربما يستأنس الباحث بإطباق العلماء قديما وحديثا على نسبتها إليه، وهذا التواطؤ لا يمكن أن يكون إلى غير مستند(1).

ومهما يكن من شيء، فإنه قد جاء من بعد النَّظام من قال بالصّرفة صريحا، بل ربّما أفرد لها مصنفا مستقلا، كما فعل **الشريف المرتضى** في كتابه: " الموضح عن جهة إعجاز القرآن – الصرفة–"، فإنه انتصر لذلك انتصاراً بيِّناً، مع أنه ربما في ابتداء أمره كان يذكر الصّرفة مع فصاحة القرآن ويرتضيهما معا وجهان لإعجاز القرآن كما في قوله: « وقد علم كل عاقل سمع الأخبار وخالط أهلها ظهور نبينا ﷺ بمكة، وأنه تحدى أنه رسولُ الله، ومبعوثٌ إلينا للتنبيه على مصالحنا، وأنه تحدى العرب بهذا القرآن الذي ظهر على يده وادعّى أن ربّه ﷻ أنزله عليه وأيّده به، وأن العرب مع تطاول الأزمان لم يعارضوه.

وإذا ثبتت هذه الجملة وعلمنا أنهم إنما قعدوا عن المعارضة لتعذرها عليهم، وأن هذا التعذر خارقٌ للعادة، فلا بدّ من أحد أمرين:

إما أن يكون القرآن نفسه خَرَقَ العادة **بفصاحته،** فلذلك لم يعارضوه

أو لأن الله ﷻ **صرفهم عن معارضته،** ولولا الصرفة لعارضوا.

---

(1) – وللدكتور منير سلطان في كتابه رأي في قضية الصرفة عند النظام، إذ يقول: « واستعراض بعض آراء النظام تكشف عن زيف نسبة رأي الصرفة إليه، بالصورة التي يروجها الأشاعرة عنه»، إعجاز القرآن بين المعتزلة والأشاعرة، د: منير سلطان، دار المعارف، مصر، الطبعة الثالثة: 1986، (ص: 54)، ثم يقول موضحا رأي النظام فيها: « والصرفة عند النظام هي انصرافٌ أكثر منها صرفة، ورجوعٌ بعد شعور بالعجز أكثر منه تحويلٌ للعجز إلى إعجاز»، (ص:55).

والذي يبدو أنه تكلفٌ في دفع هذا الرأي عن النظام، كيف وقد أنكره عليه أفهم الناس له، والذي تتلمذ على يديه، ألا وهو الجاحظ، زد إلى ذلك تواطئ العلماء على نسبة الصّرفة للنظام، حتى صار لا يذكر إلى ذكرت معه.

وأيُّ الأمرين كان يثبت معه صحَّةُ النُّبوة، لأن الله ﷻ لا يصدّق كاذباً ولا يخرق عادةً لمبطل»، وقال في موضعٍ آخر: « لأن ذلك الكلام الذي تعذرت عليهم معارضته، لا يخلو أن يكون تعذرها فرطُ الفصاحة الخارقة عاداتهم، أو لأن الله ﷻ صرفهم عن المعارضة، ففي كِلاَ الوجهين يتمُّ صحَّة النبوة»[1].

ثمَّ بعد ذلك يظهر، أنه عندما حقَّق المسألة، جعل أولى أوجه إعجاز القرآن هي الصّرفة، وأخذ يغمز في الإعجاز بالفصاحة، والنظم، وذلك في قوله: « **وأن التَّحدي على التحقيق إنما هو بالصَّرفة**، وإنما ذهل عنها من ذهب إلى أن العادة انخرقت بفصاحة القرآن»[2].

ثم إنه لما جاء للحديث عن بيان وجوه الإعجاز خاصةً جعل الصَّرفة مطلع تلك الوجوه كلها، وارتضاها وعدَّها الرأْي الذي ينبغي القولُ به، وذلك قوله: « اختلف الناس في ذلك، فقال قومٌ: إن دلالة القرآن على النبوة أن الله ﷻ صرف العرب عن معارضته، وسلبهم العلم الذي به يتمكنون من مماثلة في نظمه وفصاحته، ولولا هذا الصرف لعارضوا.

وإلى هذا الوجه أذهب، وله نصرتُ في كتابي المعروف بـ"الموضح عن جهة إعجاز القرآن".

بل إنه لمـَّا أنهى الكلام عن بعض وجوه الإعجاز التي ذكرها ونسبها إلى من قال بها، أبطالها كلها اللَّهم القول بوجه فصاحة القرآن، قال: « ونحن نبطل هذه المذاهب سوى القول بالصّرفة، وموجه كلامنا إلى مذهب القائلين بوجه الإعجاز من جهة الفصاحة، فإن الكلام معهم أوسع ومذهبهم أقوى شبهة

ثم في الأخير جعل ذلك مذهبه الذي يدين به: «الذي نذهب إليه أن الله ﷻ صرف العرب عن أن يأتوا من الكلام بما يساوي أو يضاهي القرآن في فصاحته وطريقته ونظمه، بأن سلب كلّ من رام المعارضة العلومَ التي يتأتّى ذلك بها، فإن العلوم التي بها يمكن ذلك ضرورة من فعله فينا بمجرى العادة»[3].

ولم يكتف بذلك حتى استهجن القول بإعجاز القرآن بنظمه، فقال: « والذي يدلُّ على أنَّ نظم القرآن ليس بمعجزٍ بنفسه: أنَّا نعلم أنّ كلّ قادرٍ على الكلام العربِيّ، ومتمكنٍ من تقديم

([1]) –الذخيرة في علم الكلام، للشريف المرتضى، (ص364).
([2])– المرجع نفسه، (ص373).
([3])– المرجع نفسه، (ص 378 -380).

بعضه على بعضٍ، وتأخير بعضه عن بعض، لا يعجزُ أن يحتذيَ نظم سور القرآن بكلامٍ لا فصاحة له، بل لا فائدة فيه ولا معنىً تحته، فإنَّ ذلك لا يضرُّ ولا يخِلُّ بالمساواة في طريقة النّظم»[1].

ومن اختلف العلماء في إدانته بالصّرفة، **عمرو بن بحر الجاحظ**، وهو تلميذ النظّام، كما هو معروف، وآثاره التي في كتبه هي التي جعلت العلماء يتباينون في موقفه من الصّرفة، فمن النصوص التي تثبت صحة نسبته إلى القول بالصّرفة ما جاء عنه في قوله: « ومثل ذلك أنّ النبي ﷺ لـمَّا بشّره اللهُ بالظَّفَر وتمام الأمر بشَّر أصحابه بالنّصر، ونزول الملائكة، ولو كانوا لذلك ذاكرين في كلّ حال، لم يكن عليهم من المحاربة مؤونة، وإذا لم يتكلفوا المؤونة لم يؤجروا، ولكنّ الله تعالى بنظره إليهم رفع ذلك في كثير من الحالات عن أوهامهم؛ ليحتملوا مشقّة القتال، وهم لا يعلمون، أيغلبون أم يغلبون؛ أو يقتلون أم يقتلون.

ومثل ذلك ما رفع من أوهام العرب، **وصرف نفوسهم عن المعارضة للقرآن**، بعد أن تحدّاهم الرّسول بنظمه، ولذلك لم نجد أحدا طمع فيه. ولو طمع فيه لتكلفه، ولو تكلف بعضهم ذلك فجاء بأمر فيه أدنى شبهة لعظمت القصّة على الأعراب وأشباه الأعراب، والنّساء وأشباه النساء، ولألقى ذلك للمسلمين عملا، ولطلبوا المحاكمة والتراضي ببعض العرب، ولكثُر القيل والقال، فقد رأيت أصحاب مسيلمة، وأصحاب ابن النَّواحة[2] إنما تعلّقوا بما ألّف لهم مسيلمة

---

(1) – الموضح عن جهة إعجاز القرآن – الصرفة، للشريف المرتضى علي بن الحسين الموسوي، تحقيق: محمد رضا الأنصاري القمّي، مجمع البحوث الإسلامية، الطبعة الأولى: 1424 هـ، (ص: 46).

(2) – هو: **عبد الله بن النّواحة**: قال ابن حجر: « ذكره بعض من ألّف في الصحابة فقرأته بخطه بما هذا لفظه: كان قد أسلم، ثم ارتدّ فاستتابه عبد الله بن مسعود، فلم يتب، فقتله على كفره وردّته، والنوّاحة كثيرة النوح، ذكره النووي في التهذيب، ولم يتعرض لصحبته ولا لغيرها.

قلت: ليس في ذكر النووي له لكونه وقع ذكره في الكتب التي يترجم لمن ذكر فيها- أن يكون له صحبة، وقد أفصح النووي بحاله، وظهر مما ذكره انه ليس بصحابي، ولا شبه صحابي»، الإصابة في تمييز الصحابة، المؤلف: أبو الفضل أحمد بن علي بن محمد بن أحمد بن حجر العسقلاني (المتوفى: 852هـ)، تحقيق: عادل أحمد عبد الموجود وعلى محمد معوض، الناشر: دار الكتب العلمية – بيروت، الطبعة: الأولى - 1415 هـ، (ج5/ص: 165)، وفي البداية والنهاية لابن كثير: عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ قَالَ: «جَاءَ ابْنُ النَّوَّاحَةِ وَابْنُ أُثَالٍ رَسُولَيْنِ لِمُسَيْلِمَةَ الْكَذَّابِ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ لَهُمَا: " أَتَشْهَدَانِ أَنِّي رَسُولُ اللَّهِ؟ " فَقَالَا: نَشْهَدُ أَنَّ مُسَيْلِمَةَ رَسُولُ اللَّهِ. فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: " آمَنْتُ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ، وَلَوْ كُنْتُ قَاتِلًا رَسُولًا لَقَتَلْتُكُمَا "»، فالظاهر أنه كان من أتباع مسيلمة الكذَّاب، البداية والنهاية، أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير، تحقيق: عبد الله بن عبد المحسن التركي، الناشر: دار هجر للطباعة والنشر والتوزيع والإعلان، الطبعة: الأولى، 1418 هـ - 1997 م، (ج7/ص: 260)

من ذلك الكلام، الذي يعلم كلّ من سمعه أنّه إنّما عدا على القرآن فسلبه، وأخذ بعضه، وتعاطى أن يقارنه. فكان لله ذلك التّدبير، الذي لا يبلغه العباد ولو اجتمعوا له»(1).

وأما ما يدلنا على أنه كان ممن يردُّ القول بالصرفة فقوله في رسالة خلق القرآن: « فكتبتُ لك كتابا أجهدتُ فيه نفسي، وبلغت منه أقصى ما يمكن مثلي، في الاحتجاج للقرآن، والردِّ على كلِّ طعَّانٍ، فلم أدع في مسألة لرافضي، ولا لحديثي، ولا لحشوي، ولا لكافر مبادٍ، ولا لمنافق مقموع، **ولا لأصحاب النظَّام، ولمن نجم بعد النظام، ممن يزعم أن القرآن حقٌ وليس تأليفه بحجة، وأنه تنزيلٌ وليس ببرهانٍ ولا دلالةٍ**»(2).

فهذا نصٌّ صريحٌ في ردِّ الصَّرفة والقول بها، ولعلَّ الجاحظ، مرَّ بمراحل مع الصَّرفة انتهت به إلى عدم قبولها وجها صالحا لإعجاز القرآن(3)

ومهم يكن من شيء، فإن الجاحظ والشريف المرتضى، كلاهما على نحلة الاعتزال، فلا غرو إن قالا بالصّرفة، فإن منشأها أحد أقطاب الاعتزال، ولكن العجيب أن نجد في الأشاعرة من يجيز الصَّرفة أو يقول بها، كما جاء عن أبي حامدٍ الغزّالي، وأبي المعالي الجويني.

ثانيا: المجوزون للصرفة:

فأما أبو حامدٍ الغزَّالي فقد جوزها، وبعد أن استهجنها لم يلبث أن استحسنها وجعلها أعظم المعجزات، إذ يقول: «فإن قيل: لعل العرب اشتغلت بالمحاربة والقتال فلم تعرج على معارضة القرآن ولو قصدت لقدرت عليه، أو منعتها العوائق عن الاشتغال به، والجواب أن ما ذكروه هوسٌ، فإن دفع تحدي المتحدي بنظم كلام أهون من الدفع بالسيف مع ما جرى على العرب من المسلمين بالأسر والقتل والسبي وشن الغارات.

ثم ما ذكروه غير دافع غرضنا، فإن انصرافهم عن المعارضة لم يكن إلا بصرف من الله تعالى، والصرف عن المقدور المعتاد من أعظم المعجزات، فلو قال نبي آية صدقي أني في هذا اليوم أحرك أصبعي ولا يقدر أحد من البشر على معارضتي، فلم يعارضه أحد في ذلك

---

(1) – الحيوان، للجاحظ (4/ ص: 305).

(2) – رسائل الجاحظ، رسالة حجج النبوة، (ج3/ ص287).

(3) – يُنظر في تحقيق ذلك ما كتبه الأستاذ محمود شاكر، في مداخل إعجاز القرآن، (ص: 52 وما بعدها).

اليوم، ثبت صدقه، وكان فقْدُ قدرتهم على الحركة مع سلامة الأعضاء من أعظم المعجزات. وإن فرض وجود القدرة، ففَقْدُ داعيتهم وصرفهم عن المعارضة من أعظم المعجزات، مهما كانت حاجتهم ماسةً إلى الدفع باستيلاء النبي على رقابهم وأموالهم، وذلك كله معلومٌ على الضرورة»[(1)].

وأما أبو المعالي الجويني، فقد انتصر لها انتصاراً واضحاً، وجعل القول بإعجاز القرآن بفصاحته ونظمه، حياداً عن مدرك الحق، فقال: « من رام أن يثبت إعجاز القرآن بأنه في جزالته خارقٌ للعادات مجاوزٌ لفصاحته ألدّ البلغاء واللُّسنَ الفصحاء، **فقد حاد عن مدرك الحق**، فإن من تأمل كلام العرب في نظمها ونثرها **لم يتحقق** عنده انتهاء جزالة القرآن إلى حدّ الخروج عن العادة في الزيادة على كلام الفصحاء، ومن تكلف إثبات ذلك، فقد تكلف شططاً وظنَّ غلطاً، وتهدَّف للكلام الطويل من غير تحصيل، ومن أنصف انتصف ولم يتعسف لَمَ يلُح له: أن شعر امرئ القيس والذبياني والجعدي وزهير وأعشى باهلة، والمعلقات السبع وغيرها من أشعار الفَلقِينَ، تقصر في الجزالة عن القرآن، ثمَّ من بديع ما أنبه عليه سامي رأي مولانا: أنه لو ظهرت زيادةٌ في القرآن عن مراتب الكلام فليس فيه مقنعٌ، فإنه قد يتفق في بعض الأعصار رجلٌ قد فرد في شعر أو نثر لا يُدرك شأوه، ولا يُلحق منصبه في الفصاحة، وقلّ ما يخلو عصرٌ عن مبرزٍ لا يُوازى في فنّه و لا يبارى فيما اختصّ به، ولا يثبت الإعجاز بمثل ذلك، وقد قدمنا أنا نشترط في المعجزة: أن يجاوز في خرق العادة حدود الظنون، ويبلغ مبلغاً لا يتوقع الانتهاء إليه بمزيّة علمٍ، وجودةِ قريحةٍ، ونفاذ طبعٍ، وثقابة رأيّ، وإصابة فكرٍ، وبُعدِ غورٍ، وإذا تقرر ذلك فالوجه:

أن لا يُدعى جزالة القرآن مبلغ خرق العادة، بل نقول: تحدي الرسول ﷺ فصحاء العرب بأن يأتوا بمثل القرآن كما أنبأ عنه قوله تبارك وتعالى: ﴿ قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ ﴾ الإسراء: ٨٨، وتمادى على تحديهم نيّفاً وعشرين سنةً، والقرآن بلغتهم وليس بعيداً عن مبلغ اقتدارهم في جزالته وأسلوبه، فلم يقدروا على الإتيان بمثله، ثمّ استأثر الله تبارك وتعالى لرسوله ﷺ، وكرّت الدهور، ومرّت العصور، وأقطار الأرض تطفح بجميع الكفّار، ذوي الفطن النافذة، وشوقهم أن يستمكنوا من مطعن في الإسلام، وفي

(1) – الاقتصاد في الاعتقاد، للغزالي (ص: 113)

كلّ قطر منهم طائفةٌ مشتغلون بالنظم والنثر على لغة العرب، فقصُرت قُدر الخلق عن المعارضة أربعمائة وستين سنة ونيّف، **فتبيّن قطعاً أن الخلق ممنوعون عن مثل ما هو من مقدورهم، وذلك أبلغ عندنا من خرق العوائد بالأفعال البديعة في أنفسها**، ومن هُديَ لهذا المسلك، فقد رشد إلى الحق المنير، وانعكس كلُّ مطعنٍ ذكره الطاعنون عضدا وتأييدا، فإنهم تارة يدعون سقوط القرآن عن رتبة الجزالة وولوجه في الركيك، وتارة يسلِّمون سرف الجزالة ويدعون أنه غير خارق للعادة، وكيف تصرَّفت أسئلتهم، فصرفُ الله الخلق عن الإتيان بمثله أوقع وأنجع»[1]

وقد ذُكر عن أبي المعالي هذا المذهب، ونسبه قولا للأشعري، فقال: « ووجه آخَرَ على أحد المذهبين في القول بالصَّرْفة، وأن المعارضة كانت من جنس قوة البشر لكنهم لم يقدروا عليها – على أحد قولي الأشعري – وصُرِفوا عنها، أو من قدرة البشر فمنعوا منها – على قول المعتزلة – فعدولهم عن المعارضة لأحد الوجهين المتقدمين ورضاهم بالقتل والجلاء، ونكولهم عن ذلك وهو من مقدورهم أو جنس مقدورهم، أبين في الدلالة من غيرها من الأمور التي تختلج في الظنون الكاذبة، ويموه فيها الملحد بالشبه المخيِّلة، **إذْ العجز عن المقدور أوْقَع في النُّفوس وأوضح في الدَّلالة من إبْداءِ الغريب، والمجيء بما لم يُعْهَد عند هؤلاء**. وإليه نحا أبو المعالي في بعض كتبه»[2]

ثالثاً: المانعون للصَّرْفة

وأمَّا جماهير الأشاعرة، فإنهم ردُّوا القول بالصّرفة، فهذا الباقلاني لساهم بعد إمام المذهب أبي الحسن الأشعري، يردُّ الصرفة من وجوه:

من ذلكم أنه: « لو لم يكن معجزا على ما وصفناه من جهة نظمه الممتنع لكان مهما حط من رتبة البلاغة فيه ومنع من مقدار الفصاحة في نظمه كان أبلغ في الأعجوبة إذا صرفوا عن الإتيان بمثله ومنعوا من معارضته وعدلت دواعيهم عنه، فكان يستغني عن إنزاله على النظم البديع وإخراجه في المعرض الفصيح العجيب»[3]

---

(1) – العقيدة النظامية، لأبي المعالي الجويني، (ص71-73).

(2) – إِكمَالُ المُعْلِمِ بفَوَائِدِ مُسْلِم، عياض بن موسى السبتي، المحقق: الدكتور يحْيَى إِسْمَاعِيل، الناشر: دار الوفاء للطباعة والنشر والتوزيع، مصر، الطبعة: الأولى، 1419 هـ - 1998 م.، (ج1/ص: 467-468)

(3) – إعجاز القرآن للباقلاني، (ص: 29)

أيضا: « على أنه لو كانوا صرفوا على ما ادعاه لم يكن من قبلهم من أهل الجاهلية مصروفين عما كان يعدل به في الفصاحة والبلاغة وحسن النظم وعجيب الرصف، لأنهم لم يتحدوا إليه ولم تلزمهم حجته، فلما لم يوجد في كلام من قبله مثله علم أن ما ادعاه القائل بالصرفة ظاهر البطلان

ومما يبطل ما ذكروه من القول بالصرفة أنه لو كانت المعرضة ممكنة وإنما منع منها الصرفة لم يكن الكلام معجزا وإنما يكون المنع هو المعجز فلا يتضمن الكلام فضيلة على غيره في نفسه»(1)

فهذه أهم مواقف علماء الكلام من قضية الصّرفة في القرآن الكريم، وقد ترددت بين ناصرٍ لها مستحسنٍ، ومجوّزٍ قابلٍ، ومعارضٍ مانع لها.

---

(1) – المرجع السابق، (ص: 30)

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

المطلب الثالث: القدر المتحدى به من القرآن الكريم في كتب علم الكلام:

هذا ما يسميه علماء الإعجاز بالقدر المعجز من القرآن الكريم، وقد وقع بينهم خلافٌ في تحديده، والمتتبع لمراحل التحدي في القرآن الكريم، بلغت إلى التحدي بالإتيان بسورة منه، وذلك قوله تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ قُلْ فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣٨﴾﴾ يونس: ٣٨، « وبما أن السُّورة جاءت نكرةً، فهي تشمل كلَّ سُورةٍ في القرآن طويلةً أو قصيرة، فيكون القدر المعجز من القرآن؛ هو السُّورة من القرآن الكريم طويلة أو قصيرة، هذا هو رأي جمهور العلماء، إلاَّ أنَّ بعضهم زاد على ذلك: أن مقدار السُّورة القصيرة؛ وهي ثلاث آيات معجِزٌ أيضاً.

ونُقل عن بعض المعتزلة قولهم: إن الإعجاز يتعلق بجميع القرآن لا ببعضه، وهذا الرأي مصادمٌ لآيات التَّحدي....

وذهبت طائفةٌ أخرى إلى أن الإعجاز في القليل والكثير من القرآن دون تقييد بسورة، واستدلوا بظاهر قوله ﷻ: ﴿فَلْيَأْتُوا۟ بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِۦٓ إِن كَانُوا۟ صَٰدِقِينَ ﴿٣٤﴾﴾ الطور: ٣٤، وقالوا: المقصود بالحديث؛ أيُّ كلامٍ يفيدُ معنىً سواءٌ كان آيةً أو أكثر أو أقلَّ»[1]

فهذه خلاصة مذاهب الناس في ما يتعلق بقضية القدر المعجز من القرآن، وعلى الكلام، في جملتهم لا يخرجون عليها، وأشهر مذاهبهم، ما عليه الجماهير من أن القدر المعجز ؛ هو السُّورة من القرآن، طويلة أو قصيرة، وإن كان يمكن أن يُفصل في هذا كما صنع مصطفى مسلم في كتابه في الإعجاز لما جعل مسألة القدر المتحدى بها على اعتبارين اثنين، فقال: « يجب التفريق بين أمرين:

الأول: ما وقع به التَّحدي، فالتحدي لم يقع على أقل من سورة، والسُّورة تطلق على القصيرة والطويلة، والسورة بشخصيتها المستقلة هي المقصودة في آيات التحدي والإتيان بمثلها خارج عن طوق الإنس والجنّ، وإن قصُرت كسورة الكوثر

---

(1) – مباحث في إعجاز القرآن، لمصطفى مسلم، (ص: 38-39).

الأمر الثاني: القدر الدَّال على كون القرآن كلام الله، أي معرفة القرآن وكونه وحيا منزلا من الله، وهذا لا يتقيد بمقدار معيّن، فقد يدرك من خلال سورة، أو من خلال آية واحدة أو بعض آية، أو كلمة واحدة»[(1)]

قال الباقلاني: « **فصلٌ في قدر المعجز من القرآن:**

الذي ذهب إليه عامة أصحابنا – وهو قول الشيخ أبي الحسن الأشعري في كتبه – أن أقلّ ما يعجز عنه من القرآن السورة، قصيرة كانت أو طويلة، أو ما كان بقدرها، قال: فإذا كانت الآية بقدر حروف سورة ، وإن كانت سورة الكوثر، فذلك معجز، قال: ولم يقم دليل على عجزهم عن المعارضة في أقل من هذا القدر[(2)].

وذهبت " المعتزلة " إلى أن كل سورة برأسها فهي معجزة، وقد حكي عنهم نحو قولنا، إلا أن منهم من لم يشترط كون الآية بقدر السورة، بل شرط الآيات الكثيرة.

وقد علمنا أنه تحداهم تحدياً إلى السور كلها، ولم يخصَّ، ولم يأتوا لشيء منها بمثل، فعلم أن جميع ذلك معجز»[(3)].

وإنما اختار الباقلاني مذهب الجمهور، لأن ذلك القدر يكفي به تمايز نظم القرآن عن غيره من الكلام، يقول الباقلاني: « ثم فكر بعد ذلك في شيء أدلك عليه؛ وهو تعادل هذا النظم في الإعجاز في مواقع الآيات القصيرة والطويلة والمتوسطة»[(4)].

إلا أننا نجد بعض المعتزلة، خاصة القائلين بالصّرفة في إعجاز القرآن لا يمنع من الإتيان بمثل القرآن، وأنه أمرٌ غير متعذر لولا الصّرفة، يقول الشريف المرتضى: «وإذا كان التحدي وقع بسورة قصيرة بعرض القرآن وكونه أفصح لا يمتنع من مساواته بمجرى العادة في هذا القدر اليسير»[(5)].

---

(1) – المصدر السابق، (ص:40).

(2) – لذلك قال: « فأما ما قلنا: من أن ما بلغ قدر السورة معجز، فإن ذلك صحيح».

(3) – إعجاز القرآن، للباقلاني، (ص 254)

(4) – المرجع نفسه، (ص 193)

(5) – الذخيرة في علم الكلام، للشريف المرتضى (ص376)

المطلب الرابع: هل التوراة والإنجيل فيهما إعجاز؟:

من القضايا المكملة في قضية إعجاز القرآن، ما قد يسأله سائلٌ عن الكتب السابقة للقرآن الكريم، هل تلك الكتب التي أنزلها الله ﷻ كانت تشبه القرآن الكريم من حيث أنها معجزةٌ مثله؟ أم أنها تختلف عليه في هذا الباب؟

وقبل أن نورد جوابا لعلماء الكلام فيما يخصُّ هذا السؤال، يجيبنا الأستاذ محمود شاكر في كتابه "مداخل إعجاز القرآن"، إذ يقول: « ولا أظنُّ أن قائلاً يستطيع أن يقول: إن التوراة والإنجيل والزَّبور: كتبٌ معجزة، بالمعنى المعروف في شأن القرآن، من أجل أنها كتبٌ منزّلة من عند الله»[1].

والمراد من كلامه، كما هو واضحٌ: أنه لا يوجد تلازمٌ بين كون الكتاب منزَّلٌ من عند الله ﷻ، وبين أن يكون ذلك الكتاب معجزا، وذلكم : « أن العرب قد طولبوا بأن يعرفوا دليل نبوة رسول الله ﷺ، ودليلَ صدق الوحيِ الذي يأتيه، بمجرد سماع القرآن نفسه، لا بما يجادلهم به حتى يُلزمهم الحجة في توحيد الله، أو تصديق نبوّته، ولا بمعجزةٍ كمعجزاتِ إخوانه من الأنبياء عليهم السلام، مما آمن على مثله البشر.

وقد بيّن الله ﷻ في غير آية من كتابه أن سماع القرآن يقتضيهم إدراك مباينته لكلامهم[2]، وإنه ليس من كلام البشر، بل هو كلام رب العالمين، وبهذا جاء الأمر في قوله ﷻ: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَـٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُۥ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْلَمُونَ ۝٦﴾ التوبة: ٦، فالقرآن معجز؛ وهو البرهان القاطع على صحّة النبوّة، أما صحّةُ النبوة فليست برهانا على إعجاز القرآن»[3]

فإذا نحن جئنا إلى كتب علم الكلام، فإننا نجد هذه المسألة تقرر غير بعيد على هذا الرأي الذي ذُكر، فالباقلاني في معرض إيراد بعض الاعتراضات على احتمال كون إعجاز القرآن

(1) – مداخل إعجاز القرآن، لمحمود شاكر، (ص: 145)

(2) – ولعلَّ أصرح هذه الآيات قوله ﷻ في سورة العنكبوت: ﴿وَقَالُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَـٰتٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۖ قُلْ إِنَّمَا ٱلْـَٔايَـٰتُ عِندَ ٱللَّهِ وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ۝٥٠ أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ۝٥١﴾ العنكبوت: ٥٠ – ٥١.

(3) – مداخل إعجاز القرآن، لمحمود شاكر، (ص:145 - 146) بتصرف يسير.

غير خاصٍ به دون غيره من الكتب يقول: « فإن قالوا ما أنكرتم أن تكون التوراة والإنجيل معجزا؟

قيل لهم أنكرنا ذلك لعدم العلّة التي لها كان القرآن معجزا وهي عجز العرب عن معارضة مورده مع حرصهم على تكذيبه وما عرّهُ وغضّ منه، وإيثارهم لقتله وبلوغ كلّ غايةٍ في مكارهه وفضّ الجمع من حوله، فلو تحدى موسى وعيسى عليهما السلام أعداءهما بمثل التوراة والإنجيل وغيرهم من أهل الأهواء والملحدين، فعجزوا عند التحدي عن ذلك لوجب أن يكون ما أتيا به من ذلك معجزا وإذا لم يكن ذلك كذلك لم يجب ما قلتموه»[1].

فلو أنه ثبت أن الأنبياء الذين أزل الله عليهم الكتب، تحدوا أقوامهم إلى المجيء بمثلها، كما وقع في القرآن الكريم مع مشركي العرب، لم نجد غضاضةً من القول بإعجازها، ولمّا لم يكن شيء من ذلك، فإنه لا يصحُّ ادعاء ذلك لغير القرآن الكريم.

ولو قام احتمال بأن تلك الكتب كانت معجزة، في أشياء شاركت فيها القرآن الكريم، كالإخبار بالغيوب مثلا، وهو احتمالٌ واردٌ، لكان تمايزُ القرآن بنظمه خاصًا به دون سائر الكتب، يقول الباقلاني في القرآن الكريم « وفارق حكمُه حكمَ غيره من الكتب المنزلة على الأنبياء لأنها لا تدل على أنفسها إلا بأمر زائد عليها ووصف منضاف إليها لأن نظمها ليس معجزاً وإن كان ما تتضمنه من الإخبار عن الغيوب معجزاً، وليس كذلك القرآن لأنّه يشاركها في هذه الدّلالة **ويزيد عليها في أن نظمه معجز**»[2]

ويزيد الباقلاني بيانا، للمسألة حين يستشكل قائلا: « فإن قيل فهل تقولون بأن غير القرآن من كلام الله ﷻ معجز كالتوراة والإنجيل والصحف؟

قيل ليس شيء من ذلك بمعجز في النّظم والتأليف وإن كان معجزا كالقرآن فيما يتضمن من الإخبار عن الغيوب، وإنما لم يكن معجزا لأن الله ﷻ لم يصفه بما وصف به القرآن ولأنا قد علمنا أنه لم يقع التحدي إليه كما وقع التحدي إلى القرآن

ولمعنى آخر **وهو أن ذلك اللّسان لا يتأتى فيه من وجوه الفصاحة ما يقع به التفاضل الذي ينتهي إلى حد الإعجاز ولكنه يتقارب**، وقد رأيت أصحابنا يذكرون هذا في

(1) – تمهيد الأوائل وتلخيص الدلائل، للباقلاني (ص: 180).

(2) – إعجاز القرآن، الباقلاني، (ص: 14-15)

جمعية الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

سائر الألسنة؛ ويقولون ليس يقع فيها من التفاوت ما يتضمن التقديم العجيب، ويمكن بيان ذلك بأنّا لا نجد في القدر الذي نعرفه من الألسنة للشيء الواحد من الأسماء ما نعرف من اللغة، وكذلك لا نعرف فيها الكلمة الواحدة تتناول المعاني الكثيرة على ما تتناوله العربية، وكذلك التصرف في الاستعارات والإشارات، ووجوه الاستعمالات البديعة التي يجئ تفصيلها بعد هذا، ويشهد لذلك من القرآن أن الله تعالى وصفه بأنه بلسان عربي مبين، وكرر ذلك في مواضع كثيرة»[1].

ثم كما يقول الباقلاني مضيفا: « ومعنى آخر وهو أنا لم نجد أهل التوراة والإنجيل ادَّعوا الإعجاز لكتابهم ولا ادَّعى لهم المسلمون، فعُلم أنَّ الإعجاز مما يختص به القرآن»[2].

وفي ختام هذه المسألة، لعله يليق بها أن نورد ملحظا مهما يوقفنا عليه الأستاذ محمود شاكر، فيكون زيادةً في البيان والفرقان في هذ المسألة، وذلك عندنا نبه أنه: «كان يأتي النبي ومعه شيئان: آية، و بلاغ، آية معاينة يشاهدونها بأعينهم ... وبلاغ ملفوظ يحدثهم به بلسانه، عن وحي يوحيه الله إليه ...،فلما شاء ربنا أن يختم النبوة في الأرض برسول من العرب يرسله إليهم وإلى الناس كافة، اختلف النهج اختلافاً بيّناً، فاصطفى لمشيئته عبده محمدا ﷺ...، وأبى الله أن تكون له آية معاينة يشاهدونها بأعينهم فأرسله الله ومعه بلاغان ملفوظان :

البلاغ الأول: بلاغٌ ملفوظٌ وهو قرآن ينزل عليه من فوق سبع سموات منجما بلسان عربي مبين، أمره أن يقرأه على مكث، وأن يبيِّن لهم لأنه كلام الله أنزله بلسانهم، لا كلامه هو.

البلاغ الثاني: بلاغ ملفوظ أيضا، كالذي أُوتِيَه النبيون من قبله، يحدثهم به بلسانهم عن وحي يوحيه الله إليهم، وتجب طاعتهم فيما يحدثهم به عن ربّه»[3].

يعني أنه لو وقع اشتباه بين ما جاء به النبي ﷺ، وما جاء به سائر إخوانه النبيون عليهم السلام، لكان اشتباها بين حديث الرسول ﷺ الذي هو أيضا وحيٌ من الله سبحانه وتعالى، وبين ما

(1) – إعجاز القرآن، الباقلاني، (ص: 31)
(2) – المرجع نفسه، (ص:32).
(3) – قضية الشعر الجاهلي في كتاب ابن سلام، لمحمود محمد شاكر، شركة القدس للتصدير، الطبعة الثانية، 1435 هـ-2014م، (ص 108-109).

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

جاءت به الرسل من كتب، ولعلّ هذا يقع تفسيرا لقوله ﷺ : "ألا إني أوتيتُ القرآن ومثله معه"[1].

فهذه الوجوه مجتمعةً كلها، كفيلةٌ بأن تجعل أمر الإعجاز، مما يختصُّ به القرآن الكريم، دون غيره من الكتب التي أنزل الله سبحانه وتعالى على سائر رسله عليهم السلام.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

(1) – أخرجه الإمام أحمد في مسنده، من حديث الْمِقْدَامِ بْنِ مَعْدِي كَرِبَ الْكِنْدِيِّ، برقم: 17174، المسند (ج 28/ ص: 410)، وأخرجه الأجري أيضا من حديث المقدام، برقم: 97، الشريعة، لأبي بكر الأجري، (5ج1/ ص: 415)

المبحث الثالث: تقويم درس الإعجاز في كتب علم الكلام

مما سبق تقريره يتبين أنه من الكتب المهمة التي اعتنت بدرس إعجاز القرآن، كتب علم الكلام وقد جاءت بإثر كتب دلائل النبوة، لأنه لم يلبث أن ظهرت الزندقة والطَّعن على القرآن، فلم يصبح يُكتفى بذكر المعجزات، وسردها، بل أُحتيج للمجادلة والمناظرة، فظهرت كتب الكلام، وكان من وظائفها حماية القرآن الكريم من المطاعن، لذلك جاء فيها ذكر إعجاز القرآن الكريم، وهذا مبحث، لتقييم درس الإعجاز في كتب علم الكلام، ومطالبه ثلاثة، وهي:

المطلب الأول: تقويم كتب علم الكلام من حيث العناية بالقرآن الكريم.

المطلب الثاني: تقويم كتب علم الكلام من حيث العناية بإعجاز القرآن الكريم.

المطلب الثالث: تقويم كتب علم الكلام من حيث المشاركة في علوم أخرى.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

المطلب الأول: تقويم كتب علم الكلام من حيث العناية بالقرآن الكريم

أما عناية علم الكلام بالقرآن الكريم، فهي من الظُّهور بالمكان الذي لا يحتاج إلى بيان، فإنهم ذكروا – في بعض التعليلات- أنه إنما سُمِّيَ بعلم الكلام، لأنَّ أشهر مسائله وأولها قام حول كلام الله سُبحانه وتعالى، هل هو صفةٌ من صفاته، أو خلقٌ من خلقه، ومهما يكن من شيء فإن كتب علم الكلام أولت القرآن الكريم عناية من حيث الاعتناءُ به، وذلك من خلال:

الفرع الأول: الدفاع عن صدق النبي ﷺ

إن الدفاع عن صدق النبي ﷺ وردِّ الشبهات التي أثيرت حوله، إنما هو في حقيقته دفاع عن القرآن الكريم، الذي جاء به، لذلك نجد كتب علم الكلام تعتني بإبراء ساحة النبي ﷺ مما يُنسب إليه، ومن ذلكم الدفاع عن صدقه، وفي القرآن قال الله عزَّ وجلّ: ﴿ وَٱلَّذِى جَآءَ بِٱلصِّدۡقِ وَصَدَّقَ بِهِۦٓ ﴾ الزمر: ٣٣، وقد ورد في كتب علم الكلام الدفاع عن النبي ﷺ، وعن صدقه، وذلك من وجوه منها ما ذكره ميثم البحراني: « **الأول**: أن ظهور المعجز على يد مدّعي النبوة مقارناً لدعواه وموافقا لها لـمّا كان من خواص النبي كان كل من اتصف به نبيا، فلمّا اتصف به محمد عليه السلام علمنا كونه كذلك.

الثاني: أنه لو كان كاذبا فيما ادّعاه من النبوّة لما جاز أن يخلق الله سبحانه وتعالى المعجز على يديه مقارنا لدعواه، لكن اللازم باطل فالملزوم مثله...

الثالث: دعوى الضَّرورة، ونبّؤا على ذلك بأن قالوا: أن الملك العظيم إذا حضر في المحفل العظيم، فقام واحدٌ وقال: أيّها الناس إني رسول هذا الملك إليكم ثم قال: يا أيها الملك إن كنت صادقا في كلامي، فخالف عادتك وقم عن سريرك، فإذا قام الملك عند سماع هذا الكلام علم الحاضرون بالضرورة كون ذلك المدّعي صادقا في دعواه، فكذلك حال محمد عليه السلام في دعواه النبوة، وإظهار الله سبحانه وتعالى الأمر الخارق للعادة على يديه عقيب دعواه...»[(1)].

([1])– قواعد المرام في علم الكلام، ميثم البحراني، (ص 131).

الفرع الثاني: الدفاع عن القرآن الكريم:

لما كان القرآن الكريم هو آية الله ﷻ التي أيد بها رسول ﷺ، نوّع له فيها أنواعا من كونها معجزة، ومن ذلكم، وعد الله لنبيه ﷺ أن يحفظ القرآن الكريم، ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ [الحجر: ٩].

وقد تحدث الباقلاني عن بعض الأسباب التي هيأها الله ﷻ للقرآن الكريم حتى بقيَ محفوظا على مرِّ الدُّهور، وتكرر العصور، فقال: « ووقف جميع أهل دينه الذين أكرمهم الله بالإيمان على جملته وتفاصيله وتظاهر بينهم حتى حفظه الرجال وتنقلت به الرحال وتعلمه الكبير والصغير إذ كان عمدة دينهم وعلما عليه والمفروض تلاوته في صلواتهم والواجب استعماله في أحكامهم، ثم تناقله خلف عن سلف هم مثلهم في كثرتهم وتوفر دواعيهم على نقله حتى انتهى إلينا على ما وصفناه من حاله فلن يتشكك أحد ولا يجوز أن يتشكك مع وجود هذه الأسباب في أنه أتى بهذا القرآن من عند الله تعالى فهذا أصْلٌ»(1)

ومن مظاهر العناية بالقرآن الكريم ما عنيت به كتب علم الكلام من ردّ الشبهات التي تثار حول القرآن الكريم، وكم هي كثيرة الشبهات التي تثار حول القرآن الكريم في القديم والحديث.

ولعل من أهم تلك الشبهات التي تمسك بها من أراد الطعن على القرآن، ما كان من مواقف بعض الصحابة ﷺ فيما ورد عنهم أنهم أنكروا بعض القرآن الكريم، وبالتالي فلا يُدَّعى للقرآن الكريم، أنه محفوظ، ومن ثمت فلا يصلح أن يكون آيةً، ما دام قد احتمل الإنكار والزيادة والنقصان.

ولقد كان لعلماء الكلام دورٌ في ردِّ مثل هذه الشُّبهات التي اعترض بها من اعترض من الزنادقة والمغرضين، فالباقلاني مثلا يورد تلك الشبهات ويعددها، ثم ينبري لردها شبهةً شبهة، فذكر ما شبه به بعضهم في شأن ابن مسعود ﷺ اشتبه عليه بعض القرآن حتى أسقط المعوذتين من مصحفه، وكذلك ما كان من أبيّ بن كعب ﷺ في أنه جعل دعاء القنوت مثبتاً في مصحفه، فيكون بذلك قد اشتبه عليه ما هو قرآنٌ بما هو ليس بقرآن.

(1) – إعجاز القرآن، للباقلاني، (ص: 16-17)

ولما استوفى ذِكْر الشبه ذَكَرَ بإثرها جوابها فقال مجيباً عنها: « هذا من تخليط الملحدين، لأن عندنا أن الصَّحابة ﷺ لم يخفَ عليهم ما هو من القرآن، ولا يجوز أن يخفى عليهم القرآن من غيره، وعددُ السُّور عندهم محفوظ مضبوط، وقد يجوز أن يكون شذَّ عن مصحفه، لا لأنه نفاه من القرآن، بل عوَّل على حفظ الكُلِّ إيّاه؛ على أن الذي يروونه خبرُ واحد، لا يُسكن إليه في مثل هذا، ولا يُعمل عليه، ويجوز أن يكتب على ظهر مصحفه دعاء القنوت لئلا ينساه، كما يكتب الواحد منا بعض الأدعية على ظهر مصحفه...

ولو كان قد أنكر السورتين على ما ادعوا، لكانت الصَّحابة تناظره على ذلك، وكان يظهر وينتشر، فقد تناظروا في أقل من هذا، وهذا أمرٌ يوجب التَّكفير والتضليل، فكيف يجوز أن يقع التخفيف فيه؟! وقد علمنا إجماعهم على ما جمعوه في المصحف، فكيف يقدح بمثل هذه الحكايات الشاذة المولدة في الاجماع المقرر، والاتفاق المعروف؟!»[1].

فاجتمع جواب الباقلاني، في الاعتبارات التالية:

أولا: أن القرآن بالنسبة للصحابة محفوظٌ ومضبوطٌ في سوره وأعدادها.

ثانيا: أن ذلك يحتمل أن السقط للسورتين شذَّ عن مصحف ابن مسعود ﷺ لا أنه نفاه من القرآن الكريم.

ثالثاً: أن الذي جاء في ذلك من الأخبار آحادٌ لا تقوم به الحجة في مثل هذا المقام.

رابعاً: أنه لو صحّت الدّعوى عن ابن مسعود ﷺ لقام الصحابة لإنكار ذلك وعدم السكوت، وقد تكلموا فيما دون ذلك، فكيف بأمر يقتضي التضليل والتكفير.

أمَّا بالنسبة، للقنوت المثبت في مصحف أبيّ بن كعب ﷺ فإن ذلك يحتمل أنه ﷺ جعله على ظهر مصحفه، لئلا ينساهُ أو نحوا من ذلك، والاحتمال يُسقط الاستدلال.

ومن أجاب على هذه الشبهات أيضا ابن قتيبة بجواب مخالف لما أجاب به الباقلاني، فإن الباقلاني، أجاب على الشبهات بالنَّفي، وأمَّا ابن قتيبة فلا يمنع صحة ذلك عن ابن مسعود وأبي بن كعب ﷺ، فقال: « وأما نقصان مصحف عبد الله ﷺ بحذفه "أمّ الكتاب" و "المعوّذتين"، وزيادة أبيّ ﷺ بسورتي القنوت-، فإنا لا نقول: إن عبد الله و أبيّا ﷺ أصابا وأخطأ المهاجرون والأنصار، ولكنّ عبد الله ذهب فيما يرى أهل النظر إلى أن "المعوذتين" كانتا

---

[1] – المرجع السابق، (ص:292-293)

كالعوذة والرّقية وغيرها، وكان يرى رسول الله، ﷺ، يعوّذ بهما الحسن والحسين رضي الله عنهما وغيرهما، كما كان يعوّذ بأعوذ بكلمات الله التّامة، وغير ذلك، فظنّ أنهما ليستا من القرآن، وأقام على ظنّه ومخالفة الصحابة جميعا كما أقام على التّطبيق[1]، وأقام غيره على الفتيا بالمتعة، والصّرف ورأى آخر أكل البرد وهو صائم، ورآى آخر أكل السّحور بعد طلوع الفجر الثاني. في أشباهٍ لهذا كثيرةٍ.

وإلى نحو هذا ذهب أبيّ في دعاء القنوت، لأنه رأى رسول الله، ﷺ، يدعو به في الصلاة دعاء دائما، فظن أنه من القرآن، وأقام على ظنه، ومخالفة الصحابة»[2].

ولاشكَّ أنّه بهذين الجوابين مجتمعين بالنّفي والإثبات لابن قتيبة والباقلاني، لا يبقى لمشبه تمسك بشيء إلا بمثل خيط العنكبوت، إذ اجتمع الجواب على الشبهات، من جهة النفي وهو صنيع الباقلاني، وجوابٌ من جهة التسليم وهو صنيع ابن قتيبة.

ومما شبهوا به وشغبوا ما كان منهم في التمسك بما ورد من اختلافٍ في القراءات وتغاير وجوهها، وجعلوه من المزالق والمطاعن على القرآن، وأنه لو كان محفوظا حقاًّ لما جرى عليه هذا الاختلاف في قراءاته، ولعل ابن قتيبة يكفينا الجواب بقوله: أما ما اعتلوا به في وجوه القراءات من الاختلاف، فإنا نحتج عليهم فيه، بقول النبي، ﷺ: «نزل القرآن على سبعة أحرف، كلّها شاف كاف، فاقرؤوا كيف شئتم»[3]

ثم فسرها بقوله: « وإنما تأويل قوله، ﷺ: «نزل القرآن على سبعة أحرف»: على سبعة أوجه من اللغات متفرّقة في القرآن»[4].

([1]) **التطبيق**: وهو أن يشبك بين أصابع كفّيه، ويضعهما بين فخذيه، وأنه لم يكن يأخذ بركبته، قال الترمذي: التطبيق منسوخٌ عند أهل العلم، لا خلاف بين العلماء في ذلك، إلا ما روي عن ابن مسعود رضي الله عنه وبعض أصحابه، أنهم كانوا يطبقون، سنن الترمذي ت بشار، أبواب الصلاة، بَابُ مَا جَاءَ فِي وَضْعِ اليَدَيْنِ عَلَى الرُّكْبَتَيْنِ فِي الرُّكُوعِ (ج1/ص: 344).

([2]) – تأويل مشكل القرآن، لابن قتيبة، (ص: 34-35)

(3) – أخرجه أحمد في مسنده – ط شاكر، برقم: 7976 من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، (ج8/ ص:107)، والبيهقي في شعب الإيمان: باب في تعظيم القرآن، في فصل في ترك المماراة برقم: 2269، من كلام عبد الله بن مسعود رضي الله عنه، (ج2/ ص: 420).

([4]) – تأويل مشكل القرآن، لابن قتيبة، (ص: 30).

ثم علل ذلك بقوله: « ولو أن كل فريق من هؤلاء، أمر أن يزول عن لغته، وما جرى عليه اعتياده طفلا وناشئا وكهلا- لاشتد ذلك عليه، وعظمت المحنة فيه، ولم يمكِنُه إلاَّ بعد رياضة للنفس طويلة، وتذليل للّسان، وقطع للعادة، فأراد الله، برحمته ولطفه، أن يجعل لهم متّسعا في اللُّغات، ومتصرّفا في الحركات، كتيسيره عليهم في الدّين حين أجاز لهم على لسان رسوله ﷺ، أن يأخذوا باختلاف العلماء من صحابته في فرائضهم وأحكامهم، وصلاتهم وصيامهم، وزكاتهم وحجّهم، وطلاقهم وعتقهم، وسائر أمور دينهم»[1].

فاختلف القرآن في نزوله على أحرف العرب التي في واقعها مختلفة، رحمة من الله ﷻ بأولئك العرب، الذين جبلوا على الحميّة وبخاصة ما يتعلق بلغاتهم التي يتكلمون بها، فكان إقرار العرب على لغاتهم مظهرا من مظاهر التوسعة على الأمة في دينها، ولا يبعدُ أن يعَدَّ وجها من وجوه إعجاز القرآن الكريم.

الفرع الثالث: الردُّ على الملاحدة ومنكري النبوات:

ومن أهمّ ما امتازت به كتب علم الكلام، أنها كانت مرصادا للملاحدة ومنكري النبوة، فلم تترك لهم مقالا، ولا اعتراضا إلا هدته هدّا، وقوّضته تقويضا، وذلك أنه:

« قد اعترض كتاب الله بالطعن ملحدون ولغوا فيه وهجروا، واتبعوا ما تَشابَهَ مِنْهُ ابْتِغاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغاءَ تَأْوِيلِهِ؛ بأفهامٍ كليلةٍ، وأبصارٍ عليلةٍ، ونظرٍ مدخولٍ، فحرّفوا الكلام عن مواضعه، وعدّلوه عن سبله، ثم قضوا عليه بالتّناقض، والاستحالة، واللّحن، وفساد النّظم، والاختلاف، وأدلوا في ذلك بعلل ربما أمالت الضّعيف الغمر، والحدث الغرّ، واعترضت بالشبه في القلوب، وقدحت بالشكوك في الصدور، ولو كان ما نحلوا إليه على تقريرهم وتأوّلهم- لسبق إلى الطعن به من لم يزل رسول الله ﷺ، يحتجّ عليه بالقرآن، ويجعله العَلَمَ لنبوّته، والدليل على صدقه، ويتحداه في موطن بعد موطن، على أن يأتي بسورة من مثله، وهم الفصحاء والبلغاء، والخطباء والشعراء، والمخصوصون من بين جميع الأنام بالألسنة الحداد، واللّدد، في الخصام، مع اللّب والنّهى، وأصالة الرّأي، وقد وصفهم الله بذلك في غير موضع من الكتاب، وكانوا مرّة يقولون: هو سحر، ومرة يقولون: هو قول الكهنة، ومرة: أساطير الأولين.

---

(1)- المرجع السابق، (ص: 32)

ولم يحك الله ﷻ عنهم، ولا بلغنا في شيء من الروايات- أنهم جدبوه من الجهة التي جدبه منها الطاعنون»[1].

ولمّا « بدأت الثقافات الفارسية واليونانية تأخذ طريقها إلى المجتمع الإسلامي على يد أبناء الأقطار التي فتحها المسلمون، وبدأ الناس يفكّرون بطريقة عقلية مجرّدة عن التذوّق الجمالي وإدراك المعاني بالسليقة الصافية.

في هذه البيئة المختلطة بالتيارات الثقافية المتباينة، برز الحديث عن وجه إعجاز القرآن، وعن سبب عجز العرب عن الإتيان بمثل سورة من القرآن، ولعل الفكرة أول ما نشأت في مجالس بعض القوم في البصرة في القرن الثاني الهجري، حيث كانت البصرة تموج بالتيارات الفكرية المختلفة من فقهاء ومحدثين ولغويين وأدباء وفلاسفة متكلمين، ودعاة إلى مذاهب خارجة عن الإسلام كالثنوية والمانوية والسُّمنية[2] والدُّهرية[3] والزرادشتية[4] وغيرها مما حملته التيارات الفكرية الوافدة من الشرق»[5].

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

(1) – تأويل مشكل القرآن، لابن قتيبة، (ص: 23)

(2) – **السمنية** = قَالُوا بقدم الْعَالم وَقَالُوا أيضا بإبطال النّظر وَالِاسْتِدْلَال وَزَعَمُوا أنه لَا مَعْلُوم إلا من جِهَة الْحَواس الْخمس وأنكر أكثرهم الْمعَاد والبعث بعد الْمَوْت وَقَالَ فريق مِنْهُم بتناسخ الأرواح فِي الصُّور الْمُخْتَلفَة وأجازوا أن ينْقل روح الإنسان إلى كلب وروح الْكَلْب إلى انسان. الفرق بين الفرق، للإسفراييني، (ص: 253).

(3) – **الدهريّة** = هو اعتقاد فكري ظهر في فترة ما قبل الإسلام، ويشتقّ المصطلح من الدهر لاعتبارها الزمان أو الدهر السبب الأول للوجود وأنّه غير مخلوق ولا نهائي، وتعتبر الدهريّة أنّ المادّة لا فناء لها، ويعدّ هذا الاعتقاد قريبًا من اعتقاد اللادينيّة والإلحاد والمادّيّة. وذكر في القرآن عنهم: ﴿وَقَالُواْ مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنۡيَا نَمُوتُ وَنَحۡيَا وَمَا يُهۡلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهۡرُۚ﴾ الجاثية: ٢٤، وذكرهم أيضًا أبو الفتح محمد بن عبد الكريم الشهرستاني في كتابه الملل والنحل بـ"معطلة العرب" وقال أن بينهم ثلاثة أصناف: صنفٌ ينكر الخالق، والبعث، والإعادة، وصنفٌ: يقرّ بالخالق، وينكر البعث والإعادة، وصنفٌ ثالثٌ: منكرو الرسل: عبّاد الأصنام، ينظر الملل والنحل، للشهرستاني، (ج3/ ص: 79-80).

(4) – **الزرداشتية** = هم أصحاب زردوشت بن بورشب، الذي ظهر في زمان كشتاسب بن لهراست الملك، وأبوه كان من أذربيجان، وأمه من الري واسمها: دغدوية، زعموا أن لهم أنبياء وملوكا: أو لهم كيومرث. وكان أول من ملك الأرض، وكان مقامه بإصطخر، ينظر الملل والنحل، للشهرستاني، (ج2/ ص: 41).

(5) – مباحث في إعجاز القرآن، لمصطفى مسلم، (ص: 45-46)

التصدي للبراهمة

في حقيقة الأمر« لا ينكر الأمور الخارقة للعادة عامة ومعجزات الأنبياء خاصة إلا أحد اثنين:

إنسان ملحدٌ ينكر كل ما غاب عن الحواس فهو كافر بالغيب، ويقول إنما نحيا ونموت وما يهلكنا إلا الدهر، فمثل هذا يحتاج إلى عملية فكرية جذرية للإيمان بخالق الكون والحياة والإنسان ...

أو إنسان يؤمن بإله محدود القدرة عاجز عن التصرف في الكون والمخلوقات حسب إرادته، ومن هذه النوعية كل من اتخذ من دون الله أربابا وأوثانا وآلهة ابتدعوها، وأملتها عليهم شهواتهم وأهواؤهم، هؤلاء يحتاجون إلى معرفة الألوهية الحقة ومستلزماتها من صفات الكمال المطلق، والتنزّه عن النقص والعجز الذي لا يليق بخصائص الألوهية»(1).

من ذلكم: البراهمة: « أنكرت البراهمة بعثة الأنبياء، وزعموا أنه لا فائدة فيها، لأن النبي إما أن يأتي بما يوافق العقل أو بما يخالفه، فإن كان الأول ففي العقل به غنية عنه، وإن كان الثاني قبُح اتباعه، لأن اتباع ما يخالف العقل قبيحٌ في العقل.

الجواب على ذلك أنه: « لا نسلم أنه إذا أتى بما يوافق العقل كان فيه غنية عنه، إذ ليس كلُّ ما يوافق العقل يجب أن يكون عالما أو مستقلا بإدراكه، بل جاز أن يكون على الجملة، ويجب البعثة لتعريفنا ذلك مفصلا.

وهذا كما يعلم المريض على سبيل الجملة أن كل ما ينفعه يجب تناوله، وكلُّ ما يضرُّه يجب اجتنابه، وإن لم يعلم تفصيل الضار والنافع، فإذا عرّفه الطبيب شيئاً معيّنا ينفعه أو يضرُّه لم يكن ذلك مخالفا لعلمه الجملي بل موافقا بتفصيله مع أنه ليس في عقله غنية عنه»(2)

وقد بيّن الباقلاني افتراق البراهمة أنفسهم، فقال: « وقد افترقت البراهمة علـــى قولين:

فمنهم قومٌ جحدوا الرسل وزعموا أنه لا يجوز في حكمة الباري وصفته أن يبعث رسولا إلى خلقه، وأنه لا وجه من ناحيته فيصحّ تلقي الرسالة عن الخالق

(1) – المصدر السابق، (ص: 40)

(2) – قواعد المرام في علم الكلام، ميثم البحراني، (ص 124).

وقال الفريق الآخر: إن الله ما أرسل رسولا إلى خلقه سوى آدم، وكذبوا كلّ مدّعٍ للنبوّة سواه

وقال قومٌ منهم: بل ما بعث الله غير إبراهيم وحدّه، وأنكروا نبوّة من سواه»[1]

وقد أطال الباقلاني، في الرد على ما تمسكت به البراهمة من شبه فأوردها بنصها ثم أخذ يردها واحدةً واحدة، فقال ما ملخصه:

حجتهم الأولى: أن الرسول من جنس المرسل إليه، وتفضيل أحد المتماثلين المتساويين على مثله ونوعه ومن هو بصفته حيفٌ ومحاباة وجنفٌ وميلٌ وخروج عن الحكمة، وذلك غير جائز على القديم؟

الجواب عليها = قال: « يُقَال لَهُم لم قُلْتُم إِن تَفْضِيل الله ﷻ بعض الْجِنْس على بعض ورفع بَعضهم إذا كَانَ مُحَابَاة للمتفضل عَلَيْهِ وَجب أَن يكون ظلما وخروجا عَن الْحِكْمَة وَمَا أنكرتم أَن يكون لله ﷻ، أَن يخْتَص بفضله من يَشَاء من خلقه وَله التَّسْوِيَة بَين سَائِرهمْ، فَإِن ذَلِك أجمع عدل مِنْهُ وصواب من تَدْبيره...

وَمَا أنكرتم من أنه جَائِز لنا وصواب فِي حكمتنا أَن نحبو بعض عبيدنا وأصدقائنا والمتصرفين مَعنا كتصرف غَيره بِأَكْثَر مِمَّا نحبو بِهِ غَيره ونفضله بعطاء وتشريف لَا يسْتَحقّهُ أَكثر مِمَّا نحبو بِهِ غَيره فَلم قُلْتُم إِن هَذَا سفه وقبيح من فعلنَا...

ثمَّ يُقَال لَهُم مَا أنكرتم على من قَالَ من مثبتي نبوة الرُّسُل إِن الله تَعَالَى لَيْسَ يفضِّلُ أحد الشخصين على الآخر المجانس لَهُ ابْتِدَاء وَلَا لأجل جنسه وَلَكِن لأجل أَنه مُسْتَحقٌّ للتفضيل بالرسالة وَغَيرهَا بِعَمَلِهِ وَالْإِخْلَاص فِي الِاجْتِهَاد كَمَا أَن الله تَعَالَى يفضل الْمُنِيب وقابل الْحجَج الْعَقْلِيَّة عنْدكُمْ على من لم يقبلهَا لَا لجنسه وَلَا لابتدائه بذلك وَلَا لغير عِلّة، وَلَكِن لِأَنَّهُ مُسْتَحقّ للتعظيم وَالشُّكْر وَالثنَاء عنْدكُمْ لما كَانَ من بره وطاعته، فَيكون التَّفْضِيل بالرسالة إِذا أَرَادَ الله سُبْحَانَهُ إرْسَال بعض عباده إِلَى باقيهم مُسْتَحقّا لِأَنَّهُ أفضلهم وَأَكْثَرهم عملا فَلَا يجدون لذَلِك مدفعا»[2].

---

(1) – كتاب التمهيد، للباقلاني، (ص: 126-127).

(2) – المرجع نفسه، (ص: 127).

الحجة الثانية: مفادها أنهم قالوا: وجدنا في الواقع أن الرسول من جنس المرسِل، ولا يجوز أن يكون القديم من جنس المخلوق، فيمتنع أن يرسل رسولا إلى خلقه

وفي الجواب عليها الجواب عليها = قال: « فَيُقَال لَهُم فَيجب على اعتلالكم هَذَا أَلا يكون الله ﷻ محتجا على الْخلق بعقولهم وَلَا آمرا لَهُم بِمَا وَضعه فِيهَا عنْدكُم من وجوب فعل الْحسن وَترك الْقَبِيح وَاسْتِعْمَال النّظر وَفعل التَّوْحِيد لله والمعرفة بِهِ وَالشُّكْر لنعمه لِأَن المحتج الْآمِر فِي الشَّاهِد من جنس الْمَأْمُور المحتج عَلَيْهِ فَإِن مروا على ذَلِك تركُوا التَّوْحِيد وَلَحِقُوا بِأَهْل التعطيل وَإِن أَبوهُ وراموا فصلا نقضوا استدلالهم»(1)

الحجة الثالثة: قالوا: لم نجد وجها من قبله يصحُّ تلقي الرسالة عن الخالق، وما دام انه لا تقع عليه الحواس، وإنما يخبرون عن أصوات سمعوها وما يدريهم لعلها من قبل الملائكة أو الجن، أو متستر من الإنس، فلا سبيل إلى أن يعلم النبي أن متولي مخاطبته هو الله ﷻ، فكان مانعا من القول بنبوة الرسل.

ثم قال مجيبا عليها، « فَيُقَال لَهُم مَا أنكرتم من سُقُوط مَا تعلقتم بِهِ وَذَلِكَ أَن مُوسَى عليه السلام وكل من تولى الله خطابه بِلَا وَاسِطَة وَلَا ترجمان يعلم أَن خَالق الْعَالم هُوَ الْمُتَوَلِي لخطابه من أَرْبَعَة أوجه أَحدهَا أَن كَلَام الله ﷻ الَّذِي يُخَاطب بِهِ من يَشَاء من خلقه لَيْسَ من جنس كَلَام الْآدَمِيّين وَلَا مشبها لكَلَام المخلوقين...، وَإِذا كَانَ ذَلِك كَذَلِك بَطل سؤالكم أَنه لَا سَبِيل للرسول إِلَى الْعلم بتلقي الرسَالَة عَن الْخَالِق

وَمَا أنكرتم أَيْضا من أَن يَصح علم الرَّسُول بِأَن الله ﷻ هُوَ الْمُتَوَلِي لكَلَامه مَعَ بَقَاء المحنة عَلَيْهِ وإلزام الله ﷻ إِيَّاه مَعْرفَته من وَجْهَيْن أَحدهمَا أَن يَجْعَل الْخطاب لَهُ خَبرا عَن غيب استسرَّه مُوسَى عليه السلام، واعتقده فِي نَفسه وَلم يطلع عَلَيْهِ أحدا من الْخلق ويخبره عَمَّا أحبه قلبه وانطوى عَلَيْهِ ضَمِيره أَخْبَارًا مُتَّصِلَة تخرج بكثرتها عَن حد مَا يُمكن إِصَابَة الظَّان والمخمن فِيهِ لِأَن الْمَعْلُوم بمستقر الْعَادة أَن الحادس يُصِيب فِي الْخَبَر والاثنين وَالثَّلَاثَة وَلَا يُصِيب فِي الْمِائَة والمائتين وَالْأَلف والألفين حَتَّى لَا يغلط فِي وَاحِد مِنْهَا وَإِذا كَانَ ذَلِك كَذَلِك كَانَ الله ﷻ مَتى أَرَادَ إِعْلَام من يَتَوَلَّى خطابه أَنه الْمُتَوَلِي لكَلَامه ضمن خطابه الْإِخْبَار عَن الغيوب وَمَا أسرته النُّفُوس فيعلم الْمُخَاطب عِنْد ذَلِك أَن الْمُتَوَلِي لكَلَامه هُوَ علام الغيوب لتقدم علمه بِأَن الْإِخْبَار عَن ذَلِك

---

(1) – كتاب التمهيد، للباقلاني، (ص: 130).

والإصابة لَهُ فِي جَمِيعه مُتَعَذر على المخلوقين وَأَن الْمُنْفَرد بِهَذَا هُوَ الله رب الْعَالمين وَهَذَا طَرِيق للْعلم بِصِحَّة الرسَالَة عَن الله وَاضح لَا إِشْكَال فِيهِ...»[1]

الحجة الرابعة: زعمهم استحالة ما ادعاه الأنبياء في واقعنا.

وفي الردِّ على ذلك يقول: « قيل لَهُم فَيجب أَن تحيلوا أَيْضا أَن يخلق الله تَعَالَى الْأَجْسَام وَألا يُوجد آدم إِلَّا من ذكر وَأُنْثَى وَألا يخلق دجَاجَة إِلَّا من بَيْضَة أَو بَيْضَة إِلَّا من دجَاجَة أَو نُطْفَة إِلَّا من إِنْسَان أَو إِنْسَانا إِلَّا من نطفة لِأَن ذَلِك أجمع لم يُوجد قطّ وَلم يُشَاهد فَإِن مروا على ذَلِك لَحِقُوا بِأَهْل الدَّهْر وَإِن أَبوهُ نقضوا اعتلالهم.

وَإِن قَالُوا عنينا أَن هَذِه الْأُمُور مستحيلة فِي الْعَادة قيل لَهُم فَمَا أنكرتم أَن ينْقض الله ﷻ الْعَادَات وَيظْهر المعجزات على أَيدي رسله لما أَرَادَهُ من حسن النّظر لَهُم وَلمن علم أَنه يُؤمن بهم وَيعْمل من الْعِبَادَات مَا يكون وصلَة وذريعة إِلَى إجزال ثوابهم كَمَا جَازَ وَحسن مِنْهُ أَن يحْتَج عَلَيْهِم بعقولهم فَلَا يَجدونَ إِلَى دفع ذَلِك من حَيْثُ اعتلوا مُتَعَلقا»[2].

الحجة الخامسة: أنه جاؤوا بما حظره العقول من إيلام الحيوان وذبحه وتسخيره، وغير ذلك مما يجري مجراه، والحكيم لا يجوز أن يبيح ما تحظره العقول.

وكان جوابه، بقوله: « فَإِن الْكَلَام فِي ذَلِك جَار بَين أهل الْملَل والمجوزين لإرسال الله تَعَالَى الرُّسُل وَأَنْتُم تحيلون أَن يُرْسل الله رَسُولا أصلا فَلَا معنى للْكَلَام فِي تعْيين رِسَالَة فلَان دون فلَان فَإِنَّهُ خُرُوج عَن الْكَلَام وَعجز وانتقال من بَاب إِلَى بَاب.

ثمَّ يُقَال لَهُم مَا أنكرتم أَن يكون جَمِيع مَا ادعيتم حظره فِي الْعقل غير مَحْظُور فِيهِ وَلَا مُبَاح أَيْضا وَأَن الْحَظْر وَالْإِبَاحَة إِنَّمَا هما وُرُود القَوْل الْمُبين عَن مَالك الْأَعْيَان بِإِبَاحَة مَا أَبَاحَهُ وحظر مَا حظره فَلم قُلْتُمْ إِن فِي الْعقل إِبَاحَة وحظرا...

ثمَّ يُقَال لَهُم أَلَيْسَ الْأكل وَالشرب والاصطلاء بالنَّار والتبرد بالثلج قبيحا مَعَ الشِّبَع والري التامين اللَّذين يخَاف الضَّرَر فِيمَا يتَنَاوَل بعدهمَا وَكَذَلِكَ الاصطلاء بالنَّار مَعَ الْحمى والتبرد بالثلج مَعَ شدَّة الْبرد مَحْظُور مَعَ الْغنى عَنهُ فَإِذا قَالُوا أجل وَلَا بُد لَهُم من ذَلِك قيل لَهُم فَيجب أَن يكون ذَلِك أجمع مَحْظُورًا مَعَ حُصُول الْحَاجة إِلَيْهِ وَشدَّة لَهب الْجُوع والظمأ وَالْحر والقر وَخَوف الضَّرَر

(1) – كتاب التمهيد، للباقلاني، (ص: 134).
(2) – المرجع نفسه، (ص: 136).

بِتَرْكِهِ فَإِن مروا على ذَلِك تركُوا دينهم وَإِن أَبوهُ وأباحوا هَذِه الْأُمُور وأوجبوها أَيْضا عِنْد الْحَاجة إِلَيْهَا قيل لَهُم فقد صَار الْمَحْظُور فِي الْعقل مُبَاحا وانقلبت قضايا الْعُقُول وَهَذَا مَا تكرهُونَ»[1].

الحجة السادسة: قالوا: «الدَّلِيل على أَنه لَا يجوز فِي حِكْمَة الله ﷻ إرْسَال الرُّسُل أَن إرْسَاله الرُّسُل إِلَى من يعلم أَنه يكفر بِهِ ويشتمه وَيرد قَوْله ويستوجب بذلك الْعقَاب الْأَلِيم سفه وَخلاف الصَّوَاب فَلَمَّا لم يجز السَّفه على الله ﷻ لم يجز أَن يُرْسل الرُّسُل إِلَى من حَاله مَا وصفنَا.

والجواب عليها بأن: « يُقَال لَهُم أول مَا فِي هَذَا أَنه يجب جَوَاز إرْسَال الله ﷻ الرُّسُل إِلَى من يعلم قبُوله مِنْهُم وانتفاعه بهم لِأَن هَذِه الْعلَّة عَنْهُم زائلة ثمَّ يُقَال لَهُم فَيجب على اعتلالكم أَلا يخلق الله ﷻ من يعلم أَنه يكفر بِهِ ويجحد نعمه ويلحد فِي صِفَاته وَلَا ينْتَفع بِوُجُود نَفسه وَأَلا يحْتَج بالعقول وَمَا وَضعه من الْأَدِلَّة فِيهَا على أحد علم أَنه يجحدها وَلَا يستعملها وَلَا ينيب إِلَى مَا وضح فِي عقله حسنه وَلَا يحذر مِمَّا حذر مِنْهُ فَإِن مروا على ذَلِك تركُوا دينهم وَإِن أَبوهُ نقضوا اعتلالهم»[2].

ولعله في هذا النموذج عند الباقلاني كفايةٌ، لبيان ما كانت عليه كتب علم الكلام من الدفاع عن القرآن الكريم، وتصديها لطوائف الإلحاد ومنكري النبوة.

(1)– كتاب التمهيد، للباقلاني، (ص: 140).

(2)– المرجع نفسه، (ص: 142).

المطلب الثاني: تقويم كتب علم الكلام من حيث العناية بإعجاز القرآن الكريم

من السمات الظاهرة في كتب علم الكلام، عناية أصحابها بإعجاز القرآن، والحث على ذلك بأن تتظافر الجهود في بيان الإعجاز الذي وقع في القرآن، وأن ذلك من الواجب الكفائي الذي ينبغي لعلماء الأمة أن يضطلعوا فيه، قال الباقلاني: « وقد كان يجوز أن يقع ممن عمل الكتب النافعة في معاني القرآن وتكلم في فوائده من أهل صنعة العربية وغيرهم من أهل صناعة الكلام أن يبسطوا القول في الإبانة عن وجه معجزته والدلالة على مكانه **فهو أحق** بكثير مما صنفوا فيه من القول في الجزء والطفرة ودقيق الكلام في الأعراض وكثير من بديع الإعراب وغامض النحو، **فالحاجة إلى هذا أمس والاشتغال به أوجب**»[1].

قد مرَّ في المبحث السابق الوقوف على درس إعجاز القرآن الكريم في كتب علم الكلام، وهذا مطلب لتقويم عناية تلك الكتب بإعجاز القرآن الكريم، ومدى إسهامها في تقرير مباحثه، وإثرائها بالبحث والنظر، وذلك من خلال:

الفرع الأول: أهمية المعجزة القرآنية ومنزلتها

لما أراد الله ﷻ أن يختم رسالاته، أرسل نبيا من أنبيائه عليهم السلام، وأنزل معه آية باقية خالدة، لا تزول ولا تحول، إلا إن يشاء الله ربُّ العالمين، وهذا جارٍ على حكمة الله، يقول الباقلاني: « فأما دلالة القرآن فهي عن **معجزة عامة عمت الثقلين وبقيت بقاء العصرين** ولزوم الحجة بها في أول وقت ورودها إلى يوم القيامة على حدٍّ واحد وإن كان قد يعلم بعجز أهل العصر الأول عن الإتيان بمثله وجه دلالته، فيغني ذلك عن نظر مجدد في عجز أهل هذا العصر عن الإتيان بمثله، وكذلك قد يغنى عجز أهل هذا العصر عن الإتيان بمثله عن النظر في حال أهل العصر الأول»[2]

بل حتى العرب الذين أُنزل فيهم هذا القرآن، وكذّبُوا به، وقالوا عنه مقالات السوء، يدركون في قرارة أنفسهم، أنهم لا طاقة لهم بأن ينسجوا على منواله، أو أن يأتوا بمثله، بل ولا حدثتهم أنفسهم بذلك، قال الجرجاني متحدثا عن العرب وموقفهم من القرآن: « ...وعلمهم

---

(1) – إعجاز القرآن، لأبي بكر الباقلاني، (ص: 5).
(2) – المرجع نفسه، (ص: 10).

أن الذي سمعوه فائتٌ للقوى البشرية، ومتجاوزٌ للذي يتَّسع له ذرع المخلوقين»[1]، كما قال في الصدد نفسه: « وعلمهم بالعظيم من الفضل والبائن من المزية، الذي إذا قيس إلى ما يستطيعونه ويقدرون عليه في ضروب النظم وأنواع التصرف، فإنه الفوت الذي لا ينال، وارتقى إلى حيث لا تطمع إلهي الآمال، فقد وجب القطع بأنه معجز»[2].

وإذا كان هذا هكذا، فقد انتفى الشكُّ، وحصل اليقين الذي تسكن معه النفس، ويطمئن عنده القلب، أنه معجز ناقض للعادة، وأنه في معنى قلب العصا حية، وإحياء الموتى، في ظهور الحجة به على الخلق كافة[3].

الفرع الثاني: البحث في النبي والمعجزة

اقتضت الحكمة الإلهية ﷻ أن يكون الرُّسلُ الذين يرسلهم إلى خلقهم بشراً يوحى إليهم، ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ إِلَّا رِجَالٗا نُّوحِيٓ إِلَيۡهِم مِّنۡ أَهۡلِ ٱلۡقُرَىٰٓۗ﴾ يوسف: ١٠٩، ، كما اقتضت حكمته ﷻ أن يؤيّدَ أولئكم الرسل عليهم السلام بالآيات والدلائل تبيّنُ صدقهم فيما يبلغون عن ربِّهم، وتقيم الحجَّة على الناس، ولولاها لالتبس أمر الصَّادق بغيره، ولمَّا سلمت الدَّعوات من المدَّعين والأدعياء الكذبة.

فمن هو النبي؟ النبي: « هو الإنسان المأمور من السماء بإصلاح أحوال الناس في معاشهم ومعادهم العالم بكيفية ذلك، المستغني في علومه، وأمره من السماء لا عن واسطة البشر، المقترنة دعواه بأمور خارقة للعادة»[4].

ومن أهم صفات النبي العصمة؛ وهي « صفة للإنسان يمتنع بسببها من فعل المعاصي، ولا يمتنع منه بدونها، **وأما المعجزة والمعجز، فهو**: « هو الأمر الخارق للعادة المطابق لدعوى النبوة المتعذر في جنسه أو صفته»[5]

ولمعرفة المعجزة طرق معروفة، يقول الباقلاني: « السَّبِيل إِلَى ذَلِك من طَرِيقين: **أَحدهمَا** الِاضْطِرَار، **وَالْآخر** النّظر وَالِاسْتِدْلَال

---

(1) – الرسالة الشافية، للجرجاني، (ص: 575).

(2) – المرجع نفسه، (ص: 586)

(3) – المرجع نفسه، (ص: 588-589)

(4) – قواعد المرام في علم الكلام، ميثم البحراني، (ص 122).

(5) – المرجع نفسه، (ص: 125 -127).

فَأما الْعلم بِظُهُور الْقُرْآن على يَده ومجيئه من جِهَته وَأَنه تحدى الْعَرَب أَن تَأتي بِمثلِهِ فواقعٌ لنا وَلكُل من خَالَفنَا باضطرار من حَيْثُ لَا يُمكن جَحده وَلَا الارتياب بِهِ، كَمَا أَن الْعلم بِظُهُور النَّبِي ﷺ بِمَكَّة وَالْمَدينَة ودعوته إِلَى نَفسه وَاقع من جِهَة الِاضْطِرَار لِأَن الْمُسلمين وَالْيَهُود وَالنَّصَارَى وَالْمَجُوس والصابئة والثنوية والزنادقة وكلَّ منحرف عَن الْملَّة يقرُّون بِأَن الْقُرْآن المتلو فِي محاريبنا المرسوم فِي مَصَاحِفنَا من قبل النَّبِي ﷺ نجم وَمن جِهَته ظهر من غير اخْتِلَاف بَينهم فِي ذَلِك، فَلَو حمل حَامِل نَفسه على ذَلِك لجحد الضَّرُورَة وَسَقَطت مُطَالبَته كَمَا لَو ادّعى مُدع أَن التَّوْرَاة وَالْإِنْجِيل لَيْسَ هما من جملَة مَا ظهر من قبل مُوسَى وَعِيسَى عَلَيْهِمَا السَّلَام لَكَانَ معاندا وجاحدا للضَّرُورَة بل لَو جحد جَاحد مَا دون هَذَا فزعم أَن قفا نبك لَيست من شعر امرىء الْقَيْس ودع هُرَيْرَة إِن الركب مرتحل لَيْسَ من نظم الْأَعْشَى وَنزل إِلَى جحد خطب الْحجَّاج وَزِيَاد ورسائل ابْن المقفع وإنكار كَون الْكتاب لسيبويه لوَجَبَ عناده وَسقط كَلَامه.

وَقد علم أَن ظُهُور الْخَبَر بمجيء الْقُرْآن من جِهَة النَّبِي ﷺ أعظم وحاله أشهر فَوَجَبَ أَن يكون مَا توَاتر الْخَبَر عَنهُ على هَذِه السَّبِيل وَالْعلم بِهِ اضطرارا لَا يُمكن جَحده وَلَا الشَّك فِيهِ وَلَا يحْتَاج بِهِ فِي إثْبَاته إِلَى اسْتِعْمَال الرُّؤْيَة وَالنَّظَر فِي الْأَدِلَّة.

فَأما سَبِيل الْعلم بِكَلَام الذِّرَاع وتسبيح الْحَصَى وحنين الْجذع وَجعل قَلِيل الطَّعَام كثيرا وَأَشْبَاه ذَلِك من أَعْلَامه عَلَيْهِ السَّلَام فَهُوَ نظر واستدلال لَا اضطرار»[1].

وذلك أن « الْأَصْل فِي ذَلِك أَن الْعَادة لم تجر بإمساك الْجَمَاعَات عَن إِنْكَار كذب يدعى عَلَيْهِم كَمَا لم تجر بِنَقْل الْجَمَاعَة الْكَذِب وكتمان مَا شوهد وَسمع»[2].

الفرع الثالث: شروط المعجزة:

علم مما سبق أن العلماء جعلوا للمعجزة شروطاً، ولم يتخلف علماء الكلام عن الاعتداد بتلكم الشروط، والتنويه بها واعتبارها في المعجزة التي يأتي بها النبي من ربه ﷻ، والتي منها:

---

(1)–كتاب التمهيد، للباقلاني، (ص: 133-134).

(2) – المرجع نفسه، (ص: 137-138).

الأول: التحدي:

من الشروط التي يكاد يطبق عليها علماء الإعجاز في المعجزة شرط التحدي بها للأقوام الذين يبعث فيم النبي، ولم تتخلف آية القرآن عن ذلك، يقول الجرجاني: « وهذه جمل من القول في بيان عجز العرب حين تحدوا إلى معارضة القرآن، وإذعانهم وعلمهم أن الذي سمعوه فائتٌ للقوى البشرية، ومتجاوزٌ للذي يتّسع له ذرع المخلوقين»[1]

وقال في وصف التحدي الذي تحدى به النبي ﷺ العرب، أنه قال له: « وحجتي أن الله تعالى قد أنزل علي كتابًا عربيًا مبينًا، تعرفون ألفاظه، وتفهمون معانيه، إلا أنكم لا تقدرون على أن تأتوا بمثله، ولا بعشر سور منه، ولا بسورة واحدة، ولو جهدتم جهدكم، واجتمع معكم الجن والإنس»[2].

فمظهر التحدي وإن خفي في بعض معجزات الأنبياء من قبل، فإنه في القرآن الكريم، ظاهر بيّنٌ، والآيات التي دعت إليه ظاهرةٌ معروفة.

الثاني: العجز

ومن شروط التي اعتبرها علماء الإعجاز كون الآية معجوزا عن الإتيان بمثلها، ويرون أن هذا الشّرط لم ينفكَّ عنه القرآن الكريم، يقول الجرجاني: « وأما أن القرآن معجز، فلأنه تحدى به العرب الذين هم أهل الفصاحة فعجزوا عن الإتيان بمثله فكان معجزا»[3]

وعجز العرب عن الإتيان بمثل القرآن الذي تُحدُّوا به، أمرٌ ظاهرٌ، وإلا « لو كانوا قادرين على ذلك لما عدلوا عنه إلى قتل أنفسهم وإتلاف أموالهم في محاربته وإطفاء مقالته، لكن اللازم باطل فالملزوم كذلك.

بيان ذلك اللزوم أن يقال: أن غرضهم الأكثر من محاربته ليس إلا دفع مقالته، وقد كان الإتيان بمثل القرآن لو أمكن مع سهولة الكلام عليهم وعلو درجاتهم في الفصاحة والبلاغة كافيا في دفعه وإسكاته، فلو كانوا قادرين على دفعه من تلك الجهة مع سهولتها عليهم لما عدلوا عنها إلى الأشق الذي هو قتل النفوس في الحرب، والعلم به ضروري[4].

---

(1) – الرسالة الشافية، للجرجاني، (ص: 575).

(2) – المصدر السابق: (ص: 579)

(3)– قواعد المرام في علم الكلام، ميثم البحراني، (ص 128).

(4)– المرجع نفسه، (ص 129).

فالعجز في الإتيان بمثل القرآن الكريم، مثله مثلُ العجز عن الإتيان بكلٍّ آية أنزلها الله على نبي من أنبياءه، فالأمرُ في ذلك كله بيِّنٌ غير خفي.

الفرع الرابع: وجوه الإعجاز

لاشك أن استكشاف وجوه إعجاز القرآن، من أهم مباحث علم إعجاز القرآن، بل كان أكثر العلماء إنما يقصدون إلى إجلاء وجوه الإعجاز، بقدر الطاقة التي يصلون إليها، والعلم الذي يتأتى لهم، وقد شارك علماء الكلام بدورهم في هذا المبحث، فمن ذلكم:

الأول: بيان الإعجاز بإقامة المقارنة بين صنوف الكلام والقرآن الكريم:

من الأشياء التي تُظهر فضل الشيء على غيره، عقد المقارنة بينهما، فإنه سبيلٌ إلى إظهار التفاضل بين تلك الأشياء، والقرآن الكريم إذا ما قورن بغيره من الكلام، كائنا ما كان ذلك الكلام أو المتكلم، فإن مزيته تظهر بجلاء، ونجد الباقلاني، يشير إلى هذا المسلك وبين أهميته بقوله:« ونصف ما يجب وصفه من القول في تنزيل متصرفات الخطاب وترتيب وجوه الكلام وما تختلف فيه طرق البلاغة وتتفاوت من جهته سبل البراعة، وما يشتبه له ظاهر الفصاحة ويختلف فيه المختلفون من أهل صناعة العربية والمعرفة بلسان العرب في أصل الوضع، ثم ما اختلفت به مذاهب مستعمليه في فنون ما ينقسم إليه الكلام من شعر ورسائل وخطب وغير ذلك من مجارى الخطاب وإن كانت هذه الوجوه الثلاثة أصول ما يبين فيه التفاصح وتقصد فيه البلاغة، لأن هذه أمورٌ يتعمَّل لها في الأغلب ولا يتجوز فيها، ثم من بعد هذا الكلام الدائر في محاوراتهم والتفاوت فيه أكثر لأن التعمُّل فيه أقل إلا من غزارة طبع أو فطانة تصنع وتكلف، ونشير إلى ما يجب في كل واحد من هذه الطرق ليُعرف عظيم محلِّ القرآن، وليعلم ارتفاعه عن مواقع هذه الوجوه وتجاوزه الحد الذي يصح أو يجوز أن يوازن بينه وبينها أو يشتبه ذلك على متأمل»[1].

وهذا الأمر الذي جعل الباقلاني نفسه يعمد إلى أعظم الكلام العربي الذي هو الشعر، وإلى أحسن ما قيل منه وهو المعلقات الجاهلية، وإلى أشعر أولئك الشُّعراء الذي هو امرئ القيس، ثم يثبت ضحالة البلاغة في ذلك كله بالنسبة إلى بلاغة القرآن الكريم.

([1]) – إعجاز القرآن، لأبي بكر الباقلاني، (ص: 6-7)

الثاني: البحث عن سبب إعجاز القرآن:

بعد أن ذكر علماء الإعجاز وجوها متعددة في إعجاز القرآن الكريم، اختلفوا في السبب الذي كان به القرآن معجزاً، يقول البحراني، متحدثا عن ذلك، « اختلف المتكلمون في سبب إعجاز القرآن:

فذهب المعتزلة إلى أن سببه فصاحته البالغة

وذهب الجويني إلى أنه الفصاحة والأسلوب، ولذلك كان في شعر العرب وخطبهم ما فصاحته كفصاحة القرآن دون أسلوبه، وكان في كلامهم ما أسلوبه كأسلوب القرآن دون فصاحته ككلام مسيلمة.

وذهب المرتضى رحمه الله إلى أن الله تعالى صرف العرب عن معارضته، وهذا الصرف يحتمل أن يكون لسلب العلوم التي يتمكنون بها من المعارضة، ونقل عنه أنه اختار هذا الاحتمال الأخير.

والحق أن وجه الإعجاز هو مجموع الأمور الثلاثة، وهي: الفصاحة البالغة، والأسلوب، والاشتمال على العلوم الشريفة، فأما كلام العرب فيوجد في بعضه الفصاحة البالغة، وأما الأسلوب فنادرٌ، وممكن عند التكلف، وقلّما يمكن اجتماعهما لأن تكلف الأسلوب يُذهب الفصاحة»[1].

والحاصل: أن كلامهم قد يوجد فيه ما يناسب بعض القرآن في الفصاحة، وهو في مناسبته له في الأسلوب أبعد، فإن القرآن شيء مختلفٌ عن الأساليب التي كانت تعرفها العرب، وتتكلم وتكتب في مضاميرها

الثالث: وجوه لم يرتضيها بعض علماء الكلام لإعجاز القرآن الكريم

لم يزل علماء الإعجاز يُعملون أذهانهم في استخراج وجوهٍ لائقة تكون من مظاهر الإعجاز في القرآن الكريم، إلا أنهم لم يرتضوا كل ما ذُكر في أنه وجهٌ من وجوه الإعجاز، فمن ذلكم:

([1])– قواعد المرام في علم الكلام، ميثم البحراني، (ص 132-133).

أولا: الإعجاز بوجوه البديع:

فهذا الباقلاني لم يرتضِ القول بالإعجاز بوجوه البديع، لـمَّا عدّها بعضهم وجها إعجازيا، فقال: « وقد قدر مقدِّرون أنه يمكن استفادة إعجاز القرآن من هذه الأبواب التي نقلناها وأن ذلك مما يمكن الاستدلال بـه عليه.

وليس كذلك عندنا لأن هذه الوجوه إذا وقع التنبيه عليها أمكن التوصل إليها بالتدريب والتعود والتصنع لها، وذلك كالشعر الذي إذا عرف الإنسان طريقةُ صحَّ منه التعمُّل له وأمكنه نظمه، والوجوه التي تقول إن إعجاز القرآن يمكن أن يُعلم منها، فليس مما يقدر البشر على التصنع له والتوصل إليه بحال»(1)

ويرجع إلى القضية نفسها في موضع آخر، فيقول: « ثم رجع الكلام بنا إلى ما قدمناه من أنه لا سبيل إلى معرفة إعجاز القران من البديع الذي اِدَّعوه في الشِّعر ووصفُوه فِيهِ، **وذَلكَ أنَّ هذا الفنَّ ليس فيه ما يخرق العادة ويخرج عن العرف** بل يمكن استدراكه بالتعلم والتدرب به والتصنع له كقول الشعر ورصف الخطب وصناعة الرسالة والحذق في البلاغة، وله طريق يسلك ووجه يقصد وسلم يرتقى فيه إليه، ومثال قد يقع طالبه عليه، فربَّ إنسانٍ يتعوَّد أن ينظم جميع كلامه شعرا وآخر يتعود أن يكون جميع خطابه سجعا أو صنعة متصلة لا يسقط من كلامه حرفا وقد يتأتى له لما قد تعوده ....

فأما شأو نظم القرآن فليس له مثال يحتذى عليه ولا إمام يقتدى به ولا يصح وقوع مثله اتفاقا.

ومع ذلك فإنه لم يُنكر أن ذلك له أثر في البراعة والبلاغة، إذا كان في مقامه المناسب له، فقال: « ولكن قد يمكن أن يقال في البديع الذي حكيناه وأضفناه إليهم إن ذلك باب من أبواب البراعة، وجنس من أجناس البلاغة وإنه لا ينفك القرآن عن فنٍّ من فُنُون بلاغاتهم ولا وجهٍ من وجوهِ فصاحاتهم، وإذا أورد هذا المورد ووضع هذا الموضع - كان جديراً ، وإنما لم نطلق القول إطلاقا لأنا لا نجعل الإعجاز متعلقا بهذه الوجوه الخاصة ووقفا عليها ومضافا إليها، وإن

(1) – إعجاز القرآن، للباقلاني، (ص: 107)

صحَّ أن تكون هذه الوجوه مؤثرةً في الجملة آخذةً بحظّها من الحسن والبهجة متى وقعت في الكلام على غير وجه التكلف المستشبع، والتعمُّل المستبشع»[1].

ولعل الذي حمل الباقلاني على عدم الاعتداد بالإعجاز بالوجوه البلاغية، كونها واقعةً في الغالب على وجهٍ من التكلف والتمحِّل والتعمُّل، ولا شك أن القرآن منزهٌ عن ذلك كله، لذلك فبديع القرآن، مجانبٌ لما عليه البديع في غير القرآن الكريم، فلا داعي إذاً لترك الاعتداد به لأجل ما في غيره من الآفات، التي هو منزهٌ عنها.

ثانيا: الإعجاز بالصَّرفة.

من قضايا الإعجاز الأولى ، والتي كانت الطريق إلى إثراء درس إعجاز القرآن، قضية الصّرفة، وإنما نشأت الصّرفة عند أهل الكلام – كما هو معروفٌ، وقد سبق له ذكرٌ-، إلا أن أهل الكلام في الصَّرفة مذاهب قددا.

وقد كان الذي أظهر الصرفة والقول بها في إعجاز القرآن الكريم أبو اسحاق النظام، وكان أول من ردها عليها تلميذه أبو عمر الجاحظ، الذي قال في مقدمة كتابه في خلق القرآن: « فكتبت لك كتاباً أجهدت فيه نفسي وبلغت منه أقصى ما يمكن مثلي في الاحتجاج للقرآن والرد على كل طعان؛ فلم أدع فيه مسألة لرافضي ولا لحديثي ولا لحشوي ولا لكافر مباد ولا لمنافق مقموع ولا لأصحاب النظام ولمن نجم بعد النظام ممن يزعم أن القرآن خلق وليس تأليفه بحجة وأنه تنزيل وليس ببرهان ولا دلالة»[2].

وإنما لم يرتضِ جمهرة من علماء الكلام القول بالصّرفة على أنها وجهٌ من وجوهِ الإعجاز لما يلزم من القول بها من لوازم باطلة، وقف الجرجاني على بعضها في قوله: « لأن في القول بها على غير هذا الوجه أمورًا شنيعة، يبعد أن يرتكبها العاقل ويدخل فيها. وذاك أنه يلزم عليه:

* أن تكون العرب قد تراجعت حالها في البلاغة والبيان، وفي جودة النظم وشرف اللَّفظ

*وأن يكونوا قد نقصوا في قرائحهم وأذهانهم، وعدموا الكثير مما كانوا يستطيعون

*وأن تكون أشعارهم التي قالوها، والخطب التي قاموا بها، وكل كلام احتفلوا فيه، من بعد أن أوحي إلى النبي ﷺ، وتحدوا إلى معارضه القرآن قاصرة عما سمع منهم من قبل ذلك

([1]) – المرجع نفسه، (ص:111- 112)

(2) – خلق القرآن، رسائل الجاحظ، تحقيق: عبد السلام هارون، (ج3/ ص: 287)

القصور الشديد، وأن يكون قد ضاق عليهم في الجملة مجال قد كان يتسع لهم، ونضبت عنهم مواد قد كانت تغزُر، وخذلتهم قُوى قد كانوا يصولون بها، وأن تكون أشعار شعراء النبي ﷺ التي قالوها في مدحه عليه السلام وفي الرّد على المشركين ناقصةً متقاصرةً عن شعرهم في الجاهلية»[1]

كما يلزم على القول بها « إذا جعلناهم لا يعلمون أن كلامهم الذي يتكلمون به اليوم قاصرٌ عن الذي تكلموا به أمسِ، وأن قد امتنع عليهم في النظم شيء كان يواتيهم، وسلبوا منه معنى قد كان لهم حاصلًا؛ استحال أن يعلموا أن لنظم القرآن فضلًا على كلامهم الذي يسمع منهم، وعلى النظم الواهن الباقي لهم، ذلك لأن عذر القائل بالصرفة، أن كلامهم قبل أن تحدوا قد كان مثل نظم القرآن، وموازيًا له، وفي مبلغه من الفصاحة»[2].

كما يحتمل « أنه يلزمهم أن يقضوا في النبي ﷺ بما قضوا في العرب، من دخول النقص على فصاحتهم، وتراجع الحال بهم في البيان، وأن تكون النبوة قد أوجبت أن يمنع شطرًا من بيانه، وكثيرا مما عرف له قبلها من شرف اللفظ وحسن النظم»[3].

« ومما يلزمهم على أصل المقالة أنه كان ينبغي لهم لو أن العرب كانت منعت منزلة من الفصاحة قد كانوا عليها أن يعرفوا ذلك من أنفسهم، كما قدمت، ولو عرفوا لكان يكون قد جاء عنهم ذكر ذلك، ولكانوا قد قالوا للنبي ﷺ: "إنا كنا نستطيع قبل هذا الذي جئتنا به، ولكنك قد سحرتنا، واحتلت في شيء حال بيننا وبينه"

.... ففي أن لم يرو ولم يذكر أنه كان منهم قول في هذا المعنى، لا ما قل ولا ما كثر، دليل على أنه قول فاسد، ورأى ليس من آراء ذوى التحصيل...

هذا، وفي سياق آية التحدي ما يدل على فساد هذا القول، وذلك أنه لا يقال عن الشيء منعه الإنسان بعد القدرة عليه، وبعد أن كان يكثر مثله منه: "إني قد جئتكم بما لا تقدرون على مثله ولو احتشدتم له، ودعوتم الإنسان والجن إلى نصرتكم فيه"، وإنما يقال: "إني أعطيت أن أحول بينكم وبين كلام كنتم تستطيعون وأمنعكم إياه، وأن أقحمكم عن القول البليغ، وأعدمكم اللفظ الشريف...

---

(1) – الرسالة الشافية، للجرجاني، (ص: 611)

(2) – المرجع السابق، (ص: 612-613)

(3) – الرسالة الشافية، للجرجاني، (ص: 613-616).

وجملة الأمر أن علم النبوة عندئذ والبرهان، إنما كان يكون في الصرف والمنع عن الإتيان بمثل نظم القرآن لا في نفس النظم.

وإذا كان كذلك، فينبغي إذا تعجب المتعجب وأكبر المكبر، أن يقصد بتعجبه وإكباره إلى المنع الذي فيه الآية والبرهان، لا إلى الممنوع منه. وهذا واضح لا يشكل»[1]

قال: « واعلم أنهم بتمحُّلهم هذا قد وقعوا في أمر يوهي قاعدتهم، ويقدح في أصل مقالتهم، فقد نظروا لأنفسهم من وجه وتركوا النظر لها من آخر، وذاك أن من حق المنع إذا جعل آية وبرهانًا، ولا سيما للنبوة، أن يكون في أظهر الأمور، وأكثرها وجودًا، وأسهلها على الناس، وأخلقها بأن تبين لكل راء وسامع أنه قد كان منعٌ، لا أن يكون المنع من خفي لا يعرف إلا بالنظر، وإلا بعد الفكر، ومن شيء لم يوجد قط ولم يعهد، وإنما يظن ظنًا أنه يجوز أن يكون، وأن له مدخلًا ي الإمكان إذا اجتهد المجتهد»[2]

وبهذا نعلم أن أكثر المتكلمين على ردّ القول بالصرفة على أنها وجهٌ من وجوه الإعجاز في القرآن الكريم، وأنه لا يعني القول بها عند عدد منهم أنها شيء معتبر.

(1) – المرجع نفسه، (ص: 619)

(2) – المرجع نفسه، (ص: 620-621).

المطلب الثالث: تقويم كتب علم الكلام من حيث المشاركة في باقي العلوم.

لما كانت كتب علم الكلام، ميدانا فسيحا للمجادلة والمناظرة احتاج أصحابها إلى المشاركة في علوم شتى تعترض لهم في ثنايا تلكم المناظرات، ومنها:

الفرع الأول: علم الكلام وعلم النقد الأدبي:

ولعل الذي اضطر علماء الكلام إلى ذكر مباحث كثيرة متعلقة بالنقد، أنهم في إظهار إعجاز القرآن الكريم، والوقوف على تفوقه البياني احتاجوا إلى أن يقارنوه أبلغ الكلام وأفصحه مما تكلم به البشر، وأصدق مثال على ذلك شعر العرب الذي هو علمهم وديوانهم وصنعتهم التي لم يُغلبوا عليها، وبعقد مقارنات بين القرآن والشعر سلكوا مسالك نقدية، تجلت من خلال:

الأول: تفاضل الكلام، وأسبابه:

لم يزل الناس يعلمون أن الكلام يتفاضل، كان ذلك منذ العصر الجاهلي لما كانت الأسواق الكلامية ميدانا يتبارى فيه الشعراء، ولربما أقاموا فيهم من يحكم بين شاعر وشاعر، فيقدم ويؤخر، ويستحسن ويستقبح ويستدرك وقصص ذلك متكاثرة تطلب من دواوين الأدب وخزائنه، وكان احتكامهم إنما هو للأذواق السليمة التي كانوا عليها دون الرجوع إلى قوانين وأصول علمية تعليلية.

فلما دونت العلوم كانت تلكم الحوادث والملاحظات مادة خاما لتأصيل العلوم، وكان علماء الكلام بغض النظر عن عنايتهم بالبلاغة، كانوا إذا عرضت لهم مسائل في مجال الحديث عن إعجاز القرآن وبلاغته لربما أوردوا ضوابط تتعلق بتمييز الكلام ورد تفاضل الكلام إليها، كما صنع الجرجاني لما ردّ تفضي الكلام وتقديمه إلى أحد ثلاثة أمور:

الأول: ما يسبق إليه الشاعر من معنى غريب يستخرجه، والثاني: الوقوف على استعارة بعيدة لم يتفطن لها غيره، والثالث: أن يسلك طريقة في النظم يخترعها.

يقول الجرجاني: « الفضل يجب والتقديم، إما لمعنى غريب يسبق إليه الشاعر فيستخرجه، أو استعارة بعيدة. يفطن لها، أو لطريقة في النظم يخترعها»[1].

([1]) – الرسالة الشافية، للجرجاني، (ص: 597)

ثم إن صنعة التمييز بين كلام وغيره، صنعة لا تتأتّى لكل أحد، وإنما هي لأفراد الناس، :« وإنما يميّز من يميز ويعرف من يعرف والحكم في ذلك صعب شديد والفصل فيه شأو بعيد، وقد قلَّ من يميّز أصناف الكلام، فقد حكى عن طبقة أبي عبيدة وخلف الأحمر وغيرهما في زمانهما أنهم قالوا ذهب من يعرف نقد الشعر»(1).

ولصعوبة هذه الصنعة لم يزل الناس يختلفون في تقديم شاعر على شاعر أو تأخيره كما يقول الجرجاني: « ثم وجدنا الأخبار تدل على خلاف لم يزل بين الناس فيه وفي غيره، أيٌّ أشعر؟ وعلى أيٍّ لم يستقر الأمر في تقديمه قرارًا برفع الشك»(2).

وربما حكوا بعض الكلمات النقدية عمن تقدم من الناس العارفين بالأشعار، ويجعلونها كالمعايير المقربة، لمعرفة تفاضل الكلام، كما جاء عن علي بن أبي طالب ﷺ: « كل شعرائكم محسن، ولو جمعهم، زمان واحد وغاية ومذهب واحد في القول، لعلمنا أيهم أسبق إلى ذلك، وكلهم قد أصاب الذي أراد وأحسن فيه، وإن يكن أحدهم أفضل، فالذي لم يقل رغبة ولا رهبة: امرؤ القيس بن حجر، كان أصحهم بادرة، وأجودهم نادرة»(3).

قول عمر بن الخطاب ﷺ: « وعن ابن عباس أنه قال: سامرت عمر بن الخطاب ﷺ ذات ليلة فقال: أنشدني لشاعر الشُّعراء، فقلت: ومن شاعر الشعراء؟ قال: زهير، قلت: يا أمير المؤمنين، ولم كان شاعر الشعراء؟ قال: لأنه لا يتتبع وحشي الكلام في شعره، ولا يعاظل بين القول»(4).

الثاني: معايير في التفاضل في الكلام

لم يبق الناس بعد تدوين العلوم وفساد الملكات، يحتكمون في الكلام إلى مجرد الذوق، بل وضعوا لذلك معايير في ضوئها تعرف قيمة الكلام، وتوزن فصاحته، من ذلك ما ذكره الباقلاني في حكمه على اختيارات أبي التمام في حماسته، في قوله: « والأعدل في الاختيار ما سلكه أبو

---

(1) – إعجاز القرآن، للباقلاني، (ص: 119-120)

(2) – الرسالة الشافية، للجرجاني، (ص: 592)، يقول ابن عبد ربه الأندلسي في هذا المقام: « وهذا ما لا تُدرك غايته، ولا يُوقف على حده، والشعر لا يفوت به أحد، ولا يأتي له بديع إلا أتى ما هو أبدعُ منه»، العقد الفريد لابن عبد ربه الأندلسي، (ج6/ ص: 121).

(3) – الأغاني، للأصفهاني، (ج 16/ ص: 406-407)

(4) – العقد الفريد، لأحمد بن محمد بن عبد ربه الأندلسي، تحقيق مفيد محمد قميحة، دار الكتب العلمية بيروت- لبنان، الطبعة الأولى: 1404هـ/ 1983م.، (ج 6/ ص: 119).

تمام من الجنس الذي جمعه في كتاب الحماسة وما اختاره من الوحشيات وذلك أنه تنكب المستنكر الوحشي والمبتذل العامي وأتى بالواسطة، وهذه طريقة من ينصف في الاختيار ولا يعدل به غرض يخص؛ لأن الذين اختاروا الغريب فإنما اختاروه لغرض لهم في تفسير ما يشتبه على غيرهم، وإظهار التقدم في معرفته وعجز غيرهم عنه ولم يكن قصدهم جيد الأشعار لشيء يرجع إليها في أنفسها.

ثم يعلل حكمه بقوله عن الكلام أنه: « موضوعٌ للإبانة عن الأغراض التي في النُّفوس وإذا كان كذلك:

وجب أن يتخير من اللفظ ما كان أقرب إلى الدلالة على المراد، وأوضح في الإبانة عن المعنى المطلوب، ولم يكن مستكره المطلع على الأذن، ولا مستنكر المورد على النفس حتى يتأبى بغرابته في اللفظ عن الإفهام أو يمتنع بتعويض معناه عن الإبانة ويجب أن يتنكب ما كان عامي اللفظ مبتذل العبارة ركيك المعنى سفسافي الوضع مجتلب التأسيس على غير أصل ممهد ولا طريق موطد، وإنما فضلت العربية على غيرها **لاعتدالها في الوضع**»[1].

ومع أنه قد سبق بعض القول في ذلك في كلام الباقلاني، إلا أنه يزيدنا بيانا في المعايير التي ينبغي مراعاتها في الألفاظ التي توضع بإزاء المعاني المراد لها، « فإذا كان الكلام إنما يفيد الإبانة عن الأغراض القائمة في النفوس التي لا يمكن التوصل إليها بأنفسها وهي محتاجة إلى ما يعبر عنها فما كان **أقرب** في تصويرها **وأظهر** في كشفها للفهم الغائب عنها وكان مع ذلك **أحكم** في الإبانة عن المراد **وأشد** تحقيقا في الإيضاح عن المطلب **وأعجب** في وضعه **وأرشق** في تصرفه **وأبرع** في نظمه –؛ كان أولى وأحق بأن يكون شريفا

وقد شبَّهوا النطق بالخط والخط يحتاج مع بيانه إلى رشاقة وصحة وملاحة ولُطْف حتى يحوز الفضيلة ويجمع الكمال»[2]، فجعل للألفاظ أوصافا ينبغي للمتكلم مراعاتها في الكلام، حتى يحكم له.

([1]) – يُنظر: إعجاز القرآن للباقلاني، (ص: 117-118)

(2) – إعجاز القرآن للباقلاني، (ص: 119)

ومما يطلب في معايير اللفاظ أن يتجنب منها ما يُعاب لثقلٍ أو نحو ذلك، وقد ذكر الباقلاني ذم الثقل في اللفاظ فقال: قال الباقلاني: « وهم يذمون نحو هذا كما عابوا على أبي تمام قوله: [من الطويل]

كريم متى أمدحه أمدحه والورى ... معي ومتى ما لُمته لُمته وحدي[1]

ذكر لي الصاحب إسماعيل بن عباد انه جارى أبا الفضل بن العميد في محاسن هذه القصيدة حتى انتهى إلى هذا البيت فذكر له في أن قوله أمدحه أمدحه معيب لثقله من جهة تدارك حروف الحلق»[2].

بل نجد الباقلاني يعيب على الشعراء عنايتهم بالألفاظ دون المعاني، فيقول: « وقد بينت لك أن القوم يسلكون حفظ الألفاظ وتصنيعها دون ضبط المعاني وترتيبها ولذلك قال الله ﷻ: ﴿ وَٱلشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ ٱلْغَاوُۥنَ ﴿٢٢٤﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِى كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ ﴿٢٢٥﴾ وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ ﴿٢٢٦﴾ ﴾ الشعراء: ٢٢٤ – ٢٢٦، فأخبر سبحانه أنهم يتبعون القول حيث توجه بهم واللَّفظ كيف أطاعهم والمعاني كيف تتبع ألفاظهم وذلك خلاف ما وضع عليه الإبانة عن المقاصد بالخطاب ولذلك كان طلب الفصاحة فيه أسهل وأمكن فصار بهذا أبلغ خطابهم»[3].

كلمات في نقد الشعر:

ولما اعتنى علماء الكلام ببعض الشعر، لإظهار تفوق القرآن الكريم عليه، ساقهم ذلك إلى إبداء ملاحظات على الشعر، أوردها في مواردها، كمثل ما جعل الباقلاني، عذوبة الشعر قد تتوقف على حرف واحد في كلمة أو نقصانه، فقال: « وعذوبة الشعر تذهب بزيادة حرف أو نقصان حرف فيصير إلى الكزازة وتعود ملاحته بذلك ملوحة وفصاحته عِيًّا وبراعته تكلفا وسلاسته تعسفا وملاسته تلويا وتعقدا»[4]

(1) – ديوان أبي تمام بشرح الخطيب التبريزي، تحقيق محمد عبده عزّام، دار المعارف القاهرة– مصر، الطبعة الرابعة: 1983م، (ج2/ ص: 116)، من قصيدة يمدح فيها أبا الغيث الرافقي، مطلعها :

شهدتُ لقد أقوتْ مغانيكمُ بعدي ... وَمَحَّتْ كما محَّتْ وشائعُ من بُرِدِ

(2)– إعجاز القرآن للباقلاني، (ص:226).

(3) – المرجع نفسه، (ص:226).

(4) – إعجاز القرآن للباقلاني، (ص:220).

كما عاب من الشعر ما كان منه البيت متوقفا على غيره، وأن المحمود هو البيت التام بنفسه من غير حاجته إلى غيره، فذكر أن النقَّادَ: « وهم يعيبون وقوف البيت على غيره ويرون أن البيت التام هو المحمود والمصراع التام بنفسه – بحيث لا يقف على المصراع الآخر – أفضل وأتم وأحسن.

ومما عابوه على الشعراء كون ما يأتون به من التشبيهات والاستعارات ونحو ذلك مكررا، يقول الباقلاني: « فأنت تعلم أن التشبيه بالبدر والغصن والدعص، أمر منقول متداول، ولا فضيلة في التشبيه بنحو...، ولا شيء يفوت قول الشعراء في العذل، فإن ذلك جملهم الذلول، وقولهم المكرر المقول»[1]

كما أشار الباقلاني إلى كون الاقتباس من القرآن للشعر أمرٌ ممجوجٌ مكروهٌ، لكونه يقع متمايزا عن غيره لا محالة، يقول: « **ولولا ما أكره من تضمين القرآن في الشعر** لأنشدتك ألفاظا وقعت مضمنة لتعلم كيف تلوح عليه وكيف ترى بهجتها في أثنائه وكيف تمتاز منه حتى أنه لو تأمله من لم يقرأ القرآن لتبين انه أجنبي من الكلام الذي تضمنه والباب الذي توسطه وأنكر مكانه واستكبر موضعه، ثم تناسبها في البلاغة والإبداع وتماثلها في السلاسة والإغراب ثم انفرادها بذلك الأسلوب وتخصصها بذلك الترتيب»[2].

(1) – يُنظر: المرجع نفسه، (ص: 223-225).

(2) – المرجع نفسه، (ص:205).

الفرع الثاني: علم الكلام والرَّدُّ على الشبهات:

من الأمور المهمة التي عني بها علماء علم الكلام، كشف شبهات الزنادقة والمشككين في آيات الأنبياء ﷺ، عموما، والقرآن الكريم على وجه الخصوص، ولعله من المتأكد أن يُقام مطلب لبحث أهم الشبهات التي عالجها علماء الكلام وأجابوا عليها، يقول الجرجاني عن خطر الشُّبهة في أصل الدِّين: « وإذا كانت الشُّبهة في أصل الدين، كانت كالدَّاء الذي يخشى منه على الروح، ويخاف منه على النفس، فلا يستقل قليله، ولا يتهاون باليسير منه، ولا يتوهم مكان حركة له إلا استقصى النظر فيه، وأعيد الكَيُّ على نواحيه، وكالحيوان ذي السمِّ يعاد الحجر على رأسه، ما دام يُرى به حسٌّ وإن قل»[1]، وسأجعل الشبهات في إعجاز القرآن في كتب علم الكلام، على قسمين:

القسم الأول: شبهات في البلاغة القرآنية

القسم الثاني: شبهات في مجالات أخرى.

الفرع الأول: شبهات في البلاغة القرآنية

من أهمِّ مظاهر إعجاز القرآن الكريم، إعجازه من جهة بلاغته التي بلغت من الكمال، أمراً جعل العرب قاطبة تذعن لبلاغته، فأقرت بذلك ولم تتنكر له، إلا ما كان من بعض المكابرين الذين: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا قَالُوا۟ قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَآءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَٰذَآ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣١﴾﴾ الأنفال: ٣١، وقد ورث هذا الضلال بعض الزنادقة، فأرادوا أن يطعنوا على القرآن الكريم من جهة بلاغته، فأوردوا من الشبه والاعتراضات ما طلبوا منه الإزراء ببلاغة القرآن الكريم، ومن أهم تلكم الشبه:

أولا: شبهة التكرار في القرآن الكريم

من الشبهات القديمة الحديثة التي يُطعن بها على القرآن الكريم، شبهةُ وجود التكرار في القرآن، والتي لا يزال يعترض بها من يعترض من الزنادقة بحجة أنها تخالف البيان والبلاغة التي وُصف بها القرآن، وهي في حقيقة الأمر حجة على أصحابها لا حجة لهم.

[1] – الرسالة الشافية، للجرجاني، (ص: 597)

وقبل الحديث عن موقف علماء الكلام في دفع هذه الشبهة عن القرآن الكريم، يحسن ذكر شيءٍ يتعلق ببيان التكرار وبعض المباحث المتعلقة بها

ذكر **السيوطي** في النوع السادس والخمسين: في الإيجاز والإطناب، فيما يتعلق بأنواع الإطناب، قال: « **التَّكْرِير**: وَهُوَ أَبْلَغُ مِنَ التَّأْكِيدِ وَهُوَ مِنْ مَحَاسِنِ الْفَصَاحَةِ خِلَافًا لِبَعْضِ مَنْ غَلِطَ، وَلَهُ فَوَائِدُ»[1]، ثم ذكرها عدد منها أشياء بأمثلتها من القرآن الكريم، فأورد أوجها من التكرار في القرآن الكريم، **منها**: **القصص**، فقال: « وَمِنْ ذَلِكَ تَكْرِيرُ الْقِصَصِ كَقِصَّةِ آدَمَ وَمُوسَى وَنُوحٍ وَغَيْرِهِمْ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ قَالَ بَعْضُهُمْ ذَكَرَ اللَّهُ مُوسَى فِي مِائَةٍ وَعِشْرِينَ مَوْضِعًا مِنْ كِتَابِهِ»[2]، ثم نقل عن ابن جماعة فوائد القصص، فقال:

« **مِنْهَا**: أَنَّ فِي كُلِّ مَوْضِعٍ زِيَادَةَ شَيْءٍ لَمْ يُذْكَرْ فِي الَّذِي قَبْلَهُ أَوْ إِبْدَالَ كَلِمَةٍ بِأُخْرَى لِنُكْتَةٍ وَهَذِهِ عَادَةُ الْبُلَغَاءِ.

وَمِنْهَا: أَنَّ الرَّجُلَ كَانَ يَسْمَعُ الْقِصَّةَ مِنَ الْقُرْآنِ ثُمَّ يَعُودُ إِلَى أَهْلِهِ ثُمَّ يُهَاجِرُ بَعْدَهُ آخَرُونَ يَحْكُونَ مَا نَزَلَ بَعْدَ صُدُورِ مَنْ تَقَدَّمَهُمْ فَلَوْلَا تَكْرَارُ الْقِصَصِ لَوَقَعَتْ قِصَّةُ مُوسَى إِلَى قَوْمٍ وَقِصَّةُ عِيسَى إِلَى قوم آخرين وَكَذَا سَائِرُ الْقِصَصِ فَأَرَادَ اللَّهُ اشْتِرَاكَ الْجَمِيعِ فِيهَا فَيَكُونُ فِيهِ إِفَادَةٌ لِقَوْمٍ وَزِيَادَةُ تَأْكِيدٍ لِآخَرِينَ.

وَمِنْهَا: أَنَّ فِي إِبْرَازِ الْكَلَامِ الْوَاحِدِ فِي فُنُونٍ كَثِيرَةٍ وَأَسَالِيبَ مُخْتَلِفَةٍ مَا لَا يَخْفَى مِنَ الْفَصَاحَةِ.

وَمِنْهَا: أَنَّ الدَّوَاعِيَ لَا تَتَوَفَّرُ عَلَى نَقْلِهَا كَتَوَفُّرِهَا عَلَى نَقْلِ الْأَحْكَامِ فَلِهَذَا كُرِّرَتِ الْقِصَصُ دُونَ الْأَحْكَامِ

وَمِنْهَا: أَنَّهُ تَعَالَى أَنْزَلَ هَذَا الْقُرْآنَ وَعَجَزَ الْقَوْمُ عَنِ الْإِتْيَانِ بِمِثْلِهِ بِأَيِّ نَظْمٍ جَاءُوا ثُمَّ أَوْضَحَ الْأَمْرَ فِي عَجْزِهِمْ بِأَنْ كَرَّرَ ذِكْرَ الْقِصَّةِ فِي مَوَاضِعَ إِعْلَامًا بِأَنَّهُمْ عَاجِزُونَ عَنِ الإتيان بمثله أي بِأَيِّ نَظْمٍ جَاءُوا وَبِأَيِّ عِبَارَةٍ عَبَّرُوا.

(1) – ينظر، الإتقان في علوم القرآن، عبد الرحمن بن أبي بكر، جلال الدين السيوطي، المحقق: محمد أبو الفضل إبراهيم، الهيئة المصرية العامة للكتاب، الطبعة: 1394هـ/ 1974 م، (ج3/ص: 224، وما بعدها)

(2) – المرجع نفسه، (ج3/ ص: 230).

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

ومنها: أَنَّهُ لَمَّا تَحَدَّاهُمْ قَالَ: ﴿فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ﴾ البقرة: ٢٣، فَلَوْ ذُكِرَتِ الْقِصَّةُ فِي مَوْضِعٍ وَاحِدٍ وَاكْتُفِيَ بِهَا لَقَالَ الْعَرَبِيُّ ائْتُونَا أَنْتُمْ بِسُورَةٍ مَنْ مِثْلِهِ فأنزلها ﷻ فِي تَعْدَادِ السُّوَرِ دَفْعًا لِحُجَّتِهِمْ مِنْ كُلِّ وَجْهٍ.

ومنها: أن القصة لَمَّا كُرِّرَتْ كَانَ فِي أَلْفَاظِهَا فِي كُلِّ مَوْضِعٍ زِيَادَةٌ وَنُقْصَانٌ وَتَقْدِيمٌ وَتَأْخِيرٌ وَأَتَتْ عَلَى أُسْلُوبٍ غَيْرِ أُسْلُوبِ الْأُخْرَى، فَأَفَادَ ذَلِكَ ظُهُورَ الْأَمْرِ الْعَجِيبِ فِي إِخْرَاجِ الْمَعْنَى الْوَاحِدِ فِي صُوَرٍ مُتَبَايِنَةٍ فِي النظم وَجَذْبِ النُّفُوسِ إِلَى سَمَاعِهَا لِمَا جُبِلَتْ عَلَيْهِ مِنْ حُبِّ التَّنَقُّلِ فِي الْأَشْيَاءِ الْمُتَجَدِّدَةِ، وَاسْتِلْذَاذِهَا بِهَا وَإِظْهَارِ خَاصَّةِ الْقُرْآنِ حَيْثُ لَمْ يَحْصُلْ مَعَ تَكْرِيرِ ذَلِكَ فِيهِ هُجْنَةٌ فِي اللَّفْظِ وَلَا مَلَلٌ عِنْدَ سَمَاعِهِ فَبَايَنَ ذَلِكَ كَلَامَ الْمَخْلُوقِينَ»[1].

وإنما سردنا هذه الفوائد كلها في أغراض التكرار في القرآن الكريم، لأنها سيكون لها دور في الجواب على من اشتبه عليه أمرُ التكرار في القرآن، فإن الواقف على هذه الفوائد يدرك السرَّ الذي من أجله كان التكرار في القرآن، وليست هذه الفوائد هي الغاية فلا يزاد عليها، وإنما هي غيضٌ من فيضٍ.

ولكن من أهمِّ الفوائد أن القرآن، لما كان بلسان عربي مبين، فإنه ما فتئ يجري في عوائد العرب في الكلام على وجه هو الغاية ومرتبة هي الإعجاز الذي لا قبل للبشر بإدراكه عربهم وعجمهم، يقول **القرطبي** مؤكداً هذه الفائدة: « قَالَ أَكْثَرُ أَهْلِ الْمَعَانِي: نَزَلَ الْقُرْآنُ بِلِسَانِ الْعَرَبِ، وَمِنْ مَذَاهِبِهِمُ التَّكْرَارُ إِرَادَةَ التَّأْكِيدِ وَالْإِفْهَامِ، كَمَا أَنَّ مِنْ مَذَاهِبِهِمُ الِاخْتِصَارَ إِرَادَةَ التَّخْفِيفِ وَالْإِيجَازِ، لِأَنَّ خُرُوجَ الْخَطِيبِ وَالْمُتَكَلِّمِ من شي إلى شيء أولى من اقتصاره في المقام على شيء وَاحِدٍ، »[2].

وأما عن علماء الكلام، فهذا **الباقلاني** يتحدث عن ظاهرة التكرار في القرآن الكريم، ويمثل لها بأشهر ما في القرآن، من قصة موسى عليه السلام، فقال: « ثم وصل بذلك قصة موسى عليه السلام وأنه رأى نارا، فقال لأهله امكثوا، ﴿إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا سَـَٔاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ ءَاتِيكُم بِشِهَابٍ قَبَسٍ لَّعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ۝٧﴾ النمل: ٧، وقال في سورة طه في هذه القصة، ﴿لَّعَلِّىٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجِدُ عَلَى ٱلنَّارِ هُدًى ۝١٠﴾ طه: ١٠، في موضع: ﴿لَّعَلِّىٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ۝٢٩﴾ القصص:

(1) – الإتقان في علوم القرآن، للسيوطي، (ج3/ ص: 230-231).

(2) – تفسير القرطبي، (ج20/ص: 226).

٢٩، قد تصرف في وجوه وأتى بذكر القصة على ضروب ليعلمهم عجزهم عن جميع طرق ذلك ولهذا قال: ﴿فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِ﴾ الطور: ٣٤، ليكون أبلغ في تعجيزهم وأظهر للحجة عليهم، وكل كلمة من هذه الكلمات وإن أنبأت عن قصة فهي بليغة بنفسها تامة في معناها»[1].

ولذلك من تطلَّب في الفروق بين ألفاظ القصة الواحدة يقف على وبحث عما تحت ذلك من الحكم يقف على أشياء تحير العقول، من ذلكم ما نبه له الباقلاني بقوله: « فمتى تهيأ لبليغ أن يتصرف في قدر آية في أشياء مختلفة فيجعلها مؤتلفة من غير أن يبين على كلامه إعياء الخروج والتنقل أو يظهر على خطابه آثار التكلف والتعمل، وأحسب أنه لا يسلم من هذا - ومحال أن يسلم منه - متى يظفر بمثل تلك الكلمات الأفراد والألفاظ الأعلام حتى يجمع بينها فيجلو فيها فقرة من كلامه وقطعة من قوله ولو اتفق له في أحرف معدودة وأسطر قليلة فمتى يتفق له في قدر ما نقول إنه من القرآن معجز»[2].

وبهذا يتبين أن الذين اعترضوا على التكرار في القرآن، كان الداعي إلى قولهم هذا أن التكرار من قبيل الإطناب في القول، والبلاغة خلاف الإطناب، فيقال حينها إن: « الإيجاز أو الإطناب في القرآن هو مجاراةٌ لما يقتضيه السياق، ومقتضى الحال، إذ إن مراعاة مقتضى الحال هي مهمّة علم المعاني»[3]، فعُلم بهذا أن الإطناب في ما يقتضي له الحال إطناباً، بلاغةٌ.

يقول عمر باحاذق عن قصة موسى عليه السلام: « وهي وإن تكررت في مواطن كثيرة في القرآن إلا أنها تمثل الصراع بين الحق والباطل، وعلى هذا فإن التكرار يشبِّبُ هذا الصراع، ويؤكد نهاية الظلم، وبذلك ترسخ هذه الغاية في النفس فتكون أدعى إلى التصديق والامتثال، وفي هذا ما فيه من إيقاظ الهمم ودفع العقول والنفوس إلى التأمل والتدبر، ففرق كبير بين الشيء الذي يحكي مرة وبين الشيء الذي يكثر تكراره»[4].

([1]) – إعجاز القرآن للباقلاني، (ص:189).

([2]) – المرجع نفسه، (ص:190-191).

(3) – أسلوب القرآن الكريم بين الهداية والإعجاز البياني، لمحمد عمر باحاذق، دار المأمون للتراث، دمشق، الطبعة الأولى: 1414هـ/1994م، (ص: 270).

(4) – المصدر السابق، (ص: 280).

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

الفرع الثاني: شبهة تخلف البلاغة في آيات الأحكام في القرآن

ومما طعن به الطاعنون في بلاغة القرآن، قولهم أن البلاغة في القرآن لا تنسحب على جميع آياته، بل إننا نجد آيات الأحكام في أكثر أحوالها لا تتميز بالبلاغة التي في غيرها من آيات الأخبار ونحوها.

وقد أورد الباقلاني هذه الشبهة، وصاغها بلفظه قائلا: « فإن قال قائل فقد نجد في آيات من القرآن ما يكون نظمه بخلاف ما وصفت، ولا تتميز الكلمات بوجه البراعة، وإنما تكون البراعة عندك منه في مقدار يزيد على الكلمات المفردة وحد يتجاوز حد الألفاظ المستندة وإن كان الأكثر على ما وصفته به»[1]

فلما أورد الباقلاني هذه الشبهة عن أصحابها اجتهد في ردها: « نحن نعلم أن قوله: ﴿ حُرِّمَتۡ عَلَيۡكُمۡ أُمَّهَٰتُكُمۡ وَبَنَاتُكُمۡ وَأَخَوَٰتُكُمۡ وَعَمَّٰتُكُمۡ وَخَٰلَٰتُكُمۡ ﴾ النساء: ٢٣..آخر الآية –، ليس من القبيل الذي يمكن إظهار البراعة فيه وإبانة الفصاحة عليه وذاك يجري عندنا مجرى ما يحتاج إلى ذكره من الأسماء والألقاب، فلا يمكن إظهار البلاغة فيه فطلبها في نحو هذا ضرب من الجهالة بل الذي يعتبر في نحو ذلك تنزيل الخطاب وظهور الحكمة في الترتيب والمعنى وذلك حاصل في هذه الآية – إن تأملت...

فلم تنفك هذه الآية من الحِكم التي تخلّف حكمة الإعجاز في النظم والتأليف والفائدة التي تنوب مناب العدول عن البراعة في وجه الترصيف...، والآيات الأحكاميات التي لا بد فيها من أمر البلاغة يعتبر فيها من الألفاظ ما يعتبر في غيرها، وقد يمكن فيها وكل موضع أمكن ذلك فقد وجد في القرآن في بابه ما ليس عليه مزيد في البلاغة وعجيب النظم ثم في جملة الآيات ما أن لم تراع البديع البليغ في الكلمات الأفراد والألفاظ الآحاد فقد تجد ذلك مع تركب الكلمتين والثلاث ويطرد ذلك في الابتداء والخروج والفواصل وما يقع بين الفاتحة والخاتمة من الواسطة أو باجتماع ذلك أو في بعض ذلك – ما يخلف الإبداع في أفراد الكلمات وإن كانت الجملة والمعظم على ما سبق الوصف فيه»[2].

---

(1) – إعجاز القرآن للباقلاني، (ص:207)

(2) – المرجع نفسه، (ص:207-209)، بتصرف

بل عدَّه من البديع عند العرب، فقال: « ومن البديع عندهم: **التكرار** كقول الشاعر: [مجزوء الكامل]

هلاّ سألت جموعَ كِنْ * دَةَ يومَ ولّوا أين أينا؟[1]

وكقول الآخر: [من: المتقارب]

وكانت فَزارة تَصلى بنا * فأولى فزارة أولى فزارا[2]

ونظيره من القرآن كثير، كقوله ﷻ: ﴿فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ۝٥ إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ۝٦﴾ الشرح: 5–6، وكالتكرار في قوله: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ۝١﴾ الكافرون: ١، وهذا فيه معنى زائد على التكرار، لأنه يفيد الإخبار عن الغيب»[3].

فما دام التَّكرار من ألوان البديع عند العرب، فلا غرْوَ أن يكون في القرآن منه، لأنه نزل بلسانٍ عربيٍّ مبينٍ، ثم إن وراء التكرار فوائد أخر كما ذكر في سورة الكافرون، فإن الحاصل فيها نفي عبادتهم لآلهتم في الزمنة الثلاثة: الحال، والماضي، والمستقبل.

وهذه سورة البقرة، من السور المدينة التي فصلت كثيراً من الأحكام الشرعية، من الإيمان والصلاة والزكاة والصوم والحج، إلى غير ذلك من أحكام المعاملات، والحدود والجنايات، ورغم ذلك كله، فإنه لم تخلُ من البلاغة والبراعة، يقول عنها الرازي: « وَمَنْ تَأَمَّلَ فِي لَطَائِفِ نَظْمِ هَذِهِ السُّورَةِ وَفِي بَدَائِعِ تَرْتِيبِهَا عَلِمَ أَنَّ الْقُرْآنَ كَمَا أَنَّهُ مُعْجِزٌ بِحَسَبِ فَصَاحَةِ أَلْفَاظِهِ وَشَرَفِ مَعَانِيهِ،

(1) – الأغاني، للأصفهاني، (ج22/ص: 88)، والأبيات لعبيد الأبرص في قصة امرؤ القيس ورفضه ديّة أبيه، وتهديده لبني أسد.

(2) – نهاية الأرب في فنون الأدب، شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب النويري، تحقيق : مفيد قمحية وجماعة، دار النشر : دار الكتب العلمية – بيروت / لبنان ، الطبعة : الأولى: 1424 هـ – 2004 م.، (ج7/ص: 117)، والبيت عوف بن عطية بن الخرع الربابي، وهو في: المفضليات، المفضليات، للمفضل الضبي، تحقيق وشرح: أحمد محمد شاكر وعبد السلام هارون، دار المعارف، القاهرة، الطبعة السادسة: د ت ط، (ص: 412).

وقد سماه النويري هناك بالتذليل، وقال عنه: وأما التذليل – وهو ضد الإشارة – فهو إعادة الألفاظ المترادفة على المعنى الواحد حتى يظهر لمن لم يفهمه ، ويتوكد عند من فهمه، فلا يصير بذلك عيبا، ينظر نهاية الأرب: (ج7/ص: 117).

(3) – إعجاز القرآن، للباقلاني، (ص: 106).

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

فَهُوَ أَيْضًا مُعْجِزٌ بِحَسَبِ تَرْتِيبِهِ وَنَظْمِ آيَاتِهِ وَلَعَلَّ الَّذِينَ قَالُوا: إِنَّهُ مُعْجِزٌ بِحَسَبِ أُسْلُوبِهِ أَرَادُوا ذَلِكَ»[1].

فتبيّن من هذا كله أن البلاغة القرآنية، وإن كانت متفاوتة، فإنها على الغاية التي لا يطمع طامعٌ في اللحاق بها ولو أوتيَ ما أوتي من البيان.

الفرع الثالث: شبهة عدم اهتداء علماء العربية للإعجاز البلاغي للقرآن:

ومن الشبه التي أوردت على بلاغة القرآن الكريم، أنه ربما زعم زاعمٌ أن القرآن لو كان حقا معجزا في بلاغته، فإن أقواماً من أهل العربية، وأرباب الفصاحة لم يعترفوا بذلك، ولا قال به كثيرٌ منهم، وهذا ما ذكره الباقلاني في قوله: « ولا يوسوس إليك الشيطان بأنه قد كان ممن هو أعلم منك بالعربية، وأدرب منك في الفصاحة، أقوام وأيُّ أقوام، ورجال وأيُّ رجال، فكذَّبوا وارتابوا.

ثم أردف الشبهة بالجواب فقال: « القوم لم يذهبوا عن الإعجاز، ولكن اختلفت أحوالهم، فكانوا بين جاهل وجاحد، وبين كافر نعمة وحاسد، وبين ذاهب عن طريق الاستدلال بالمعجزات، وحائد عن النظر في الدلالات، وناقص في باب البحث، ومختل الآلة في وجه الفحص، ومستهين بأمر الأديان، وغاو تحت حبالة الشيطان، ومقذوف بخذلان الرحمن، وأسباب الخذلان والجهالة كثيرة، ودرجات الحرمان مختلفة.

وهلاَّ جعلت بإزاء الكفرة، مثل " لبيد بن ربيعة العامري " في حسن إسلامه، و " كعب بن زهير " في صدق إيمانه، و " حسان بن ثابت " وغيرهم: من الشعراء والخطباء الذين أسلموا؟ على أن الصدر الأول ما فيهم إلا نجم زاهر، أو بحر زاخر»[2].

الفرع الرابع: شبهة أن العرب من بعدَ العرب من أهل الأعصار لم يعجزوا عن الإتيان بمثل القرآن:

لقد اعترض من اعترض على إعجاز القرآن للعرب ومن بعدهم، وأن ذلك غير واقعٍ لا للعرب ولا لمن جاء بعدهم من الناس.

---

(1) – مفاتيح الغيب (التفسير الكبير)، أبو عبد الله محمد بن عمر الرازي الملقب بفخر الدين الرازي، الناشر: دار إحياء التراث العربي – بيروت، الطبعة: الثالثة – 1420 هـ.، (ج7/ص: 106).

(2)– إعجاز القرآن للباقلاني، (ص:304-305)، بتصرف يسير.

جمعية عبد القادر للعلوم الإسلامية

أما بالنسبة للعرب، فإنه قد زعم بعضهم أنه لا سبيل إلى العلم بأن فحول شعراء العرب المقدمين من أمثال امرئ القيس والنابغة ونحوهما، أنه تُحدُّوا بالقرآن، وأنهم عجزوا عن معارضته، فهذا الجرجاني يذكر هذه الشبهة، وذلك قوله على ألسنتهم: « وإن قالوا: فإن ههنا أمرًا آخر، وهو ما علمنا من تقديمهم شعراء الجاهلية على أنفسهم، وإقرارهم لهم بالفضل، وإجماعهم في امرئ القيس وزهير والنابغة والأعشى أنهم أشعر العرب.

وإذا كان ذلك كذلك، فمن أين لنا أن نعلم أنهم لم يكونوا بحيث لو تحدوا إلى معارضة القرآن لقاموا بها واستطاعوها؟

فأجاب بقوله: « قيل لهم: هذا الفصل على ما فيه لا يقدح في موضع الحجة، وذلك أنهم كانوا، كما لا يخفى، يروون أشعار الجاهليين وخطبهم، ويعرفون مقاديرهم في الفصاحة معرفة من لا تُشكل جهات الفضل عليه، فلو كانوا يرون فيما رووا وحفظوا مزية على القرآن، أو رأوه قريبًا منه، أو بحيث يجوز أن يعارض بمثله، أو يقع لهم إذا قاسموا وازنوا أن هذا الذي تحدوا إلى معارضته لو تحدى إليه من قبلهم لاستطاعوا أن يأتوا بمثله، لكانوا يدعون ذلك ويذكرون، ولو ذكروه لذكر عنهم»[1].

كما عدَّ ذلك أنه: « ليس بأكثر من أن واحدًا زاد على جماعة معدودين في نوع من الأنواع، فكان أعلمهم أو أكتبهم أو أشعرهم، أو أحذقهم في صنعة، وأبهرهم في عمل من الأعمال. وليس ذلك من الإعجاز في شيء، إنما المعجز ما علم أنه فوق قوى البشر وقدرهم، إن كان من جنس ما يقع التفاضل فيه من جهة القدر، أو فوق علومهم، إن كان من قبيل ما يتفاضل الناس فيه بالعلم والفهم...

فمن أعظم الجهل وأشد الغباوة، أن يجعل تقدم أحدهم لأهل زمانه من باب نقض العادة، وأن يعد معد المعجز»[2]

ومن الشبه التي طُعن بها على التحدي الذي جاء به القرآن الكريم، أن ذلك إنما هو محصورٌ في أهل العصر الذي نزل فيهم القرآن دون غيرهم من الأعصار التي جاءت من بعدهم، وقد تحدث عن هذه الشبهة الباقلاني، فأورد لفظها قائلا: الباقلاني: « فإن قال قائل: قد يجوز

([1]) – الرسالة الشافية، للجرجاني، (ص: 587).

([2]) – المرجع نفسه، (ص:598- 599)

أن يكون أهل عصر النبي ﷺ، قد عجزوا عن الإتيان بمثل القرآن، وإن كان من بعدهم من أهل الإعصار لم يعجزوا»[1].

وجاوب عليها من طرقٍ عديدة: « والوجه أن يقال: فيه طرق:

منها: أنا إذا علمنا أن أهل ذلك العصر كانوا عاجزين عن الإتيان بمثله، فمن بعدهم أعجز، **لأن فصاحة أولئك** في وجوه ما كانوا يتفننون فيه من القول، مما لا يزيد عليه فصاحةُ من بعدهم، وأحسنُ أحوالِهم أنْ يُقاربُوهُم أو يُساوُوهم، فأمَّا أن يتقدموهم أو يسبقوهم، فـلا.

ومنها: أناَّ قدْ عِلِمنَا عجْزَ سائرِ أهْلِ الأعْصار كعلمنا بعجْز أهل العصْرِ الأوَّل، والطَّريق في العلم بكل واحد من الأمرين طريق واحد، لأن التحدي في الكل على جهة واحدة، والتنافس في الطِّباع على حدٍّ واحدٍ، والتَّكليف على منهاجٍ لا يختلف»[2].

ولذلك قال الله تبارك وتعالى: ﴿قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴿٨٨﴾﴾ الإسراء: ٨٨.

ويندرج تحت هذه الشبهة، ما ادعوه لامرئ القيس ونحوه من أنهم بلغوا الغاية التي ليس من وراءها مطلبٌ، وقد ذكر الجرجاني قولهم: « قد جرت العادة بأن يبقى في الزمان من يفوت أهله حتى يسلموا له، وحتى لا يطمع أحد في مداناته، وحتى ليقع الإجماع منهم أنه الفرد الذي لا ينازع. ثم يذكرون أمرأ القيس والشعراء الذين قدموا على من كان معهم من أعصارهم، ومما ذكروا الجاحظ وكل مذكور بأنه كان أفضل من كان في عصره»[3]

وقد جاء عن الجرجاني أنه قال في الجواب عن الشبهة: « رأيناهم حين طبقوا الشعراء جعلوا امرأ القيس وزهيرًا والنابغة والأعشى في طبقة، فأعلموا بذلك أنهم أكفاء ونظراء، وأن فضلًا أن كان لواحد منهم، فليس بالذي يُوئِسُ الباقين من مداناته، ومن أن يستطيعوا التعلق به والجري في ميدانه، ويمنعهم أن يدعوا لأنفسهم أو يدعي لهم أنهم ساووه في كثير مما قالوه أو دنوا منه، وأنهم جروا إلى غياته أو كادوا، وإذا كان هذه صورة الأمر، كان من العمى التعلق به، ومن الخسار الوقوع في الشبهة بسببه»[4].

(1) – إعجاز القرآن للباقلاني، (ص:250)
(2)– المرجع السابق، (ص:250)
(3) – الرسالة الشافية، للجرجاني، (ص: 590).
(4) – المرجع نفسه، (ص: 595)

وقريبٌ من هذه الشبهة، زعم بعضهم « أنه كان في المتأخرين من البلغاء كالجاحظ وأشباه الجاحظ، من استطاع معارضة القرآن فترك خوفًا، أو أنهم فعلوا ذلك ثم أخفوه، لم يتصور تخيلهم ذلك حتى يقتحموا هذه الجهالة التي ذكرتها، أعني أن يزعموا أنهم كانوا عند أنفسهم أفصح وأبلغ من بلغاء قريش وخطبائهم، وأن خطيبهم كان أخطب من قس وسحبان، وشاعرهم أشعر من امرئ القيس ومن كل شاعر كان في العرب، إلا أنهم صانعوا الناس فمنعوا أنفسهم الفضيلة ونحوها العرب.

وذاك أن محالًا أن يعتقدوا فيهم، أعني في العرب، ما اعتقده الناس، وفي أنفسهم ما أفصحوا به من القصور عن مداناتهم، وشدة الانحطاط عنهم، ثم أن يستطيعوا ما لم يستطعه العرب، ويكملوا ما لم يكملوا له»(1).

الفرع الخامس: أن العجز كان عن المعاني دون النظم:

وقد ذكر الجرجاني أن من الناس من علل العجز الذي ظهر في العرب وغيرهم عن معارضته القرآن، لم يظهر لأنهم لا يستطيعون مثل ذلك النظم، ولكن لأنهم لا يستطيعونه في مثل معاني القرآن:

وقد جواب الجرجانيُّ نفسه عن هذا الزّعم، بقوله « أنه سؤال لا يتجه حتى يقدر أن التحدي كان إلى أن يعبروا عن معاني القرآن أنفسها وبأعيانها بلفظ يشبه لفظه، ونظم يوازي نظمه، وهذا تقدير باطل، فإن التحدي كان إلى أن يجيئوا في أي معنى شاءوا من المعاني بنظم يبلغ نظم القرآن في الشرف أو يقرب منه. بدل على ذلك قوله تعالى: ﴿قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِۦ مُفْتَرَيَٰتٍ﴾ هود: ١٣، أي مثله في النظم، وليكن المعنى مفترى كما قلتم، فلا إلى المعنى دعيتم، ولكن إلى النظم، وإذا كان كذلك، كان بينًا أنه بناء على غير أساس، ورمى من غير مرمى، لأنه قياس ما امتنعت فيه المعارضة من جهة وفي شيء مخصوص، على ما امتنعت معارضته من الجهات كلها وفي الأشياء أجمعها»(2).

ثم أورد قولهم: "إنه قد يكون أن يسبق الشاعر في المعنى إلى ضرب من اللفظ والنظم، يعلم أنه لا يجيء في ذلك المعنى أبدًا إلى ما هو منحط عنه".

---

(1) – الرسالة الشافية، للجرجاني، (ص: 600-601).

(2) – المرجع نفسه، (ص: 606)

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

وقال في الجواب عنه: « فإنه ينبغي أن يقال لهم: قد سلمنا أن الأمر كما قلتم وعلمتم، أفعلمتم شاعرًا أو غير شاعر عمد إلى ما لا يحصى كثرة من المعاني، فتأتى له في جميعها لفظ أو نظم أعيا الناس أن يستطيعوا مثله، أو يجدوه لمن تقدمهم؟ أم ذلك شيء يتفق للشاعر، من كل مئة بيت يقولها، في بيت؟ ولعل غير الشاعر على قياس ذلك.

وإذا كان لابد من الاعتراف بالثاني من الأمرين، وهو أن لا يكون إلا نادرًا وفي القليل، فقد ثبت إعجاز القرآن بنفس ما راموا به دفعه، من حيث كان النظم الذي لا يقدر على مثله قد جاء منه فيما لا يصحى كثرة من المعاني.

« ومما يحيل أن يكون التحدي قد كان إلى ما ذكروه ومع الشرط الذي توهموه، أن العرب قد كانت تعرف "المعارضة" ما هي وما شرطها، فلو كان النبي ﷺ قد عدل بهم في تحديه لهم إلى ما لا يطالب بمثله، لكان ينبغي أن يقولوا: "إنك قد ظلمتنا، وشرطت في معارضة الذي جئت به ما لا يشترط، أو ما ليس بواجب أن يشترك، وهو أن يكون النظم الذي تعارض به في أنفس معاني هذا الذي تحديت إلى معارضته، فدع عنا هذا الشرط، ثم اطلب فإنا نريك حينئذ مما قاله الأولون وقلناه وما نقوله في المستأنف، ما يوازي نظم ما جئت به في الشرف والفضل ويضاهيه، ولا يقصر عنه". وفي هذه كفاية لمن كانت له أذن نعي، وقلب يعقل»[1].

وقد أوضح الجرجاني أن سبيل من قال بهذا القول أنه إنما أدى إليه القول بالصرفة: « قول من قال: "إنه يجوز أن يقدر الواحد من الناس من بعد انقضاء زمن النبي ﷺ، ومضى وقت التحدي، على أن يأتي بما يشبه القرآن ويكون مثله، لأن ذلك لا يخرج عن أن يكون قد كان معجزًا في زمان النبي ﷺ، وحين تحدى العرب إليه" قول لا يصح إلا لمن لا يجعل القرآن معجزًا في نفسه، ويذهب فيه إلى "الصرفة"»[2].

وقال عنه: « ثم إنه قول إذ نقر عنه انكشف عن أمر منكر، وهو إخراج أن يكون وحيًا من الله، وأن يكون النبي ﷺ قد تلقاه عن جبريل عليه السلام والذهاب إلى أنت يكون قد كان على سبيل الإلهام، وكالشيء يلقى في نفس الإنسان ويهدى له من طريق الخاطر والهاجس الذي

([1]) – يُنظر: الرسالة الشافية، للجرجاني، (ص:609- 610).

([2]) – المرجع نفسه، (ص: 625).

يهجس في القلب، وذلك مما يستعاذ بالله منه، فإنه تطرق للإلحاد، والله ولي العصمة والتوفيق»[1].

فبان بذلك كله أن القول ساقطٌ، وأن هذه الشبهة، وغيرها من الشبهات التي تثار حول إعجاز القرآن الكريم، إن كانت هذه هي أقواها، فلا ينبغي أن يُتعنت في إيرادها والاعتراض بها على إعجاز القرآن الكريم، لأن مآلها ولا شكَّ إلى ما آلت إليه هذه الشبهات من السقوط، وعدم القيام، فلا يتعب أصحابها أنفسهم.

(1) – الرسالة الشافية، للجرجاني، (ص: 625).

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

لا نشك ألبتة أن ما بين الإعجاز والبلاغة العربية علاقة وطيدة محكمة، كيف لا وأكثر من تكلم عن الإعجاز في القرآن الكريم، إنما يعرج ابتداء إلى بيان أوجه الإعجاز والتي يُعدُّ أهمها على الإطلاق الوجه البلاغي، لذلك كله فإن الإعجاز والبلاغة العربية ثنائية ملتحمة الأواصر متبادلة التفاعل، لا يكاد يستغني أحدهما عن الآخر.

ولبيان ذلك أوردنا هذا المبحث لبيان حقائق مهمة تتعلق بهذه القضية، ألا وهي "علم الإعجاز في كتب البلاغة"، وذلك من خلال المباحث الآتية:

المبحث الأول: مدخل في تاريخ البلاغة.

المبحث الثاني: علم إعجاز القرآن الكريم في كتب البلاغة.

المبحث الثالث: تقويم درس إعجاز القرآن من خلال كتب البلاغة.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

المبحث الأول: مدخلٌ في تاريخ البلاغة

من الأهمية بمكان معرفة تواريخ العلوم، كيف نشأت وكيف دوِّنت، ومن هُمْ أهمُّ الأعلام فيها، وما هي أهمُّ الكتب التي كتبت فيها، كلُّ ذلك إسهاما في اكتساب حسن التصور حول العلوم، ومعرفة مظانها، وهذا المبحث معدٌّ لأجل هذا الغرض المتعلق بالبلاغة، وقد جعلت مطالبه ثلاثةً هي كالآتــي:

المطلب الأول: تعريف البلاغة

المطلب الثاني: الأطوار التاريخية للبلاغة

المطلب الثالث: أهمُّ كتب البلاغة.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

المطلب الأول: تعريف البلاغة.

لقد كثرت المفاهيم التي احتوت عليها كلمة البلاغة، وما ذلك إلا لتعدد أحوال الكلمة وتغير مفهومها وانقلاب أحوالها عبر أزمان متعددة وثقافات متباينة، فارسية وهندية ورومية وعربية، لذلك صار من الصعب الإلمام بمصطلح البلاغة وتحديد مفهومه لأجل تلكم الملابسات، لذلك فلا بد من الوقوف على الجذر اللغوي لها، قبل النّظر في الدّلالات الاصطلاحيَّة الأُخرى.

الفرع الأول: البلاغة في اللغة:

الذي يدلُّ عليه الجذر اللُّغوي لكلمة: "البلاغة" في المعاجم العربية، أنها تكون بمعنى الانتهاء والوصول، فقولك: بلغ الشيء إذا وصل إليه، وانتهى إليه، والبلاغ ما يتوصل به إلى الشيء المطلوب.

يقول ابن فارس: « الْبَاءُ وَاللَّامُ وَالْغَيْنُ أَصْلٌ وَاحِدٌ وَهُوَ الْوُصُولُ إِلَى الشَّيْءِ، تَقُولُ بَلَغْتُ الْمَكَانَ، إِذَا وَصَلْتَ إِلَيْهِ. وَقَدْ تُسَمَّى الْمُشَارَفَةُ بُلُوغًا بِحَقِّ الْمُقَارَبَةِ...

وَالْبُلْغَةُ مَا يُتَبَلَّغُ بِهِ مِنْ عَيْشٍ، كَأَنَّهُ يُرَادُ أَنَّهُ يَبْلُغُ رُتْبَةَ الْمُكْثِرِ إِذَا رَضِيَ وَقَنَعَ، وَكَذَلِكَ الْبَلَاغَةُ الَّتِي يُمْدَحُ بِهَا الْفَصِيحُ اللِّسَانِ، لِأَنَّهُ يَبْلُغُ بِهَا مَا يُرِيدُهُ، وَلِي فِي هَذَا بَلَاغٌ أَيْ كِفَايَةٌ، وَقَوْلُهُمْ بَلَّغَ الْفَارِسُ، يُرَادُ بِهِ أَنَّهُ يَمُدُّ يَدَهُ بِعِنَانِ فَرَسِهِ، لِيَزِيدَ فِي عَدْوِهِ، وَقَوْلُهُمْ تَبَلَّغَتِ الْقِلَّةُ بِفُلَانٍ، إِذَا اشْتَدَّتْ، فَلِأَنَّهُ تَنَاهِيهَا بِهِ، وَبُلُوغُهَا الْغَايَةَ»[(1)].

ثانيا: البلاغة في الاصطلاح:

اختلفت تعاريف العلماء للبلاغة، وإنما اختلفت لأن أكثرها كان ذكرٌ لأوصاف البلاغة، والتنويه بأهم جوانبها وإبرازه ليكون كالتعريف، وليس يقصدون الحدَّ والرَّسم، ولعلَّ من المناسب إيراد بعض التعاريف التي ذُكرت للبلاغة – وقد ذكر الجاحظ جملة منها في مستهل كتابه البيان والتبيين:

قيل للفارسي: ما البلاغة؟ قال: معرفة الفصل من الوصل.

وقيل لليوناني: ما البلاغة؟ قال: تصحيح الأقسام، واختيار الكلام.

وقيل للرومي: ما البلاغة؟ قال: حسن الاقتضاب عند البداهة، والغزارة يوم الإطالة.

(1) – مقاييس اللغة، لابن فارس، تحقيق: عبد السلام هارون، (ج:1/ ص: 301-302).

وقيل للهندي: ما البلاغة؟ قال: وضوح الدلالة، وانتهاز الفرصة، وحسن الإشارة.

وقد سئل أرسطو عن البلاغة فقال: حُسن الاستعارة

وقال ابن الأعرابي: قال معاوية بن أبي سفيان لصحّار بن عياش العبديّ: ما هذه البلاغة التي فيكم؟ قال: شيءٌ تَجِيشُ به صدورنا فتقذفه على ألسنتنا، وقال مرة – يعني ابن الأعرابي قال: قال لي المفضل بن محمد الضبي: قلت لأعرابي منا: ما البلاغة؟ قال لي: الإيجاز في غير عجز، والإطناب في غير خطل، قال ابن الأعرابي: فقلت للمفضل: ما الإيجاز عندك؟ قال: حذف الفضول، وتقريب البعيد[1].

فهذه التعاريف في جملتها أوصاف تقع للكلام البليغ، وليست في حقيقة الأمر تعريفا للبلاغة، ولعل من جاء مشاركا في تأصيل البلاغة، من علماء البيان العربي، هم الذين أسهموا في الوقوف على الحد الصحيح للبلاغة العربية، وأبرز التعاريف عند أولئك الأعلام:

1/ تعريف الرماني (384هـ):

قال: « البلاغة إيصال المعنى إلى القلب في أحسن صورة من اللفظ»[2]، وقد جعلها على أقسام عشرة: الإيجاز ، والتشبيه ، والاستعارة ، والتلاؤم والفواصل ، والتجانس ، والتصريف ، والتضمين ، والمبالغة ، وحسن البيان.

2/ تعريف أبي هلال العسكري (395هـ):

قال: « البلاغة كل ما تبلغ به المعنى قلب السامع فتمكنه في نفسه كتمكنه في نفسك مع صورة مقبولة ومعرض حسن»[3].

(1) – ينظر: البيان والتبيين، عمرو بن بحر بن محبوب أبو عثمان الشهير بالجاحظ، الناشر: دار ومكتبة الهلال، بيروت، عام النشر: 1423 هـ..، (ج1/ ص: 91 وما بعدها في حد البلاغة)، وينظر الرسالة العذراء، لإبراهيم ابن المدبر، صححها وشرحها: الدكتور زكي مبارك، الطبعة الثانية- القاهرة -مصر، 1350هـ- 1931م، (ص: 44-48).

(2) – النكت في إعجاز القرآن، مطبوع ضمن: ثلاث رسائل في إعجاز القرآن، المؤلف: علي بن عيسى بن علي بن عبد الله، أبو الحسن الرماني المعتزلي (المتوفى: 384هـ)، المحقق: محمد خلف الله، د. محمد زغلول سلام، الناشر: دار المعارف بمصر، الطبعة: الثالثة، 1976م، (ص: 76).

(3) – الصناعتين- الكتابة والشعر، أبو هلال الحسن بن عبد الله بن العسكري، المحقق: علي محمد البجاوي ومحمد أبو الفضل إبراهيم، الناشر: المكتبة العنصرية – بيروت، عام النشر: 1419 هـ، (ص:10)

3/ تعريف عبد القاهر الجرجاني (471هـ):

قال: « تحقيق القول على "البلاغة" و "الفصاحة"، و "البيان" و "البراعة"، وكل ما شاكل ذلك، مما يُعبَّر به عن فضلِ بعضِ القائلين على بعضٍ، من حيثُ **نَطقوا وتكلَّموا، وأخبروا السامعين عن الأغراض والمقاصد، وراموا أنْ يُعْلِمُوهم ما في نفوسهم؛ ويَكشفوا لهم عن ضمائر قلوبهم**»[1].

وللجرجاني موضع آخر يصلح أن يكون كالتعريف للبلاغة، وذلك قوله في ثنايا الحديث عن استحسان الكلام وحمده والثناء عليه، الذي نسميه بالكلام البليغ الذي تحققت في شرائط البلاغة، فقال متحدثا أنه لا يكون مردُّ ذلك: « إلاّ إلى استعارةٍ وقعت موقعَها، وأصابت غَرَضها، أو حُسن ترتيب **تكاملَ معه البيانُ حتى وصلَ المعنى إلى القلب مع وصول اللفظ إلى السمع، واستقرَّ في الفهم مع وقوع العبارة في الأذن**، وإلا إلى سلامة الكلام من الحشو غير المفيد، والفضل الذي هو كالزيادة في التحديد»[2]

4/ تعريف السكاكي (626هـ):

قال في تعريف البلاغة: « البلاغة هي بلوغ المتكلم في تأدية المعاني حدا له اختصاص بتوفية خواص التراكيب حقها وإيراد أنواع التشبيه والمجاز والكناية على وجهها»[3]

والملاحظ من خلال التعاريف المتقدمة أنها قامت جميعها على أساس ثنائية اللفظ والمعنى، وأن البلاغة حقيقتها توصيل المعنى المراد وتمكينه من قلب السامع بالأسلوب الملائم الذي يقتضيه الحال عند المخاطبة، مع حسن رعاية الألفاظ في ذلك كله.

وإلى السكاكي تقريبا انتهت المحاولات في التعريف بمصطلح البلاغة، إذ من جاء بعد ذلك، فإنما يجري في مضمار هؤلاء الأعلام، ولا يكاد يزيد عليهم أمراً ذا بالٍ.

---

(1) – دلائل الإعجاز، للجرجاني، (ص: 43).

(2) – أسرار البلاغة، المؤلف: أبو بكر عبد القاهر الجرجاني، قرأه وعلق عليه: محمود محمد شاكر، الناشر: مطبعة المدني بالقاهرة، دار المدني بجدة، الطبعة الأولى: 1412هـ-1991م.، (ص: 22).

(3) – مفتاح العلوم، يوسف بن أبي بكر السكاكي، ضبطه وكتب هوامشه وعلق عليه: نعيم زرزور، الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان، الطبعة: الثانية، 1407 هـ - 1987م.، (ص: 415)

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

الفرع الثاني: الأطوار التاريخية للبلاغة[1]

البلاغة كسائر العلوم مرت بأطوار مختلفة عبر التاريخ، لتستقل بمباحثها وأعلامها وكتبها، وقد ذكر غير واحدٍ من العلماء الذين أرخوا للبلاغة العربية أنها مرت بمراحل مختلفة، حتى من جهة التسمية، فإنها ربما كانت مباحثها تحت مسمى "البديع"، كما صنع ابن المعتز، وربما أطلقوا عليها اسم "البيان"، كما فعل الجاحظ في "البيان والتبيين"، ولأن البيان، هو كل منطق مفصحٍ مبينٍ عما في الضمير، ولما كان متعلق البلاغة في الأطوار الأولى أكثر ما تعلق بالشعر العربي، لربما سموها علم نقد الشعر، أو صنعة الشعر، كما فعل قدامة ابن جعفر في كتابه "نقد الشعر".

ويمكننا الحديث عن أطوار البلاغة من خلال:

الطور الأول: طور النشأة

تهيأ للبحث التاريخي أن يهتدي لمولد كثير من العلوم، وأن يتعرف على واضعيها؛ فهو يعيِّنُ أول من تكلم في النحو، ويؤكد أن الخليل بن أحمد الفراهيدي هو واضع علم العروض، وأن أبا معاذ الهراء أول من أفرد الصرف بالتأليف. . . وهكذا.

ولكن أصحاب تاريخ العلوم لا يتفقون على رأي في واضع علوم البلاغة، ولعل منشأ ذلك كثرة الكاتبين فيها في أزمة متفاوتة، كما أن تأخر التقعيد فيها وظهورها أول الأمر في مظهر النقد الأدبي جعل الأنظار تتجه وجهات مختلفة[2].

ومهما يكن من شيء فإن البلاغة نشأت أول ما نشأت من جراء العناية الفائقة للعرب بصنعة الكلام، إذ قد بلغوا فيه الشأو الذي لا يرام، ومن مظاهر العناية بالبلاغة عند العرب، والتي ساهمت في نشأة البلاغة:

([1]) – يختلف العلماء في اعتبارات التأريخ للبلاغة العربية، **فمنهم من يجعلها** أربعة مراحل، النشأة والنمو والازدهار والذبول، كما صنع الدكتور شوقي ضيف، في كتابه البلاغة تطور وتاريخ، الدكتور: شوقي ضيف، دار المعارف/ القاهرة- مصر، الطبعة التاسعة: 1995م، (ص: 5).

ومنهم من يجعلها أربعة أطوار؛ الأول: يبتدئ من عهد الجاحظ إلى عهد عبد القاهر، وثانيها: من عهد عبد القاهر إلى عهد السكّاكي، و ثالثها: يبتدئ من عهد السكاكي إلى عهد النهضة الحاضرة، ورابعها: يبتدئ بعد هذه النهضة إلى وقتنا هذا، كما صنع عبد المتعال الصعيدي، ينظر البلاغة العالية علم المعاني، لعبد المتعال الصعيدي، الناشر: مكتبة الآداب – مصر، الطبعة الثانية، التاريخ: 1411هـ -1991م، (ص: 1).

(2) – واضع علوم البلاغة، رأي ابن خلدون فيه، للأستاذ: علي محمد حسن العماري مجلة الرسالة (العدد: 737/ بتاريخ 18-08-1947)، (ص:30).

أولا: إقامة الأسواق الأدبية:

العرب أمةٌ أوتيت البيان، والخصام في الكلام، واللدد فيه، فإن قالوا أبهروا وإن شعروا أطربوا، وقد اشتهر منهم الخطباء والشعراء، وحتى يظهر التفاوت في هذه الصنعة أقامت العرب لذلك أسواقا يجتمع فيه أولئكم ويتقاولون، وربما احتكموا إلى نبهائهم، للفصل بين الأقران.

وقد ذكر شوقي ضيف في مظاهر العناية بالبلاغة ما كان من إقامة تلك الأسواق الكلامية، التي كونت لدى العرب حسن تذوق الكلام، فقال« ومما لا شك فيه أن أسواقهم الكبيرة هي التي عملت على نشأة هذا الذوق، وخاصة سوق عكاظ بجوار مكة، إذ كان الخطباء والشعراء يتبارون فيها، وكلٌّ يريد أن يحوز قصب السبق لدى سامعيه دون أقرانه»[1].

ففي عكاظ كان الشعراء يتقاولون الشعر، وكانت تنصب للنابغة الذبياني القبة الحمراء، وكان يجتمع مِن حوْلِه الشُّعراء، وفيها أصدر حكمه للأعشى وللخنساء على حسَّان، في حوادث معروفة في تاريخ الأدب والبلاغة.

(1) – البلاغة، تاريخ وتطور، لشوقي ضيف، (ص: 11).

جمعية إبن عبد القادر للعلوم الإسلامية

ثانيا: العناية بتقويم القصائد وإصلاحها:

كانت صنعة العرب التي امتازوا بها عن باقي الأمم، هي صنعة الكلام، إذ بلغوا منها مبلغاً لم يكن عند أمةٍ من الأمم، قال الجاحظ: « ومن شعراء العرب من كان يدع القصيدة تمكث عنده حولا كريتا[1]، وزمنا طويلا، يردد فيها نظره، ويُجيل فيها عقله، ويقلب فيها رأيه، اتهاما لعقله، وتتبعا على نفسه، فيجعل عقله، زماما على رأيه، ورأيه عيارا على شعره، إشفاقا على أدبه، وإحرازا لما خوله الله تعالى من نعمته.

وكانوا يسمون تلك القصائد: الحوليات، والمقلّدات، والمنقّحات، والمحكّمات[2]، ليصير قائلها فحلا خنذيذا[3]، وشاعرا مُفْلقا[4]»[5].

مع أن بعض النقاد يرى أن هذا من العيب في الشاعر، وقد جاء عن الأصمعي، أنه كان يسمي هؤلاء الشعراء، بعبيد الشعر؛ ومنهم زهير والحطيئة، وليس كذلك لأن هؤلاء الشعراء علموا أن من وراءهم ذوق عام دفعهم إلى تحبير كلامهم وتجويده.

---

(1) – أي عاما كاملا تاما.

(2) – وهي القصائد يصنعها الشاعر ثم يكرر نظره فيها خوفاً من التعقب بعد أن يكون قد فرغ من عملها في ساعة أو ليلة، وربما رصد أوقات نشاطه فتباطأ عمله لذلك العمدة في محاسن الشعر وآدابه، أبو على الحسن بن رشيق القيرواني، المحقق: محمد محيي الدين عبد الحميد، الناشر: دار الجيل، الطبعة: الخامسة، 1401 هـ - 1981 م ، (ج1/ ص: 129)، والتنقيح الإصلاح والتهذيب، والتثقيف: التهذيب والتقويم، والتحكيك: إزالة الغريب من الألفاظ.

(3) - الخنذيذ من الناس والخيل: الكثير العرق، هذا في اللغة اما في باب الشعر، فهو عندهم الذي يجمع إلى جودة شعره رواية الجيد من شعر غيره، ذكره ابن رشيق في العمدة في محاسن الشعر وآدابه، (ص: 114).

(4) – والمفلق: هو الذي يأتي في شعره بالفلق، وهو العجب، وقيل: الفلق الداهية، قاله ابن رشيق القيرواني في العمدة، (ج1/ ص:115)

(5) – البيان والتبيين، للجاحظ، (ج2/ ص: 8).

ثالثا: تلقيب القصائد والشعراء:

ومن مظاهر البلاغة أيضا عند العرب الاوائل، أنهم كانوا يلاحظون شعر الشعراء، فإن امتاز أحدهم في شعره أو منهجه بشيء اطلقوا عليه الألقاب التي تميزه، وتميز شعره، يقول شوقي ضيف: « وقد لقبوا شعرائهم ألقابا تدلُّ على مدى إحسانهم في رأيهم، مثل: المُهلهل[(1)]، والمُرَقَّش[(2)]، والمثقَّب، والمنخّل والمتنخل، والأفوه والنابغة[(3)]، وكأنما كان هناك ذوقٌ عامٌ دفع الشعراء ومن ورائهم الخطباء إلى تحبير كلامهم وتجويده»[(4)].

ولما قدم علقمة بن عبدة التميمي، على أهل مكة، فأنشدهم قصيدته:[من البسيط]

هل علمت وما استودعت مكتوم[(5)].

فقالوا هذا سمط الدهر، ثم عاد إليهم العام القابل، فأنشدهم قصيدته:[من الطويل]

طحا بك قلبٌ في الحسان طروبُ[(6)]

فقالوا هاتان سمطا الدّهر[(7)].

وقالوا عن لامية حسان: [من: الكامل]

لله درُّ عصابةٍ نادمتهم   يوما بجلِّقَ في الزمان الأول[(8)]

---

(1) – هو: مهلهل بن ربيعة، وإنما سمي مهلهلاً لهلهلة شعره، أي: رقته وخفته، وقيل: لاختلافه، وقيل: بل سمي بذلك لقوله: لما توقل في الكراع شريدهم ... هلهلت أثأر جابراً أو صِنبِلاً، يُنظر: العمدة في محاسن الشعر لابن رشيق القيرواني، (ج1/ص: 86).

(2) – المرقش اثنان: المرقشان، والأكبر منهما عم الأصغر، والأصغر عم طرفة بن العبد، واسم الأكبر عوف بن سعد، وعمرو بن قميئة ابن أخيه، ويقال: إنه أخوه، واسم الأصغر عمرو بن حرملة، وقيل: ربيعة بن سفيان، وهذا أعرف، يُنظر: العمدة في محاسن الشعر، لابن رشيق القيرواني، (ج1/ص: 87).

(3) – وهما نابغتان: الجعدي، والذبياني.

(4) – البلاغة تطور وتاريخ، شوقي ضيف، (ص: 10)

(5) – وبعدها: أم حبْلُها إذ نأتْكَ اليوم مصروم)

(أمْ هل كبيرٌ بكى لم يَقضِ عَبرتَهُ ** إثرَ الأحِبَّة يوم البيْنِ مشكومُ)، شرح ديوان علقمة الفحل، لأحمد صقر، (ص: 58)

(6) – من الطويل، وبعدها: بُعيْدَ الشَّبابِ عصرَ حانَ مشيبُ)

(تُكلِّفُني ليلَى وَقد شَطَّ وليُها ** وعادتْ عوادٍ بيننا وخُطُوبُ)، شرح ديوان علقمة الفحل، لأحمد صقر، (ص: 9)

(7) – ينظر الأغاني، للأصبهاني، (ج10/ ص: 206-207).

(8) – ديوان حسان بن ثابت، شرحه وكتب هوامشه وقدَّم له الأستاذ: عبد أمهنا، دار الكتب العلمية بيروت، لبنان، الطبعة الثانية: 1414هـ- 1994م، (ص: 184)

إنها البتارة.

وعن عينية سويد بن أبي كاهل:[من الرمل]

بسطت رابعة الحبل لنا   فوصلنا منها ما اتسّع[1]

إنها اليتيمة[2].

وقصيدة جرير التي فيها: [من: الوافر]:

فغضَّ الطَّرفَ إنك من نمير ... فلا كعباً بلغت ولا كلابا

وهذه القصيدة تسميها العرب الفاضحة، وقيل: سماها جرير الدماغة، تركت بني نمير ينتسبون بالبصرة إلى عامر بن صعصعة، ويتجاوزون أباهم نميراً إلى أبيه، هرباً من ذكر نمير، وفراراً مما وسم به من الفضيحة والوصمة[3].

فهذه الألقاب التي أطلقت على الشعراء وقصائدهم، تنبؤنا على ما كان عليه العرب من جودة الذوق للكلام، مع ما تحمل تلك الألقاب، من روح نقد الكلام، والخبرة به، وكلُّ ذلك لاشك أنه من مظاهر العناية بالبلاغة، وصورة من صور نشأتها.

رابعا: التحاكم إلى فحول الشعراء:

و مما يمكن عدّه من مظاهر عناية العرب بالبلاغة – وإن كان سبقت الإشارة إليه– هو أن قضية الحكم على الكلام، إنما كان العرب يسندونها إلى الحذَّاق والنبهاء، الذين ينتهي الناس إلى حُكْمهم، « ومن الشعراء النابهين من كان يقوم في هذه السوق مقام القاضي الذي لا تُدفع حكومته، ففي أخبار **النابغة الذُّبياني** أن الشعراء الناشئين كانوا يحتكمون فيها إليه، فمن نوّه به طارت شهرته في الآفاق، وكان في أثناء ذلك يُبدي بعض الملاحظات على معاني الشعراء وأساليبهم»[4]، وكان ربما يفضل بعض الشعراء على بعض والقصص في ذلك كثيرة معروفةٌ في مظانها من كتب تواريخ الأدب وموسوعاته.

---

(1) – ديوان سويد بن أبي كاهل اليشكري، جمع وتحقيق: شاكر العاشور، مراجعة: محمد جبار المعيبد، الناشر: وزارة الإعلام – العراق – الطبعة الأولى – 1972م، (ص: 23).

(2) – الموجز في تاريخ البلاغة، الدكتور: مازن المبارك، دار الفكر، د ت ط، (ص: 29)

(3) – العمدة في محاسن الشعر وآدابه، لابن رشيق القيرواني، (ج1/ ص: 51)

(4) – البلاغة تطور وتاريخ، لشوقي ضيف، (ص: 11)

وكخلاصة لما سبق يمكننا أن نسجل ملاحظات فيما يتعلق بالعوامل الأولى في التي ساعدت في نشأة البلاغة العربية، فيقال:

أولا: «أن العرب أمة مفطورة على البلاغة، وقد رفع القرآن منزلة البلاغة فوق منزلتها، ومن ثمّ كان العرب في بحثهم عن خصائص البلاغة العربيّة يبحثون عن أعزِّ شيء لديهم»[1].

ثانيا: «أن العرب نشأوا على تذوق الأسلوب ونقده، والفطنة بجيّده ورديئه، ونشأ عن ذلك ظهور آراء نقدية كانت هي الأساس الأول للنقد الأدبي عند العرب، وكان هذا النقد هو أساس علم البلاغة العربية»[2].

فهذه من أهم المظاهر التي تدلنا على عناية العرب بالبلاغة، وهي تعدُّ في الوقت نفسه مهداً لنشأة البلاغة.

ميزات الطور الأول:

الذي يميز هذا الطور في تاريخ البلاغة، أنها كانت أمراً مقصوداً في نظرهم، وأنها وجدت في كلامهم – خطبهم وأشعارهم- بشكل عملي، وكان العرب في عصري الجاهلية وصدر الإسلام يعتمدون على طبعهم الأصيل في معرفة وإدراك إعجاز القرآن ، كما كانوا يعتمدون على طبعهم وذوقهم السليم في معرفة ضروب الكلام وتفضيل شاعر على آخر.

ومما يميز هذا الطور، أنه طورٌ يمتاز بأن الكلام فيه على البلاغة كان في جملته ملاحظات، وتنبيهات على بعض الموازين التي بها يشرف الكلام، أو يسقط، وتقديم أحكام عامة تتعلق بالشعر وأصحابه، والتي ستكون عونا للأدباء واللغويين والمتكلمين، في تقنين علم البلاغة، وتحرير مباحثه.

وأما من الناحية النظرية، فليس أمامنا سوى ظواهر بلاغية منثورة فيما أطلقوه من أحكام نقدية في مناسبات المفاضلة والمفاخرة[3].

---

(1) – مدخل إلى البلاغة العربية: – علم المعاني – علم البيان – علم البديع، أ.د: يوسف أبو العدُّوس، دار المسيرة –عمان – الأردن، الطبعة الأولى: 1427هـ/ 2007م.

(2).– المرجع نفسه، (ص: 13).

(3) – الموجز في تاريخ البلاغة، لمازن مبارك، (ص: 28).

يقول مازن مبارك: « إن مجمل ما نستطيع أن نقوله بصدد الظواهر البلاغية التي تضمنتها أحكام النقد في الجاهلية، أنه كانت هناك أحكام نقدية خالية من التعليل، وأن الأحكام المعللة قليلةٌ أصلا، وأن ما عُلّل منها، فأغلب علله غير بلاغية...

وبعبارة أوضح: أن البلاغة إذ ذاك كانت أمراً فُطِروا عليه، أو هدتهم إليه سلائقهم، وعشقته نفوسهم وألفته ألسنتهم وآذانهم، فهم يعرفونه ولا يكادون يختلفون عليه، ولكننا لم نعرف لهم كلاماً فيه يبيّن عناصر البلاغة التي كانوا يتوخّون»[1].

الطور الثاني طور النمو والازدهار

إنَّ هذا الطور مع شيء من اختزال جهود بعض اللغويين والمتكلمين، يمكننا أن نجعله ما بين الجاحظ إلى عبد القاهر الجرجاني، فنجد الجاحظ ينبري « لدرس شؤون البيان والبلاغة، فيؤلف كتابه "البيان والتبيين"، في أربعة مجلدات كبار جامعاً فيه ملاحظات العرب البيانية، وبعض ملاحظات الأجانب، وسجل كثيرا من ملاحظات معاصريه، وخاصة المعتزلة»[2]، ولعل الدافع إلى الكتابة في البلاغة في هذه المرحلة:

أولاً: فساد الذوق وانحراف الملكة اللغوية، وذلك «بعد اتساع الفتوحات الإسلامية، وامتزاج العرب بالشُّعوب الأخرى، وظهور هذا الامتزاج في الألسنة والطِّباع، كان من البواعث على تدوين أصول البلاغة العربية؛ لتكون ميزانا سليماً توزن به بلاغة الكلام، ولتعصم هذه الأصول الأدباء من الخطأ في الأسلوب والبيان»[3]

ثانياً: مساهمة بعض الفرق الكلامية « وكان للمعتزلة دور كبير في نشأة علوم البلاغة العربية، فقد عُنِيَ رجال المعتزلة بمسائل البيان والبلاغة لاتصالها بما كانوا ينهضون به من الخطابة والمناظرة»[4].

وإذا رجعنا إلى جهد الجاحظ في كتاباته، فهي كما يقول شوقي ضيف: « أن الجاحظ قد ألمَّ في كتاباته بالصور البيانية المختلفة وبكثير من فنون البديع، غير أنه لم يسُق ذلك في

(1) – المصدر السابق، (ص: 30-31).
(2) – البلاغة تطور وتاريخ ، شوقي ضيف، (ص: 46).
(3) – مدخل إلى البلاغة العربية: – علم المعاني – علم البيان – علم البديع، أ.د: يوسف أبو العدُّوس ، (ص: 14)
(4) – المصدر نفسه، (ص: 14)

تعريفات وتحديدات، فقد كان مشغولا بإيراد النماذج البلاغية، وقلما عنى بتوضيح دلالة المثال على القاعدة البلاغية التي يقررها»[1].

ومهما يكن من شيء فإن الجاحظ حدثٌ كبيرٌ في البلاغة العربية من غير شك في ذلك، فإنه كما يقول شوقي ضيف: « وقد ظلت كتابات الجاحظ وملاحظاته في البيان والبلاغة مَعينا لا ينفد لمدِّ الأجيال التالية بكثير من قواعدهما، كلٌّ يستمدُّ منها قدرته ومهاراته الذهنيّة»[2].

بل أكثر من ذلك فإن شوقي ضيف يعدُّ الجاحظ مؤسس البلاغة العربية من غير منازع، لما أفرد لها كتاباته التي على رأسها البيان والتبيين، ونثر فيه كثيراً من ملاحظاته وملاحظات معاصريه، كما تعمق في آراء العرب وغير العرب، ليجعل ذلك كله آلته في تحليل الصور البيانية.

ومن الأعلام الذين أسهموا في نمو البلاغة وازدهارها في هذه المرحلة ابن قتيبة (285هـ) الذي أورد جملة من الملحوظات البلاغية في كتابه " تأويل مشكل القرآن".

ويقوِّم شوقي ضيف عمل ابن قتيبة قائلاً: « ومن الحق أن ابن قتيبة لم يُضفْ جديدا ذا بال إلى أبي عبيدة إلا ما عُرف به من دقَّة التبويب، وإلا بعض إشارات وبعض تفاصيل هنا وهناك، كأن يتوسَّع في الحديث عن الكناية، أو يعرض للمبالغة»[3].

وممن أسهم أيضا في البلاغة والبيان، المبرد صاحب "الكامل" تلك الموسوعة الأدبية الضخمة، والتي ضمنها ملاحظاته البيانية حينما كان يعرض النماذج الأدبية ويتبعها بالشَّرح اللُّغوي، ويشير أحياناً إلى ما في الكلام من استعارةٍ أو التفاتٍ أو إيجاز أو إطناب أو تقديم أو تأخير، ونحو ذلك من إشارات بلاغية متنوعة كان لها أثر في تأسيس الدرس البلاغي.

هذا ما كان عليه اللُّغويون في هذه المرحلة، أما المتكلمون، فإنَّ أهم ما وصلهم بالبلاغة أنهم اعتنوا بتعليل إعجاز القرآن وتفسيره بلاغياً، لكون أهمِّ وجوه الإعجاز، ما كان متعلقا ببلاغته التي دُعيَ العرب وتُحدوا إلى أن يأتوا بنحوها.

ويعتبر الجرجاني، وهو المتكلم الذي لم يُفسد علم الكلام عليه ملكته العربية، وتذوقه للبلاغة، من أهمّ الأعلام في هذه المرحلة، تظهر أهميته من خلال كتابيه اللّذين قدمهما للبيان العربي خصوصا، والبيان الإنساني عموما، فبهما قنن وقعَّد لعلمي المعاني والبيان في البلاغة، بما

(1) – البلاغة تطور وتاريخ، شوقي ضيف، (ص: 56).
(2) – المصدر نفسه، (ص: 57).
(3) – البلاغة تطور وتاريخ، شوقي ضيف، (ص: 60).

ضمنهما من التحليل للكلام العربي الذي يحتكم إلى الذوق الرفيع والحس البياني المرهف، يقول مازن المبارك عن جهوده: « وبهذا الأسلوب المفصّل القائم على الشاهد وضرب المثل من القرآن الكريم أو الشّعر يمضي الجرجاني في الشّرح والتّفصيل، فإذا هو يشرح وجوها من البلاغة وفنونا من الفصاحة لم يُسبق إليها، بل إنه استطاع من خلال ذلك أن يرسيَ قواعد علم المعاني على أساس من المعرفة والعقل والذّوق، وفي ضوء المثل والدليل والبرهان»(1)

ميزات الطور الثاني:

من أهم ما امتازت به البلاغة في هذا الطور من أطوار نشأتها أن البحث في البلاغة والبيان عموما « كان أقرب منه إلى البحث الفلسفي، كما يظهر هذا بالنظر في كتاب البيان والتبيين للجاحظ، وكتاب الصناعتين لأبي هلال العسكري، وفي أشباههما من كتب هذا العهد»(2).

كما «يمتاز هذا الطور بأخذه في ذلك بشيء من البحث الفلسفي، يُسرف فيه أحيانا، ويقتصد أحيانا أخرى، ويحاول مع هذا ألاَّ يُفرِّط في الصّبغة الأدبية للطور الأول، وأفضل مثال لهذا الطور كتابا عبد القاهر الجرجاني "دلائل الإعجاز"، و"أسرار البلاغة"»(3).

ففي هذا الطور بدأت الفلسفة تأخذ من البلاغة مكاناً سيكون فيما بعد هذا الطور، له المساحة التي تؤثر على البلاغة العربية سلبا.

وفي هذا الطور اعتنى علماؤه بمسألة الذوق، وعدُّوه شرطاً أساساً في معرفة الكلام حسنه من رديئه، وجيّده من أجوده، وأن من افتقد الذَّوق، فلن يكشف عن بصره حجاب التفاضل بين أنواع الكلام، ولن يدرك أسرار الجمال في نظم الكلام، يقول الجرجاني: « واعلمْ أنه لا يصادِفُ القولَ في هذا البابِ موقعاً من السامِعِ، ولا يَجِدُ لديه قَبولاً، حتى يكونَ من أهلِ الذوقِ والمعرفةِ»(4).

---

(1) – الموجز في تاريخ البلاغة، لمازن المبارك، (ص: 94).

(2) – البلاغة العالية علم المعاني، لعبد المتعال الصعيدي، الناشر: مكتبة الآداب – مصر، الطبعة الثانية، التاريخ: 1411هـ -1991م.، (ص:1)

(3) – البلاغة العالية، علم المعاني، لعبد المتعال الصعيدي، (ص: 1)

(4) – دلائل الإعجاز، لعبد القاهر الجرجاني، (ص: 291).

ومن ميزات هذا الطور، أنه تمَّ فيه إرساء قواعد علمي البيان والمعاني، واليد الطولى في ذلك للجاحظ والجرجاني، وقد تمكن هذا الأخير «من وضع قوانين البيان لأول مرة في العربية وضعاً دقيقاً، كما وضع أيضا قوانين المعاني لأول مرة، وإذا كان قد شُغِل في "الدلائل" ببيان خواص الصّيغ الذاتيّة، فقدكان همُّهُ في "الأسرار" أن يكشف عن دقائق الصور البيانية»(1).

الطور الثالث: طور التقعيد والتعقيد

بعد عصر الجرجاني الذي بلغت في الدراسات البلاغية الغاية في النُّضج والتحليل وحسن التعليل، سواءٌ على الآيات القرآنية، أو الأحاديث النبوية، أو غيرها من النصوص الأدبية التي لاقت العناية من جهة استنكاه ذوقها البلاغي، جاء بإثر ذلك عصرُ تقعيد القواعد، ووضع الحدود والرسوم للمصطلحات البلاغية، وضعف تقرير البلاغة من خلال درس النص الأدبي، كلُّ ذلك كان إيذانا بحلول البلاغة بهذا الطور الجديد.

ويرى المؤرخ للبلاغة الدكتور شوقي ضيف، أن بدايات هذا الطور كانت على يد الفخر الرازي، فهو من أوائل من اتجهوا إلى الاختصار والتخليص فهو يعد مرحلة انتقالية ، حيث اهتمَّ بإدخال المنطق والفلسفة في علوم البلاغة، حيث قام بتلخيص كتابي عبد القاهر في كتابه نهاية الإيجاز في دراية الإعجاز.

ثم جاء بإثر الفخر الرازي أبو يعقوب يوسف السكاكي الذي أجمل جدا ودقق في الحدود والتعريفات والتقاسيم دقةً أكسبت البلاغة غموضا وعسراً في بعض جوانب البلاغة، فقام بتقنين قواعد البلاغة مستعيناً في ذلك بقدراته المنطقية على التعليل والتعريف والتفريع والتقسيم، وبذلك تحولت البلاغة على يديه إلى مجرد قواعد وقوانين صيغت في قوالب منطقية جافة باعدت بينها وبين وظيفتها من إرهاف الحس وإمتاع النفس وتربية الذوق وتنمية الملكات.

ولذلك فإن الجهود التي قام بها السكاكي احتاجت إلى الشروح والتلخيصات والحواشي التي تقصد إلى رفع ذلك الغموض وبيانه، ثم هي لا تخلو من ذلك الغموض، ولا دور لها كبير في تربية الذوق للكلام.

(1) – البلاغة تطور وتاريخ، لشوقي ضيف، (ص: 218).

ومن أشهر من عقب السكاكي على طريقته، الخطيب القزويني، لما لخصَّ مفتاح السكاكي، ثم احتاج إلى أن يشرح تلخيصه، فوضع شرح التلخيص، وهو الكتاب الذي بقي متداولا في الساحة البلاغية حتى مطلع العصر الحديث[1]

ميزات هذا الطور:

يصفُ شوقي ضيف علماء البلاغة في هذا الطور بقوله: « لا يأتون بجديد في مباحثهم البلاغية، وإذا هم يقصرون عملهم فيها على تلخيص ما كتباه جميعاً...، وقلما أضافوا جديدا إلا تعقيدات شتى مما قرؤوه في الفلسفة والمنطق، وبذلك حجرت قواعد البلاغة وتجمدت، وبدا كأنه أصبح من المتعذر أن تعود إلى سيولتها القديمة»[2].

أهم ميزة سجلها العلماء على هذا الطور من أطوار البلاغة العربية، هي ما كان في من «طغيان البحث الفلسفي فيه على الصّبغة الأدبية التي امتاز بها الطور الأول، وإن كان كمُل الكلام فيه على الفصاحة والبلاغة من الناحية العلمية، وصار فيه إلى هذه العلوم المعروفة»[3].

ولا شكّ أن المصنفات في هذه المرحلة من شروح وتلخيصات ومنظومات تدلُّ على عناية أصحابها منذ عصر السكاكي وما بعده بالمناقشات العلمية والمماحكات اللفظية دون العناية بتربية الذوق، ففقدت البلاغة بذلك هدفها الرئيس.

كما يذكر شوقي ضيف في هذا الطور عن البلاغيين أنهم:« كان ينقصهم الذوق المرهف والحسُّ الحادُّ، كما كانت تنقصهم الملكة البصيرة التي تستطيع تحليل النماذج الأدبية، وتبيّن مواطن الجمال الخفيّة فيها، بل أيضا المواطن الظاهرة»[4].

ويقول علي العماري عن السكاكي: « وكان صاحب فلسفة فأخضع علم البيان لذهنيته الفلسفية، وقد نظر فيما كتب السلف من بحوث فنظمها في قواعد جافة كمواد القانون، ومنذ ذلك الحين ودراسة البلاغة لا تعدو هذه الدائرة التي صبَّ فيها السكاكي مباحث البيان والمعاني

(1) – المصدر السابق، (ص: 273).

(2) – البلاغة تطور وتاريخ، شوقي ضيف، (ص: 272).

(3) – البلاغة العالية، علم المعاني، لعبد المتعال الصعيدي، (ص: 1).

(4) – البلاغة تطور وتاريخ، شوقي ضيف، (ص: 273).

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

والبديع، وكذلك التأليف لم يعد أن يكون اختصاراً أو شرحاً أو تحشية على المفتاح أو ما تفرع منه»[1].

ومهما يكن من شيء، فإن هذه الآراء التي تكاد تطبق على ذم هذا المرحلة، ووصفها بالجمود والتعقيد ونحو ذلك من الأوصاف، فإننا نجد في مقابل ذلك من العلماء[2] من ينصف هذه المرحلة و يرى أنه لا ينبغي الاستهانة بما كتبه السكاكي ومن جاء بعده من البلاغيين، إذ تعدُّ تلك الكتابات في هذه المرحلة كتب تقعيد لبعض ما كتبه عبد القاهر الجرجاني في كتابيه: "دلائل الإعجاز"، و" أسرار البلاغة"، الذي أسس علم البلاغة تأسيسا دقيقا جدا، وأن من حاول أخذ البلاغة منهما وحده، فإنه أوقع نفسه في بحرٍ تتلاطم أمواجه، راكبه على غرر الغرق، والذي يضمن لراكبه النجاة هم الذين قعدوا قواعد علم البلاغة، وفي آثارهم من الدرر والفوائد والنكات التي لا يُعرِض عنها إلا جاهلٌ، ولا يذمها ويحثُّ على تركها إلا من ازدرى بالعلم والعلماء[3].

ويمكن أن نزيد على ذلك أن التواليف التي كتبت في هذا العصر كتبت بلغة العصر الذي كانت لغة المنطق سائدة في أوساطه ليس على البلاغة فحسب بل سائر فنون العلم، وذلك مما يقلل عليها العتب واللوم.

الطور الرابع: الطور الحديث.

بعد الأطوار التي وصلت إليها البلاغة العربية، يأتي بعض المحدثين ليفكر في تجديد البلاغة، والسعي في تنميتها واستخلاصها من المنهج الذي رسمه السكاكي ومن بعده، فظهرت مذاهب أدبية كثيرة تعددت معها في أذهان المعاصرين المفاهيم البلاغية، فدعوا دعوات كثيرة حول البلاغة.

(1) – مجلة الرسالة، أصدرها: أحمد حسن الزّيات باشا، واضع علوم البلاغة رأي ابن خلدون فيه، للأستاذ علي محمد حسن العماري (العدد 737، ص: 31).

(2) – وأشهر من تبنى هذا الرأي محمود شاكر، في مقدمته على أسرار البلاغة، إذ يقول: « ثم خلف من بعد عبد القاهر أيّمة من الخلف اتّبعوه وزادوا عليه، وأرادوا أن يقعدوا قواعد لعلم البلاغة، فشقُّوا لأنفسهم في زمانهم، ثمّ لنا من بعدهم، طريقاً جديداً يلاقي طريقه من وجه، ويخالفه من وجه آخر، كان ذلك اجتهادا منهم أحسنوا فيه غاية الإحسان، وأساؤوا بعض الإساءة»، مقدمة أسرار البلاغة، (ص: 3).

(3) – يُنظر لذلك: مقدمة محمود شاكر على أسرار البلاغة، (ص: 3، ص: 11).

فبعضهم دعا إلى الاهتمام بالمضمون، وإلى الالتزام بالأدب، ودعا آخرون إلى العناية بالشّكل والمضمون، أو إلى التوازن بينهما، أو إلى نبذ البلاغة القديمة؛ بلاغة الانفعال والعاطفة، ...وكتب آخرون في الأسلوب، وفي فن القول[1].

ولاشك أن هذه الدعوات أصحابها إنما يتذرعون بالتيسير تارة، والتجديد تارة أخرى، ويبقى ذلك مجرد دعوة يسهل على الناس ركوبها، وقليلٌ من هو متحققٌ بها.

ميزات الطور الرابع:

ويمتاز الطور الرابع بمحاولة القضاء على البحث الفلسفي في هذه العلوم والأخذ بها في طريقة العلوم الرياضية[2] بدل هذه الطريقة الفلسفية، مسائل موجزة، وتمرينات شعرية ونثرية، وأجوبة عنها مقرونة بها، أو مطلوب من المتعلم معرفتها[3].

وينبغي في تشكيل بلاغتنا الحديثة أن نُعنى ببيان الأساليب الأدبية المتفاوتة، وفنون الأدب المختلفة حتى نلائم بين بلاغتنا وأدبنا الحديث وأساليبه وفنونه، مع الحرص على الانتفاع بتراث أسلافنا البلاغي القيِّم الذي أودعوا فيه خصائص لغتنا الأدبية ومقوماتها بيانية والبلاغية[4]

والخلاصة في تطور البلاغة، أنها بدأت أول ما بدأت كملاحظات عابرة ويسيرة كان العرب يبدونها عند سماع الأشعار، فيستملحون أو يستهجنون، وربما ذكروا لذلك تعليلات يسيرة، ثم بعدها أخذت تلكم الملاحظات تكثر، ومع رقي العلوم بعد الإسلام ومخالطة الحضارات الأخرى، فإذا هي تعمُّقٌ وتنتظم في مباحث وأصول ونظريات، لتصير علما قائما برأسه، معياراً وميزاناً توزن به ألوان الكلام، « وسرعان ما وضع ابن المعتز أول كتاب في البديع، ويضيف له قدامة المتفلسف إلى بديعه فنونا جديدة، ويواصل المتكلمون مباحثهم في الإعجاز البلاغي للقرآن راسمين حدود كثيرٍ من الصور البيانية والبلاغية وفروعها المشعبة...، ويحتكم أصحاب النقد في كثيرٍ من مباحثهم إلى الأصول البيانية والبديعية، ويصنف بعض الأدباء في

(1) – البلاغة والنقد: المصطلح والنشأة والتجديد، لمحمد كريم الكواز، مؤسسة الانتشار العربي، بيروت– لبنان، الطبعة الولى: 2006م، (ص: 270).

(2) – المراد بالرياضية هنا: التدريب والتمرين.

(3) – البلاغة العالية، علم المعاني، لعبد المتعال الصعيدي، (ص: 1)

(4) – البلاغة، تطور وتاريخ، لشوقي ضيف، (ص:7).

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

صناعة الشعر والنثر مصنفات تجمع في قوسها صور البيان والبديع، وأعدَّ ذلك كله لنمو مباحث البلاغة نموا واسعاً، وتزدهر هذه المباحث وتونق وتؤتي ثمارها على يد عبد القاهر الجرجاني...

وخلفه الزمخشري يطبق تطبيقاً رائعاً قواعد العِلمين جميعا – المعاني والبيان- في تفسيره لآي الذكر الحكيم، مضيفاً إليهما من لفتاته الذهنية البارعة ونظراته التامة النافذة ما جعلهما يبلغان حدّ الكمال.»[1].

بعد هذه الجهود، تأتي جهود أخرى ولأجل الضعف الذي انتاب البيان العربي، وقصدا إلى تقريب البيان وتيسيره تأتي عصور التلخيص والتقعيد، ويقع التمازج مع الفلسفة والمنطق وأصول النحو، لتتكون مرحلة جديدة لم يكن قصد التقريب والتيسير قصدا شافعا لأصحابه في القيام بالبيان العربي، إذ كانت في هذه المرحلة مرحلة اختناق البلاغة العربية على حدِّ تعبير الدكتور شوقي ضيف، ثم تأتي المرحلة الحديثة التي ينادي أصحابها بالتيسير والتجديد.

(1) – المصدر السابق، (ص:5- 6).

جمعية الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

الفرع الثالث: أهمُّ كتب البلاغة في القرون الخمسة الأولى.

منذ أن أقبل العلماء على الكتابة في شأن البلاغة وجهودهم متواصلة في وضع الكتب، لأجل تقريبها وتقنينها، ووضع أصولها، وفرز مباحثها، و من المناسب أن نذكر أهم الكتب فيها من مراحل متباينة، ومن اتجاهات ومدارس مختلفة، حتى تتضح عندنا صورةُ تاريخ الكتابة في البلاغة العربية، وحتى تتميز لنا جهود العلماء من جهة، وتعاونهم من جهة أخرى في خدمة البيان العربي، وأهمُّ هذه الكتب:

كتابيْ: البيان والتبيين، والحيوان لأبي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ.

أجمع جلُّ من ترجموا للجاحظ على أن كتابيه "الحيوان" و"البيان والتبيين" هما أجلُّ تصانيفه، وأوسعها فائدة، وأوسعها انتشارا، قال ابن خلكان : «ومن أحسن تصانيفه وأمتعها كتاب "الحيوان" فلقد جمع كل غريبة ، وكذلك كتاب "البيان والتبيين"»(1).

فأما البيان والتبيين، فهو موسوعة كبيرة في الأدب يتناول فيه موضوعات متفرقة مثل الحديث عن الأنبياء والخطباء والفقهاء والأمراء والحديث عن البلاغة واللّسان والصّمت والشّعر والخطب والردّ على الشُّعوبية واللّحن والحمقى والمجانين ووصايا الأعراب ونوادرهم والزهد، وغير ذلك، وقد « تناول الجاحظ موضوعات البيان والفصاحة والبلاغة، ولم يكن لكل من هذه الألفاظ مدلول خاصٌ متميّز، فعرّف البلاغة عند الأمم المختلفة من فرسٍ ويونانٍ ورزمان وهنودٍ، ونقل أقوالاً كثيرة في البلاغة، وعلّق على بعض هذه الأقوال تعليقاً يشرحُها ويوضحُها»(2).

كما أثار الجاحظ بعض القضايا البلاغية العامة المتنوعة، فتحدث عن العيوب اللسانية، وأشار إلى أهميّة مراعاة مقتضى الحال، كما تحدث عن قضية الإيجاز والإطناب، كما تعرض للمجاز والتشبيه، إلا ان الجاحظ كما هو معلومٌ لم يعتني بالمصطلحات البلاغية وتعريفاتها وحدودها.

وأما كتاب "الحيوان"، فقد تميّز عن صنوه "البيان والتبيين"، بأنه كما قال شوقي ضيف: « وحديث الجاحظ الصور عن البيانية في كتابه "الحيوان"، أغنى وأغزر من حديثه عنها في "

(1) – وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد ابن خلكان، المحقق: إحسان عباس، الناشر: دار صادر – بيروت، (الطبعات الأولى كانت عام 1900م، وآخر الكتاب عام 1994م)، (ج3 /ص: 471).

(2) – الموجز في تاريخ البلاغة، لمازن مبارك، (ص: 53).

البيان والتبيين"، ذلك أنه عرض فيها لتأويل بعض آي الذكر الحكيم رادًّا على مطاعن الملاحدة، وما كانوا يثيرون من شبهات حولها بسبب جهلهم بوجوه التعبير الأدبي في العربية ودلالات صوره البلاغية...

ولعل الوصف العام لجهود الجاحظ في البلاغة من خلال كتاباته أنه: « قد ألمّ بالصور البيانية المختلفة، وبكثير من فنون البديع، غير أنه لم يسق ذلك في تعريفات وتحديدات، فقد كان مشغولا بإيراد النماذج البلاغية، وقلّما عنى بتوضيح دلالة المقال على القاعدة البلاغية التي يقررها»[1]، « وقد ظلت كتابات الجاحظ وملاحظاته في البيان معينا لا ينفد لمدّ الأجيال بكثيرٍ من قواعدها، كلٌّ يستمدُّ منها حسب قدرته ومهارته الذهنيّة»[2].

كتاب: النُّكت في إعجاز القرآن للرُّماني.

الرُّماني علَمٌ من أعلام المعتزلة، كتب الكثير في المجالات المتنوعة؛ تفسيراً ولغةً ونحوا وفي علم الكلام، ومن مؤلفاته المهمة في مجال البلاغة، رسالته " النُكت في إعجاز القرآن"، أورد فيها ما رآه من وجوه إعجاز القرآن، وكان له فيها حديثٌ عن البلاغة إذ جعلها على ثلاث طبقات: عليا ودنيا وطبقة وسطى، فأما التي للقرآن الكريم فهي العليا، ثم في تقسيم البلاغة جعلها عشرة أقسام: الإيجاز، والتشبيه، والاستعارة، والتلاؤم، والفواصل، والتجانس، والتصريف، والتضمين، والمبالغة، وحُسن البيان[3].

كما قسّم الرماني الكلام إلى حسنٍ وقبيحٍ ومحال، فالقبيح الذي هو مثل التخليط، والمحال هو الذي لا يتضح به المعنى، وأم الحسن فهو الكلام المبين عن المعاني الواضحة.

يقول شوقي ضيف في تقييم كتاب الرماني: « واضحٌ أنه أضاف في حديثه عن البلاغة إضافات جديدة إلى من سبقوه، فقد حدّد بعض فنونها تحديدا نهائياً، ورسم لها رسما دقيقا»[4].

---

(1) – البلاغة، تطور وتاريخ، لشوقي ضيف، (ص:55- 56).

(2) – المصدر نفسه، (ص: 57).

(3) – النُّكت في إعجاز القرآن، للرماني، (ص:76).

(4) – البلاغة، تطور وتاريخ، لشوقي ضيف، (ص: 107).

كتاب: إعجاز القرآن للباقلاني.

الباقلاني من أعلام المتكلمين على مذهب أبي الحسن الأشعري(1)، صنّف الكتب الكثيرة أكثرها في علم الكلام، ولما أراد الحديث عن البلاغة، فإنه أدرج جهوده البلاغية في كتابه "إعجاز القرآن"(2)، بل كان يرى أن الحديث عن الإعجاز أولى من الحديث عن المباحث اللغوية والنحوية، وحتى المباحث الكلامية، يقول الباقلاني: « وقد كان يجوز أن يقع ممن عمل الكتب النافعة في معاني القرآن، وتكلم في فوائده من أهل صنعة العربية وغيرهم من أهل صناعة الكلام، أن يبسطوا القول في الابانة عن وجه معجزته، والدلالة على مكانه، فهو أحق بكثير مما صنفوا فيه من القول في الجزء والطفرة، ودقيق الكلام في الاعراض، وكثير من بديع الاعراب وغامض النحو، فالحاجة إلى هذا أمس، والاشتغال به أوجب»(3).

ولأجل هذه القناعة التي وصل إليها الباقلاني، وضع كتابه في إعجاز القرآن، وقد جعل فصله الأول في الحديث عن القرآن الكريم، وأنه معجزة الرسول ﷺ، وأنها قائمة على البلاغة، وقد استشهد لذلك بطائفة من الآيات القرآنية، وغرضه الأول الاحتجاج لبلاغة القرآن، والردّ على القائلين بالصّرفة من أهل الاعتزال.

وفي حديثه عن وجوه الإعجاز، فإنه رضي منها ثلاثة وجوه:

- تضمنه الإخبار عن الغيوب.
- ما فيه من القصص الديني وسير الأنبياء عليهم السلام.
- والأمر الثالث: بلاغته.

وفي الحديث عن الوجه الثالث أطنب وأسهب الكلام عنه، لأنه يراه أهم وجوه إعجاز القرآن، كما نبه أن إدراك هذا الوجه من وجوه إعجاز القرآن، لا يقف عليه إلا من تمكن من

---

(1) – علي بن إسماعيل بن إسحاق، أبو الحسن، من نسل الصحابي أبي موسى الأشعري: مؤسس مذهب الأشاعرة كان من الأئمة المتكلمين المجتهدين، ولد في البصرة سنة 260هـ، وكان عجبا في الذكاء، وقوة الفهم، ولما برع في معرفة الاعتزال، كرهه وتبرأ منه، وصعد للناس، فتاب إلى الله ﷻ منه، ثم أخذ يرد على المعتزلة، ويهتك عوارهم، وتوفي ببغداد، قيل: بلغت مصنفاته ثلاثمائة كتاب، سير أعلام النبلاء (ج 15/ ص:85)، وينظر ترجمته في: البداية والنهاية: (ج11 /ص: 187).

(2) – وللدكتور السيد أحمد صقر، دراسة مستفيضة عن الكتاب في مقدمة تحقيقه على الكتاب نفسه، تُنظر مقدمة التحقيق، (ص: 67- 89).

(3) – إعجاز القرآن، للباقلاني، (ص: 5).

جمعية الأمير عبد القادر لعلوم الأسرمية

وجوه البلاغة العربية تمكنا بيّنا، وامتلك الملكة التي يعرف بها الرداءة من الجودة في الكلام، ويعرف مراتبه في الفصاحة.

ومع ما بذله الباقلاني من جهدٍ في ذلك، فإن الدكتور شوقي ضيف يرى أن: « تفسير نظريته في الإعجاز القرآني على هذا النحو المجمل ما يدلُّ على أنه لم يستطع تفسير الإعجاز القرآني من حيثُ نظمُه تفسيراً مفصلاً دقيقاً على الرَّغم من إطنابه وتطويله»[1].

كتابي: دلائل الإعجاز، وأسرار البلاغة لعبد القاهر الجرجاني.

لما بلغت البلاغة إلى عصر الجرجاني، بلغت إلى الغاية من الإحكام والنضج، والجرجاني له من الآثار في علوم العربية، ما كان شاهدا له على الإمامة فيها، وأنه صاحب فكر نافذ فيها، وعلم واسع وباعٍ طويل ورأيٍّ سديد، وبخاصة ما تعلق بالبلاغة والبيان والنحو.

يقول شوقي ضيف متحدثا عن الجرجاني، وعن قيمة كتابيه: « ولعبد القاهر مكانة كبيرةٌ في تاريخ البلاغة، إذ استطاع أن يضع نظرتي المعاني والبيان وضعاً دقيقاً، أما النظرية الأولى، فخصَّ بعرضها وتفصيلها كتابَه "دلائل الإعجاز"، وأمَّا النظرية الثانية فخصَّ بها وبمباحثها كتابه "أسرار البلاغة"»[2].

فأما كتاب "دلائل الإعجاز"، فإنه ابتدأه أول ما ابتدأه منوها بالعلم عموما وبالبيان خصوصا، فهو يقول فيه: « ثم إنك لا ترَى عِلْماً هو أرسَخُ أصلاً، وأبْسَق فَرعاً، وأحلى جَنًى، وأَعذبُ وِرْداً، وأكرمُ نِتاجاً، وأنْوَرُ سراجاً، مِن عِلْم البَيان، الذي لولاه لم تر لساناً يَحُوك الوشيَ، ويصَوغ الحَلْيَ، وَيلفِظ الدرَّ، وينفثُ السِّحرَ، ويَقْري الشَّهْدَ، ويُريكَ بدائعَ منَ الزهر، ويجنيك الحلو اليانع من التمر، والذي لولا تحفيه بالعوم، وعنايتِهِ بها، وتصويرهُ إياها، لبقيتْ كامنةً مستورة، ولما استبنْتَ لها يدَ الدهرِ صورةً، ولاستمرَّ السِّرارُ بأهلَّتها، واستَولى الخَفاءُ على جُملتِها، إلى فوائدَ لا يُدركها الإحصاءُ، ومحاسنَ لا يَحْصرُها الاستقصاء»[3].

---

(1) – البلاغة تطور وتاريخ ، لشوقي ضيف، (ص: 109).

(2) – المصدر نفسه، (ص: 160).

(3) – دلائل الإعجاز، للجرجاني، (ص: 5-6).

ولا نشكُّ في صدق ما قاله الجرجاني عن البيان، ولأن البيان ترجمان الإنسان، وهو أعظم خصيصة اختصَّ بها الله بني الإنسان، قال الله تعالى: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ ۝١ عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ ۝٢ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ ۝٣ عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ ۝٤﴾ الرحمن: ١ – ٤.

ثم أردف حديثه عن النحو بحكم أن البيان متوقف في كثيره وقليله على العلم به، بل وعلى حذقه وامتلاك ناصيته، فيقول عن الإعراب: « الألفاظ معلقة على مَعانيها حتى يكونَ الإعرابُ هو الذي يَفتحها، وأنَّ الأغراضَ كامنةٌ فيها حتى يكونَ هو المستخرِجَ لها، وأنه المعيارُ الذي لا يتبيَّن نقصانُ كلامٍ ورجحانُه حتى يعرضَ عليه، والمقياسُ الذي لا يُعرفُ صحيحٌ من سَقيمٍ حتى يرجع إليه، لا يُنكِرُ ذلك إلاَّ من يُنكِر حِسَّه، وإلاَّ مَنْ غالطَ في الحقائقِ نَفْسَه»[1].

وأما عن سرِّ الفصاحة والبلاغة عنده، فمَكْمنها في "النظم"، الذي هو عنده: « توخي معاني النحو، وبيان ذلك: اِعلم أنْ ليسَ "النظمُ" إلا أن تضعَ كلامكَ الوضعَ الذي يَقتضيه "علمُ النحو"، وتعملَ على قوانينِهِ وأُصولِه، وتعرفَ مناهجَه التي نُهجتْ فلا تزيغَ عنها، وتحفَظُ الرُّسومَ التي رُسمتْ لك، فلا تُخِلَّ بشيءٍ منها.

فالجرجاني، يقرر: « أنْ لا نَظْمَ في الكَلِم ولا ترتيبَ، حتى يُعلَّقَ بعضُها ببعضٍ، ويُبْنى بعضُها على بَعض، وتُجعلَ هذه بسبب من تلك»[2]، وهكذا فالنظم عند الجرجاني: « ما هو إلا ائتلاف الألفاظ ووضعها في الجملة الموضع الذي يفرضه المعنى النحوي، فالمعنى النحوي للكلمة هو الذي يفرض تقديمها أو تأخيرها، تعريفها أو تنكيرها، ذكرها أو حذفها....»[3].

وهذا النظم الذي تحصل به المزية في الكلام، إنما آلة ادراكه كما يرى الجرجاني هو الذوق الصحيح، والإحساس المرهف بالبيان العربي، يقول الجرجاني عن ذلك: « واعلمْ أنه لا يصادِفُ القولَ في هذا البابِ موقعاً من السامِعِ، ولا يَجدُ لديه قَبولاً، حتى يكونَ من أهلِ الذوقِ والمعرفةِ، وحتى يكونَ ممن تُحدِّثهُ نفسُه بأنَّ لِمَا يُومِئُ إليه من الحُسْنِ واللطْفِ أصْلاً، وحتى يختلفَ الحالُ عليه عندَ تأمُّلِ الكلامِ، فيجدَ الأريحيَّة تارةً، ويعْرى منها أخرى، وحتى إذا عجَّبْتَه عَجِبَ، وإذا نَبَّهْتَه لَموضع المزيةِ انْتبَه»[4].

---

(1) – المرجع نفسه، (ص: 28).

(2) – المرجع نفسه، للجرجاني، (ص: 55).

(3) – الموجز في تاريخ البلاغة، لمازن المبارك، (ص: 93).

(4) – دلائل الإعجاز، للجرجاني، (ص: 291).

جمعية عبد القادر للعلوم الإسلامية

ثم لمّا انهى الجرجاني تأصيل قضية النظم وأثرها في البيان العربي خصوصا، وفي البيان الإنساني عموما، يشرع في شرح ذلك شرحا قائما على الشاهد الشعري، ويُعْقِبُ ذلك بآي الذكر الحكيم، الذي كان غرضه الأول من الكتاب إقامة الدلائل على إعجازه، فيوقف القارئ على تحليلات وتخريجات بيانية للآيات القرآنية، ليخرج القارئ وقد أسلم منتهى البلاغة للقرآن الكريم.

وأما كتابه الثاني: "**أسرار البلاغة**"، فيستهله كذلك بحديث عن فضل الكلام ومزيَّة البيان، يؤكد فيه قضية النظم، وأن حقيقته أنه وصفٌ في الألفاظ حال الارتباط والضمِّ، لا مجرد مفردة، فيقول: «والألفاظ لا تُفيد حتى تُؤلَّف ضرباً خاصّاً من التأليف، ويُعْمَد بها إلى وجه دونِ وجهٍ من التركيب والترتيب»[(1)].

والجرجاني في "أسرار البلاغة" في مسألة الاستشهاد، نجده يمثل ببعض الفنون البديعية التي سميّت فيما بعد بالمحسنات اللفظية، كالسجع والجناس، ونحو ذلك، فيوقف القارئ على سرّ الجمال فيها، ومدى ارتباطه بالمعنى الذي استدعاها، فيقول مثلا عن الجناس: « أما التجنيس فإنك لا تستحسن تجانُس اللفظتين إلا إذا كان وقع معنييهما من العقل موقعاً حميداً، ولم يكن مَرْمَى الجامع بينهما مَرْمًى بعيداً»[(2)]، كما يزيدنا بيانا وتعليلا لذلك لمّا يقول: « فقد تبين لك أن ما يعطي «التجنيس» من الفضيلة، أمر لم يتمّ إلا بنصرة المعنى، إذ لو كان باللفظ وحده لما كان فيه مستحسن، ولما وجد فيه معيب مستهجن، ولذلك ذمّ الاستكثار منه والولوع به، وذلك أن المعاني لا تدين في كل موضع لما يجذبها التجنيس إليه»[(3)].

---

(1) – أسرار البلاغة، للجرجاني، (ص: 4)، وهذا المعنى دندن عليه الجرجاني في دلائل الإعجاز كذلك، وذلك إذ يقول: « الألفاظَ لا تتفاضَلُ من حيث هي ألفاظٌ مجرَّدة، ولا من حيثُ هي كلِمٌ مفردةٌ، وأن الفضيلة وخلافها، في ملائمة معنى اللفظة لمعنى التي تليها، وما أشبهَ ذلك، مما لا تَعلُّقَ له بصريحِ اللفظ» دلائل الإعجاز، للجرجاني، (ص: 46)، ويقول بعد ذلك كما في الدلائل (ص: 48): « فلو كانتِ الكلمةُ إذا حَسُنتْ حَسُنتْ من حيث هي لفظٌ، وإذا استَحقَّت المزيةَ والشرفَ استحقَّتْ ذلك في ذاتِها وعلى انفرادِها، دونَ أن يكونَ السببَ في ذلك حالٌ لها مع أَخَواتها المجاورةِ لها في النَّظْم، لما اختلفَ بها الحال، ولكانت غما أن تحسن أبدًا، ولا تحسن أبدًا».

(2) – أسرار البلاغة، للجرجاني، (ص: 7).

(3) – المرجع نفسه، (ص: 16).

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

وبعدها يُتبعُ الجرجاني ذلك بفصول كثيرة يعْرِضُ فيها لمباحث البيان، من التمثيلات والتشبيهات والاستعارات، فيحللها تحليلا بيانيا، ويُظهر منها مواطن الجمال، ساءٌ اتصل ذلك بطرفي التشبيه أو وجه الشبه أو طرافة الصورة، ثم يدقق في ذكر الفروق بين الاستعارة وغيرها.

كلُّ هذه الجهود الجبارة من عبد القاهر الجرجاني، جعلته يتبوّأ منزلة سامقة من البلاغة العربية، ويردُّ الدكتور مازن مبارك العلة في ذلك إلى أمرين اثنين:

«**أولهما**: أنه اتجه بالبلاغة نحو التقنين، وتحديد المعالم، فكانت له في " دلائل الإعجاز"، نظرةٌ كاملةٌ في المعاني، وكانت له في " أسرار البلاغة" نظرة كاملة تقريباً في علم البيان.

والأمر الثاني: أنه آلف بين العلم والذوق، واستعان بأحدهما على الآخر»[1].

وقول مازن مبارك في أن الجرجاني اتجه إلى تقنين البلاغة، لا يُعترض عليه بأنه لم يقسم البلاغة إلى الأقسام الثلاثة التي عُرفت من بعده، فإنه ﷺ كان يرى أن علوم البلاغة علْمٌ واحدٌ تتشعبُ مباحثه.

كتاب: شرح التلخيص للخطيب القزويني

لعل جلال الدين محمد بن عبد الرحمن القزويني هو أبرز الأعلام الذين لخصوا مفتاح العلوم للسكاكي، فإنه كغيره من علماء البلاغة، أُعجب بالكتاب، ولكنه رأى أنه معقد العبارة، متشعب التقاسيم كثيرها، فأراد أن يهذّبه ويرتبه، فوضع له تلخيصاً، ثم كأنه رأى أنه لم يفِ له بالغرض الذي أراده، فوضع كتابه الثاني "الإيضاح"، ولعله أحسن ما صنفه المتأخرون في البلاغة.

ومع أن الخطيب القزويني الذي أراد الإيضاح، فإن إيضاحه: « لم يخلُ من بعض العسر، ولم ينأ عن الأسلوب الفلسفي»[2]، لذلك احتاج إيضاح القزويني إلى إيضاح.

وهذا الكتاب بدوره حظي لدى العلماء باهتمام بالغ فمنهم من شرحه ومن لخصه، ومنهم من نظمه؛ فممن شرحه بهاء الدين السبكي في كتابه "عروس الأفراح في شرح تلخيص المفتاح"، وابن يعقوب المغربي، في كتابه "مواهب الفتاح في شرح تلخيص المفتاح"، والخلخالي في كتابه "مفتاح تلخيص المفتاح"، وسعد الدين التفتازاني وضع له شرحين المختصر والمطول، وممن نظمه شعراً جلال الدين السيوطي في كتابه عقود الجمان، وعبد الرحمن الأخضري الذي سمَّى

(1) – الموجز في تاريخ البلاغة، لمازن مبارك، (ص: 102).

(2) – المصدر السابق، (ص: 113-114).

نظمه "الجوهر المكنون في الثلاثة فنون"، وغيرهم كثير ، ولاتزال خزائن الكتب والمخطوطات تضم في جنباتها عدداً كبيراً من الكتب التي دارت حول شرح مفتاح العلوم أو حول كتاب التلخيص للقزويني.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

المبحث الثاني: علم إعجاز القرآن الكريم في كتب البلاغة.

كتب البلاغة العربية المتأمل في نشأتها وبداية الكتابة فيها، يجد أنها أول ما نشأت كان أكبر الدوافع لذلك هو الحديث عن إعجاز القرآن الذي كانت أهمُّ وجوهه الإعجازية إعجازه من جهة بلاغته التي بلغت الغاية التي لا يلحقها كلامٌ، ولا أدلَّ على ذلك من أنَّ كتبا بلاغية كثيرة وُسمت بالإعجاز[1]، وهذا مبحث مخصص للحديث عن "إعجاز القرآن"، في كتب البلاغة، وذلك من خلال مطالب ثلاثة، هي:

المطلب الأول: ممهدات ومقدمات

المطلب الثاني: إعجاز القرآن في كتب البلاغة

المطلب الثالث: تقويم درس إعجاز القرآن من خلال كتب البلاغة.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

(1) – ومثال ذلك: دلائل الإعجاز، لعبد القاهر الجرجاني، والطراز لأسرار البلاغة، وعلوم حقائق الإعجاز، ليحي بن حمزة العلوي، ونهاية الإيجاز في دراية الإعجاز، لفخر الدين الرازي، تحرير التحبير في صناعة الشعر والنثر وبيان إعجاز القرآن لابن أبي الأصبع.

المطلب الأول: مقدمات وممهدات

بدأ اهتمام العرب بالبيان والفصاحة، وبالبلاغة باعتبارها فنا يقوم عليه الأدب الرفيع، وقد كان لذلك مظاهر كثيرة سبق التنبيه إليها في المدخل التعريفي، كمثل عقدهم للأسواق الأدبية في عكاظ، وما كانوا يتناشدون الأشعار، ويتسابقون في ذلك الأمر بأن يحتكموا الى ذوي الخبرة والدُّربة منهم، وذوي القدرة على تمييز جيد الشعر من رديئه.

ولمَّا أنزل الله القرآن الكريم على أولئك العرب أيقنوا في قرارة أنفسهم – وإن تكلموا بما تكلموا به مكابرة – أن بلاغة القرآن فوق كلّ بلاغة، عندها احتاج العلماء إلى إظهار تفوق القرآن على غيره من الكلام، وكان المعين على ذلك وضع معالم لعلمٍ صار من أهم علوم العرب وأخطرها، ألا وهو علم البلاغة الذي مازال ولم يزل يصاحب في مباحثه شعر العرب إلى جانب كلام الله ﷻ، وخاصة ما تعلق بإعجازه من تلكم الجهة، أعني البلاغية، وهذا المبحث لحديث عن إعجاز القرآن في كتب البلاغة، وذلك من خلال ما يأتي:

الفرع الأول: مناسبة الآية للقوم:

سبق في الفصلين السابقين الحديث عن مناسبة الآية التي يرسلها الله ﷻ إلى كلِّ قومٍ، وأنها إنما تأتي في الغالب مناسبة لما تفوق وبرّز فيه الأقوام من العلوم أو الصناعات أو نحو ذلك، ودلك لتكون الآية أبلغ وأشد وقعاً في قلوب الأقوام.

وهذا الأمر لم يكن غُفلاً عن أهل البلاغة في أثناء حديثهم عن الإعجاز، وقد أشار إلى ذلك غير واحدٍ من البلاغيين، فهذا عبد القاهر الجرجاني يذكر أنهم، « لَمَّا ذكَروا معجزاتِ الأنبياءِ عليهم السلام ، وقالوا: إنَّ اللهَ تعالى قد جَعَل معجزةَ كلِّ نَبيّ فيما كان أغْلَبَ على الذين بُعِثَ فيهم، وفيما كانوا يتباهَوْنَ به، وكانت عوامهم تعظم به خواصهم، قالوا: إنما لمَّا كان السِّحْرُ الغالِبَ على قومِ فِرْعونَ، ولم يكُنْ قد استَحكَم في زمانِ استحكامَه في زمانِه، جَعَل تعالى معجِزةَ موسى عليه السلام في إبطاله وتوهينه، ولما كان الغلب على زمانِ عيسى عليه السلام الطِّبُ، جعلَ الله تعالى معجزته في إبراء الكمه والأَبْرصِ وإحياءِ الموتى، ولما انتَهوْا إلى ذكْر نبيّنا محمد ﷺ وذكْرِ ما كان الغالبَ على زمانِهِ، لم يذكروا إلاَّ البلاغَةَ والبيانَ والتصرُّفَ في ضروب النظْم»[1].

(1) – دلائل الإعجاز، للجرجاني، (ص: 475)

وكذلك نجد ابن رشيق القيرواني، يشير إلى الأمر نفسه، لمَّا يقول: « لأن الله تعالى إنما بعث رسوله أمياً غير شاعر إلى قوم يعلمون منه حقيقة ذلك، حين استوت الفصاحة، واشتهرت البلاغة؛ آية للنبوة، وحجة على الخلق، وإعجازاً للمتعاطين، وجعله منثوراً ليكون أظهر برهاناً لفضله على الشعر الذي من عادة صاحبه أن يكون قادراً على ما يحبه من الكلام، وتحدى جميع الناس من شاعر وغيره بعمل مثله فأعجزهم ذلك، كما قال الله تعالى: ﴿قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴿٨٨﴾﴾ [الإسراء: ٨٨] »[1].

وهذا لا شك أنه أمرٌ من الظهور بمكان مما جعل العلماء على اختلاف تخصصاتهم يتواردون على ذكره واستحسانه، وهو غير بعيدٍ على حكمة الله ﷻ.

الفرع الثاني: شروط المعجزة في كتب لبلاغة.

الحديث عن شروط المعجزة حديثٌ مهمٌّ، والغرض منه ضبط أمر المعجزة وشروطها حتى لا يقع اللبس بينها وبين غيرها من الأمور التي سبق منها طرفٌ خاصة في ثنايا دراسة كتب دلائل النبوة، وهنا حديث عن ذلك عند علماء البلاغة.

أولا: شرط العجز

شرط " العجز" عندهم من أهم الشروط، ولذلك سميت المعجزة به من باب تسمية الشيء بأهم مكوناته، حتى قال ابن سنان الخفاجي: « فالمعجز الدال على نبوة محمد نبينا ﷺ هو القرآن»[2].

وقد جعل عبد القاهر الجرجاني هذا الشرط هو الدليل الباقي على وجه الدهر لآية النبي ﷺ، وذلك لما ذكر معنى لبقاء المعجزة بالقرآن، فقال: ثم أورد اعتراضا بقوله: « فإذا كنتَ لا تشكُّ في أَنْ لا معنى لبقاءِ المُعجزة بالقرآن إلاَّ أنَّ الوصفَ الذي له كان معجزاً قائمٌ فيه أبداً، وأنَّ الطريقَ إلى العلم به موجودٌ، والوصولَ إليه ممكنٌ»[3]، فجعل العجز أهم وصف قائم بالمعجزة، وهو متحققٌ في المشركين، وغيرهم ممن يشكك في القرآن ويرتاب في أمره.

(1) – العمدة في محاسن الشعر وآدابه، لابن رشيق القيرواني، (ج1/ ص: 20-21).
(2) – سرُّ الفصاحة، لابن سنان الخفاجي، (ص: 14)
(3) – دلائل الإعجاز، للجرجاني، (ص: 10).

وقد ذكر العلوي شرط العجز، وما انجرَّ منه من ترك المعارضة، في قوله « وإنما قلنا إن كل من توفرت دواعيه إلى الشيء ولم يوجد مانع منه، ثم لم يتمكن من فعله، فإنه يكون عاجزا، لأنه لا معنى للعجز إلا ذاك، وبهذا الطريق نعرف عجزنا عن كل ما نعجز عنه كخلق الصور والصفات، ويؤيد ما ذكرناه من عجزهم ويوضحه، أنهم عدلوا عن المعارضة إلى تعريض النفس للقتل، مع أن المعارضة عليهم كانت أسهل وما ذاك إلا لما أحسوا به من العجز من أنفسهم عنها، فثبت بما ذكرناه كون القرآن معجزا»[1].

وهكذا توارد العلماء في كتب البلاغة وغيرها على ذكر شرط العجز في الخليقة عن الإتيان بمثل ما جاء به الرسول من عند الله.

ثانيا: التحدي:

ومما ذكروه في حدّ المعجزة شرط التحدي، والتحدي بالقرآن صريحٌ فيه في مواضع منه، وحقيقته في اللُّغة كما قال الجواليقي: « التحدي يقال تحدى فلان لفلان إذا تعرض له بالشر ويقال أنا حُديَّاك على هذا الأمر أيْ: أخاطرك عليه»[2].

وهو في الاصطلاح: كما قال عبد القاهر الجرجاني في حقيقته، وما ينبغي فيه: « التحدي -كما لا يخفى- مطالبةٌ بأن يأتوا بكلامٍ على وصفٍ، ولا تصحُّ المطالبةُ بالإتيان به على وصفٍ من غيرِ أن يكونَ ذلك الوصفُ معلوماً للمطالَبِ ويبطلُ بذلك دعوى الإعجاز أيضاً؛ وذلك لأنه لا يتصور أن يقالَ: إنه كانَ عَجْزٌ، حتى يثبتَ معجوزٌ عنه معلوم؛ فلا يقومُ في عَقْل عاقلٍ أن يقول لخصمٍ له: "قد أعجزَك أن تفعل مثل فعلي"، وهو لا يشير له إلى وصفٍ يَعلَمُه في فعله، ويراهُ قد وقعَ عليه»[3].

ثم إن وقوع التحدي بالإتيان بمثل القرآن الكريم في العرب أبلغ منه في غيرهم، لأنهم كمُّل الناس في بلاغة الكلام، فرسان الفصاحة، لأنه: «لا يجوز أن يدعي للمتأخرين من الخطباء والبلغاء عن زمان النبي ﷺ الذي نزل فيه الوحي، وكان فيه التحدي، أنهم زادوا على أولئك

(1) – الطراز، ليحي العلوي، (ج3/ ص: 205-206).

(2) – شرح أدب الكاتب لابن قتيبة، المؤلف: موهوب بن أحمد بن محمد بن الخضر بن الحسن، أبو منصور ابن الجواليقي، قدَّمَ له: مصطفى صادق الرافعي، الناشر: دار الكتاب العربي، بيروت، د ت ط، (ص: 160).

(3) – دلائل الإعجاز، للجرجاني، (ص: 385-386)

الأولين، أو كمَلُوا في علم البلاغة أو تعاطيها لما لم يكملوا له، كيف؟ ونحن نراهم يحملون عنهم أنفسهم، ويبرؤون من دعوى المداناة معهم، فضلًا عن الزيادة عليهم»(1).

وهذا يحي العلوي يذكر « أنه ﷺ تحدّى به العرب الذين هم النِّهاية في الفصاحة والبلاغة، والغاية في الطلاقة والذّلاقة، وهم قد عجزوا عن معارضته، وكلما كان الأمر فيه كما ذكرناه فهو معجز»(2)، وقد جعل العلوي التحدي بالقرآن الكريم، للعرب المشركين وقع على ثلاث مراتب:

« **الأولى**: بالقرآن كله، فقال تعالى: ﴿قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَٰذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴿٨٨﴾﴾ الإسراء: ٨٨.

الثانية: بعشر سور منه كما قال تعالى: ﴿قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ﴾ هود: ١٣.

الثالثة: بسورة واحدة كما قال تعالى: ﴿فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ﴾ البقرة: ٢٣، ثم قال بعد ذلك: ﴿فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا وَلَن تَفْعَلُوا﴾ البقرة: ٢٤، فنفى القدرة لهم على ذلك بقضية عامة، وأمر حتم لا تردّد فيه»(3).

أما عن الجنس الذي يقع به التحدي، فإن «الآيات التي يذكر فيه التحدي واردة على جهة الإطلاق ليس فيها تحد بجهة دون جهة، لأنه لم يذكر فيها أنه تحداهم، لا بالبلاغة ولا بالفصاحة، ولا بجودة النظم والسياق، ولا بكونه مشتملا على الأمور الغيبية، ولا لاشتماله على الأسرار والدقائق، وتضمنه المحاسن والعجائب، ولا أشار إلى شيء خاص يكون مقصدا للتحدي، وإنما قال: بمثله، وبسورة، وبعشر سور على الإطلاق، ثم إن العرب أيضا ما استفهموه عما يريد بتحديهم في ذلك، ولا قالوا ما هو المطلوب في تحدينا، بل سكتوا عن ذلك، فوجب أن يكون سكوتهم عن ذلك لا وجه له إلا لما قد علم من اطراد العادات المقررة بين أظهرهم أن الأمر في ذلك معلوم أنه لا يقع إلا بما ذكرناه من البلاغة والفصاحة وجودة السياق والنظم»(4).

(1) – المصدر السابق، (ص: 576).
(2) – الطراز، ليحي العلوي، (ج3/ ص: 206).
(3) – المرجع نفسه، (ج3/ ص: 207).
(4) – المرجع السابق، (ج3/ ص: 225).

جمعية الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

ثالثا: السلامة من المعارضة:

ومن الشروط التي ذُكرت في تعريف المعجزة أن تكون سالمةً من المعارضة، وهذه هي ثمرة التحدي بالآية التي يأتي بها النبي إلى قومه، وفي القرآن الكريم لما وقع التحدي لم يُحفظ عن العرب أو غيرهم أنهم تمكنوا من معارضته، يقول يحي العلوي: « وإنما قلنا: إنهم لم يعارضوه لأنهم لو أتوا بالمعارضة لكان اشتهارها أحق من اشتهار القرآن، لأن القرآن حينئذ يصير كالشبهة، وتلك المعارضة كالحجة، لأنها هي المبطلة لأمره، ومتى كان الأمر كما قلناه وكانت الدواعي متوفرة على العجز عنه كخلق الصور والصفات، ويؤيد ما ذكرناه من عجزهم ويوضحه، أنهم عدلوا عن المعارضة لي تعريض النفس للقتل، مع أن المعارضة عليهم كانت أسهل وما ذاك إلا لما أحسُّوا به من العجز من أنفسهم عنها، فثبت بما ذكرناه كون القرآن معجزا»[(1)].

وذكر ابن رشيق أن قريشاً همّت بالمعارضة، ولكنها احجمت عن ذلك عندما سمعت بعض آيات القرآن الكريم، يقول ابن رشيق« ولما أرادت قريش معارضة القرآن عكف فصحاؤهم الذين تعاطوا ذلك على لباب البر وسلاف الخمر ولحوم الضأن والخلوة إلى أن بلغوا مجهودهم. فلما سمعوا قول الله ﷻ: ﴿وَقِيلَ يَٰٓأَرۡضُ ٱبۡلَعِي مَآءَكِ وَيَٰسَمَآءُ أَقۡلِعِي وَغِيضَ ٱلۡمَآءُ وَقُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ وَٱسۡتَوَتۡ عَلَى ٱلۡجُودِيِّۖ وَقِيلَ بُعۡدٗا لِّلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ٤٤﴾ هود: ٤٤، يئسوا مما طمعوا فيه، وعلموا أنه ليس بكلام مخلوق»[(2)].

كما نبه الجاحظ أنه قد وقع، «صرف أوهام العرب عن محاولة معارضة القرآن، ولم يأتوا به مضطربا ولا ملفّقا ولا مستكرها»[(3)]، فبطلت بذلك المعارضة للقرآن الكريم، وسَلِمَ من المعارضة، فَسَلِمَ به شرط من شروط المعجزة.

(1) – الطراز للعلوي، (ج 3/ ص: 208).
(2) – العمدة في محاسن الشعر، لابن رشيق القيرواني، (ج1/ص: 211).
(3) – الحيوان، للجاحظ، (ج7/ ص: 144)

المطلب الثاني: وجوه الإعجاز في كتب البلاغة

كتب البلاغة العربية، إذ تتحدث عن إعجاز القرآن، فإنها لم تُهمل الحديث عن وجوه إعجاز القرآن الكريم، الذي يعدُّ أهم قضايا الإعجاز، لذلك فإن القارئ في كتب البلاغة يمرُّ عليه في ثناياها ذكرٌ لبعض الوجوه التي كان بها القرآن معجزا، وفي هذا المطلب محاولة لكشف مدى مساهمة كتب البلاغة في الحديث عن وجوه إعجاز القرآن، وذلك من خلال المطالب الآتية:

الفرع الأول: الإعجاز بالنظم:

إذا كانت كتب دلائل النبوة وكتب علم الكلام فيها عناية بإعجاز القرآن من جهة النظم الذي كان عليه، فإن كتب البلاغة أولى ببيان ذلك وأولى، وقد جاء عن أبي هلال العسكري حديث عن النظم في مواطن منها أنه عقد في كتاب الصناعتين فصلا في كيفية نظم الكلام والقول في فضيلة الشعر وما ينبغي استعماله في تأليفه، فقال : «إذا أردت أن تصنع كلاما فأخطر معانيه ببالك، وتنوّق له كرائم اللَّفظ، واجعلها على ذكر منك؛ ليقرب عليك تناولها»[1].

والعناية بالنظم في كتب البلاغة تبتدأ بالعناية بمفهومه وماهيته، ونجد الجرجاني أكثر العلماء عناية بذلك، وهو إذ يُعرِّفه يقول: «اعلم أنْ ليسَ "النظمُ" إلا أن تضعَ كلامكَ الوضعَ الذي يَقتضيهِ "علمُ النحو"، وتعملَ على قوانينهِ وأُصولِه، وتعرفَ مناهجَه التي نُهِجتْ فلا تزيغَ عنها، وتحفَظُ الرُّسومَ التي رُسمتْ لك، فلا تُخِلَّ بشيءٍ منها»[2].

فالنظم عنده وضعٌ للكلم، ولكنه، كما يرى ليسَ معناهُ ضمُّ الشيء إلى الشيء كيف جاء واتفق، وإنما هو ضمٌّ تقتضيه معاني الإعراب، فلا نَظْمَ في الكَلِم ولا ترتيب، حتى يُعلَّقَ بعضُها ببعضٍ، وَيُبنى بعضُها على بَعض، فمدارَ أمرِ "النظْم" على مَعاني النحو، وعلى الوجُوهِ والفُروق التي من شأْنها أَنْ تكونَ فيه.

(1) – الصناعتين، لأبي هلال الحسن بن عبد الله العسكري، ، (ص: 133).

(2) – دلائل الإعجاز، للجرجاني، (ص: 81).

وإذا كان النظْمُ سَويّاً، والتأليفُ مستقيماً، كان وُصولَ المعنى إلى قلبك، تِلوَ وصولِ اللفظِ إلى سَمْعك، وإذا كان على خلافِ ما ينبغي، وصَلَ اللفظُ إلى السمعِ، وبقيت في المعنى تطلبه وتتعبُ فيه، وإذا أفرطَ الأمرُ في ذلكَ صارَ إلى التعقيدِ الذي قالوا: "إنه يسْتَهلكُ المعنى"(1).

النظم مسألة كثيرٌ من البلاغيين، يُرجع إعجاز القرآن إليه بالدرجة الأولى(2)، لذلك ليس بعجيب أن نجدهم يبدؤون القول فيه ويُعيدون، وهو قطب الدِّراسة الإعجازية عندهم، فهذا عبد القاهر الجرجاني يقول: «وذلك أنهم قالوا: "إنَّ الفصاحةَ لا تَظْهرُ في أفرادِ الكلماتِ. وإنما تَظْهرُ بالضمِّ على طريقةٍ مخصوصةٍ"، فقولُهم "بالضم"، لا يَصِحُّ أن يُرادَ به النطقُ باللفظةِ بعْدَ اللفظةِ، مِنْ غيرِ اتصالٍ يكونُ بين معنييهما؛ لأنه لو جازَ أنْ يكونَ لِمجرَّدِ ضَم اللفظِ إلى اللفظِ تأثيرٌ في الفصاحةِ، لكانَ ينبغي إذا قيل: "ضَحِكَ، خَرَجَ" أنْ يَحْدُثَ في ضَمِّ "خرجَ" إلى "ضحكَ" فصاحةٌ! وإذا بطَلَ ذلك، لم يَبْقَ إلا أنْ يكونَ المعنى في ضمِّ الكلمةِ إلى الكلمةِ توَخِّي معنًى من معاني النحو فيما بينَهُما، وقولُهم: "على طريقةٍ مخصوصةٍ"، يُوجِبُ ذلك أيضاً؛ وذلك أنه لا يكونُ للطريقةِ إذا أنتَ أردْتَ مجرَّدَ اللفظ معنًى»(3).

وعن أهمية هذا النظم يحدثنا الجرجاني، فيقول « وقد عَلِمْتَ إطباقَ العُلماءِ على تعظيمِ شأنِ "النظم" وتخيم قَدْره، والتنويه بذكرِه، وإجماعَهم أنْ لا فضْلَ معَ عَدَمِه، ولا قَدْر لكلامٍ إذا هو لم يَستقِمْ لَهُ، ولو بلغَ في غَرابةِ معناهُ ما بَلَغَ وبَتَّهُمُ الحُكْمَ بأنه الذي لا تَمامَ دونَه، ولا قِوامَ إلاَّ بِهِ، وأنه القطْبُ الذي عليه المدارُ، والعَمودُ الذي به الاستقلال، وما كانَ بهذا المحلِّ من الشَّرفِ، وفي هذِه المنزلةِ من الفضلِ، وموضوعاً هذا المَوْضعَ منَ المزيةِ، وبالغاً هذا المبلغَ منَ الفضيلةِ كان حَرىّ بأن توقظَ له الهِمَمُ، وتُوكَلَ به النفوسُ، وتُحرَّكَ له الأفكارُ، وتُستخدَمَ فيه الخواطر...»(4).

---

(1) – المرجع السابق، (ص: 271).

(2) – كما صنع الجاحظ في رسالة: حجج النبوة، لما قال: « ولو أراد أنطق الناس أن يؤلف من هذا الضرب سورة واحدة، طويلة أو قصيرة، على نظم القرآن وطبعه، وتأليفه ومخرجه لما قدر عليه، ولو استعان بجميع قحطان ومعد بن عدنان»، رسائل الجاحظ، رسالة حجج النبوة، (ج3/ ص: 229)، وكذلك فعل العلوي في الطراز، لما قال: « الإعجاز ليس إلا تأليف هذه الكلمات على حد لا غاية فوقه، فإلى هذا يرجع الخلاف، ويحصل التحقق بأن عجزهم إنما كان من جهة عدم العلم بهذا التأليف المخصوص في الكلام»، الطراز، للعلوي، (ج3/ ص: 226).

(3) – دلائل الإعجاز، للجرجاني، (ص: 393-394)

(4) – المرجع السابق، (ص: 80).

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

ولما كان النظم عند علماء البلاغة بهذا المقام السامق، لم يتردد الجرجاني في أن يجعل مدار الإعجاز عليه وعلى الاستعارة، دون غيرهما من الوجوه التي يذكرها من يذكرها في الوجوه التي يكون بها القرآن معجزا، يقول الجرجاني: «فإِذا بطَلَ أن يكونَ الوصْفُ الذي أعجزَهم من القرآنِ في شيءٍ مِمَّا عدَدْناه[1]، لم يَبْقَ إلاَّ أن يكون في "النظم"؛ لأنه ليس مِنْ بَعْدِ ما أَبطَلْنا أن يكون فيه إلا "النظْم" و"الاستعارة"، ولا يمكنُ أنْ تُجْعَلَ "الاستعارةُ" الأَصْلَ في الإعجاز وأن يُقْصَرَ عليها؛ لأنَّ ذلك يؤدي إلى أن يكونَ الإعجازُ في آيٍ معدودةٍ في مواضعَ مِن السورِ الطوالِ مخصوصةٍ، وإذا امتنع ذلك فيها، ثبت أن "النظم" مكانه الذي ينبغي أن يكون فهي»[2].

وفي خاتمة كتابه دلائل الإعجاز يجعل ذلك خلاصة نظره في شأن إعجاز القرآن الكريم، ويفسر مراده من "نظم القرآن"، فيقول « ثبتَ من ذلك أنَّ طالبَ دليلِ الإعجازِ مِنْ نَظْمِ القرآنِ، إذا هو لم يطلبْهُ في معاني النحو وأحكامه ووجوه وفروقِه، ولم يَعْلَمْ أنها مَعْدنِه ومَعانُه- أي: المباءة والمنزل-، وموضعه ومكانُه، وأنه لا مُستنبَط له سِواها، وأنْ لا وجْهَ لطلبهِ فيما عداها، غارٌّ نفْسَه بالكاذِب من الطمَع، ومُسْلِمٌ لها إلى الخُدَع»[3].

وهكذا نرى الخطابي وقد ردَّ الإعجاز كله إلى الفنية في النظم، وردّ هذه الفنية إلى الملائمة بين جنوس البلاغة الثلاثة، حتى جاءت ولا نشاز بينها، وإنما انسجم الرصين الجزل، مع الفصيح السهل، وامتزج هذان بالطلق الرَّسْل، وكان من وراء ذلك كله هذا البيان المعجز[4].

إلا أن الخطابي عندما يطلق هذه الأوصاف العامة في النظم القرآني وألفاظه الفصيحة الجزلة ونظمه المتآلف المتلائم ومعانيه الفاضلة، لم يسق أمثلة تطبيقية من خلال نصوص آي الذكر الحكيم ليلمسنا هذه الجوانب لمس اليد ويضع أصابعنا على هذه الجوانب من النظم القرآني كما فعل الجرجاني الذي جاء بعده[5].

---

(1) – يقصد بذلك الصَّرفة، وغريب الألفاظ، ومجرد المعاني، ونحو ذلك.

(2) – دلائل الإعجاز، للجرجاني، (ص: 390).

(3) – المرجع نفسه، (ص: 526).

(4) – الباقلاني وكتابه إعجاز القرآن دراسة تحليلية نقدية، تأليف الدكتور عبد الرؤوف مخلوف، دار مكتبة الحياة بيروت، طبعة 1978، (ص 52).

(5) – مباحث في إعجاز القرآن، لمصطفى مسلم، (ص: 74).

ومن البلاغيين الذين أشادوا بالنظم القرآني ابن أبي الأُصبع، فيقول:« وانظر إلى نظم القرآن العزيز كيف جمع طبقات البلاغة الثلاث، ليظهر فضل كل طبقة في بابها، وتبين محكم أسبابها، ويعلم أن أدناها بالنسبة إليها يعلو على أعلى الطبقات من كلام البلغاء، ويربى عليها، فإن الكلام إذا كان منوعاً افتتن الأسماع فيه، ولم يلحق النفوس ملل من ألفاظه ومعانيه»[1].

كذلك نجد العلوي صاحب الطراز، لما ذكر وجه إعجاز القرآن من جهة النظم، اشترط أن يكون ذلك بصحبة بلاغة القرآن وفصاحته، فيقول: « فإن عنيتم به أن نظمه هو المعجز من غير أن يكون بليغا في معانيه، ولا فصيحا في ألفاظه، فهو خطأ، فإن الإعجاز شامل له بالإضافة إلى كلا الأمرين جميعا، .... فإن نظم القرآن لو انفرد عن بلاغته وفصاحته لم يكن معجزا بحال»[2]

والكلام عن النظم قد يكون عند بعض البلاغيين كالإشارة من غير تصريح كما فعل ابن رشيق الذي يقول: « فكما أن القرآن أعجز الشعراء وليس بشعر، كذلك أعجز الخطباء وليس بخطبة، والمترسلين وليس بترسل، وإعجازه الشعراء أشد برهاناً»[3]، فقوله ليس شعرا، ولا خطبة ولا ترسلا، إشارة إلى أن نظمه غير هذه النظام المعهودة من كلام العرب.

ومن مظاهر العناية بالنظم، التطبيق له على آيات القرآن الكريم، ومن الأمثلة التي بالغ الجرجاني في العناية بها قول الله ﷻ: ﴿وَٱشۡتَعَلَ ٱلرَّأۡسُ شَيۡبٗا﴾ [مريم: ٤]، وذكر أنه ليس هذا الشَّرفُ العظيمُ، ولا هذه المزيةُ الجليلةُ، وهذه الرَّوعةُ التي تدخلُ على النُّفوس عند هذا الكلامِ لمجرَّدِ الاستعارة، ولكن لأنْ سُلِك بالكلام طريقُ ما يسندُ الفعْلُ فيه إلى الشيء، وهو لِما هو من سَبَبِهِ، فيُرفعُ به ما يُسند إليه، ويُؤتى بالذي الفعلُ له في المعنى منصوباً بَعده، مبيناً أنَّ ذلك الإسنادَ وتلك النسبةَ إلى ذلك الأولِ، إنَّما كانا من أجلِ هذا الثاني، ولما بينَه وبينَه من الاتِّصالِ والملابسةِ

(1) – تحرير التحبير في صناعة الشعر والنثر وبيان إعجاز القرآن، المؤلف: عبد العظيم بن ابن أبي الإصبع، تقديم وتحقيق: الدكتور حفني محمد شرف، – المجلس الأعلى للشئون الإسلامية – لجنة إحياء التراث الإسلامي الجمهورية العربية المتحدة ، د ت ط، (ص: 415)ا

(2) – الطراز، للعلوي، (ج3/ ص: 223)

(3) – دلائل الإعجاز، للجرجاني، (ص: 526).

وذكر شيئاً آخرَ من جنْس "النظّم"، وهو تَعريفُ الرأسِ" بالأَلِف واللاَّم، وإفادةُ معنى الإضافةِ من غَيْر إضافةٍ، وهو أَحدُ ما أوجبَ المزيَّةَ، ولو قيل: "واشتعلَ رأسي"، فصُرَّحَ بالإضافة، لذهبَ بعض الحسن، فاعرفه[1].

فالمتأمل في ما كتبه البلاغيون فيما يتعلق بنظم القرآن، يجد أنهم لم يسبقهم إلى ذلك سابق، ولا يلحقهم فيه لاحق.

الفرع الثاني: وجوه متنوعة من الإعجاز في كتب البلاغة

الناظر في كتب البلاغة يجد البلاغيين إنما اتجهت جهودهم لبيان الإعجاز من جهة نظم القرآن الكريم، كما مرَّ في المطلب السابق، بل نجد بعضهم كابن الأثير يقصر الإعجاز على الفصاحة والبلاغة دون ما سواهما، وذلك إذْ يقول: « وما سُمع بأن رسول الله ﷺ افتخر بشيء من العلوم سوى علم الفصاحة والبلاغة، فلم يقل: إنه أفقه الناس، ولا أعلم الناس بالحساب، ولا بالطب، ولا بغير ذلك، كما قال: «أنا أفصح من نطق بالضاد»[2].

وأيضا فلو لم تكن هذه الفضيلة من أعلى الفضائل درجة لما اتصل الإعجاز بها دون غيرها؛ فإن كتاب الله تعالى نزل عليها، ولم ينزل بمعجز من مسائل الفقه، ولا من مسائل الحساب، ولا من مسائل الطب، ولا غير ذلك من العلوم»[3].

والعلوي يرى أن الوجه الذي يكون مرضيا ينبغي أن لا تقع بينه وبين غيره مشاركة بأي وجه من الوجوه، وإلا لم يكن به معجزاً، فقال: « فلأن الأصل في وجه الإعجاز أن يكون القرآن متميزا به لا يشاركه فيه غيره، وما ذكرتموه من هذه الخصلة[4] فإنها مشتركة، ... فحصل من مجموع ما ذكرناه ههنا أنه لا وجه لجعل دلالته على الأسرار والمعاني وجها في إعجازه لأن

---

(1) – المرجع نفسه، (ص: 100)

(2) – الأسرار المرفوعة في الأخبار الموضوعة المعروف بالموضوعات الكبرى، نور الدين علي بن محمد المشهور بالملا علي القاري، تحقيق محمد الصباغ، الناشر دار الأمانة / مؤسسة الرسالة، بيروت، سنة النشر: 1391 هـ - 1971م، قال عنه: معناه صحيح ولكن لا أصل له في مبناه كما قاله ابن كثير، (ج3/ ص: 223).

(3) – المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، نصر الله بن محمد أبو الفتح، ضياء الدين، المعروف بابن الأثير الكاتب، المحقق: محمد محي الدين عبد الحميد، الناشر: المكتبة العصرية للطباعة والنشر – بيروت، عام النشر:1420 هـ، (ج2/ص: 392)، وتبعه على ذلك يحي العلوي، في كتاب الطراز، يُنظر منه: (ج1/ص: 21).

(4) – يريد دلالته على الأسرار والمعاني

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

غيره مشارك له في هذه الخصلة، وما وقعت فيه الشركة فلا وجه لاختصاصه وجعله وجها في كونه معجزا.»[1]

بل حتى الوجه البياني الذي أكثر البلاغيون الدندنة حوله لم يرتضوا منه بعض ما تعلق به من مثل:

أن الإعجاز لا يرجع في الألفاظ إلى غرابتها، بل « لو كان أَكْثَرُ ألفاظِ القرآنِ غريباً، لكانَ محالاً أن يَدْخُلَ ذلك في الإعجازِ، وأنْ يَصِحَّ التحدِّي به، ذلك لأنه لا يَخْلو إذا وقَعَ التحدّي به من أن يُتحدَّى مَنْ له علْمٌ بأمثالِه منَ الغريبِ، أو مَنْ لا عِلْمَ له بذلك، فلو تُحدِّي بِهِ مَن يَعْلَمُ أمثالَه، لم يتعذَّر عليه أن يعارِضَه بمثله.

ألا تَرى أنه لا يتعذَّرُ عليكَ إذا أنتَ عرفْتَ ما جاء منَ الغريبِ في معنى "الطويل" أَنْ تعارِضَ مَنْ يقولُ: "الشوقَبُ"، بأن تقولَ أنتَ "الشوذَبُ"، وإذا قال: "الأمَقُّ" أن تقول "الأَشقُّ"؟ وعلى هذا السبيل، ولو تُحدِّي به مَنْ لا عِلْمَ له بأمثالِ ما فيه من الغريبِ، كان ذلك بمنزلةِ أن يُتَحدَّى العربُ إلى أن يتكلموا بلسانِ التركِ.

هذا، وكيفَ بأنْ يدْخلَ الغريبُ في بابِ الفضيلة، وقد ثَبتَ عنهم أَنَّهم كانوا يَرَوْنَ الفضيلةَ في تَرْكِ استعمالِه وتجنُّبِه؟»[2].

فالغريب لا تتعلق به فضيلة، فضلا على أن يتعلق أمر إعجاز القرآن الكريم به، فمن اعتقد أنَّ « الكلام الفصيح هو الذي يعزّ فهمه، ويبعد متناوله، وإذا رأوا كلاما وحشيّا غامض الألفاظ يعجبون به ويصفونه بالفصاحة، وهو بالضد من ذلك؛ لأن الفصاحة هي الظهور والبيان؛ لا الغموض والخفاء»[3].

كذلك ما ادعاه بعضهم من ردِّ الإعجاز إلى الوزن الذي عليه القرآن الكريم، فإن عبد القاهر الجرجاني يقول عن ذلك: « فإن دعا بعضُ الناس طوال الإلْفِ لِمَا سَمِعَ من أَنَّ الإعجازَ في اللفظ إلى أَنْ يَجْعلَه في مجرَّدِ الوزْنِ، كان قد دَخلَ في أمرٍ شنيعٍ، وهو أنه يكونُ قد جَعلَ

(1) – الطراز، ليحي العلوي، (ج3/ ص: 222).
(2) – دلائل الإعجاز، للجرجاني، (ص: 397)
(3) – المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، لابن الأثير، (ج1/ص: 172)

القرآنَ مُعجِزاً، لا مِن حيثُ هو كلامٌ، ولا بما به كان لِكَلامٍ فضْلٌ على كلامٍ فليسَ بالوزْنِ ما كان الكَلامُ كلاماً، ولا به كان كلامٌ خَيراً من كلام»[1].

كما نبه عبد القاهر الجرجاني على أن **سهولة اللفظ وخفته ليست دليل إعجاز**، فقد قال: « وهكذا السبيلُ إنْ زعَم زاعِمٌ أنَّ الوصفَ المعجزَ هو "الجَرَيانُ والسهولَةُ"، ثم يعني بذلك سلامَتَهُ من أن تلتقيَ فيه حروفٌ تَثقُلُ على اللسان، لأنه ليس بذلك كان الكلامُ كلاماً، ولا هو بالذي يتَناهى أَمرُه إنْ عُدَّ في الفضيلةِ إلى أن يكونَ الأَصْلَ، وإلى أن يكونَ المعَّولَ عليه في المفاضَلةِ بين كلامٍ وكلامٍ، فما به كان الشاعرُ مفلقًا، والخطيب مصقعًا، والكاتب بليغًا»[2].

فإذا لم تكن هذه الأمور التي هي من البلاغة غير معتبرة في الإعجاز « وأنَّ الألفاظَ من حَيْثُ هي ألفاظٌ وكَلِمٌ ونُطْقُ لسانٍ، لا تَختَصُّ بواحدٍ دونَ آخر، وأنها إنما تختص إذا توخي بها النظْمُ، وإذا كان كذلك، كان مَنْ رفَعَ "النظْمَ" مِن البين، وجعَلَ الإعجازَ بجُملته في سهولةِ الحُروف وجَرَيانها، جاعلاً له فيما لا يصِحُّ إضافتُه إلى الله تعالى، وكَفَى بهذا دليلاً على عَدمِ التوفيق، وشدَّةِ الضلالِ عن الطريق»[3].

فالألفاظ عند عبد القاهر الجرجاني وإن كانت تتعلق بها الفصاحة، ولكن مردَّ ذلك راجعٌ إلى اعتبار مكانَها منَ النظم، وحسنَ مُلائمةِ معناها لمعاني جاراتها، وفضل مؤانستها لأخواتها ، والعلم بالفروق والوجوه فيها.

وعبد القاهر الجرجاني لم ينتبه لذلك وحده بل نجد ابن الأثير ينبه على مثل ذلك لما يقول: « أنك لم تجد ما وجدته لهذه الألفاظ من المزية الظاهرة إلا لأمر يرجع إلى تركيبها، وأنه لم يعرض لها هذا الحسن إلا من حيث لاقت الأولى بالثانية، والثالثة بالرابعة، وكذلك إلى آخرها، فإن ارتبت في ذلك فتأمل هل ترى لفظة منها لو أخذت من مكانها وأفردت من بين أخواتها كانت لابسة من الحسن ما لبسته في موضعها»[4].

ويدلل في موطن آخر من كتبه على كلامه، فيقول: « ومن أدل الدليل على ذلك، أن ألفاظ القرآن الكريم قد نطق بها العرب قبل نزوله على النبي، ﷺ، وليس فيه لفظة من الألفاظ

---

(1) – دلائل الإعجاز، للجرجاني، (ص: 474)

(2) – المرجع نفسه، (ص: 474).

(3) – المرجع السابق، (ص: 476)

(4) – المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، لابن الأثير، (ج1/ ص: 152).

جمعية عبد القادر للعلوم الإسلامية

إلا وقد تكلموا بها، وجاءت عنهم، ولولا ذلك لما كان عربياً، لأنه لما نزل على لغة القوم وكلامهم، ونحن قد رأينا القرآن الكريم يفوق جميع كلامهم، ويعلو عليه مع كونه وارداً على لغتهم قد تكلموا بألفاظه ونطقوا بها، ثبت لنا من ذلك أن ألفاظ القرآن الكريم إنما تفضل سائر الكلام من حيث تركيبها ونظمها، وهي من حيث الانفراد مساوية لكلام العرب، حيث هي عين ألفاظهم ونفس كلامهم. وهذا مما لا شك فيه ولا ارتياب[1].

ومن الأغلاط التي نبه عليها عبد القاهر الجرجاني في شأن بلاغة العرب زعم من زعم، أنَّ العرب اللغَةَ لها بالطَّبعِ ولنا بالتكلف، ولن يبلغ الدخيل في اللغات والألسنة مبْلَغَ مَنْ نشأَ عليها، وبُدئ مِن أولِ خَلْقِهِ بها"، وأشباهِ هذا مما يُوهِمُ أنَّ المزيَّةَ أَتتْها من جانبِ العِلْمِ باللغة.

قال الجرجاني: «وهو خَطأٌ عظيمٌ وغلَطٌ منْكَرٌ يُفْضِي بقائله إلى رفْعِ الإعجازِ مِنْ حيثُ لا يَعْلَم، وذَلكَ أنه لا يَثْبتُ إعجازٌ حتى تَثْبُتَ مَزايا تَفُوقُ علومَ البشرِ، وتَقْصُرُ قِوى نَظَرِهم عنها، ومعلومات ليس في متن أفكارهم وخواطرهم أن تفضي بهم إليها، وأنْ تُطْلِعهَم عليها، وذلك محالٌ فيما كان علْماً باللغة، لأنَّه يؤدِّي إلى أن يحدُثَ في دلائلِ اللغةِ ما لم يتواضَعْ عليه أهلُ اللغةِ. وذلك ما لا يَخْفى امتناعُه على عاقلٍ»[2].

فهذه بعض الاستدراكات والتعقبات التي كانت من البلاغيين في رد بعض الاعتبارات البلاغية وعدم اعتبارها في وجوه الإعجاز البلاغي.

---

(1) – الجامع الكبير في صناعة المنظوم من الكلام والمنثور، لابن الأثير، (ص: 66).

(2) – دلائل الإعجاز، للجرجاني، (ص: 249)

المطلب الثالث: قضايا تكميلية في إعجاز القرآن الكريم

وضح لنا من خلال ما سبق أنَّ من أبرز القضايا في كتب البلاغة قضية "إعجاز القرآن الكريم"، فإنه لا يكاد يخلو كتاب من كتب البلاغة منها، مما يدلنا على أن أهم قضية دارت في كتب البلاغة هي قضية الإعجاز، وهذا مطلب لبيان بعض القضايا الإعجازية التكميلية التي جاءت مدرجةً في كتب البلاغة.

الفرع الأول: القول بالصرفة عند البلاغيين:

من قضايا الإعجاز التي شُغل بها البلاغيون قضية " الصرفة"، والتي تعدُّ من الوجوه التي ذكرها غير واحد وارتضاها أن تكون الوجه المرضي في إعجاز القرآن الكريم على غرار المتكلمين، وللبلاغيين تباينٌ في قبول الصَّرفة وردِّها.

والقول بالصَّرفة بدأ قديما عند البلاغيين، فأول من استهواه القول بها أو عثمان الجاحظ، ولا غرابة، فإنه تلميذٌ للنظّام مبدعها ومظهرها للوجود، وللجاحظ نصوصٌ في كتابه الحيوان تدلنا على استساغته لها أول أمره، ومن ذلكم قوله فيه: « ومثل ذلك ما رفع من أوهام العرب، وصرف نفوسهم عن المعارضة للقرآن، بعد أن تحدّاهم الرّسول بنظمه، ولذلك لم نجد أحدا طمع فيه، ولو طمع فيه لتكلفه، ولو تكلف بعضهم ذلك فجاء بأمر فيه أدنى شبهة لعظمت القصّة على الأعراب وأشباه الأعراب، والنّساء وأشباه النساء، ولألقى ذلك للمسلمين عملا، ولطلبوا المحاكمة والتراضي ببعض العرب، ولكثر القيل والقال.

فقد رأيت أصحاب مسيلمة، وأصحاب ابن النواحة إنما تعلّقوا بما ألّف لهم مسيلمة من ذلك الكلام، الذي يعلم كلّ من سمعه أنّه إنّما عدا على القرآن فسلبه، وأخذ بعضه، وتعاطى أن يقارنه. فكان لله ذلك التّدبير، الذي لا يبلغه العباد ولو اجتمعوا له»[1].

وقال أيضا: « فإنّا نقول بالصّرفة في عامّة هذه الأصول، وفي هذه الأبواب، كنحو ما ألقي على قلوب بني إسرائيل وهم يجولون في التّيه، وهم في العدد وفي كثرة الأدلّاء والتجّار وأصحاب الأسفار، والحمّارين والمكارين، من الكثرة على ما قد سمعتم به وعرفتموه؛ وهم مع هذا يمشون حتّى يصبحوا، مع شدّة الاجتهاد في الدّهر الطويل، ومع قرب ما بين طرفي التّيه، وقد

---

(1) – الحيوان، لأبي عثمان عمر بن بحر الجاحظ، (ج4/ص: 305)

كان طريقا مسلوكا، وإنّما سمّوه التّيه حين تاهوا فيه، لأنّ الله تعالى حين أراد أن يمتحنهم ويبتليهم صرف أوهامهم.

ومثل ذلك صنيعه في أوهام الأمة التي كان سليمان ملكها ونبيّها، مع تسخير الريح والأعاجيب التي أعطيها، وليس بينهم وبين ملكهم ومملكتهم وبين ملك سبأ ومملكة بلقيس ملكتهم بحار لا تركب، وجبال لا ترام، ولم يتسامع أهل المملكتين ولا كان في ذكرهم مكان هذه الملكة.

وقد قلنا في باب القول في الهدهد ما قلنا، حين ذكرنا الصّرفة، وذكرنا حال يعقوب ويوسف وحال سليمان وهو معتمد على عصاه، وهو ميّت والجنُّ مطيِّفةٌ به وهم لا يشعرون بموته، وذكرنا من صرف أوهام العرب عن محاولة معارضة القرآن، ولم يأتوا به مضطربا ولا ملفّقا ولا مستكرها؛ إذا كان في ذلك لأهل الشّغب متعلّق، مع غير ذلك، ممّا يخالف فيه طريق الدّهريّة، لأنّ الدّهريّ لا يقر إلّا بالمحسوسات والعادات على خلاف هذا المذهب»(1).

وممن رضي بالصَّرفة وجها للإعجاز من البلاغيين؛ ابن سنان الخفاجي، فإننا نجده في مطلعه كتابه سرُّ الفصاحة، لما تحدث عن وجوه الإعجاز في القرآن الكريم استهلَّ ذك بذكر الخلاف في ذلك، فقال: « فالمعجز الدال على نبوة محمد نبينا ﷺ هو القرآن والخلاف الظاهر فيما به كان معجزا على قولين:

أحدهما: أنه خرق العادة بفصاحته، وجرى ذلك مجرى قلب العصا حية، وليس للذاهب إلى هذا المذهب مندوحة عن بيان ما الفصاحة التي وقع التزايد فيها موقعا خرج عن مقدور البشر.

والقول الثاني: أن وجه الإعجاز في القرآن صرف العرب عن المعارضة مع أن فصاحة القرآن كانت في مقدورهم لولا الصرف، وأمر القائل بهذا يجري مجرى الأول في الحاجة إلى تحقق الفصاحة ما هي؟ ليقطع على أنها كانت في مقدورهم ومن جنس فصاحتهم»(2).

---

(1) – المرجع السابق، (6/ 455)

(2) – سر الفصاحة، المؤلف: أبو محمد عبد الله بن محمد بن سعيد بن سنان الخفاجي، الناشر: دار الكتب العلمية، الطبعة: الطبعة الأولى 1402هـ_1982م، (ص: 14)

جمعية الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

ثم يفصح عن اختياره قائلا: «وإذا عدنا إلى التحقيق وجدنا وجه إعجاز القرآن صرف العرب عن معارضته بأن سلبوا العلوم التي بها كانوا يتمكنون من المعارضة في وقت مرامهم ذلك...

ومتى رجع الإنسان إلى نفسه وكان معه أدنى معرفة بالتأليف المختار وجد في كلام العرب هي ما يضاهي القرآن في تأليفه»[1]، فانظر كيف ادّعى أن في كلام العرب ما يضاهيه، وذلك ما لم تدعيه العرب لأنفسها.

كما ذكر في موضعٍ آخر، فقال: « الصحيح أن وجه الإعجاز في القرآن هو صرف العرب عن معارضته وأن فصاحته قد كانت في مقدورهم لولا الصَّرف، وهذا هو المذهب الذي يعول عليه أهل هذه الصناعة وأرباب هذا العلم وقد سطر عليه من الأدلة ما ليس هذا موضع ذكره»[2]

وقد ذكر يقوت الحموي ذلك عنه أيضا، وأن له في الصرفة كتابا، فقال: « قرأت بخط عبد الله بن محمد بن سعيد بن سنان الخفاجي الشاعر في كتاب له ألفه في الصّرفة زعم فيه أن القرآن لم يخرق العادة بالفصاحة حتى صار معجزة للنبي ﷺ، وأن كلَّ فصيحٍ بليغٍ قادرٌ على الإتيان بمثله، إلا أنهم صُرِفُوا عن ذلك، لا أن يكون القرآن في نفسه معجز الفصاحة، وهو مذهب الجماعة من المتكلمين والرافضة، منهم بشر المرّيسيّ والمرتضى أبو القاسم»[3].

أما يحي العلوي، فبعدما رضي القول بالصرفة في إعجاز القرآن الكريم، وضع لها تفسيرات ثلاثة :

«**التفسير الأول**: أن يريدوا بالصَّرفة أن الله تعالى سلب دواعيهم إلى المعارضة، مع أن أسباب توفر الدواعي في حقهم حاصلةٌ من التقريع بالعجز، والاستنزال عن المراتب العالية، والتكليف بالانقياد والخضوع، ومخالفة الأهواء.

التفسير الثاني: أن يريدوا بالصَّرفة أن الله تعالى سلبهم العلوم التي لا بدَّ منها في الإتيان بما يشاكل القرآن ويقاربه، ثم إن سلب العلوم يمكن تنزيله على وجهين:

---

(1) – سر الفصاحة، لابن سنان الخفاجي، (ص: 99- 100).
(2) – المرجع نفسه، (ص: 225).
(3) – معجم الأدباء، لياقوت الحموي، (ج1/ص: 325)

أحدهما أن يقال: إن تلك العلوم كانت حاصلة لهم على جهة الاستمرار، لكن الله تعالى أزالها عن أفئدتهم ومحاها عنهم، **وثانيهما** أن يقال: إن تلك العلوم ما كانت حاصلة لهم، خلا أن الله تعالى صرف دواعيهم من تجديدها، مخافة أن تحصل المعارضة.

التفسير الثالث: أن يراد بالصرفة أن الله تعالى منعهم بالإلجاء على جهة القسر عن المعارضة، مع كونهم قادرين وسلب قواهم عن ذلك، فلأجل هذا لم تحصل من جهتهم المعارضة، وحاصل الأمر في هذه المقالة:

أنهم قادرون على إيجاد المعارضة للقرآن، إلا أن الله تعالى منعهم بما ذكرناه، والذى غرَّ هؤلاء حتى زعموا هذه المقالة، ما يرون من الكلمات الرشيقة، والبلاغات الحسنة، والفصاحات المستحسنة، الجامعة لكل الأساليب البلاغية في كلام العرب الموافقة لما في القرآن، فزعم هؤلاء أن كلَّ من قدر على ما ذكرناه من تلك الأساليب البديعة، لا يقصر عن معارضته»[1].

وفي المقابل نجد من البلاغيين من لا يرضى بالصَّرفة وجها للإعجاز في القرآن الكريم، وأشهر هؤلاء عبد القاهر الجرجاني، بل وعدها من شناعات القول لما قال « ثُم إنَّ هذه الشناعاتِ التي تقدَّمَ ذِكْرُها، تَلزَمُ أصحابَ "الصَّرْفة" أيضاً؛ وذاكَ أنه لو لم يكنْ عجزُهم عن مُعَارضةِ القرآن وعن أنْ يأتوا بمثلِه، لأنه مُعْجِزٌ في نفسه؛ لكنْ لأن أُدخِلَ عليهمُ العَجزُ عنه، وصُرِفَتْ هِمَمُهُم وخواطرُهم عن تأليفِ كلامٍ مثْلِه، وكان حالُهم على الجملةِ حالَ مَن أُعْدِمَ العلمَ بشيءٍ قد كان يَعلَمُه، وحِيل بينَه وبينَ أمرٍ قد كانَ يَتَّسِعُ له، لكانَ ينبغي أنْ لا يتعاظَمَهُمْ، ولا يكون منهم ما يدل على إكبارهم أمره، وتعجُّبهم منه، وعلى أَنه قد بَهرَهُم، وعظُمَ كل العِظَم عندهم؛ بل كان ينبغي أن يكون الإكبار منهم والتعجب للذي دخل من العجز عليهم، ورأوه من تَغيُّرِ حالِهم، ومِنْ أن حِيلَ بينَهم وبينَ شيءٍ قد كانَ عليهِمْ سَهْلاً، وأنْ سُدَّ دونَه بابٌ كانَ لهُم مفتوحا، أرأيتَ لو أنَّ نبياً قال لقومِه: "إنَّ آيتي أنْ أَضعَ يدي على رأسي هذه الساعةَ، وتُمْنَعون كلُّكُم من أَن تستطيعوا وَضْعَ أَيديكُمْ على رؤوسكم"، وكان الأمرُ كما قال، مِمَّ يكونُ تعجُّبُ القومِ، أَمِنْ وضعِه يدَه على رأسِه، أمْ من عجزهم أن يضعوا أيديهم على رؤوسهم؟»[2].

---

(1) – الطراز، ليحي العلوي، (ج3/ ص: 218).

(2) – دلائل الإعجاز، للجرجاني، (ص: 390-391)

وفي موطن آخر كذلك يستبعد الجرجاني القول بالصرفة في إعجاز القرآن، فيقول: « لولا أَنهم حينَ سَمعوا القرآنَ، وحينَ تحدوا إلى معارضته، سمعوا كلامًا لم سمعوا قط مثله، وأنهم رازوا أنفسهم فأحسوا بالعجزِ عن أنْ يأتوا بما يُوازيه أو يُدانيه أو يقَعُ قريباً منه لكان مُحالاً أن يَدَعُوا معارضته وقد تَحُدُّوا إليه، وفرعوا فيه، وطُولبوا به، وأن يتعرضُوا لِشَبا الأَسِنَّة، ويقتحموا موارد الموت»(1).

فهذه النصوص وغيرها كثيرٌ سواء في كتاب الدلائل، أو الرسالة الشافية، تُظهر للباحث موقف الجرجاني الحاسم تجاه الصَّرفة، وأنه لا يرضاها أن تكون دليلا على معجزة القرآن الكريم بوجهٍ من الوجوه، وإنما اكتفينا بالجرجاني عن غيره من علماء البلاغة، لأنه بمثابة لسانهم الناطق، من جهة ومن جهة أخرى أن المعارضين للقول بالصرفة في إعجاز القرآن الكريم لا يكادون يقعون على عدٍّ، ولو ذهبنا ننقل آرائهم لطالت بنا الكتابة.

الفرع الثاني: العناية بالمزية في الكلام

كثيرا ما نجد عبد القاهر الجرجاني يرجع خصوصية بلاغة القرآن الكريم، إلى مزية وقعت في نظمه ونسق الكلم بعضها ببعض، وأصعب ما في تلك المزية توصيفها حتى تُعلم، والتمثيل لها حتى تفهم، وذلك ما يُفصح عنه الجرجاني بقوله، « ولكنْ بقيَ أنْ تُعْلِموا مكانَ المزيَّة في الكلام، وتَصفوها لنا، وتَذْكُروها ذِكْراً كما يُنَصُّ الشيءُ ويُعَيَّن، ويُكْشَفُ عن وجههِ ويُبَيَّنُ، ولا يكفي أن تقولوا: "إنَّه خُصوصيةٌ في كيفيَّة النَّظْم، وطريقةٌ مَخْصوصةٌ في نَسَق الكَلِم بَعْضِها على بَعض"، حتى تَصِفوا تلكَ الخصوصية وتُبَيِّنوها، وتذكروها لها أمثلةً»(2)

وقد حاول الجرجاني أن يصل إلى ما قصُر عنه غيره في شأن المزية وذكر التوصيف الذي يكشف غموضها، ومن ذلك ما جاء عنه في قوله: « ههنا دقائق وأسرار طريق العلم بها الروية والفكر، لطائف مُسْتقاها العَقلُ، وخصائصَ معانٍ ينفردُ بها قومٌ قد هُدُوا إليها، ودُلُّوا عليها، وكُشِفَ لهم عنها، ورُفعتِ الحُجُب بينَهُم وبينَها، وأنها السَّببُ في أنْ عرضتِ المزيَّةُ في الكلامِ،

(1) – المرجع السابق، (ص: 38)

(2) – دلائل الإعجاز، للجرجاني، (ص: 36).

ووجبَ أن يفضُلَ بعضُه بعضاً، وأن يبعدَ الشأوُ في ذلك، وتمتدَّ الغايةُ، وَيعلوَ المُرتقى، ويعزَّ المطلبُ، حتى ينتهيَ الأمرُ إلى الإعجازِ، وإلى أن يخرج من طوق البشر»[1].

وفي موطن آخر يسهب في محاولةٍ لشرحها، وهو يعلق أمر الإعجاز بها، فيقول: « أعجزتْهم مزايا ظهرتْ لهم في نظمِه، وخصائصُ صادفوها في سِياق لفظه، وبدائعُ راعَتْهم من مبادئ آيِهِ ومقاطِعِها، ومجاري ألفاظِها ومواقعها، وفي مضربِ كلِّ مثلٍ، ومساقِ كلِّ خبرٍ، وصورةِ كلِّ عِظَةٍ وتنبيهٍ، وإعلامٍ وتَذكيرٍ، وترغيبٍ وترهيبٍ، ومع كلِّ حُجةٍ وبُرهانٍ، وصفةٍ وتبيان وبَهرهُم أنَّهم تأمَّلوه سُورةً سورةً، وعَشْراً عَشراً، وآية آية، فلم يجدوا في الجميع كلمة يَنْبو بها مكانُها، ولفظةً يُنكرُ شانُها، أو يُرى أنَّ غيرَها أصلحُ هناك أو أشْبه، أو أحرى وأخْلَق، بل وجدُوا اتِّساقاً بَهَرَ العُقولَ، وأعجزَ الجمهورَ، ونظاماً والتئاماً، وإتقاناً وإحكاماً، لم يَدعْ في نفسِ بليغٍ منهم، ولو حكَّ بيافوخِه السَّماء، موضعَ طمعٍ، حتى خرسَتِ الألسنُ عن أن تدعي وتقول»[2].

فالجرجاني جعل أمر المزية في الكلام يرجع عنده إلى ارتباط الكلم بعضها ببعض، وحسن الملاقاة التي وقعت لها، وأنها تناتجت من بينها، وحصلت من مجموعها، ثم هو يجنح بها إلى حيّز المعاني دون حيّز الألفاظ، وأن الإدراك للمزيّة يكون بالفكر والعقل مع الرويّة والنظر، ولا يكون بمجرد سماع الأذن، ثم في الأخير يُنهي أمرها إلى معاني النحو وأحكامه: « فلا ترى كلاماً قد وُصف بصحّةِ نظمٍ أو فسادِه، أو وُصف بمزيةٍ وفضلٍ فيه، إلاَّ وأنت تجدُ مرجعَ تلك الصحَّةِ وذلك الفسادِ وتلكَ المزيةِ وذلك الفضلِ، إلى معاني النَّحوِ وأَحكامه، ووَجْدتَه يَدْخل في أصلٍ من أصولِه، ويتَّصلُ ببابٍ من أبوابه»[3].

الفرع الثالث: مكانة الذوق في إدراك الإعجاز:

من القضايا الإعجازية التي تواردت كتب البلاغة عن الحديث عليها ما يتعلق بالأمر الذي يُدرَكُ به الإعجاز، وقد ردَّ أكثرُ البلاغيين ذلك إلى "الذوق"، « فأنتَ لا تستطيعُ أن تُنبِّه السامِعَ لها، وتحدث له علمًا بها، حتى يكون مهيَّـئًا لإدراكها، وتكونَ فيه طبيعةٌ قابلةٌ لها،

(1) – المرجع نفسه، (ص: 7)
(2) – دلائل الإعجاز، للجرجاني، (ص: 39).
(3) – المرجع نفسه، (ص: 83).

جمعية الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

ويكونَ له ذوق وقريحة يَجِدُ لهما في نفسه إحساساً بأنَّ مِن شأن هذه الوجوه والفروق أن تعرض فيه المزية على الجملة ومن إذا تصفَّح الكلامَ وتدبَّر الشعرَ، فرَّقَ بين موقع شيء منها وشيء»[1].

وكذلك ابن الأثير لما وضع كتابه جعل شرطا في مقدمته للقارئ، فقال: « واعلم أيها الناظر في كتابي أن مدار علم البيان على حاكم الذوق السليم، الذي هو أنفع من ذوق التعليم»[2].

كما أن يحي العلوي يجعل: « مستند الحسن والقبح والإعجاب والنفور في تأليف الكلام إنما هو سلامة الطبع وتحكيم الذوق، هو أن الكلمة الواحدة إذا ألّفت تأليفا مخصوصا كانت في غاية الركاكة على اللّسان يزدريها كل من سمعها فإذا عكست صارت أرق ما يكون على الألسنة وألطف وأعجب»[3]

ثم إن هذا الذوق والإحساس بالإعجاز قليلٌ في الناس، **ويكتسب بالدربة والمران**، يقول ابن الأثير: « فإن الدُّربة والإدمان أجدى عليك نفعا، وأهدى بصرا وسمعا، وهما يريانك الخبر عيانا، ويجعلان عسرك من القول إمكانا، وكلُّ جارحة منك قلبا ولسانا»[4].

كما يكتسب بتصفُّح الكلامَ وتدبُّر الشعرَ، كما نبه على ذلك عبد القاهر الجرجاني، كما ينبغي التحرز من تأثير النظر في علم الكلام على الذوق، فإنه من أعظم مفسداته، كما يذكر ابن سنان الخفاجي عن أبي هاشم الجبَّائي، « وإن كان العالم المتقدم في صناعة الكلام فليس معرفته بالجواهر والأعراض وكلامه في العدل والألطاف مما يفيده العلم بصناعة نقد الكلام المؤلف وفهم النظم والنثر، كما أن من المتقدمين في هذا العلم من يجهل أول ما يجب على العاقل فضلا عما تجاوزه »[5].

وهذا ما يعين الباحث على فهم مقاصد البلاغيين في إيراد الشعر بتلك الكثرة في كتبهم، لأنهم جعلوا من مقاصدهم، تمرين القارئ على تذوق الكلام بدءً من الشعر، ثم انتهاءً إلى القرآن الكريم، كما سيأتي بيانه بعد قليل.

---

(1) – المرجع نفسه، (ص: 547).

(2) – المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، لابن الأثير، (ج1/ ص: 25).

(3) – الطراز، ليحي العلوي، (ج1/ ص: 51).

(4) – المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، لابن الأثير، (ج1/ ص: 25).

(5) – سر الفصاحة، للخفاجي، (ص: 148)

جمعية إحياء عبد القادر للعلوم الإسلامية

الفرع الرابع: العلاقة بين الشعر والإعجاز عند البلاغيين

الشِّعر هو علم العرب الذي أُختُصُّوا به من دون الأمم، وذلك: « أنْ كانَ فيه الحقُّ والصدقُ والحكمةُ وفصْلُ الخِطاب، وأنْ كانَ مجْنَى ثمرِ العقولِ والألبابِ، ومجتمَعَ فِرَقِ الآدابِ، والذي قيَّد على النّاسِ المعاني الشريفةَ، وأفادَهُم الفوائدَ الجليلة، وترسَّل بينَ الماضي والغابرِ، ينقل مكارمَ الأخلاق إلى الولدِ عن الوالد، ويؤدّي ودائعَ الشَّرف عن الغائب إلى الشاهد، حتى ترَى به آثارَ الماضين مخلَّدةً في الباقين، وعقول الأوَّلين مردودةً في الآخرين، وترى لكلِّ مَن رَام الأدبَ، وابتغَى الشرفَ، وطلبَ محاسنَ القولِ والفعْل، مناراً مرفوعاً، وعِلْماً منصوباً، وهادياً مُرْشداً، ومُعلماً مسدِّداً، وتجدُ فيه للنَّائي عن طلَبِ المآثر، والزّاهِدِ في اكتسابِ المحامدِ، داعياً، ومُحرِّضاً، وباعثاً ومحضِّضاً، ومذكرًا ومعرفًا، وواعظًا ومثقفا»[(1)].

وهو في العرب الذين نزل فيهم القرآن قد بلغ ذروته التي ليس بعدها مطلب، كما ذكر ابن سنان الخفاجي عن أبي العلاء المعري، قال: « وما زلت أسمع أبا العلاء يقول: إن من الشِّعر ما يصل إلى غاية لا يمكن تجاوزها»[(2)]، وهذا وصفٌ أحقُّ الشعر به الشِّعر الجاهلي.

والعناية بالشعر في كتب البلاغة العربية، أمرٌ بيّنُ الظهور إذْ هو الشاهد على قواعده بعد القرآن الكريم، ثم التدرب على الشّعر طريقٌ إلى معرفة النظم، ومن ثمّت الوقوف على وجه إعجاز القرآن الكريم، «فليس يعرف فروق النظم، واختلاف البحث والنثر إلا من عرف القصيد من الرجز، والمخمس من الأسجاع، والمزدوج من المنثور، والخطب من الرسائل، وحتى يعرف العجز العارض الذي يجوز ارتفاعه، من العجز الذي هو صفة في الذات.

فإذا عرف صنوف التأليف عرف مباينة نظم القرآن لسائر الكلام ثم لا يكتفي بذلك حتى يعرف عجزه وعجز أمثاله عن مثله، وأن حكم البشر حكم واحد في العجز الطبيعي، وإن تفاوتوا في العجز العارض»[(3)].

وفي نصٍّ أكثر إيضاحا ما جاء عن عبد القاهر الجرجاني لما ذكر أنه « إذا كنَّا نَعلم أنَّ الجهةَ التي منها قامَتِ الحجةُ بالقُرآنِ وظهرتْ، وبانَتْ وبَهرت، هيَ أنْ كانَ على حَدٍّ مِنَ الفَصاحةِ تقصرُ عنه قُوى البشرِ، ومُنْتهياً إلى غايةٍ لا يُطمَح إليها بالفِكر، وكان مُحالاً أن يَعرف

(1) – دلائل الإعجاز، للجرجاني، (ص: 15-16)
(2) – سر الفصاحة، للخفاجي، (ص:135)
(3) – رسائل الجاحظ، رسالة الحنين إلى الأوطان، للجاحظ، (ج 4/ص: 31)

كونَه كذلك، إلا مَنْ عَرفَ الشعرَ الذي هو ديوانُ العَرب، وعنوانُ الأدب، والذي لا يُشك أنه كانَ ميدانَ القومِ إذا تجارَوْا في الفَصاحة والبيان، وتنازَعوا فيهما قَصَبَ الرِّهان، ثم بَحْث عن العِلل التي بها كانَ التباينُ في الفَضْل، وزادَ بعضُ الشعر على بعضٍ كان الصادُّ عن ذلك صادّاً عن أنْ تُعرَف حجةُ الله تعالى، وكان مَثلُه مَثلَ مَن يتصدَّى للنّاسِ فيمنعُهم عَن أنْ يحفظوا كتابَ الله تعالى ويقوموا به ويتلوه ويقرئُوه، ويصنعُ في الجملةِ صَنيعاً يؤدِّي إلى أنْ يَقلَّ حفَّاظُه والقائمونَ به والمُقرئون له»[(1)].

وقد أفصح الجرجاني على لسان البلاغيين عن علة إيراد الشعر في كتب البلاغة عموما، ووفي كتبه خصوصا، فقال « وأردْتُه لأَعرف بِهِ مكانَ بلاغةٍ، وأجعلَه مِثالاً في براعةٍ، أو أَحْتجَّ به في تفسير كتابٍ وسُنَّة، وأَنظرَ إلى نَظْمه ونَظْم القُرآن، فأرى موضعَ الإعجازِ، وأقفَ على الجهة التي منها كان، وأتبيَّنَ الفصْلَ والفُرقان، فحقُّ هذا التلبسِ أن لا يُعتدَّ عليَّ ذنباً، وأَنْ لا أُؤاخَذَ به؛ إذْ لا تكونُ مؤاخذةٌ حتى يكونَ عَمْدٌ إلى أن تُواقِعَ المكروهِ وقَصْدٌ إليه، وقد تَتَّبعَ العلماءُ الشعوذةَ والسِّحْر، وعُنُوا بالتَّوقُّفِ على حِيَلِ المموِّهين؛ ليَعْرفوا فَرْقَ ما بينَ المُعجزة والحِيلة، فكان ذلك منهم مِنْ أعظمِ البِرّ، إذْ كان الغرضُ كريماً والقَصْد شريفاً»[(2)].

فتأمل كيف جعل عبد القاهر الصدَّ عن الشِّعر حقيقته تؤول إلى الصدِّ عن سبيل الله، ولأجل ذلك تصدى الجرجاني لهذه الدعوة التي تزهد عن الشعر العربي، وعقد مبحثا في الكلام على من زَهد في رواية الشعر وحِفْظِه، وذمَّ الاشتغال بعلمه وتتبُّعه، وذكر أنه لا يخلو مَن كان هذا رأيَهُ مِن أمورٍ:

أحدُها: أنْ يكون رفضُه له وذمُّه إيّاه من أجلِ ما يجِده فيه من هَزْلٍ أو سُخْف، وهجاءٍ وسَبٍّ وكَذِبٍ وباطلٍ على الجُملة، **والثاني**: أنْ يذمَّه؛ لأنه موزون مُقفًّى، ويرى هذا بمجرَّده عيباً يقتَضي الزهدَ فيه والتنزُّه عنه[(3)]، **والثالثُ**: أنْ يتعلَّقَ بأحوالِ الشُّعراءِ وأنها غيرُ جميلةٍ في الأكثرِ ويقول: قد ذُمُّوا في التنْزيل.

---

(1) – دلائل الإعجاز، للجرجاني، (ص: 8-9)

(2) – المرجع نفسه، (ص: 26)

(3) – وقد رده الجرجاني، بقوله: « ...بل سبيلُ الوزنِ في منعه ﷺ إياه سبيلُ الخَطِّ، حين جُعل ﷺ لا يقرأُ ولا يَكْتب، في أنْ لم يكن المَنْعُ من أجْلِ كراهةٍ كانت في الخط؛ بل لأنه تَكونَ الحُجةُ أَبهرَ وأقهرَ، والدلالةُ أقوى وأظهر، ولتكونَ أَكْعَمَ للجاحد، وأَقْمَعَ للمُعَانِد، وأَرَدَّ لِطالب الشبهة، وأمنع من ارتفاع الريبة»، ينظر الدلائل، (ص: 27)

وأيٌّ كان مِنْ هذه رأياً لهُ، فهو في ذلكَ على خطأ ظاهرٍ وغَلَط فاحش، وعلى خلافِ ما يُوجِبه القياسُ والنَّظرُ، وبالضدِّ مما جاءَ به الأَثرُ، وصَحَّ به الخبر»[1].

ثم قال: « فإنِّي إذاً لَمْ أَقصدْه من أجلِ ذلك المكروه، ولم أُرِدْه له، وأردْتُه لأَعرف بِهِ مكانَ بلاغةٍ، وأجعلَه مِثالاً في براعةٍ، أو أَحْتجَّ به في تفسير كتابٍ وسُنَّة، وأَنظرَ إلى نَظْمه ونَظْم القُرآن، فأرى موضعَ الإِعجاز، وأقفَ على الجهة التي منها كان، وأتبيَّنَ الفصْلَ والفُرقان»[2].

أمَّا ما استدل به بعضهم من أحاديث في ذم الشعر كمثل قوله ﷺ: « لأَنْ يمتلئَ جوفُ أَحدِكم قيحاً، فيَرِيَهُ، خيرٌ له من أن يمتلئ شِعْراً»[3]، يقول الجرجاني في الجواب عن ذلك:« وكَيف رَويْتَ: "لأَنْ يمتلئَ جوفُ أَحدِكم قيحاً، فيَرِيَهُ، خيرٌ له من أن يمتلئ شِعْراً"، ولهجتَ به وكيف نَسِيتَ أَمرَه ﷺ بقول الشعر، ووعده عليه الجنَّةَ، وقوله لحسَّان: "قُلْ وروحُ القُدُس معك"[4]، وسماعَه له، واستنشادَهُ إياه، وعِلْمهُ ﷺ به، واستحسانَه له، وارتياحَه عند سماعه؟»[5].

وما اعترض به بعضهم في كراهة قول الشعر للنبي ﷺ، ذلك« أنَّه ﷺ لم يَمْنع الشعرَ من أجلِ أنْ كان قولاً فصلاً، وكلاماً جزْلا، ومَنطقاً حَسناً، وبَياناً بيِّناً، كيفَ؟ وذلَكَ يقتضي أن يكونَ اللهُ تعالى قد مَنَعه البيانَ والبلاغةَ، وحَماهُ الفصاحةَ والبراعةَ، وجعلَه لا يَبْلُغ مَبلَغ الشُّعراءِ في حُسْنِ العبارة وشَرَف اللَّفظ، وهذا جهلٌ عظيمٌ، وخلافٌ لِما عرفه البلغاء وأَجمعوا عليه من أنه ﷺ كان أفصح العرب، وإذا بطل أن يكونَ المَنْعُ من أَجلِ هذه المعاني، وكنَّا قد أعلمناه أنا ندعوه إلى الشعر من أجلها، ونحدوه بطلبه على طلبها، وكان الاعتراضُ بالآيةِ مُحالاً، والتعلُّق بها خَطلاً من الرأي وانحلالاً...

وهذه الكراهةُ وإنْ كانت لا تَتوجَّهُ إليه مِنْ حيثُ هو كلامٌ، ومن حيثُ إنه بليغٌ بَيِّنٌ وفصيحٌ حَسَنٌ ونحوُ ذلك، فإنَّها تتوجَّه إلى الأمر لابد لك من التَّلبُّس به في طَلبِ ما ذكرتَ أنهُ

(1) – دلائل الإعجاز، للجرجاني، (ص: 9)

(2) – المرجع نفسه، (ص: 26)

(3) – أخرجه البخاري، كتاب الأب، باب ما يكره أن يكون الغالب على الإنسان الشعر حتى يصده عن ذكر الله والعلم والقرآن، برقم: 5802، من حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنه {، (ج 5/ص: 2279)

(4) – أخرجه البخاري، كتاب بدء الخلق، باب ذكر الملائكة، برقم: 3041، من حديث البراء بن عازب رضي الله عنه، (ج 3/ ص: 1176).

(5) – دلائل الإعجاز، للجرجاني، (ص: 16-17)

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

مرادُك منَ الشّعر، وذاك أنه لا سبيل لك إلى أن تمييز كونَه كلاماً عن كونهِ شعراً، حتى إذا روَيْتَه التبَسْتَ بهِ من حيثُ هو كلامٌ، ولم تَلْتبِسْ به من حيثُ هو شعرٌ، هذا محال، وإذا كان لابد من مُلاَبسة موضعِ الكراهةِ، فقد لَزِمَ العيبُ برواية الشعر وإعمالِ اللّسانِ فيه»[1].

فبلاغة القرآن الكريم تتضح عند مقارنة النص القرآني بالنصوص العربية التي كان العرب يفخرون بها في مجال الشعر والنثر، وبعد المقارنة يبرز القرآن في أسلوبه واضح الإعجاز متميز الخصائص رائع النظم مشرق العبارة بليغاً في اختيار مفرداته[2].

(1) – المرجع السابق، (ص: 25)

(2) – يُنظر: المدخل إلى علوم القرآن، لمحمد فاروق النبهان، (ص: 234)

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

المبحث الثالث: تقويم إعجاز القرآن في كتب البلاغة

الدراسات البلاغية إنما قامت لأجل الدفاع عن قضية إعجاز القرآن الكريم، كما يقول عبد العزيز عرفة مبيناً هذه الحقيقة، ممثلا بجهد أبي عبيدة، « فإذا قلنا أن أبا عبيدة قصد من جهده الذي بذله الدفاع عن حقيقة الإعجاز لم نبعد»[1]

وهذا الكلام يدلنا على شيئين يدلُّنا:

أولا: يدلنا على ما ذكرنا من كون الدراسات البلاغية قامت لأجل الدفاع عن قضية الإعجاز، هذا من جهة ومن جهة أخرى وهو:

والثاني: يدُلُّنا على أن أهمَّ وجهٍ من وجوه الإعجاز التي لا ينبغي تقدم شيئا عليها هو بلاغة نظمه وعجيب بيانه العربي.

وهذا مبحث لتقويم المباحث الإعجازية في كتب البلاغة العربية، وذلك من خلال:

(1) – قضية الإعجاز القرآني وأثرها في تدوين البلاغة العربية، عبد العزيز عبد المعطي عرفة، (ص 96).

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

المطلب الأول: العناية بالبلاغة القرآنية

لما كان أهم وجهٍ من وجوه الإعجاز ما كان متعلقا ببلاغته ونظمه وما هو عليه من البراعة والفصاحة، فإنه لا عجب أن نجد كتب البلاغة العربية ناضحةً بمباحث الإعجاز، مبثوثة في ثناياها، وقد يتضح ذلك من خلال:

الفرع الأول: الدفاع عن بلاغة القرآن:

بلاغة القرآن الكريم، إنما أقر بها العرب المشركون الأُوَل، كما مرَّ بنا مراراً، والذين هم أهل البلاغة وأرباب الكلام، فكيف بمن آمن بهذا الكتاب ونظر في بيانه وعرف أنه لا يعلوه بيانٌ، بل من عجيب أمره أنه كما تأمله متدبرٌ إلا وقف منه على معانٍ لم يقف عليه قبلُ، ولعل هذا يصلح أن يكون وجها من وجوه إعجازه، « فإنّ المتدبِّر لكلام الله ﷻ في القرآن يلاحظ عجباً، إنّه إلى آية فيفهمها، ويأخذ منها دلالة صحيحة ينتفع منها انتفاعاً عظيماً، ثمّ تأتيه نفحات في تدبُّر آخر، فيفهم من الآية معانيّ جديدة لم ينتبه إليها في التدبُّر الأول، وهذه المعاني لا تتعارض مع ما فهمه في التدبُّر الأوّل إذا كان تدبُّرًا صحيحاً، بل تعطيه إضافات متمِّمة لما كان قد تدبَّره من قبل»(1).

ولقد وقف البلاغيون من بلاغة القرآن ما لم يقفهُ غيرهم، فهذا شيخ البلاغة الجرجاني، يشيد ببلاغة القرآن حتى يجعل عبثا أن تقام مقارنةٌ ومفاضلة بين القرآن وبين غيره من القرآن الكريم، فيقول: « وينبغي أن تكونَ موازَنَتُهم بيْنَ بعضِ الآي وبين ما قاله الناس في معناها، كموازنَتِهِمْ بيْن: ﴿ وَلَكُمْ فِي ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ ﴾ البقرة: ١٧٩، وبَيْنَ: "قَتْلُ البعضِ إحياءٌ للجميع" خطأً منهم؛ لأنَّا لا نَعْلم لحديثِ التحريكِ والتسْكين وحديثِ الفاصلةِ مذهباً في هذه الموازنة، ولا نَعْلمهُم أرادوا غيرَ ما يُريده الناسُ إذا وازَنُوا بين كلامٍ وكلامٍ في الفصاحةِ والبلاغةِ ودقَّةِ النَّظم وزيادة الفائدة.

ولولا أن الشطيان قد استحوذَ على كثيرٍ من الناس في هذا الشأنَ، وأنهم -بتَرْك النظرِ، وإهمالِ التدبُّر وَضعفِ النيَّة، وقِصَر الهِمَّة- قد طرَّقوا له حتى جعَل يُلْقي في نفوسِهم كلَّ محالٍ وكلَّ باطلٍ، وجَعَلوا هُمْ يُعطون الذي يُلْقيه حَظًّا من قبولهم، ويبوؤونه مكاناً مِن قلوبهم، لما بلغَ

(1) – البلاغة العربية اسسها وعلومها وفنوها، الميداني، المؤلف: عبد الرحمن بن حسن حَبَنَّكَة الميداني، الناشر: دار القلم، دمشق، الدار الشامية، بيروت، الطبعة: الأولى، 1416 هـ – 1996 م، (ج1/ص: 79).

من قَدْر هذه الأقوالِ الفاسدةِ أنْ تدخُلَ في تصنيفٍ، ويعادَ ويُبْدأَ في تبيينٍ لوجهِ الفسادِ فيها وتعريف»(1).

مع أن جمهرة من البلاغيين استحسنوا هذه المقارنة، وإنما كان قصدهم الوصول إلى نزول الكلام غير القرآن الكريم، عن رتبة القرآن الكريم في بلاغته وفصاحته، ومن أولئكم ابن سنان الخفاجي، وقد استحسن أيضاً في هذا المعنى قولهم: القتل أنفى للقتل، وبينه وبين لفظ القرآن تفاوت في البلاغة وذلك من وجوه:

أحدها أنه ليس كل قتل ينفى القتل وإنما القتل الذي ينفيه ما كان على وجه القصاص والعدل ففي ذكر القصاص بيان للمعنى وكشف للغرض

وثانيها أن في قوله تعالى: ﴿ وَلَكُمۡ فِي ٱلۡقِصَاصِ حَيَوٰةٞ ﴾ البقرة: ١٧٩، من إبانة الغرض المرغوب فيه بذكر الحياة ما ليس في قوله القتل أنفى للقتل وهذه زيادة في الإيضاح

وثالثها أن نظير قوله القتل أنفى للقتل القصاص حياة والقصاص حياة أوجز، لأنه عشرة أحرف والقتل أنفى للقتل أربعة عشر حرفاً

ورابعها أن في القتل أنفى للقتل تكريراً وليس في القصاص حياة تكرير وقد قدمنا أن تكرير الحروف عيب في الكلام على ما ذكرناه فيما مضى من هذا الكتاب»(2).

ومن خلال هذين النقلين عن الجرجاني وابن سنان الخفاجي، نجد تباينا في الرؤى، فبينما يخطأ الجرجاني، عقد المفاضلة أصلا، نجد ابن سنان يستحسنها، ويستغلها ليثبت تفوق بلاغة القرآن على غيرها من البلاغات، والذي يظهر أن مسلك ابن سنان الخفاجي، أعْوَدُ بالفائدة على بلاغة القرآن الكريم، من مسلك الجرجاني وإن كان قصده صالحا.

ومن الآيات القرآنية التي وقف البلاغيون على جلالة البلاغة فيها قواه ﷻ: ﴿ إِنَّ فِرۡعَوۡنَ عَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَجَعَلَ أَهۡلَهَا شِيَعٗا يَسۡتَضۡعِفُ طَآئِفَةٗ مِّنۡهُمۡ يُذَبِّحُ أَبۡنَآءَهُمۡ وَيَسۡتَحۡيِۦ نِسَآءَهُمۡۚ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلۡمُفۡسِدِينَ ٤ ﴾ القصص: ٤، يكلمنا الباقلاني عن بلاغتها، فيقول: « هذه تشتمل على ست كلمات، سناؤها وضياؤها على ما ترى، وسلاستها وماؤها على ما تشاهد، ورونقها على ما تعاين، وفصاحتها على ما تعرف.

---

(1) – دلائل الإعجاز، للجرجاني، (ص: 389-390).

(2) – سر الفصاحة، الخفاجي، (ص: 209).

وهي تشتمل على جملة وتفصيل، وجامعة وتفسير ذكر العلوِّ في الأرض باستضعاف الخلق بذبح الولدان وسبي النساء، وإذا تحكم في هذين الأمرين فما ظنك بما دونهما!؟ لأن النفوس لا تطمئن على هذا الظلم، والقلوب لا تقر على هذا الجور.

ثم ذكر الفاصلة التي أو غلت في التأكيد، وكفت في التظليم، وردت آخر الكلام على أوله، وعطفت عجزه على صدره، ثم ذكر وعده تخليصهم بقوله: ﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسۡتُضۡعِفُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَنَجۡعَلَهُمۡ أَئِمَّةً وَنَجۡعَلَهُمُ ٱلۡوَٰرِثِينَ ۝٥﴾ القصص: ٥،.وهذا من التأليف بين المؤتلف، والجمع بين المستأنس»[1].

ومن الإشادة ببلاغة القرآن ما نقله ابن سنان الخفاجي عن الرُّمانيِّ، في توجيه بعض ما أُشكل من تعبيرات القرآن كما في قوله ﷻ: ﴿حَبِطَتۡ أَعۡمَٰلُهُمۡ فَأَصۡبَحُواْ خَٰسِرِينَ ۝٥٣﴾ المائدة: ٥٣، «وإنما ذكر الصباح من غير أن يرد به معنى الصباح لأنهم بمنزلة من أصبح على أسوأ حال وذلك لأن أكثر ما يكون من هيجان الإعلان بالليل فيؤمل لصاحبها حسن الحال عند الصباح فإذا كان الضِّد من ذلك حصل على الهلاك، فلم يرض أبو الحسن أن تقع أصبح في كلام الله تعالى حشواً بل تأوَّل ذلك كما يتأوله مثله»[2].

الفرع الثاني: تفاضل بلاغة القرآن.

وبلاغة القرآن الكريم لا تنافي أن بعض القرآن أبلغ من بعض، فهذا أمرٌ ظاهرٌ كما يعرفه أهل لبلاغة وغيرهم من الناس، يقول ابن سنان الخفاجي: « أما زيادة بعض القرآن على بعض في الفصاحة، فالأمر منه ظاهر لا يخفى على من علق بطرف من هذه الصناعة وشدا شيئاً يسيرا وما زال الناس يفردون مواضع من القرآن يعجبون منها في البلاغة وحسن التأليف كقوله تعالى: ﴿وَقِيلَ يَٰٓأَرۡضُ ٱبۡلَعِي مَآءَكِ وَيَٰسَمَآءُ أَقۡلِعِي وَغِيضَ ٱلۡمَآءُ وَقُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ وَٱسۡتَوَتۡ عَلَى ٱلۡجُودِيِّۖ وَقِيلَ بُعۡدٗا لِّلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝٤٤﴾ هود: ٤٤[3]

---

(1) – إعجاز القرآن، للباقلاني، (ص:193-194).

(2) – سر الفصاحة، الخفاجي، (ص: 152-153).

(3) – تحدث عنها وعن بلاغتها الفائقة شيخ البلاغيين عبد القاهر الجرجاني في دلائل الإعجاز، يُنظر منه، (ص: 45-46)

وقوله تعالى: ﴿ أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ ٱلصِّيَامِ ٱلرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَآئِكُمْۚ هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّۗ ﴾ البقرة: ١٨٧[1].

وقوله تعالى: ﴿ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ ۝٣٤ ﴾ فصلت: ٣٤[2]

وقوله ﷻ: ﴿ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ فَزِعُوا۟ فَلَا فَوْتَ وَأُخِذُوا۟ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ ۝٥١ ﴾ سبأ: ٥١[3]

وقوله تعالى: ﴿ وَلَكُمْ فِى ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ۝١٧٩ ﴾ البقرة: ١٧٩،وأمثال هذا ونظائره كثير، فلو كانوا يذهبوا إلى تساويه في الفصاحة لم يكن لإفرادهم هذه المواضع المعينة المخصوصة دون غيرها معنى وإنما تدخل الشبهة في هذا ومثله على الأعاجم من الفقهاء والمتكلمين لجهلهم بهذه الصناعة وعدم فهمهم لقوانينها»[4].

ثم يذكر ابن سنان الخفاجي أنه إذا ثبت هذا التفاوت في البلاغة القرآنية نفسها، إلا أنها أبلغ من لغة الإنجيل والتوراة والزبور وسائر الكتب التي أنزل الله ﷻ، فيقول: « ثم ليس أحد ممن ينكر أن يكون بعض القرآن أفصح من بعض يتمنع من القطع على أن القرآن في لغته أفصح من التوراة في لغتها والإنجيل في لغته والزبور في لغته؛ لأن تلك الكتب عنده لم تكن معجزة لخرقها العادة بالفصاحة وإن كان الجميع كلام الله تعالى، فما المانع من أن يكون بعض كلامه الذي هو القرآن أفصح من بعض حتى تكون آية منه أفصح من آية والجميع كلام الله كما جاز عنده أن يكون القرآن أفصح من الإنجيل وإن كان الجميع كلام الله وهذا لا يخفى على محصل»[5].

(1) – ينظر في الحديث عنها، البلاغة العربية، لعبد الرحمن الميداني، (ج2/ص: 50-51)

(2) – تحدث عن بلاغتها وما فيها من الاختصار والإيجاز المليح ابن الأثير في كتابه: "الجامع الكبير في صناعة المنظوم من الكلام والمنثور" (ص: 246).

(3) – أشار إلى البلاغة فيها – بلاغة الحذف- ابن الأثير في سفره، المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، ت الحوفي، (ج2/ص: 252)

(4) - سر الفصاحة، الخفاجي، (ص: 223-224).

(5) – المرجع نفسه، (ص: 225).

الفرع الثالث: رد الشبهات عن بلاغة القرآن:

لقد أثار جمعٌ من الناس قديما وحديثا شبهات حول القرآن الكريم في نقله وكتابته ولغته وبلاغته، ولكنها شبهات لا تكاد تقوم حتى تسقط، هذه أهم الشبهات التي أوردها من أوردها للطعن على بلاغة القرآن الكريم:

أولاً: شبهة التكرير (التكرار):

وهذا من أشهر ما أرادوا أن يُزروا به على بلاغة القرآن خاصة، وقد مر معنا جواب مفصل عن المسألة في الفصل السابق[1]، مما تعلق ببعض التكرار الذي ورد في القرآن الكريم، فإننا نجد علماء البلاغة بدورهم لهم جوابات في ردِّ شبهة التكرير في القرآن الكريم.

ومن النماذج على ذلك ما ذكره ابن الأثير في المثل السائر، لما ذكر جملة من الآيات التي أُدعي عليها أنها معيبة بالتكرير، فقال: « وهذه الآيات يظن أنها من باب التكرير، وليست كذلك، وقد أنعمت نظري فيها، فرأيتها خارجة عن حكم التكرير، وذاك أنه إذا طال الفصل من الكلام، وكان أوله يفتقر إلى تمام لا يفهم إلا به؛ فالأولى في باب الفصاحة أن يعاد لفظ الأول مرة ثانية؛ ليكون مقارنا لتمام الفصل؛ كي لا يجيء الكلام منثورا؛ لا سيما في "إنّ وأخواتها"؛ فإذا وردت "إنّ" وكان بين اسمها وخبرها فسحة طويلة من الكلام فإعادة "إنّ" أحسن في حكم البلاغة والفصاحة؛ كالذي تقدم من هذه الآيات، وعليه ورد قول بعضهم من شعراء الحماسة: [من: الطويل]:

أسجنا وقيدا واشتياقا وغربة ... ونأيَ حبيبٍ إنّ ذا لعظيمُ
وإنَّ امرأ دامت مواثيقُ عهْدِهِ ... على مثلِ هذا إنَّهُ لكريمُ[2].

فإنه لما طال الكلام بين اسم "إنّ وخبرها" أعيدت "إنّ" مرة ثانية؛ لأن تقدير الكلام: وإنّ امرأ دامت مواثيق عهده على مثل هذا لكريم؛ لكن بين الاسم والخبر مدى طويل؛ فإذا لم

(1) – ينظر الحديث عن شبهة التكرار في كتب علم الكلام، (ص: 323).
(2) – محاضرات الأدباء ومحاورات الشعراء والبلغاء، أبو القاسم الحسين بن محمد المعروف بالراغب الأصفهاني، شركة دار الأرقم بن أبي الأرقم – بيروت، الطبعة: الأولى، 1420 هـ، (ج2/ص: 62)، وينظر شرح ديوان الحماسة، أبو على أحمد بن محمد بن الحسن المرزوقي ، المحقق: غريد الشيخ، وضع فهارسه العامة: إبراهيم شمس الدين، الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان، الطبعة: الأولى، 1424 هـ - 2003 م، (ص: 920)

تعد "إنّ" مرة ثانية لم يأت على الكلام بهجةٌ ولا رونقٌ، وهذا لا يتنبه لاستعماله إلا الفُصحاءُ إما طبعا وإما علما، وكذلك يجري الأمر إذا كان خبر "إنّ" عاملا في معمول يطول ذكره؛ فإن إعادة الخبر ثانية هو الأحسن»[1].

كما نجد لابن سنان الخفاجي جوابا على الشبهة، وأن التكرار محمود متى اقتضاه المقام، وذلك قوله:« وهذا حدٌّ يجب أن تراعيه في التكرار فمتى وجدت المعنى عليه ولا يتم إلا به لم يحكم بقبحه وما خالف ذلك قضيت عليه بالاطِّراح ونسبْتَهُ إلى سُوء الصِّناعة»[2].

فالتكرار إذن ليس من عيوب البلاغة، بل هو منها متى اقتضاه المقام، ومن المقامات التي تقتضيه كما جاء عن ابن الأثير في طول الفصل في الكلام، لاسيما في إنَّ وأخواتها، ومن المقامات التي تقتضيه القصص، والمخالفة بين الأساليب قصد إفهام وتوكيد الكلام ونحو ذلك من المقتضيات التي رصدها البلاغيون، والمفسرون وغيرهم.

ثانيا: شبهة الزيادة في القرآن:

من القضايا التي وقع فيه جدلٌ وأريد بها التنقُّص من بلاغة القرآن الكريم، قضية الزيادة في القرآن الكريم، وقد عرض لها الزركشي في البرهان، وملخص ما ذكره فيها: « أن الزيادة واللغو من عبارة البصريين، والصلة والحشو من عبارة الكوفيين ...، والأوْلى اجتناب مثل هذه العبارة في كتاب الله تعالى؛ فإن مراد النحويين بالزائد من جهة الإعراب لا من جهة المعنى ...

وقد اختلف في وقوع الزائد في القرآن؛ **فمنهم من أنكره**؛ قال الطرطوسي في العمدة: زعم المبرد وثعلب ألا صلة في القرآن، والدَّهْماءُ من العلماء والفقهاء والمفسرين على إثبات الصِّلات في القرآن، وقد وُجد ذلك على وجهٍ لا يسعُنا إنكاره، فذُكِر كثيرًا، وقال ابن الخبَّاز في التوجيه: وعند ابن السراج أنه ليس في كلام العرب زائد؛ لأنه تكلم بغير فائدة وما جاء منه حمله على التوكيد، **ومنهم من جوَّزه** وجعل وجوده كالعدم وهو أفسد الطرق»[3]

أما عند علماء البلاغة، فنجد مثلا ابن سنان الخفاجي، يذكر لنا مثالين، ويوقفنا على بلاغة الزيادة فيه، مع التعليل بتعليلات النحويين، يقول: « فأما زيادة: كما في قول الله تعالى:

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

(1) – المثل السائر، لابن الأثير: (ج2/ص: 155)
(2) – سر الفصاحة، لابن سنان الخفاجي، (ص: 107)
(3) – البرهان في علوم القرآن، للزركشي، في القسم الخامس والعشرين، (ج3/ص: 72، وما بعدها)، باختصار.

﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ﴾ آل عمران: ١٥٩، وقوله تعالى: ﴿ فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ ﴾ النساء: ١٥٥، فإن لها هنا تأثيراً في حسن النظم وتمكيناً للكلام في النفس، وبعداً به عن الألفاظ المبتذلة، فعلى هذا لا يكون حشوا لا يفيد.

وأهل النحو يقولون إن ما في هذا الموضع صلة مؤكدة للكلام وقد يكون التوكيد عندهم بالتكرار كما يكون بالعلامة الموضوعة له، وإذا أفاد الكلام شيئاً فليس من الحشو المذموم، لأن حقيقة الحشو هو الذي يكون دخوله في الكلام وخروجه على سواء»(1).

فهذا موقف البلاغيين من الزيادة في القرآن الكريم، وكأنه يرتضون القضية بما أنها مجرد اصطلاحٍ، فإن فُسر تفسيرًا صحيحاً فلا غضاضة في ذلك ألبتة.

ثالثا: الطعن على تشبيهات القرآن:

التشبيه كما يقول الزركشي عنه: « اتَّفَقَ الْأُدَبَاءُ عَلَى شَرَفِهِ فِي أَنْوَاعِ الْبَلَاغَةِ وَأَنَّهُ إِذَا جَاءَ فِي أَعْقَابِ الْمَعَانِي أَفَادَهَا كَمَالًا وَكَسَاهَا حُلَّةً وَجَمَالًا قَالَ الْمُبَرِّدُ فِي "الْكَامِلِ": هُوَ جَارٍ فِي كَلَامِ الْعَرَبِ حَتَّى لَوْ قَالَ قَائِلٌ: هُوَ أَكْثَرُ كَلَامِهِمْ لَمْ يَبْعُدْ»(2).

ثم إنَّ تشبيهات القرآن جاريةٌ على البلاغة السامقة، والبراعة الفائقة، ومع ذلك اتهمت بعض التشبيهات بأنها غير جارية على ذلك، ومن ذلكم التشبيه في قوله ﷻ عن طلع شجرة النار شجرة الزقوم: ﴿ طَلْعُهَا كَأَنَّهُۥ رُءُوسُ ٱلشَّيَٰطِينِ ۝٦٥ ﴾ الصافات: ٦٥، قالوا: إن المشبه به يجب أن يكون معروفاً واضحاً أبين من الشيء الذي يشبه، وليس هو كذلك هنا

قال الخفاجي في الجواب على ذلك: « إن الزقوم غير مشاهد ورؤوس الشياطين غير مشاهدة، إلا أنه قد استقر في نفوس الناس من قبح الشياطين بما صار بمنزلة المشاهد كما استقر في نفوسهم من حسن الحور العين ما صار بمنزلة المشاهد حتى أنهم إذا شبهوا وجهاً بوجه الحور كان تشبيها صحيحاً، وإن كانت الحور لم تشاهد ولم يستقر في نفوسهم قبح طلع الزقوم كما استقر في نفوسهم قبح رؤوس الشياطين، فكأن المشبه به أوضح وفي رؤوس الشياطين أيضاً من المبالغة في القبح ما ليس في طلع الزقوم.

(1) – سر الفصاحة، الخفاجي، (ص: 156-157).

(2) – البرهان في علوم القرآن، للزركشي، في القسم الخامس والعشرين، (ج3/ص: 416، وما بعدها).

وقد قيل في بعض التفاسير[1]: إن الشياطين هنا الحيات، وعلى هذا القول يسقط السؤال لأن الحيات مشاهدة»[2].

فمثل هذه الاعتراضات على تشبيهات القرآن لا تُنقص من قيمتها البلاغية، وإنما العيبُ في عُجمة الذي يعترض عليها، إذ لو كان يعقل عن العرب بلاغتهم، وكان حسن الفهم لموارد كلامها لما قال قولته التي قال.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

(1) – وهناك أقوالٌ أخرى كثيرة، منها ما ذكره النحاس في "معاني القرآن": « ولكن العرب إذا قبحت المؤنث شبهته بالغول وإذا قبحت المذكر شبهته بالشيطان فهذا جواب صحيح بين وقد قيل هو نبت باليمن قبيح المنظر شبهت به يقال له الأستن والشيطان وليس ذلك بمعروف عند العرب، قال أبو جعفر وقيل الشياطين ضروب من الحيات قباح» معاني القرآن، أبو جعفر النحاس أحمد بن محمد، المحقق: محمد علي الصابوني، الناشر: جامعة أم القرى – مكة المكرمة، الطبعة: الأولى، 1409هـ..، (ج6/ص: 34-35).

(2) – سر البلاغة، للخفاجي، (ص: 254).

المطلب الثاني: البلاغة القرآنية في كتب البلاغة

لما كانت قضية الإعجاز البلاغي تكاد الألسن تطبق على اعتبارها، فإن أولى الناس وأسعدهم بها، وأكثرهم بذلا في إحقاقها البلاغيون، ولذلك، نجدهم لا يكادون يخلون مبحثا من مباحث البلاغة إلا وأودعوه الشواهد القرآنية، وجلاء ذلك من خلال الآتـي:

الفرع الأول: في مجال علم المعاني:

علم المعاني علْمٌ يعرف به أحوال الكلام العربيّ التي تهدي العالِمَ بها إلى اختيار ما يُطَابقُ منها مقتضى أحوال المخاطبين، رجاء أن يكون ما يُنْشِىءُ من كلامٍ أدبيّ بَلِيغاً.

ويدور هذا العلم حول تحليل الجملة المفيدة إلى عناصرها، والبحث في أحوال كلّ عنصر منها في اللّسان العربيّ، ومواقع ذكره وحذفه، وتقديمه وتأخيره، ومواقع التعريف والتنكير، والإطلاق والتَّقْيِيد، والتأكيد وعدمه، ومواقع الْقَصرِ وعَدَمه، وحَوْلَ اقتران الجمل المفيدة ببعضها، بعطف أو بغير عطف، ومواقع كلٍّ منهما ومقتضياته، وحول كون الجملة مساوية في ألفاظها لمعناها، أو أقلَّ منه، أو زائداً عليه، ونحو ذلك(1).

أولا: في الفصل والوصل:

من قضايا علم المعاني البالغة الأهمية، قضية الفصل والوصل، فهو « دقيق المجرى، لطيف المغزى، جليل المقدار، كثير الفوائد، غزير الأسرار، ولقد سئل بعض البلغاء عن ماهية البلاغة، فحدّها بمعرفة الفصل، والوصل، وجعل ما سواه تبعا له، ومفتقرا إليه، وقاعدته العظمى حروف العطف، وينعطف عليها حروف الجر، وتكون تابعة لها، فإنه يتعلق بكل واحد منهما أسرار ولطائف»(2).

وقد نبه ابن أبي الأصبع عن أهمية هذا المبحث في البلاغة والإعجاز على حدٍّ سواء، وسماه حسن التخلُّص، وذكر أنَّ « المتأخرين قد لهجوا بها وأكثروا منها، وهي لعمري من المحاسن وهذا الباب قديم، وهو من أجلِّ أبواب المحاسن، ويسمى معرفة الفصل من الوصل.

(1) – يُنظر: البلاغة العربية أسسها وعلومها وفنونها، لعبد الرحمن حبنكة الميداني، (ج1/ ص:138-139)

(2) – الطراز لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز، للعلوي، (ج2/ص: 20)

وقد ذهب أصحاب الإعجاز إلى أنه وجه الإعجاز، وهو دقيق في عين الغبي خفي يخفى على غير الحذاق من ذوي النقد، وهو مبثوث في الكتاب العزيز من أوله إلى آخره، فإنك تقف من الكتاب العزيز على مواضع تجدها في الظاهر فصولاً متنافرة لا تعرف كيف تجمع بينها، فإذا أنعمت النظر وكنت ممن له دربة بهذه الصناعة، ظهر لك الجمع بينهما، كقوله سبحانه وتعالى: ﴿ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ۝١ وَءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلْنَٰهُ هُدًى لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَلَّا تَتَّخِذُوا۟ مِن دُونِى وَكِيلًا ۝٢ ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا ۝٣ ﴾ [الإسراء: ١ – ٣]، فإنك إذا نظرت إلى قوله تعالى: " وَءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ" وجدت هذا الفصل مبايناً لما قبله حتى تفكر فتجد الوصل بين الفصلين في قوله: " سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ" فإنه سبحانه أخبر بأنه أسرى بمحمد ﷺ ليريه من آياته، ويرسله إلى عباده، كما أسرى بموسى من مصر حين خرج منها خائفاً يترقب، فأتى مدين، وتزوج بابنة شعيب، وأسرى بها فرأى النار، فخاطبه ربه وأرسله إلى فرعون، وآتاه الكتاب، فهذا الوصل بين هذين الفصلين، وأما الوصل بين ما ذكرت وبين قوله تعالى: ﴿ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا ۝٣﴾ الإسراء: ٣، فقد كان على بني إسرائيل نعمة عليهم قديماً حيث نجاهم في السفن، إذ لو لم ينج أباهم من أبناء نوح لما وجدوا، وأخبرهم أن نوحاً كان شكوراً، وهم ذريته، والولد سر أبيه، فيجب أن يكونوا شاكرين كأبيهم»(1).

ويوقفنا الجرجاني، على مواضع من القرآن وقع فيها الفصل والوصل على ما تقتضيه بلاغة الكلام وتستدعيه، وما يترتب على ذلك من آثار لطيفة، وتنبيهات منيفة، من ذلكم حديثه عن قوله ﷻ: ﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا وَلَّىٰ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِىٓ أُذُنَيْهِ وَقْرًا ۖ ﴾ لقمان: ٧، يقول: « لم يأت **معطوفًا** نحو: { كَأَنَّ فِىٓ أُذُنَيْهِ وَقْرًا }، لأنَّ المقصودَ من التشبيه بِمَنْ في أذنيه وقْرٌ، وهو بعينه المقصودُ مِنَ التشبيه بِمَنْ لم يسمع، إلاَّ أنَّ الثاني أبلغ وأكَدُ في الذي أُرِيدَ.

(1) – تحرير التحبير في صناعة الشعر والنثر، لابن أبي الأصبع، (ص: 434)

وذلك أنَّ المعنى في التشبيهين جميعاً أنْ يَنْفِيَ أن يكونَ لتلاوةِ ما تُلِيَ عليه من الآياتِ فائدَةٌ معه، ويكونَ لها تأثيرٌ فيه، وأنْ يجعلَ حالَه إذا تُلِيتْ عليه كحالِه إذا لم تُتْلَ.

ولا شبهةَ في أن التشبيه بِمَنْ في أذنيه وقرٌ أبلغُ وآكَدُ في جعلِه كذلك، مِنْ حيثُ كان مَنْ لا يصحُّ منه السَّمْعُ وإن أرادَ ذلك، أبعدَ مِنْ أنْ يكونَ لتلاوةِ ما يُتْلَى عليه فائدةٌ، مِنَ الذي يصحُّ منه السَّمْعُ إلا أنه لا يسمعُ، إما اتفاقاً وإما قصداً إلى أنْ لا يسمعَ. فاعرفْه وأحسِنْ تدبُّره»[1].

ومن سورة يوسف عليه السلام في قوله عز وجل: ﴿ مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنْ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ ۝٣١ ﴾ يوسف: ٣١، قال: « ومنَ اللطيفِ في ذلك قولُه تعالى: { ﴿ مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنْ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ }، وذلك أن قوله: {إِنْ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ }، مشابِكٌ لقولِه: { مَا هَٰذَا بَشَرًا } ومُداخلٌ في ضِمْنه من ثلاثة أوجهٍ: وجهان هو فيهما شبيهٌ بالتأكيدِ، ووجهٌ هو فيه شبيهٌ بالصفةِ.

فأحدُ وجهَي كونِه شبيهاً بالتأكيدِ، هو أنه إذا كان مَلَكاً لم يكن بشراً، وإذا كان كذلك كان، إثباتُ كونِه ملكاً تحقيقاً لا محالَة، وتأكيداً لنفي أنْ يكونَ بشراً.

والوجهُ الثاني أن الجاريَ في العرفِ والعادةِ أنه إذا قيلَ: ما هذا بشراً وما هذا بآدميٍّ" والحالُ حالُ تعظيمٍ وتعجُّبٍ مما يُشَاهَدُ في الإنسانِ مِنْ حُسْنِ خلْقٍ أو خُلُقٍ، أن يكونَ الغرضُ والمرادُ من الكلامِ أن يقال إنه ملك، وأنه يُكْنَى به عن ذلك، حتى إنَّه يكون مفهومَ اللفظ، وإذا كان مفهوماً مِنَ اللفظ قبْلَ أن يُذْكَر، كان ذكرهُ إذا ذُكِرَ تأكيداً لا محالَة، لأنَّ حَدَّ "التأكيدِ" أنْ تحقِّقَ باللفظِ مَعْنًى قد فُهِمَ مِنَ لَفْظٍ آخرَ قَدْ سَبَقَ منكَ.

أفلا ترى: أنه إنما كان "كلُّهم" في قولِك: "جاءنِي القومُ كلُّهم" تأكيداً من حَيْثُ كانَ الذي فُهِمَ منه، وَهُوَ الشُّمولُ، قد فُهِم بديئاً من ظاهِرِ لفظِ "القومِ"، ولو أنَّه لم يكن فُهِم الشمولُ من لفظِ "القومِ"، ولا كانَ هو مِنْ موجبه، لم يكن "كلّ" تأكيداً، ولكان المشمول مُستفاداً من "كلّ" ابتداء.

وأما الوجه الثالث الذي هو فيه شبيهٌ بالصِّفة، فهو أنه إذا نُفَيَ أن يكونَ بَشراً، فقد أثبتَّ له جنسَ سِواه، إذْ منَ المحالِ أن يخرُجَ من جنسِ البشرِ، ثم لا يدخُلُ في جنسِ آخرَ. وإذا كانَ الأمْر كذلكَ، كان إثباتُه "مَلَكاً" تبييناً وتعييناً لذلك الجنسِ الذي أُريدَ إدخالُه فيه، وإغناء

[1] – دلائل الإعجاز، للجرجاني، (ص: 228-229)

عن أن تحتاجَ إلى أن تسألَ فتقولَ: "فإنْ لم يكنْ بشراً، فما هُوَ؟ وما جنسُه؟ " كما أنك إذا قلتَ: "مررتُ بزيدٍ الظريفِ" كان "الظريفُ" تَبييناً وتعييناً للذي اردتَ مِنْ بين مَنْ له هذا الاسمُ، وكنتَ قد أغنيتَ المخاطَبَ عن الحاجةِ إلى أن يقول: "أيَّ الزيدين أردت؟ "»[1].

والأمثلة في ذلك كثيرةٌ من القرآن الكريم، وإنما المراد التمثيل لا غير، والوقوف على نماذج تطبيقية من القرآن توقف قارئها على القدر الذي بلغت إليه بلاغة القرآن الكريم.

ثانيا: في التقديم والتأخير:

قضية التقديم والتأخير قضية عريقة، لربما وقف عليها النحاة قبل البلاغيين، ففي الكتاب عند الحديث عن الفاعل والمفعول يقول سيبويه: « كأنّهم إنّما يقدّمون الذي بيانه أهم لهم، وهم ببيانه أعْنَى، وإن كانا جميعاً يُهمّانِهم ويَعْنِيانهم»[2].

ثم هو مع عراقته، « هو بابٌ كثيرُ الفوائد، جَمُّ المَحاسن، واسعُ التصرُّف، بعيدُ الغاية، لا يَزالُ يَفْتَرُّ لك عن بديعةٍ، ويُفْضي بكَ إلى لَطيفة، ولا تَزال تَرى شِعراً يروقُك مسْمَعُه، ويَلْطُف لديك موقعُه، ثم تنظرُ فتجدُ سببَ أَنْ راقكَ ولطفَ عندك، أن قُدِّم فيه شيءٌ، وحُوِّل اللفظُ عن مكانٍ إلى مكان»[3].

والجرجاني لمَّا إلى أهمية هذا الباب، فإنه لا ينسى أن يأتي بنماذج القرآن الكريم، فيقول في حديثه عن همزة الاستفهام، وما يليها من المستفهم إذا كان فعلا، فإنه أما أن يكون قد كان أو لم يكن أصلا، فقال: « واعلمْ أنَّ "الهمزةَ" فيما ذكرنا تَقريرٌ بفعلٍ قد كان، وإنكارٌ له لِمَ كان، وتوبيخٌ لفاعِلِه عليه.

ولها مذهبٌ آخرُ، وهو أن يكون الإنكار أَنْ يكونَ الفعلُ قد كانَ مِنْ أَصْله. ومثالُه قولُه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿ أَفَأَصْفَاكُمْ رَبُّكُم بِالْبَنِينَ وَاتَّخَذَ مِنَ الْمَلَائِكَةِ إِنَاثًا إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلًا عَظِيمًا ﴿٤٠﴾ ﴾ الإسراء: ٤٠، وقولُه عَزَّ وَجَلَّ: ﴿أَصْطَفَى الْبَنَاتِ عَلَى الْبَنِينَ ﴿١٥٣﴾ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿١٥٤﴾﴾ الصافات: ١٥٣ – ١٥٤، فهذا رَدٌّ على المشركينَ وتكذيبٌ لهم في قولِهم ما يُؤَدّي إلى هذا الجهلِ العظيم، وإذا قدم الاسم في هذا صارَ

([1]) – المرجع نفسه، (ص: 229-230)

(2) – الكتاب، عمرو بن عثمان بن قنبر الحارثي بالولاء، أبو بشر، الملقب سيبويه، المحقق: عبد السلام محمد هارون، الناشر: مكتبة الخانجي، القاهرة، الطبعة: الثالثة، 1408 هـ - 1988 م، (ج1/ص: 34)

(3) – دلائل الإعجاز، للجرجاني، (ص: 106)

الإنكارُ في الفاعل، ومثالُه قولُكَ للرجل قد انْتحلَ شِعراً: "أأَنْتَ قلتَ هذا الشعرَ؟ كذبتَ، لسْتَ ممنْ يُحْسِن مِثلَه"، أَنْكَرْتَ أنْ يكون القائل ولم تنكر الشعر»[1].

ثم أورد بعده نقيض ذلك بأن يكون الفعل موجودا، فقال « وأما الضربُ الثاني، وهو أن يكونَ "يَفْعَل" لفعلٍ موجودٍ، فإنَّ تقديمَ الاسم يَقتضي شَبَهاً بما اقتضاهُ في "الماضي"، منَ الأخذ بأن يُقرَّ أنه الفاعلُ، أو الإنكارُ أنْ يكونَ الفاعل؛ فمثالُ الأوَّلِ قولُك للرجل يَبْغي ويَظْلِمُ: "أأنت تجيءُ إلى الضَّعيف فتغصبُ مالَه؟ "، "أأنتَ تَزْعُم أنَّ الأمرَ كَيْتَ وكَيتَ؟ " وعلى ذلك قولُه تعالى: ﴿ أَفَأَنتَ تُكۡرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُواْ مُؤۡمِنِينَ ﴿٩٩﴾ ﴾ يونس: ٩٩، ومثال الثاني: ﴿أَهُمۡ يَقۡسِمُونَ رَحۡمَتَ رَبِّكَۚ﴾ الزخرف: ٣٢ »[2].

في أمثله أخرى كثيرة عند الجرجاني وغيره من علماء البلاغة، والقصد دائما إنما هو التمثيل لا غير، أما الاستقصاء فلا سبيل إليه، لكثرته، فمن رامه طلبه من مظانه من كتب البلاغة، والتفاسير البلاغية كالكشاف، ونحوه.

ثالثا: الحذف والذكر:

في الحذف يقول الجرجاني: « هو بابٌ دقيقُ المَسْلك، لطيفُ المأْخذ، عجيبُ الأَمر، شبيهٌ بالسِّحْر، فإنكَ ترى به تَرْكَ الذِكْر، أَفْصَحَ من الذكْرِ، والصَّمتَ عن الإفادةِ، أَزْيَدَ للإِفادة، وتجدُكَ أَنْطَقَ ما تكونُ إِذا لم تَنْطِقْ، وأَتَمَّ ما تكونُ بياناً إذا لم تُبِنْ»[3]، وإنما يعنى البلاغيون بالحذف على حساب الذكر، وإن كان لكلِّ واحدٍ منهما مقامه، فلأن البلاغة فيه ألطف، ولأن المزايا فيه كثيرة، لعل أهمها ثلاثة، وهي:

الأولى: إيجاز العبارة، والاقتصاد فيها، وقد قيل "خير الكلام ما قلَّ ودلَّ".

الثانية: زيادة رونقها وصيانتها من الثقل الذي ربما يحدثه الذكرُ.

الثالثة: بناؤها على إثارة فكر المتلقِّي وخياله في الاستدلال على جزء المعنى الَّذي لم يُذكر اللفظ الدالُّ عليه، فيذهب في الحذف كلَّ مذهب.

(1) – المرجع نفسه، (ص: 114)

(2) – دلائل الإعجاز، للجرجاني، (ص: 122-123)

(3) – المرجع نفسه، (ص: 146)

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

هذا ما يُذكر مَزِيَّـةً عامَّةً للحذف ويبقى وراء كلِّ تعبير سرٌّ خاصٌّ به قائم على اختلاف المقامات والأحوال والأغراض، سواءٌ أجري على الحذف أو على الذكر.

وقد عدَّد الجرجاني من القرآن الكريم، مواضع عديدة « وعلى ذلك قولُه تعالى: ﴿ قُلۡ هَلۡ يَسۡتَوِي ٱلَّذِينَ يَعۡلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَۗ ﴾ الزمر: ٩، المعنى: هل يَسْتَوي مَنْ له عِلْم ومَنْ لا علمَ له؟ من غَيْرِ أن يقصدَ النصُ على معلوم. وكذلك قولُه تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِي يُحۡيِۦ وَيُمِيتُۖ ﴾ غافر: ٦٨، وقوله تعالى: ﴿ وَأَنَّهُۥ هُوَ أَضۡحَكَ وَأَبۡكَىٰ ۝٤٣ وَأَنَّهُۥ هُوَ أَمَاتَ وَأَحۡيَا ۝٤٤ ﴾ النجم: ٤٣ – ٤٤، وقوله: ﴿ وَأَنَّهُۥ هُوَ أَغۡنَىٰ وَأَقۡنَىٰ ۝٤٨ ﴾ النجم: ٤٨، المعنى هو الذي منه الإحياء والإماتة والغناء والإقناءُ، وهكذا كلُّ موضعٍ كان القصدُ فيه أن تثبت المعنى في نفسه فعلًا للشيء، وأن تخبر بأنَّ مِن شأنِه أن يكونَ منه، أوْ لا يكونُ إلاَّ منه، أوْ لا يكونَ منه، فإنَّ الفعلَ لا يُعدَّى هناك، لأَنَّ تعديته تَنْقُضُ الغرضَ وتُغيِّر المعنى»(1).

كما نجد ابن سنان الخفاجي يشير إلى بلاغة الحذف في قوله ﷻ: ﴿ وَلَوۡ أَنَّ قُرۡءَانٗا سُيِّرَتۡ بِهِ ٱلۡجِبَالُ أَوۡ قُطِّعَتۡ بِهِ ٱلۡأَرۡضُ أَوۡ كُلِّمَ بِهِ ٱلۡمَوۡتَىٰۗ بَل لِّلَّهِ ٱلۡأَمۡرُ جَمِيعًاۗ ﴾ الرعد: ٣١، كأنه يريد لكان هذا القرآن ولم يقل ذلك.

وفي قوله ﷻ: ﴿ وَسِيقَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ رَبَّهُمۡ إِلَى ٱلۡجَنَّةِ زُمَرًاۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتۡ أَبۡوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمۡ خَزَنَتُهَا سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمۡ طِبۡتُمۡ فَٱدۡخُلُوهَا خَٰلِدِينَ ۝٧٣ ﴾ الزمر: ٧٣، كأنه يريد لما كان هذا كلُّه حصلوا على النعيم الذي لا يشوبه كدرٌ أو غير ذلك من الألفاظ ولم يقله.

قال: « وفي هذا الحذف في الكلام مع الدلالة على المراد فائدة لأن النفس تذهب فيه كل مذهب ولو ورد ظاهراً في الكلام لاقتصر به على البيان الذي تضمنه، فكان حذف الجواب أبلغ لهذه العلة؛ كما تقول: لو رأيت علياً بين الصفين وتحذف الجواب فيذهب السامع كل مذهب ولو قلت: لو رأيت علياً عليه السلام بين الصفين لرأيت شجاعاً أو لرأيت رجلاً يقتل الأبطال، أو ما يجري هذا المجرى لم يكن في العظم عند السَّامع بمنزلة حذف الجواب، لأنه يذهب مع الحذف كل مذهب ولا يعول على نفس ما كان يرد في اللَّفظ فقط»(2).

(1) – دلائل الإعجاز، للجرجاني، (ص: 154-155)

(2) – سر الفصاحة، الخفاجي، (ص: 210).

جمعية الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

وأما عن الذِّكر، والذي يعبر عنه بالتصريح في بعض المواضع، فيقول عنه: « للتَّصريح عَمَلاً لا يكونُ مثلُ ذلك العمل للكناية، كان لإعادة اللفظِ في مِثْلِ قولهِ تعالى: ﴿ وَبِٱلْحَقِّ أَنزَلْنَٰهُ وَبِٱلْحَقِّ نَزَلَ ﴾ الإسراء: ١٠٥، وقولهِ تعالى: ﴿ قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ۝٢ ﴾ الإخلاص: ١ – ٢، من الحُسْنِ والبَهْجة، ومنَ الفَخَامة والنُّبل، ما لا يَخْفى موضِعُه على بصيرٍ. وكان لو تُرِكَ فيه الإظهارُ إلى الإضمار فقيل: "وبالحقِّ أنزلناه وبه نزل": و "قلْ هُوَ اللهُ أَحدٌ هو الصَّمَدُ" لعدِمْتَ الذي أنت واجده الآن»[1].

فهذه بعض الملامح البلاغية في باب الذكر والحذف من البلاغة القرآنية، وفي تضاعيف الآيات القرآنية أمثلة لا يقع عليها إحصاءٌ لكثرتها.

رابعا: القصر والاختصاص:

وهو من البلاغة بمكان، « وله فيها موقعٌ عظيمٌ، دقيقُ المجرى، صعب المرتقى، لا يختص به من أهل الصناعة إلا واحد بعد واحد «ومهما عظم المطلوب قل المساعد»[2].

قال الجرجاني: « وإذا أردْتَ أن يزدادَ ذلك عندَكَ وضوحاً، فانظرْ إلى قولِه تعالى: ﴿فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ وَعَلَيْنَا ٱلْحِسَابُ ۝٤٠ ﴾ الرعد: ٤٠، وقوله عزَّ وعلاَ: ﴿ إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَسْتَـْٔذِنُونَكَ ﴾ التوبة: ٩٣، فإنَّك تَرى الأمرَ ظاهراً أنَّ الاختصاصَ في الآية الأولى في المبتدأ الذي هو "البلاغُ" و "الحساب"، دون الخبر الذي هو "عليكَ" و "علينا" وأنَّه في الآيةِ الثانيةِ في الخَبَر الذي هو "عَلَى الذين"، دونَ المبتدأ الذي هو "السبيل"»[3].

والجرجاني وقف من القرآن الكريم على أمثلة كثيرة، منها ما ذكره في قوله ﷻ: « ﴿ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ۝١٩ ﴾ الرعد: ١٩، ليس الغَرضُ أنْ يَعلَمَ السَّامِعُون ظاهرَ معناه، ولكنْ أن يُذَمَّ

([1]) – دلائل الإعجاز، للجرجاني، (ص: 170)

(2) – الطراز، للعلوي، (ج3/ ص: 151)، وقد ذكر محمد عبد المنعم الخفاجي في شرحه على الإيضاح ووجوه بلاغة القصر، و هي: الإيجاز –تقرير الكلام وتمكينه في الذهن لدفع ما فيه من إنكار أو شك– الرد على المخاطب في قصري الأفراد والقلب –تعيين المبهم في قصر التعيين– مجاراة الخصم –التعريض– ذكر الواقع في القصر الحقيقي – المبالغة في القصر الادعائي، الإيضاح في علوم البلاغة، محمد بن عبد الرحمن جلال الدين، المحقق: محمد عبد المنعم خفاجي، الناشر: دار الجيل – بيروت، الطبعة: الثالثة، د ت ط. (ج3/ص: 5).

([3]) – دلائل الإعجاز، للجرجاني، (ص: 345)

الكفَّارُ، وأنْ يُقالَ إنهم مِنْ فرطِ العِنادِ ومِنْ غلبةِ الهوى عليهم، في حُكْمِ مَنْ ليس بذي عقْلٍ، وإنكم إنْ طمِعْتُم منهم في أنْ يَنْظروا ويَتذكَّروا، كنتُم كمَنْ طمِعَ في ذلك مِنْ غيرِ أُولي الألباب.

وكذلك قولُه: ﴿ إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخْشَىٰهَا ﴿٤٥﴾ ﴾ النازعات: ٤٥، وقولُه عَزَّ اسْمُه: ﴿ إِنَّمَا تُنذِرُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ ﴾ فاطر: ١٨، المعنى على أنَّ مَن لم تكنْ له هذه الخَشْيةُ، فهو كأنهُ ليس له أُذُنٌ تَسمَعُ وقلْبٌ يَعْقِلُ، فالإنذارُ معه كَلاَ إنذارٌ»[1].

خامسا: في الإيجاز والإطناب والمساواة:

وقد قسّموا دلالة الألفاظ على المعاني ثلاثة أقسام: أحدها المساواة وهو أن يكون المعنى مساويا للَّفظ، والثاني: التذييل؛ وهو أن يكون اللفظ زائدا على المعنى وفاضلاً عنه، والثالث: الإشارة وهو أن يكون المعنى زائداً على اللفظ؛ أي أنه لفظ موجز يدلّ على معنى طويل على وجه الإشارة واللمحة[2].

وشبه يحي العلوي صاحب الطراز هذه الاعتبارات تشبيهاً جميلاً، وذلك قوله: «إن الكلام بالإضافة إلى معناه كالقميص بالإضافة إلى قَدِّ مَنْ هُو له، فربما كان على قدر قدّه من غير زيادة ولا نقصان، وهذا هو المساواة، وتارة يكون زائدا على قده وهذا هو الإطناب، وربما نقص عن قده، وهذا هو الإيجاز، فإذن الكلام لا يخلو عن هذه الأنواع الثلاثة»[3].

والمقامات هي التي تستدعي ذلك كله، فإن: «من الكلام ما يحسن فيه الاختصار والإيجاز كأكثر المكاتبات والمخاطبات والأشعار، ومنه ما يحسن فيه الإسهاب والإطالة كالخطب والكتب التي يحتاج أن يفهمها عوام الناس وأصحاب الأذهان البعيدة»[4].

ثم إنَّ الأصل والمقدم من الطرائق الثلاث هو الإيجاز والاختصار في الكلام، وذلك «أنَّ الألفاظ غير مقصودة في أنفسها، وإنما المقصود هو المعاني والأغراض التي احتيج إلى العبارة عنها بالكلام فصار اللفظ بمنزلة الطريق إلى المعاني التي هي مقصودة، وإذا كان طريقان يوصل كل واحد منهما إلى المقصود على سواء في السهولة إلا أن أحدهما أخصر وأقرب من الآخر، فلا بدَّ أن يكون المحمود منهما هو أخصرهما وأقربهما سلوكا إلى المقصد فإن تقارب اللفظان في الإيجاز

[1]- المرجع نفسه، (ص: 354-355)
(2) – سر الفصاحة، للخفاجي، (ص: 207)
(3) – الطراز، للعلوي، (ج3/ ص: 176).
(4) – سر الفصاحة، للخفاجي، (ص: 206)

وكان أحدهما أشد إيضاحاً للمعنى كان بمنزلة تساوى الطريقين في القرب وزيادة أحدهما بالسهولة»[1].

وللإيجاز حدٌّ حتى يكون محمودا، غير معيبٍ، « وهو إيضاح المعنى بأقل ما يمكن من اللفظ وهذا الحدِّ أصح من حدِّ أبي الحسن الرماني بأنه العبارة عن المعنى بأقل ما يمكن من اللفظ»[2].

أما بالنسبة للمساواة، فإنَّ « حَدَّ المُساواة المحمودة هو إيضاح المعنى باللفظ الذي لا يزيد عنه ولا ينقص»[3]، لأن ذلك سيكون فيه إخلالٌ ببلاغة الكلام.

وقد لا يعترض معترضٌ على بلاغة الإيجاز، بل بعضهم يعدُّه هو البلاغة نفسها، ولا يبعدُ عنه المساواة، لأنه اقتصادٌ لا يذمُّ، ولكنهم ربما يعيبون الإطناب، ولا وجه لإخراج الإطناب من حدود البلاغة، «فأن الإطناب واد من أودية البلاغة، ولا يَرِدُ إلا في الكلام المؤتلف، ولا يختص بالمفردات، لأن معناه لا يحصل إلا في الأمور المركبة»[4]

إذن إذا مدح البلاغيون الإيجاز وقدموه، وربما حصروا البلاغة عليه، «لم يكن ذلك منعاً لجواز الإسهاب ولا رفضاً لاستعماله، وإنما مقصودهم أن هذا النحو أحسن من هذا النحو وبهذا الوجه يستدل على الفصاحة أكثر من هذا الوجه»[5].

وقد ذكر العلوي أمثلة كثيرة فيما يتعلق ببلاغة الإطناب في القرآن الكريم، فمن ذلكم: « قوله تعالى: ﴿ مَّا جَعَلَ ٱللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِۦ ﴾ الأحزاب: ٤، فقد علم أن القلب لا يكون إلا في الجوف ولكن الغرض المبالغة في الإنكار بأن يكون للإنسان قلبان، أكّد ذلك بقوله في جوفه.

ومن هذا قوله تعالى: ﴿فَخَرَّ عَلَيۡهِمُ ٱلسَّقۡفُ مِن فَوۡقِهِمۡ﴾ النحل: ٢٦، فإن المعلوم من حال السقف أنه لا يكون إلا من فوق، وإنما الغرض المبالغة فى الترهيب والتخويف والإنكار والرد كما

---

(1) – المرجع السابق، (ص: 214)
(2) – المرجع نفسه، (ص: 211)
(3) – المرجع نفسه، (ص: 217)
(4) – الطراز، للعلوي، (ج2/ ص: 123)
(5) – سر الفصاحة، للخفاجي، (ص: 223)

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

أشار إليه: بقوله:لا﴿قَدْ مَكَرَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَأَتَى ٱللَّهُ بُنْيَـٰنَهُم مِّنَ ٱلْقَوَاعِدِ﴾ النحل: ٢٦، يعنى بالخراب والهدم "فخر عليهم السقف من فوقهم"، تشديدا في الأمر، وتهويلا لهم، وإعظاما لحاله»[1].

والقرآن الكريم في هذا الباب لا يأتي بشيء إلا في الموطن الذي يليق به، ولو قُدِّر مجيئ غيره مكانه، لفات من البلاغة قدرٌ كبير، كل شيء في القرآن بمقدار.

(1) الطراز لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز، للعلوي، (ج2/ص: 126)

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

الفرع الثاني: في مجال علم البيان

علم البيان الذي هو إيراد المعنى الواحد بطرق مختلفة في وضوح الدلالة عليه كالاستعارة والكناية والتشبيه وغيرها[1]، وهو العلم الذي يكون به الاطّلاع على معرفة إعجاز كتاب الله ﷻ، ومعرفة معجزة رسول الله ﷺ، إذ لا يمكن الوقوف على ذلك إلّا بإحراز علم البيان، والاطّلاع على غوره، فإن هذا العلم لمن أشرف العلوم في المنقبة، وأعلاها في المرتبة، وأنورها سراجا وأوضحها منهاجاً، وأجمعها للفوائد، وأحواها للمحامد[2].

ومباحث البيان كثيرة وجليلة، وكثيرٌ من البلاغة متوقفة على اتقانها والمعرفة بها، وهي في القرآن الكريم ظاهرة وجارية على البلاغة العالية، ومن ذلكم:

أولا: التشبيه:

معلومٌ أن التشبيه هو؛ الدلالة على مشاركة شيءٍ لشيءٍ في معنىً من المعاني أو أكثر على سبيل التطابق أو التقارب لغرضٍ ما[3]، وتنشأ بلاغة التشبيه: من أنه ينتقل بك من الشيء نفسه، إلى شيء طريف يشبهه، أو صورة بارعة تمثّله وكلما كان هذا الانتقال بعيداً، قليل الخطور بالبال، أو ممتزجاً بقليل أو كثير من الخيال، كان التشبيه أروع للنفس، وأدعى إلى إعجابها واهتزازها...

أما بلاغته من حيث الصورة الكلامية التي يوضع فيها، فمتفاوتة أيضاً فأقل التشبيهات مرتبة في البلاغة ما ذكرت أركانه جميعها، لأن بلاغة التشبيه مبنية على ادعاء أن المشبه عين المشبه به، ووجود الأداة، ووجه الشبه معاً، يحُولان دون هذا الادعاء، فإذا حذفت الأداة وحدها، أو وجه الشبه وحده، ارتفعت درجة التشبيه في البلاغة قليلاً، لأن حذف أحد هذين يقوى ادعاء اتحاد المشبه والمشبه به بعض التقوية – أما أبلغ أنواع التشبيه؛ فالتشبيه البليغ[4].

والبلاغيون إذْ يتحدثون عن التشبيه، فقد علموا أن تشبيهات القرآن، غايةٌ ليس بعدها غاية، ويقفون منه على بلاغة لا تصلح إلا له، فهذا الجرجاني يذكر خصائص في الجملة بعد

(1) – الطراز، للعلوي، (ج1/ ص: 10)

(2) – المرجع نفسه، (ج1/ص: 20)

(3) – البلاغة العربية أسسها وعلومها وفنونها، لعبد الرحمن حبنكة الميداني، (ج2 /ص: 127)

(4) – جواهر البلاغة في المعاني والبيان والبديع، أحمد بن إبراهيم بن مصطفى الهاشمي (المتوفى: 1362هـ)، ضبط وتدقيق وتوثيق: د. يوسف الصميلي، الناشر: المكتبة العصرية، بيروت، د ت ط.، (ص: 245-246)

المشبه به في القرآن وأنها على أنحاء، وأوجه بحسب طبيعة المشبه به تعريفا وتنكيرا، وهي « لا تخلُو من ثلاثة أوجه:

أحدها أن يكون المشبَّه به معبَّراً عنه بلفظ موصولٍ، وتكون الجملة صِلة، كقولك أنت الذي من شأنه كَيْتَ وكيت، كقوله تعالى: ﴿ مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى ٱسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّآ أَضَآءَتْ مَا حَوْلَهُۥ ﴾ البقرة: ١٧.

والثاني أن يكون المشبَّه به نكرةً تقع الجملة صفةً له، كقولنا أنت كرجل من أمره كذا وكذا، وقول النبي ﷺ: « النَّاسُ كإبِلٍ مِئةٍ لا تجد فيها رَاحلة »[1]، وأشباه ذلك.

والثالثُ أن تجيء مبتدأةً، وذلك إذا كان المشبَّه به معرفةً، ولم يكن هناك الذي، كقوله تعالى: ﴿ كَمَثَلِ ٱلْعَنكَبُوتِ ٱتَّخَذَتْ بَيْتًا ﴾ العنكبوت: ٤١»[2].

ومما يسترعي النظر من خصائص التشبيه في القرآن أنه يستمد عناصره من الطبيعة، وذلك هو سر خلوده، فهو باق ما بقيت هذه الطبيعة، وسر عمومه للناس جميعاً، يؤثر فهم لأنهم يدركون عناصر، ويرونها قريبة منهم وبين أيديهم، فلا تجد في القرآن تشبهاً مصنوعاً يدرك جماله فرد دون آخر، ويتأثر به إنسان دون إنسان، فليس فيه هذه التشبيهات المحلية الضيقة[3].

ثانيا: التمثيل:

من الأساليب التي تواردت عليها لغات بني آدم قاطبة، التمثيل بغرض تقريب المعاني، وتمكينها من قلوب السامعين، وهو عند العرب كما يقول الزمخشري في كشافه: «ولضرب العرب الأمثالَ، واستحضار العلماء المثل والنظائر: شأن ليس بالخفي في إبراز خَبِيئَاتِ المعاني، ورفع الأستار عن الحقائق، حتى يريك المتخيَّل في صورة المحقَّق، والمتوهَّم في معرض المتيقَّن، والغائب كأنه مشاهدٌ، وفيه تبكيت للخصم الألدِّ، وقمعٌ لسَوْرة الجامح الآبي، ولأمرٍ ما كَثُرت في كتاب

(1) – أخرجه مسلم في كتاب فضائل الصحابة رضي الله عنهم، باب قوله ﷺ النَّاسُ كَإِبِلٍ مِائَةٍ لَا تَجِدُ فِيهَا رَاحِلَةً، برقم 232، من حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنهما، (ج/4ص: 1973).

(2) – أسرار البلاغة، للجرجاني، (ص: 114)

(3) – التشبيه في القرآن، لأحمد أحمد بدوي، مجلة الرسالة/العدد 896/ بتاريخ: 04 - 09 – 1950م.(ص:8).

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

الله المبين الأمثالُ، وفشَتْ في كلام رسول الله ﷺ وكلام الأنبياء والحكماء، قال الله تعالى: ﴿ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ۖ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ ﴿٤٣﴾ ﴾ العنكبوت: ٤٣»[1].

ويقف الجرجاني عند قوله ﷻ: ﴿ إِنَّمَا مَثَلُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ ٱلنَّاسُ وَٱلْأَنْعَٰمُ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَآ أَنَّهُمْ قَٰدِرُونَ عَلَيْهَآ أَتَىٰهَآ أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَٰهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِٱلْأَمْسِ ۚ ﴾ يونس: ٢٤، فيقول: « ألا ترى كيف كثُرت الجُمل فيه؟ حتى إنك ترَى في هذه الآية عَشْرَ جمل إذا فُصِّلت، وهي وإن كان قد دخل بعضُها في بَعْض حتى كأنها جملةٌ واحدة، فإن ذلك لا يمنعُ من أن تكون صُور الجمل معنا حاصلةً تشير إليها واحدةً واحدةً، ثم إنّ الشبَه مُنْتَزع من مجموعها، من غير أن يمكن فَصْلُ بعضها عن بعض، وإفرادُ شطر من شطر، حتى إنك لو حذفت منها جملةٌ واحدةٌ من أيِّ موضع كان، أخلَّ ذلك بالمغزى من التشبيه»[2].

والأمثال في القرآن الكريم لها غايات، كما نبه على ذلك الجرجاني في قوله: « واعلم أنّ مما اتفق العقلاءُ عليه، أن التمثيل إذا جاءَ في أعقاب المعاني، أو بَرَزَتْ هي باختصار في مَعرِضه، ونُقِلت عن صُوَرها الأصلية إلى صورته، كساها أُبَّهَةً، وكَسَبها مَنْقَبةً، ورفع من أقدارها، وشَبَّ من نارها، وضاعف قُواها في تحريك النُّفوس لها، ودعا القُلوب إليها، واستثار لها من أقاصي الأفئدة صبابةً وكلَفاً، وقَسَر الطِّباع على أن تُعطيها محبّة وشَغَفاً، فإن كان مدحاً، كان أبْهَى وأفخم، وأنبلَ في النفوسَ وأعظم، وأهزَّ للعِطْف، وأسْرع للإلف، وأجلب للفَرَح، وأغلب على المِمْتَدَح، وأوجب شفاعة للمادح، وأقضى له بغُرِّ المواهب المنائح، وأسْيَر على الألسن وأذكرَ، وأولى بأن تَعْلَقه القلوب وأجدر، وإن كان ذمّاً، كان مسُّهُ أوجعَ، ومِيسَمُه ألذع، ووقعُه أشده، وَحدُّه أحَدّ، وإن كان حِجاجاً، كان بُرهانه أنور، وسلطانه أقهر، وبَيَانه أبْهر، وإن كان افتخاراً، كان شَأْوُه أمدّ، وشَرَفه أجَدّ، ولسانه ألَدّ، وإن كان اعتذاراً، كان إلى القَبُول أقرب، وللقلوب أخْلَب...»[3].

---

(1) – الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل، أبو القاسم محمود بن عمرو بن أحمد الزمخشري جار الله، دار الكتاب العربي – بيروت، الطبعة: الثالثة – 1407 هـ.، (ج1/ص: 72).

(2) – أسرار البلاغة، للجرجاني، (ص: 109)

(3) – المرجع نفسه، (ص: 115)

ثالثا: الاستعارة:

تشترك الاستعارة والتشبيه في تخير اللفظ الذي يرفع الذوق البلاغي في الكلام من سذاجته إلى تجسيد الصورة المبتغى التعبيرُ عنها، كما أن الاستعارة تَسْتَلُّ السامع من التشبيه إلى صورة أجمل، إلا أنَّ تركيبها يحمل السامع على تناسى التشبيه، تخيُّل صورة جديدة تُنْسيك رَوْعَتُها ما تضمَّنه الكلام من تشبيه خفي مستور.

ولاشك أن أبلغ الاستعارات ما جاء منها في كلام الله ﷻ، ولعلماء البلاغة عناية باستعارات القرآن، فهذا الخفاجي في حديثه عن قوله تعالى: ﴿ وَٱشۡتَعَلَ ٱلرَّأۡسُ شَيۡبٗا ﴾ [مريم: ٤]، يقول: « استعارةٌ لأن الاشتعال للنار ولم يوضع في أصل اللغة للشيب فلما نقل إليه بان المعنى لما اكتسبه من التشبيه، لأن الشيب لما كان يأخذ في الرأس ويسعى فيه شيئاً فشيئاً حتى يحيله إلى غير لونه الأول كان بمنزلة النار التي تشتعل في الخشب وتسرى حتى تحيله إلى غير حاله المتقدمة فهذا هو نقل العبارة عن الحقيقة في الوضع للبيان ولا بد من أن تكون أوضح من الحقيقة لأجل التشبيه العارض فيها لأن الحقيقة لو قامت مقامها كانت أولى لأنها الأصل والاستعارة الفرع»(1).

كما نبه الخفاجي على أمرٍ دقيقٍ يتعلق ببلاغة الاستعارة، وذكر أن:« الاستعارة إذا بنيت على استعارة قبحت وبعدت والواجب أن تكون لها حقيقة ترجع إليها بلا واسطة»(2).

فهذه بعض النماذج من كتب البلاغة في العناية بالبيان في القرآن الكريم، ومن وراءها أمثلة من الكثرة بالمكان الذي لا يمكن إحصاؤه.

(1) – سر الفصاحة، للخفاجي، (ص: 118)
(2) – المرجع نفسه، (ص: 133)

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

الفرع الثالث: في مجال البديع

علم البديع فن من فنون البلاغة العربيّة ورد في كلام العرب وفي القرآن الكريم كثيراً، في سوره وآياته، وإن كان لدى البلاغيين قد تأخر عندهم وجوده ولربما لم يأبهوا بأهميته، لكن لا يمكن الغض من هذه الدلالات البديعية هي التي تكشف مفهوم الخطاب القرآني، والتي يفيد العلم بها أولئك الذين تخصصوا في البلاغة القرآنيّة، وتفسير القرآن الكريم؛ فهي تساعد ولاشك على فهم أساليب القرآن الكريم المختلفة، وأعلام البلاغة تراثهم يوحي بوجود البديع القرآني والعناية به، فمن ذلكم:

أولا: السجع في القرآن الكريم

من المسائل التي وقع فيها خلاف ونزاعٌ بين العلماء مسألة السجع في القرآن الكريم، وقد لخصَّ ابن معصوم آراء العلماء فيها، فذكر أنَّ: « الجمهور على أنه لا يقال في التنزيل أسجاع، تحرزا على معناه الأصلي الذي هو هدير الحمام، بل يقال: فواصل، لقوله تعالى: ﴿ كِتَٰبٌ فُصِّلَتۡ ءَايَٰتُهُۥ﴾ فصلت: ٣.

وقال الرماني: السجع عيب، والفواصل بلاغة.

قال الخفاجي في سر الفصاحة: قوله هذا غلط، فإنه إن أراد بالسجيع ما يتبع المعنى وهو غير مقصود، فذلك بلاغة والفواصل مثله، وإن أراد ما تقع المعاني تابعة له وهو مقصود متكلف، فذلك عيب والفواصل مثله، قال: وأظن الذي دعاهم إلى تسمية كل ما في القرآن فواصل، ولم يسمُّوا ما تماثلت حروفه سجعا: رغبتهم في تنزيه القرآن عن الوصف اللاحق بغيره من الكلام المروي عن الكهنة وغيرهم، وهذا غرض من التسمية قريب، والحقيقة ما قلناه.

قال: والتحرير أن الأسجاع: حروف متماثلة في مقاطع الفواصل.

وذهب كثير من غير الأشاعرة إلى إثبات السجع في القرآن، وقالوا: أن ذلك مما يبين به فضل الكلام، وأنه من الأجناس التي يقع بها التفاضل في البيان والفصاحة، كالجناس والالتفاف ونحوهما.

الثالث قال ابن النفيس: يكفي في ورود القرآن به، قال: ولا يقدح ذلك خلوه في بعض الآيات، لأن الحسن قد يقتضي المقام الانتقال إلى أحسن منه.

وقال حازم: إنما نزل القرآن على أساليب الفصيح من كلام العرب، فوردت الفواصل فيه بإزاء ورود الأسجاع جميعا أن يكونوا مستمراً على نمط واحد لما فيه من التكلف، ولما في الطَّبع من الملل، ولأن الافتنان في ضروب الفصاحة أعلى من الاستمرار على ضربٍ واحدٍ، فلهذا وردت بعض آيات القرآن متماثلة المقاطع وبعضها غير متماثل»[1].

ولابن سنان الخفاجي تحرير في كتابه سرُّ الفصاحة، يقول فيه « والذي يجب أن يحرر في ذلك أن يقال: إن الأسجاع حروف متماثلة في مقاطع الفصول على ما ذكرناه والفواصل على ضربين:

ضرب يكون سجعاً وهو ما تماثلت حروفه في المقاطع.

وضرب لا يكون سجعاً وهو ما تقابلت حروفه في المقاطع ولم تتماثل ولا يخلو كل واحد من هذين القسمين أعني المتماثل والمتقارب من أن يكون يأتي طوعا سهلا وتابعا للمعاني وبالضد من ذلك حتى يكون متكلفاً يتبعه المعنى فإن كان من القسم الأول فهو المحمود الدال على الفصاحة وحسن البيان وإن كان من الثاني فهو مذموم مرفوض.

فأما القرآن فلم يرد فيه إلا ما هو من القسم المحمود لعلوه في الفصاحة وقد وردت فواصله متماثلة ومتقاربة»[2].

وللخفاجي في سرِ الفصاحة كلمةُ عدلٍ، في السجع، من المناسب أن نختم بها الحديث عنه هنا، وذلك إذْ يقول بعد أن سرد المذهبين[3] في ذلك عن العلماء: « والمذهب الصحيح: أن السجع محمود إذا وقع سهلاً متيسراً بلا كلفة ولا مشقة، وبحيث يظهر أنه لم يقصد في نفسه ولا أحضره إلا صدق معناه دون موافقة لفظه، ولا يكون الكلام الذي قبله إنما يتخيل لأجله ورد

(1) – أنوار الربيع في أنواع البديع، صدر الدين المدني، علي بن أحمد بن محمد معصوم الحسيني، ، حققه شاكر هادي شكر، مطبعة النعمان، بالنجف، إيران، الطبعة الأولى: 1388- 1968م.، (ج6/ص: 243-254).

(2) - سر الفصاحة، الخفاجي، (ص: 172).

(3) – قال ابن سنان الخفاجي: «وبعض الناس يذهب إلى كراهة السجع والازدواج في الكلام وبعضهم يستحسنه ويقصده كثيراً، وحجة من يكرهه أنه ربما وقع بتكلف وتعمل واستكراه فأهذب طلاوة الكلام وأزال ماءه وحجة من يختاره أنه مناسبة بين الألفاظ يحسنها ويظهر آثار الصنعة فيها لولا ذلك لم يرد في كلام الله ﷻ وكلام النبي ﷺ والفصيح من كلام العرب وكما أن الشعر يحسن بتساوي قوافيه كذلك النثر يحسن بتماثل الحروف في فصوله»، سر الفصاحة، لابن سنان الخفاجي، (ص: 171).

جمعية الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

ليصير وصلة إليه، فإنا متى حمدنا هذا الجنس من السجع كنا قد وافقنا دليل من كرهه وعملنا بموجبه؛ لأنه إنما دل على قبح ما يقع من السجع بتعمُّلٍ وتكلُّف.

ونحن لم نستحسن ذلك النوع ووافقنا أيضاً دليل من اختاره لأنه إنما دل به على حسن ما ورد منه في كتاب الله تعالى وكلام النبي ﷺ والفصحاء من العرب»[1].

فشرط الحسن في السجع عند ابن سنان الخفاجي، أن يقع على وصفين:

1. سهلا متيسرا

2. وعلى غير كلفة أو مشقّةٍ، وهو أشد الوصفين تأثيرا في كراهة السجع واستقباحه.

و مما نبه عليه صاحب الطراز في قضية السجع في القرآن الكريم، أن الإتيان بما ليس مسجوعا في القرآن يؤذن مع كونه غير مسجوع أنه في غاية الإعجاز مع عدم السَّجع، وفي هذه دلالة على إعجازه من كل الوجوه[2].

ثانيا: التجنيس في القرآن

وهو تفعيل من التجانس وهو التماثل، وإنما سمي هذا النوع جناسا لأن التجنيس الكامل أن تكون اللفظة تصلح لمعنيين مختلفين، فالمعنى الذى تدلُّ عليه هذه اللفظة هي بعينها تدل على المعنى الآخر من غير مخالفة بينهما، فلمَّا كانت اللَّفظة الواحدة صالحة لهما جميعا كان جناسا، وهو من ألطف مجارى الكلام ومن محاسن مداخله، وهو من الكلام كالغرة في وجه الفرس[3].

والخفاجي يجعل المجانس هو أن يكون بعض الألفاظ مشتقاً من بعض إن كان معناهما واحداً أو بمنزلة المشتق إن كان معناهما مختلفان أو تتوافق صيغتا اللفظتين مع اختلاف المعنى [4]، وربما لقبوا أنواع المجانس بألقاب لغرض التفريق بينها، فعندهم:

المماثل أو المكافئ: وهو تساوي اللفظتين في الصفة مع اختلاف في المعنى، وبالمضارعة: إذا كانت إحدى اللفظتين تماثل الأخرى بأكثر الحروف ولا تشابهها في الجميع، **ومجانس**

(1) – سر الفصاحة، للخفاجي، (ص: 171)

(2) – الطراز للعلوي، (ج3/ ص: 17).

(3) – المرجع نفسه، (ج3/ ص: 185)

(4) – سر الفصاحة، للخفاجي، (ص: 193)

التركيب: لأنه يركَّبُ من الكلمتين ما يتجانس به الصيغتان[1]، **ومجانس التصحيف**، وهذا أول طبقات المجانس لأنه مبنى على تجانس أشكال الحروف في الخط وحسن الكلام وقبحه لا يستفاد من أشكال حروفه في الكتابة إذ لا علقة بين صيغة اللفظ في الحروف وشكله في الخط[2].

ولأهل البلاغة التفاتات إلى تجنيس القرآن، فهذا الخفاجي، يقول فيه: « ومما ورد في القرآن العظيم من هذا الفن قوله تبارك وتعالى: ﴿ وَإِذَا مَآ أُنزِلَتۡ سُورَةٞ نَّظَرَ بَعۡضُهُمۡ إِلَىٰ بَعۡضٍ هَلۡ يَرَىٰكُم مِّنۡ أَحَدٖ ثُمَّ ٱنصَرَفُواْۚ صَرَفَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُم ﴾ التوبة: ١٢٧، وقوله تبارك وتعالى: ﴿ يَوۡمٗا تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلۡقُلُوبُ وَٱلۡأَبۡصَٰرُ ٣٧ ﴾ النور: ٣٧، وقوله ﷻ: ﴿ يَمۡحَقُ ٱللَّهُ ٱلرِّبَوٰاْ وَيُرۡبِي ٱلصَّدَقَٰتِۗ ﴾ البقرة: ٢٧٦، ومن كلام النبي ﷺ: « عُصيَّةُ عصت الله وغِفار غفر الله لها وأسلمُ سالمها الله»[3] وقال خالد ابن صفوان لرجل من بني عبد الدار: هشمتك هاشم وأمتك أمية وخزمتك مخزوم فأنت ابن عبد دارها ومنتهى عارها. وكتب بعض الكتاب: العذر مع التعذر واجب فرأيك فيه وقال آخر: لا ترى الجاهل إلا مُفرِطاً أو مفرِّطاً»[4].

رابعا: المناقضة في القرآن الكريم

ومن ألوان البديع ما يسمّى **بالمناقضة**، وهي أنواع، وقد ورد منها في القرآن الكريم، ما مثَّل به البلاغيون، « وهو أن يأتي في لفظ الوعد ما يدل على الوعيد، فيسر المخاطب ويسوءه في وقت واحد، فيتوجه على ذلك اللفظ إشكال يوضحه بعده، كقوله تعالى: ﴿إِنَّا كَاشِفُواْ ٱلۡعَذَابِ قَلِيلًاۚ إِنَّكُمۡ عَآئِدُونَ ١٥﴾ [الدخان: ١٥]، فقوله سبحانه: " إِنَّا كَاشِفُواْ ٱلۡعَذَابِ قَلِيلًاۚ" وعد، ووصف كشف العذاب بالقلة وعيد، فهو يسر ويسوء في حالة واحدة، وإنما وصفه بالقلة المنافية للكرم من أجل أنه علق كشف العذاب بشرط عدم العود إلى موجب العذاب، فاقتضت البلاغة أن يقول "قَلِيلًا" ليدمج في دلائل النبوة الإخبار بالغيب، وهو وقوع العود، فيرشح بذكر لفظة "

(1) – قال الخفاجي عنه: « وهو عندي غير حسن ولا مختار ولا داخل في وصف من أوصاف الفصاحة والبلاغة»، سر الفصاحة، (ص: 198).

(2) – يُنظر سر الفصاحة، لابن سنان الخفاجي، (ص: 193، وما بعدها)

(3) –.أخرجه الطبري في تهذيب الآثار، في مسند ابن عباس رضي الله عنهما، برقم 563، تهذيب الآثار وتفصيل الثابت عن رسول الله من الأخبار، لأبي جعفر محمد بن جرير بن يزيد الطبري، سنة الولادة 224هـ/ سنة الوفاة 310هـ، تحقيق محمود محمد شاكر، الناشر مطبعة المدني مكان النشر القاهرة، د ت ط (ج1/ص: 337)

(4) – سر الفصاحة، الخفاجي، (ص: 197).

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

قَلِيلًا " للإيضاح والإخبار بوقوع العود الذي اقتضى أن يكون كشف العذاب قليلاً من أجله»(1).

والاستقصاء لأنواع البديع يطول، وإنما المراد التمثيل، وذكر بعض النماذج، وإلا فإن من راءها أمثلة أخرى يصعب حصرها وتعدادها.

(1) - تحرير التحبير في صناعة الشعر والنثر وبيان إعجاز القرآن، (ص: 608).

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

المطلب الثالث: المشاركة في العلوم الأُخر

إن الناظر في كتب البلاغة يجد فيها تداخل مع جملةٍ من العلوم الأخرى، ولا عجب فإن العلوم تجمعها رحم واحدة، ويأخذ بعضها برقاب بعض، ومن خلال هذا المطلب، سنعرض إلى أهم العلوم التي حوتها كتب البلاغة العربية

الفرع الأول: كتب البلاغة وعلم النقد

من أكثر العلوم التقاءً مع البلاغة علم النقد، فإنه لما كانت ثمرة البلاغة معرفة الكلام ومراتبه، والوقوف على التفاوت الذي يكون بين كلامٍ وآخر، كان من اللازم معرفة المعايير التي يتوصل بها إلى ذلك كله، وسبيل ذلك هو علم النقد، لأجل ذلك كانت كتب البلاغة، ظاهرٌ فيها العناية بالنقد.

ثم إنّ الباقلاني يذكر أن النَّقد هو الطَّريقُ إلى معرفة الإعجاز، وذلك إذْ يقول : « فإن أراد أن نقرب عليه أمرا، ونفسح له طريقا، ونفتح له بابا – ليعرف به إعجاز القرآن – فإنا نضع بين يديه الأمثلة، ونعرض عليه الأساليب، ونصور له صور كل قبيل من النظم والنثر، ونحضره من كل فن من القول شيئاً يتأمله حق تأمله، ويراعيه حق رعايته، فيستدل استدلال العالم، ويستدرك استدراك الناقد، ويقع له الفرق بين الكلام الصادر عن الربوبية، الطالع عن الإلهية، الجامع بين الحُكْم والحِكَم، والأخبار عن الغيوب والغائبات، والمتضمن لمصالح الدنيا والدين، والمستوعب لجَلِيَّـة اليقين، والمعاني المخترعة في تأسيس أصل الشريعة وفروعها بالألفاظ الشريفة، على تفنُّنها وتصرُّفها.

ونعمد إلى شيء من الشعر المجمع عليه، فنبين وجه النقص فيه، وندل على انحطاط رتبته، ووقوع أبواب الخلل فيه، حتى إذا تأمل ذلك، وتأمل ما نذكره – من تفصيل إعجاز القرآن وفصاحته، وعجيب براعته – انكشف له واتضح، وثبت ما وصفناه لديه ووضح، وليعرف حدود " البلاغة "، ومواقع البيان " والبراعة " ووجه التقدم في " الفصاحة "»[1].

(1) – إعجاز القرآن، للباقلاني، (ص: 126)

وكلُّ الذي ذكره الباقلاني إنما هو حديثٌ عن صنعة النقد، التي تأخذ بيد صاحبها لتوقفه في نهاية الأمر على إعجاز القرآن الكريم، من جهة تفوقه على سائر صنوف الكلام، والتي على رأسها الشعر.

كما نجد أيضا عبد القاهر الجرجاني، ينبه على أهمية العلم بالنقد، للوقوف على دقيق الأخطاء في الكلام، وذلك قوله في معرض الحديث عن المتني، فيقول: « وإنَّكَ لتنظرُ في البيتِ دهراً طويلاً وتفسره، ولا ترى أنه فيه شيئاً لم تَعلَمْه، ثم يبدو لكَ فيه أمرٌ خفيٌّ لم تكنْ قد علِمْتَه، مثال ذلك بيت المتنبي: [من: الكامل]

عَجَباً لهُ! حِفْظُ العِنَانِ بأنْمُلٍ ... ما حِفْظُها الأشياءَ مِنْ عاداتِها[1]

مضى الدهرُ الطويلُ ونحن نقرؤه فلا نُنْكِرُ منه شيئاً، ولا يَقَعُ لنا أنَّ فيه خطأً، ثم بانَ بأَخَرةٍ أنه قد أخطأ، وذلك أنه كان ينبغي أن يقولَ: "ما حفظُ الأشياءِ من عادتها"، فيضيفُ المصدرَ إلى المفعولِ، فلا يَذكُر الفاعلَ، ذلك لأن المعنى على أنه ينفي الحِفْظَ عن أنامله جُملةً، وأنه يزْعُم أنه لا يكونُ منها أصْلاً، وإضافَتُه الحفظَ إلى ضميرِها في قوله: "ما حفظُها الأشياءَ"، يقتضي أن يكون قد أثْبتَ لها حِفْظاً "فيكون المعنى أن حفظ الأشياء ليس عادة له، فالمنفي حينئذ كون الحفظ عادة له، والمراد عدم ثبوت الحفظ له أبدًا"»[2].

بل قال عز الدين الأزدي: « إن كان أراد بالحفظ إمساك الشيء ولزومه طويلا، كإمساك المال، فليس من عاداتها، وإن أراد بالحفظ إمساك الشيء ولزومه، على الجملة، كلزوم السيف في الحرب وحفظه، وإمساك الرمح والقلم والكتب، فهي كذلك وهو من عاداتها»[3].

وبمثل هذه النقول عن علماء البلاغة؛ يتبين أن المران على نقد النصوص وتذوقها هو الطريق إلى الوقوف على إعجاز القرآن الكريم، لأنه سيتبين لم يعقد المقارنة بين القرآن الكريم وغيره من الكلام العربي تفوق القرآن عليه، وهيمنته عليه.

وجهود علماء البلاغة في الجانب النقدي جلت في مظاهر كثيرة منها:

(1) – ديوان أبي الطيب أحمد بن الحسين المتنبي، ضبطه وعلّق حواشيه: المعلم بطرس البُستاني، طبع بالعمدة الأدبية، بيروت، بالمطبعة السورية سنة: 1276 هـ- 1860، (ص: 118).

(2) – دلائل الإعجاز، للجرجاني، (ص: 551-552)

(3) – المآخذ على شراح ديوان أبي الطيب المتنبي، لعز الدين الأزدي، (ج1/ص: 45).

أولا: العناية بالموازين النقدية:

لاشك أن النقد للكلام يحتكم إلى موازين مطردةٍ تبنى عليه أحكام النقاد، وأكثر تلكم الموازين ترجع إلى مجال البلاغة العربية، لذلك ليس بعجيب أن يشارك البلاغيون النقادَ في إثراءها ووضع ضوابطها وتقنينها.

فهذا مثلا الخفاجي ينبه إلى بعض الموازين المغلوطة في اختيار الشِّعر، وتفضيله، فذكر في ذلك قانونا مهما، وذلك إذ يقول: « وقد يذهب كثيرٌ ممن يختار الشعر إلى تفضيل ما يوافق طباعه وغرضه، ويذهب قومٌ إلى اختيار ما لم يتداول منه حتى يكون للوحشي الذي لم يشتهر مزية عندهم على المعروف المحفوظ، ويخالفهم آخرون فيختارون ساير الشعر على خامله ومشهوره على مجهوله، ويستحسن قوم الشعر لأجل قائله فيختارون أشعار السادات والأشراف ورؤساء الحروب ومن يوافقهم في النحلة والمذهب ويمت إليهم بالمودة أو النسب؛ وهذه كلها أقوال صادرة عن الهوى ومقصورة على محض الدعوى من غير دليل يعضدها ولا حجة تنصرها والطريق الذي يؤدى إلى المقصود من معرفة المختار الألفاظ والمعاني هو ما ذكرناه ونبهنا عليه ومن تأمله علم الإصابة فيه بمشيئة الله وعونه»[1].

ومما جعله ميزانا في تفضيل شاعرٍ ما كون إحسانه طاغيا على إساءته، وذلك لإعواز الكمال في الناس، قال الخفاجي: « لكن أعوز الكمال واستولى الخلل على هذه الطباع فالمحمود من كانت سيئاته مغمورة بحسناته وخطأه يسيرا في جانب صوابه»[2].

ومما نبه عليه الخفاجي، ما يعتري جملة من الشعراء في الإساءة في استعمال أمسى وأصبح وأخواتهما في الأشعار، فقال: « وما أكثر ما تستعمل أمسى وأصبح وأخواتها في هذا الموضع من الحشو ويجب أن تعتبر ذلك بأن تنظر الفائدة فيه فإن كان الأمر الذي ذكر أنه أصبح فيه لم يكن أحسن فيه. فالفائدة حاصلة، وإن كان الأمر بخلاف ذلك فهو حشو لا يحتاج إليه فاعتبار الفائدة فيه هو الأصل الذي يرجع إليه ويعول على النظر من جهته»[3].

وللخفاجي عناية فائقة في حسن رعاية مواضع الألفاظ، واختيار الأليق بها، ومن ذلكم ما تكلم عليه فيما يخصُّ الشعر والنثر عموما، فإن لكليهما ألفاظ تختصُّ به، وليس جيدا، أن

([1]) – سر الفصاحة، للخفاجي، (ص: 285)

(2) – المرجع نفسه، (ص: 144)

([3]) – المرجع نفسه، (ص: 152)

يقع الخلط في ذلك ، فيقول: « ومن وضع الألفاظ موضعها: أن لا يستعمل في الشعر المنظوم والكلام المنثور من الرسائل والخطب: ألفاظ المتكلمين والنحويين والمهندسين ومعانيهم والألفاظ التي تختص بها أهل المهن والعلوم، لأن الإنسان إذا خاض في علم وتكلَّم في صناعة وجب عليه أن يستعمل ألفاظ أهل ذلك العلم وكلام أصحاب تلك الصناعة، وبهذا شرف كلام أبي عثمان الجاحظ وذلك أنه إذا كاتب لم يعدل عن ألفاظ الكتاب وإذا صنف في الكلام لم يخرج عن عبارات المتكلمين، فكأنه في كل علم يخوض فيه لا يعرف سواه ولا يحسن غيره»[1].

كما نقل عن الجاحظ في هذا المقام ما هو كالدليل له على مذهبه هذا، فقال : « وقد حكى الجاحظ عن بشر بن المعتمر أنه قال في وصيته في البلاغة:

إذا لم تجد اللفظة واقعة موقعها ولا صائرة إلى مستقرها ولا حالة في مركزها بل وجدتها قلقة في مكانها نافرة من موضعها فلا تكرهها على القرار في غير موطنها، فإنك إذا لم تتعاط قريض الشعر الموزون ولم تتكلف اختيار الكلام المنثور لم يعبك بترك ذلك أحد، وإذا أنت تكلفتهما ولم تكن حاذقاً فيهما عابك من أنت أقل عيباً منه وأزرى عليك من أنت فوقه، وهذا كلام صحيح يجب أن يقتدي به في هذه الصناعة»[2].

ففي الألفاظ مواضعة واصطلاحاً يختلف الناس في المعرفة بهما بحسب اختلافهم في معرفة اللغة وفهم الاصطلاح والمواضعة والمعاني ليس فيها شيء من ذلك، وإنما معيارها العقل والعلم وصفاء الذهن في الوجود وهي أربعة مواضع الأول وجودها في أنفسها والثاني وجودها في إفهام المتصورين لها والثالث وجودها في الألفاظ التي تدل عليها، والرابع وجودها في الخط الذي هو أشكال تلك الألفاظ المعبر بها عنه[3].

وفي الحديث عما يختصُّ بنقد الشعر، نبه أن التصريع فيه لا يحسن إلا في مطالع القصائد، فإن زاد سار سمجا غير رائق، فقال: « والذي أراه أن التصريع يحسن في أول القصيدة ليميز بين الابتداء وغيره ويفهم قبل تمام البيت روى القصيدة وقافيتها ولذلك قال أبو تمام:

وإنما يروقك بيت الشعر حين يصرع، فأما إذا تكرر الصريع في القصيدة فلست أراه مختاراً وهو عندي يجرى مجرى تكرر الترصيع والتجنيس والطباق وغير ذلك مما سيأتي ذكره وأن هذه

---

(1) – سر الفصاحة، للخفاجي، (ص: 166)
(2) – المرجع نفسه، (ص: 171-172)
(3) – المرجع نفسه، (ص:234- 235)

الأشياء إنما يحسن منها ما قل وجرى منها مجرى اللمعة واللمحة فأما إذا تواتر وتكرر فليس عندي ذلك مرضياً»[1].

وعن المبالغة في الشعر، يجعل الخفاجي للمقبول منها ضابطا تنتهي إليه، فيقول: « والذي أذهب إليه المذهب الأول في حمد المبالغة والغلو لأن الشعر مبنيٌّ على الجواز والتسمُّح، لكن أرى أن يستعمل في ذلك "كاد" وما جرى في معناها ليكون الكلام أقرب إلى حيز الصحة»[2].

ومما نبه الخفاجي على فساده في مجال النقد إضافة القبح وتمييزه بنسبته إلى رجل من الرجال أو زمن من الأزمنة، فذكر أن هذا «شيءٌ يقع للعامة وأشباههم من أغمار الأدباء فيتخيلون أن للحسن ولقبح حكما يرجع إلى التاريخ ويتعلق بالإضافة»[3].

ويقول بأصرح من ذلك في موطن آخر، كما ذكر فيه من سبقه من العلماء إلى ذلك، فقال: « إن الطرق في نقد الشعر ما قدمناه من نعوت الألفاظ والمعاني، فأما قائله وتقدم زمانه أو تأخره فلا تأثير له في ذلك لأن القديم كان محدثاً والمحدث سيصير قديما، والتأليف على ما هو عليه لا يتغير وفي المحدثين من هو أشعر من جماعة من المتقدمين وفي المتقدمين من هو أشعر من جماعة من المحدثين.

وإلى هذا كان يذهب أبو عثمان الجاحظ وأبو العباس المبرد وأبو عبادة البحتري وأبو العلاء بن سليمان آنفاً وهو الصحيح الذي لا يعترض العاقل فيه شك ولا شبهة»[4]

ثانيا: الرد على النقاد:

ثم إن البلاغيين لم يكتفوا بمشاركة النقاد فيما اختصوا به، بل استدركوا عليهم في فنهم، وردوا على أعيانهم، و من المناسب ذكر نماذج على ذلك، فمن ذلكم:

ما جاء عن الخفاجي في استدراكاته على أبي بكر الصُّولي، فكان مما استدركه عليه إجراء الاستعارة في الدمع، فقال: « وأما ماء الصبابة وماء الهوى فقد بيَّن أبو بكر أنهم يريدون به

(1) – سر الفصاحة، للخفاجي، (ص: 189)
(2) – المرجع نفسه، (ص: 272)
(3) – المرجع نفسه، (ص: 130)
(4) – المرجع نفسه، (ص: 279)

جمعية الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

الدمع فكيف يقول إنه استعارة والدمع ماء حقيقي بلا خلاف وعلى أي وجه يحمل ماء الملام في الاستعارة على ماء الدمع وهو حقيقة؟

وأما مقابلة اللفظ باللفظ واستشهاده بالآيات المذكورة فقد ذكرنا الكلام عليه فيما تقدم وبينا أن هذا مجاز ولا يقاس عليه ولا يحسن منا المقابلة في موضع يعترضنا فيه فساد في المعنى أو خلفي اللفظ كهذه الاستعارة أو ما يجرى مجراها كما لا يحسن بنا غير ذلك في المجاز إذا أدى إلى اللّبس والإشكال.

ثم أورد قوله في أبي بكر الصولي، فقال« هذه جملة ما قاله أبو بكر – يريد الصولي- وهي غير لائقة بمثله من أهل العلم بالشعر»[(1)].

وقال: « وقد زل في هذا الموضع أبو هاشم عبد السلام بن محمد فالحق الحشو الجيد بالرديء وقال في المسائل البغداديات في مسألة ذكرها في إيجاز القرآن أن الشاعر إذا احتاج إلى الوزن ذكر ما لا يحتاج إليه في الكلام المنثور»[(2)].

كما نقل الخفاجي تخطئة الآمدي لأبي الفرج قدامة بن جعفر، فقال : « وقد غلط في تمثيل هذا أبو الفرج قدامة ابن جعفر الكاتب وبين خطأه فيه أبو القاسم الحسن بن بشر الآمدي رحمه الله، لأن أبا الفرج قال: إن المداخلة التي تكره ووصف عمر رضي الله عنه زهيراً بتجنبها أن يدخل بعض الكلام فيما ليس من جنسه قال وما أعرف ذلك إلا فاحش الاستعارة»[(3)].

وغلّط الخفاجي أبا اسحاق إبراهيم بن هلال الصَّابي في شروط الفصاحة والبلاغة، فقال: « ومن شروط الفصاحة والبلاغة: أن يكون معنى الكلام واضحاً ظاهراً جلياً لا يحتاج إلى فكر في استخراجه وتأمل لفهمه وسواء كان ذلك الكلام الذي لا يحتاج إلى فكر منظوماً أو منثوراً.

وإنما احتجنا إلى هذا التفصيل لأن أبا اسحق إبراهيم بن هلال الصابي غلط في هذا الموضع، فزعم أن الحسن من الشعر ما أعطاك معناه بعد مطاولة ومماطلة والحسن من النثر ما

(1) – سر الفصاحة، للخفاجي، (ص: 141- 142).
(2) – المرجع نفسه، (ص:147- 148)
(3) – المرجع نفسه، (ص: 157-158)

سبق معناه لفظه، ففرق بين النظم والنثر في هذا الحكم ولا فرق بينهما ولا شبهة تعترض المتأمل في ذلك»[1].

وفي قضية السجع والفواصل يستدرك الخفاجي على الرُّماني اختياره في ذلك، فيقول: « فأما قول الرماني: أن السجع عيب والفواصل بلاغة على الاطلاق فغلط لأنه إن أراد بالسجع ما يكون تابعاً للمعنى وكأنه غير مقصود فذلك بلاغة والفواصل مثله وإن كان يريد بالسجع ما تقع المعاني تابعة له وهو مقصود متكلف فذلك عيبٌ والفواصل مثله.

وكما يعرض التكلف في السَّجع عند طلب تماثل الحروف كذلك يعرض في الفواصل عند طلب تقارب الحروف، وأظن أنَّ الذي دعا أصحابنا إلى تسمية كل ما في القرآن فواصل، ولم يسمُّوا ما تماثلت حروفه سجعاً رغبة في تنزيه القرآن عن الوصف اللاحق بغيره من الكلام المروى عن الكهنة وغيرهم، وهذا غرض في التسمية قريب.

فأما الحقيقة فما ذكرناه لأنه لا فرق بين مشاركة بعض القرآن لغيره من الكلام في كونه مسجوعاً وبين مشاركة جميعه في كونه عرضاً وصوتاً وحروفاً وعربياً ومؤلفاً، وهذا مما لا يخفى فيحتاج إلى زيادة في البيان. ولا فرق بين الفواصل التي تتماثل حروفها في المقاطع وبين السجع»[2].

ولم يوافق الخفاجي من عاب على زهيرٍ بعض شعره، وهو قوله [من: البسيط]

حي الديار لم يعفها القدم ... بلى وغيرها الأرواح والديم[3]

على أنهم قد عابوا هذا البيت على زهير لكنه بمجيء بلى فيه لم يكن عندي فاسدا وقد يمكن فيه من التأويل وجه آخر: وهو أن زهيراً قال لم يعفها القدم وغيرتها الريح والأمطار وليس ذلك بمتناقض لأن التغير دون أن تعفو والقدم غير الريح والمطر، ومن قال: لم يقتل زيد عمراً بل

(1) – سر الفصاحة، للخفاجي، (ص: 220)
(2) – المرجع نفسه، (ص: 173-174)
(3) – خزانة الأدب وغاية الأرب، تقي الدين أبي بكر علي بن عبد الله الحموي، تحقيق: عصام شعيتو، الناشر: دار ومكتبة الهلال – بيروت، الطبعة الأولى ، 1987م.، (ج2/ص: 282).

ضربه بكر لم يكن متناقضا وإنما المناقضة أن يقول: لم يقتل زيد عمراً وقتله زيد ويكون الأول هو الثاني وهذا واضح»[1].

وهذا الجرجاني يزري على أبي تمام تهاونه بالنحو، وعدم المبالات بالمخاطبات التي يحتفي فيها باللفظ، وتحسينه وربما لم يزد على ذلك، فيقول: « وقد عرفتَ ما جَناه التهاوُنُ بهذا النحو من الاحتراز على أبي تمّام، حتى صار ما يُنعَى عليه منه أبلغ شيء في بسط لسان القادح فيه والمُنْكِرِ لفضله، وأحْضَرَ حُجّةً للمتعصّب عليه، وذلك أنه لم يُبالِ في كثير من مخاطبات الممدوح بتحسين ظاهر اللفظ، واقتصر على صميم التشبيه، وأطلق اسم الجنس الخسيس كإطلاق الشريف النَّبيه، كقوله: [من الخفيف]

وإذا ما أردتُ كنتَ رِشاءً ... وإذا ما أردتُ كنتَ قَليبًا[2]

فصَكَّ وجهَ الممدوح كما ترى بأنه رشاءٌ وقليبٌ، ولم يحتشم أن قال: [من الكامل]

مازَال يهذِي بالمكارِمِ والعُلَى ... حتى ظَنَنّا أنَّه مَحْمُومُ[3]

فجعله يهذي وجعل عليه الحُمَّى، وظنّ أنه إذا حصلَ له المبالغة في إثبات المكارم له، وجعلها مستبدّة بأفكاره وخواطره، حتى لا يصدر عنه غيرُها، فلا ضير أن يتلقَّاه بمثل هذا الخطاب الجافي، والمدح المتنافي»[4].

وممن انتقد أبا تمام من البلغاء الخفاجيُّ، فقد قال عن الصنعة التي غيب به شعره: « وإنما يقود أبا تمام إلى هذا وأمثاله رغبته في الصنعة حتى كأنه يعتقد أن الحسن في الشعر مقصور عليها فيورد منه لأجل التكليف ما لا غاية لقبحه ويسعده الخاطر في بعض المواضع فيأتي بالعجائب الغرائب»[5].

([1]) – سر الفصاحة، للخفاجي، (ص: 241)، وقد وافقه على ذلك صاحب العقد الفريد لما قال: « ومما عابوه، وليس بعَيب، قولُ زُهير: قِفْ بالديار التي لم يَعْفُها القِدَم ... بلَى وغيَّرها الأرياح والدِّيَمُ

فنفَى ثم حقّق في معنى واحد. فنَقض في عجز هذا البيت ما قال في صدره، لأنه زعم أنَّ الديار لم يَعْفُها القِدَم. ثم إن انتبه من مَرْقده، فقال: بلى عفاها وغيّرها أيضاً الأرياح والدِّيَم. وليس هذا معناه الذي ذهب إليه، وإنما معناه: أنَّ الديار لم تَعْفُ في عَيْنه، من طريق محبّته لها وشغفه بمن كان فيها»، ينظر العقد الفريد، (ج6/ص: 180).

(2) – شرح ديوان أبي تمام، للتبريزي، (ج1/ص: 99)

(3) – المرجع نفسه، (ج2/ ص: 147).

(4) – أسرار البلاغة، للجرجاني، (ص: 253-254)

(5) – سر الفصاحة، للخفاجي، (ص: 135)

كما استدرك الخفاجي على ابن جني أشياء في شرحه على ديوان أبي الطيب المتنبي، ومن ذلكم، قوله « وقد حمل أبو الفتح عثمان بن جني قول أبي الطيب: [من: الخفيف]

نحن ركب ملجن في زي ناس ... فوق طير لها شخوص الجمال[1]

على المقلوب وقال تقديره: نحن ركب من الأنس في زي الجن فوق جمال لها شخوص طير وهذا عندي تعسف من أبي الفتح لا تقود إليه ضرورة، ومراد أبي الطيب المبالغة على حسب ما جرت به عادة الشعراء؛ فيقول نحن قوم من الجن لجوبنا الفلاة والمهامه والقفار التي لا تسلك وقلة فرقنا فيها إلاّ أننا في زي الإنس – وهم على الحقيقة كذلك، ونحن فوق طير من سرعة إبلنا إلا أن شخوصها شخوص الجمال ولا شك أيضاً في ذلك»[2].

ثالثا: العناية بالمصطلحات النقدية

مصطلحات العلوم من القضايا المهمة في فهمها وضبطها، لذلك نجد النقاد قد اصطلحوا على وضبطوا مفاهيمها لتكون معايير في أحكامهم على النصوص الشعرية أو النثرية على حدٍّ سواء، ومن القضايا المصطلحية الهامة " مصطلح المجاز"، فنجد البلاغيين لهم فيه حديث مركز، وضبط دقيق، فالخفاجي يجعل من شرطه أن يؤمن معه اللبس، فيقول: « المجاز لا يقاس عليه وإنما يحذف المضاف ويقام المضاف إليه مقامه في موضع دون موضع بحسب ما يتفق من فهم المقصود وزوال اللبس والأشكال وكذلك نقابل بعض الكلام ببعض بحيث لا يعرض فيه فساد في المعنى ولا خلل في العبارة فإذا اعترضنا في المقابلة مثل هذه الاستعارة لم نجزها كما إذا تطرق إلينا في حذف المضاف وجود اللبس لم نركن إليه ولا نعرج عليه»[3].

وقال أيضا: « أن هذا مجاز ولا يقاس عليه ولا يحسن منا المقابلة في موضع يعترضنا فيه فساد في المعنى أو خلفي اللفظ كهذه الاستعارة أو ما يجرى مجراها كما لا يحسن بنا غير ذلك في المجاز إذا أدى إلى اللبس والإشكال»[4].

---

(1) – ديوان أبي الطيب أحمد بن الحسين المتنبي، ضبطه وعلّق حواشيه: المعلم بطرس البُستاني، طبع بالعمدة الأدبية، بيروت، بالمطبعة السورية سنة: 1276 هـ- 1860م، (ص: 74).

(2) – سر الفصاحة، للخفاجي، (ص: 116-117).

(3) – سر الفصاحة، للخفاجي، (ص:133).

(4) – المرجع نفسه، (ص:142).

وفي تعريف الاستعارة يذكر الجرجاني فيها« أن تُريدَ تشبيهَ الشيءِ بالشيءِ، فتَدعَ أنْ تُفْصحَ بالتشبيهِ وتُظْهرَه، وتجيءَ إلى اسمِ المشبَّه بهِ فتعيُرَه المِشبَّهَ وتُجْريَه عليه. تُريدُ أن تَقول: رأيتُ رجلاً هو كالأسدِ في شجاعتهِ وقوةِ بطشِه سَواء"، فتَدَعُ ذلك وتقولُ: "رأيتُ أسداً"، وضَرْبٌ آخرُ من "الاستعارة"، وهو ما كان نحو قوله: [من الكامل]

إذْ أَصْبَحتْ بيدِ الشَّمال زِمامُها[1]

هذا الضربُ، وإِن كان الناسُ يَضمُّونه إلى الأَوَّل حيث يذكرونَ الاستعارةَ، فليسا سَواءً، وذاكَ أنكَ في الأولِ تجعلُ الشيءَ الشيءَ ليس به، وفي الثاني للشّيءِ الشيءَ ليس له»[2].

وعن بلاغة الاستعارة يتحدث الجرجاني قائلا: « وأما "الاستعارةُ"، فسبَبُ ما ترَى لها من المزيّةِ والفخامةِ، أنَّك إذا قُلْتَ: "رأيتُ أسداً"، كنتَ قد تلطَّفْتَ لما أَردْتَ إثباتَه له من فَرْط الشَّجاعةِ، حتى جعلْتَها كالشَّيءِ الذي يَجِبُ له الثبوتُ والحصولُ، وكالأمرُ الذي نُصِبَ له دليلٌ يَقطع بوجودِه، وذلك أَنه إذا كان أَسداً، فواجبٌ أن تكونَ له تلك الشجاعةُ العظيمةُ، وكالمُستحيلِ أو الممتنع أنْ يَعْرى عنها»[3].

وفي أنواعها يقول: « أفَلا ترَى أنك تجدُ في الاستعارةِ العاميَّ المبتذَل، كقولنا: "رأيتُ أسداً، ووردتُ بحراً، ولقيتُ بَدراً"؛ والخاصيَّ النادرَ الذي لا تَجِدُه إلاَّ في كلامِ الفُحول، ولا يَقْوى عليه إِلا افرادُ الرِّجال، كقوله: [من الطويل]

وسالتْ بأَعناقِ المطِيِّ الأَباطِحُ[4]»[5]

وفي الاستعارة يبيّنُ الخفاجي أنها إذا ما بنيت على استعارة مثلها بعد إدراكها، وقد يؤدي ذلك إلى الاستحالة والفساد[6].

---

(1) – للبيد بن ربيعة، من معلقته، وصدره: وغداة ريح قد كشفت وقرة

ينظر ديوان لبيد بن أبي ربيعة، اعتنى به حمدو طمّاس، دار المعرفة بيروت– لبنان، الطبعة الأولى: 1425-2004م، (ص: 114).

(2) – دلائل الإعجاز، للجرجاني، (ص: 64)

(3) – المرجع نفسه، (ص: 72)

(4) – وصدره: أخذنا بأطراف الأحاديث بيننا ، يُنظر: ديوان كثير عزة، جمعه وشرحه: إحسان عباس، دار الثقافة بيروت– لبنان، طبعة: 1391 هـ- 1971م، من الأبيات التي نُسبت إليه (ص: 525).

(5) – دلائل الإعجاز، للجرجاني، (ص: 74)

(6) – سر الفصاحة، للخفاجي، (ص:143)

وفي الحديث عن الفصاحة أورد الجرجاني: « إنها خصوصيةٌ في نَظْم الكَلِم وضَمّ بَعْضِها إلى بعضٍ على طريقٍ مخصوصةٍ، أو على وُجوهٍ تَظْهَرُ بها الفائدةُ' وعاب هذا الحدّ لأجل ما فيه من الإجمال، ثم قال: « وإذا كان هذا هكذا، علمْتَ أنه لا يكفي في علمٍ "الفصاحةِ" أن تَنْصُبَ لها قياساً ما، وأن تَصِفها وصْفاً مُجْملاً، وتقولَ فيها قولاً مُرْسَلاً، بل لا تكونُ مِن مَعرفتها في شَيءٍ حتى تُفصِّل القولَ وتُحصِّل، وتضعَ اليدَ على الخصائصِ التي تَعْرِضُ في نَظْم الكَلِم وتَعُدُّها واحدةً واحدة، وتُسمّيها شيئاً شيئاً، وتكونُ معرفتك معرفة الصنع الحاذق الذي يعلم علم كل خيط من إلا بريسم الذي في الدِّيباج، وكلَّ قطعةٍ منَ القِطَع المنجورة في الباب المقطع، وكل آجرة منَ الآجرِّ الذي في البناء البديع»[1].

«وإنَّما اختُصَّت الفصاحةُ باللفظِ وكانت مِنْ صِفته، من حيثُ كانت عبارةً عن كونِ اللفظِ على وَصْفٍ إذا كان عليه دلَّ على المزيّةِ التي نحنُ في حديثها، وإذا كانت لِكَوْن اللفظ دالًا، استحالَ أنْ يُوصفَ بها المعنى، كما يَسْتحيلُ أن يوصَف المعنى بأنه "دال" مثلًا، فاعرفه»[2]، ثم ينبه على أن الحديث عن الفصاحة والبلاغة لا ينبغي أن يكون حال كون الكلم مفردة، بل الحديث عنها حال التأليف والتركيب، فقال « وأن يعلم أنه ليسَ لنا إذا نحنُ تكلَّمْنَا في البلاغةِ والفصاحةِ معَ معاني الكَلِم المفردةِ شغلٌ، ولا هيَ منَّا بسبيل، وإنَّما نَعْمَد إلى الأحكام التي تَحْدُثُ بالتأليف والتركيب.»[3].

« ومن وضع الألفاظ موضعها أن لا تقع الكلمة حشوا وأصل الحشو أن يكون المقصد بها إصلاح الوزن أو تناسب القوافي وحرف الروي إن كان الكلام منظوما وقصد السجع وتأليف الفصول إن كان منثورا من غير معنى تفيده أكثر من ذلك»[4].

وفي تحديد المعنى الصحيح للكناية يقول الجرجاني: «أن يُريد المتكلمُ إثباتَ معنًى من المعاني، فلا يذكُرُه باللّفظِ الموضوعِ له في اللُّغة، ولكنْ يَجيءُ إلى معنى هو تاليهِ وردْفُه في الوجود، فيومئ به إليهِ، ويجعلهُ دليلاً عليه، مثال ذلك قولُهم: "هو طَويلُ النَّجاد"، يريدونَ طويلَ القامة

(1) – دلائل الإعجاز، للجرجاني، (ص:36- 37)
(2) – المرجع نفسه، (ص: 63)
(3) – دلائل الإعجاز، للجرجاني، (ص: 72)
(4) – سر الفصاحة، للخفاجي، (ص: 146)

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

"وكثيرُ رمادِ القِدْر" يَعْنون كثيرَ القِرى وفي المرأة: "نَؤومُ الضُّحى"، والمرادُ أنها مُتْرفةٌ مَخْدومة، لها مَنْ يَكفيها أمْرَها»(1).

وفي بلاغة الكناية يقول: « فإنَّ السببَ في أنْ كانَ للإثباتِ بها مزيةٌ لا تكونُ للتَّصريح، أنَّ كلَّ عاقلٍ يَعْلمُ إذا رجعَ إلى نفسه، أنَّ إثباتَ الصفةِ بإثباتِ دَليلِها، وإيجابَها بما هُو شاهِدٌ في وجودِها، آكدُ وأبلغُ في الدعوى من أن تجيء إليها فتثبتها هكذا ساذَجاً غُفْلاً، وذلك أنَّكَ لا تدَّعي شاهدَ الصفةِ ودليلَها إلاَّ والأَمرُ ظاهرٌ معروفٌ، وبحيثُ لا يُشَكُّ فيه، ولاَ يُظَنُّ بالمخْبر التجوُّزُ والغَلَطُ»(2).

رابعا: تفسير عبارات النقاد وبيان بعض أخلاقهم

وممَّا شارك فيه البلاغيون النقادَ تفسير بعض العبارات التي جاءت عن النقد، ووقع فيها بعض القلق والإبهام، ومن ذلك « قولهم: "لفظٌ متمكّنٌ"، يُريدون أنه بموافقةِ معناهُ لمعنى ما يليهِ كالشَّيءِ الحاصلِ في مكانٍ صالحٍ يطمئنُّ فيه "ولفظٌ قلِقٌ نابٍ"، يُريدون أنه مِنْ أجْل أنَّ معناهُ غيرُ موافقٍ لِما يَليه، كالحاصل في مكانٍ لا يَصْلُح له»(3).

ومما أشار إليه ابن سنان الخفاجي، بيان مقاصد النقاد في إيراد الأبيات التي عيبت على فحول الشعراء، فقال« لم نذكر هذه الأبيات الذميمة وغرضنا الطعن على ناظمها وإنما قادتنا الحاجة في التمثيل إلى ذكر الجيد والرديء والفاسد والصحيح على ما ذكرناه سالفاً ومعاذ الله أن يخرجنا بغض التقليد وحب النظر من الطرف المذموم في الإتباع والانقياد إلى الجانب الآخر في التسرع إلى نقص الفضلاء والتشييد لما لعله اشتبه على بعض العلماء والرغبة في الخلاف لهم وإيثار الطعن عليهم.

بل نتوسط إن شاء الله بين هاتين المنزلتين فننظر في أقوالهم ونتأمل المأثور عنهم ونسلط عليه صافي الذهن ونرهف له ماضي الفكر فما وجدناه موافقاً للبرهان وسليما على السبر اعترفنا بفضيلة السبق فيه وأقررنا لهم بحسن النهج لسبيله، وما خالف ذلك وباينه اجتهدنا في تأويله وإقامة المعاذير فيه، وحملناه على أحسن وجوهه وأجمل سبله وإيجاباً لحقهم الذي لا ينكر وإذعاناً

(1) – دلائل الإعجاز، للجرجاني، (ص: 66)

(2) – المرجع نفسه، (ص: 72)

(3) – المرجع نفسه، (ص: 64)

لفضلهم الذي لا يجحد، وعلما أنهم لم يؤتوا من ضلالة ولا كلال ذهن وفطنة ولكن لاستمرار هذه القضية في المحدثين وعمومها أكثر المخلوقين ومن الله نستمد التوفيق والمعونة برحمته»[1].

كانت هذه أهم القضايا النقدية التي عرضت في كتب البلاغة، وغلا فإن البلاغة هي لحمة النقد وسداه، وهل النُّقاد إلا أهل البلاغة.

الفرع الثاني: البلاغة وعلم النحو

لا يخفى على من نظر في كتب البلاغة تلك العلاقة التي قامت بين البلاغة والنحو، بل يمكن لقائل أن يقول: ما هي البلاغة، لولا النحو، لذلك نجد عبد القاهر الجرجاني، يشنّعُ على من يزري بالنحو ويجعل ذلك من جنس الصدِّ عن سبيل الله، فها هو يقول: « وأمَّا زهدُهم في النَّحو واحتقارُهم له، وإصغارُهم أمرَهُ، وتهاونُهم به، فصنيعُهم في ذلك أشنعُ من صَنيعهم في الذي تَقدَّم، وأَشْبَهُ بأن يكونَ صَدّاً عن كتابِ الله، وعن معرفةِ معانيه؛ ذاكَ لأَنهم لا يَجِدون بُدًّا من أنْ يعترفوا بالحاجة إليه فيه، إذا كان قد علم أن الألفاظ معلقة على مَعانيها حتى يكونَ الإعرابُ هو الذي يَفتحها، وأنَّ الأغراضَ كامنةٌ فيها حتى يكونَ هو المستخرجَ لها، وأنه المعيارُ الذي لا يتبيَّن نقصانُ كلامٍ ورجحانُه حتى يعرضَ عليه، والمقياسُ الذي لا يُعرفُ صحيحٌ من سَقيمٍ حتى يرجع إليه، لا يُنكِرُ ذلك إلاَّ من يُنكِر حِسَّه، وإلاَّ مَنْ غالَطَ في الحقائقِ نَفْسَه، وإذا كان الأَمرُ كذلك، فليتَ شِعري ما عُذْرُ مَن تَهاونَ به وزَهِدَ فيه، ولم يَرَ أنْ يستقيه من مصبه، ويأخذه من معدنه، ورضى بالنَّقصِ والكمالُ لها معرضٌ، وآثرَ الغَبينةَ وهو يجد إلى الربح سبيلًا»[2].

وفي موطن آخر نجد عبد القاهر الجرجاني لا يَرى النقصَ يَدْخلُ على صاحبِهِ في ذلك إلا من جهةِ نقصِه في علم اللغة، لا يعلم أن ههنا دقائق وأسرار طريق العلم بها الروية والفكر، لطائف مُسْتقاها العَقلُ، وخصائصَ معانٍ ينفردُ بها قومٌ قد هُدُوا إليها، ودُلُّوا عليها، وكُشِف لهم عنها، ورُفعتِ الحُجُب بينَهُم وبينَها، وأنها السَّببُ في أنْ عرضتِ المزيَّةُ في الكلامِ[3].

فالنحو عند البلاغيين من الأهمية بالمكان الذي يقف نجاح علم البلاغة عليه، ولأجل ذلك ظهرت عناية البلاغيين بالنحو، وذلك من جهتين:

---

(1) – سر الفصاحة، للخفاجي، (ص:145- 144)
(2) – دلائل الإعجاز، للجرجاني، (ص: 29)
(3) – المرجع نفسه (ص:7).

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

أولا: من جهة معاني النحو

أورد عبد القاهر الجرجاني في مطلع كتابه الدلائل فيما سماه بالمدخل في دلائل الإعجاز، جملةً مهمةً أرى أنها مفتاح الكتاب كله لمن تأملها، فكأنَّ ما بعدها إلى نهاية الكتاب كلِّه شرحٌ لها، وقد أشار الجرجانيُّ نفسُه إلى هذا ، وذلك إذْ يقول: « هذا كلام وجيزٌ يطّلع به الناظر على أصول النحو جملة، وكلّ ما به يكون النّظم دفعة، وينظر منه في مرآة تريه الأشياء المتباعدة الأمكنة قد التقت له حتى رآها في مكان واحد، ويرى بها مُشْئِمًا قد ضُمّ إلى مُعْرِقٍ، ومُغرّبا قد أخذ بيَدِ مُشْرِّقٍ، وقد وصلت بأخرة إلى كلام من أصغى إليه وتدبّره تدبّر ذي دين وفتوّة، دعاه إلى النّظر في الكتاب الذي وضعناه، وبعثه على طلب ما دوّنّاه»[1].

بل المتأمل في قوله: " ، وقد وصلت بأخرة إلى كلام من أصغى إليه وتدبّره تدبّر ذي دين وفتوّة، دعاه إلى النّظر في الكتاب الذي وضعناه"، يدلُّ دلالة واضحة، أن خلاصة الجهد كامنةٌ في القطعة التي سيوردها بين يدي الكتاب ولعلي أوردها هنا مع طولها للإشارة إلى أهميته:

يقول الجرجاني[2]: « معلوم أن ليس النّظم سوى تعليق الكلم بعضها ببعض، وجعل بعضها بسبب من بعض.

والكلم ثلاث: اسم، وفعل، وحرف؛ وللتعليق فيما بينها طرق معلومة، وهو لا يعدو ثلاثة أقسام: تعلّق اسم باسم، وتعلّق اسم بفعل، وتعلّق حرف بهما.

فالاسم يتعلّق بالاسم بأن يكون خبرا عنه، أو حالا منه، أو تابعا له صفة أو تأكيدا، أو عطف بيان، أو بدلا، أو عطفا بحرف، أو بأن يكون الأوّل مضافا إلى الثّاني، أو بأن يكون الأوّل يعمل في الثّاني عمل الفعل، ويكون الثاني في حكم الفاعل له أو المفعول؛ وذلك في اسم الفاعل كقولنا: "زيد ضارب أبوه عمرا"، وكقوله تعالى: ﴿أَخْرِجْنَا مِنْ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلظَّالِمِ أَهْلُهَا﴾ [النساء: ٧٥]، ، وقوله تعالى: ﴿وَهُمْ يَلْعَبُونَ ۝٢ لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ﴾ [الأنبياء: ٢ – ٣]، واسم المفعول كقولنا: "زيدٌ مضروب غلمانه"، وكقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ ٱلنَّاسُ﴾ [هود: ١٠٣]، والصفة المشبّهة كقولنا: "زيد حسن وجهه، وكريم أصله، وشديد ساعده"، والمصدر كقولنا: «عجبت من ضرب زيد عمرا»،

(1) – المرجع نفسه، (ص: 3 من المدخل)

(2) – هذا الكلام الذي أورده عبد القاهر الجرجاني، يصلح أن يكون متنا علميا لعلم معاني النحو، فهو يشرح فيه كيف يعلق الكلِمُ بعضه ببعض بدءا بتعلق الاسم بالاسم، ثم تعلق الحرف بهما، هذه التعلُّقات هي التي توضِّحُ أحكام النحو ومعانيه.

وكقوله تعالى: ﴿أَوۡ إِطۡعَـٰمٞ فِي يَوۡمٖ ذِي مَسۡغَبَةٖ﴾ البلد: ١٤، أو بأن يكون تمييزا قد جلاه، ومنتصبا عن تمام الاسم- ومعنى "تمام الاسم"، أن يكون فيه ما يمنع من الإضافة، وذلك بأن يكون فيه نون تثنية، كقولنا: "قفيزان برّا"، أو نون جمع كقولنا: "عشرون درهما"، أو تنوين كقولنا: "راقودٌ خلّا" [الراقود مثل الإناء] ، و "ما في السّماء قدر راحةٍ سحابا"، أو تقدير تنوين كقولنا: "خمسةَ عشرَ رجلا"، أو يكون قد أضيف إلى شيء، فلا يمكن إضافته مرّة أخرى، كقولنا: "لي ملؤه عسلا"، وكقوله تعالى: ﴿مِّلۡءُ ٱلۡأَرۡضِ ذَهَبٗا﴾ آل عمران: ٩١.

وأمّا تعلّق الاسم بالفعل، فبأن يكون فاعلا له، أو مفعولا، فيكون مصدرا قد انتصب به كقولك: "ضربت ضربا"، ويقال له المفعول المطلق؛ أو مفعولا به كقولك: "ضربت زيدا"، أو ظرفا مفعولا فيه، زمانا أو مكانا، كقولك: "خرجت يوم الجمعة، ووقفت أمامك"، أو مفعولا معه كقولنا: "جاء البرد والطّيالسة" و "لو تركت الناقة وفصيلها لرضعها"، أو مفعولا له كقولنا: "جئتك إكراما لك، وفعلت ذلك إرادة الخير بك"، وكقوله تعالى: ﴿وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ ٱبۡتِغَآءَ مَرۡضَاتِ ٱللَّهِ﴾ النساء: ١١٤، أو بأن يكون منزّلا من الفعل منزلة المفعول، وذلك في خبر كان وأخواتها، والحال والتمييز المنتصب عن تمام الكلام، مثل: "طاب زيد نفسا، وحسن وجها، وكرم أصلا"، ومثله الاسم المنتصب على الاستثناء، كقولك: «جاءني القوم إلّا زيدا»، لأنّه من قبيل ما ينتصب عن تمام الكلام.

وأما تعلّق الحرف بهما، فعلى ثلاثة أضرب:

أحدها: أن يتوسّط بين الفعل والاسم، فيكون ذلك في حروف الجرّ التي من شأنها أن تعدّي الأفعال إلى ما لا تتعدّى إليه بأنفسها من الأسماء، مثل أنّك تقول: "مررت"، فلا يصل إلى نحو "زيد، وعمرو"، فإذا قلت: "مررت بزيد، أو على زيد"، وجدته قد وصل "بالباء"، أو "على". وكذلك سبيل الواو الكائنة بمعنى "مع" في قولنا: "لو تركت الناقة وفصيلها لرضعها"، بمنزلة حرف الجر في التوسّط بين الفعل والاسم وإيصاله إليه، إلّا أنّ الفرق أنّها لا تعمل بنفسها شيئا، لكنها تعين الفعل على عمله النّصب، وكذلك حكم "إلّا" في الاستثناء، فإنها عندهم بمنزلة هذه "الواو" الكائنة بمعنى "مع" في التوسط، وعمل النّصب في المستثنى للفعل، ولكن بوساطتها وعون منها.

والضّرب الثاني: من تعلّق الحرف بما يتعلّق به: "العطف"، وهو أن يدخل الثاني في عمل العامل في الأول، كقولنا: "جاءني زيد وعمرو" و "رأيت زيدا وعمرا"، و "مررت بزيد وعمرو".

والضّرب الثالث: تعلّق بمجموع الجملة، كتعلّق حرف النّفي والاستفهام والشّرط والجزاء بما يدخل عليه، وذلك أن من شأن هذه المعاني أن تتناول ما تتناوله، وبعد أن يسند إلى شيء، معنى

ذلك: أنك إذا قلت: "ما خرج زيد"، و "ما زيد خارج"، لم يكن النفي الواقع بها متناولا الخروج على الإطلاق، بل الخروج واقعا من "زيد" ومسندا إليه؛ ولا يغرّنّك قولنا في نحو "لا رجل في الدار": إنها لنفي الجنس، فإن المعنى في ذلك أنها لنفي الكينونة في الدار عن الجنس، ولو كان يتصوّر تعلّق النفي بالاسم المفرد، لكان الذي قالوه في كلمة التوحيد من أن التقدير فيها: "لا إله لنا، أو في الوجود، إلّا الله"، فضلا من القول، وتقديرا لما لا يحتاج إليه، وكذلك الحكم أبدا، وإذا قلت: "هل خرج زيد" لم تكن قد استفهمت عن الخروج مطلقا، ولكن عنه واقعا من "زيد". وإذا قلت: "إن يأتني زيد أكرمه"، لم تكن جعلت الإتيان شرطا، بل الإتيان من "زيد"، وكذا لم تجعل الإكرام على الإطلاق جزاء للإتيان، بل الإكرام واقعا منك، كيف؟ وذلك يؤدي إلى أشنع ما يكون من المحال، وهو أن يكون هاهنا إتيان من غير آت، وإكرامٌ من غير مُكرِمٍ، ثم يكون هذا شرطا وذلك جزاء.

ومختصر كلّ الأمر أنه لا يكون كلام من جزء واحد، وأنه لا بدّ من مسند ومسند إليه، وكذلك السبيل في كل حرف رأيته يدخل على جملة، كـ "إنّ" وأخواتها، ألا ترى أنك إذا قلت: "كأنّ"، يقتضي مشبّها ومشبّها به؟ كقولك: "كأنّ زيدا الأسد"، وكذلك إذا قلت "لو" و "لولا"، وجدتهما يقتضيان جملتين، تكون الثّانية جوابا للأولى.

وجملة الأمر أنه لا يكون كلام من حرف وفعل أصلا، ولا من حرف واسم، إلا في النداء نحو: "يا عبد الله"، وذلك إذا حُقّق الأمر كان كلاما بتقدير الفعل المضمر الذي هو "أعني" و "أريد" و "أدعو"، و "يا" دليل عليه، وعلى قيام معناه في النفس.

فهذه هي الطرق والوجوه في تعلّق الكلم بعضها ببعض، وهي، كما تراها، معاني النحو وأحكامه»(1).

فهذا الذي ذكره الجرجاني أشبه ما يكون بمتنٍ علميٍ لمعاني النحو، ولا أشك أنَّ الجرجاني جعله كالمقدمة لكتابه ولنظرية النظم، فكأنه يطلب من قارئ الكتاب أن يكون متفهما في أول الأمر هذه التراتيب النحوية، حتى يستطيع أن يفهم نظرية النظم، ومسائل ودلائل الإعجاز.

ومن جهود البلاغيين في علم النحو، ما كان منهم من استدراكات على النحاة، فمن ذلك ما استدرك به الجرجاني على سيبويه في "الكتاب"، فيما يخصُّ معاني النحو دائماً، فيقول عن قضية التقديم، والغرض منه، « نَجِدْهُم اعْتَمدوا فيه شيئاً يَجري مَجرى الأَصْل، غيرَ العنايةِ والاهتمامِ. قال

(1) – – دلائل الإعجاز، للجرجاني، (ص: 4-8 من المدخل)

صاحبُ الكتاب، وهو يَذكُر الفاعلَ والمفعولَ: "كأنَّهم يقدمون الذي بيانه أهم لهم، وهم ببيانه أَعْنى، وإن كانا جميعاً يُهمَّانِهم ويَعْنيانِهم" ولم يَذْكر في ذلك مثالاً..

وقد وَقعَ في ظنونِ الناسِ أنَّه يكفي أنْ يقالَ: "إنه قُدِّم للعناية، ولأنَّ ذكْرَه أَهمُّ"، مِنْ غير أن يُذْكَر، مِنْ أين كانت تلك العنايةُ؟ وبِمَ كانَ أهمَّ؟ ولِتخيُّلِهم ذلك، قد صَغُر أمرُ "التقديمِ والتأخيرِ" في نفوسهم، وهَوَّنوا الخَطْبَ فيه، حتى إنك لَترَى أكثرَهم يَرى تَتبُّعَه والنظرَ فيه ضرباً من التكلُّف، ولم ترَ ظنّاً أَزرى على صاحبِه من هذا وشبهه»[1].

ومن الاستدراكات، ما استدركه ابن الأثير على النحاة، في الاصطلاح على بعض الحروف أنها زائدة، في حديثه عن قوله ﷻ: ﴿فَلَمَّآ أَن جَآءَ ٱلۡبَشِيرُ أَلۡقَىٰهُ عَلَىٰ وَجۡهِهِۦ فَٱرۡتَدَّ بَصِيرٗاۖ﴾ يوسف: ٩٦، وردّ الزعم في أنَّ "أنْ"، وأن ذلك يزري بإعجاز القرآن الكريم، « فهذه اللفظة لو كانت زائدة لكان ذلك قدحا في كلام الله تعالى، وذاك أنه يكون قد نطق بزيادة في كلامه لا حاجه إليها، والمعنى يتم بدونها، وحينئذ لا يكون كلامه معجزا؛ إذ من شرط الإعجاز عدم التطويل الذي لا حاجة إليه، وإن التطويل عيب في الكلام، فكيف يكون ما هو عيب في الكلام من باب الإعجاز؟ هذا محال»[2].

وفي معاني النحو يذكر الجرجاني أنَّ « الشيءَ إذا أُضْمِر ثمَّ فُسِّر، كان ذلك أفخمَ له مِنْ أن يُذكَر من غير تقدمة إضمار»[3].

ومن تتبع كتب البلاغة، وجد فيها من مادة النحو الشيء الكثير، لأنه من مقومات البلاغة الأساسية

ثانيا: أصول النحو:

ومن الأمور التي اعتنى بها البلاغيون فيما يتعلق بأصول النحو، قضية الاستشهاد بالشعر العربي، وأنه لا علاقة للزمان بها، كما يقول الخفاجي: « فلعل من يجدنا نستدل بكلام العرب المتقدمين على لغتهم لا نستدل بكلام المتأخرين يتخيل أن هذا شيء يرجع إلى الزمان وليس الأمر كذلك، وإنما العرب الأُوَلُ لما كثر الإسلام واتصلت الدعوة وانتشرت حضر أكثرهم وسكنوا الأرياف وفارقوا البدو وخالطهم الباقي فامتزج كلامهم بمن جاوروه من الأنباط وعاشروه من الأعاجم، وعدم منهم الطبع السليم الذي كانوا عليه قبل هذه المخالطة فهم الآن لا يحتج

(1) – دلائل الإعجاز، للجرجاني، (ص: 107- 108).

(2) – المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، لابن الأثير، تحقيق: محيي الدين عبد الحميد، (ج2/ص: 153)

(3) – دلائل الإعجاز، للجرجاني، (ص: 132)

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

بكلامهم لهذه العلة؛ لا لأن القدم والحدوث سببان في الصواب والخطأ ولهذا كان الأصمعي ينكر أن يقال في لغة العرب مالح فلما أنشد في ذلك شعر ذي الرمة. قال: إن ذا الرمة قد بات في حوانيت البقالين بالبصرة زماناً.

فأراد بذلك أن بمخالطتهم سمعهم يقولون مالح فقاله، فلم يجز أن يحتج بكلامه لهذا السبب ولو فرضنا اليوم أن في بعض الصحارى النائية عن العمارة قوماً على عادة المتقدمين في البدو وترك الإلمام بأهل المدر متمسكين بطبعهم وجارين على سجيتهم كان على هذا الفرض قولهم حجة واتباعهم واجباً، ولهذه العلة تختلف العرب في كلامهم بحسب تباينهم في المخالطة، فنجد اليوم من بعد منهم عن الحضر أكثر من غيره إلى الصواب أميل ومن جانبه أقرب»[1].

فضعف ابن سنان ضابط التقدم والتأخر، واعتبر ضابط مخالطة الأعاجم من غير ذلك، وهو الأولى والأصوب، فالخفاجي إذن يرجع العلة في ترك الاستشهاد بكلام العرب، إنما هو راجع إلى الخلطة المؤثرة في فصاحة الكلام، وليس لتقدم الزمان أو تأخره أثرٌ في ذلك ألبتة، «وإنما موجبه أن العرب الذين يتكلمون باللغة العربية ولا يخالطون أحداً ممن يتكلم بغير لغتهم هم الذين أقوالهم حجة في اللغة والعرب الذين خالطوا غيرهم من العجم وفسدت لغاتهم بالمخالطة لا يستدل بكلامهم فلما كان العرب المتقدمون قبل الإسلام وفي الصدر الأول منه لا يخالطون في الأكثر غيرهم كانت أقوالهم في اللغة حجة ولما صاروا بالملك والدولة يخالطون غيرهم ويحضرون ويسكنون المدن لم يستدل بلغتهم...

على هذا فلوم فرضنا اليوم أن في بعض القفار النائية عن العمارة قوماً من العرب لا يخالطون غيرهم وكانوا قد أخذوا اللغة عن مثلهم وكذلك إلى حين ابتداء الوضع لوجب أن يكون قولهم حجة كأقوال المتقدمين وإن كانوا محدثين»[2].

أما بالنسبة للاستشهاد بالحديث النبوي، نجده ظاهرا عند البلاغيين، كما هو صنيع عبد القاهر الجرجاني، في مواطن متكاثرة من كتابيه، ومن ذلكم ما أورده في حديثه عن التشبيه، لما قال في « أخذ الشَّبه من المحسوس للمحسوس، ثم الشبهُ عَقليٌّ، قولُ النبيّ ﷺ: "إياكم

([1]) – سر الفصاحة، للخفاجي، (ص:131).
([2]) – المرجع نفسه، (ص:283-284).

وخَضْراء الدِمَن "[1]، الشبه مأخوذ للمرأة من النبات كما لا يخفى وكلاهما جسمٌ، إلا أنه لم يُقصَد بالتشبيه لونُ النبات وخُضرته، ولا طعمه ولا رائحته، ولا شكله وصورته ولا ما شاكل ذلك ولا ما يسمَّى طبعاً كالحرارة والبرودة المنسوبتين في العادة إلى العقاقير وغيرها مما يُسَخِّن بدن الحيوان ويَبْرُدُ بحصوله فيها، ولا شيءٌ من هذا الباب بل القصدُ شَبَهٌ عقليٌّ بين المرأة الحسناءِ في المنبت السوء، وبين تلك النابتة على الدّمنة، وهو حُسْنُ الظاهر في رأى العين مع فساد الباطن، وطيبُ الفرع مع خبث الأصل»[2].

ومثله في تشبيه حفظ العلم بالقلب، بحمل الشيء على الظهر، « وذلك أن الحافظ للشيءِ بقلبه، يُشبه الحاملَ للشيءِ على ظهره، وعلى ذلك يقال: حَمَلةُ الحديث، وحَمَلةُ العلم كما جاء في الأثر: "يحمِلُ هذا العلمَ من كُلّ خَلَفٍ عُدولُهُ"[3]، "ورُبَّ حَامِلِ فقهٍ إلى مَن هو أفقه منه"[4]»[5].

وقال الجرجاني في: « قول النبي ﷺ: "النَّاسُ كإبلٍ مِئة لا تكادُ تجدُ فيها راحلةً"[6]، لا بدّ فيه من المحافظة على ذكر المشبَّه به الذي هو الإبل، فلو قلت: الناس لا تجد فيهم راحلة أو لا تجد في الناس راحلة، كان ظاهرَ التعسُّف»[7].

وفي قضية أخرى يستأنس بالحديث النبوي، فيقول: « واعلم أنه قد يجوز فيه أن تحذف الكاف وتجعل المجرور كان به، خبراً، فتقول: فإنك الليل الذي هو مدركي، أو أنت الليل الذي

---

(1) – أخرجه الرامهرمزي في أمثال الحديث، في باب الكناية ورد مفسرا، من حديث أبي سعيد الخدري ﷺ، برقم: 74، أمثال الحديث المروية عن النبي ﷺ، أبو محمد الحسن بن عبد، المحقق: أحمد عبد الفتاح تمام، مؤسسة الكتب الثقافية – بيروت، الطبعة: الأولى، 1409هـ. (ص: 120).

(2) – أسرار البلاغة، للجرجاني، (ص: 68)

(3) – أخرجه ابن وضاح في البدع والنهي عنها، ، باب ما يكون بدعة، البدع والنهي عنها، أبو عبد الله محمد بن وضاح القرطبي ، تحقيق ودراسة: عمرو عبد المنعم سليم، مكتبة ابن تيمية، القاهرة– مصر، مكتبة العلم، جدة ، الطبعة: الأولى، 1416 هـ (ص:25).

(4) – مسند الإمام أحمد، برقم: 21590، من حديث زيد بن ثابت، (ج35/ ص: 467).

(5)– أسرار البلاغة، للجرجاني، (ص: 107)

(6) – أخرجه مسلم، في كتاب: فضائل الصحابة ﷺ، باب: قوله ﷺ " الناس كإبل مئة لا تجد فيها راحلة، من حديث: ابن عمر ﷺ، برقم: 232، (ج4/ ص: 1973).

(7) – أسرار البلاغة، للجرجاني، (ص: 113)

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

هو مدركي، وتقول في قول النبي ﷺ: " مَثَلُ المؤمن مَثَل الخامة من الزرع "[1]، المؤمن الخامة من الزرع، وفي قوله عليه السلام: "الناس كإبلٍ مئة: الناس إبل مئة"، ويكون تقديره على أنك قدّرت مضافاً محذوفاً على حدّ: ﴿وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ﴾ يوسف: ٨٢، تجعل الأصل: فإنك مثلُ الليل ثم تحذف مِثْلاً»[2].

كما استشهد الخفاجي بالحديث النبوي في قضايا لغوية كثيرة، منها ما جاء « عن النبي ﷺ قال: "خير المال سكة مأبورة ومهرة مأمورة "[3]، فقال: مأمورة لأجل المناسبة والمستعمل مُؤْمِـــرَةٌ أي كثيرة النتاج كما قرئ: ﴿وَإِذَآ أَرَدْنَآ أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا﴾ الإسراء: ١٦، أي: كثّرنا. وعن النبي ﷺ أنه كان يعود الحسن والحسين عليهما السلام، فيقول: "أعيذكما بكلمات الله التامة من كل شيطان وهامة ومن كل عين لامة"[4]، ولم يقل ملمة لأجل المناسبة وكذلك قوله ﷺ في بعض الحديث: "ترجعن مأزورات غير مأجورات" لأن مأزورات من الوزر، والمستعمل موزورات فجاء به هكذا لأجل المناسبة.»[5].

ومن استدلاله به أيضا ما أورده في حديث الأمثال النبوية: في قضية تعليق الحكم باسمٍ أو صفةٍ أو شرطٍ أو غايةٍ لا يدلُّ على انتفائه بانتفاء ذلك،: « لأن النبي ﷺ إذا قال: "في سائمة الغنم الزكاة"[6] فليس مراده أن يبين لنا حال المعلوفة هل تجب فيها الزكاة أم لا؟ بل هي مسكوت عنها فنجوّز فيها ما كنا نجوزه في السائمة قبل هذا القول.

(1) – أخرجه النسائيُّ في السنن الكبرى، كتاب: الطبِّ، باب: مثل المؤمن، برقم:7437 ، من حديث أبي هريرة، السنن الكبرى وفي ذيله الجوهر النقي، أبو بكر أحمد بن الحسين البيهقي، الجوهر النقي: علاء الدين علي بن عثمان الشهير بابن التركماني، الناشر : مجلس دائرة المعارف النظامية الكائنة في الهند ببلدة حيدر آباد، الطبعة : الطبعة : الأولى ـ 1344 هـ (ج 7/ص: 45).

(2) – أسرار البلاغة، للجرجاني، (ص: 247).

(3) – أخرجه أحمد في المسند، من حديث سويد بن هبيرة، برقم: 15845، (ج: 25/ص: 172)

(4) – أخرجه البخاري، في كتاب أحاديث الأنبياء عليهم السلام، بابٌ، برقم: 3391، (ج 3/ص: 1233).

(5) – سر الفصاحة، للخفاجي، (ص: 176-177).

(6) – أخرجه أبو داود، كتاب الزكاة، باب في زكاة السائمة، من حديث: ثمامة بن عبد الله بن أنس، برقم: 1567، سنن أبي داود، أبو داود سليمان بن الأشعث السِّجِسْتاني، المحقق: شعَيب الأرنؤوط - مُحَمَّد كامِل قره بللي، الناشر: دار الرسالة العالمية، الطبعة: الأولى، 1430 هـ - 2009 م، (ج 3/ ص: 17).

وليس كذلك قول القائل: أصبح العسل حلواً لأنه يريد حلو في كل حال من صباح أو مساء، فلذلك كان ذكر الصباح حشواً، ومثاله في مسألتنا أن يكون ﷺ يقصد أن يبين لنا حال الزكاة في الغنم جميعها السائمة والمعلوفة، ثم يقول في سائمة الغنم الزكاة فإنا نقول إن هذا اللفظ غير موافق للمقصود إذ كان لا يعطينا تصريحه ولا فحواه في المعلوفة حكماً كما قلنا إن من أراد أن يصف لنا العسل بالحلاوة في جميع الأوقات ثم قال أصبح العسل حلواً، فإنه قد أتى بأصبح حشواً لغير فائدة فبان الفرق بين الأمرين»[1].

هذه الأمثلة وغيرها كثير في كتب البلاغة تدل على أن البلاغيين، تكاد تُجمع كلمتهم على الاستشهاد بالحديث النبوي الشريف.

(1) – سر الفصاحة، الخفاجي، (ص: 153-154).

جمعية الإمام عبد القادر للعلوم الإسلامية

الفرع الثالث: علم البلاغة وعلم تفسير القرآن:

من العلوم التي لا يكاد يخلو منها تفسير، علمُ البلاغة العربيّة، بل ربما وجدنا بعض التفاسير تكاد تكون بلاغية، كتفسير الكشاف للزمخشري، والتحرير والتنوير للطاهر بن عاشور، وبعضها يكثر فيها الجانب البلاغي، كتفسير أبي السُّعود، تفسير أبي حيان، والفخر الرازي، وذلك إن دلَّ على شيءٍ فإنما يدلُّ على أصالة هذا العلم، والاعتداد به كوسيلة مهمة للمفسر، ولا يفوتنا ذكر ما قاله الزمخشري، في مقدمة تفسيره لمّا قال في علم التفسير، وأنه: "لا يتم لتعاطيه وإجالة النظر فيه كل ذي علم كما ذكر الجاحظ في كتاب نظم القرآن فالفقيه وإن برز علم الأقران في علم الفتاوي والأحكام، والمتكلم وإن برز أهل الدنيا في صناعة الكلام وحافظ القصص والأخبار وإن كان من ابن القرية أحفظ، والواعظ وإن كان من الحسن البصري أوعظ، والنحوي وإن كان أنحى من سيبويه، واللغوي وإن علك اللغات بقوة لحييه؛ لا يتصدى منهم أحد لسلوك تلك الطرائق ولا يغوص على شيء من تلك الحقائق إلا رجل قد برع في علمين مختصين بالقرآن وهما علم المعاني وعلم البيان وتمهل في ارتيادهما آونة وتعب في التنقير عنهما ازمنة وبعثته على تتبع مظانهما همة في معرفة لطائف حجة الله وحرص على استيضاح معجزة رسول الله بعد أن يكون آخذا من سائر العلوم بحظ»[(1)].

ولأجل ذلك نجد في كتب البلاغة مادة تفسيرية كبيرة، بل لا يكاد يخلو كتاب منها من إشارات تفسيرية، لذلك نجد الجرجاني شنّع على من يصرف اهتمامه إلى ما يتعلق بالتجويد للكلمات وإتقان النُّطق بها، ويكون ذلك على حساب رعاية المعاني والعناية بها، فيقول: « وهل يكون أضعفُ رأياً، وأبعدُ من حُسْن التدبُّر، منك إذا أهمَّك أن تعرفَ الوجوهَ في "أأنذرتهم"، والإمالة في "رأى القمر" وتعرفَ "الصِّرَاطَ"، و "الزراط"، وأشباهَ ذلك مما لا يَعْدُو عِلْمُك فيه اللفظَ وجَرْسَ الصوت، ولا يَمنعُكَ إنْ لم تَعلمْه بلاغةً، ولا يَدْفعُكَ عن بيانٍ، ولا يُدخِلُ عليك شَكّاً، ولا يُغْلق دونَكَ بابَ معرفةٍ، ولا يُفْضى بك إلى تحريفٍ وتبديلٍ، وإلى الخطأ في تأويلٍ، وإلى ما يَعظُمُ فيه المَعابُ عليكَ، ويُطيلُ لسانَ القادحِ فيك ولا يَعْنيكَ ولا يَهُمُّك أنْ تَعرف ما إذا جهلْتَه عرَّضْتَ نفسَك لكلِّ ذلك، وحصلْتَ فيما هنالك، وكان أكثرُ كلامِك في التفسيرِ،

(1) – الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل، أبو القاسم محمود بن عمرو بن أحمد الزمخشري، الناشر: دار الكتاب العربي – بيروت، الطبعة: الثالثة – 1407 هـ.، (ج1/ ص: 2).

وحيثُ تخوضُ في التأويل، كلامَ مَنْ لا يبني الشيءَ على أصلِه، ولا يأخذُهُ من مَأْخذه، ومَنْ ربَّما وَقَعَ في الفَاحش من الخطأ الذي يَبقى عارُه، وتَشنُع آثارُه»(1).

ومن أمثلة العناية بالتفسير في كتب البلاغة:

ما جاء في سرِّ الفصاحة لابن سنان الخفاجي، « وقد فسر قول الله تعالى: ﴿لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٍ ۝١٩﴾ الانشقاق: ١٩، أي حالاً بعد حال ولم يُرِدْ تساويهما في نفس المعنى، وإنما أراد تساويهما في المرور عليكم والتعيير لكم فإذا كان هذا حقيقة الطباق وهو مقابلة الشيء بمثله الذي هو على قدره سمو المتضادين إذا تقابلا متطابقين»(2).

«فأما قول الله تعالى: ﴿مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ لَتَنُوٓأُ بِٱلْعُصْبَةِ أُوْلِي ٱلْقُوَّةِ﴾ القصص: ٧٦، ليس من هذا بشيء وإنما المراد والله أعلم أن المفاتح تنوء بالعصبة أي تميلها من ثقلها، وقد ذكر هذا الفراء وغيره وكذلك قوله عز اسمه: ﴿وَإِنَّهُۥ لِحُبِّ ٱلْخَيْرِ لَشَدِيدٌ ۝٨﴾ العاديات: ٨، ليس على ما يزعم بعضهم المراد به وأن حبه للخير لشديد بل المقصود به أنه لحب المال لبخيل – والشدة – البخل أي من حبه للمال يبخل»(3).

وأما عبد القاهر الجرجاني فإن له مشاركة في التفسير ظاهرة، كيف وعنايته بالتفسير معروفة، إذ له تفسير منسوبٌ إليه، ومما جاء عنه الحديث عن قوله تعالى: ﴿وَٱشْتَعَلَ ٱلرَّأْسُ شَيْبًا﴾ مريم: ٤، قال « أنكَ ترى الناسَ إذا ذَكروا قولَه تعالى: "وَٱشْتَعَلَ ٱلرَّأْسُ شَيْبًا"، لم يَزيدوا فيه على ذِكْرِ الاستعارة، ولم ينسبوا الشرف إلا إليها، ولم يَروا لِلمزيَّة مُوجباً سِواها، هكذا ترى الأمر في ظاهر كلامِهِمْ، وليس الأمرُ على ذلك، ولا هذا الشَّرفُ العظيمُ، ولا هذه المزيةُ الجليلةُ، وهذه الرَّوعةُ التي تدخلُ على النُّفوس عند هذا الكلامِ لمجرَّدِ الاستعارة، ولكن لأنْ سُلِك بالكلام طريقُ ما يسندُ الفعْلُ فيه إلى الشيءِ، وهو لِما هو من سَببِه، فيُرفعُ به ما يُسند إليه، ويُؤتى بالذي الفعلُ له في المعنى منصوباً بَعده، مبيناً أنَّ ذلك الإسنادَ وتلك النسبةَ إلى ذلك الأولِ، إنَّما كانا من أجلِ هذا الثاني، ولما بينَه وبينَه منَ الاتّصالِ والملابسةِ، كقولهم: "طابَ زيدٌ نفساً"، و "قرَّ

(1) – دلائل الإعجاز، للجرجاني، (ص: 109-110)
(2) – سر الفصاحة، الخفاجي، (ص: 200).
(3) – المرجع نفسه، (ص: 116).

عمرو عينًا"، و "تصبب عرقًا"، و "كرم أصلًا"، و "حسن وجْهاً" وأشباهِ ذلك مما تجِد الفعلَ فيه منقولاً عن الشيء إلى ما ذلك الشيءُ من سببِهِ.

وذلك أنَّا نَعلم أنَّ " وَٱشۡتَعَلَ " للشيبِ في المعنى، وإنْ كانَ هو للرأسِ في اللفظ، كما أنَّ "طاب" للنفس، و "قر" للعين، و "تصبب" للعرق، وإن أُسنِد إلى ما أُسنِد إليه. يُبَيِّنُ أنَّ الشرَفَ كان لأَن سُلِكَ فيه هَذا المسلكُ، وتُوُخِّيَ به هذا المذهبُ أنْ تَدَعَ هذا الطريقَ فيه، وتأخذَ اللفظَ فتُسنِده إلى الشَّيب صريحاً فتقول: "اشتعلَ شَيبُ الرأسِ"، أو "الشيبُ في الرأس"، ثم تنظر هل تَجِدُ ذلك الحُسْنَ وتلك الفخامةَ؟ وهل تَرى الروعةَ التي كنتَ تَراها؟

فإن قلْتَ: فما السببُ في أَنْ كان " وَٱشۡتَعَلَ " إذا استُعيرَ للشَّيب على هَذا الوجهِ، كان لهُ الفضْلُ؟ ولِمَ بانَ بالمزيَّةِ منَ الوَجهِ الآخرِ هذه البَيْنُونَة؟ فإنَّ السبب أنَّه يُفيدُ، معَ لمِعانِ الشيبِ في الرأسِ الذي هو أَصْلُ المعنى، الشُّمولَ، وأنَّه قد شاعَ فيه، وأَخذَه من نواحيهِ، وأنه قد استغرقه وعمَّ جُمْلَتَه، حتى لم يَبْقَ من السَّوادِ شيءٌ، أوْ لم يبْقَ منه إلاَّ ما لا يُعْتَدُّ به.»(1).

ومن قبيل الاستدراكات على المفسرين ما جاء عند ابن رشيق القيرواني في قوله تعالى: ﴿ وَمِن رَّحۡمَتِهِۦ جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ لِتَسۡكُنُواْ فِيهِ وَلِتَبۡتَغُواْ مِن فَضۡلِهِۦ﴾ [القصص: ٧٣]، فقابل الليل بالسكون، والنهار بابتغاء الفضل، وجعل بعض المفسرين الليل والنهار بمعنى الزمان، والأول أعجب إلي(2)

كما استدرك على بعض المفسرين بعض ما عدوه كناية وليس كذلك، فإنه : « قد ذهب بعض المفسرين إلى أن قوله تعالى: ﴿ كَانَا يَأۡكُلَانِ ٱلطَّعَامَۗ ﴾ المائدة: ٧٥، كناية عن الحدث وليس الأمر على ما قال بل معنى الكلام على ظاهره لأنه كما لا يجوز أن يكون المعبود محدثاً كذلك لا يجوز أن يكون طاعماً وهذا شيء ذكره أبو عثمان الجاحظ وهو صحيح»(3).

وهذا ابن رشيق القيرواني، يوجه آية الشعراء في أثناء الإشادة بالشعر، فيقول: « فأما احتجاج من لا يفهم وجه الكلام بقوله تعالى: ﴿وَٱلشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ ٱلۡغَاوُۥنَ ٢٢٤ أَلَمۡ تَرَ أَنَّهُمۡ فِي كُلِّ وَادٖ يَهِيمُونَ ٢٢٥ وَأَنَّهُمۡ يَقُولُونَ مَا لَا يَفۡعَلُونَ ٢٢٦﴾ الشعراء: ٢٢٤ – ٢٢٦، فهو غلط، وسوء تأول؛

---

(1) – دلائل الإعجاز، للجرجاني، (ص: 100-101)

(2) – العمدة في محاسن الشعر، لابن رشيق القيرواني، (ج 2، ص: 17).

(3) – سر الفصاحة، للخفاجي، (ص: 166)

لأن المقصودين بهذا النص شعراء المشركين الذين تناولوا رسول الله ﷺ بالهجاء، ومسوه بالأذى، فأما من سواهم من المؤمنين فغير داخل في شيء من ذلك، ألا تسمع كيف استثناهم الله عز وجل ونبه عليهم فقال: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَذَكَرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱنتَصَرُواْ مِنۢ بَعْدِ مَا ظُلِمُواْ﴾ الشعراء: ٢٢٧، يريد شعراء النبي ﷺ ينتصرون له، ويجيبون المشركين عنه، كحسان بن ثابت، وكعب بن مالك، وعبد الله بن رواحة. وقد قال فيهم النبي ﷺ: " هؤلاء النفر أشد على قريش من نضح النبل "[1] »[2].

ونماذج التفسير في كتب البلاغة كثيرةٌ جدا يصلح أن تستخرج، فتُجعل تفسيرا بلاغيا أُنموذجاً يحذو النَّاسُ على حذوه.

جمعية أمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

(1) – أخرجه الترمذي، كتاب: الأدب عن رسول الله ﷺ، باب: ما جاء في إنشاد الشعر، من حديث أنس بن مالك ﷺ، برقم: 2774، سنن الترمذي، محمد بن عيسى بن سَوْرة أبو عيسى الترمذي، المحقق: بشار عواد معروف، الناشر: دار الغرب الإسلامي – بيروت، سنة النشر: 1998 م. (ج 10/ ص: 67).

(2) – العمدة في محاسن الشعر، لأبن رشيق القيرواني، (ج1/ ص: 31).

الحمد لله الذي تتمُّ بنعمته الصالحات والطيّبات، والصلاة والسَّلامُعلى من جاءنا بالقرآن والبيّنات، وبعد:

ففي خاتمة هذه الرسالة التي امتدت مباحثها في ثنايا هذه الصفحات المرقومة، ننتهي بها إلى هذه الغاية التي تتمثل في رصد نتائجها التي باحت بها في هذا الختام، والإدلاء بالمقترحات والتوصيات، فأما النتائج فأهمها ما يأتي:

أولا: أن كُتُب دلائل النبوة، وكتب علم الكلام، وكتب البلاغة العربي، هي من أهمِّ الكتب التي ساهمت مساهمة مؤثرة وظاهرة غير خفيّةٍ في إنشاء وبناء "علم إعجاز القرآن الكريم"، وعلاج كثير من قضاياه وتأصيلها.

ثانيا: أن دور هذه المجالات الثلاثة – الدلائل – علم الكلام – البلاغة–، كانت متفاوتةً في إسهامها في درس إعجاز القرآن الكريم، ومع ذلك التباين، فإن لكل مجال أهمية خاصة تليق به؛ **فكتبدلائل النبوة** كان موضوعها الأساس فيما يخصُّ إعجاز القرآن؛ الإشارة إلى أن القرآن الكريم كان ولا يزال أهم المعجزات التي جاءت به الرُّسل، بل هو أهمُّها على الإطلاق، ولهذا جُعل خاتمة المعجزات التي جاء بها النبيون من ربِّ العالمين، كما جُعل صاحبه خاتم الأنبياء & وأمّته خاتمة الأمم، وأما **كتب علم الكلام**، فإنها قد ظهرت كردَّةِ فعْلٍ لحملة الإلحاد والزندقة التي وقعت في الدِّين عموما، وفي القرآن على وجه الخصوص، مما عمل علماء الكلام على بيان معجزة القرآن الكريم، وإظهار وجوه إعجازه التي كان بها معجزاً، وأما **كتب البلاغة**، فقد كان أهمّ ما أمّته من قضايا الإعجاز الحديث عن بلاغة القرآن الكريم، التي لا تضاهيها بلاغة مهما كانت، وتحدثت عن نظم القرآن الكريم الذي باين جميع نظوم الكلام التي كانت قد عهدتها العرب قبل نزوله.

ثالثا: أن هذه المجالات الثلاثة، قد اتفق لها أن اشتركت في تحليل كثير من قضايا إعجاز القرآن الكريم البارزة، كبيان وجوه الإعجاز، والقدر المعجز من القرآن، والتحدي الواقع به ...، وقد كانت في تناولها متباينة في عمقها وقوتها، وكثرتها وقلتها، وذلك التباين كما وقع في المجالات الثلاث، فإنه يقع أحيانا في المجال نفسه، فالحديث عن الصَّرفة مثلا في

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

كتب الكلام أحظى منه في كتب الدلائل وكتب البلاغة، هذا على جهة الإجمال، وإلا فإن بعض كتب الكلام يقلُّ فيها الحديث عنها بالنسبة إلى بعض كتب الدلائل أو كتب البلاغة.

رابعا: أنَّ هذه المجالات العلمية الثلاث – دلائل النبوة- علم الكلام- البلاغة- على تباينتخصُّصاتها نجدها قد اشتركت في كثيرٍ من قضايا الإعجاز، مما يجعل تلك القضايا أصيلة في درس إعجاز القرآن الكريم، وبخاصة ما يتعلق بمصطلح الإعجاز، والوجوه التي كان بها القرآن الكريم معجزا، وجواب الإشكالات التي تثار حول القرآن الكريم.

خامسا: أن مساهمة هذه المجالات العلمية الثلاثة في العناية بمباحث إعجاز القرآن الكريم، تجلت في التنويه بقضية الإعجاز، والتأكيد على بحثها، وأنها من أولويات العلوم الشرعية، لأنها تدور حول البحث في الآية الخالدة والتي لا آية بعدها، كما تجلَّت في تخصيص مباحث خاصة عن الإعجاز تطول تارة وتقصر أخرى، ولكنها تكاد لا تُعدم منها.

وأما المقترحات والتوصيات:ثم إنه بعد هذه الدراسة ظهرت لي بعض المقترحات والتوصيات فهي ذي أُدلي بها للباحثين، عساها تجد من ينظر فيها، ويبحث من خلالها، ومن ذلكم:

أولا:أهمية النظر في بعض المظان التي عنيت بقضية إعجاز القرآن الكريم، التي لم يتمّ بحثها، ولم أدرجها في دراستي، لتكون مكملة لدراسة مظان الإعجاز كلها، وأهمها: كتب التفاسير، ومقدمات التفاسير، وكتب علوم القرآن، وكتب أصول الفقه في أثناء بحثها في دليل القرآن الكريم، وكتب النحو القديمة، وكتب شروح الحديث.

ثانيا:تتبع تاريخ بعض القضايا الإعجازية، وما لحقها من التحولات سواءً في المصطلح، أو فيالتاريخ أو بعض التراتيب العلمية من نشأة وتطور، ومدى أثرها في الدرس وتأثرها وتأثيرها فيه، كمثل بعض وجوه الإعجاز، وبعض المصطلحات.

ثالثا:السَّعيُ في استخراج مادةٍ تفسيريَّةٍ قرآنيةٍ كبيرة من تلكم المظانّ، وبخاصة كتب البلاغة منها، فإنها حوت مادة تفسيرية ليست بالقليلة، يمكن أن تكون مجموعا صالحا للبحث والدراسة، وأن تُجعل بعد ذلك أُنموذجا تطبيقيا يسير عليه من رام الكتابة في التفسير البلاغي.

رابعا:دراسة إعجاز القرآن عند بعض الأعلام، مثل الماوردي، فإن له في كتابه " أعلام النبوة" دراسة مستفيضة عن قضايا الإعجاز، يحسن إفرادها بالبحث، وكذلك يحي العلوي في كتابه الطراز، فإنه مليءٌ بالقضايا الإعجازية.

خامسا: كما أوصي في الختام بإنشاء فرقِ بحثٍ أو مراكزَ علميَّةٍ مُتخصِّصةٍ في رصْدِ قضايا الإعجاز – القديمة منها والحادثة-، ومعالجتها العلاج اللائق بمقامها السامق.

هذا والله وليُّ التوفيق.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

الفهـــــارس العامة

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

1- فهرس الآيات القرآنية[1].

الآية	السورة	رقم الآية	الصفحة
﴿ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾	البقرة	2	139
﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى ٱسْتَوْقَدَ نَارًا﴾	البقرة	17	405
﴿فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ﴾	البقرة	23	15- 43- 155- 182-230-364- 239- 322-
﴿فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا۟ وَلَن تَفْعَلُوا۟﴾	البقرة	24	36- 134-364
﴿فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا۟ قِرَدَةً خَٰسِـِٔينَ﴾	البقرة	65	260
﴿قُلْ إِن كَانَتْ لَكُمُ ٱلدَّارُ ٱلْـَٔاخِرَةُ﴾	البقرة	94	134-255
﴿وَلَن يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًۢا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ﴾	البقرة	95	134
﴿وَلَكُمْ فِى ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ﴾	البقرة	179	131- 386-387- 389-
﴿أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ ٱلصِّيَامِ﴾	البقرة	187	389
﴿وَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ فِىٓ أَيَّامٍ مَّعْدُودَٰتٍ﴾	البقرة	203	142
﴿تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ﴾	البقرة	253	161
﴿يَمْحَقُ ٱللَّهُ ٱلرِّبَوٰا۟ وَيُرْبِى ٱلصَّدَقَٰتِ﴾	البقرة	276	411
﴿فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ﴾	آل عمران	37	74
﴿فَقُلْ تَعَالَوْا۟ نَدْعُ أَبْنَآءَنَا وَأَبْنَآءَكُمْ﴾	آل عمران	61	255
﴿مِّلْءُ ٱلْأَرْضِ ذَهَبًا﴾	آل عمران	91	427
﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ﴾	آل عمران	159	392
﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى ٱلْغَيْبِ﴾	آل عمران	179	94

[1]– وقد قمت بفهرست الآيات وفق ترتيبها في المصحف الشريف.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

﴿إِذْ هَمَّت طَّآئِفَتَانِ مِنكُمْ أَن تَفْشَلَا﴾	آل عمران	122	136
﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ﴾	آل عمران	136-135	143
﴿اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا﴾	آل عمران	179	96
﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ﴾	النِّساء	23	324
﴿أَخْرِجْنَا مِنْ هَٰذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا﴾	النِّساء	75	426
﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللَّهِ﴾	النساء	82	271 -246-180
﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا﴾	النساء	93	142
﴿وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ﴾	النِّساء	114	427
﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَاقَهُمْ﴾	النِّساء	155	392
﴿رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ﴾	النساء	165	68
﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾	المائدة	3	262 -141
﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ﴾	المائدة	48	115
﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾	المائدة	50	261
﴿حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَأَصْبَحُوا خَاسِرِينَ ٥٣﴾	المائدة	53	388
﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ﴾	المائدة	67	159
﴿كَانَا يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ﴾	المائدة	75	436
﴿قَدْ ضَلُّوا مِن قَبْلُ وَأَضَلُّوا كَثِيرًا﴾	المائدة	77	199
﴿قَالُوا إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ﴾	الأعراف	126-125	260
﴿قَالُوا يَا مُوسَى اجْعَل لَّنَا إِلَٰهًا﴾	الأعراف	138	114-72
﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ﴾	الأعراف	157	155
﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا﴾	الأعراف	176-175	96
﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ﴾	الأعراف	199	-63
﴿مَّا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِن شَيْءٍ﴾	الأنعام	38	66
﴿وَكَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ﴾	الأنعام	105	232
﴿قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ﴾	الأنعام	149	70

﴿وَإِذْ يَعِدُكُمُ ٱللَّهُ إِحْدَى ٱلطَّآئِفَتَيْنِ﴾	الأنفال	7	136
﴿لَوْ نَشَآءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَٰذَآ﴾	الأنفال	31	117-240 -320-
﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ﴾	التوبة	6	257- 289
﴿ يُرِيدُونَ أَن يُطْفِـُٔواْ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ ﴾	التوبة	32	113-172- 180- -198
﴿لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ﴾	التوبة	33	254
﴿ إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَسْتَـْٔذِنُونَكَ ﴾	التوبة	93	400
﴿وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُواْ﴾	التوبة	118	-189
﴿ وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ نَّظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ﴾	التوبة	127	411
﴿ إِنَّمَا مَثَلُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ﴾	يونس	24	406
﴿قُلْ فَأْتُواْ بِسُورَةٍ مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُواْ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم﴾	يونس	38	43-63- 121- -287
﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ ﴾	يونس	96-97	117
﴿ أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُواْ مُؤْمِنِينَ ﴾	يونس	99	398
﴿قُلْ فَأْتُواْ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِۦ﴾	هود	13-14	43- 63-121- 154-230- 278- 239- 243- 364- 278- 329- 364- -388
﴿وَقِيلَ يَٰٓأَرْضُ ٱبْلَعِي مَآءَكِ وَيَٰسَمَآءُ أَقْلِعِي﴾	هود	44	44-365-388
﴿ ذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ ٱلنَّاسُ ﴾	هود	103	426
﴿ مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنْ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ ﴾	يوسف	31	396
﴿فَلَمَّا ٱسْتَيْـَٔسُواْ مِنْهُ خَلَصُواْ نَجِيًّا﴾	يوسف	80	63
﴿ وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ ﴾	يوسف	82	432
﴿ فَلَمَّآ أَن جَآءَ ٱلْبَشِيرُ أَلْقَىٰهُ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ فَٱرْتَدَّ بَصِيرًا﴾	يوسف	96	429
﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا﴾	يوسف	109	306
﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ﴾	الرعد	11	97

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

﴿ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾	الرعد	19	400
﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانًا سُيِّرَتْ بِهِ ٱلْجِبَالُ﴾	الرعد	31	399 -79
﴿ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ وَعَلَيْنَا ٱلْحِسَابُ ﴿٤٠﴾ ﴾	الرعد	40	400
﴿ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ﴾	إبراهيم	11	229 -94
﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾	الحجر	9	-148-147-99 -295 -171
﴿ فَٱصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾	الحجر	95-94	160
﴿يُنَزِّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ بِٱلرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِۦ﴾	النحل	2	54
﴿ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ ٱلسَّقْفُ مِن فَوْقِهِمْ ﴾	النحل	26	403-402
﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ﴾	النحل	68	122
﴿تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ﴾	النحل	89	66
﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ ﴾	النحل	90	124-82
﴿لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ﴾	النحل	103	231
﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا﴾	الإسراء	1	395-157
﴿ ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ إِنَّهُۥ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا ﴾	الإسراء	3	395
﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ﴾	الإسراء	9	139
﴿ وَإِذَآ أَرَدْنَآ أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا ﴾	الإسراء	16	432
﴿ أَفَأَصْفَٰكُمْ رَبُّكُم بِٱلْبَنِينَ ﴾	الإسراء	40	397
﴿وَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ﴾	الإسراء	45	163
﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى﴾	الإسراء	85	54
﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى﴾	الإسراء	59	86
﴿قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ﴾	الإسراء	88	- -59-43-10-9 -120-117 -63 -243 -230-184 -328-284 -250 -364 -362
﴿ وَبِٱلْحَقِّ أَنزَلْنَٰهُ وَبِٱلْحَقِّ نَزَلَ﴾	الإسراء	105	-400

﴿لَوِ اطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا﴾	الكهف	18	260
﴿وَاتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنْ كِتَابِ رَبِّكَ﴾	الكهف	27	147
﴿وَيَوْمَ نُسَيِّرُ الْجِبَالَ وَتَرَى الْأَرْضَ بَارِزَةً﴾	الكهف	47	260
﴿قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِكَلِمَاتِ رَبِّي﴾	الكهف	109	-66-54
﴿وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا﴾	مريم	4	435 -407-369
﴿قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ﴾	مريم	19	165
﴿قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ﴾	مريم	30	165
﴿لَعَلِّي آتِيكُمْ مِنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجِدُ عَلَى النَّارِ هُدًى﴾	طه	10	322
﴿يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَى﴾	طه	66	82
﴿قَالَ آمَنْتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ﴾	طه	71	82
﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا (110)﴾	طه	110	52
﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ﴾	طه	131	154
﴿وَهُمْ يَلْعَبُونَ (2) لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ﴾	الأنبياء	3-2	426
﴿بَلْ قَالُوا أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ﴾	الأنبياء	5	130
﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ﴾	الحج	2-1	260
﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ﴾	الحج	52	173-172
﴿يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ﴾	النُّور	37	411
﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ﴾	النور	55	254-189-188
﴿قُلْ أَنْزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾	الفرقان	6	139
﴿قَالُوا لَا ضَيْرَ إِنَّا إِلَى رَبِّنَا مُنْقَلِبُونَ﴾	الشعراء	51-50	2260
﴿فَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنِ اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْبَحْرَ﴾	الشعراء	63	260
﴿وَالشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ﴾	الشعراء	226-224	436 -318
﴿إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيرًا﴾	الشعراء	227	437
﴿إِنِّي آنَسْتُ نَارًا سَآتِيكُمْ مِنْهَا بِخَبَرٍ﴾	النمل	7	322
﴿فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ آيَاتُنَا مُبْصِرَةً قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾	النمل	14-13	113

جمعية الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

﴿ وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسۡتَيۡقَنَتۡهَآ أَنفُسُهُمۡ ﴾	النمل	14	82
﴿ قَالَ هَٰذَا مِن فَضۡلِ رَبِّي لِيَبۡلُوَنِيٓ ﴾	النمل	40	96
﴿ إِنَّ فِرۡعَوۡنَ عَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِ ﴿٤﴾ ﴾	القصص	4	387
﴿ وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسۡتُضۡعِفُواْ ﴿٥﴾ ﴾	القصص	5	388
﴿ وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ ﴾	القصص	7	-132-122
﴿ لَّعَلِّيٓ ءَاتِيكُم مِّنۡهَا بِخَبَرٍ أَوۡ جَذۡوَةٖ ﴾	القصص	29	323
﴿ وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلۡغَرۡبِيِّ إِذۡ قَضَيۡنَآ ﴾	القصص	46-44	134
﴿ قُلۡ فَأۡتُواْ بِكِتَٰبٖ مِّنۡ عِندِ ٱللَّهِ ﴾	القصص	49	43
﴿ وَمِن رَّحۡمَتِهِۦ جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ ﴾	القصص	73	436
﴿ مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ لَتَنُوٓأُ بِٱلۡعُصۡبَةِ أُوْلِي ٱلۡقُوَّةِ ﴾	القصص	76	435
﴿ إِنَّ ٱلَّذِي فَرَضَ عَلَيۡكَ ٱلۡقُرۡءَانَ ﴾	القصص	85	134
﴿ كَمَثَلِ ٱلۡعَنكَبُوتِ ٱتَّخَذَتۡ بَيۡتٗا ﴾	العنكبوت	41	405-256
﴿ وَتِلۡكَ ٱلۡأَمۡثَٰلُ نَضۡرِبُهَا لِلنَّاسِ ﴾	العنكبوت	43	406
﴿ وَمَا كُنتَ تَتۡلُواْ مِن قَبۡلِهِۦ مِن كِتَٰبٖ ﴾	العنكبوت	48	231-154
﴿ وَقَالُواْ لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡهِ ءَايَٰتٞ مِّن رَّبِّهِۦ ﴾	العنكبوت	51-50	-237-86-21 -289
﴿ الٓمٓ ﴿١﴾ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ﴾	الرُّوم	7-1	-255-138
﴿ فِطۡرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيۡهَا ﴾	الرُّوم	30	68
﴿ وَإِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِ ءَايَٰتُنَا وَلَّىٰ مُسۡتَكۡبِرٗا ﴾	لقمان	7	395
﴿ وَلَوۡ أَنَّمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ مِن شَجَرَةٍ أَقۡلَٰمٞ ﴾	لقمان	27	54
﴿ مَّا جَعَلَ ٱللَّهُ لِرَجُلٖ مِّن قَلۡبَيۡنِ فِي جَوۡفِهِۦ ﴾	الأحزاب	4	402
﴿ وَلَوۡ تَرَىٰٓ إِذۡ فَزِعُواْ فَلَا فَوۡتَ ﴾	سبأ	51	389
﴿ إِنَّمَا تُنذِرُ ٱلَّذِينَ يَخۡشَوۡنَ رَبَّهُم بِٱلۡغَيۡبِ ﴾	فاطر	18	401
﴿ فَهِيَ إِلَى ٱلۡأَذۡقَانِ فَهُم مُّقۡمَحُونَ ﴾	يس	8	236
﴿ وَجَعَلۡنَا مِنۢ بَيۡنِ أَيۡدِيهِمۡ سَدّٗا ﴾	يس	9	163
﴿ إِنَّمَآ أَمۡرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيۡـًٔا ﴾	يس	82	260

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

﴿ طَلْعُهَا كَأَنَّهُۥ رُءُوسُ ٱلشَّيَـٰطِينِ ﴿٦٥﴾ ﴾	الصافات	65	392
﴿ أَصْطَفَى ٱلْبَنَاتِ عَلَى ٱلْبَنِينَ ﴾	الصافات	154-153	397
﴿ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ ﴾	الزّمر	9	399-209
﴿ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ ﴾	الزّمر	23	246-150
﴿ وَٱلَّذِى جَآءَ بِٱلصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِۦٓ ﴾	الزّمر	33	294
﴿ وَسِيقَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ رَبَّهُمْ إِلَى ٱلْجَنَّةِ ﴾	الزّمر	73	399
﴿ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُتَكَلِّفِينَ ﴾	ص	86	65
﴿ إِن فِى صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَّا هُم بِبَـٰلِغِيهِ ﴾	غافر	56	87
﴿ هُوَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ﴾	غافر	68	399
: ﴿ كِتَـٰبٌ فُصِّلَتْ ءَايَـٰتُهُۥ ﴾	فصلت	3	408
﴿ فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴾	فصلت	4	257
﴿ فَإِنْ أَعْرَضُوا۟ فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَـٰعِقَةً ﴾	فصلت	13	257
﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَا تَسْمَعُوا۟ لِهَـٰذَا ٱلْقُرْءَانِ ﴾	فصلت	26	84
: ﴿ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ﴾	فصلت	34	389
﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِٱلذِّكْرِ لَمَّا جَآءَهُمْ ﴾	فصلت	42-41	256
﴿ لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَـٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ ﴾	فصلت	42	161
﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَـٰتِنَا فِى ٱلْـَٔافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ ﴾	فصلت	53	-85 -66
﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ﴾	الشّورى	11	222
﴿ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا ﴾	الشّورى	51	122
﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ﴾	الشّورى	52	54
﴿ أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ ﴾	الزّخرف	32	398
﴿ فَٱسْتَخَفَّ قَوْمَهُۥ فَأَطَاعُوهُ ﴾	الزّخرف	54	38
﴿ إِنَّا كَاشِفُوا۟ ٱلْعَذَابِ قَلِيلًا إِنَّكُمْ عَآئِدُونَ ﴾	الدّخان	15	411
﴿ وَقَالُوا۟ مَا هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ ﴾	الجاثية	24	299
﴿ وَلَوْ قَـٰتَلَكُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوَلَّوُا۟ ٱلْأَدْبَـٰرَ ﴾	الفتح	23-22	39

﴿لَّقَدْ صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ ٱلرُّءْيَا بِٱلْحَقِّ﴾	الفتح	27	254
﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ﴾	الفتح	28	124
﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَٰقِعٌ﴾	الطّور	8-7	257
﴿أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَّتَرَبَّصُ بِهِۦ رَيْبَ ٱلْمَنُونِ﴾	الطّور	30	129
﴿فَلْيَأْتُوا۟ بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِۦٓ﴾	الطّور	34	-287 -63 -42
﴿كَذَٰلِكَ مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ﴾	الذّاريات	53-52	82
﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ﴾	الذّاريات	56	68
﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ ﴿١٩﴾ وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰٓ ﴿٢٠﴾﴾	النّجم	20-19	172
﴿وَأَنَّهُۥ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَىٰ﴾	النّجم	44-43	399
﴿وَأَنَّهُۥ هُوَ أَغْنَىٰ وَأَقْنَىٰ ﴿٤٨﴾﴾	النّجم	48	399
﴿ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ﴾	القمر	5-1	-158-73
﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾	القمر	17	176-149
﴿سَيُهْزَمُ ٱلْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ﴾	القمر	45	254-134
﴿ٱلرَّحْمَٰنُ ﴿١﴾ عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ ﴿٢﴾﴾	الرحمن	4-1	365 -356
﴿نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَأَنسَىٰهُمْ أَنفُسَهُمْ﴾	الحشر	19	198
﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾	الصّف	6	73
﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ﴾	الصّف	9	172-113
﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا﴾	الطلاق	3-2	142-130
﴿وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلَٰلُهَا وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلًا﴾	الإنسان	14	130
﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ﴾	الملك	14	136
﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾	القلم	4	152
﴿فَهَلْ تَرَىٰ لَهُم مِّنۢ بَاقِيَةٍ﴾	الحاقة	8	74
﴿إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ﴾	القيامة	17	174
﴿قُلْ أُوحِىَ إِلَىَّ أَنَّهُ ٱسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ﴾	الجنُّ	1	184 -83
﴿وَأَنَّا لَمَسْنَا ٱلسَّمَآءَ فَوَجَدْنَٰهَا﴾	الجنُّ	9-8	74

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

﴿فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا﴾	الجنُّ	27-26	94
﴿ إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخْشَىٰهَا ﴾	النَّازعات	45	401
﴿ لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٍ ﴾	الانشقاق	19	435
﴿ أَوْ إِطْعَٰمٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ ﴾	البلد	14	427
﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَـَٔاوَىٰ﴾	الضُّحى	8-7-6	161
﴿فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا﴾	الشَّرح	6-5	325
﴿ وَإِنَّهُۥ لِحُبِّ ٱلْخَيْرِ لَشَدِيدٌ ﴾	العاديات	8	435
﴿ إِنَّآ أَعْطَيْنَٰكَ ﴾	الكوثر	1	168
﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ﴾	الكافرون	1	325
﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَٰبِ ٱلْفِيلِ﴾	الفيل	5-1	73
﴿ قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ﴾	الإخلاص	2-1	400

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

2- فهرس الأحاديث والآثار.

أولا: فهرست الأحاديث.

الرقم	طرف الحديث	صحابي الحديث	الصفحة
1	أعيذكما بكلمات الله	ابن عباس	432
2	ألا وأني لا أعلم	عاصم بن عمر بن قتادة	137
3	إنا أمة أمية	عبد الله بن عمر{	155
4	أنا سيد ولد آدم	عبد الله بن سلام>	165-162
5	إياكم وخَضْراء الدِمَن	أبو سعيد الخدري	**431-430**
6	أيام التشريق أيام أكل	عبد الله بن عباس	142
7	خير المال	سويد بن هبيرة	431
8	ذلك إبراهيم	أنس بن مالك>	162
9	عصيَّةُ عصت الله	عبد الله بن عباس {	411
10	فضل كلام الله	أبو هريرة	77
11	في سائمة الغنم	ثمامة بن عبد الله بن أنس	432
12	قل وروح القدس معك	البراء بن عازب >	383
13	لأنْ يمتلئَ جوفُ أحدِكم	عبد الله بن عمر {	383
14	اللهم حوالينا	أنس بن مالك>	152
15	اللهم سنين	أبو هريرة>	151
16	اللهم مزِّق ملكه	عبد الله بن عباس{	152
17	مَثَلُ المؤمن	أبو هريرة	431
18	من قتل نفسا معاهدة	أبو بكرة >	142
19	النَّاسُ كإبِلٍ مِئةٍ	عبد الله بن عمر {	**432-405**
20	هؤلاء النفر أشد	أنس بن مالك	437

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

21	ورُبَّ حَامِلِ فقهِ	زيد بن ثابت >	431
22	يا أيها الناس انصرفوا	عائشة<	159
23	يحمِلُ هذا العلمَ	إِبْرَاهِيمَ بْنِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ الْعُذْرِيِّ~	431

ثانيا: فهرست الآثار:

الرقم	طرف الأثر	صاحب الأثر	الصفحة
1	اقرأ عليَّ	عكرمة	82
2	بعث الله إلينا رسولا	أم سلمة	83
3	عرضت القرآن على	أبو ذر الغفاري	127
4	فإنهم كانوا أبرَّ	عبد الله بن مسعود	167
5	قد سمعت الشعر	الوليد بن المغيرة	124
6	كان خلقه القرآن	عائشة	194
7	لقيت رجلا بمكة	أبو ذر الغفاري	83
8	لم يبق من علامات النبوة	زيد بن سعنة	90
9	ليس هذا من كلام البشر	جابر بن عبد الله	127
10	ملائكة يحفظونه	عبد الله بن عباس	97

3- فهرس الأشعار.

الرقم	صدر البيت	القائل	البحر	القافية	الصفحة
01	أخذنا بأطراف الأحاديث بيننا	كثير عزة	الطويل	الأباطحُ	422
02	أسجنا وقيدا واشتياقا وغربة	منسوب لأحد شعراء الحماسة	الطويل	لكريمُ	390
03	ألا من مُهلك الفـــــــيل	مجهول	مجزوء الهزج	الفيل	128
04	أمْ مَن لُــــــحَيٍّ أضاعوا بعضَ أمرِهِمُ	أوس بن حجر	البسيط	دَلْدَالِ	91
05	إنَّ جَنْبِي عن الفِراشِ لنَابِ	معد يكرب	الخفيف	الظِّرابِ	92
06	بسطت رابعة الحبل لنا	سويد بن أبي كاهل	الرمل	اتّسع	342
07	**جاء النبيون بالآيات فانصرمت**	أحمدشوقي	البسيط	منصرمِ	69
08	حي الديار لم يعفها القدم	زهير بن أبي سُلمي	البسيط	والدّيَمُ	419
09	طحا بك قلبٌ في الحسان طروبُ	علقمة بن عبدة التميمي	الطويل	مشيبُ	341

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

10	عَجَباً لهُ! حِفْظُ العِنَانِ بأنْمُلٍ	أبو الطيب المتنبي	الكامل	عادا مَا	414
11	فغضَّ الطَّرفَ إنك من نمير	جرير	الوافر	كلابا	342
12	كأننا والماء من حولنا	مجهول القائل	السريع	ماءُ	58
13	لله درُّ عصابةٍ نادمتهم	حسَّان بن ثابت	الكامل	الأولِ	341
14	مازَال يهذِي بالمكارِمِ والعُلَى	أبو تمام	الكامل	محمومُ	420
15	نحن ركب ملجن في زي ناس	أبو الطيب التنبي	الخفيف	الجِمالِ	421
16	هل علمت وما استودعت مكتوم	علقمة بن عبدة التميمي	البسيط	مصرومُ	341
17	هلاّ سألت جموعَ كِنْـــ	امرؤ القيس	مجزوء الكامل	أينا	324
18	وإذا ما أردتُ كنتَ رِشاءً	أبو تمام	الخفيف	قليباَ	420
19	وشاعر أوقد الطبع الذكاء له	ابن الوردي	البسيط	إذكاءِ	58
20	وغداة ريح قد كشفت وقرة	لبيد بن ربيعة	الكامل	زمامها	422
21	وقرأ معلنا ليصدع قلبي	أبو نواس	الخفيف	السقيما	129
22	وكانت فَزارة تَصلى بنا		متقارب	فزارا	324

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

			ب		
23	ولكنْ قَذَاها كلُّ أشعَثَ نابئِ	الأخطل	الطويل	لا ندرِي	92
24	يا قَوْمِ مَن يَعْذِرُ من عَجْرَد	ابن بري	السريع	الدانق	153

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

4- فهرس الأعلام[1]:

الرقم	العَلَمُ المـُــــــــــــــــــترجمُ له	الصفحة
1	النظّام أبو إسحاق إبراهيم بن سيّار بن هانئ البصري	4
2	الجاحظ أبو عثمان عمرو بن بحر بن محبوب	5
3	الرمانيُّأبو الحسن علي بن عيسى	10
4	الخطابي أبو سليمان حمد بن محمد البُستي	12
5	الباقلاني أبوبكر محمد بن الطيّب	16
6	عبد الجبار بن أحمد بن عبد الجبار الأُسدبادي	20
7	عبد القاهر بن عبد الرحمن بن محمد الجرجاني	23
8	الشريف المرتضى، أبو طالب علي بن حسين بن القرشي	56
9	سطيح الكاهن الربيع بن ربيعة بن مسعود الأزدي	73
10	شق بن صعب بن يشكر البجلي الأنماري الأزدي الكاهن	73
11	بلعم بن باعورا	96
12	أبو حنيفة النُّعْمَانُ بْنُ ثَابِتٍ	207
13	أبو نصر الفارابيّ محمد بن محمد بن طرخان بن أوزلغ	207
14	أبو حامد الغَزَالي الطوسي محمد بن محمد بن محمد ،	208
15	ابن خلدون أبو زيد عبد الرحمن بن محمد بن محمد،	208
16	عبد الله بن النَّواحة	284
17	مهلهل بن ربيعة	343
18	المرقش الأكبر	343

[1]- اعتمدتُ في فهرس العلام الترتيب الألف بائي، ومقدما اسم الشُّهرة.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

19	المرقش الأصغر	343
20	أبو الحسن الأشعري علي بن إسماعيل بن إسحاق	356

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

5- فهرس الطوائف والفرق:

الرقم	الطائفة والفرقة	الصفحة
1	الأبيقوريون	212
2	الأشاعرة	223
3	البراهمة	211
4	البراهمة	211
5	الثنوية	234
6	الدُّهرية	299
7	الدياصينية	156
8	الرافضة	200
9	الربانيون	212
10	الرواقيون	212
11	الزرداشتيّة	299
12	الزيدية	224
13	السُّمنية	299
14	الشيعة	200
15	الصابئة	210
16	القراؤون	212
17	الماتريدية	221
18	المانوية	211
19	المجوس	211
20	المعتزلة	220

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

6- فهرس المصادر والمراجع:

- **القرآن الكريم، برواية حفص عن عاصم.**

✍ حرف الألف:

01- الإتقان في علوم القرآن، المؤلف: عبد الرحمن بن أبي بكر، جلال الدين السيوطي (المتوفى: 911هـ)، المحقق: محمد أبو الفضل إبراهيم، الناشر: الهيئة المصرية العامة للكتاب، الطبعة: 1394هـ/ 1974 م.

02- إثبات النبوة النبي @، لأبي الحسين أحمد بن الحسين بن هرون الهاروني الحسني الزيدي (المتوفى سنة: 421هـ)، تحقيق: خليل أحمد إبراهيم الحاج، المكتبة العلمية- بيروت- د ت ط.

03- إثبات نبوة النبي @، لأبي العباس ضياء الدين أحمد بن عمر الأندلسي القرطبي (المتوفى سنة: 656هـ)، تحقيق ودراسة: أحمد آيت بلعيد، دار الكتب العلمية – بيروت، د ت ط.

04- أحاديث في ذم الكلام وأهله انتخبها الإمام أبو الفضل المقرئ من رد أبي عبد الرحمن السلمي على أهل الكلام، المؤلف: أبو الفضل عبد الرحمن بن أحمد بن الحسن الرازي المقرىء، المحقق: الدكتور ناصر بن عبد الرحمن بن محمد الجديع، الناشر: دار أطلس للنشر والتوزيع، الطبعة: الأولى 1417 هـ - 1996 م.

05- الإحسان في تقريب صحيح ابن حبان، المؤلف: محمد بن حبان بن أحمد بن حبان بن معاذ بن مَعْبدَ، التميمي، أبو حاتم، الدارمي، البُستي (المتوفى: 354هـ)، ترتيب: الأمير علاء الدين علي بن بلبان الفارسي (المتوفى: 739 هـ)، حققه وخرج أحاديثه وعلق عليه: شعيب الأرنؤوط، الناشر: مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة: الأولى، 1408 هـ - 1988 م.

06- إحصاء العلوم، لأبي نصر الفارابي، قدّم له وشرحه وبوّبه: علي بوملحم، دار مكتبة الهلال، الطبعة الأولى: 1996م.

07- إحياء علوم الدين، المؤلف: أبو حامد محمد بن محمد الغزالي الطوسي (المتوفى: 505هـ)، الناشر: دار المعرفة – بيروت. د ت ط.

08- إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب = معجم الأدباء ، شهاب الدين أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله الحموي، المحقق: إحسان عباس، الناشر: دار الغرب الإسلامي، بيروت، الطبعة: الأولى، 1414 هـ - 1993 م.

09- إرشاد الثقات إلى اتفاق الشرائع على التوحيد والمعاد والنبوات، المؤلف: محمد بن علي بن محمد بن عبد الله الشوكاني اليمني (المتوفى: 1250هـ)، المحقق: جماعة من العلماء، بإشراف الناشر، الناشر: دار الكتب العلمية – لبنان، الطبعة: الأولى، 1404هـ - 1984م.

10- أسرار البلاغة، المؤلف: أبو بكر عبد القاهر بن عبد الرحمن بن محمد الفارسي الأصل، الجرجاني الدار (المتوفى: 471هـ)، قرأه وعلق عليه: محمود محمد شاكر، الناشر: مطبعة المدني بالقاهرة، دار المدني بجدة، الطبعة الأولى: 1412هـ-1991م.
11- الأسرار المرفوعة في الأخبار الموضوعة المعروف بالموضوعات الكبرى، نور الدين علي بن محمد بن سلطان المشهور بالملا علي القاري، سنة الولادة / سنة الوفاة 1014 هـ، تحقيق محمد الصباغ، الناشر دار الأمانة / مؤسسة الرسالة، بيروت، سنة النشر 1391 هـ - 1971م.
12- أسلوب القرآن الكريم بين الهداية والإعجاز البياني، لمحمد عمر باحاذق، دار المأمون للتراث، دمشق، الطبعة الأولى: 1414هـ/1994م.
13- الأسماء والصفات للبيهقي، المؤلف: أحمد بن الحسين بن علي بن موسى الخُسْرَوْجِردي الخراساني، أبو بكر البيهقي (المتوفى: 458هـ)، حققه وخرج أحاديثه وعلق عليه: عبد الله بن محمد الحاشدي، قدم له: فضيلة الشيخ مقبل بن هادي الوادعي، الناشر: مكتبة السوادي، جدة / المملكة العربية السعودية، الطبعة: الأولى، 1413 هـ - 1993 م.
14- الإصابة في تمييز الصحابة، المؤلف: أبو الفضل أحمد بن علي بن محمد بن أحمد بن حجر العسقلاني (المتوفى: 852هـ)، تحقيق: عادل أحمد عبد الموجود وعلى محمد معوض، الناشر: دار الكتب العلمية – بيروت، الطبعة: الأولى - 1415 هـ.
15- إظهار الحق، المؤلف: محمد رحمت الله بن خليل الرحمن الكيرانوي العثماني الهندي الحنفي، دراسة وتحقيق وتعليق : الدكتور محمد أحمد محمد عبد القادر خليل ملكاوي، الناشر: الرئاسة العامة لإدارات البحوث العلمية والإفتاء والدعوة والإرشاد – السعودية، الطبعة : الأولى، 1410 هـ - 1989 م (أول طبعة تصدر مقابلة على نسختي المؤلف الذهبيتين المخطوطة والمقروءة).
16- الإعجاز العلمي في القرآن الكريم، عبد السلام حمدان اللوح، آفاق للطبع والنّشر والتوزيع غزّة – فلسطين، الطبعة الثانية: 1422ه – 2002م.
17- إعجاز القرآن البياني ودلائل مصدره الرباني، لصلاح عبد الفتاح الخالدي، دار عمار، عمان – الأردن، الطبعة الأولى: 1421هـ -2000م.
18- إعجاز القرآن الكريم بين الإمام السيوطي والعلماء – دراسة نقدية مقارنة، محمد موسى الشريف، دار الأندلس الخضراء – جدة / المملكة العربية السعودية، الطبعة الثانية: 1422هـ- 2002م.
19- إعجاز القرآن بين المعتزلة والأشاعرة، د: منير سلطان، دار المعارف، مصر، الطبعة الثالثة: 1986.
20- إعجاز القرآن للباقلاني، أبو بكر الباقلاني محمد بن الطيب، المحقق: السيد أحمد صقر، الناشر: دار المعارف – مصر، الطبعة: الخامسة، 1997م.
21- إعجاز القرآن والبلاغة النبوية، مصطفى صادق الرافعي، دار التقوى للطبع والنشر والتوزيع، مصر، سنة الطبع، 1435هـ- 2014م.
22- إعجاز القرآن والبلاغة النبوية، مصطفى صادق الرافعي، دار الكتاب العربي، طبعة 1425 -2005 بيروت لبنان.

23- إعجاز في دراسات السابقين دراسة كاشفة لخصائص البلاغة العربية ومعاييرها، عبد الكريم الخطيب، الطبعة الأولى: 1974، دار الفكر العربي.
24- إعراب القرآن، المؤلف: أبو جعفر النَّحَّاس أحمد بن محمد بن إسماعيل بن يونس المرادي النحوي (المتوفى: 338هـ)، وضع حواشيه وعلق عليه: عبد المنعم خليل إبراهيم، الناشر: منشورات محمد علي بيضون، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة: الأولى، 1421 هـ.
25- أعلام النبوة، المؤلف: أبو الحسن علي بن محمد بن محمد بن حبيب البصري البغدادي، الشهير بالماوردي (المتوفى: 450هـ)، الناشر: دار ومكتبة الهلال – بيروت، الطبعة: الأول - 1409 هـ.
26- الأعلام، المؤلف: خير الدين بن محمود بن محمد ، الزركلي ، الناشر: دار العلم للملايين، بيروت -لبنان، الطبعة: الخامسة عشر - أيار / مايو 2002 م.
27- الأعمال الشعرية الكاملة "الشوقيات"، أحمد شوقي، دار العودة بيروت، الطبعة الأولــى: 1977م.
28- الأغاني، المؤلف : أبي الفرج الأصفهاني، تحقيق: سمير جابر الناشر: دار الفكر- بيروت، الطبعة الثانية، د ت ط.
29- إِكمَالُ المُعْلِمِ بفَوَائِدِ مُسْلِم، المؤلف: عياض بن موسى بن عياض بن عمرون اليحصبي، لسبتي، أبو الفضل (المتوفى: 544هـ)، المحقق: الدكتور يحْيَى إِسْمَاعِيل، الناشر: دار الوفاء للطباعة والنشر والتوزيع، مصر، الطبعة: الأولى، 1419 هـ - 1998 م.
30- أمثال الحديث المروية عن النبي @، المؤلف: أبو محمد الحسن بن عبد الرحمن بن خلاد الرامهرمزي الفارسي (المتوفى: 360هـ)، المحقق: أحمد عبد الفتاح تمام، الناشر: مؤسسة الكتب الثقافية – بيروت،الطبعة: الأولى، 1409هـ.
31- إنباه الرواة على أنباه النحاة، المؤلف: جمال الدين أبو الحسن علي بن يوسف القفطي، المحقق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار الفكر العربي - القاهرة، ومؤسسة الكتب الثقافية – بيروت، الطبعة: الأولى، 1406 هـ - 1982م.
32- الإنصاف فيما يجب اعتقاده ولا يجوز الجهل به، للقاضي أبي بكر الباقلاني، تحقيق وتعليق وتقديم: محمد زاهد بن الحسن الكوثري، المكتبة الأزهرية للتراث بمصر، الطبعة الثانية (1421هـ-2000م).
33- أنوار الربيع في أنواع البديع، المؤلف: صدر الدين المدني، علي بن أحمد بن محمد معصوم الحسني الحسيني، المعروف بعلي خان بن ميرزا أحمد، الشهير بابن معصوم (المتوفى: 1119هـ)، ققه ساكر هادي شكر، مطبعة النعمان، بالنجف، إيران، الطبعة الأولى: 1388- 1968م.
34- إيضاح في علوم البلاغة، المؤلف: محمد بن عبد الرحمن بن عمر، أبو المعالي، جلال الدين القزويني الشافعي، المعروف بخطيب دمشق (المتوفى: 739هـ)، المحقق: محمد عبد المنعم خفاجي، الناشر: دار الجيل – بيروت، الطبعة: الثالثة، د ت ط.

حرف الباء:

35- الباقلاني وكتابه إعجاز القرآن دراسة تحليلية نقدية، تأليف الدكتور عبد الرؤوف مخلوف، دار مكتبة الحياة بيروت، طبعة 1978م.
36- البداية والنهاية، المؤلف: أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي البصري ثم الدمشقي (المتوفى: 774هـ)، تحقيق: عبد الله بن عبد المحسن التركي، الناشر: دار هجر للطباعة والنشر والتوزيع والإعلان، الطبعة: الأولى، 1418 هـ - 1997 م، سنة النشر: 1424هـ / 2003م.
37- البدع والنهي عنها، المؤلف: أبو عبد الله محمد بن وضاح بن بزيع المرواني القرطبي (المتوفى: 286هـ)، تحقيق ودراسة: عمرو عبد المنعم سليم، الناشر: مكتبة ابن تيمية، القاهرة- مصر، مكتبة العلم، جدة – السعودية، الطبعة: الأولى، 1416 هـ
38- البرهان في علوم القرآن، المؤلف: أبو عبد الله بدر الدين محمد بن عبد الله بن بهادر الزركشي (المتوفى: 794هـ)، المحقق: محمد أبو الفضل إبراهيم، الناشر: دار إحياء الكتب العربية عيسى البابي الحلبي وشركائه، الطبعة: الأولى، 1376 هـ - 1957 م،.
39- البلاغة العالية علم المعاني، لعبد المتعال الصعيدي، الناشر: مكتبة الآداب – مصر، الطبعة الثانية، التاريخ: 1411هـ -1991م.

40- البلاغة العربية اسسها وعلومها وفنونها، المؤلف: الميداني، المؤلف: عبد الرحمن بن حسن حَبَنَّكَة الميداني الدمشقي (المتوفى: 1425هـ)، الناشر: دار القلم، دمشق، الدار الشامية، بيروت، الطبعة: الأولى، 1416 هـ - 1996 م.
41- البلاغة تطور وتاريخ، الدكتور: شوقي ضيف، دار المعارف/ القاهرة- مصر، الطبعة التاسعة: 1995م.
42- البلاغة والنقد: المصطلح والنشأة والتجديد، لمحمد كريم الكواز، مؤسسة الانتشار العربي، بيروت- لبنان، الطبعة الولى: 2006م.
43- البيان والتبيين، المؤلف: عمرو بن بحر بن محبوب الكناني بالولاء، الليثي، أبو عثمان، الشهير بالجاحظ المتوفى: 255هـ)، الناشر: دار ومكتبة الهلال، بيروت، عام النشر: 1423 هـ..

حرف التاء:

44- تاريخ الإسلام وَوَفيات المشاهير وَالأعلام، المؤلف: شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان بن قَايْماز الذهبي، المحقق: الدكتور بشار عوّاد معروف، الناشر: دار الغرب الإسلامي، بيروت /لبنان، الطبعة: الأولى، 2003 م.

45- تاريخ الرسل والملوك، وصلة تاريخ الطبري، المؤلف: محمد بن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب الآملي، أبو جعفر الطبري (المتوفى: 310هـ)، (صلة تاريخ الطبري لعريب بن سعد القرطبي، المتوفى: 369هـ)، الناشر: دار التراث – بيروت، الطبعة: الثانية - 1387 هـ.

46- تاريخ العلماء النحويين من البصريين والكوفيين وغيرهم، أبو المحاسن المفضل بن محمد بن مسعر التنوخي المعري، تحقيق: الدكتور عبد الفتاح محمد الحلو، الناشر: هجر للطباعة والنشر والتوزيع والإعلان، القاهرة، الطبعة: الثانية 1412هـ - 1992م.
47- تأويل مشكل القرآن، المؤلف: أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري (المتوفى: 276هـ)، المحقق: إبراهيم شمس الدين، الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان، د ت ط.
48- تبيين كذب المفتري فيما نسب إلى الإمام أبي الحسن الأشعري، المؤلف: ثقة الدين، أبو القاسم علي بن الحسن بن هبة الله المعروف بابن عساكر، الناشر: دار الكتاب العربي – بيروت، الطبعة: الثالثة، 1404هـ.
49- تثبيت دلائل النبوة، المؤلف: القاضى عبد الجبار بن أحمد بن عبد الجبار الهمذاني الأسد أبادي، أبو الحسين المعتزلي (المتوفى: 415هـ)، الناشر: دار المصطفى - شبرا- القاهرة، د ت ط.
50- تثبيت دلائل النبوة، المؤلف: القاضى عبد الجبار بن أحمد بن عبد الجبار الهمذاني الأسد أبادي، أبو الحسين المعتزلي (المتوفى: 415هـ)، الناشر: دار العربية للطباعة والنشر والتوزيع بيروت - لبنان، د ت ط.
51- تحرير التحبير في صناعة الشعر والنثر وبيان إعجاز القرآن، المؤلف: عبد العظيم بن الواحد بن ظافر ابن أبي الإصبع العدواني، البغدادي ثم المصري (المتوفى: 654هـ)، تقديم وتحقيق: الدكتور حفني محمد شرف، الناشر: الجمهورية العربية المتحدة - المجلس الأعلى للشئون الإسلامية - لجنة إحياء التراث الإسلامي، د ت ط.
52- التحرير والتنوير ـ الطبعة التونسية، المؤلف : الشيخ محمد الطاهر بن عاشور، دار النشر: دار سحنون للنشر والتوزيع - تونس - 1997 م.
53- تخجيل من حرف التوراة والإنجيل، تأليف: الإمام القاضي أبي البقاء صالح بن الحسين الجعفري الهاشمي (التوفي سنة: 668هـ)، دراسة وتحقيق: محمود عبد الرحمن قدح، مكتبة العبيكان – السعودية، د ت ط.
54- التعريفات الفقهية، المؤلف: محمد عميم الإحسان المجددي البركتي، الناشر: دار الكتب العلمية (إعادة صف للطبعة القديمة في باكستان 1407هـ - 1986م)، الطبعة: الأولى، 1424هـ - 2003م.
55- التعريفات، المؤلف: علي بن محمد بن علي الزين الشريف الجرجاني (المتوفى: 816هـ)، المحقق: ضبطه وصححه جماعة من العلماء بإشراف الناشر، الناشر: دار الكتب العلمية بيروت –لبنان، الطبعة: الأولى 1403هـ -1983م.
56- تفسير القرآن العظيم، المؤلف: أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي البصري ثم الدمشقي (المتوفى: 774هـ)، المحقق: سامي بن محمد سلامة، الناشر: دار طيبة للنشر والتوزيع، الطبعة: الثانية 1420هـ - 1999 م.
57- تمهيد الأوائل وتلخيص الدلائل، أبو بكر محمد بن الطيب بن جعفر بن القاسم أبو بكر الباقلاني، تحقيق : عماد الدين أحمد حيدر، ، الناشر : مؤسسة الكتب الثقافية- بيروت، الطبعة الأولى ، 1987.

58- التَّنويرُ شَرْحُ الجَامِع الصَّغِيرِ، المؤلف: محمد بن إسماعيل بن صلاح بن محمد الحسني، الكحلاني ثم الصنعاني، أبو إبراهيم، عز الدين، المعروف كأسلافه بالأمير ، المحقق: د. محمَّد إسحاق محمَّد إبراهيم، الناشر: مكتبة دار السلام، الرياض الطبعة: الأولى، 1432 هـ - 2011 م.
59- تهذيب الآثار وتفصيل الثابت عن رسول الله من الأخبار، لأبي جعفر محمد بن جرير بن يزيد الطبري، سنة الولادة 224هـ/ سنة الوفاة 310هـ، تحقيق محمود محمد شاكر، الناشر مطبعة المدني مكان النشر القاهرة، د ت ط.
60- التوضيح لشرح الجامع الصحيح، المؤلف: ابن الملقن سراج الدين أبو حفص عمر بن علي بن أحمد الشافعي المصري، المحقق: دار الفلاح للبحث العلمي وتحقيق التراث، الناشر: دار النوادر، دمشق – سوريا، الطبعة: الأولى، 1429 هـ - 2008 م.

حرف الثاء:

61- ثلاث رسائل في إعجاز القرآن الكريم، تأليف: الروماني والخطابي والجرجاني، حققها وعلق عليها محمد خلف الله و محمد زغلول إسلام، الطبعة الثالثة، دار المعارف بمصر 1976م.

حرف الجيم:

62- جامع البيان في تأويل القرآن، المؤلف: محمد بن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب الآملي، أبو جعفر الطبري (المتوفى: 310هـ)، المحقق: أحمد محمد شاكر، الناشر: مؤسسة الرسالة، الطبعة: الأولى، 1420 هـ - 2000 م.
63- الجامع الصحيح المختصر، المؤلف : محمد بن إسماعيل أبو عبدالله البخاري الجعفي، تحقيق: د. مصطفى ديب البغا الناشر : دار ابن كثير ، اليمامة – بيروت، الطبعة الثالثة ، 1407 هـ– 1987م،
64- الجامع الكبير في صناعة المنظوم من الكلام والمنثور، المؤلف: نصر الله بن محمد بن محمد بن عبد الكريم الشيباني، الجزري، أبو الفتح، ضياء الدين، المعروف بابن الأثير الكاتب (المتوفى: 637هـ)، المحقق: مصطفى جواد، الناشر: مطبعة المجمع العلمي، عام النشر: 1375هـ.
65- جامع بيان العلم وفضله، المؤلف: أبو عمر يوسف بن عبد الله بن محمد بن عبد البر بن عاصم النمري القرطبي (المتوفى: 463هـ)، تحقيق: أبي الأشبال الزهيري، الناشر: دار ابن الجوزي، المملكة العربية السعودية، الطبعة: الأولى، 1414 هـ - 1994 م.
66- الجامع لأحكام القرآن = تفسير القرطبي، المؤلف: أبو عبد الله محمد بن أحمد، بن أبي بكر بن فرح الأنصاري الخزرجي شمس الدين القرطبي (المتوفى: 671هـ)، تحقيق: أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش، الناشر: دار الكتب المصرية – القاهرة.

67- جهود علماء الغرب الإسلامي واتجاهاتهم في دراسات إعجاز القرآن (من القرن الخامس إلى القرن الثامن الهجري)، لحسن مسعود الطَّوير، دار ابن قتيبة دمشق- بيروت، الطبعة الأولى: 1430 ه- 2011م.
68- جواهر البلاغة في المعاني والبيان والبديع، المؤلف: أحمد بن إبراهيم بن مصطفى الهاشمي (المتوفى: 1362هـ)، ضبط وتدقيق وتوثيق: د. يوسف الصميلي، الناشر: المكتبة العصرية، بيروت، د ت ط.
69- الجواهر الحسان في تفسير القرآن، المؤلف: أبو زيد عبد الرحمن بن محمد بن مخلوف الثعالبي (المتوفى: 875هـ)، المحقق: الشيخ محمد علي معوض والشيخ عادل أحمد عبد الموجود، الناشر: دار إحياء التراث العربي – بيروت، الطبعة: الأولى - 1418 هـ.

حرف الحاء:

70- حلية الأولياء وطبقات الأصفياء، المؤلف: أبو نعيم أحمد بن عبد الله بن أحمد بن إسحاق بن موسى بن مهران الأصبهاني (المتوفى: 430هـ)، الناشر: السعادة - بجوار محافظة مصر، 1394هـ - 1974م.

71- الحيوان، المؤلف: عمرو بن بحر بن محبوب الكناني بالولاء، الليثي، أبو عثمان، الشهير بالجاحظ (المتوفى: 255هـ)، الناشر: دار الكتب العلمية – بيروت، الطبعة: الثانية، 1424 هـ.

حرف الخاء:

72- خزانة الأدب وغاية الأرب، المؤلف : تقي الدين أبي بكر علي بن عبد الله الحموي الأزراري، تحقيق : عصام شعيتو، الناشر : دار ومكتبة الهلال – بيروت، الطبعة الأولى ، 1987م.
73- خلاصة علم الكلام، تأليف الدكتور: عبد الهادي الفضيلي، دار المؤرخ العربي، بيروت لبنان، الطبعة الثانية: 1414هـ-1993م.
74- خلق أفعال العباد، المؤلف: محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة البخاري، أبو عبد الله (المتوفى: 256هـ)، المحقق: د. عبد الرحمن عميرة، الناشر: دار المعارف السعودية – الرياض، الطبعة الثانية د ت ط.

حرف الدال:

75- دراسات في علوم القرآن الكريم، المؤلف: أ. د. فهد بن عبد الرحمن بن سليمان الرومي، الناشر: حقوق الطبع محفوظة للمؤلف، د م ط، الطبعة: الثانية عشرة 1424هـ - 2003م.

76- دلائل الإعجاز في علم المعاني، المؤلف: أبو بكر عبد القاهر بن عبد الرحمن بن محمد الجرجاني، المحقق: محمود محمد شاكر أبو فهر، الناشر: مطبعة المدني بالقاهرة - دار المدني بجدة، الطبعة: الثالثة 1413هـ - 1992م.

77- دلائل النبوة، المؤلف: أبو نعيم أحمد بن عبد الله بن أحمد بن إسحاق بن موسى بن مهران الأصبهاني (المتوفى: 430هـ)، حققه: الدكتور محمد رواس قلعه جي، عبد البر عباس، الناشر: دار النفائس، بيروت، الطبعة: الثانية، 1406 هـ - 1986 م.

78- دلائل النبوة، المؤلف: أحمد بن الحسين بن علي بن موسى الخُسْرَوْجِردي الخراساني، أبو بكر البيهقي (المتوفى: 458هـ)، المحقق: د. عبد المعطي قلعجي، الناشر: دار الكتب العلمية، دار الريان للتراث / بيروت، الطبعة: الأولى - 1408 هـ - 1988 م.

79- دلائل النبوة، للحافظ أبي العباس جعفر بم محمد المستغفري، تحقيق وتخريج: أحمد بن فارس السلُّوم، دار النوادر – لبنان/ الكويت، الطبعة الأولى: 1431هـ-2010م.

80- الدولة والدين في إثبات نبوة محمد @، لعلي بن ربن الطبري، تحقيق عادل نويهض، دار الآفاق الجديدة، بيروت/ لبنان، الطبعة الأولى: 1393هـ – 1973م.

81- الديباج المذهب في معرفة أعيان علماء المذهب، المؤلف: إبراهيم بن علي بن محمد، ابن فرحون، برهان الدين اليعمري (المتوفى: 799هـ)، تحقيق وتعليق: الدكتور محمد الأحمدي أبو النور، الناشر: دار التراث للطبع والنشر، القاهرة، 1972م.

82- ديوان أبي الطيب أحمد بن الحسين المتنبي، ضبطه وعلّق حواشيه: المعلم بطرس البُستاني، طبع بالعمدة الأدبية، بيروت، بالمطبعة السورية سنة: 1276 هـ- 1860م.

83- ديوان أبي تمام بشرح الخطيب التبريزي، تحقيق محمد عبده عزَّام، دار المعارف القاهرة- مصر، الطبعة الرابعة: 1983م.

84- ديوان حسان بن ثابت، شرحه وكتب هوامشه وقدَّم له الأستاذ: عبد أمهنا، دار الكتب العلمية بيروت، لبنان، الطبعة الثانية: 1414ه- 1994م.

85- ديوان سويد بن أبي كاهل اليشكري، جمع وتحقيق: شاكر العاشور، مراجعة: محمد جبار المعيبد، الناشر: وزارة الإعلام - العراق - الطبعة الأولى – 1972م.

86- ديوان كُثيّر عزة، جمعه وشرحه - د. إحسان عباس، دار الثقافة – بيروت - لبنان، طبعة: 1391 هـ- 1971م.

87- ديوان لبيد بن أبي ربيعة، اعتنى به خمدوطمّاس، دار المعرفة بيروت- لبنان، الطبعة الأولى: 1425- 2004م.

حرف الذال:

88- الذخيرة في علم الكلام، تأليف: علي بن الحسين بن موسى الشريف المرتضى، مؤسسة التاريخ العربي، بيروت لبنان، الطبعة الأولى: 1433هـ، 2012م.

89- ذم الكلام وأهله، المؤلف: أبو إسماعيل عبد الله بن محمد بن علي الأنصاري الهروي، المحقق: عبد الرحمن عبد العزيز الشبل، الناشر: مكتبة العلوم والحكم - المدينة المنورة، الطبعة: الأولى، 1418هـ -1998م.

حرف الراء:

90- الرد على الجهمية، المؤلف: أبو سعيد عثمان بن سعيد بن خالد بن سعيد الدارمي السجستاني (المتوفى: 280هـ)، المحقق: بدر بن عبد الله البدر، الناشر: دار ابن الأثير – الكويت، الطبعة: الثانية، 1416هـ - 1995م.
91- الردُّ على المنطقيين، لابن تيميّة، تحقيق: عبد الصمد شرف الدين الكتبي، راجعه: محمد طلحة بلال منيار، مؤسسة الريان- بيروت، الطبعة الأولى: 1426ه- 2005م.
92- رسالة استحسان الخوض في علم الكلام، لأبي الحسن بن اسماعيل الأشعري الشافعي، راجعها: محمد الوليّ الأشعري، دار المشاريع بيروت لبنان، الطبعة الأولى: 1415هـ-1995م.
93- الرسالة العذراء، لإبراهيم ابن المدبر، صححها وشرحها: الدكتور: زكي مبارك، الطبعة الثانية- القاهرة -مصر، 1350هـ- 1931م.
94- رسائل الجاحظ، تأليف: أبو عثمان الجاحظ، تحقيق عبد السلام هارون، مكتبة الجانجي، مصر، الطبعة الأولى:1399ه/1979م،.

95- روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، المؤلف: شهاب الدين محمود بن عبد الله الحسيني الألوسي (المتوفى: 1270هـ)، المحقق: علي عبد الباري عطية، الناشر: دار الكتب العلمية – بيروت، الطبعة: الأولى، 1415 هـ..

حرف السين:

96-سر الفصاحة، المؤلف: أبو محمد عبد الله بن محمد بن سعيد بن سنان الخفاجي الحلبي (المتوفى: 466هـ)، الناشر: دار الكتب العلمية، الطبعة: الطبعة الأولى 1402هـ_1982م.
97-السنن الكبرى وفي ذيله الجوهر النقي، المؤلف : أبو بكر أحمد بن الحسين بن علي البيهقي، مؤلف الجوهر النقي: علاء الدين علي بن عثمان المارديني الشهير بابن التركماني، الناشر : مجلس دائرة المعارف النظامية الكائنة في الهند ببلدة حيدر آباد، الطبعة : الطبعة : الأولى - 1344 هـ..
98-سنن ابن ماجه، المؤلف: ابن ماجة أبو عبد الله محمد بن يزيد القزويني، وماجة اسم أبيه يزيد (المتوفى: 273هـ)، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، الناشر: دار إحياء الكتب العربية - فيصل عيسى البابي الحلبي، د ت ط.

99- سنن أبي داود، المؤلف: أبو داود سليمان بن الأشعث بن إسحاق بن بشير بن شداد بن عمرو الأزدي السِّجِسْتاني (المتوفى: 275هـ)، المحقق: شعَيب الأرنؤوط - محَمَّد كامِل قره بللي، الناشر: دار الرسالة العالمية، الطبعة: الأولى، 1430 هـ - 2009 م.
100- سنن الترمذي، المؤلف: محمد بن عيسى بن سَوْرة بن موسى بن الضحاك، الترمذي، أبو عيسى (المتوفى: 279هـ)، المحقق: بشار عواد معروف، الناشر: دار الغرب الإسلامي – بيروت، سنة النشر: 1998 م.
101- سورة الكوثر الإعجاز النفسي والبلاغي، للباحثين: محمد رفعت زنجير، وعمر حمدان الكبيسي، نشر: دار اقرأ – دمشق، طبعة" 2010م.
102– سير أعلام النبلاء، المؤلف: شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان بن قَايْماز الذهبي (المتوفى: 748هـ)، الناشر: دار الحديث- القاهرة، الطبعة: 1427هـ-2006م.
103- السيرة النبوية في ضوء المصادر الأصلية، دراسة تحليلية، مهدي رزق الله أحمد، مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية، الرياض، المملكة العربية السعودية، الطبعة الأولى، 1412هـ-1992م.

حرف الشين:

104- شرح أدب الكاتب لابن قتيبة، المؤلف: موهوب بن أحمد بن محمد بن الخضر بن الحسن، أبو منصور ابن الجواليقي (المتوفى: 540هـ)، قَدَّمَ له: مصطفى صادق الرافعي، الناشر: دار الكتاب العربي، بيروت، د ت ط.
105- شرح الأصول الخمسة، للقاضي عبد الجبار بن أحمد الهمداني، حققه وقدم له: الدكتور: عبد الكريم عثمان، مكتبة وهبة – مصر-، الطبعة الثالثة: (1416هـ-1996م).
106- شرح الطيبي على مشكاة المصابيح المسمى بـ (الكاشف عن حقائق السنن)، المؤلف: شرف الدين الحسين بن عبد الله الطيبي، المحقق: د. عبد الحميد هنداوي، الناشر: مكتبة نزار مصطفى الباز (مكة المكرمة - الرياض)، عدد الأجزاء: 13 (12 ومجلد للفهارس) (في ترقيم مسلسل واحد)، الطبعة: الأولى، 1417 هـ - 1997 م.
107- شرح العقيدة الطحاوية، المؤلف: صدر الدين محمد بن علاء الدين عليّ بن محمد ابن أبي العز الحنفي، الأذرعي الصالحي الدمشقي (المتوفى: 792هـ)، تحقيق: أحمد شاكر، الناشر: وزارة الشؤون الإسلامية، والأوقاف والدعوة والإرشاد المملكة العربية السعودية، الطبعة: الأولى - 1418 هـ.
108- شرح المقاصد في علم الكلام، مسعود بن عمر بن عبد الله الشهير بسعد الدين التفتازاني، تحقيق وتعليق: الدكتور عبد الرحمن عميرة، تصدير: صالح موسى شرف، عالم الكتب، بيروت لبنان، الطبعة الثانية: 1419هـ- 1998م.
109- شرح المواقف للإيجي، الشريف علي بن محمد الجرجاني، ومعه حاشية السيالكوتي والحلبي، ضبطه وصححه: محمود عمر الدمياطي، دار الكتب العلمية، بيروت-لبنان، الطبعة الأولى 1419هـ/1998م.

110- شرح ديوان أبي تمام، للخطيب التبريزي، قدم له ووضع هوامشه: راجي الأسمر، دار الكتاب العربي بيروت، الطبعة الثانية: 1414-1994م.
111- شرح ديوان الحماسة، المؤلف: أبو على أحمد بن محمد بن الحسن المرزوقي الأصفهاني (المتوفى: 421 هـ)، المحقق: غريد الشيخ، وضع فهارسه العامة: إبراهيم شمس الدين، الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان، الطبعة: الأولى، 1424 هـ - 2003 م.
112- شرح ديوان علقمة الفحل، بقلم: السيد أحمد صقر، المطبعة المحمودية بالقاهرة، الطبعة الأولى: 1353هـ- 1935م.
113- الشريعة، المؤلف: أبو بكر محمد بن الحسين بن عبد الله الآجُرِّيُّ البغدادي (المتوفى: 360هـ)، المحقق: الدكتور عبد الله بن عمر بن سليمان الدميجي، الناشر: دار الوطن - الرياض / السعودية، الطبعة: الثانية، 1420 هـ - 1999 م.
114- شعب الإيمان، المؤلف: أحمد بن الحسين بن علي بن موسى الخُسْرَوْجِردي الخراساني، أبو بكر البيهقي ، حققه وراجع نصوصه وخرج أحاديثه: الدكتور عبد العلي عبد الحميد حامد، أشرف على تحقيقه وتخريج أحاديثه: مختار أحمد الندوي، صاحب الدار السلفية ببومباي –الهند،الناشر: مكتبةالرشدللنشروالتوزيعبالرياضبالتعاونمعالدارالسلفيةببومبايبالهند،الطبعة: الأولى، 1423 هـ - 2003 م.
115- الشفا بتعريف حقوق المصطفى - مذيلا بالحاشية المسماة مزيل الخفاء عن ألفاظ الشفاء، المؤلف: أبو الفضل القاضي عياض بن موسى اليحصبي، الحاشية: أحمد بن محمد بن محمد الشمني، الناشر: دار الفكر الطباعة والنشر والتوزيع، عام النشر: 1409 هـ- 1988 م.

حرف الصاد:

116- الصناعتين: الكتابة والشعر، المؤلف: أبو هلال الحسن بن عبد الله بن سهل بن سعيد بن يحيى بن مهران العسكري (المتوفى: نحو 395هـ)، المحقق: علي محمد البجاوي ومحمد أبو الفضل إبراهيم، الناشر: المكتبة العنصرية – بيروت، عام النشر: 1419 هـ..

حرف الطاء:

117- طبقات الشافعيين، أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير الدمشقي، تحقيق: د أحمد عمر هاشم، د محمد زينهم محمد عزب، الناشر: مكتبة الثقافة الدينية، تاريخ النشر: 1413 هـ - 1993 م.

118- طبقات الشافعية الكبرى، تاج الدين عبد الوهاب بن تقي الدين السبكي، المحقق: د. محمود محمد الطناحي د. عبد الفتاح محمد الحلو، هجر للطباعة والنشر والتوزيع، الطبعة: الثانية، 1413هـ..

119- الطراز، يحي بن حمزة بن علي العلوي اليمني، تحقيق: عبد الحميد هنداوي، المكتبة العصرية صيدا-بيروت، ط1: سنة 1423هـ/ 2002م.

حرف العين:

120-الاعتقاد والهداية إلى سبيل الرشاد على مذهب السلف وأصحاب الحديث، المؤلف: أحمد بن الحسين بن علي بن موسى الخُسْرَوْجِردي الخراساني، أبو بكر البيهقي، المحقق: أحمد عصام الكاتب، الناشر: دار الآفاق الجديدة – بيروت، الطبعة: الأولى، 1401هـ..
121- العقد الفريد، لأحمد بن محمد بن عبد ربه الأندلسي (المتوفى: 328هـ)، تحقيق مفيد محمد قميحة، دار الكتب العلمية بيروت- لبنان، الطبعة الأولى: 1404هـ/ 1983م.
122- العقيدة النظامية في الأركان الإسلامية، المؤلف: أبو المعالي عبد الملك بن عبد الله بن يوسف الجويني، تحقيق وتعليق: محمد زاهد الكوثري، المكتبة الأزهرية للتراث، مصر، طبعة: 1412هـ -1992م.
123- علوم القرآن وإعجازه وتاريخ توثيقه، عدنان محمد زرزور، دار الأعلام عمان /الأردن، الطبعة الأولى: 1426هـ-2005م.

124- العمدة في محاسن الشعر وآدابه، المؤلف: أبو على الحسن بن رشيق القيرواني الأزدي (المتوفى: 463 هـ)، المحقق: محمد محيي الدين عبد الحميد، الناشر: دار الجيل، الطبعة: الخامسة، 1401 هـ - 1981 م
125- عناية المسلمين بإبراز وجوه الإعجاز في القرآن الكريم، المؤلف: محمد السيد جبريل، الناشر: مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف بالمدينة المنورة، سنة النشر: 1421هـ..

حرف الفاء:

126- فتح الباري شرح صحيح البخاري، المؤلف: أحمد بن علي بن حجر أبو الفضل العسقلاني الشافعي، رقم كتبه وأبوابه وأحاديثه: محمد فؤاد عبد الباقي قام بإخراجه وصححه وأشرف على طبعه: محب الدين الخطيب، عليه تعليقات العلامة: عبد العزيز بن عبد الله بن باز، الناشر: دار المعرفة - بيروت، عام: 1379هـ.
127- فتح القدير، المؤلف: محمد بن علي بن محمد بن عبد الله الشوكاني اليمني (المتوفى: 1250هـ)، الناشر: دار ابن كثير، دار الكلم الطيب - دمشق، بيروت، الطبعة: الأولى - 1414 هـ..

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

128- الفرق الكلامية الإسلامية مدخل ودراسة، الدكتور: علي عبد الفتّاح المغربي، مكتبة وهبة القاهرة / مصر، الطبعة الثانية: 1415 ه – 1995م.
129- الفرق بين الفرق وبيان الفرقة الناجية، المؤلف: عبد القاهر بن طاهر بن محمد بن عبد الله البغدادي التميمي الأسفراييني، أبو منصور (المتوفى: 429هـ)، الناشر: دار الآفاق الجديدة – بيروت، الطبعة: الثانية، 1977م.
130- الفصل في الملل والأهواء والنحل، المؤلف: أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد بن حزم الأندلسي القرطبي الظاهري (المتوفى: 456هـ)، الناشر: مكتبة الخانجي – القاهرة.
131- فضائل الأوقات، المؤلف: أحمد بن الحسين بن علي بن موسى الخُسْرَوْجِردي الخراساني، أبو بكر البيهقي (المتوفى: 458هـ)، المحقق: عدنان عبد الرحمن مجيد القيسي، الناشر: مكتبة المنارة - مكة المكرمة، الطبعة: الأولى، 1410 هـ.
132- الفقه الأكبر (مطبوع مع الشرح الميسر على الفقهين الأبسط والأكبر المنسوبين لأبي حنيفة تأليف محمد بن عبد الرحمن الخميس)، المؤلف: ينسب لأبي حنيفة النعمان بن ثابت بن زوطي بن ماه (المتوفى: 150هـ)، الناشر: مكتبة الفرقان - الإمارات العربية، الطبعة: الأولى، 1419هـ - 1999م.
133- فكرة إعجاز القرآن من البعثة النبوية إلى عصرنا الحاضر، المؤلف: نعيم الحمصي، الناشر: مؤسسة الرسالة، بيروت / لبنان، الطبعة الثانية، عام: 1400 هـ/ 1980م.
134- في ظلال القرآن، المؤلف: سيد قطب إبراهيم حسين الشاربي (المتوفى: 1385هـ)، الناشر: دار الشروق - بيروت- القاهرة، الطبعة: السابعة عشر - 1412 هـ.

حرف القاف:

135-الاقتصاد في الاعتقاد، المؤلف: أبو حامد محمد بن محمد الغزالي الطوسي، وضع حواشيه: عبد الله محمد الخليلي، الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان، الطبعة: الأولى، 1424 هـ - 2004 م.
136- قضية الشعر الجاهلي في كتاب ابن سلام، لمحمود محمد شاكر، شركة القدس للتصدير، الطبعة الثانية، 1435 هـ- 2014م.
137- قواعد المرام في علم الكلام، كمال الدين ميثم، بن علي بن ميثم البحراني (ت: 699هـ)، منشورات مكتبة آية الله العظمى المرعشي النجفي، تحقيق: السيد أحمد الحسيني، باهتمام: السيد محمود المرعشي، مطبعة الصدر، الطبعة الثانية: 1304هـ
138– القول بالصرفة في إعجاز القرآن –عرض ونقد-، تأليف، الدكتور عبد الرحمن بن معاضة الشهري، دار ابن الجوزي العربية السعودية، الطبعة الأولى: سنة 1432هـ.

حرف الكاف:

139- الكتاب، المؤلف: عمرو بن عثمان بن قنبر الحارثي بالولاء، أبو بشر، الملقب سيبويه (المتوفى: 180هـ)، المحقق: عبد السلام محمد هارون، الناشر: مكتبة الخانجي، القاهرة، الطبعة: الثالثة، 1408 هـ - 1988 م.

140- كتاب دلائل النبوة، المؤلف: إسماعيل بن محمد بن الفضل بن علي القرشي الطليحي التيمي الأصبهاني، أبو القاسم، الملقب بقوام السنة (المتوفى: 535هـ)، المحقق: محمد محمد الحداد، الناشر: دار طيبة – الرياض، الطبعة: الأولى، 1409ه.

141- الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل، المؤلف: أبو القاسم محمود بن عمرو بن أحمد الزمخشري جار الله (المتوفى: 538هـ)، الناشر: دار الكتاب العربي – بيروت، الطبعة: الثالثة - 1407 هـ.

142- كشف المشكل من حديث الصحيحين، المؤلف: جمال الدين أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد الجوزي (المتوفى: 597هـ)، المحقق: علي حسين البواب، الناشر: دار الوطن – الرياض، الطبعة الأولى: سنة النشر: 1418ه- 1997م.

143- الكشكول، المؤلف : الشيخ بهاء الدين محمد بن حسين العاملي، تحقيق : محمد عبد الكريم النمري، دار النشر : دار الكتب العلمية - بيروت / لبنان الطبعة : الأولى: - 1418هـ -1998م.

144- الكليات معجم في المصطلحات والفروق اللغوية، المؤلف: أيوب بن موسى الحسيني القريميالكفوي، أبو البقاء الحنفي، المحقق: عدنان درويش - محمد المصري، الناشر: مؤسسة الرسالة – بيروت، د ت ط.

145- كنز العمال في سنن الأقوال والأفعال، المؤلف : علاء الدين علي بن حسام الدين المتقي الهندي البرهان فوري (المتوفى : 975هـ)، المحقق : بكري حياني - صفوة السقا، الناشر : مؤسسة الرسالة، الطبعة : الطبعة الخامسة ،1401هـ/1981م.

حرف اللام:

146- لسان العرب، المؤلف: محمد بن مكرم بن على، أبو الفضل، جمال الدين ابن منظور الأنصاري الرويفعىالإفريقى (المتوفى: 711هـ)، الناشر: دار صادر – بيروت، الطبعة: الثالثة - 1414 هـ.

147- لسان الميزان، المؤلف: أبو الفضل أحمد بن علي بن حجر العسقلاني، المحقق: عبد الفتاح أبو غدة، الناشر: دار البشائر الإسلامية، الطبعة: الأولى، 2002 م.

148-اللطائف في اللغة = معجم أسماء الأشياء، المؤلف: أحمد بن مصطفى اللَّبَابِيدي الدمشقي، الناشر: دار الفضيلة – القاهرة. د ت ط.

حرف الميم:

149- المآخذ على شُرّاح ديوان أبي الطَّيب المُتَنَبِّي، المؤلف: أحمد بن علي بن معقل، أبو العباس، عز الدين الأزدي المُهَلَّبي (المتوفى: 644هـ)، المحقق: الدكتور عبد العزيز بن ناصر المانع

150- مباحث في إعجاز القرآن، تأليف: مصطفى مسلم، دار المسلم المملكة العربية السعودية، الطبعة الثانية :1416ه /1996م.

151- مباحث في البلاغة وإعجاز القرآن الكريم، لمحمد رفعت أحمد زنجير، طبعة جائزة دبي الدولية للقرآن الكريم، الطبعة الأولى: 1428 ه- 2007م.

152- المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، المؤلف: نصر الله بن محمد بن محمد بن عبد الكريم الشيباني، الجزري، أبو الفتح، ضياء الدين، المعروف بابن الأثير الكاتب (المتوفى: 637هـ)، المحقق: محمد محي الدين عبد الحميد، الناشر: المكتبة العصرية للطباعة والنشر – بيروت، عام النشر:1420 هـ..

153- مجالس التذكير من حديث البشير النذير، المؤلف: عبد الحميد محمد بن باديس الصنهاجي (المتوفى: 1359هـ)، الناشر: مطبوعات وزارة الشؤون الدينية، الطبعة: الأولى، 1403هـ - 1983م.

154- مجموع الفتاوى، تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحليم بن تيمية الحراني، المحقق: عبد الرحمن بن محمد بن قاسم، الناشر: مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، المدينة النبوية، المملكة العربية السعودية، عام النشر: 1416هـ/1995م.

155- محاضرات الأدباء ومحاورات الشعراء والبلغاء، المؤلف: أبو القاسم الحسين بن محمد المعروف بالراغب الأصفهانى (المتوفى: 502هـ)، الناشر: شركة دار الأرقم بن أبي الأرقم – بيروت، الطبعة: الأولى، 1420 هـ..

156- المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، المؤلف: أبو محمد عبد الحق بن غالب بن عبد الرحمن بن تمام بن عطية الأندلسي المحاربي (المتوفى: 542هـ)، المحقق: عبد السلام عبد الشافي محمد، الناشر: دار الكتب العلمية – بيروت، الطبعة: الأولى - 1422 هـ..

157- مختصر تاريخ دمشق لابن عساكر، المؤلف: محمد بن مكرم بن على، أبو الفضل، جمال الدين ابن منظور الانصاري الرويفعي الإفريقي (المتوفى: 711هـ)، المحقق: روحية النحاس، رياض عبد الحميد مراد، محمد مطيع، دار النشر: دار الفكر للطباعة والتوزيع والنشر، دمشق – سوريا، الطبعة: الأولى، 1402 هـ - 1984م.

158- مُخْتَصَر صَحِيحُ الإِمَامِ البُخَارِي، المؤلف: أبو عبد الرحمن محمد ناصر الدين، بن الحاج نوح بن نجاتي بن آدم، الأشقودري الألباني (المتوفى: 1420هـ)، الناشر: مكتَبة المَعارف للنَّشْر والتوزيع، الرياض، الطبعة: الأولى، 1422 هـ - 2002 م.

159- مداخل إعجاز القرآن، تأليف :أبو فهر محمود شاكر دار المدني بجدة، الطبعة الأولى 1423ه /2002 م.

160- المدخل إلى البلاغة العربية – علم المعاني - علم البيان - علم البديع، أ.د: يوسف أبو العدُّوس، دار المسيرة – عمان – الأردن، الطبعة الأولى: 1427هـ/ 2007م.
161-مدخل إلى دراسة علم الكلام، حسن محمود الشافعي، من منشورات إدارة القرآن والعلوم الإسلامية، باكستان، الطبعة الثانية: 1422هـ-2001م.
162- مدخل إلى علوم القرآن الكريم، المؤلف: محمد فاروق النبهان، دار عالم القرآن /حلب، سورية، الطبعة: الأولى، 1426 هـ - 2005 م.
163- المستدرك على الصحيحين، المؤلف : محمد بن عبدالله أبو عبدالله الحاكم النيسابوري، تحقيق: مصطفى عبد القادر عطا الناشر : دار الكتب العلمية – بيروت، الطبعة الأولى، 1411 – 1990،
164- مسند الإمام أحمد بن حنبل، المؤلف : أحمد بن حنبل، المحقق : شعيب الأرنؤوط وآخرون، الناشر : مؤسسة الرسالة، الطبعة : الثانية 1420هـ ، 1999م.
165- المسند الصحيح المختصر بنقل العدل عن العدل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، المؤلف: مسلم بن الحجاج أبو الحسن القشيري النيسابوري (المتوفى: 261هـ)، المحقق: محمد فؤاد عبد الباقي، الناشر: دار إحياء التراث العربي – بيروت، د ت ط.
166- مصادر السيرة النبوية وتقويمها، تأليف: فاروق حمادة، دار القلم دمشق/ سورية، د ت ط.
167- مصادر السيرة النبوية، ضيف الله بن يحي الزهراني، الناشر: مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف بالمدينة المنورة.، د ت ط.
168- مصادر تلقي السيرة النبوية، محمد أنور بن محمد علي البكري، الناشر : مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف بالمدينة المنورة، المملكة العربية السعودية، د ت ط.
169- المصطلح الأصولي عند الشاطبي، فريد الأنصاري، نشر: معهد الدراسات المصطلحية والمعهد العالي للفكر الإسلامي، المغرب، الطبعة الأولى: 1424ه-2004م.
170-المصطلح الأصولي ومشكلة المفاهيم، المؤلف: علي جمعة محمد عبد الوهاب (مفتي مصر)، الناشر: المعهد العالمي للفكر الإسلامي – القاهرة، الطبعة: الأولى - 1417 هـ - 1996 م.
171- المصطلحات الوافدة وأثرها على الهوية الإسلامية مع إشارة تحليلية لأبرز مصطلحات الحقيبة العولمية، الهيثم زعفان، مركز الرسالة للدراسات والبحوث الإنسانية، القاهرة مصر، الطبعة الأولى: 1430ه-2009م.
172- مطالع الأنوار على صحاح الآثار، المؤلف: إبراهيم بن يوسف بن أدهم الوهرانيالحمزي، أبو إسحاق ابن قرقول (المتوفى: 569هـ)، تحقيق: دار الفلاح للبحث العلمي وتحقيق التراث، الناشر: وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية - دولة قطر، الطبعة: الأولى، 1433 هـ - 2012 م.

173- معاني القرآن، المؤلف: أبو جعفر النحاس أحمد بن محمد (المتوفى: 338هـ)، المحقق: محمد علي الصابوني، الناشر: جامعة أم القرى - مكة المكرمة، الطبعة: الأولى، 1409هـ..
174- معترك الأقران في إعجاز القرآن، لأبي الفضل جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي، ضبطه وصححه: أحمد شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت لبنان، الطبعة الأولى: 1408-1988.
175- معجم أعلام المورد، موسوعة تراجم لأشهر الأعلام العرب والأجانب القدامى والمحدثين مستقاة من موسوعة المورد، تأليف: منير البعلبكي، دار العلم للملايين – بيروت، الطبعة الأولى: 1992م.
176- المعجم الفلسفي، مجمع اللغة العربية، تصدير: إبراهيم مدكور، الناشر: الهيئة العامة لشؤون الطباعة- القاهرة: 1403ه- 1983م.
177- المعجم الكبير، المؤلف : سليمان بن أحمد بن أيوب أبو القاسم الطبراني، تحقيق : حمدي بن عبدالمجيد السلفي، الناشر : مكتبة العلوم والحكم – الموصل، الطبعة الثانية ، 1404 هـ- 1983م.
178-المعجم لابن المقرئ، المؤلف: أبو بكر محمد بن إبراهيم بن علي بن عاصم بن زاذان الأصبهاني الخازن، المشهور بابن المقرئ (المتوفى: 381هـ)، تحقيق: أبي عبد الحمن عادل بن سعد، الناشر: مكتبة الرشد، الرياض، الطبعة: الأولى، 1419 هـ - 1998 م.
179- معجم مقاييس اللغة، المؤلف: أحمد بن فارس بن زكرياء القزويني الرازي، أبو الحسين (المتوفى: 395هـ)، المحقق: عبد السلام محمد هارون، الناشر: دار الفكر، عام النشر: 1399هـ - 1979م.
180- المُعْلم بفوائد مسلم، المؤلف: أبو عبد الله محمد بن علي بن عمر التَّمِيمي المازري المالكي، المحقق: فضيلة الشيخ محمد الشاذلي النيفر، الناشر: الدار التونسية للنشر، المؤسّسة الوطنية للكتاب بالجزائر، المؤسّسة الوطنية للترجمة والتحقيق والدّراسات بيت الحكمة، الطبعة: الثانية، 1988 م، والجزء الثالث صدر بتاريخ 1991م.

181- المغرب في ترتيب المعرب، المؤلف: ناصر بن عبد السيد أبى المكارم ابن على، أبو الفتح، برهان الدين الخوارزمي المُطَرِّزِىّ (المتوفى: 610هـ)، الناشر: دار الكتاب العربي، الطبعة: بدون طبعة وبدون تاريخ.
182- المغني في أبواب التوحيد والعدل، للقاضي أبي الحسن عبد الجبار الأسدبادي المعتزلي، الجزء السادس عشر: قوم نصوصه: أمين الخولي، الشركة العربية – مصر، 1380هـ.
183- مفاتيح الغيب = التفسير الكبير، المؤلف: أبو عبد الله محمد بن عمر بن الحسن بن الحسين التيمي الرازي الملقب بفخر الدين الرازي خطيب الري (المتوفى: 606هـ)، الناشر: دار إحياء التراث العربي – بيروت، الطبعة: الثالثة - 1420 هـ..
184- مفتاح العلوم، المؤلف: يوسف بن أبي بكر بن محمد بن علي السكاكي الخوارزمي الحنفي أبو يعقوب (المتوفى: 626هـ)، ضبطه وكتب هوامشه وعلق عليه:

نعيم زرزور، الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان، الطبعة: الثانية، 1407 هـ - 1987م.
185- المفضليات، للمفضل الضبي، تحقيق وشرح: أحمد محمد شاكر وعبد السلام هارون، دار المعارف، القاهرة، الطبعة السادسة: د ت ط.
186- ملحق الأغاني (أخبار أبي نواس)، أبو الفرج الأصبهاني، سنة الولادة 284هـ/ سنة الوفاة 356هـ، تحقيق علي مهنا وسمير جابر، الناشر دار الفكر للطباعة والنشر، مكان النشر لبنان، د ت ط.
187- الملل والنحل، المؤلف : محمد بن عبد الكريم بن أبي بكر أحمد الشهرستاني، تحقيق : محمد سيد كيلاني، الناشر : دار المعرفة - بيروت ، 1404هـ.
188- مناهج التحليل البلاغي عند علماء الإعجاز من الرماني إلى عبد القاهر الجرجاني، رسالة دكتوراه من إعداد الطالب: عبد الله عبد الرحمن بانقيب، إشراف الدكتور: محمد توفيق محمد سعد، بجامعة أم القرى بمكة المكرمة، كلية اللغة العربية، عام: 1428هـ- 1429هـ.
189- منتهى السؤُل على وسائل الوصول إلى شمائل الرسول @، لعبد الله بن سعيد بن محمد عبادي اللحجي (1344هـ- 1410هـ)، دار المنهاج – جدة – المملكة العربية السعودية، الطبعة الثالثة، عام: 1426هـ- 2005م.
190- المنقذ من الضلال، المؤلف: أبو حامد محمد بن محمد الغزالي الطوسي (المتوفى: 505هـ)
191- الموافقات، المؤلف: إبراهيم بن موسى بن محمد اللخمي الغرناطي الشهير بالشاطبي (المتوفى: 790هـ)، المحقق: أبو عبيدة مشهور بن حسن آل سلمان، الناشر: دار ابن عفان، الطبعة: الطبعة الأولى 1417هـ/ 1997م.
192- المواقف في علم الكلام، المواقف، المؤلف: عضد الدين عبد الرحمن بن أحمد الإيجي، تحقيق: د.عبد الرحمن عميرة الناشر : دار الجيل – بيروت، الطبعة الأولى ، 1997،
193- الموجز في تاريخ البلاغة، الدكتور: مازن المبارك، دار الفكر، د ت ط.
194- الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب والأحزاب المعاصرة، المؤلف: الندوة العالمية للشباب الإسلامي، إشراف وتخطيط ومراجعة: د. مانع بن حماد الجهني، الناشر: دار الندوة العالمية، الرياض- السعودية، الطبعة الخامسة: 1424هـ، 2003م.
195- الموضح عن جهة إعجاز القرآن – الصرفة، للشريف المرتضى علي بن الحسين الموسوي (توفي: 436هـ)، تحقيق: محمد رضا الأنصاري القمّي، مجمع البحوث الإسلامية، الطبعة الأولى: 1424 هـ.
196- موقف ابن تيمية من الأشاعرة، تأليف: عبد الرحمن بن صالح بن صالح المحمود، الناشر: مكتبة الرشد – الرياض، الطبعة: الأولى، 1415 هـ / 1995 م.

حرف النون:

197- النبوات، تـأليف: أحمد بن عبد الحليم بن تيمية الحرانـي أبو العباس، المطبعة السلفية - القاهرة، 1386هـ.

198- الانتصـار للقرآن، المؤلـف: محمد بن الطيب بن محمد بن جعفر بن القاسم، القاضي أبو بكر الباقلاني المالكي، تحقيق: د. محمد عصام القضاة، الناشر: دار الفتح - عَمَّان، دار ابن حزم – بيروت، الطبعة: الأولى 1422 هـ - 2001 م.

199- نظرات من الإعجاز البياني في القرآن الكريم –نظريا وتطبيقيا-، سامي محمد هشام حريز، دار الشروق عمان الأردن، الطبعة الأولى 2006.

200- النكت في إعجاز القرآن، مطبوع ضمن: ثلاث رسائل في إعجاز القرآن، المؤلف: علي بن عيسى بن علي بن عبد الله، أبو الحسن الرماني المعتزلي (المتوفى: 384هـ)، المحقق: محمد خلف الله، د. محمد زغلول سلام، الناشر: دار المعارف بمصر، الطبعة: الثالثة، 1976م.

201- نهاية الأرب في فنون الأدب، المؤلف : شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب النويري، تحقيق : مفيد قمحية وجماعة، دار النشر : دار الكتب العلمية - بيروت / لبنان ، الطبعة : الأولى: 1424 هـ - 2004 م.

202- نهاية الإيجاز في علم الإعجاز، لفخر الدين محمد بن عمر بن الحسين الرازي، (ت: 606 هـ)، حققه الدكتور: نصر الله حاجي مفتي أوغلى، الناشر: دار صادر، بيروت – لبنان، الطبعة الأولى: 1424 هـ - 2004م.

حرف الواو:

203- الوافي بالوفيات، صلاح الدين خليل بن ايبك الصفدي، تحقيق واعتناء: أحمد الأرناؤوط وتركي مصطفى، الناشر: دار إحياء التراث العربي بيروت –لبنان، الطبعة الأولى: 1420هـ/2000م.

204- وجوه التحدي والإعجاز في الأحرف المقطعة في أوائل السور، لفهد بن عبد الرحمن الرُّومي، مكتبة التوبة، السعودية، الطبعة الأولى: 1417هـ-1997م.

205- وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، المؤلف: أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد ابن خلكان، المحقق: إحسان عباس، الناشر: دار صادر – بيروت، (الطبعات الأولى كانت عام 1900م، وآخر الكتاب عام 1994م).

الرسائل الجامعية والدوريات:

01- إعجاز القرآن عند محمود شاكر – عرض وتحليل- رسالة ماجستير، إعداد: عبد المطلب بوغرارة، إشراف: رابح دوب، نوقشت عام 2012م بجامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية، قسنطينة –الجزائر.

02- مباحث الإعجاز البلاغي للقرآن في كتب دلائل النبوة حتى نهاية القرن الخامس الهجري دراسة وتقويما، رسالة ماجستير من إعداد الطالب: منصور بن عمر السحيباني، إشراف الأستاذ: محمد بن علي الصامل، جامعة الإمام سعود الإسلامية، كلية اللغة العربية، العام الجامعي: 1429ه- 1430ه.

03- ثنوية جذورها وتطورها وأثرها على الأديان والفرق الإسلامية وغير الإسلامية عرض ونقد، ماجستير للطالبة: عزيزة بنت حسن بن صالح كوشك، إشراف: عبد الله سمك، جامعة أم القرى، كلية الدعوة وأصول الدين، العام الجامعي: 1434ه- 1435ه

04- إعجاز القرآني في تشريع الحدود، رسالة ماجستير للطالبة: كائنات محمود جبريل عدوان، إشراف الدكتور: زكريا ابراهيم الزميلي، بالجامعة الإسلامية بغزّة- فلسطين، العام الجامعي: 1422ه – 2001م.

05- إعجاز التشريعي لآيات الحج في القرآن الكريم، رسالة ماجستير ، للطالب: أحمد محمد أحمد الكرنز، إشراف الدكتور: زكريا ابراهيم الزميلي، بجامعة غزة الإسلاميّة- فلسطين، العام الجامعي: 1428 ه – 2008م.

06- إعجاز التشريعي في علاج مشكلة الفقر من منظور قرآني"، للباحث: محمود هاشم محمود عنبر، إشراف الأستاذ: عبد السلام حمدان عودة اللوح، الجامعة الإسلامية بغزة- فلسطين، العام الجامعي: 2000م.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

المجلات العلمية:

001- المجلة الأردنية في الدراسات الإسلامية، العدد الثاني، عام: 1427 هـ- 2007م.
002- مجلة الرسالة، أصدرها: أحمد حسن الزيات باشا (المتوفى: 1388هـ)، العدد: 737.

المواقع الإلكترونية:

1- موقع أهل الحديث، ورابطه: : /www.ahlalhdeeth.com/vb
2- موقع الدرر السنية، ورابطه: /http://www.dorar.net
3- موقع: ملتقى اهل اللغة، ورابطه: ./www.ahlalloghah.com

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

6- فهرس الموضوعات.

شكر وتقدير.
مقدمة...
أ- ذ...

الفصل الأول: مداخل تأصيلية في علم إعجاز القرآن الكريم.........(2- 87)

المبحث الأول: مدخلٌ في تاريخ إعجاز القرآن الكريم
(30-3)..

المطلب الأول: البدايات الأولى لعلم إعجاز القرآن
الكريم...4
الفرع الأول: النظَّام أبو اسحاق ابراهيم بن
سيّار:..4
الفرع الثاني: الجاحظ أبو عثمان عمرو بن
بحر:..6
الفرع الثالث: أبو الحسن علي بن عيسى
الرمانيُّ:...10
الفرع الرابع: حمد بن محمد أبو سليمان الخطابي
البُستي:..13
المطلب الثاني: التأصيلات الفعلية لعلم إعجاز القرآن
الكريم...18
الفرع الأول: محمد بن الطيّب أبوبكر
الباقلاني:...18
الفرع الثانـــي: القاضي عبد الجبار بن أحمد الأُسد بادي
المعتزلي.............................**22**
الفرع الثالث: القاضي عبد القاهر بن عبد الرحمن
الجرجاني:..25
المبحث الثاني: مدخل في مصطلح
الإعجاز...(31- 47)
المطلب الأول: خطر التلاعب بالمصطلحات على حقيقة
العلوم..32
المطلب الثاني: نظرات في مصطلح "إعجاز القرآن
الكريم"...34
المطلب الثالث: مناقشة القيود في تعريف " المعجزة"..
37.................................

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

المبحث الثالث: مدخل في وجوه الإعجاز في القرآن الكريم..(48 - 67)
المطلب الأول: تأصيلٌ وتأسيس في وجوه الإعجاز...49
المطلب الثاني: القول بالصرفة في إعجاز القرآن الكريم:..55
المطلب الثالث: الإعجاز بالنظم في القرآن الكريم...**60**
المطلب الرابع: الإعجاز العلمي في القرآن الكريم...65
المبحث الرابع: الإعجاز في ضوء حديث:" مَا مِنَ الأَنْبِيَاءِ نَبِيٌّ إِلَّا أُعْطِيَ مَا مِثْلُهُ آمَنَ عَلَيْهِ .."......(68-87)
المطلب الأول: طبيعة آيات الأنبياء & 70
المطلب الثاني: الاعتراض على آيات الأنبياء & 82
المطلب االثالث: استمرارية معجزة القرآن إلى آخر الزمان..85

الفصل الثاني: إعجاز القرآن الكريم في كتب دلائل النبوة................................ (89-201)

المبحث الأول: تعريف بكتب دلائل النبوة، وبيان مصادرها والمؤلفات فيها....................................90

المطلب الأول: تعريف بكتب دلائل النبوة...91
المطلب الثاني: مصادر كتب دلائل النبوَّة...100
المطلب الثالث: المؤلفات في الدلائل 103
المبحث الثاني: علم إعجاز القرآن الكريم في كتب دلائل النبوة...111
المطلب الأول: مقدمات وممهدات..112
الفرع الأول: منزلة القرآن الكريم من بين سائر دلائل النبوة...113
الفرع الثاني: مناسبة آية كل نبي لقومه:...115

الفرع الثالث: شروط المعجزة في كتب دلائل النبوّة:..118
المطلب الثاني: وجوه إعجاز القرآن الكريم في كتب دلائل النبوة.............................123
الفرع الأول: الإعجاز بالنظم في كتب دلائل النبوة...124
الفرع الثاني: الإعجاز بالإخبار عن الغيوب في كتب دلائل النبوة.............................134
الفرع الثالث: الإعجاز العلمي في كتب دلائل النبوة.......................................139
الفرع الرابع: الإعجاز التشريعي في كتب دلائل النبوة......................................141
المطلب الثالث: قضايا إعجازية منوعة في كتب دلائل النبوة.................................144
الفرع الأول: الإعجاز بالصرفة في كتب دلائل الإعجاز:......................................144
الفرع الثاني: وجوه أخرى من الإعجاز والمعجزات في كتب دلائل النبوة:.......................145
القسم الأول: المعجزات المعنوية:...146
الفرع الثاني: المعجزات الحسيَّة...157
المبحث الثالث: تقويم علم الإعجاز من خــلال كتب دلائل النبوة.........................166
المطلب الأول: تقويم كتب دلائل النبوة من حيث العناية بالقرآن الكريم.......................167
المطلب الثاني: تقييم كتب دلائل النبوة من حيث العناية بإعجاز القرآن.......................179
المطلب الثالث: تقييم كتب دلائل النبوة من حيث المشاركة في باقي العلوم...................186
الفرع الأول: المشاركة في علم السير والمغازي.....................................186
الفرع الثاني: المشاركة في علم الشمائل المحمدية....................................191
الفرع الثالث: المشاركة في علم العقيدة:...198
الفصل الثالث: إعجاز القرآن الكريم في كتب علم الكلام.................(203- 331)

المبحث الأول: مدخل في: التعريف بعلم الكلام وأهمّ مدارسه...204
المطلب الأول: التعريف بعلم الكلام..205
المطلب الثاني: نشأة علم الكلام...208..
الفرع الأول: عوامل نشأة علم الكلام:..210
الفرع الثاني: مراحل نشأة علم الكلام:...215
الفرع الثالث: أهمُّ المدارس الكلامية:..220
الفرع الأول: المعتزلة..220
الفرع الثاني: الأشاعرة...223
الفرع الثالث: الزيدية...224
المبحث الثاني: درس إعجاز القرآن في كتب علم الكلام...227
المطلب الأول: مقدمات وممهدات..228.......
الفرع الأول: مناسبة آية كلٌّ نبي لقومه..228
الفرع الثاني: أمية النبي @..231.......
الفرع الثالث: بيان أن القرآن معجزة النبي @..233
الفرعُ الرابعُ: شروط المعجزة في كتب علم الكلام...237

المطلبُ الثانيُّ: وجوه إعجاز القرآن الكريم في كتب علم الكلام.........242
الفرع الأول: الإعجاز بالنظم في كتب علم الكلام.........243
الفرع الثاني: الإعجاز بالإخبار بالغيوب في كتب علم الكلام.........254
الفرع الثالث: الإعجاز التأثيري في كتب علم الكلام.........257
الفرع الرابع: الإعجاز التصويري في كتب علم الكلام.........259
الفرع الخامس: الإعجازُ التشريعيُّ فـي كتب علم الكلام.........261
المبحث الثالث: قضايا إعجازية مكملة في كتب علم الكلام.........264
المطلب الأول: وجوه متنوعة من الإعجاز والمعجزات في كتب علم الكلام.........265
الفرع الأول: المعجزات الحسية.........265
الفرع الثاني: المعجزات المعنوية.........267
المطلب الثاني: الصرفة في كتب علم الكلام.........279
المطلب الثالث: القدر المتحدى به من القرآن الكريم في كتب علم الكلام.........287
المطلب الرابع: هل التوراة والإنجيل فيهما إعجاز؟.........289
المبحث الثالث: تقويم درس الإعجاز في كتب علم الكلام.........293
المطلب الأول: تقييم كتب علم الكلام من حيث العناية بالقرآن الكريم.........294
الفرع الأول: الدفاع عن صدق النبي @.........295
الفرع الثاني: الدفاع عن القرآن الكريم.........298
الفرع الثالث: الردُّ على الملاحدة ومنكري النبوات.........298
المطلب الثاني: تقويم كتب علم الكلام من حيث العناية بإعجاز القرآن الكريم.........305

الفرع الأول: أهمية المعجزة القرآنية ومنزلتها..305
الفرع الثاني: البحث في النبي والمعجزة...306
الفرع الثالث: شروط المعجزة..307
الفرع الرابع: وجوه الإعجاز...309
المطلب الثالث: تقييم كتب علم الكلام من حيث المشاركة في باقي العلوم...............................315
الفرع الأول: علم الكلام وعلم النقد الأدبي...315
الفرع الثاني: علم الكلام والرد على الشبهات..320
الفصل الرابع: إعجاز القرآن الكريم في كتب البلاغة...........................(333-437)
المبحث الأول: موجزٌ في تاريخ البلاغة...334
المطلب الأول: تعريف البلاغة..335
الفرع الثاني: الأطوار التاريخية للبلاغة..338
الفرع الثالث: أهمُّ كتب البلاغة في القرون الخمسة الأولى..352
المبحث الثاني: إعجاز القرآن في كتب البلاغة..360
المطلب الأول: مقدمات وممهدات...361
الفرع الأول: مناسبة الآية للقوم...361

الفرع الثاني: شروط المعجزة في كتب لبلاغة..362
المطلب الثاني: وجوه الإعجاز في كتب البلاغة..366
الفرع الأول: الإعجاز بالنظم..366..........
الفرع الثاني: وجوه متنوعة من الإعجاز في كتب البلاغة...370
المطلب الثالث: قضايا تكميلية في إعجاز القرآن الكريم...374
الفرع الأول: القول بالصرفة عند البلاغيين...374
الفرع الثاني: العناية بالمزية في الكلام...378
الفرع الثالث: مكانة الذوق في إدراك الإعجاز..379
الفرع الرابع: العلاقة بين الشعر والإعجاز عند البلاغيين...381
المبحث الثالث: تقويم إعجاز القرآن في كتب البلاغة..385
المطلب الأول: العناية بالبلاغة القرآنية...386
الفرع الأول: الدفاع عن بلاغة القرآن...386
الفرع الثاني: تفاضل بلاغة القرآن..388.
الفرع الثالث: رد الشبهات عن بلاغة القرآن..390
المطلب الثاني: البلاغة القرآنية في كتب البلاغة..394
الفرع الأول: في مجال علم المعاني...394.....

الفرع الثاني: في مجال علم البيان...404
الفرع الثالث: في مجال البديع...408
المطلب الثالث: المشاركة في العلوم الأُخر...413
الفرع الأول: كتب البلاغة وعلم النقد...413
الفرع الثاني: البلاغة وعلم النحو...425.
الفرع الثالث: علم البلاغة وعلم تفسير القرآن...434
خاتمة...439
الفهارس العامة..442
فهرس الآيات القرآنية...443
فهرس الأحاديث والآثار...453
فهرس الأشعار..455
فهرس الأعلام..457
فهرس الفرق والطوائف...259
فهرس المصادر والمراجع...460
فهرس الموضوعات..488

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

ملخص البحث

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

هذه الأطروحةُ قامتْ بالكشْفِ على أهمِّ مصادر علمِ إعْجازِ القُرآن الكـــــــريم الأُولى الَّتي حاولتْ التأْسيسَ لهُ، وقدْ كانتْ دائِرةً حوْلَ ثلاثَةِ مَصادر مهمَّةٍ:

أمَّا المصْدرُ الأولُ؛ فهوَ كتب علمُ دلائلِ النُّبوَةِ ذلك العلمُ الَّذي ظَهرَ قرِيباً منْ عصْرِ تدْوينِ العُلومِ، وكانت العِنايةُ فيهِ بالإعْجازِ القُـــــــــــرْآني مُتجِهَةً إلى التدْليلِ لنُبوَّة النَّبي @، والتي كان القرآنُ الكريمُ أهمَّ دلائلها على الإطْلاق، لذلكَ نجدُ الحديثَ عنْهُ حديثًا أَصيلاً.

وأمَّا المصدرُ الثانيُّ؛ فهو كتب علمُ الكلامِ والذي لُجأَ إليه حيال الزندقة التي ظهرتْ بوادرُها وتفَاقمَ أمْرُها، إذْ قامتْ على التَّشْكيك في الدِّين والشَّرائِع، فاتَّجه عُلماء الكلام إلى صِيانَة أَساسِ الدِّين الَّذي هو القُرآن الكريمُ، فاجتهدُوا في حمايتِهِ بالتدْليلِ على تواتِـــــــــــر نقْله، وصِحَّة دلائِله، وبَيَّنوا الجِهات الَّتي كان بها القرآن معجزاً.

وأمَّا المصدرُ الأخيرُ؛ فهوَ كتب علْمُ البلاغةِ، وذلك أَنَّهُ لمـــــَّا استقرَّ عند أكثر العلماءِ أنَّ نظْم القُرآن وبيانَهُ من الوجوه الظَّاهرة التي كانَ بها القُرآن مُعجزاً، فأَخذ البلاغيُّونَ يدلِّلُونَ لذلكَ بالوقوفِ على آياتٍ قرآنيةٍ، وإظهار ما بلغت إليه من البيان والنَّظم المـــُعْجز.

ويُمكن تصْويرُ هذه المصادرِ الثلاثةِ المــُسْهمَةِ في بناءِ علم إعْجازِ القُرآن الكريم، بأَنَّ كُتب دلائِلِ النُّبوَّة كانت كالأساس للدَرْسِ إعْجاز القرآنِ الكريِم، إذْ قدَّمتْ الأدلة على إعجاز القرآن الكريم، وكانت كُتُبُ علمِ الكلاَمِ بمثابَةِ الكاشِف عنْ وجْهِ الاستدلالِ بذلكَ الدَّليل الــمُقدَّم منْ كتب دلائل النبوة، وأمَّا كتب البلاغة فكانت مرحلةً تطبيقيَّةً تمَّ منْ خِلالها إظهارُ بيان القرآن وفصاحته وتفوُقُهُ على كلِّ كلامٍ في نظْمِه، وقد أظهرت ذلك مع الشِّعر الذي اضمحلَّت بلاغتُهُ إلى بلاغة القرآن الكريم.

ملخص باللغة الفرنسية

((Résumé de la recherche:

Cette thèse nous divulgue les premières sources les plus importantes de la science de Ijaz Coran qui ont essayé l'incorporation à lui, était un cercle autour de trois sources importantes:

La première source: les écrits de la science des preuves de la prophétie , cette science, qui est apparu à proximité de l'ère de la codification de la science, et était un miracle de soins Coranique destiné à démontrer et à prouver la prophétie du Prophète Et que le Coran était la preuve la plus importante sans équivoque , donc nous trouvons à parler du Coran est une parole intégrale.

La deuxième source: les écrits de la théologie de la parole qui a fait défection à lui (Coran) au sujet de l'hérésie que les premiers signes sont apparus et l'aggravation du sens (Coran) Et semer les doutes dans la religion et les lois islamique, donc les savants de la parole se sont dirigés à maintenir la base de la religion, Bien sûr on parle du (Coran), Donc ils ont fait plus d'efforts à lutter pour la protection de la démonstration de la fréquence de transfert, et l'authenticité des sous-répertoires (preuves) Et ils nous ont montré les faces par lesquelles le Coran était miraculeux.

La dernière source, les écrits rhétorique(balagha) de sorte que ce qui était stable chez la plupart des savants que les systèmes du Coran a eu le dessus et miraculeux , donc Les savants du balagha ont commencer à prouver Et consolidé ceci avec des versets coraniques, et de démontrer ce qui équivalait à la déclaration et les systèmes miraculeux.

Il peut dépeindre ces trois sources qui a contribuer à la construction de la science miracle du Coran, que la preuve écrite de la prophétie était comme base pour les miracles de la leçon du Coran, Puisque elle a contribuer au preuves des miracles du Coran, et que l'écrit de la théologie (science de la parole) était Comme l'outil de découverte du face d'argumentation par cette preuve donné à partir des preuves des livres de prophétie, alors que la phase d'application de la rhétorique (science balagha) était une étape pratique , Et a travers elle On a pu démontrer l'éloquence du Coran et sa supériorité sur tous les paroles organisée, Et On a pu voir cela avec les poésies (poèmes) qui a été accablait son éloquence à l'éloquence du Coran.)).

ملخص باللغة الإنجليزية

((Summary of research:

This thesis we divulge the first most important sources of the science of Ijaz Koran that tried to incorporate it, was a circle around three important sources:
The first source: the writings of the science of evidence of prophecy, this science, which appeared near the era of the codification of science, and was a miracle of Qur'anic care intended to demonstrate and prove the prophecy of Prophet And that the Qur'an was the most important evidence unequivocally, so we find to speak of the Koran is an integral word.

The second source: the writings of the theology of the word that defected to him (Koran) about the heresy that the first signs appeared and the aggravation of meaning (Qur'an) and sow doubts in religion and Islamic laws, so the scholars of the word have been directed to maintain the basis of religion, Of course speaks of the (Qur'an), So they made more efforts to fight for the protection of the demonstration of the frequency of Transfer, and authenticity of the subdirectories (proofs) And They showed us the faces by which the Koran was miraculous.

The last source, the rhetorical writings (balagha) so that what was stable in most scholars that the systems of the Koran had the upper hand and miraculous, so the scholars of the balaghas have begun to prove And consolidated this with Qur'anic verses , And to demonstrate what was equivalent to the declaration and miraculous systems.

He can portray these three sources which contributed to the construction of the miracle science of the Koran, that written proof of prophecy was the basis for the miracles of the Qur'an lesson, since it contributed to the proofs of the miracles of the Koran, and That the writing of theology (science of the word) was like the tool of discovery of the face of argumentation by this proof given from the proofs of the books of prophecy, whereas the phase of the application of rhetoric Balagha) was a practical step, and through it One could demonstrate the eloquence of the Koran and its superiority over all the organized words, and One could see this with the poems (poems) that was overwhelming his eloquence to the " Eloquence of the Koran.))

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية